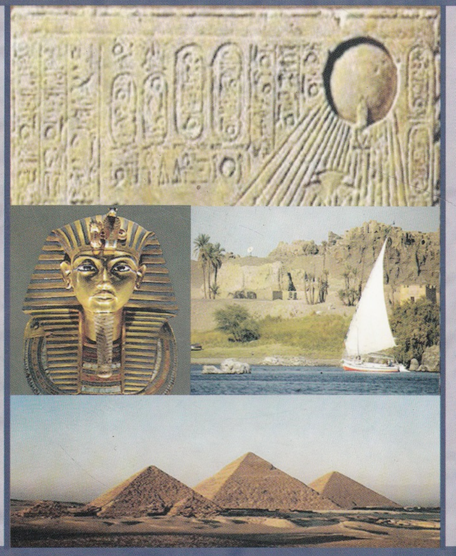


فجر الضمير

تأليف
جيمس هنرى برستد

ترجمة
الدكتور سليم حسن



مراجعة

الأستاذ عمر الاسكندرى

الأستاذ على أدهم

فجر الضمير

برستد، جيمس هنرى.

فجر الضمير/ تأليف: جيمس هنرى برستد؛ ترجمة: سليم حسن؛ مراجعة: عمر الإسكندرى، على أدهم. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،٢٠١١ .

٥٠٤ ص ؛٢٤ سم .

تدمك ٥ ٨٠٩ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨

أ ـ مصر القديمة ـ تاريخ.

أ ـ حسن، سليم (مترجم)

ب ـ الإسكندرى، عمر (مراجع)

ج ـ أدهم، على (مراجع مشارك)

رقم الإيداع بدار الكتب٤٩٣٠/ ٢٠١١

I. S. B. N 978 - 977 - 421 -809 - 5

ديوى٩٣٢



تأليف

جيمس هنرى برستد

ترجمة

الدكتور سليم حسن

مراجعة

الأستاذ عمر الإسكندرى و الأستاذ على أدهم



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠١١

هذه ترجمة لكتاب:

THE DAWN OF CONSCIENCE

تأليف

BREASTED

الإخراج الفنى : صبرى عبد الواحد

تصميم الغلاف : عزيزة أبو العلا

«نحن نظن أن شمس حضارتنا قد قاربت أن تبلغ غاية ارتفاعها، والحقيقة أننا ما زلنا منها إلى الآن فى أوان أذان الديك ووقت مطلع نجم الصباح ففى مجتمعنا الهمجى ما يزال نفوذ الأخلاق فى طفولته».

(عن «أمرسون» من مقال فى السياسة)

الصور الإيضاحية
من صفحة ٤٨٧ إلى صفحة ٥٠٣

(١٥) تكملة منظر الحساب: المتوفى المبرأ يقاد أمام مقعد أوزير للمحاسبة

(١٦) الملك توت عنخ آمون وزوجته الملكة فى حجرة من حجر القصر الملكى

(١٧) المعبد العظيم للإله آمون بالكرنك مأخوذ من الجو

(١٨) لوحات من العاج محفورة تمثل آلهة مصرية (من قصر ملوك العبرانيين) بمدينة السامرة

(١٩) تحت ظلال الجناحين

«يعترف بفضل الرجل الذى يتخذ العدالة نبراساً له، فينهج نهجها».

(من أقوال الوزير الأكبر «بتاح حتب» المنفى

الأصل فى القرن السابع والعشرين ق. م.)

«إن فضيلة الرجل المستقيم أحب (عند الله) من ثور الرجل الظالم» (أى من قربان الرجل الظالم).

(من النصيحة الموجهة للأمير «مريكارع» من والده فرعون

أهناسى الأصل عاش فى القرن الثالث والعشرين ق. م)

«إن العدالة خالدة الذكرى، فهى تنزل مع من يقيمها إلى القبر... ولكن اسمه لا يمحى من الأرض بل يذكر على مر السنين بسبب العدل».

(من قصة الفلاح الفصيح الأهناسى الذى عاش فى القرن الثالث والعشرين ق. م)

«إن فضيلة الرجل هى أثره، ولكن الرجل السيئ الذكر منسى».

(من شاهد قبر مصرى عاش قرابة القرن الثانى والعشرين ق. م)

«قد يفرح أهل زمان الإنسان وقد يعمل ابن الإنسان على تخليد اسمه أبد الآبدين... إن العدالة ستعود إلى مكانها والظلم ينفى من الأرض».

(من أقوال «نفررو هو» وهو نبى مصرى عاش حوالى عام ٢٠٠٠ ق.م)

«يا آمون أنت أيها الينبوع العذب الذى يروى الظمأ فى الصحراء. إنه لينبوع موصد لمن يتكلم ومفتوح لمن يتذرع بالصمت، فإنه حينما يأتى الصامت، تأمل! فإنه هنالك يجد الينبوع».

(عن حكيم مصرى قديم عاش قرابة ١٠٠٠ ق. م)

محتويات الكتاب

موضوع	صفحة

مقدمة المعرب

مثل الباحث فى تاريخ الحضارة المصرية القديمة، كمثل السائح الذى يجتاز مفازة مترامية الأطراف، يتخللها بعض وديان ذات عيون تتفجر المياه من خلالها، وتلك الوديان تقع على مسافات فى أرجاء تلك المفازة الشاسعة، ومن عيونها المتفجرة يطفئ ذلك السائح غلته ويتفيأ فى ظلال واديها؛ فهو يقطع الميل تلو الميل عدة أيام، ولا يصادف فى طريقه إلا الرمال القاحلة والصحارى المالحة، على أنه قد يعترضه الفينة بعد الفينة بعض الكلأ الذى تخلف عن جود السماء بمائها فى فترات متباعدة، وهكذا يسير هذا السائح ولا زاد معه ولا ماء إلا ما حمله من آخر عين غادرها، إلى أن يستقر به المطاف فى وادٍ خصيب آخر. وهناك ينعم مرة أخرى بالماء والزاد. وهذه هى حال المؤرخ نفسه الذى يؤلف تاريخ الحضارة المصرية القديمة. فالمصادر الأصلية لديه ضئيلة سقيمة جدًا لا تتصل حلقات حوادثها بعضها ببعض، فإذا أتيح له أن يعرف شيئًا عن ناحية من عصر معين من مجاهل ذلك التاريخ؛ فإن النواحى الأخرى لذلك العصر نفسه قد تستعصى عليه، وقد تكون أبوابها موصدة فى وجهه؛ لأن أخبار تلك النواحى قد اختفت إلى الأبد، أو لأن أسرارها ما تزال دفينة تحت تربة مصر لم يكشف عنها بعد.

فالمؤرخ فى مثل هذا الموقف الحرج، لا يجد مندوحة من أن يصول ويجول ويشفى غلته بما لديه من المعلومات عن الناحية المعروفة، ثم يمر مر الكرام

بالنواحى المجهولة له، وقد يستعين أحيانًا بما لديه من قوة الخيال، وما فطر عليه من تجارب على ملء ذلك الفراغ المقفر الذى يعترضه فى طريقه وهو فى ذلك لا يأمن شر العثار، وبخاصة إذا تغالى فى إرخاء العنان لخياله الخصب. ثم نرى هذا المؤرخ بعد التقدم فى سيره فى تلك الفجوة المقفرة، يستقر به المقام كرة أخرى فى وادٍ آخر تتفجر عيونه بالمعلومات الممتعة، فيتحفنا بها بقدر ما يجود به ماء ذلك الوادى، وهكذا يتابع المؤرخ السير من وادٍ خصيب إلى وادٍ غير ذى زرع، حتى يصل إلى نهاية المطاف.

على أنه عندما يتصفح مثل هذا المؤلف أحد المؤرخين المحدثين، أو الذين لم يجربوا الكتابة فى التاريخ القديم وما فيه من فجوات كبيرة، لا يسعه إلا أن يكيل اللوم جزافًا للمؤرخ القديم ويصب عليه جام انتقاداته، ويرميه بالتقصير فى بعض المواضيع وفى التطويل فى غيرها، وما شابه ذلك من الانتقادات التى يجب أن توجه بحق لمؤرخ التاريخ الحديث الذى لا عذر له فى التقصير عن إيفائها حقها.

والواقع أننا لا نبالغ إذا قررنا أن المؤرخ الذى يؤلف فى التاريخ القديم، يشبه من كان على سفر ليلاً فى مركبة بخارية تشق به المسافات الشاسعة فى ظلمة حالكة يتخللها بعض أقباس ضئيلة من النور هنا وهناك، إلى أن يصل المسافر إلى محط مضاء بالأنوار الساطعة، فيستيقظ على ضوئه ويرى ما حوله من أناس ومبانٍ وسلع، وبعد أن يقضى لحظة بها يتابع سيره ثانية فى ظلمة حالكة إلى أن يصل إلى محط آخر، وهكذا حتى يلقى عصا تطوافه. فهذه الظلمة هى مجاهل التاريخ القديم، وتلك المحاط هى المعلومات التى جاء بها الزمن، وأبقى عليها الدهر.

وخلاصة القول: إن المؤرخ فى التاريخ القديم، لا يستطيع أن يكتب كتابًا متصلة أفكاره بعضها ببعض تمام الاتصال فى تاريخ أى بلدة قديمة قد ضاعت معظم آثارها أو كانت ما تزال دفينة تحت تربتها لم يكشف عنها بعد. وتنحصر براعة المؤرخ الذى يتصدى لكتابة تاريخ دولة قديمة فى سعة اطلاعه وقوة خياله، وقدرته على استنباط الحوادث العظيمة وربطها بما لديه من المعلومات الضئيلة الهزيلة التى أبقت عليها يد الدهر. فهو بتلك المقدرة يمكنه أن يتغلب على

الفجوات التى تعترض سيره. ولست مبالغًا إذا قررت هنا أن خير كتاب أخرج للناس فى هذا العصر من ذلك الطراز هو كتاب: «فجر الضمير» الذى وضعه الأستاذ «برستد» فى عام ١٩٣٤، وهو فى الواقع مؤلف يدلل على أن مصر أصل حضارة العالم ومهدها الأول؛ بل فى مصر شعر الإنسان لأول مرة بنداء الضمير، فنشأ الضمير الإنسانى بمصر وترعرع، وبها تكونت الأخلاق النفسية. وقد أخذ الأستاذ «برستد» يعالج تطور هذا الموضوع منذ أقدم العهود الإنسانية، إلى أن انطفأ قبس الحضارة فى مصر حوالى عام ٥٢٥ قبل الميلاد. فمصر فى نظره حسب الوثائق التاريخية التى وصلتنا عن العالم القديم إلى الآن، هى مهد حضارة العالم؛ وعن هذه الحضارة أخذ العبرانيون، ونقل الأوروبيون عن العبرانيين حضارتهم، وبذلك يكون الأستاذ «برستد» قد هدم بكتابه الخالد هذا، النظريات الراسخة فى أذهان الكثيرين القائلة بأن الحضارة الأوروبية أخذت عن العبرانيين. على أن هذا الرأى ما يزال يعتقه بعض من لم يقرأ كتاب «برستد» إلى الآن، وكأن هذا الأثرى العظيم بكتابه هذا قد أظهر للعالم أجمع بأن المصدر الأصلى لكل حضارات الإنسانية، هى مصرنا العزيزة. لذلك يخيل إلى أن «مصطفى كامل» حينما قال: «لو لم أولد مصريا لوددت أن أكون مصريًا» كان يحس فى أعماق قلبه وفى دمه ما سيظهره الأستاذ «برستد» للعالم عما كان لمصر من السيادة المطلقة والقدم السابقة، فى تكوين ثقافة العالم، وفى وضع أسس الأخلاق وانبثاق فجر الضمير الذى شع على جميع العالم. ولا غرابة فى إحساس «مصطفى كامل» بهذا الشعور، وبتلك العزة القومية والعظمة النفسية التى عزز صدقها «برستد» عام ١٩٣٤ وهو العام الذى ظهر فيه كتابه «فجر الضمير»، فإن البلاد العريقة فى المجد كالشجرة المباركة الطيبة، تؤتى أكلها كل حين، وتنبت بين آونة وأخرى أفذاذًا تجرى فى دمائهم قوة العزة القومية والمجد التليد؛ فيشعرون بعظمة بلادهم، وما كان لها من تاريخ مجيد، فتنطلق ألسنتهم معبرة عن ذلك بالإلهام المحض.

والعظيم يقدر العظيم؛ فالأستاذ «برستد» قد شغف فى بادئ حياته بدرس تاريخ الشرق القديم عامة، ولكن لما اشتد ساعده مال بكل نفسه وروحه لدرس

تاريخ مصر وحضارتها، وأنفق فى سبيل الوصول إلى معرفة مكانة مصر بين دول العالم القديم ما يربى على ألف ألف جنيه، جمعها من رجالات أمريكا الذين يشجعون العلم والبحوث القديمة. وقد انتهى به البحث بعد درس حضارات الأمم الشرقية القديمة كلها؛ إلى أن مصر أصل مدنيات العالم، ومنبت نشوء الضمير، والبيئة الأولى التى نمت فيها الأخلاق، فهو إذًا رجل عظيم كشف عن ماضى أمة عظيمة.

ولعمرى قد قضى الأستاذ «برستد» بكتابه «فجر الضمير» على الخرافات والترهات التى كانت شائعة بين السواد الأعظم من علماء التاريخ القديم والحديث قضاء مبرمًا، ففريق منهم ظن أن الصين والهند ثم بلاد اليونان كانت مهد الحضارة العالمية وعنها أخذ العالم الحديث، والواقع أن مصر كما ذكرنا آنفا هى التى أخذ عنها العالم حضارته عن طريق فلسطين التى ليس لها فضل فى ذلك سوى أنها كانت نقطة الاتصال بين الحضارة الأوروبية والحضارة المصرية. على أن العبرانيين قد نقلوا الحضارة المصرية إلى أوروبا مشوهة بعض الشىء ثم صقلها الأوروبيون بطورهم حسب أمزجتهم وألبسوها ثوبًا جديدًا كل نسجه من خيوط المدنية المصرية. فما نراه الآن من روائع المؤلفات اليونانية القديمة، وما نسج على منواله الكتاب الأوروبيون قديمًا وحديثًا يرجع فى عنصره إلى أصل مصرى قديم. كل ذلك قد شرحه الأستاذ «برستد» شرحًا فياضًا مستفيضًا تدعمه الوثائق الأصلية القديمة مما لا يترك مجالاً لأى ناقد يفهم الحقائق على وجهها الصحيح ولا يتعصب إلى فريق دون فريق.

إن الذى يتصفح كتاب الأستاذ «برستد» وبخاصة الفصل الأول منه يلحظ لأول وهلة أنه يريد أن يلفت نظر العالم إلى أهمية ضرورة البحث والتنقيب عن تاريخ الشرق القديم ووضعه أمام أعين العالم وتدوينه بصورة واضحة، حتى يكون وسيلة لمعرفة أصل الحضارة الحديثة. وفى الحق قد أفلح الأستاذ «برستد» فلاحًا منقطع النظير بقدر ما وصلت إليه معلوماته فى تجديد الماضى القديم وجعله حيًا أمامنا يتكلم ويناقش، وسيجد القارئ أن الأستاذ هو أول من قسم تاريخ الإنسانية عصرين بارزين: الأول، عصر كفاح الإنسان مع المادة والقوى

الطبيعية والتغلب عليها نهائيًا، والعصر الثانى، هو عصر الكفاح بينه وبين نفسه الباطنة، وذلك حين أخذ ضميره يبزغ وأخلاقه تتكون، ويقدر «برستد» زمن كفاحه المادىّ بنحو مليون سنة، أما عصر بزوغ ضميره فقد بدأ يحس به منذ أن عرف كيف يدون أفكاره بالكتابة، ويقدر عمره بنحو ٥٠٠٠ سنة تقريبًا. ويعتقد الأستاذ «برستد» أننا لا نزال فى مستهل عصر تكوين أخلاقنا وأننا ما زلنا على أبواب مملكتها الشاسعة المترامية الأطراف التى لم نرد مجالها بعد، وأنه بيننا وبين الوصول إلى نهاية حدود تلك المملكة أهوال ومصاعب شاقة ربما استغرق التغلب عليها مئات الآلاف من السنين ويعنى بذلك الوقت الذى يصل الإنسان فيه إلى التحلى بالمثل العليا من الأخلاق ويقلع عن المادة وما يجلبه حب الاستحواذ عليها من المشاحنات والحروب والأحقاد التى يغلى مرجلها فى كل نواحى العالم ولا يزال يشتد غليانه الآن. ولعمرى إذا سما الإنسان إلى تلك المرتبة المنشودة، فإن أرضنا تكون الجنة التى وعد بها المتقون؛ ولكن أنى للإنسان أن يصل إلى تلك المرتبة، ونحن كلما تقدمنا خطوة نحو الأخلاق الفاضلة رجعناها ثانية، بل تقهقرنا إلى ما وراءها، وهل نحلم بأن ننتقل إلى تلك المنزلة العالية التى تلحقنا بالملائكة ونحن لا نزال نتفنن فى إجادة آلات القتل والفتك والتدمير؟ والواقع أن العالم الآن فى درك خلقى مشين ونشاط مادىّ قتال، وإن أخلاقنا تنجذب بقوة نحو المادة والوحشية حتى ارتمت فى أحضانهما، وسيبقى الحال كذلك إلى أن يتيح الله للعالم من يطفئ تغلغل نار المادة فى قلوب الشعوب، ويمطرنا من فيضه سيلاً من الأخلاق الفاضلة يسير بالعالم ويتقدم به فى مجاهل مملكة الأخلاق والضمير الحى إلى أن يصل به إلى الغاية المنشودة.

ولا أخال القارئ الكريم بعد هذه المقدمة الطويلة إلا قد فهم القصد الذى من أجله ترجمت كتاب الأستاذ «برستد» هذا، وفضلا عما بينت من مناقب هذا الكتاب فإنه لو رزقنى الله علم الأستاذ «برستد» وطول خبرته بدراسة أمم الشرق القديم عامة ودراسة آثار مصر خاصة لما كان فى وسعى أن أدون خيرًا من هذا الكتاب فى فصاحته وبيانه وانسجام عباراته وقوة منطقه وأخذه بتلابيب القارئ حتى ليجعل مجاهل التاريخ المصرى القديم المقفر من المعلومات كأنها رياض

وحدائق غناء لا تسأم النفس قراءته، ولا يمل النظر تصفح فصوله، وإذا قدر وكانت لى تلك الهبات العظيمة التى وهبها الله الأستاذ «برستد» فى إخراج كتابه بما فيه من فصاحة وبيان وحسن تعبير وعلم فياض فإنى قد أتهم بمحاباة بلادى ويكون كتابى لذلك موضع ريبة وشك عند جمهرة العلماء عامة ومن لا يميلون للمصرية أو يتنصلون منها خاصة، لأنه أتى على لسان من يحب بلاده فينسب إليها ما يرفع قدرها تعصبًا منه ومحاباة وإشادة بذكرها وتغاليًا فى إعلاء شأنها. ومن أجل ذلك اعتقدت فى قرارة نفسى أن أكبر خدمة أقدمها لوطنى العزيز أن أترجم كتاب «فجر الضمير» للأستاذ «برستد» إلى لغتنا العربية وأنا على علم بما سألاقيه من مشقة وجهد فى إبرازه فى ثوب عربى مقبول لا أخرج فيه عن الأصل الإنجليزى فى معناه وثوبه الفلسفى. وقد ساعدنى على حل غوامض بعض فقرات هذا الكتاب وجم غفير من تعبيراته العويصة الملغزة دراساتى المصرية القديمة التى بدونها ما استطعت أن أصل إلى ترجمة هذا الكتاب، ولا يفوتنى هنا أن ألفت النظر إلى أن القارئ الكريم إذا أراد أن يقرن بين الأصل الإنجليزى والترجمة العربية فإنه سيجد أحيانًا بعض الفوارق الدقيقة قد حتمتها الفروق بين التعبير فى اللغتين أو قد يكون منشؤها أن الأستاذ «برستد» يشير إلى حوادث وأشخاص تاريخية لا يفهم كنهها إلا من له دراية بالآثار المصرية خاصة والآثار الشرقية القديمة عامة، ولقد حرصت دائمًا على شرح تلك الأشياء الغامضة فى هوامش طويلة أوقصيرة حسب المقام.

وفى ختام هذه المقدمة أحب أن أذكر أن الأستاذ «برستد» قد قال فى مقدمة كتابه: «إنه يجب على نشء الجيل الحاضر أن يقرءوا هذا الكتاب الذى يبحث فى تاريخ نشأة الأخلاق بعد بزوغ فجر الضمير فى العالم المصري». لذلك رأيت أنه إذا كان المؤلف يحتم على شباب العالم الغربى أن يقرءوا هذا الكتاب فإنه يكون من ألزم الواجبات على كل مصرى مثقف أن يستوعب ما احتواه لأنه تاريخ نشأة الأخلاق فى بلاده التى أخذ عنها كل العالم.

وإنى أرجو فى النهاية أن أكون قد قمت ببعض ما يجب على نحو بلادى كما أرجو أنى يهتم كل مصرى يحترم نفسه ويقدر منزلة بلاده بقراءة هذا الكتاب لعل

فى ذلك باعثًا لإحياء الماضى المجيد الذى لا يزال العالم الغربى يرد مناهله ويسير على هداه منذ أقدم عهده حتى يومنا هذا دون أن يشعر أحد منا بذلك حتى أبرزه لنا الأستاذ «برستد» فى «فجر الضمير» أو كما أسميه «مصر أصل مدنيات العالم»؟

يناير ١٩٥٦

سليم حسن

تمهيد

لقد أصبح من الآراء العامة المؤسفة الشائعة بين أبناء الجيل الذى أعقب الحرب العالمية، أن الإنسان لم يتورع يومًا ما عن استعمال قوته الآلية المتزايدة فى الفتك بأبناء جنسه، وقد برهنت الحرب العالمية على إمكان وصول قدرة الإنسان الميكانيكية الهائلة على القيام بأعمال التخريب إلى حد مروع فليست هناك إذًا إلا قوة واحدة فى استطاعتها أن تقف فى وجه هذا التدمير: هى الضمير الإنسانى. وهو شئ اعتاد نشء الجيل الحديث أن يعده مجموعة محددة من الوساوس البالية. إذ كل فرد يعلم أن قوة الإنسان الآلية المدهشة ليست إلا نتاج تطور طويل ولكن لسنا كلنا ندرك أن هذه الحقيقة نفسها تنطبق كذلك على القوة الاجتماعية التى نسميها الضمير، مع التسليم بفارق واحد مهم بينهما وهو: أن الإنسان بصفته أقدم المخلوقات صنعًا للآلات، كان مجدًا فى صنع أسلحة فتاكة منذ نحو مليون سنة، فى حين أن الضمير لم يبرز فى شكل قوة اجتماعية إلا منذ مدة لا تزيد على خمسة آلاف سنة، أى أن أحد التطورين قد سبق الآخر بشوط بعيد؛ فأحدهما عتيق، والآخر وليد عهد قريب لا يزال أمامه ممكنات لا حصر لها. أليس فى مقدورنا أن نعمل بجد لإنماء هذا الضمير الحديث الميلاد؟ حتى يصير مظهرًا من مظاهر حسن النية، ويصبح من القوة بحيث يخمد أنفاس القوة

الوحشية الباقية فى نفوسنا؟ إن القيام بهذا الواجب يكون بالطبع أقل صعوبة بكثير مما عاناه أجدادنا المتوحشون فى هذا المضمار لأنهم خلقوا ضميرًا فى عالم لم يكن فيه أول الأمر أى شعور بالضمير.

إن أعظم ظاهرة أساسية فى تقدم حياة الإنسان هو نشوء المبادئ الخلقية وظهور عنصر «الأخلاق»، وهو تحول فى حياة الإنسان، يدلنا التاريخ على أنه وليد الأمس فقط، وقد يكون من الخير أن نعيد الإشادة بتلك القيم القديمة التى أصبحت فى زوايا الإهمال لاستخفافنا بها، وبخاصة فى هذا الوقت الذى أصبح فيه الجيل الحديث ينبذ الأخلاق الموروثة ظهريًا، ولكى نتمثل صورة حقة لقيمة الأخلاق الفاضلة وتأثيرها فى الحياة الإنسانية يجب أن نجتهد فى الكشف عن الطريقة التى وصل بها الإنسان للمرة الأولى إلى إدراك الأخلاق وتقدير قيمتها. فحينما نلقى بنظرنا إلى الوراء فى بداية وجود بنى البشر ينكشف لنا فى الحال أن الإنسان قد بدأ حياته متوحشًا مجردًا من الأخلاق، فكيف أصبح فى وقت ما صاحب وازع خلقى، وكيف خضع فى النهاية للوازع الخلقى عندما أحس به وتلقى وحيه؟ وكيف ينهض عالم خال من أى تصور للأخلاق إلى التمسك بالمثل الاجتماعية ويتعلم أن يستمع باحترام إلى الأصوات الباطنة المنبعثة من قرارة نفسه؟ وكيف أنه رغم الفوائد الظاهرة الملموسة التى تفيدها الفتوح المادية ظهر الجيل الأول من الناس مدركين القيم الباطنة التى لا ترى؟ ولماذا لا يكون من واجب شباب اليوم رجالاً ونساء أن ينبذوا المبادئ الأخلاقية الموروثة عن الماضى باعتبارها مبادئ، تلك المبادئ التى لا نعرف أى شىء عن أصها؟

فالوثائق القديمة التى تمدنا بالجواب على هذه الأسئلة، وتكشف لنا عن أصول مثلنا الوراثية، قد عرضناها فى هذا الكتاب مترجمة ومصحوبة بتعليقات وشروح تجعلها سهلة الفهم، إلى حد لا بأس به، والواقع أن هذه الوثائق تكشف لنا عن فجر الضمير ونشوء أقدم مثل للسلوك، وما نتج عن ذلك من ظهور عصر الأخلاق، وهو تطور لا تنحصر أهميته فى كونه خلابا لمن يتتبعه خطوة فخطوة، بل لأنه يعد فضلاً عن ذلك رؤيا جديدة للأمل فى مثل زماننا هذا. وبعض هذه المصادر القديمة عبارة عن قصص شرقية مشوقة قد تجعل القارئ يتنقل فى

أرجائها براحة وبهجة وغبطة. وبعضها الآخر مصادر لا يمكن تناولها ولاهضمها بسهولة. فإذا كان القارئ الناشئ الذى وضع هذا الكتاب من أجله خاصة يجد نفسه متعثرًا فى سيره فى تفهم هذه الأصول الأخيرة، ويجنح إلى التخلى عن متابعتها، فإنى أقترح عليه أن يقرأ على الأقل الخاتمة التى قصد بها أن تضع التقدم الإنسانى المدهش فى حالة الوحشية إلى عصر الأخلاق ـ كما يظهر فى هذا الكتاب ـ فى موضعه الصحيح وعلى أساسه التاريخى المناسب.

لقد حفظت فى طفولتى مثل إخوانى من الصبية «الوصايا العشر»، وعلمت أن أحترمها لأنه أكد لى أنها أنزلت من السماوات على «موسى»، وأن اتباعها كان من أجل ذلك لزاما على، وإنى أذكر أننى كلما كذبت كنت أجد لنفسى سلوة فى أنه لا توجد وصية تقول: «يجب عليك ألا تكذب»، وإن الوصايا العشر لا تحرم الكذب إلا فى شهادة الزور فقط. أى عندما يؤدى الإنسان شهادة أمام المحاكم يمكن أن تضر بجاره. ولما اشتد ساعدى بدأت أشعر فى نفسى بشىء من القلق وأخذت أحس بأن قانون الأخلاق الذى لا يحرم الكذب هو قانون ناقص، وبقيت هذه الفكرة تجول بخلدى زمنا طويلاً قبل أن أضع لنفسى السؤال المهم التالى: كيف ظهر فى نفسى الشعور بهذا النقص؟ ومن أين حصلت بنفسى على المقياس الخلقى الذى كشفت به عن هذا النقص فى الوصايا العشر؟ ولقد كان يومًا أسود على احترامى الموروث للعقيدة الدينية القائلة «بنزول الوحى» حينما بدأت عندى تلك التجربة النفسية. بل قد ظهرت أمامى تجارب أشد إقلاقًا لنفسى وذلك عندما كشفت وأنا مستشرق مبتدئ أن المصريين كان لهم مقياس خلقى أسمى بكثير من الوصايا العشر وأن هذا المقياس ظهر قبل أن تكتب تلك الوصايا بألف سنة.

على أن أمثال هذه التجارب الشخصية قد أصبحت الآن فى مخيلتى من الذكريات الضعيفة كلما التفت إلى الوراء ناظرًا إليها بعد أن قضيت أكثر من أربعين عاما فى البحث محاولاً تحديد الأدلة التى وصلت إلينا بين الآثار القديمة الشرقية عن هذه المسألة الأساسية الخاصة بأصل الأخلاق. وعندما تقدمت فى هذه البحوث، ازداد اقتناعى بأن نتائج تلك البحوث ستصبح سهلة التناول لأى

قارئ عادى. وأن الجيل الحالى من الشباب الذين قد يشغل بالهم بمثل تلك المسائل الأساسية كما حدث لى، يجب أن يكون فى متناولهم وسيلة للتثبت من هذه الحقائق.

ولقد وضعت من وقت لآخر موجزات تاريخية عن ارتقاء حياة الإنسان المبكرة قبل ظهور أوروبا المتحضرة وبخاصة عن الحقائق التى استقيتها من الآثار المصرية، ففى عام ١٩١٢ وضعت بعض هذه النتائج فى صورة كتاب تاريخ للمدارس الأمريكية ثم قدمت فى العام نفسه بحثًا أنضج من سابقه عن التطور الأخلاقى والدينى عند الإنسان القديم،، إلى طلاب اتحاد المعهد الدينى فى محاضرات «مورس» Morse Lectures ثم إلى طلبة جامعة كورنل Cornell University فى أبحاث تحضيرية عرفت بمحاضرات «مسنجر» Messenger Lectures تحت رعاية مؤسسة جديدة خصصت للبحث فى «التطور» أسسها الدكتور «مسنجر». من هاتين السلسلتين من المحاضرات طبعت «محاضرات مورس» فى ذلك الوقت.

وأخيرًا أخذ المؤلف على عاتقه فى كلية برين نور Bryn Nawr College فى سلسلة دروس تمهيدية تحت رعاية مؤسسة محاضرات مارى فلكسترا الجديدة بأن يقدم صورة أوسع من الصور السابقة عن الموضوع كله، غير أنها لم تطبع قط مثلها فى ذلك مثل محاضرات «مسنجر» فى «كورنل» ويجد القارئ فى هذا الكتاب بعض النتائج الأساسية المستخلصة من تلك المحاضرات وبعض محاضرات «مورس» نفسها بدون نص على الاقتباس. وإنى مدين هنا بالشكر دينا عظيمًا للدكتور إديث ويليمز وير Edith Williams Ware لما قام به من المساعدة فى ترتيب تلك المواد القديمة وفى وضع التصميم الإيضاحى وفى تحضير الفهرس وقراءة تجارب الطبع وغير ذلك.

وقد سجل المؤلف اعتقاده من زمن يرجع إلى عام ١٩١٢ فى محاضرات «مورس» أن مجموعة من ورق البردى المصرى ألفت فى العهد الإقطاعى حوالى ٢٠٠٠ ق. م. تدل محتوياتها على أنها أكثر من إنتاج أدبى مزخرف الألفاظ

مخالفًا فى ذلك الفكرة التى كانت سائدة عن تلك الأوراق عند جمهرة علماء الآثار حتى ذلك الوقت. ويرى المؤلف أن هذه المقالات تحوى فى ثناياها آراء اجتماعية تعتبر أقدم بحوث معروفة فى الاجتماع كتبها مؤلفوها الأقدمون لتكون حملة دعاية لأول جهاد مقدس فى سبيل العدالة الاجتماعية. ولذلك يعد مؤلفوها أول المصلحين الاجتماعيين. وقد قضى المؤلف أكثر من عشرين عامًا فى تأمل هذه الوقائق فلم يزده ذلك إلا تثبتًا من صدق رأيه وأن قبول هذا التفسير الاجتماعى للمصادر المذكورة إنما هو بالنسبة لنظرية تطور المدنية المصرية مثل العمل الذى قام به منذ عهد بعيد النقاد المؤرخون المستيرون الذين يطلق عليهم نقاد دار الكتاب المقدس فى سبيل تطور الحضارة العبرانية، مع فارق واحد هو أنه فى خدمة قضية تطور الحضارة العبرانية كان النقد التاريخى يسير ببطء نحو فهم وقبول هذا التصوير والتفسير الاجتماعيين.

ولقد كان الحال كذلك فى تصوير المؤلف للتطور الاجتماعى فى الديانة والمبادئ الأخلاقية بمصر القديمة، وبخاصة ما كان أساسه أوراق بردى العهد الإقطاعى السالفة الذكر. وعلى كل حال فإن تفسير المؤلف لما تقدم قد وجد صدرًا رحبًا فى فرنسا إذ قبل هذا التفسير واستعمله صديقه - المأسوف عليه - «جورج بنديت» أمين متحف اللوفر وعضو معهد فرنسا، وكذلك سار على نهجه وأتقن التعقيب عليه «اسكندر موريه» خلف «مسبرو» فى كلية فرنسا وخلف «بنديت» فى معهد فرنسا. ومما لا يتطرق إليه الشك أن هذا التفسير الاجتماعى للمصادر المصرية وتصوير الديانة المصرية تصويرًا اجتماعيًا يجعلها أقدم مصدر عرف حتى الآن عن تطور الأخلاق والمثل الاجتماعية، سينال ذلك القبول العام الذى ناله نظيره فى تفسير التاريخ العبرى.

ومنذ إلقاء المحاضرات التى نوهنا عنها فيما سلف كشف عن وثائق أثرية جديدة (وخاصة فى مصر) لم تزد فقط فى معلوماتنا زيادة ملموسة، بل إنها أثبتت لنا كذلك أهمية أوراق البردى الاجتماعية التى ترجع إلى العهد الإقطاعى. وقد كان أعظم كشف جاوز حد المألوف فى هذه الناحية هو أننا عرفنا أن حكمة

«أمينموبى» التى حفظت لنا فى ورقة مصرية بالمتحف البريطانى، قد ترجمت إلى العبرية فى الأزمان الغابرة وأنه بذيوعها فى فلسطين صارت مصدرًا استقى منه جزء بأكمله من كتاب الأمثال فى التوراة.

فكم من قس حديث طلب إليه أن يعظ جماعة من رجال الأعمال قد قوى موعظته باقتباسه العبارة التالية من كتاب الأمثال: «هل ترى رجلاً جادًا فى التجارة، إنه سيحظى بالمثول أمام الملوك؟» على أنه ليس من المحتمل أن أى قس من هؤلاء قد مهد لعظته بملاحظة تدل على أن ما اقتبسه قد نقله ناشر الأمثال العبرية عن كتاب مصرىّ فى الحكمة الخلقية أقدم من التوراة بكثير. لقد أضاف هذا الكشف أهمية بعيدة المدى إلى الحقيقة القائلة بأن التقدم الحضارى فى الممالك التى تحيط بفلسطين كان أقدم بعدة آلاف من السنين من التقدم العبرى، ولقد أصبح الآن من الواضح الجلى أن التقدم الاجتماعى والخلقى الناضج الذى أحرزه البشر فى وادى النيل الذى يعد أقدم من التقدم العبرى بثلاثة آلاف سنة، قد ساهم مساهمة فعلية فى تكوين الأدب العبرى الذى نسميه نحن «التوراة» وعلى ذلك فإن إرثنا الخلقى مشتق من ماض إنسانى واسع المدى أقدم بدرجة عظيمة من ماضى العبرانيين، وأن هذا الإرث لم ينحدر إلينا من العبرانيين، بل جاء عن طريقهم. والواقع أن نهوض الإنسان إلى المثل الاجتماعية قد حدث قبل أن يبدأ ما يسميه رجال اللاهوت بعصر الوحى بزمن طويل، وأن هذا النهوض نتيجة للخبرة الاجتماعية التى مارسها الإنسان نفسه، ولم يزج إلى هذا العالم من الخارج.

إن الحقيقة القائلة بأن أفكار الإنسان الأول الخلقية أتت نتيجة لخبرته الاجتماعية الشخصية تعد من أعمق المعانى لرجال الفكر فى عصرنا. فالإنسان قد نهض إلى مرئيات الأخلاق من وحشية عصر ما قبل التاريخ على أساس تجاربه الشخصية. فإن ذلك العمل العظيم الذى أوجد على كرتنا الأرضية تلك الحياة المستمرة الرقى، سواء أكان ذلك فى حياة الإنسان أم فى حياة الحيوان، كان عمل انتقال من عالم يجهل الأخلاق إلى دنيا ذات قيم باطنة تسمو على المادة أى إلى دنيا تشعر لأول مرة بمثل تلك القيم، ولأول مرة تحس بالأخلاق وتسعى

للوصول إليها. وبهذا العمل العظيم وصل الإنسان إلى الكشف عن مملكة جديدة لم يرد مجاهلها بعد. على أن الكشف عنها فى حد ذاته كان أصعب منالاً بالنسبة إلى ارتياد مجاهلها المقبل، ويعد هذا الكشف حادثًا قريب العهد، أما ارتياد تلك المملكة فإن الإنسان لا يزال فى بدايته. فهو إذًا منهاج لم يتم قطع مراحله بعد ويجب أن تستمر فيه على يد كل جيل مقبل.

وعلى ذلك فإن ما نحتاج إليه نحن أبناء الجيل الحاضر أكثر من أى شىء آخر هو الثقة فى الإنسان، وإنى أعتقد أن قصة نهوضه تعتبر قاعدة لا مثيل لها للثقة التامة به. ويعد الكشف عن الأخلاق أسمى عمل تم على يد الإنسان من بين كل الفتوح التى جعلت نهوضه فى حيز الإمكان. وقد انبثق عصر فجر الضمير والأخلاق على العالم دون أن يزج به من العالم الخارجى عن طريق منهاج خفى يسمى الإلهام أو الوحى، بل كان منشؤه حياة الإنسان نفسه، ويرجع ذلك الانبثاق إلى مدة ألفى سنة قبل بداية عصر وحى رجال اللاهوت، فأضاء ظلمة الحيرة الاجتماعية، والكفاح الباطنى فى نفس الإنسان، فكان بذلك دليلاً قاطعًا على قيمة الإنسان. ومهما قيل إن نورًا سماويا ساقته القدرة الإلهية على فلسطين خاصة فإن ذلك لم يحرم الإنسان من التحلى بتاج فخار حياته الذى ناله على الأرض، وأعنى بذلك التاج كشفه للأخلاق. فإنه يعد على ما نعلم أعظم كشف حدث فى مجال حياة التطور البشرى.

وقد حددت الآن مكانة العبرانيين فى هذا التطور من الوجهة التاريخية وسيحاول المؤلف فى هذا الكتاب أن يجعل تلك المكانة أكثر وضوحًا وجلاء.

ولهذه المناسبة يهم المؤلف أن يسترعى الأنظار إلى أمر واقع وهو اهتمامه طول حياته بالدراسات العبرية. فقد درس اللغة العبرية سنين عدة لفصول جامعية ويوجد الآن من بين تلاميذه كثيرون ممن أصبحوا ربانيين (حاخامات) وله من يهود الجيل الحاضر أصدقاء كثيرون من ذوى المكانة العالمية فى المجتمع. لقد اعتمدنا فى تدوين الآراء الخاصة بمكانة الحضارة العبرانية فى التاريخ على

استنباطات سليمة استنبطت من الوثائق القديمة ولذلك نرى من الحكمة أن نشير هنا، وبخاصة فى عصر لا يزال يوجد فيه بكل أسف شىء من التعصب ضد الجنس السامى، إلى أن هذا الكتاب قد ألف بروح خالية من كل شعور مضاد للساميين، بل على العكس من ذلك قد كان إعجاب المؤلف بالأدب اليهودى الذى أخذ فى دراسته منذ صغره عاملاً مؤثرًا فى نفسه لدرجة أن حكمه عليه كان دائمًا تحت تأثير عامل المحبة دون أى عامل آخر.

إن فى تاريخ الحضارة العبرانية القديمة دليلاً ساطعًا على تقدم الحياة البشرية وعلى رقى الإنسان نحو مرئيات جديدة من الأخلاق والمثل العليا الاجتماعية، وعلينا الآن أن نتعرف على منهاج التطور البشرى فى مداه الواسع الذى يسمو على الفواصل الجنسية ـ ذلك المنهاج الذى احتل فيه اليهود مكانة وسطى ـ وأن ندرك الأهمية العظمى للحقيقة التاريخية الثابتة وهى أن الإنسان قد سما إلى تصور خلقى عالٍ قبل أن تظهر الأمة العبرانية فى عالم الوجود بألفى سنة.

جبل يورو همستد نيومكسيكو

٢٧ يونيه سنة ١٩٣٣

جيمس هنرى برستد

مقدمة

أعتقد أن «ديدرو» هو الذى حاول أن يوضح لابنته الأصول الفلسفية للأخلاق الفاضلة حينما كانت تنتقل فى مجال حياتها من مرحلة الطفولة إلى سن الشباب، فلما أخفق فى كشف مثل هذه الأسس وجد نفسه فى ورطة محيرة. ومع ذلك فإن «ديدرو» فى ممارسته لشئون الحياة الواقعية لم يتنح عن اعتقاده الجرىء فى قيمة السلوك الفاضل.

ففى عصر كالذى نعيش فيه - وهو العصر الذى نجد فيه خلقًا كثيرًا لا ينكرون عقيدة «ديدرو» كل الإنكار وإنما يتمسكون بمقاييسهم الشخصية للفضيلة - يشعر الإنسان بحاجته إلى وسيلة تمكنه من النظر إلى الوراء فى الأجيال الغابرة من حياة البشر، ليتدبر بعين بصيرته بعض الأسس التاريخية التى بنيت عليها آراؤنا فى السلوك الفاضل.

ولقد مرت على الإنسان فترة من الزمن كان لا يحس فيها مطلقًا بعنصر السلوك، وذلك حينما كان كل ما يأتيه من الأعمال يأتى عن طريق الغريزة، لذلك يعد شعوره لأول مرة بالسلوك أو الأخلاق تقدمًا هائلاً فى حياة البشر، وقد صار هذا التقدم أعظم خطرًا عندما سما الإنسان إلى درجة أدرك فيها أن من السلوك ما يستحسن وما يستهجن. فكان ظهور هذا الإدراك خطوة نحو انبثاق الضمير. فلما أخذ الضمير فى النمو أصبح فى النهاية قوة اجتماعية عظيمة وصار له بدوره أثر فى ذلك المجتمع الذى أخرجه من قبل إلى عالم الوجود.

ففى حياة الصياد فى عصر ما قبل التاريخ الذى كان يكافح بين ذوات الثدى المتوحشة الهائلة التى كانت تحيط به، بدأ يسمع همسًا من عالم جديد كان ينبثق فجره فى باطنه، وكان هذا الهمس بمثابة بوق جديد يختلف عن همس ألم الجوع أو الخوف الذى يشعر به الإنسان للمحافظة على كيانه، إذ لم يكن يقتصر هذا البوق على تحريك إحساس واحد فحسب تاركًا كل المشاعر الأخرى هادئة مطمئنة، بل حرك لأول مرة كل العوامل النفسية معًا. فما هو المنبع الذى خرجت منه كل هذه الأصوات الباطنة، وكيف اكتسبت تلك القوة الآمرة فى حياة الإنسان الفردية، وكيف أنها نهضت حتى أصبحت قوة راسخة مسيطرة فى المجتمع الإنسانى؟ لاشك أن ذلك كان تقدمًا عظيمًا وتغييرًا أساسيًا. ونحن نكرر هنا أن كل هذا التقدم كان رحلة اجتماعية تقع مراحلها الأخيرة فى متناول مدى ملاحظاتنا، لأنها حدثت فى العصر التاريخى أى فى العصر الذى ظهرت فيه الوثائق المدونة. وقد ساعدنا حل رموز اللغات الشرقية القديمة على قراءة ما وصل إلينا من السجلات المكتوبة فكشفت لنا عن فجر الضمير وعن الأطوار التى صار بها قوة اجتماعية وتمخضت لنا عن عصر الأخلاق، ذلك العصر الذى ما زلنا نقف عند أول مرفأة فيه. والأرجح أن هذا التطور استغرق أمدًا طويلاً لا يقل عن مليون سنة استطاع الإنسان فى نهايته أن يبنى تلك الحياة الراقية التى بدأ يبرز منها عصر الأخلاق. ولم يبلغ هذا الانتقال البطىء ذروته إلا بالأمس وإن كان الإنسان فى يومنا لا يشعر حتى الآن بأنه دخل حديثًا جدًا فى مملكة جديدة لم يتعلم حتى الآن كيفية الاستيلاء عليها.

على أن إخفاق الإنسان فى إدراك أنه يتجول فى مملكة مجهولة له لم يدخلها إلا حديثًا، يرجع بعض الشىء إلى مؤرخيه، فإنهم يعلمونه أن التاريخ البشرى ينقسم إلى عصور عظيمة مثل عهد الملكية وعهد الإمبراطوريات وعهد الديموقراطيات إلخ. إن التقسيم على هذا النمط مفيد مهذب للأذهان غير أنه مع ذلك لا يتعمق بعيدًا فى طبيعة حياة الإنسان السائرة نحو الرقى. ويوجد طراز آخر من المؤرخين يعترفون بأهمية «عصر الآلات وما يتبعه من الانقلاب الصناعى» فى حين أن المهندسين المتحمسين ينشدون للحكم (الآلى) الميكانيكى

يلخصون رقى الإنسان بتعبيرات كلها تتعلق باستخدام القوة. ومن جهة أخرى يجد علماء الآثار أنه من السهل عليهم أن يقسموا تاريخ حياة الإنسان إلى عصور عدة: العصر الحجرىّ وعصر استعمال النحاس وعصر استعمال الشبه (البرنز) وعصر استعمال الحديد.

في حين أن مؤرخ علم الأحافير النباتية والحيوانية Palaentologist بعد أن يعدد سلسلة عظيمة تشمل الأطوار المتتالية لحياة الحيوان الناهضة، ويقص علينا أننا نقترب الآن من ختام عصر ذوات الثدى. ومع أن هذه التقسيمات ملائمة أو ضرورية فإنها من غير شك لا تزال من بعض الوجوه سطحية. بل إن الاصطلاحين «عصر الديموقراطية» و«عصر الميكانيكا» على حسنهما لا يدلان إلا على القليل من التحرر الفكرى الذى كان سببًا فى وجودهما. أما التقسيمات التى تكون أكثر فائدة وأعظم أهمية وتدل فى آن واحد على أطوار التقدم الإنسانى فهى التى تكون على نحو «عصر الضمير والأخلاق» (الذى بدأ من نحو خمسة آلاف سنة)، وعصر العلوم الذى جاء به «جليليو» منذ أكثر من ثلثمائة سنة.

والواقع أن كتابة التاريخ حتى الآن لم تعط سوى القليل من العناية لهذه التطورات الإنسانية الأساسية.

لقد صار الإنسان أول صانع للأشياء بين مخلوقات الكون كله قبل حلول عصر الجليد، والأرجح أن ذلك كان منذ مليون سنة، بل ربما قبل ذلك الأمد. وقد صار فى الوقت نفسه أول مخترع للأسلحة، وعلى ذلك بقى نحو مليون سنة يحسن هذه الآلات، ولكنه من جهة أخرى لم يمض عليه إلا أقل من خمسة آلاف سنة منذ أن بدأ يشعر بقوة الضمير إلى درجة جعلته قوة اجتماعية فعاله. أى أن القوة الجسمانية تشد أزرها قوة العلم السامية مدة الثلاثة قرون الأخيرة بقيت تعمل فى صنع الآلات الحربية الدقيقة الصنع فيزداد تحسنها باستمرار، حوالى مليون سنة؛ فى حين أن قوة الإنسان الباطنة التى تفوق تلك القوة المادية فى رفعتها وأعنى بها القوة التى نهضت من التجارب الاجتماعية، لم تعمل فى المجتمع إلا منذ حوالى خمسة آلاف سنة فقط. فلاشك إذًا فى أن عصر السلاح يبلغ عمره

مليون سنة من أن عصر الأخلاق قد شق طريق بدايته البطيئة تدريجيًا منذ نحو أربعة آلاف أو خمسة آلاف سنة. وقد حان الوقت الذى يجب فيه على العالم الحديث أن يدرك شيئًا من أهمية هذه الحقيقة البالغة، بل يجب أن تصبح دراسة ذلك جزءًا من التربية الحديثة. لذلك كان الغرض من هذا الكتاب هو إبراز الحقائق التاريخية، واستعراض المصادر القديمة المهمة التى استقيت منها أمام القارئ فيظهر لنا بذلك أننا ما زلنا واقفين فى غبش فجر عصر الأخلاق. لا بأس أن يكون ذلك قاعدة لأحلام ضحى لا يزال فى الواقع بعيدًا جدًا عنا ولكنه لا محالة آت وراء ذلك الفجر.

وبعد الفراغ من وضع هذا المؤلف فطنت إلى ملاحظة «إمرسون» فى مقاله السياسى تلك الملاحظة المتنبئة التى وضعتها على صفحة عنوان هذا الكتاب، وهى ملاحظة غابت عن ذاكرتى منذ عدة سنين مضت. ولقد أصاب «إمرسون» (قس مقاطعة نيو إنجلند) كبد الحقيقة بما أوتيه من قوة التصور الإلهامية بهذه الكلمة التى قالها والتى تعد أبرز حقيقة فى مدى الحياة العصرية قاطبة. وذلك أنه فى عصر «إمرسون» كانت تلك الحقيقة التى فاه بها لا يمكن أن يدلل على صحتها بأكثر من كونها مجرد اعتقاد أو إحساس شخصى ولكن منذ أن توارى ذلك الحكيم كشفت لنا بحوث تاريخ الشرق القديم أنها حقيقة تاريخية. ولذلك كان الغرض من هذا الكتاب أن يجعل فى متناول القارئ المتوسط الاطلاع على الأدلة التاريخية التى كانت أساسًا لمعرفتنا الجديدة لهذه الحقيقة العظيمة الشأن.

إيضاح
عن ترجمة النبذ المقتبسة
فى هذا الكتاب

لقد كان هم المؤلف أن يضع فى هذا المجلد الترجمة الإنجليزية لكل المصادر المهمة التى أخذ عنها، أو ترجمة النبذ التى وجدت ضرورية لتدعيم التدرج التاريخىّ اللازم. على أن القارئ لم يثقل كاهله فى معظم الكتاب بذكر أسماء المصادر. وفيما يختص بمتون الأهرام العظيمة فإن القارئ الذى يريد أن يرجع إلى تحقيق مصادرها فإنه يجدها فى «محاضرات مورس» المطبوعة للمؤلف. وقد أخذ عنها المؤلف بكثرة دون أن يضع علامات اقتباس. ويجب على القارئ أن يلاحظ فى الترجمة الإنجليزية ما يأتى:

الكلمات التى وضعت بين نصفى قوسين {هكذا} تدل على أن معناها ليس محققًا فى الأصل.

الكلمات التى وضعت بين قوسين تعتبر تصحيحًا مفروضًا فيه، إما أنه قد كان موجودًا فى الأصل ثم فقد الآن، وإما أن يكون هو المعنى الذى يفهم من الأصل بالتغليب.

الكلمات التى توضع بين شرطتين هى تفسيرات من عند المؤلف ولا وجود لها فى الأصل.

الفصل الأول

الأساس والماضى الجديد

تطالعنا الصدف أحيانًا فى بعض بقاع أوروبا بوجود أثرين متجاورين ـ بصورة تدعو إلى الغرابة ـ أحدهما ينتسب إلى أقدم عصور متوحشى ما قبل التاريخ، والثانى ينتسب إلى ما يسمى المدنية الحديثة، وكلا الأثرين يمثل تاريخ الجنس البشرى فى عصره. فأولهما يمثل التاريخ القديم وثانيهما يتحدث عن التاريخ الجديد أى أقدم عصر وأحدث عصر يمكن اقتفاؤهما فى مجال حياة بنى البشر. ففى شمال فرنسا وعلى أديم تلك التلال المشرفة على «نهر السوم» والتى كانت مسرحًا لكثير من المواقع الحربية، انغرست الألوف من شظايا قذائف الفولاذ على عمق كبير فى المنحدرات والمستويات التى مهدها النهر لنفسه منذ أزمان خلت. واليوم بعد أن سكتت المدافع الضخمة التى كانت ترمى تلك القذائف، يستطيع المرء بعد أن يعمل بفأسه بضع دقائق فى حافة الوادى، أن يرى «البرت» (البلطة) المصنوعة من الظران وهى من أقدم ما خلفه الإنسان من الأسلحة تجاور نثارًا من شظايا مسننة، لقذائف الفولاذ المفرقعة، فبالآلة الأولى كان يستطيع أول أجدادنا المتوحشين أن يهشم جمجمة خصمه فيودى بحياته. وبالمهلكات الثانية اعتاد نسله المتحضر أن ينسف عدوه ويمزقه إربا.

وفيما بين الجارتين (البرت والشظايا) يقع تاريخ حياة بنى الإنسان وهو قصة لا يقل عمرها عن عدة مئات من آلاف السنين، بل ربما بلغ مليون سنة. وقد كان

المجهود البشرى خلال هذه السنين يسير بالإنسان من طور إلى طور حتى انتقل من الطرق الفطرية للهلاك إلى تلك الطرق البالغة حد التفنن فى السحق والتدمير.

إن تاريخ حياة الإنسان هو فى الغالب قصة التغلب على القوى المادية بتدابير منوعة لا حصر لها من الآلات والعدد، ولكن لا ننسى بجانب ذلك النتائج الصناعية والاجتماعية والسياسية والفنية والعقلية التى نجمت عن اختراعها، فأسطوانة الآلة البخارية أو آلة الغاذولين هى رمز العصر الحاضر كما أن «البرت» المصنوعة من الحجر هى العلامة الدالة على حياة العصر الحجرىّ الذى يرجع عهده إلى ألف ألف سنة على الأرجح[1] على أن العثور على تاريخ الماضى بهذا المعنى الواسع يحتاج إلى بحّاثة من طراز جديد، بحاثة عالمى يجمع إلمامة بين علم الإنسان وعلم الآثار وعلم الأجناس وعلم الديانة المقارن، ويكون مع ذلك متضلعًا فى الفن والأدب متفقها فى كل من اللغات القديمة من أوروبية وشرقية.

وعلى الرغم مما يقتضيه تكوين عالم من هذا الطراز من جهود مضنية وسنين كثيرة فى الدرس والتعليم فإنه يوجد الآن بعض علماء من هذا النوع يقومون بهذه البحوث فعلاً فتطلع علينا جهودهم المخلصة بقصة ذلك المنهاج الطويل العمر الذى أفضى فى النهاية إلى حلول مداخن المعامل الحديثة، وكل ما نتج عنها من أمراض اجتماعية واقتصادية، محل تلك الأحراج الفطرية التى كان يجول فيها صياد العصر الحجرىّ. ومع ذلك فإن المجهود الجدى فى البحث عن تاريخ ماضى الإنسان لم يكد يتعدى مراحله الأولى، فإنه لم يمض قرن على عثور «بوشيه دى برث»[2] boucher des perthes ـ الذى يعد طليعة الباحثين فى علم آثار ما قبل التاريخ ـ فى حصباء نهر «السوم» على «البرت» الذى يرجع تاريخها إلى أقدم إنسان أولى متوحش وبجانبها عظام بعض الحيوانات الهائلة من ذوات الثدى التى انقرضت منذ زمن سحيق، فأعلن «دى برث» إذ ذاك أنها معاصرة لتلك البرت المصنوعة من الظران. ومنذ جيلين تقريبًا زار العلماء الإنجليز «هكسلى»[3] (Hux-ley) و«برستويتش» (Prestwich) «والسير شارلس ليل»[4] Sir Charles Lyell وغيرهم وادى «السوم» وتأكدوا من الحقائق التى لاحظها «بوشيه دى برث» وكانت

نتيجة هذه الزيارة أن نشر «ليل» مجلده الذى يعد بداية عصر جديد وسماه «قدم الإنسان» (The antiquity of Man) وقد ظهر أثناء حروب أمريكا الأهلية (American Civil War) وكلنا يعرف الهزيمة التى ألحقها «هسكلى» بأساقفة الإنجليز على أثر الاعتراف بعظم قدم عمر الإنسان، لأن بعضنا قد قرأ المناقشة فى أيامنا الأولى فى المجلات السائرة.

ومن الأشياء الحديثة كذلك إماطة اللثام عن التاريخ الشرقى لعدة آلاف السنين الخوالى مما لم يكن معروفًا من قبل عن الشرق القديم.

فلا يزال كتاب التاريخ القديم الذى ألفه رُلن[٥] Rollin Ancient History معروضًا للبيع فى المكتبات مترجمًا إلى الإنجليزية مع أنه لم يكن بين يدى مؤلفه كثير من المصادر فوق تاريخ «هردوت» والتوراة، وفى حداثة سنى كان هذا الكتاب لا يزال يقرأ بكثرة. ونسخة والدى من كتاب «ليرد»[٦] نينوه وبابل» Leyard, Nineveh and Babylon التى أدهشنى منها فى طفولتى ما رسم على غلافها من الثيران الرمزية المجنحة ذات الرأس الآدمى ـ أخذت مكانها فى مكتبته سنة ١٨٦٩ كما ينبئ بذلك التاريخ المكتوب على ورقة الغلاف، على حين كانت صفحة عنوان الكتاب تحمل تاريخ سنة ١٨٥٩م.

وكان حل رموز الخط المسمارى للبابلية والآشورية قد تم قبل ذلك التاريخ ببضع سنين فقط. أما أول نقش مصرى فقد حل عام ١٨٢٢ أى قبل حل الخط المسمارى بنحو ربع قرن. والحقيقة أن معرفتنا بهذه اللغات ونظم كتابتها لا تزال بعيدة عن حد الكمال وإن كانت تسير فى سبيل التقدم المطرد كما يبرهن على ذلك حل رموز الخط المسمارى الحيثى حديثًا، والتقدم المحسوس كذلك فى فك هيروغليفى الحيثيين. وبذلك أصبح فحص الوثائق القديمة الكثيرة العدد والتى بدأ العالم يفهمها بسهولة. والحفائر التى أحيت فصولاً بأكملها من حياة الإنسان مصدرين يكشفان الآن بوضوح متزايد عن رواية تمثيلية خطيرة فى تاريخ التقدم البشرى. وهكذا قد أزيح الستار فى أيامنا تقريبًا وبسرعة مدهشة فتيسر لنا النظر إلى الوراء فى أعماق ماض متغلغل فى القدم لم يتسن للفكر ولا للتعليم حتى الآن أن ينسجم معه. ولندع الآن أبصارنا تسبح فى هذا المدى الرهيب من

التقدم البشرى الذى كشف لنا عنه البحث فى إنسان ما قبل التاريخ وفى مدنيات الشرق التى كنا قد فقدناها.

ويكاد كل امرئ يعرف قدرتنا الآن على تعقب الخطوات التى خطاها أقدم إنسان فى أوروبا إلى الأمام خلال آلاف من السنين قضاها فى نضال مع دنيا المادة فالغطاء الجليدىّ القطبى الذى انحدر أربع مرات على الجانب الشمالى للبحر الأبيض المتوسط فأجلى متوحشى أوروبا أهل العصر الحجرىّ القديم إلى الجنوب، ثم تقهقر بعد ذلك ببطء نحو الشمال ثانيًا وهكذا فى كل من الدفعات الأربع جعل هذه الظاهرة فى نظرنا بمثابة ساعة جيولوجية هائلة يدل تذبذب (رقاصها) الضخم أربع مرات متتالية منتظمة على مرور فترة عظيمة من الزمن ظهر فيها ذلك التحسن المتدرج فى أسلحة الإنسان الحجرية وآلاته وتقدمه البطىء فى قطع الطريق الطويل من الوحشية إلى المدنية.

على أن الخيال يقف حائرًا أمام هذه الكشوف التى تنبئنا عن المعركة الطويلة الأمد التى خاض غمارها جدنا المتوحش، وذلك حينما نرى فى تغلبه البطىء على القوى التى تحيط به مشهدًا دنيويًا يملؤنا بالعاطفة الدنيوية بنفسها التى نشعر بها أمام حدوث ظاهرة عظيمة من ظواهر الطبيعة.

وإذا فرضنا أن كثيرًا من المتعلمين فى عصرنا يعرفون الحقائق البارزة الآنفة الذكر فإنه من غير المعلوم لدى الجميع أن كشوف السنين القلائل الأخيرة قد أماطت اللثام عن تفاصيل حياة العصر الحجرىّ التى وجدت حول جميع البحر الأبيض وانتشرت على شواطئه كما انتشرت حكومة الدولة الرومانية حوله بعد ذلك بآلاف من السنين، فكانت على ذلك تشمل شمال إفريقيا وغرب آسيا(٧).

وعلى ذلك كانت هناك «دنيا شرق أدنى» شاسعة لإنسان العصر الحجرى القديم، تشمل شمال إفريقيا وغرب أسيا مكونة بذلك مسرحًا شاسعًا تمتد جبهته من البحر الأسود شمالاً مخترقة سوريا وفلسطين إلى الشلالات النائية فى أعالى النيل جنوبًا. وأما الجزء الخلفى لهذا المسرح فتحده الجبال الفارسية.

وهذه الصورة عميقة فى القدم عمقها فى المساحة، إذ لا يقل عمرها عن

مئات الآلاف من السنين وقد يصل إلى ألف ألف سنة. منذ بدأ الغطاء الجليدىّ القطبى يزحف جنوبًا على أوروبا. وكان الناس قد بدأوا فعلا يعيشون عيشة الصيد على مسرح الشرق الأدنى هذا. وإذا جاز لنا أن نحكم من شكل إنسان ما قبل التاريخ الذى كان يعيش فى شرق آسيا قريبًا من «بكين» الحالية؛ فإن مخ صيادنا الغربى كان أقل حجمًا بمقدار الثلث من مخ سلفه الذى عاش فى العصر التاريخىّ فى الإقليم نفسه. وقد ترك أسلحته الحجرية منتشرة على سطح الأرض فى الشمال الشرقى من إفريقية، وعلى تلال آسيا المجاورة ووراء جبال فارس.

وحرى بفترات الزمن التى تضمها هذه العهود أن تقاس بمراحل جيولوجية لا بالسنين. فأولى مراحل هذه العصور الجيولوجية كان عصر تكوين أودية الأنهر العظمى للإقليم. ولاشك أن أناس الشرق الذين عاشوا فى عصر ما قبل التاريخ كانوا بطبيعة الحال يجهلون أنهم يرقبون تكوين وادى النيل ووادى الدجلة والفرات فى وقت كانت فيه دلتا النيل الحالية لا تزال خليجًا للبحر الأبيض المتوسط، كما كان الخليج الفارسى يمتد شمالاً فوق ما هو معروف الآن بسهل «بابلون» إلى خط عرض الركن الشمالى الشرقى للبحر الأبيض المتوسط.

أما ثانى تلك المراحل الزمنية فقد تحدد لنا الآن (وقد كان يسير جنبًا لجنب مع تقدم حياة الإنسان) ونعنى به عصر «نضوب الماء» ذلك النضوب الذى كان ينتشر تدريجًا. فالصحارى المعروفة لنا تمام المعرفة فى هذه الأقطار لم تكن قد ظهرت بعد، إذ كان كل شمال إفريقيا إقليمًا ذا أمطار غزيرة ونباتات وفيرة مكونًا ميدان صيد نموذجى. وقد عثرت على ثلاثة قوارب نيلية لصيادى الهضبة محفورة على الصخور الواقعة فى مجاهل صحراء النوبة فيما وراء «أبو سنبل». وقد كشف حديثًا الدكتور «سند فورد» مدير مساحة المعهد الشرقى أسلحة الظران التى كان يستعملها هؤلاء الصيادون مبعثرة فى أقاصى الصحراء الجنوبية على مسافة ألف ميل أو أكثر من النيل. ولا تزال هذه الآلات والأسلحة الحجرية الملقاة حيث فقدها أصحابها منذ مئات الآلاف من السنين شاهدًا صامتًا على المجال الفسيح الذى كان يرتع فيه الصيادون والحيوانات التى كانوا يقتفون أثرها

فى وقت كان فيه جميع شمال أفريقية ممرعًا خصب الجناب. ولا يغرب عن ذهننا أن الأماكن التى توجد فيها تلك الأدلة الصامتة عن حياة الإنسان الغابر، هى الآن مناطق منعزلة قاحلة موحشة لا يحسر أى صياد حديث أن يدلف إليها فى الصحراء لأنه لا يأمل أن يعود على قيد الحياة بعد أن يخترق تلك المجاهل الماحلة.

وقد كان منتصف زمن العصر الحجرىّ القديم مبدأ انحسار المطر، وفى أثره حل الجفاف العظيم الذى حول هضبة شمال أفريقية الخصبة إلى تلك البيداء الشاسعة التى نسميها الآن «الصحراء العظمى»(٨). ولقد كانت العوامل الجيولوجية فى ذلك الوقت آخذة منذ زمن بعيد تعد موطنًا جديدًا أكثر ملاءمة وأحسن موقعًا لصيادى العصر الحجرىّ فى الركن الشمالى الشرقى من إفريقية. فهناك أفريقية الحارة تمتد عبر الصحراء إلى الركن الجنوبى الشرقى من البحر المتوسط وهو ممر خصب منبطح زاخر بالأعشاب النضرة وبحيوان إفريقيا الداخلية مما أعطى صيادى العصر الحجرىّ مأوى لا تنفد موارده فى موقع لا مثيل له من الأمن والحماية من الدخلاء المغيرين.

ولابد أن حيوانات إفريقية الشمالية الشرقية بعد أن طردها من الهضبة تناقص الطعام المستمر عندما أصبحت النباتات قليلة جدًا لا تكفى دفع غائلة الجوع وحفظ الحياة قد لجأت إلى شواطئ النهر العظيم عند الجزء السفلى من وادى النيل فجعلت منه مرتعًا للصيد منقطع النظير. وجنة الخلد هذه الواقعة فى الجزء السفلى من وادى النيل والتى نسميها الآن مصر كانت تجذب إليها أحيانًا منذ البداية صيادى العصر الحجرىّ الذين كانوا يسكنون هضبة شمال إفريقية، ولكن لما اضطرهم الجفاف فى النهاية إلى اقتفاء حيوان الصيد فى هذا الاتجاه بدأوا يتخذون وادى النيل الضيق موطنًا مختارًا لهم. وقد أقام الجفاف فى النهاية حول جنة الصياد هذه حاجزًا منيعًا من الصحراء لا يمكن اختراقه من ثلاثة جوانب من حدود مصر ـ الشرق والغرب والجنوب ـ وحول وادى النيل الأسفل إلى معمل اجتماعى منعزل لا مثيل له فى سائر بقاع العالم، لأن النيل هو النهر الوحيد على كرتنا الأرضية الذى ينبع من المناطق الحارة وينساب نحو

الشمال مخترقًا نحو ٧٠٠ ميل فى «المنطقة الإقليمية» التى ظهرت فيها أول النظم القومية العظيمة، وهى المنطقة المعتدلة للدول القديمة بين خطى عرض ٢٥، ٤٥ شمالاً، وفيها نمت(٩) كل العاهليات القديمة. هذا فضلاً عن أن وادى النيل فى عصور ما قبل التاريخ كان يتمتع بمزية فريدة إذ لم يكن معرضًا لشدائد عصر الجليد بل كان منفصلا عنها ومحتميًا منها بمياه البحر الأبيض المتوسط الملطفة الواسعة الأرجاء، على حين أن حياة صيادى العصر الحجرىّ الأوروبى فى شماله قد عاقها عن التقدم الرياح القطبية واندفاع الثلوج التى لا تقاوم.

ولقد كان غربى آسيا على تمام النقيض من مصر تحوط دائرته الشمالية تلك الهضبة الجبلية الممتدة من البوسفور حتى بلاد إيران، فكان معرضًا بدرجة عظيمة **لأخطار** ذوبان الجليد المخرية **وزمهرير برده القارس**. وقد ترجع قصة الطوفان العام التى ورد ذكرها فى **«بابل»** ثم فى التوراة إلى فيضان جليدى من هذا النوع. ولقد كانت هذه القوة الطبيعية المزعجة المغيرة من المرتفعات الشمالية الواقعة فى غرب آسيا نذيرًا لغارات بشرية متتابعة كانت كذلك تنزح من هذه المرتفعات وتغمر الإقليم فى دورات معلومة فتقلب النظام الاجتماعى والحكومى القائم. ولذلك كان التقدم البشرى فى الإقليم إذا خطا خطوته الأولى نحو التطور الاجتماعى لا يلبث أن يعثر وتزل به قدمه فيرجع إلى سيرته الأولى فيحاول النهوض مرة أخرى ويعانى العملية نفسها المرة بعد المرة. بمثل هذا تناوبت القوى المغيرة من طبيعية وإنسانية على وقف التطور الاجتماعى فى بابل، وقد كان لزاما علينا أن نعتبر دوافع الغزو الأجنبى قوة لولا ما ظهر لنا من أن تلك الفكرة قد غالى فى تقديرها بعض المؤرخين. فالشجرة الضخمة تقف فى وجه الرياح بفضل قوة تلك الحلقات الصلبة التى تنمو فى جذعها سنويًا، والتى ربما كانت تنمو فيها منذ قرون وتبقى متأصلة فى داخل تركيب جذعها العظيم. فالقوة فى مثل هذه الشجرة يمكن أن تتخذ مثالاً لتوضيح نمو النظام القومى الذى اكتسب زيادة قوته بالبناء المستمر، ولكن الشجرة التى تعصف بها الريح مرارًا وتزعزعها من الأرض أحيانًا تبقى دائمًا قصيرة عارية. ولم يكن من باب الصدفة أن سقوط المدنية البابلية فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد وغزوها على يد الدولة الكاسيلية بعد

أن بلغت قوتها فى عهد أسرة «حمورابى» أعقبه نضوب ثقافى استمر مدة ألف سنة أو يزيد.

وعلى العكس من ذلك نرى كما أسلفنا أن الجفاف الذى حدث فى شمال إفريقية قد جعل وادى النيل فى معزل وكون منه ذلك الممر الضيق المحمى الذى لا مثيل له على سطح عالمنا، وهو يمتد شمالاً وجنوبًا، فأحد طرفيه فى المناطق الحارة، والطرف الآخر يشرف على بحر داخلى عظيم فى المنطقة المعتدلة.. وكان يتمتع بميزات طبيعية فريدة فى نوعها، فقد كان منعزلاً ومحميًا بشكل جعل التطور البشرى فيه سهلاً، ذلك التطور الذى رغم بعض الغزوات الأجنبية ظل مستمرًا آلافًا من السنين دون أى عائق جدى. وفى أيامنا هذه تتكشف التربة المصرية على حدود الصحراء عن قبور أقدم الجبانات المعروفة فى العالم كله ونجد فى هذه القبور خلف صيادى العصر الحجرىّ فى وادى النيل عندما كانوا فى بداية الانتقال إلى عصر المعادن وذلك قبل ٤٠٠٠ سنة ق. م بزمن يذكر، ومن الجائز أن يكون قبل هذا العهد بكثير، وكانوا قد استأنسوا أهم الحيوانات المنزلية، وانتقلوا إلى دور حياة الفلاح.

والدلائل تؤيد رأى من قال إن هؤلاء المصريين الذين عاشوا فى عصر ما قبل التاريخ المدفونين فى أقدم الجبانات ـ هم وأجدادهم كانوا أقدم مجتمع عظيم على الأرض استطاع أن يضمن لنفسه غذاء ثابتًا باستئناس الموارد البرية من نبات وحيوان، على حين أن تغلبهم على المعادن فيما بعد وتقدمهم فى اختراع أقدم نظام كتابى، قد جعل فى أيديهم السيطرة على طريق التقدم الطويل نحو الحضارة.

فيتضح مما تقدم أن وادى النيل المعشب الواقع شرق أرض الصحراء لم يجذب إلى داخل جدرانه الصخرية المنكمشة صيادى ما قبل التاريخ المشتين على ساحل إفريقيا الشمالى فحسب بل هيأ لهم مجتمعين التسلط على كل الموارد اللازمة للتقدم الإنسانى فى أحوال حسنة جدًا لدرجة جعلت الجماعات المحلية التى كانت تتألف منها البلاد تتوحد تدريجيًا، حتى أصبحت أول مجتمع عظيم

مؤلف من عدة ملايين يحكمهم ملك واحد وفى أيديهم كل الأسس الرئيسية اللازمة للحضارة. ففى القرون التى تقع بين ٥٠٠٠، ٢٥٠٠ ق . م. قامت أول دولة متحضرة كبيرة فى وقت كان فيه أوروبا ومعظم غربى آسيا لا تزال مسكونة بجماعات مشتتة من صيادى العصر الحجرى.

والأرجح أن أول اندماج تألفت به أمة واحدة حدث فى وقت لا يتجاوز سنة ٤٠٠٠ ق.م. وقد كان من نتائجه أن بقيت البلاد متحدة مدة بضعة قرون أطلق أنا عليها الآن اسم «الاتحاد الأول». وكان من نتيجته تأسيس حكومة مركزية قوية تعد أقدم نظام إنسانى معروف يضم عدة ملايين من الأنفس(١٠). ولما تألف «الاتحاد الثانى» فيما بعد بدأ تطور قومى فى شكل هائل فى نظام الحكم ونواحى الاقتصاد والاجتماع والدين والعمارة والفن والأدب أخذ يسير بخطى ثابتة مدة ألف سنة من القرن الخامس والثلاثين إلى القرن الخامس والعشرين ق.م، وهذا العصر البالغ ألف سنة هو مرحلة فريدة فى حياة الإنسان على الأرض لأنه يوضح لنا أن أول فصل فى تقدم الحياة البشرية إنما هو عملية اجتماعية، تكشف لنا عن مبدأ ظهور العوامل الاجتماعية وتأثيرها فى المجتمع الإنسانى. ومن المهم أن نؤكد كلمة «فريدة» التى استعملناها فى العبارة السابقة، لأنه لم يكن فى هذا العصر البعيد نمو مطرد متعاقب فى أية بقعة أخرى من بقاع العالم القديم. وإن مدة ألاف سنة هذه هى التى وضعت مصر من الوجهة الخلقية والثقافية فى مرتبة تفوق بكثير ما كان فى بابل حيث كانت الشحناء قائمة بين بعض المدن وبعضها الآخر. تلك المدن التى كانت تؤلف ممالك صغيرة. تناضل عن شئون محلية ضئيلة واستغرق نضالها مدة الألف سنة السابقة بعينها، بل بقى بعضها على هذا النحو بعد ذلك مدة طويلة. ولقد كان الاتجاه الرئيسى فى معترك الحياة فيما قبل السنين الألف المذكورة التى تعد أساسية مهمة فى التقدم الاجتماعى هو العمل على تقدم الإنسان فى التغلب على عالم المادة، وعلى ذلك يكون وادى النيل فى نظرنا هو أول مسرح اجتماعى يمكننا أن نلاحظ فيه الإنسان خارجًا منتصرًا من كفاح طويل مع الطبيعة وداخلاً مسرح العوامل

الاجتماعية الجديدة ليبدأ كفاحه الشاق بينه وبين نفسه وهو كفاح لم يكد يتخطى بدايته حتى يومنا هذا.

وإنا معشر الأمريكيين على استعداد خاص لندرك ونقدر الانقلاب العجيب الذى جعل من الأرض القاحلة أرضًا ذات مدن زاهرة.. فإن آباءنا الذين قامت مجهوداتهم بإنشاء مدن عظيمة ثرية على طول أراضينا الشاسعة، إنما تسلموا الفن والعمارة والصناعات والتجارة والتقاليد الحكومية والاجتماعية بطريق الوراثة عن أجدادنا الأوروبيين، ولكن فى ذلك العصر السحيق الذى نحن بصدده بدأ الانتقال من الوحشية إلى المدنية بكل مظاهره الخارجية فى الفن والعمارة من لاشىء. وليست أهمية ظهور المدنية فى وادى النيل منحصرة فى بهاء مبانيها فحسب بل لأنه كان أيضًا تطورًا اجتماعيًا مستمرًا دون أى عائق أكثر من ألف سنة أشرق لأول مرة على كرتنا الأرضية، مقدمًا لنا أول برهان على أن الإنسان الذى هو أرقى المخلوقات الفقرية التى ظهرت على وجه البسيطة أمكنه أن يخرج من الوحشية إلى المثل الاجتماعى الأعلى ويظهر الحياة الإنسانية بمظهر لم ير الكون كله على ما نعلم أرقى منه.

وفى أيامنا يدخل السائح وادى النيل وكأنه دخل أرض العجائب على أبوابها تلك الأهرام الضخمة التى طالما تخيل منظرها منذ نعومة أظفاره. وعندما يصعد فى الوادى مع النهر يرى فيها وراء الشواطئ التى تحفها النخيل أسوار معابد واسعة توصل إليها من الشاطئ طرق مزينة بتماثيل أبى الهول ويشرف عليها مسلات ضخمة شاهقة الارتفاع وقاعات وعمد فخمة ولكن قلما يخطر ببال ذلك السائح أنه فى أمريكا ووادى النيل سواء بسواء يسبق القفر كل ما يرى من فن وعمارة. فحيث تقوم الآن هذه الآثار الحجرية العظيمة كانت تمتد يومًا ما تلك الغابات الكثيفة التى كانت تمتد فى أودية النيل الضيقة، وكانت خالية من السبل آلافا من السنين اللهم إلا مسالك الصيادين الضيقة التى كانت ترى ملتوية بين الأعشاب ومؤدية إلى حافة الماء. ولم يكن لسكان وادى النيل فى عصر ما قبل التاريخ أجداد متحضرون يرثون منهم أية ثقافة، ولابد أن تجد أن فى خبرة هؤلاء القوم التى كانت آخذه فى التعمق وفى أفقهم الذى كان آخذا فى الاتساع ذلك السحر الذى حول هؤلاء الصيادين السذج ومساكنهم الصغيرة المصنوعة من

الطين وأخصاص من الخوص إلى مجتمع عظيم يسيطر عليه رجال ذوو سلطان وخيال واسع وأصحاب آمال ضخمة، أحرار لم تغل أيديهم التقاليد فعمرت تلك البقاع التى كانت يومًا، غابة، ولم يكتفوا بنشر هذه الآثار فيها على طول النهر وعرضه بل أدركوا كذلك المعنى السامى لقيم الأشياء الاجتماعية والأخلاق السعيدة عن الأنانية، مما لم ينبثق فجره على العالم من قبل. وإن الذى يعرف قصة تحول صيادى عصر ما قبل التاريخ فى غابات النيل إلى ملوك ورجال سياسة وعمارة ومهندسين وصناع وحكماء وأنبياء اجتماعيين فى جماعة منظمة عظيمة مشيدين تلك العجائب على ضفاف النيل فى وقت كانت أوروبا لا تزال تعيش فى همجية العصر الحجرىّ ولم يكن فيها من يعلمها مدنية الماضى. من يعرف كل هذا يعرف قصة ظهور أول مدينة على وجه الكرة تحمل فى ثناياها صورًا خلقية ذات بال؟

فالمدنية فى أعلى معانيها قد ولدت إذًا فى الركن الجنوبى الشرقى فى البحر الأبيض المتوسط. ومع ذلك قد كان هناك منذ البداية تقدم مهم نحو المدنية فى غرب آسيا المجاورة وبخاصة فى بابل حيث ظهرت فى نهاية الأمر ثقافة ما تمتاز بتقدمها المطرد فى الشئون العملية والتجارية والقضائية، وفى الوقت نفسه كان من عناصرها البارزة الاعتقاد بأن مصير الإنسان يمكن قراءته فى النجوم حتى أن حذقها المدهش لدرس الأجرام السماوية وضع مقدمة أصبحت فى يد الإغريق أساسًا لعلم الفلك، غير أن الحضارة البابلية كانت تسودها فى جميع أدوارها روح الاقتصاد التجارى والكد فى الحاجيات الآلية مما حرم التطور الاجتماعى البابلى حتى من الأسس الأولية للتدرج نحو مراعاة الغير، والعمل على نفعهم، فكان الأساس الخلقى اللازم للعدالة بين الجميع معدومًا كلية حتى أن دستور قوانين «حمورابى» يقضى فى العدالة حسب المركز الاجتماعى للمدعى أو المذنب. أما الانعدام التام للفوارق الاجتماعية أمام القانون الذى هو من أرقى مظاهر الحضارة المصرية فلم يكن معروفًا فى بابل، وكانت نتيجة ذلك أن المبادئ الأخلاقية فى بابل لم تسهم إلا بالنزر اليسير إن لم تكن لم تسهم بشىء مطلقًا فى الإرث الأخلاقى الذى ورثه العالم الغربى.

وقد أدى اندماج المدنيات القديمة فى الشرق الأدنى إلى نشوء ما يمكن تسميته الثقافة المصرية البابلية، أو نواة الشرق الأدنى، وظلت أمم الغرب لا تكاد تحس حتى جيلنا الحاضر بالحقيقة البالغة الأهمية، وهى أن كلا الحضارة المصرية والحضارة البابلية قد بلغت قمتها ثم أخذت فى التدهور قبل قيام الحضارة العبرانية. كلنا نعلم أن الثقافة المصرية البابلية قد دفعت الحضارة الأوروبية نحو السير، ولكن ليس من بين أهل العصر الحديث إلا القليلون ممن يعرفون تلك الحقيقة البالغة الخطورة فى تاريخ الأخلاق والدين وهى أن كل من الثقافة المصرية والبابلية قد غذت ودفعت الحضارة العبرانية إلى السير. ونجد فيما بعد تياراً من المؤثرات الشرقية القديمة التى تعد المسيحية من أظهرها مستمراً فى المسير نحو أوروبا، وانتهى به الأمر أن قلب الدولة الرومانية فى القسطنطينية إلى حكومة استبدادية شرقية بقى أثرها ظاهراً إلى ما بعد الحروب الصليبية بزمن بعيد.

ومثل هذه التأملات تميط لنا اللثام فى الحال عن الوحدة العجيبة فى تاريخ حياة الإنسان. فإن تاريخ الشرق الأدنى يقع وراء تاريخ أوروبا، كما أن تاريخ أوروبا يقع وراء تاريخ أمريكا. وبالرجوع إلى الوراء بالشرق الأدنى القديم خلف الأزمان التاريخية نصل إلى عصور تطور إنسان ما قبل التاريخ فيطول بذلك مدى المراحل المكونة لحياة الإنسان المتصلة هكذا بأمريكا فأوروبا فالشرق الأدنى فإنسان ما قبل التاريخ فالأزمان الجيولوجية. وهذا التقسيم الحديث جداً الذى هو من وضع أحدث المؤرخين يكشف لنا لأول مرة أن حياة الإنسان وحدة لاتتجزأ ظلت تتطور تطوراً متعاقباً من «البُرت» (البلطة) الحجرية إلى شظايا قنبلة سنة ١٩١٤، وكلاهما مدفونتان جنباً إلى جنب فى ميدان قتال السوم. لذلك فإن بحثاً شاملا للشرق الأدنى القديم نقوم به بأعين مفتوحة وبأغراض أرقى من حذق الأرقام التاريخية التى كانت محببة منذ زمن طويل إلى قلوب زملائنا المؤرخين القدامى، تظهر لنا لأول مرة العصور التاريخية المعروفة فى حياة الإنسان الأوروبى كمنظر مرتكز إلى لوحة عظيمة تتناول مئات الآلاف من السنين. وفى هذا المنظر الضخم الذى لا يمكن تصوره إلا بدرس تاريخ الشرق، تنكشف أمامنا صورة

شاملة بهيجة كمجال حياة البشر فى عصورها المتعاقبة مما لم يستطع أن يتصور مثله أى جيل سابق، هذا هو «الماضى الجديد».

ومهما يكن من أمر العلوم والفلسفة فإن التاريخ والأخلاق وعلم اللاهوت لم يكن لها شأن يذكر فى هذا البحث الضخم، ففى تاريخ علم الأخلاق يكشف لنا «الماضى الجديد» فجأة تلك الحقيقة التى ظلت مجهولة منذ زمن بعيد، وهى أن المدنية العبرانية بكل ما اشتملت عليه من وثائق ذات تأثير عميق فى المبادئ الدينية والخلقية، ليست إلا مرحلة من المراحل النهائية للرقى البشرى القديم، ذلك الرقى الذى سبقته عصور تجريبية منتجة ومبدعة فى الناحيتين الاجتماعية والخلقية على ضفاف النيل والفرات. ويجب علينا إذًا أن نمهد أذهاننا إلى قبول الحقيقة القائلة بأن الإرث الخلقى الذى ورثه المجتمع المتمدين الحديث يرجع أصله إلى زمن أقدم بكثير جداً من زمن استيطان العبرانيين فلسطين، وإن ذلك الإرث قد وصل إلينا من عهد لم يكن فيه الأدب العبرانى المدون فى التوراة قد وجد بعد.

وفى خطبة وعظ ألقاها حديثًا واعظ من أقدر الوعاظ الأمريكان، أجد أن اللمحة الآتية تتطلع إلى وقت إذا تصفح فيه مؤرخو المستقبل أخبار عصرنا رحبوا به «كعصر خطير»، أشرقت فيه شمس العدالة بالشفاء من جناحيها[11]. وهذه الاستعارة المتداولة مأخوذة بلاشك من الأدب العبرانى، ولكن كما سنرى قد استعارها العبرانيون من مصر حيث أشرقت «شمس العدالة» قبل أن تشرق على فلسطين بأكثر من ألفى سنة. وإذا قدر لهذه الشمس أن تشرق ثانية على جيلنا الحالى فإنها ستكون القمة لنهج الرقى البشرى الذى ظل يرقى بحياة الإنسان منذ آلاف السنين قبل عصر «الأنبياء» المعترف به من زمن بعيد عند رجال اللاهوت.

وسنرى الآن ماذا يكشف لنا «الماضى الجديد» كما أظهرته لنا أحدث البحوث الجديدة عما يختص بالخبرة الإنسانية القديمة التى وصلت بالإنسان لأول مرة إلى الشعور بأعلى القيم حتى انتهت مغامرته بانبثاق فجر الضمير وفتح عصر الأخلاق.

هوامش الفصل الأول

(١) وبعد عشر سنين من كتابة العبارة السابقة عثرت على ملاحظة «برجسون» القديمة الصائبة: «إذا أمكننا أن نخلص أنفسنا من كل كبرياء وإذ كنا ـ لأجل أن نعرف نوعنا ـ نتمسك بشدة بما يقدمه لنا التاريخ وما قبل التاريخ من خاصية ثابتة للرجل الفاضل فمن المحتمل أننا لن نقول Homosapiens ولكن نقول Homo Faber (الرجل الصانع). راجع H. Bergsin, L'evolution Credtrice, P. 151 Paris, 1921. وهنري لويس برجسون هو فيلسوف فرنسيّ من أصل يهودي ولد سنة ١٨٥٩م.

(٢) «بوشيه دي برث» (١٧٨٦ ـ ١٨٦٣) باحث عظيم في علم الإنسان وكاتب مشهور وله أشعار وأسفار في السياحة وكتب في علم الإنسان، وأهم مؤلفاته كتابه: في الخليقة De la creation راجع كتاب المعرب مصر القديمة ص ٣ جزء ١.

(٣) توماس هنري هكسلي ولد في إيلنج Ealing من أعمال إنجلتره عام ١٨٢٥ وقد دافع عن نظرية داروين عن أصل الخليقة، وقد كان أشهر المحاضرين في إنجلتره في العلوم وقد مات عن سبعين عام.

(٤) «السير شارلس ليل» من أكبر علماء طبقات الأرض. ولد في إيقوسيا سنة ١٧٩٧ وهو الذي أظهر أن الأسباب التي جعلت الدنيا التي نعيش فيها على ما هي عليه لا تزال سائرة في عملها هذا أمام أعيننا.

(٥) هو «شارلس رلن» المؤرخ الفرنسي ١٦٦١ ـ ١٧٢١م.

(٦) «السير هنري أوستن ليرد» مستشرق وأثري إنجليزيّ ولد عام ١٨١٧م.

(٧) ولاشك الآن في أن مدى إنسان العصر الحجريّ القديم (الباليوليتي) قد امتد كذلك إلى مسافة بعيدة نحو الشرق إلى أسيا القصوى.

(٨) إن الأبحاث التى قامت بها مساحة ما قبل التاريخ Prehistoric Survey التى يديرها المعهد الشرقىّ لجامعة شيكاغو Oriental Institute of the university of Chicago تحت إشراف الدكتور «كنث س. سندفورد» Kenneth S, Sandford. بصفته المدير، قد أظهرت أن جفاف شمالى أفريقية قد بدأ فى العصر الموستريانى من الزمن الباليوليتى (العهد الحجرىّ القديم) أى فى منتصف العهد الحجرىّ القديم واستمر فى العصر الحجرىّ الجديد (النيوليتى)، انظر كتاب:

K.S. Sandford & j. Arkell, Paleoliethic Man & the Nile Fairyum Divide, (Univesity of Chicago Press, 1928).

(٩) انظر المقال المفيد الذى كتبه.

(١٠) إن الاتحاد الأول هو كشف حديث ولم يكن معروفًا عندما نشأت طريقة تقسيم تاريخ مصر. إلى أسرات ملكية أما عهد الأسرات كما هو فبدايته ما يسمى «الاتحاد الثانى».

(١١) من خطبة دينية ألقاها الدكتور «هنري سلوان كفن» في ٢ أكتوبر سن ١٩٣٢ كما اقتبست في جريدة the new york times الصادرة في ٣ أكتوبر سنة ١٩٣٢ ص ١٢. علي أن ما سبق ذكره لا يقصد اعتبار الدكتور كفن واحدًا من رجال اللاهوت التقليديين.

الفصل الثانى

آلهة الطبيعة والمجتمع الإنسانى

إله الشمس

مما هو جدير بالاهتمام أن نلاحظ ما صار إليه الجنس البشرى فى مصر التى كانت تعتبر «جزيرة المنعمين» فى مدة خمسة آلاف سنة، وأن نقتفى ـ كما هو فى مقدورنا الآن ـ آثاره وهو متطور خلال بضعة أجيال كان يستعمل فيها الآلات والأسلحة الحجرية العتيقة إلى استعمال الأزميل النحاسى وبلوغه تلك الدقة البنائية العجيبة التى تتجلى لنا فى بناء الأهرام مع ضخامتها المدهشة، وارتقائه من سكنى الكوخ المصنوع من غصون الشجر إلى إقامة القصور الفاخرة الزاهية المجملة بالقيشانى والمؤثثة بالرياش الفاخر والذهب المرصع، ثم بعد ذلك نأخذ فى تفصيل تلك الخيوط الذهبية التى حيكت منها حياته المتعددة النواحى التى صارت فى النهاية تؤلف نسيجًا متينًا فخمًا من المدنية. وإننا نحاول هنا اقتفاء أثر خيط واحد فقط من تلك الخيوط التى حيك منها هذا النسيج، وذلك لأنه يتعرج هنا وهناك بالتواءاته الدقيقة المعقدة فى كل جهاته.

والواقع أنه لا توجد قوة أثرت فى حياة الإنسان القديم مثل قوة «الدين»، لأن تأثيرها يشاهد واضحًا فى كل نواحى نشاطه، ولم يكن أثر هذه القوة فى أقدم مراحلها الأولى إلا محاولة بسيطة ساذجة يتعرف بها الإنسان ما حوله فى العالم

ويخضعه بما فيه الآلهة لسيطرته، فصار وازع الدين هو المسيطر الأول عليه فى كل حين، فما يولده الدين من مخاوف هى شغله الشاغل، وما يوحى به من آمال هى ناصحه الدائم، وما أوجده من أعياد هى تقويمه السنوى، وشعائره ـ برمتها ـ هى المربية له والدافعة له على تنمية الفنون والآداب والعلوم.

على أن الدين لم يمس حياته فى جميع نواحيها فحسب، بل الواقع أن الحياة والفكر والدين امتزجت عنده بعضها ببعض امتزاجًا لا انفصام له يتكون منها كتلة واحدة تتداخل بعضها فى بعض مؤلفة من المؤثرات الخارجية والقوى الإنسانية الباطنة. ولذلك كان طبيعيًا ألا يقف الدين جامدًا من غير أن يتمشى مع هذه العوامل الدائمة التطور من مرحلة إلى مرحلة. هكذا كان الحال منذ أقدم العصور التى وصل إليها علمنا، وكل الأسباب تحملنا على الاعتقاد بأن الحال ستستمر كذلك: تطور وارتقاء. وسنرى الآن شيئًا من هذا التطور الذى ظل فيه الكفاح قائمًا بين العالم الظاهرى المحيط بالإنسان، والعالم الباطنى الكامن فى نفسه، حتى تكون الدين وتحدد وأفضى بالتدريج فى نهاية الأمر إلى ظهور المبادئ الأخلاقية عند أقدم مجتمع بشرى عظيم فى خلال مدة تربو على ثلاثة آلاف سنة.

وسيكون فى قدرتنا تتبع سير هذا المنهاج بأظهر بيان إذا ابتدأنا باستعراض ملخص تاريخىّ بسيط يكون بمثابة نظرة عجلى على مراحل تطور الرقى الأخلاقى عند المصريين الأقدمين. وجدير بنا إذ وصلنا إلى هذا المكان ألا ننسى الحقيقة المتفق عليها الآن وهى: أن الدين فى طوره الأول لم تكن له علاقة بالأخلاق كما نفهمها الآن؛ كما أن المبادئ الأخلاقية الأولى لم تكن سوى عادات شعبية قد لا تكون لها علاقة بالشعور بالآلهة أو الدين. وقد كانت مظاهر الطبيعة أول ما أشعر المصرى بوجود الآلهة، مثله فى ذلك مثل الشعوب الأخرى القدامى. فكانت الأشجار والينابيع والأحجار، وقمم التلال، والطيور والحيوانات فى نظره مخلوقات مثله أو مخلوقات حلت فيها قوى طبيعية غريبة لا سلطان له عليها. ومن ثم كانت الطبيعة أول مؤثر مبكر فى عقل الإنسان فوصف له العالم الظاهرى أولاً بعبارات دينية رهيبة، وصارت مظاهر الإلهية الأولى فى نظره هى

القوى المسيطرة على العالم المادىّ، فلم يكن فى تصورات الإنسان القديم بادئ أمره معنى لمملكة اجتماعية أو سياسية، بل ولا معنى لمملكة روحية تكون السيادة العليا فيها للآلهة. وكان أبعد ما يتوهمه عباد إله من هذه الإلهة أن إلههم يحمل فى نفسه فكرة الحق أو الباطل، أو أنه يرغب فى وضع هذه المطالب على كاهل عباده الذين كانوا يرون من جانبهم أن غاية ما يطلبه إلههم منهم هو تقديم القرابين زلفى له كما كانوا يفعلون لرئيسهم المحلى سواء بسواء. على أن أمثال هذه الآلهة كانت فى جملتها آلهة محلية كل منها معروف لدى منطقة معينة فقط، ولكن كثيرًا ما كان يمتد الاعتقاد فى إله ما إلى جهات بعيدة فى العالم القديم بسبب الهجرة أو انتشار السكان.

وفى العهد الذى جاء بعد سنة ٤٠٠٠ ق. م. بدأت الحكومة، أى النظام السياسىّ الذى كانت البلاد تحكم به فى عهد الاتحادين المتعاقبين، تحوز مكانة فى أذهان القوم بجانب ما حازته دنيا مظاهر الطبيعة. وهذان الاتحادان الذان يعدان أقدم ما عرف من الأنظمة القومية العظيمة فى تاريخ الإنسان قد وضعا أمام أعين الناس صورًا خلابة لمظاهر الحكومة، فكان لذلك على مر الزمن أعمق أثر فى الدين، ومن ثم بدأت المظاهر الحكومية تنتقل إلى عالم الإلهية حتى صار الإله العظيم يسمى فى بعض الأحيان «ملكًا».

وفى الوقت نفسه كانت علاقات الحياة الاجتماعية تؤثر تأثيرها فى الدين من زمن بعيد أيضًا. فوصلت دائرة حياة الأسرة إلى درجة سامية من الرقى تزينها العواطف الرقيقة التى أوشكت على التعبير عن مظاهر الرضى أو السخط، وأفضت إلى تصورات عن السلوك الحميد والسلوك المعيب. وبذلك بدأت المشاعر الباطنية «للضمير» تسمع صوتها للإنسان. ولأول مرة صار الإنسان يدرك القيم الأخلاقية كما نعرفها نحن الآن. وعلى ذلك أصبحت قوة الإنسان الظاهرة المنظمة، وقوة الوازع الخلقى الباطنة فيه، تؤلفان قوتين مبكرتين فى تشكيل الديانة المصرية. وتدل المصادر التى وصلت إلينا على أن الوازع الخلقى قد شعر به المصريون الأقدمون قبل أن يوجد الشعور به فى أى صقع آخر، فإن أقدم بحث عرف عن «الحق والباطل» فى تاريخ الإنسان عثر عليه فى ثنايا مسرحية «منفية» تشيد بعظمة مدينة «منف» وسيادتها، ويرجع تاريخها إلى منتصف الألف الرابع ق. م.

ويدل شكل هذه المسرحية بداهة على أنها بحث فى أصول العالم ما بين دينىّ وفلسفىّ، وهى من تأليف طائفة مفكرة من الكهنة فى المعابد المصرية، غير أن موضوعها لم يتناول ما كانت عليه حياة الشعب المصرىّ بأسره فى ذلك الحين. وسنرى كذلك كيف أن عامة الشعب أخذت بدورها فيما بعد تشعر بالوازع الخلقى الذى يصرّفها فى حياتها. وعلى ذلك يكون الشعور الخلقى قد انحدر تدريجيًا من طبقة أشراف رجال البلاط الملكىّ وطائفة كهنة المعابد إلى أشراف رجال الأقاليم أولاً ثم إلى عامة أفراد الشعب ثانيًا.

وقد ظهرت أقدم فكرة عن النظام الخلقى تجرى على قواعد راسخة فى عهد الاتحاد الثانى تحت سيطرة حكومة ثابتة، وهذا النظام كان يعبر عنه فى اللغة المصرية القديمة بكلمة مصرية قديمة واحدة جامعة لها خطرها هى كلمة «ماعت»، ويراد بها الحق أو العدالة أو الصدق. وقد مكث هذا النظام راسخًا مدة ألف سنة من القرن الخامس والثلاثين إلى القرن الخامس والعشرين ق. م. وقد كان لهذا النظام الأثر العميق فى العقل البشرى، فلما سقط هذا النظام فى نهاية ألف السنة المذكورة حلت بالحياة البشرية كارثة تشبه الكارثة التى حلت بالمدينة الخالدة فى أوروبا[1]، وغيرت نظر بنى البشر نحو الحياة، إذ فى فترة الضعف السياسى التى جاءت عقب سقوط هذا النظام بدأت القيم الخلقية الباطنة التى لا يمكن محوها تدرك من جديد بحالة واضحة أكثر من ذى قبل. ففى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد كتب أحد ملوك «أهناس» (وهو مجهول الشخصية فيما عدا ذلك) لابنه وخلفه كتابًا يذكر فيه ما للقيمة الخلقية من سمو المنزلة.

ولما أصبحت الأخلاق منبوذة إثر سقوط النظام الخلقى القديم، وتدهورت الفضيلة نفسها «ماعت» حتى صارت لا تدرك إلا بشعور خلقى أكثر حساسية عن ذى قبل، ظهر المجتمع الفاسد الأخلاق المنحل النظام الذى جاء بعد عصر الأهرام بشكل لا أمل فى إصلاحه فى نظر بعض فلاسفة الاجتماع الذين هالهم ما رأوه من تداعى ذلك النظام الخلقى القديم، ثم ظهر على أثر ذلك لأول مرة فى التاريخ عصر التشاؤم وزوال الوهم، فإن رسل الاجتماع فى ذلك الوقت رسموا لنا صورة بشعة عما كان موجودًا من الفساد والفوضى فى ذلك العهد، فأظهروها بعبارات

مملوءة بالتهديد والتوعد، وبالغوا فى وصف ذلك أيما مبالغة، حتى أنهم فى إحدى الحالات وجهوا تلك التهديدات لشخصية الملك نفسه. غير أنه على الرغم من ذلك كان لا يزال هناك نفر من بين هؤلاء الحكماء المصريين ممن لم يفقدوا الأمل فى الإصلاح، فقاموا بأول جهاد مقدس لإنقاذ العدالة الاجتماعية. ومن المدهش حقًا أن كان المثل الأعلى لحكماء الاجتماع هؤلاء آخذًا شكل رسالة التبشير بقدوم المخلّص التى جاءت فيما بعد، وهى الاعتقاد بمجىء حاكم عادل يكون فاتحة عصر ذهبىّ لإقامة العدالة بين جميع بنى البشر، وقد ورث عنهم العبرانيون هذا الاعتقاد فيما بعد.

وفى العهد الذى عادت فيه الحكومة المنظمة للبلاد وتقدم المجتمع الإقليمى فى العهد الإقطاعى الذى ابتدأ قبل حلول عام ٢٠٠٠ ق. م. ظهر تأثير هذا الجهاد المقدس فى شكل المطالبة بالعدالة الاجتماعية، وتمثل ذلك فى تصور نظام ملكى سمح أبوىّ رحيم يحمى المثل العليا للمساواة الاجتماعية. ولما كان عالم الآلهة لا يزال على اتصال وثيق بشئون الأمة السياسية، فإنها لم تلبث أن أحست بهذا التأثير الجديد، فانتقلت صفات العدالة الاجتماعية من وصفها للحكومة الملكية الفاضلة إلى صفات إله الدولة، فازدادت بذلك المزايا الخلقية التى كانت تنسب إلى حد ما للإله طوال مدة تربو على ألف سنة، فقد كان الإله فى نظر أتباعه من زمن بعيد يعتبر «ملكًا» فأصبح الآن زيادة فى ذلك «ملكًا فاضلاً» بالمعنى الاجتماعى، يريد من أتباعه أيضًا أن يعيشوا عيشة فاضلة.

وإننا نجد الاعتقاد بوجود إله يهب الحياة للطيب ويقدر الموت للخبيث، واردًا فى «المسرحية المنفية» التى كتبت فى منتصف الألف الرابع، قبل الميلاد، أما فكرة المحاكمة فى «الحياة الآخرة»، وقد أخذت تتحدد بوضوح مطرد امتد إلى ما بعد عام ٢٠٠٠ ق. م. فلم تكن الفكرة فى أقدم أشكالها تفترض حضور جميع الناس أمام المحكمة، إنما افترضت محكمة عدالة كالتى توجد على وجه الأرض يحضر أمامها الأفراد لإصلاح الخطأ، فكان فى أول الأمر لزامًا على الشخص المتهم فقط أن يحضر أمام المحكمة فى «الحياة الآخرة» ليظهر براءة نفسه. على أن فكرة المحاكمة العامة نشأت فى باكورة العهد الإقطاعى قبل عام ألفين قبل

الميلاد، ثم أصبحت المحاكمة فيما بعد فى أوائل عهد الدولة الحديثة (قرابة ١٦٠٠ ق. م.) لا تقتصر على حصر تفصيلى لكل المخالفات الخلقية، وإنما صارت امتحانًا خلقيًا قاسيًا، بل معيارًا شاملاً للقيمة الخلقية لحياة كل إنسان.

وقد أصبح الشعور بمثل هذه المحاكمة وازعًا خلقيًا قويًا كما أراده أولئك الحكماء الذين خلقوه، غير أن سلطان تلك المحاكمة ما لبث أن مُسخ مبكرًا بالعوامل السحرية التى جاءت فى كتاب الموتى الذى ألفه كهنة المعابد للكسب منه. إذ زعموا فيه أن يكون وسيلة تساعد الميت على التخلص من العقوبة بمخادعة وتضليل ذلك القاضى الرهيب.

وفى القرن السادس عشر ق. م ابتدأ عصر الفتوحات الدولية: السياسية منها والدينية، فاتسع بذلك أفق التفكير الدينى حتى وصل بعد عام ١٤٠٠ ق. م. إلى قمته بظهور أول عقيدة للتوحيد عرفها التاريخ. على أن وجود السيادة لإله واحد عالمى لم تزد شيئًا فى الرقى الخلقى عند المصريين الأقدمين، لأن ثروة العاهلية قد أفسدت أخلاق الكهنة. وإن آخر تطور خلقىّ عظيم فى الديانة المصرية مما حدث فيما بعد، نشأ على ما يظهر خارج المعابد بعيدًا عن ديانة الحكومة إذ ذاك (١٣٠٠ - ١٠٠٠ ق. م.) وكان ذلك التطور يرمى إلى الشعور بالخطيئة أى إلى اعتراف المؤمن بحقارة نفسه مع امتزاج ذلك بالثقة الشخصية العميقة فى رحمة الله وعدله وعنايته الأبوية إلى أن يؤدى ذلك به إلى اتصال روحى بالله. ولقد أحدثت تعاليم الحكماء المصريين فى ذلك العصر بوجه خاص تأثيرًا عميقًا فى التفكير العبرانى الدينى، وباستيطان هذه التعاليم فى فلسطين قطعت المرحلة الأولى فى انتقالها الطويل من مصر لتصل إلينا نحن أهل هذا العالم الحديث. على أنه فى مصر نفسها أخذت هذه الحال التى تعتبر أقدم ما عرف عن الزهد والورع الشخصى فى معناه الروحى العميق تنحط بالتدريج بتأثير رجال الكهانة الذين تطرفوا بتغاليهم فى دينهم فى أيام الحكم الإغريقىّ الرومانىّ فى مصر.

وهكذا يمر أمامنا دور عظيم من الخبرة البشرية كاشفًا لنا فى مدى ثلاثة آلاف سنة من حوالى ٤٠٠٠ سنة ق. م، عن ظهور أول مجتمع إنسانى عظيم وانتقاله من مرحلة إلى مرحلة أخرى فى أطول تطور أخلاقى يمكن للباحث

تعقبه فى مدة حياة أى مجتمع بشرى. وتظهر لنا خطورة هذا التطور بوجه خاص إذا راعينا أنه على ما نعلم كان أول شىء فى بابه وأنه بذلك أثبت وجود حقيقة لم تكن معلومة من قبل وهى: أن أرقى ذوات الثدى التى برزت على هذا الكوكب لم يكن فى مقدورها فحسب أن ترقى إلى ذلك الأفق من التمدن الذى عيناه من قبل، بل إن هذا الرقى كان يشتمل كذلك على إدراك قيم جديدة سامية انتقلت بالتطور الإنسانى إلى أسمى عالم خلقى لم يسبق له نظير. وبإماطة اللثام عن ذلك العالم الجديد للإنسان دخلت لأول مرة أمثال هذه العناصر الخلقية فى ذلك التطور العظيم فى حياة البشر الأولى فى مصر وخارجها. ولابد أن تطور حياة مثل هذه الأمة العظيمة وآدابها خلال ثلاثة آلاف من السنين قد أثر تأثيرًا عميقًا مطردًا على أقرب جيرانها فى فلسطين خاصة بل على كل أنحاء الشرق الأدنى، وأن النهضة التى أوجدتها هذه الحركة بين العبرانيين قد أفضت إلى تقليد خلقى ودينّى انتقل فيما بعد إلى المدنية الغربية واستمرت بذلك مراحله الأخيرة عاملاً خلقيًا قويًا فى حياتنا إلى اليوم.

ويمكننا الآن بعد أن استوعبنا المختصر العاجل أن نتعقب بحثًا أوسع عن ذلك التطور الطويل المدى الذى ارتقى به أهل وادى النيل إلى المثل العليا فى الأخلاق. على أن المصادر التى لدينا لدرس الرقى الخلقى فى العصور الأولى لمثل هذا الشعب القديم ضئيلة جدًا، ونجدها كذلك إلى أن نصل إلى عصر اختراع الكتابة التى أفضت إلى وجود «المصادر المدونة».

وأقدم هذه «المصادر» لا تبدأ تفيدنا فى مصر إلا بعد عام ٣٠٠٠ ق. م. مع أنه توجد لدينا «مصادر» متأخرة عن ذلك تلقى ضوءًا مهمًا على ما سبق هذا العهد من مراحل رقى الأجداد وتقدمهم. ولكن «المصادر» المكتوبة وحدها لا يمكن أن ترجع بنا أبدًا إلى بداية التطور.

أما ما نعتمد عليه فى معلوماتنا عن أقدم حياة عرفت للإنسان فى وادى النيل فهو الوثائق المادية المحضة، وهى تكاد تنحصر فى الأسلحة والآلات الحجرية، وفيما يلى ذلك تكشف لنا «جبانات عصر ما قبل التاريخ» التى تحتوى على الآلاف من القبور العتيقة المنتشرة على حافة الصحراء شيئًا عن المعتقدات

الدينية التى كان سكان وادى النيل يدينون بها فى الأيام الخالية التى يرجع عهدها إلى العصر الحجرىّ الأخير. والزمن الذى بين أقدم أمثال هذه المصادر التى هى من عصر ما قبل التاريخ إلى أحدثها زمن يقدر بمئات آلاف السنين وذلك على أقل تقدير ممكن.

ولا نكون مخطئين إذا قررنا هنا أن أقدم المصريين عهدًا كانوا يعبدون آلهة ليست لهم صفات خلقية، كما كانت لهم طائفة من العادات لم تكن قد بلغت بعد مرحلة الأخلاق، فهم فى ذلك كالأقوام الذين لا يزالون يعيشون فى طور السذاجة الفطرية البحتة، وإذا فحصنا الديانة المصرية كما نجدها فى أقدم الوثائق التى وصلت إلينا وحاولنا أن نستخلص من تحليل أهم الانطباعات التى نجدها مصورة هنالك، تلك الانطباعات التى أخذها المصريون عن عالم الطبيعة، فإن ذلك يلقى بعض الضوء على الآراء التى كانت متداولة فى العصر الذى سبق الاهتداء إلى الكتابة.

فمن الواضح أن ظاهرتين عظيمتين طبيعيتين قد أثرتا أعظم تأثير فى سكان وادى النيل، فقد تصور القوم فى هاتين الظاهرتين إلهين اثنين كان لهما السيطرة على كل من التطور الدينىّ والعقلىّ منذ أقدم العهود التى عرفت. وهاتان الظاهرتان هما الشمس والنيل {أو الخضرة التى تروى من مائه}. وأما الإلهان فهما إله الشمس «رع» وإله الخضرة «أوزير»، وكان الإلهين العظيمين فى الحياة المصرية القديمة، وقد دخلا فى دور تنافس منذ عهد مبكر جدًا، فكان كل واحد منهما يبغى لنفسه أسمى مكانة فى ديانة القوم، ولم ينقطع هذا التنافس قط إلا عندما محيت الديانة المصرية فى ختام القرن الخامس المسيحىّ. ومن يقف على أصول قصة هذا التنافس الطويل يقف على المنهاج الرئيسى فى تاريخ الديانة المصرية القديمة، بل لا نكون مغالين إذا قلنا إنه يقف على دور عظيم من أهم الأدوار فى تاريخ حياة الإنسان.

وإن أبرز حقيقة هيمنت على وادى النيل هى قوة الشمس فى مصر وجلالها الشامل لكل الكون، ولا يزال ذلك ماثلاً إلى أيامنا هذه يشاهده السائح الحديث

العهد بالبلاد المصرية عندما ينظر إلى الشمس لأول مرة. ولاشك أن المصرىّ شاهدها فى أشكال متنوعة كانت فى الأصل أشكالاً محلية.

ومن المحتمل جدًا أن أقدم صورة تخيلها المصرى لإله الشمس يرجع تاريخها إلى العهد الذى كان لا يزال فيه مصريو عصر ما قبل التاريخ يعيشون عيشة الصيد فى مناقع الدلتا، وذلك عندما تخيلوا إله الشمس فى شكل صياد يدفع أو يجدف فى زورق يشبه الرمث مؤلف من حزمتين من الغاب ليعبر به مستنقعات الغاب، ولا تزال لمحات عن هذا التصور العتيق محفوظة لنا فى أقدم فقرات «متون الأهرام»، إذ كثيرًا ما نجد فيها إله الشمس مصورًا بصورة إنسان يجدف عبر المستنقعات السماوية فى زورق الغاب المزدوج. وهذا هو «رع» أى الشمس المجسمة التى تصورها أقدم سكان وادى النيل من قبل فى شكل إنسان جعلوا مقره «هليوبوليس» (عين شمس) حيث حل محل إله شمس قديم يدعى «آتوم» وأصبح أعظم إله فى مصر.

وفى «إدفو» بالوجه القبلى تقمص إله الشمس صقرًا، لأن تحليق هذا الطائر المرتفع كان يخيل للقوم أنه يكاد يكون رفيق الشمس فى علوها، وهذا ما ساق خيال فلاحى وادى النيل المبكرين الأول إلى أن الشمس لابد أن تكون صقرًا مثله، يقوم بطيرانه اليومى عبر السماوات، ومن أجل ذلك أصبح قرص الشمس ذو الجناحين المنشورين أعم رمز فى الديانة المصرية القديمة. وقد انحدرت إلينا هذه الفكرة عن طريق الأدب العبرانىّ فى تشابيهه التى منها «جناح الصباح» و«شمس العدالة»... التى تحمل الشفاء فى جناحيها. وكان إله الشمس بصفته صقرًا يسمى «حور» [حوريس أو حوروس أو «حور أختى»] أى حور الأفق، ولا تزال توجد آثار بعض المميزات بين آلهة الشمس المحلية العتيقة فى متون الأهرام، وقد ابتدأت عملية مزج فى عهد مبكر بين هذه الآلهة فضمتها كلها بعضها إلى بعض ووحدتها حتى أن إله الشمس كان يسمى «رع حور أختى» أو «رع آتوم»، وقد أسرع كبراء رجال المعابد المحلية إلى التعجيل بهذه العملية إذ كان كل من تلك المعابد يجرى وراء نيل الشرف بادعائه أن مكانه هو الذى ولد فيه إله الشمس.

وقد بقى إله الشمس إلهًا يمثل الطبيعة عصورًا طويلة فيما قبل التاريخ، فكان بذلك إله الشمس فى أقدم العصور الغابرة مقصورًا على الوظائف المادية، ولذلك كان يظهر فى أقدم معابد الشمس بأبى صير بأنه منبع الحياة والخير، وقالت عنه الناس: «لقد أبعدت العاصفة وأزجيت المطر وحطمت السحاب» وكانت هذه الظواهر فى نظرهم أعداء له، وكانت بطبيعة الحال مجسمة كذلك فى أساطير العامة إذ ورد فى إحدى الأساطير أن إله الشمس فقد عينه بيد عدوه.

ولما كان وادى النيل الذى ظهر فيه إله الشمس منذ زمن بعيد بمظهر قوى من قوى الطبيعة قد أخذ ينتقل بالتدريج إلى مكانة أمة عظيمة، فإن ميدان عمل إله الشمس أصبح بالضرورة ميدان الحياة البشرية والشئون القومية.

أما الخطوات التى نتج عنها الاتحاد الأول للبلاد فلا نعلم عنها شيئًا، غير أنه من المؤكد أن أميرًا من مدينة «إيون» وهى التى أطلق عليها الإغريق فيما بعد اسم «هليوبوليس» قام بإخضاع الإمارات المصرية الأخرى فى عهد ما قبل التاريخ ووحد المملكة لأول مرة تحت حكم ملك واحد. ومن المحتمل أن هذا العمل حدث قبل سنة ٤٠٠٠ ق. م. ومع أنه لم يصلنا عن اسم هذا الملك صدى واحد فى خلال الفترة التى انقضت منذ ذلك العهد، وتقدر بنحو ٦٠٠٠ سنة، فإن عمله قد ترك أثرًا خالدًا فى حياة مصر ومدنيتها، لأنه أسس وأدار أول نظام قومىّ عظيم خضعت له حياة عدة ملايين من الأنفس. ولا يفوتنا أن نعيد إلى ذاكرتنا هنا أن هذا الاتحاد الأول ظل ثابتا فى البلاد بضعة قرون، وبعد انهياره عمت البلاد ثانية فترة انحلال أعقبها قرابة ٣٤٠٠ ق. م فتح آخر للإقطاعات السياسية فانضم بعضها إلى بعض وتألف منها جميعًا ما نسميه «بالاتحاد الثانى». وقد أعطت زعامة «هليوبوليس» فى عهد الاتحاد الأول نفوذًا وشهرة لهذه المدينة لم تفقدهما قط فيما بعد، فقد أثرت على المدنية المصرية تأثيرًا عميقًا كانت فيه المكانة السامية لإله الشمس، وإلى تأثير عهد الاتحاد الأول يرجع السبب فى انتقال الأوضاع والمميزات الحكومية الدنيوية التى كانت تسير عليها الحكومة المصرية إلى أنظمة إله الشمس فى «هليوبوليس» بصفته الإله القومى، فأصبح ملك كل الآلهة وخاطبه الناس بقولهم: «إنك أنت الذى تشرف على كل الآلهة ولا

يشرف عليك إله ما». وكذلك أصبح هو فى الوقت نفسه الحاكم الأعلى المتصرف فى مصير كل الناس. بذلك انتقل إله الشمس من عالم الطبيعة إلى عالم الناس فأصبح فيه ملكًا قديمًا كان قد حكم مصر يومًا ما، كما حكمها الفراعنة من بعده. وقد تغيرت مظاهره الخارجية تبعًا لهذا التحول، فتحول زورق الغاب المزدوج الذى كان يسبح فيه إله الشمس فيما قبل التاريخ إلى سفينة ملكية فاخرة مثل سفينة فرعون الأرضية، وكان الاعتقاد أن إله الشمس يعبر بأبهته فى هذه السفينة الشمسية الساطعة المحيط السماوى كما كان فرعون يعبر النيل، وكانت له سفينتان: واحدة للصباح وأخرى للمساء. وقد ظهرت أساطير عدة تتحدث عن حكم إله الشمس على الأرض، غير أنه لم يبق منها إلا قطع صغيرة، فمنها الأسطورة التى تقص علينا ما أظهره نحوه بنو البشر بصفتهم رعاياه من نكران الجميل نحوه حتى إنه اضطر إلى معاقبتهم، وكاد يفنيهم قبل أن يترك الأرض ويعتزل فى السماء.

ومع أن المصريين ظلوا يشيرون بغبطة وسرور إلى حوادث هذه الأساطير الساذجة وامتلأ أدبهم الدينى بالتلميحات إلى تلك الخرافات حتى آخر عهده، فإنهم عندما ظهروا فى شكل أمة موحدة كانوا قد أدركوا أن إله الشمس يقوم بوظائف رفعته فوق مثل هذه التخيلات الصبيانية. وجعلته المتصرف والحاكم العظيم على الأمة المصرية.

وهذا الانتقال الأساسى الذى يعد أول ما عرف فى التاريخ من نوعه قد نقل بذلك نشاط إله الشمس الذى كان منحصرًا فى دنيا المادة وحدها إلى مملكة الشئون البشرية. ولدينا أنشودة للشمس فى متون الأهرام يحتمل أنها نشأت فى ذلك العهد للاتحاد الأول؛ ونجد فى هذه الأنشودة التى تعد أقدم ما وصل إلينا من نوعه أن موضع الإشادة بإله الشمس هو سيادته على «شئون مصر»، إذ تبسط لنا الأنشودة المعاونة الصالحة التى يقوم بتقديمها الإله لأرض مصر والإشراف عليها، بل إنها تنشر أمامنا فى أسطر متعاقبة عقود المدح لما يقوم به هذا الإله العظيم لحماية مصر من أعدائها.

وكذلك كان إله الشمس حليفًا لفرعون وحاميًا له، فإن متون الأهرام تقول عنه: «إنه يمكِّن له مصر العليا، ويمكن له مصر السفلى ويهدم له معاقل آسيا، ويخضع له كل الناس[٢] {المصريين} الذين سواهم بأصابعه». وهكذا فإنه بدخول إله الشمس فى عالم الشئون البشرية أخذ هذا الإله (فى عرف القوم) يشعر كأى فرد تابع لحكومة بشرية، أو كأى عضو فى جماعة دنيوية، بتأثيرات المجتمع الإنسانى، تلك التأثيرات التى صارت عاملاً يعمل على تهيئة الإله وتسويته فى نهاية الأمر ليجعل منه أول إله خلقى عادل عرفه التاريخ.

هوامش الفصل الثانى:

(١) يقصد بالمدينة الخالدة: روما.

(٢) كلمة الناس هنا لا تطلق إلا على أهل مصر فقط.

الفصل الثالث

إله الشمس وفجر المبادئ الأخلاقية

لم يعثر للآن على أثر ملكىّ واحد من عهد الاتحاد الأول. وإذا كان لا يزال فى الوجود شىء من هذه الآثار فلابد أن تكون مدفونة على عمق بعيد تحت غرين النيل المشبع بالماء فى مصر السفلى، ذلك الغرين الذى ظل يتراكم مدة آلاف من السنين على بقايا ودمن بلدة «هليوبوليس» (عين شمس) التى وجدت فى عصر ما قبل التاريخ. ومع ذلك فإن الأزمان التى تلت تلك العصور قد حفظت لنا ذكريات عن تلك العهود القديمة كما سبق أن أشرنا إلى ذلك، بل إنها حفظت لنا ذكريات عن تلك الأزمان السحيقة جدًا التى سبقت عهد توحيد مصر تحت حكم ملك واحد. والواقع أنه قد وصل إلينا صورة من المتن الحقيقىّ لوثيقة دونت فى بداية عهد الاتحاد الثانى، وهذه الصورة منقوشة على حجر أسود محفوظ الآن بالمتحف البريطانى، وذلك الحجر كان قد استعمله بعض القرويين أخيرًا قاعدة لحجر طاحون لطحن غلالهم، وقد استمروا فى إدارة حجر الطاحون الأعلى عليه مدة أعوام دون أن يفقهوا شيئًا مما كانوا يمحونه بذلك من النقوش.

على أن ما بقى مقروءًا على ذلك الحجر المهم من الفقرات المشوهة، له أهمية لا تقدر بثمن. على أننا نفهم فى الحال شيئًا عن أصل ذلك الحجر من سطر فى أعلاه، نقوشه الهيروغليفية غاية فى الوضوح، فنجد فيه اسم «شبكا» ذلك الفرعون الأثيوبىّ الذى حكم مصر خلال القرن الثامن قبل الميلاد، ويلى اسم ذلك الفرعون نقوش تقول: «إن جلالته {يعنى نفسه} نقل هذه الكتابات من جديد فى

بيت والده «بتاح جنوبى جداره» وقد وجدها جلالته بمثابة عمل خلفه الأجداد قد أكله الدود حتى أصبح لا يمكن قراءته من البداية للنهاية، وإذ ذاك قام جلالته بكتابته من جديد حتى أصبح أكثر جمالاً مما كان عليه من قبل». ومن ذلك نرى أن ملك مصر الأثيوبىّ الذى عاش فى القرن الثامن قبل الميلاد اهتم بالمحافظة على الكتابة القديمة التى خلفها «الأجداد» ولابد أنها كانت مدونة على ورق البردى وإلا لما استطاع الدود أن يأكلها.

وقد نقل «شبكا» لحسن حظنا نسخته الجديدة على الحجر لتبقى محفوظة على الدوام، ومع ذلك لو بقى هذا الحجر يطحن عليه بضع سنين أخرى لقضى على أقدم مسرحية فى العالم وعلى أول بحث فلسفى وصل إلينا من العالم القديم.

وقد انقضى الآن جيل على الفترة التى كنت أقضى فيها أيام الصيف الخانقة جالسًا على كرسى منخفض تحت نافذة فى المتحف البريطانى أحاول أن أعكس بعض الضوء من النافذة التى كانت فوقى بمرآة يد على الحجر الذى كان موضوعًا تحت عتبة تلك النافذة بشكل لم يترك مجالاً لسقوط نور تلك النافذة عليه. وقد كان ذلك قبل ظهور كشافات اليد الكهربائية القوية، ولذلك كان نقل مثل هذه النقوش يسير ببطء وبصعوبة لتآكلها حتى أنها كانت أحيانا لا يمكن الاهتداء لقراءتها كلية، ولا سيما أنها نقشت على حجر أسود حالك. وكانت نقوش ذلك الحجر موزعة فى أعمدة أو أسطر عمودية. ويجوز فى الكتابة المصرية القديمة أن يكون ترتيب الأعمدة عند قراءة مثل تلك النقوش من اليمين إلى الشمال أو من الشمال إلى اليمين وذلك حسب اتجاه وجوه الحروف الهيروغليفية التى تواجه عادة بداية النقش. وكانت كل الإشارات فى ذلك النقش تواجه اليمين دالة على أن بدايته كانت من جهة اليمين. وعلى ذلك بدأت بنقل المتن من العمود الأول على اليد اليمنى، وكنت أتدرج فى النقل من عمود إلى عمود متجها نحو الشمال، ولكن لاحظت مع ذلك بغتة عند أسفل عمود من الأعمدة، أن معنى إحدى الجمل كان مستمرًا فى العمود التالى من اليمين لا فى العمود التالى من اليسار كما كان متوقعًا.

ومن ذلك ظهر لى فجأة أن هذا النقش كان من النقوش القليلة المعروفة التى كتبت بإشارات معكوسة [أى أن الإشارات لم تتجه الاتجاه العادى]. وعلى ذلك كان العلماء يقرءونها إلى الآن بوضع مقلوب نتجت عنه سلسلة فقرات متقطعة يتبع بعضها بعضا بدون أى ارتباط بينها من النهاية إلى البداية، فلما قرأت هذه الأعمدة بترتيبها الصحيح بدأت تقص على قصة من أروع القصص، غير أنها قصة مؤلفة من نتف وبعض أجزائها لم تمكن قراءته مطلقًا حتى أنه كان من العسير جدًا فهمها. ويرجع السبب فى ذلك إلى أن حجر الطاحون العلوىّ كان يلف على وسط قاعدة حجر الطاحون المكتوبة، فضلاً عن أن الطحان كان قد حفر حفرة فى وسط هذه القاعدة تتفرع منها قنوات تشبه الأشعة التى تخرج من قطب العجلة، وقد محا ذلك الطحان الغشوم تمامًا ثلث النقش القديم من جهة الوسط تاركًا ثلثًا ضئيلاً منه على اليسار عند البداية وثلثًا آخر عند الطرف الأيمن، ولذلك أصبح من المستحيل أن ندرك أى اتصال فى المعنى بين الأعمدة التى على اليسار والأعمدة التى على اليمين.

ومن يوم أن نشرت متن النقش مع محاولة مبدئية لترجمته قضى العلماء فى البحث جيلاً بأكمله حتى أمكن الوصول إلى فهم صحيح لنوع المتن ومحتوياته بل لتحديد تاريخه. ونخص بالذكر من بين هؤلاء العلماء الذين درسوا هذا النقش «إرمان» ثم «زيته». وقد سمى «شبكا» الأثيوبىّ هذا المتن فى القرن الثامن قبل الميلاد «تأليف الأجداد»، وهو تعبير مبهم يوحى لنا أن كتَّاب هذا الملك المتفقهين لم يكن لديهم فكرة عن أن الكتابة التى كانوا ينسخونها كان عمرها إذ ذاك يزيد عن ٢٥٠٠ سنة. ولكن لغة هذه الكتابة القديمة ومحتوياتها لم تدع مجالاً لأى شك عن شدة قدم أصلها لأن لغة الوثيقة تحتوى على اصطلاحات تدل على أنها قديمة جدًا. كما أن المتن يكشف لنا عن موقف تاريخىّ يدل بداهة على أن وقوعه لا يمكن إلا من بداية الاتحاد الثانى [أى فى عهد تأسيس الأسرة الأولى على يد مينا قرابة سنة ٣٤٠٠ ق. م]. وعلى ذلك يكون ذلك المتن من إنتاج الحضارة المصرية فى منتصف الألف الرابع قبل الميلاد، وبذلك يكون قد أعطى لنا صورة من أفكار أقدم بنى البشر لم يصل إلينا مثلها مدونة إلى الآن.

وقد تركت لنا الفجوة المؤلمة التى فى وسط الحجر ـ كما أسلفت ـ جزءًا من المتن على اليسار هو البداية، وجزءًا على اليمين هو الخاتمة، ويقسم المتن الذى فى البداية فواصل متكررة تجعله على صورة فصول صغيرة معظمها فى شكل عبارات يخاطب بها الآلهة المختلفون بعضهم بعضًا. ونجد غالبًا عند بداية كل عبارة من تلك العبارات علامتين هيروغليفيتين تدلان على اسمى إلهين، والعلامتان مرتبتان فى وضع يجعل كلا منهما تواجه الأخرى كأن كلا الإلهين يحادث أحدهما الآخر، وهذا يطابق محتويات المتن فإنها تثبت أنهما كانا يتحادثان فعلاً. وقد عثر الأستاذ «زيته» فيما بعد على مجموعة محادثات منظمة على مثل هذا النمط ومدونة على بردية يرجع تاريخها إلى سنة ٢٠٠٠ ق. م، وتلك المحادثات مصحوبة بملاحظات وصور يستدل منها على أنها لابد أن تكون تعليمات مسرحية[١]، أى أن البردية التى درسها الأستاذ «زيته» هى مسرحية قديمة ونجد أن ترتيب أعمدتها مطابق تمامًا لمتن حجر المتحف البريطانى ـ الذى نحن بصدده ـ وهذا جعل الأستاذ «إرمان»[٢] يظن أن المدون على هذا الحجر هو مسرحية قديمة أيضًا. وقد محيت خاتمة هذه المسرحية التى تعد بلا شك أقدم ما عرف من نوعها من جراء الثقب الذى حفر فى وسط حجر الطاحون المذكور. وفيما وراء الفجوة تجاه الطرف الأيمن من الحجر نجد بحثًا فلسفيًا يبدو من الصعب أن نربطه بالمسرحية. ويرى «زيته» أنه من الضرورىّ أن نفهم أن أحد رجال الدين المشهورين أو كاهنا مرتلاً كان يلقى جزءًا كبيرًا من الرواية التمثيلية فى شكل خطبة مطولة يظهر الآلهة المقصودون خلال إلقائها عند قص حادثة فى الأسطورة فيلقون أقوالهم فى شكل محاورة، وذلك هو السبب الذى من أجله نجد المحاورات التى كان يقوم بإلقائها الآلهة المختلفون الذين أسهموا فى التمثيل منتشرة بين أجزاء المسرحية، بشكل جعل أمثال هذه المحاورات أيضًا تمثيلية فى شكلها. والوثيقة تشبه كل الشبه بحالة تلفت النظر القصص المقدسة التى مثلت فى المسرحيات المسيحية الرمزية فى القرون الوسطى، والمسرحية المنفية التى تعد أقدم سلف لها.

ونجد فى كل من الجزء المسرحىّ والبحث الفلسفىّ أن «بتاح» إله منف يقوم بدور إله الشمس الذى يعتبر إله مصر الأسمى. وذلك يفسر لنا العادة التى أشرنا

إليها من قبل (ص ٥٧ ـ ٥٨) والتى كان يسعى بها الإله المحلى للحصول على عظمة إله الشمس وبهائه، بأن يتقلد مركزه ويلعب الدور الذى لعبه فى تاريخ مصر الخرافىّ ومنشأه. وإن سيادة «بتاح» فى تلك المسرحية تدل بوضوح على تزعم مدينة «منف» تزعمًا سياسيًا، وتلك الزعامة ترجع فى هذه الحالة إلى انتصارات «مينا» مؤسس الأسرة الأولى. وذلك الملك وإن كان مولده فى تنيس بمصر العليا هو الذى أسس «منف» لتكون عاصمة له ومقرًا لملكه. وبالرغم من ظهور أصل تلك المسرحية فى منف فإن المنبع الأصلى لمحتوياتها العجيبة كان بلا شك بلدة «هليوبوليس». فإننا نجد فيها تلك الفلسفة اللاهوتية التى اشتهر بها كهنة «عين شمس» والتى وصلوا بها فى عهد الاتحاد الأول إلى المرحلة التى أخذ عنها كهنة «منف» فى تمجيد إلههم «بتاح».

فهذه المسرحية تبرز لنا إذًا إله الطبيعة القديم وهو إله الشمس «رع» متحولاً تمامًا إلى قاض يحكم فى شئون البشر، تلك الشئون التى أصبحت ينظر إليها من الناحية الخلقية، فهو يحكم عالمًا يرى من واجبه توجيه حياة البشر فيه طبقًا لقواعد تفصل بين الحق والباطل. وإنه من المدهش جدًا أن نجد أن أمثال هذه الأفكار كانت قد ظهرت فعلاً فى منتصف الألف الرابع قبل الميلاد.

ويمكن تلخيص محتويات هذه المسرحية بأنها محاولة لتفسير أصل جميع الأشياء ويدخل فى ذلك نظام العالم الخلقىّ، وأن هذه الأصول جميعًا ترجع إلى «بتاح» إله «منف». أما كل العوامل الأخرى التى ساعدت على خلق العالم أو المخلوقات التى كان لها نصيب فى ذلك فلم تكن إلا مجرد صور أو مظاهر لبتاح إله «منف» المحلىّ المسيطر على أصحاب الحرف والصناعات والذى يعتبر إله كل الحرف.

وتدلك المسرحية على أن فتح «مينا» مصر واتخاذه «منف» الواقعة فى الوسط بين الوجه القبلىّ والوجه البحرىّ عاصمة له ومقرًا لملكه لم يكن إلا خطوة نحو إظهار بتاح بمظهر الصانع الأعظم الذى خلق العالم. وقد ساعد على إلباس بتاح ثوب هذا الدور مساعدة جدية ما نسب إليه من استيلائه على السلطة والسيادة الفريدة التى كان يتمتع بها الإله «رع» الذى ظل يتزعم مدة قرون طويلة آلهة مصر

من مقره الزاهر الممتاز فى مدينة هليوبوليس. وتبرز لنا هذه المسرحية المنفية المكانة السامية التى احتلها «بتاح» فى الفقرات الختامية التى يجب علينا فحصها الآن. فنجد فيها أولاً أن («بتاح» العظيم هو قلب الآلهة ولسانهم). وهذا التعبير الخارق للمألوف يصير أكثر وضوحًا لنا عندما نعلم أن القلب معناه «العقل» أو «الفهم». أما «اللسان» فهو رمز للنطق أى للأداة التى تبرز أفكار العقل وتعبر عن أوامره، أى أنها تخرج ما فيه إلى حيز عالم الحقيقة الملموس. ونصبح الآن فى مركز يمكننا من تعقب معنى هذه القصة القديمة عندما تشرع القصة فى التحدث عن أصل الأشياء:

(١) الفكر والتعبير عنه بصفتهما الأصل والقوة المساعدة لكل من نظام الأرض ونظام السماء:

«حدث أن القلب واللسان تغلبا على كل عضو فى الجسم وعلما الإنسان أن «بتاح» كان فى كل صدر على هيئة القلب وعلى هيئة اللسان فى كل فم، سواء فى ذلك جميع الآلهة وجميع الناس وجميع الماشية وجميع الزواحف وسائر الأحياء، وفى الوقت نفسه يفكر «بتاح» فيما يشاء ويأمر بكل ما يريد».

وبعد أن تقص علينا الوثيقة كيف أن مجموعة آلهة «منف» لا تزال فى فم «بتاح»، «الذى نطق بأسماء كل الأشياء[٢]، فعلمنا أن هؤلاء الآلهة الذين كانوا يعرفون من قبل بأنهم صور لبتاح قد أوجدوا بصر الأعين وسمع الآذان وتنفس الأنف لتصل جميعًا إلى القلب، وأن القلب هو الذى يصدر كل قرار وأن اللسان هو الذى يعلن فكر القلب. وبمثل ذلك فطرت كل الآلهة أى «أتوم» وتاسوعه الإلهى {مجموعة تسعة آلهة} على حين أن كل كلمة مقدسة خرجت إلى الوجود عن طريق ما فكره القلب وأمر به اللسان، وكذلك المراكز {الوظائف الرسمية} فإنها أنشئت، والمناصب {الحكومية} وزعت (وهى التى قدمت جميع الغذاء وجميع الطعام) بواسطة هذا النطق المتقدم» {أى طبقًا للنظرية السالفة الذكر}.

(٢) النظام الدنيوىّ:

«أما من جهة» الذى يفعل ما هو محبوب والذى يفعل ما هو مكروه فإن الحياة تعطى للمسالم، والموت يحيق بالمجرم».

«وبذلك يسيّر كل عمل وكل حرفة؛ فنشاط الذراعين وسير الساقين وحركة كل عضو تكون حسب هذا الأمر الذى يديره القلب والذى يخرج من اللسان وهو الذى يجعل لكل شىء قيمة».

(٣) النظام السماوىّ:

«وحدث أنه قيل عن «بتاح» إنه خلق «آتوم» (إله الشمس القديم فى هليوبوليس) وأوجد الآلهة، وهو «تاتن» {اسم قديم لبتاح} مصور الآلهة ومنه خرج كل شىء سواء أكان طعامًا أم غذاء أم مئونة للآلهة أم أى شىء طيب فى الوجود، وبذلك أصبح من الظاهر المفهوم أن قوة «بتاح» هى أعظم من قوة كل الآلهة، وبذلك اطمأن بتاح بعد أن خلق كل شىء وكل كلمة مقدسة. وهو الذى صور الآلهة وأقام المدن وأسس المقاطعات فأقام الآلهة فى أماكنهم المقدسة وثبت دخلهم المقدس وأعد محاريبهم ونحت تماثيل لأجسامهم كما تحب قلوبهم وبذلك حلت الآلهة فى أجسامها المصنوعة من كل نوع من الخشب ومن كل صنف من المعادن ومن كل نوع من الطين ومن كل ما ينمو عليه (أى على بتاح بصفته إله الأرض) من الأشياء التى صنعت منها هذه التماثيل».

وبذلك أصبحت فى قبضة «بتاح» (المحب للسلام والصلح) الآلهة ووظائفها بصفته رب الأرضين (مصر). وكانت مخازن الغلال المقدسة «هى العرش العظيم» و«منف» التى تدخل السرور على قلب الآلهة الذين فى بيت بتاح، وهى سيدة كل الحياة ومنها تستمد الأرضان (مصر) حياتها.

وعند هذه النقطة تنتقل بنا القصة إلى الأسطورة «أوزير» لتفسر لنا السبب الذى من أجله أصبحت «منف» مخزنًا لغلال مصر. غير أننا سنضطر هنا لإرجاء فحص موضوع «أوزير» فى هذه المسرحية المنفية إلى أن تتم فحص وظائف إله

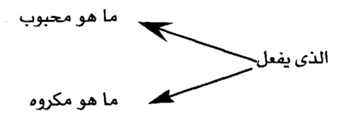
الشمس التى رأينا أن بتاح قد انتحلها لنفسه. وإذا أمعنّا النظر فى محتويات بحث موضوع «بتاح» الذى سبق ذكره اتضح لنا أن الكثير من الأفكار قد تكررت بنفسها مرات عدة. وعلى ذلك نجد أن الأقسام الثلاثة التى حاولتُ فيما سلف أن أفصل بعضها عن بعض، وأميزها بعناوين فرعية ليست بحال ما مستقلة عن بعضها بل متداخلاً بعضها ببعض بشكل واضح، فلم يكن فى مقدور فكر الكهانة العتيق أن يعدل عن إقحام ذكر إنتاج الطعام فى أية مناسبة تمس النظام السماوىّ، بالرغم من أن موضوع إنتاج الطعام فى الأصل خاص بالنظام الدنيوى وذلك لأنه إجراء يرتكن إلى قوة الآلهة. ويرجع الأساس المدهش لهذا النظام الأرضىّ المبكر إلى الغرض الرئيسىّ الذى يُرجع منبع كل شىء إلى العقل أو الفكر، لأن جميع الأشياء ظهرت إلى حيز الوجود بما فكره القلب (العقل) وأمر به اللسان (الكلام). وقد استعمل المصرىّ كلمة «قلب» لتدل على «العقل» أو «الفهم» وذلك لا لأنه كان معتادًا استعمال المعنويات بل كان يعتقد أن القلب هو مركز الفهم. أما الأداة التى أصبح بها العقل قوة منشئة فهى الكلمة التى تلفظ فتعلن الفكرة وتلبسها ثوب الحقيقة وبذلك تظهر الفكرة إلى حيز الوجود فى عالم الكون الملموس، بل صار الإله نفسه هو القلب الذى يفكر واللسان الذى يتكلم(٤). فهل بعد ذلك يمكننا أن نتعرف على الأساس التاريخىّ السحيق فى القدم لعقيدة «الكلمة» فى أيام كتاب العهد الجديد {الإنجيل}؟ «فى البدء كانت الكلمة» وكانت الكلمة مع الله والكلمة كانت الله». وهل نجد هنا صدى لتجارب إنسانية عتيقة على شاطئ النيل؟

من البدهى أن هذه الفكرة الهائلة التى ظهرت فى عصر مبكر كهذا فى تاريخ البشر ـ أو بتعبير أحسن فى عصر ما قبل التاريخ ـ هى فى حد ذاتها برهان على تقدم ناضج بدرجة مدهشة للعقل الإنسانى فى مثل هذا التاريخ البعيد، إذ ننتقل فجأة وبدون وجود مراحل انتقال تدريجية من عالم آلهة الطبيعة إلى عهد حضارة ناضجة نامية ينتج فيها منظمو الديانة والحكومة تفكيرًا معنويًا ناضجًا. وقد رأوا أن العالم الذى يحيط بهم يعمل بعقل، فاستخلصوا من ذلك أنه مخلوق ومحمى الآن بعقل عظيم محيط بكل شىء، وأنه قد صبغ بالعقيدة القائلة بحلول

الإله فى كل شىء، ولذلك كانوا يعتقدون أن هذا الإله لا يزال يعمل عمله فى كل صدر وفى كل فم فى جميع الكائنات الحية. وقد استمرت هذه الفكرة موجودة مدة طويلة، ولذلك نجد أن المصرىّ الذى عاش بعد ذلك العهد بألفى سنة كان يعتقد فى «وحى الإله الذى فى كل الناس»، أو يشير مخاطبًا غيره إلى «الإله الذى فيك».

ومن الظاهر جدًا أن الجماعة المنسقة والحكومة المنظمة كان لهما أثر عظيم على عقول هؤلاء المفكرين القدامى، إذ كان الاعتقاد بأن المركز السامى والمراتب الرسمية والوظائف الحكومية التى يسير بمقتضاها المجتمع الإنسانى هى من وضع عقل سام، وإنها برزت إلى الوجود بكلمة هذا العقل السامى، ولذلك كانت الشئون العملية فى الحياة العامة والحرف الصناعية تسير حسب «الأمر الذى يفكره القلب ويخرج من اللسان».

والواقع أنه فى هذه المرحلة السحيقة من التقدم البشرىّ أخذ الإنسان يدرك أن بعض السلوك ممدوح وبعضه مذموم، وأن كل إنسان يعامل بحسب ذلك. فالحياة يمنحها للمسالم، (الذى يحمل السلام) ويحيق الموت بالمجرم (الذى يحمل الجريمة). على أنه مما يلفت النظر جدًا أن هؤلاء المفكرين القدامى لم يستعملوا فى هذا المقام الكلمتين «طيب» و«خبيث». فالمسالم فى نظرهم هو الذى يفعل ما هو محبوب، و«المجرم» هو الذى يفعل ما هو مكروه. وهاتان العبارتان هما حكمان اجتماعيان يحددان ما هو ممدوح (محبوب) وما هو مذموم (مكروه). وفى هذين التعبيرين («ما هو محبوب» و«ماهو مذموم») نجد أقدم برهان عرف على مقدرة الإنسان على التمييز بين الخلق الحسن والخلق السيئ لأنهما ذكرا هنا لأول مرة فى تاريخ البشر، ولهما تاريخ طويل فيما يلى ذلك من الزمن. وظل استعمالهما مستمرًا قرونًا عديدة، ولم يحل محلهما كلمتا «الحق» و«الباطل» إلا بعد ذلك بزمن طويل. وهناك بعض الغموض بشأن أصل الجمل الافتتاحية للفقرة القصيرة الخاصة بالنظام الخلقىّ مما جعل إنشاءها من جديد معلقًا. فقد رتبت الكلمات على الحجر نفسه هكذا.

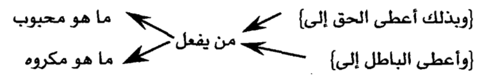


ويظهر أن هذا التركيب مفصول عما يتلوه من المتن بأداة فصل، والآن نتساءل عما إذا كانت تلك الترجمة السالفة (أو الإنشاء الجديد) قد أدت كل المعنى المطلوب أم لا؟ فنجد أولاً أن الكلمة التى ترجمت بلفظ «يفعل» تعنى أيضًا «يصنع» ولما كانت هذه الكلمة هنا فى صيغة اسم الفاعل «الذى يفعل» فإنه يمكن أن تعنى أيضًا الذى يصنع أى الصانع. وبذلك تنسب إلى الإله أنه صانع ما يحب وما يكره وإذا كان الأمر كذلك فيكون لدنيا هنا نص بتسمية الإله «خالق كل من الطيب والخبيث».

غير أن الأستاذ «إرمان» رأى أن هذا التفسير غير مقبول وترجم التعبيرين المتقابلين «بالنعم» والنقم».

ومن جهة أخرى لاحظ الأستاذ «زيته» أن هذه الترجمة غير سائغة مع التعبيرين المتضادين «مسالم ومجرم» وهما بجلاء تعبيران خلقيان، يضاف إلى ذلك أن لهذين التعبيرين تاريخا لاحقا كما ذكرنا يظهران فيه مستعملين بمعنى خلقى لا يقبل الجدل.

وأراد الأستاذ «زيته» أن يربط هذين التعبيرين أحدهما بالآخر بعض الربط فقرر أنه سقطت بعض الألفاظ من الكاتب القديم عند قيامه بالنسخ، ولذلك يقترح أن الكلمات المحذوفة يمكن إعادتها بالاستعانة بفقرة وردت عن مثل ذلك فى كتاب الموتى، فيكون الترتيب هكذا:



والاعتراض المهم على هذا التصحيح هو إدخال التعبيرين «حق» و«باطل» المأخوذين عن «مصدر» متأخر عن ذلك بكثير «ككتاب الموتى»، على أن خلو

مسرحيتنا من هذين التعبيرين الأخيرين يشعر بحقيقة مهمة جداً وهى أن وجودهما جاء متأخراً. وفيما عدا ذلك نجد تصحيح الأستاذ «زيته» مغرياً رغم أنه يدل على منتهى الجرأة، كما أنه فى الوقت نفسه يمدنا بموازنة تامة للتعبيرين المذكورين فى ذلك التركيب المصحح.

ومن بين الصفات أو المميزات ـ التى يمكننا إدراكها بوضوح عن إله الشمس بعد سنة ٣٠٠٠ ق. م. ميزتان اثنتان تسميان «الأمر» و«الفهم» ويمثل كل منهما فى صورة إله كما مثل العبرانيون «الحكمة» فى شكل إله، ولذلك كان رجال البلاط يحيون الفرعون بصفته خليفة إله الشمس هكذا: «الأمر فى فمك، والفهم فى قلبك».

وقد رأى العالم «جاردنر» فى ذلك رأياً جذاباً فقال: إنه عندما انتحل الإله «بتاح» هذه الصفة لنفسه قام مؤلفو المسرحية المنفية بتعديل التعبيرين اللذين وجدوهما فى اللاهوت الشمسى فوضعوا كلمة «قلب» بدل كلمة «فهم» الشمسية، وكلمة «لسان» بدل كلمة «أمر» الشمسية، وبذلك يكون لدينا زوجان متوازيان من الألفاظ هكذا:

(١) الصفتان الأصليتان لإله الشمس: الفهم ـ الأمر.

(٢) الصفتان اللتان حلتا محليهما للإله بتاح: «القلب» ـ «اللسان».

ومن ذلك يتضح أن فكرة وجود شخصية عليا قد أخذ فجرها ينبثق فى هذا العهد على العقل البشرى لأول مرة فى التاريخ.

وكان هؤلاء المفكرون الأوائل يكافحون فى تصور تلك الفكرة الخطيرة. الشاملة محاولين أن يتعرفوا ويحللوا الخصائص الأصلية التى تميز مثل هذه الشخصية، وقد كان لهذه الفكرة أثر عميق فى الحياة الإنسانية. ومن الواضح أنها نبتت من الملكية أو بعبارة أصح من حكم الملك الفعلىّ نفسه وإدارته للبلاد حيث كانت الفكرة مجسمة فيه بحذافيرها. فرأى الناس فى فرعون لأول مرة فى تاريخ

البشر صورة فاخرة لشخصية بارزة وسلطان مجسم، وبذلك أخذت الفكرة تتحول إلى قوة، وقد ظهر تأثير رد فعلها أولاً فى النواة الصغيرة التى يتألف منها رجال الفكر وأخيراً فى المجتمع الإنسانى.

وتكشف لنا المسرحية المنفية عن أقدم تقدير للسلوك بصفته مرضيًا أو غير مرضى. وهاتان الصفتان المتقابلتان كانتا كما أسلفنا صفتين اجتماعيتين وكان ظهورهما نتيجة للتطور الاجتماعى. غير أن الذى يعوقنا عن إدراك كنه هذا التطور ومنشئه افتقارنا التام «لمصادر معاصرة». وسنجد فى الأدوار المتأخرة من الرقى عدة براهين لا تزال باقية تكشف لنا عن أصل تلك العوامل التى حدت بالناس القدامى إلى أن يدركوا أن بعض السلوك «محبوب» وبعضه «مذموم». وهذه مرحلة من الأخلاق كانت فى بادئ الأمر عادة من العادات وكان التقدم حتى فى تلك المرحلة المبكرة قد خطا خطوات بعيدة لدرجة أن السلوك صار موضوع تفكير فى أذهان أقدم المفكرين المعروفين لدينا من عهد القرون السحيقة التى ترجع إلى عصر الاتحاد الأول. وبعبارة أخرى نجد فى تلك المسرحية المنفية إشارة وجيزة عن أقدم مبادئ جاءت عن طريق التفكير والتأمل، فالرجل الفاضل يسمى «محبًا للسلام» وبالنص الحرفىّ «حامل السلام»، وهو تعبير أخلاقى بلاشك يعرف الرجل الفاضل بعلاقاته بمن حوله. وعلى النقيض منه «حامل الجريمة» أو «المجرم» فهو الذى يخطئ فى حق من حوله. والواقع أنه كان لابد أنه قد وجد فى ذلك الوقت قانون مسنون يعترف بهذين النوعين من السلوك ويقرر إحاقة الموت بالمسىء ومنح الحياة لغير المسىء.

ولاشك فى أن كل ما سبق من الأبحاث دليل على ظهور رقى اجتماعى وخلقىّ يقع فى أفق سابق بكثير لأقدم أفق تاريخىّ عرف لدينا إلى الآن.

ومن المهم أن نحدد بالضبط آخر مدى وصل إليه ذلك الرقى عندما ظهر لأول مرة فى فجر التاريخ. فإن الأحوال التى أتت فيما بعد توضح لنا تمامًا أن فرعون كان مصدر القانون ومنبع الحياة، وأن تأثير السلوك كان مجرد أمر ظاهرىّ خاص بهذه الحياة الأرضية، وأن فرعون وحده كان فى مقدوره أن يتطلع إلى آخرة

فاخرة فيقلع فيها فى المحيط السماوىّ مع إله الشمس والده. أما فيما يختص بأى إنسان آخر فإن سلوكه سواء أكان مقبولاً أم مذمومًا ليس له سوى عواقب أرضية محضة، وليس لها أى تأثير على أية حياة فى الآخرة. ولذلك كان الحق والباطل أمرين يقررهما فرعون، فكان يقوم بفحصهما كما يرى من المسرحية المنفية رجال الفكر من طائفة الكهنوت، ولذلك كان لابد من الانتظار طويلاً إلى أن تصبغ هذه الأفكار بصبغة إنسانية اجتماعية وتصير قوة اجتماعية عظيمة مهدت لفاتحة «عصر الضمير» والأخلاق بعد ذلك بعدة قرون.

هوامش الفصل الثالث:

(١) راجع: K. Sethe, Dramatische Texte Zur altaegyptische, Mysterienspielen (Leipzing, 1928).

(٢) راجع: A, Erman, Ein Denkmal Menphitescher Theologie in Sitz Der Konigtish Preus-sisthen Ak. der wissenschaft, vol. XLIII. (1911).

(٣) «وعلم آدم الأسماء كلها» (قرآن كريم).

(٤) هو يشابه ما قاله الشاعر العربيّ:

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ... فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

الفصل الرابع

العقيدة الشمسية ومكافحة الموت

لقد كنا أثناء تعقبنا لظهور أقدم الآلهة المصرية نلاحظ عهودًا من التقدم البشرىّ قبل العصر التاريخىّ فى وادى النيل، فرأينا أن دنيا الطبيعة قد تركت أثرها تدريجًا فى عقول أقدم سكان وادى النيل، فكان نور الشمس والخضرة النباتية مظهرين طبيعيين بارزين أثرا باستمرار على أفكار أقدم مصرىّ وحياته. ورأينا أن ذلك المصرىّ صور هاتين القوتين الطبيعيين الخفيتين فى صورة إلهين عظيمين. ونذكر أن هذين الإلهين كانا فى بادئ أمرهما مجرد قوتين طبيعيتين واستمرا يعملان عملهما فى دنيا الطبيعة بهذه الصفة فقط على الوجه الأغلب. ورأينا كيف أن إله الشمس انتقل تدريجًا إلى عالم الشئون الاجتماعية المنظمة، وسنلاحظ فيما بعد كيف أن إله الخضرة[1] أيضًا سار على المنهاج نفسه الذى سار عليه إله الشمس، فكان على كل من هذين الإلهين أن يدخل مع زميله فى علاقات أخرى بعد أن اشتركا فى ميدان عمل واحد.

وصارت الدنيا التى أصبحا مندمجين فيها معًا دنيا جديدة عظيمة. فصياد عصر ما قبل التاريخ، الذى كان يكتفى فى التعبير عن عمله بآلة حفر مصنوعة من الظران ينحت بها خطوطا منتظمة على مقبض عاج لسكين حجرية لتمثل حيوانات الصيد، قد انتقل بعد مرور خمسين جيلاً من التقدم الاجتماعى، إلى مهندس ملكىّ يستخدم جماعات عظيمة من أصحاب الحرف المنظمين فى محاجر ضفاف النيل فاستخرجوا منها أعمدة فخمة منسقة ومعابد للآلهة

العظيمة، وأسوارًا للأهرام الضخمة التى تعتبر أعظم مقابر أقامتها يد الإنسان قاطبة. والآن نتساءل ماذا كان من أمر إلهى الطبيعة القديمين فى مثل تلك الدنيا التى وصفناها؟ إن تلك الدنيا لم يقتصر تغيرها العظيم على مظهرها الخارجىّ ومجرد أساليبها المادية التى تدل على تقدم أنظمتها الاجتماعية والحكومية، بل تعدى رقيها إلى نمو حياة الإنسان الباطنة، فإن هذه الحياة كانت تسير بلا ريب بخطى متساوية مع تلك الحقائق الظاهرة التى لم تدون. وظهور أقدم بناء عرف من الحجر وأول مبنى ذى عمد لا يعد فقط برهانًا على تقدم كفاءة حياة الجماعة الإنسانية المنظمة، بل يعد كذلك دليل على ظهور أفق جديد للشعور البشرىّ يزداد اتساعه باطراد. فكان بناءو هذا العصر أول شعراء، إذ مدوا أيديهم بين خمائل النخيل ومستنقعات النيل وقطفوا منها أزهار البشنين والبردى وسعف النخيل ونسقوا بها أروقة ذات عمد على طول مساحات المعابد، فهم بذلك يعدون أول الفنانين الذى حملوا إلى ردهات المعابد شيئًا مقتبسًا من جمال العالم الخارجىّ المنير اليانع. وبذلك صارت المعابد تجمع بين نور الشمس والخضرة لتجميل أشكالها من الخارج، كما أثرت هاتان القوتان فى عقائد ذلك العصر الدينية من الداخل.

ولما بدأت عظمة الحكومة تظهر فى أشكال العمارة ذات الأبهة والبهاء كان معظم تلك الأشكال دينية. وأن المظهر الفخم للديانة المنظمة يعتبر مقياسًا للأثر البالغ الذى أحدثته الحكومة الجديدة فى الديانة. وأن تنظيم الديانة رسميًا بتلك الكيفية الطريفة جعلت المؤثرات الاجتماعية بطيئة الأثر فى الديانة، ولكن تلك الظاهرة الدينية الحكومية كانت صالحة لتبادل التأثيرات بين رجال جماعة من الكهنة أو رجال طوائف المعابد وجماعة أخرى. وعلى ذلك نجد أن الاعتقادات المحلية أخذ بعضها يندمج فى البعض. وقد تبينت لنا هذه الظاهرة فى حالة إله الشمس ببلدة عين شمس والإله الصانع «بتاح» ببلدة «منف». غير أن حقيقة هذا الاندماج تظهر بشكل أوضح فى حالة نور الشمس والخضرة أى حالة إله الشمس و«أوزير».

وأن حقيقة الموت قد تركت تأثيراً عظيماً فى الديانة المصرية، كما أنها أثرت تأثيراً عميقاً فى كل من اللاهوت الشمسىّ، واللاهوت الأوزيرىّ.

وإذا بحثنا الاعتقادات المصرية الجنازية القديمة بوجه خاص أمكننا أن ندرك ذلك الامتزاج الذى حدث بين المذهب الشمسى والمذهب الأوزيرى، على أنه لن يكون فى وسعنا فهم امتزاج هذين المذهبين إلا إذا وجهنا نظرنا قليلاً إلى تصورات المصرىّ للحياة بعد الموت وإلى التقاليد المدهشة التى تولدت عن تلك التصورات.

والواقع أنه لا يوجد شعب قديم أو حديث بين شعوب العالم احتلت فى نفسه فكرة الحياة بعد الموت المكانة العظيمة التى احتلتها فى نفس الشعب المصرىّ القديم. ومن الجائز أن ذلك الاعتقاد الملح فى الحياة بعد الموت كان يعضده كثيراً ويغذيه تلك الحقيقة المعروفة عن تربة مصر ومناخها وهى أنها تحفظ الجسم الإنسانى بعد الموت من البلى إلى درجة لا تتوافر فى أى بقعة أخرى من بقاع العالم. فعندما كنت أشتغل بنقل نقوش بلاد النوبة منذ سنين طويلة (مضت) كانت الأحوال كثيراً ما تضطرنى إلى المرور بطرف جبانة فيها قدما إنسان ميت مدفون فى حفرة قريبة الغور، وقد حسر عن هاتين القدمين وصارتا ممتدتين فى عرض الطريق الذى كنت أمر به، والواقع أنهما كانتا تشبهان كل الشبه الأقدام الخشنة للعمال الذين كانوا يعملون معنا فى حفائرنا فى تلك الجهة، ولست أعرف عمر ذلك القبر، ولكن كل إنسان خبير بجبانات مصر قديمها وحديثها لابد أنه عثر على جثث بشرية كاملة (أو على أجزاء منها) قديمة جداً ولكنها باقية محفوظة أحيانا إلى درجة تجعلها تشبه تماماً أجسام البشر الأحياء. ولابد أن مثل تلك المشاهدات حصلت كثيراً للمصريين الأقدمين أيضا. ولعمرى كان مثل المصرىّ فى ذلك كمثل «هملت»[٢] وهو يحمل فى يده جمجمة «يورك» فلابد أنه فكر من أعماق نفسه عندما تأمل هؤلاء الأشهاد الصامتين.

ولابد أن حالة الحفظ المدهشة للأجساد البشرية التى وجد المصرىّ عليها أجداده الذين كان يكشف عنهم عندما يقوم بحفر قبر جديد فى ذاك الوقت قد

زادت اعتقاده فى بقاء تلك الجثث البشرية إلى الأبد وأيقظت فى خياله صورًا عظيمة فى تفاصيلها عن عالم الأموات الذين رحلوا إلى الآخرة وعن حياتهم فيها.

وقد بدأ أقدم تلك الاعتقادات وأبسطها فى زمن سحيق فى القدم حتى أنه لم يبق لها ذكر بين الآثار التى وصلت إلينا. على أن جبانات سكان وادى النيل فيما قبل التاريخ، وهى التى كشف عنها وقامت فيها الحفائر منذ سنة ١٨٩٤ ميلادية، تدل على أن الاعتقاد بالحياة الآخرة بعد الموت قد وصل إلى مرحلة متقدمة من الرقى، وقد حفرت آلاف من هذه القبور الواقعة على طول حافة وادى النيل الخصب، مما يرجع تاريخ أقدمها وجودًا بلا شك إلى الألف الخامسة قبل الميلاد، فكان يوجد الجسم البشرىّ فيها راقدًا فى قاع حفرة لا يزيد عمقها على بضع أقدام وركبتاه مطويتان تجاه ذقنه. ويحيط به متاع ضئيل من أوانى الفخار وآلات الظران والأسلحة الحجريّة والأدوات المنزلية الأخرى فضلاً عن بضع الحلى الساذجة، وكان المفروض من وضع كل هذه الأشياء بجانبه هو بطبيعة الحال إعداد المتوفى لحياة أخرى مقبلة بعدالموت.

والمفروض أنه قد مضى ما لا يقل عن ١٥٠٠ سنة من عهد المعتقدات القديمة الممثلة فى أقدم هذه المدافن إلى وقت ظهور أقدم الوثائق المدونة التى وصلت إلينا، وهى الوثائق التى اعتمدنا عليها فى أبحاثنا السابقة: تلك الوثائق التى تكشف لنا عن عقيدة دينية نامية لشعب يسمو بسرعة نحو حضارة مادية راقية، إذ يمكننا بما لدينا من المصادر المدونة. أن نتتبع طريق هذا الرقى أثناء عهد الاتحاد الثانى الذى ابتدأ حوالى سنة ٣٠٠٠ ق. م .

وإذ ذاك نجد أمامنا نتائج معقدة جاءت من اختلاط معتقدات كانت فى أصلها مميزة ثم اندمج بعضها بالبعض الآخر وتداولت بذلك الشكل عدة قرون حتى صارت تشبه حزمة خيوط معقدة، مما يجعل حلها الآن صعبًا جدًا بل يكاد يكون مستحيلاً.

ويزيد تلك الصعوبات تعقيداً الصورة التى كان يتصورها المصرىّ القديم لطبيعة الإنسان. فإنه كان يتصور أن شخصية الإنسان الحقيقية فى الحياة تحتوى على الجسم المادىّ الظاهر وعلى الفهم الباطن. ومقره فى اعتقاده هو «القلب» أو «الجوف» وهما التعبيران الرئيسيان عن «العقل». وتحتوى هذه الشخصية أيضًا على الجوهر الحيوىّ المحرك للجسم ويقصد به «النفس» كما يلاحظ عند الكثير من الشعوب الأخرى. غير أن هذا الجوهر الحيوى لم يكن مميزًا بشكل ظاهر عن «العقل»، وكان الاثنان يمثلان معًا فى رمز واحد هو طائر له رأس إنسان وذراعاه، ونجده مصوراً فى المناظر التى على القبور وعلى توابيت الموتى يرفرف على المومية ويمد لأنفها بإحدى يديه صورة شراع منشور، وهذاالشراع هو الرمز المصرى القديم «للهواء» أو «للنفس». ويحمل فى يده الأخرى علامة هيروغليفية ترمز للحياة[٣]، والمصريون يسمون هذا الطائر الصغير الممثل برأس إنسان وجسم طائر «با».

ومما يدعو للدهشة أن المؤرخين فاتتهم الحقيقة المهمة وهى أن «البا» تظهر للمرة الأولى فى الوجود عند موت الإنسان. فقد التجأ القوم إلى كل أنواع الحيل والاحتفالات الدينية ليصبح المتوفى «با» عند موته.

ولما كان من الواضح أن المصرى القديم مثلنا نحن معشر الأحياء لم يكن فى مقدوره أن ينتزع شخصًا آخر من جسمه، وذلك باعتبار الجسم وسيلة للإحساس، فإن المصريين لجأوا إلى استعمال حيل متقنة لتزويد الجسم الميت بكل وسائل الإحساس المختلفة بعد أن تنفصل عنه الروح (با) التى تضم كل هذه الإحساسات. وكان المصرى القديم يعتقد أن صاحبه المتوفى موجود فى داخل جسمه، أو على أقل تقدير لا يزال يملك جسمًا له مظهره الخارجى كما يملك كل منا جسمه. هذا إذا حاولنا أن نصور المتوفى بصورة ما فى نظر المصرى القديم. ومن ثم كان يظهر المتوفى عندما كان يمثل فى الرسوم الجنازية كما كان يظهر فى الحياة الدنيا. وكانت رغبة أقارب المتوفى ـ مطابقة لهذه الأفكار ـ وهى أن يضمنوا بعث المتوفى بجسمه الذى كان عليه مرة أخرى. ومن أجل ذلك كان يقف

الكاهن الجنازى مع أقارب المتوفى وأصدقائه عند قبره مجتمعين عند جسمه الهامد ويخاطب المتوفى الراحل هكذا: «إن عظامك لن تفنى ولحمك لن يمرض وأعضاءك ليست بعيدة عنك». ومهما تكن هذه الوسائل فعالة فإنها لم تكن تعتبر كافية، إذ كان من الضرورى للجسم الهامد البعث مرة أخرى والعودة لاستعمال أعضائه وحواسه، وقد كان يتم ذلك البعث على يد إله معين (Favouring God) أو آلهة مقربة كالإله «حور» أو الإله «أزيس»، أو كان الكاهن يخاطب المتوفى مؤكداً له أن آلهة السماء ستبعثه مرة أخرى: «إنها تعيد لك رأسك ثانية، وتجمع لك عظامك، وتضم لك أعضاءك، وتحضر قلبك لجسمك». غير أن المتوفى - حتى عندما يبعث بهذه الكيفية - لم يكن مالكًا لحواسه وقواه العقلية ولم تكن لديه قوة لضبط جمسه وأعضائه واستعمالها، ولذلك كان من الضرورى أن تخترع عدة حيل حتى تصير موميته الصامتة إنسانًا قادرًا على المعيشة فى الحياة الآخرة.

ولما كان المتوفى يعجز عن أن يكون «با» أو روحًا بعد الموت كان من الضرورى مساعدته حتى يصير «با». وكان «أوزير» قد صار روحًا بعد موته، وذلك بعد أن تسلم من ابنه «حور» عنية التى انتزعها من محجرها «ست» أثناء الشجار الذى قام بينهما. ولكن «حور» لما استرد عينه أعطاها والده «أوزير»، فلما تسلمها الأخير صار روحًا. ومن ذلك العهد صارت العادة المألوفة أن يسمى أى قربان يقدم للمتوفى «عين حور». وبتلك الكيفية صارت تحدث تلك العين للمتوفى ذلك المفعول نفسه كما حدث «لأوزير» ولذلك يقول الكاهن: «قم لخبزك هذا الذى لا يمكن أن يجف، وجعتك التى لا يمكن أن تصير فاسدة إذ بها تصبح روحًا».

فكأن هذا الطعام الذى قدمه الكاهن يحتوى على القوة الخفية التى تحول المتوفى إلى روح كما حدث أن حولت «عين حور» «أوزير» روحا.

ومن تلك الحقائق السابقة، يتضح أن المصريين قد ابتدعوا للمتوفى فلسفة نفسية ساذجة حاولوا بها أن يعيدوا إليه حياة الفرد بطرق وعوامل خارجية عن ذاته، وذلك بإشراف الأحياء وبخاصة الكاهن الجنازىّ الذى كان يعرف الاحتفالات الدينية الضرورية للوصول إلى ذلك الغرض.

ويمكن تلخيص كل هذه النظريات فى أنه بعد بعث الجسم لابد من إعادة قوى الإنسان العقلية إليه واحدة فواحدة، ويتم حصوله عليها بوجه خاص بصيرورة المتوفى روحًا «با». وبتلك الكيفية يعود المتوفى إلى الحياة مرة أخرى وهو حائز لجميع قواه التى تساعده على المعيشة فى الحياة الآخرة. فليس من الصواب إذًا بعد ظهور تلك الحقيقة أن نعزو إلى قدماء المصريين الاعتقاد بخلود الروح أو أنهم عبروا عن الروح بأنها لا تفنى، أو أن نتكلم عن «آراء المصرى فى الخلود» بعد الموت.

وعندما يبتدئ المتوفى حياة جديدة فى الآخرة لا يعرفها كان يساعده فى ذلك ملاك يحرسه يسمى «كا» يظهر فى الوجود مصاحبًا لكل إنسان من وقت ولادته ويرافقه فى كل حياته حتى ينتقل قبله إلى عالم الآخرة. لذلك نجد مرسومًا على جدران معبد الأقصر التى مثل عليها ولادة «أمنحتب الثالث» فى مناظر محفورة يرجع تاريخها إلى أواخر القرن الخامس عشر قبل الميلاد الأمير الصغير «أمنحتب» محمولاً على ذراع إله النيل تتبعه صورة طفل آخر، وهذه الصورة التى تنطبق تمام الانطباق فى شكلها الظاهرى على صورة الأمير هى الكائن الذى يسميه المصريون الأقدمون «كا»، وهو نوع من الملائكة سامٍ كان الغرض منه على الأخص إرشاد المتوفى إلى ما قدر له فى الحياة الآخرة التى يجد فيها كل متوفى من المصريين ملاكه «الكا» فى انتظاره. وجدير بنا أن نلاحظ فى هذا المقام أن «الكا» يحتمل أنها كانت فى الأصل خاصة بالملوك فقط، فكان كل ملك يعيش فى حراسة ملاكه الحارس. ثم صار هذا الامتياز الملكى بطريق التطور التدريجى حقًا مشاعًا لكل عامة الشعب.

ولا يمكننا أن نشك فى أن أسلحة ذلك الصائد الفطرى وأوانى طعامه وشرابه مضافًا إلى ذلك حليه الشخصية قد وضعت كلها فى قبره قبل وجود أى ملك أو قيام أية مملكة فى وادى النيل بآلاف من السنين. وقد أخرج للناس تدريجًا عهد الملكية والحضارة الراقية التى كانت تصحبها عتادًا ماديًا متقن الصنع فى صورة قبر ضخم مشتمل على أثاثه الجنازى. وأقدم قبر بناه القوم كان يشبه هرمًا ناقصًا، جوانبه شديدة الانحدار ـ ويطلق المصريون الآن على مثل ذلك البناء لفظة «مصطبة».

وهذا القبر وليد كومة الدفن ذات الشكل المستطيل التى نراها فى مدافن ما قبل التاريخ، وحوطت فيما بعد بجدار حاجز. وكان يصنع أولاً من الأحجار الخشنة، فصار فى ذلك الوقت الذى نحن بصدده يصنع من الأحجار المنحوتة المرصوصة بعناية وإتقان. وقد صارت المصطبة منحدرة بعض الانحدار على غرار ما كانت عليه سابقتها كومة الرمل، أو الرابية التى لا تزال تشاهد محصورة فى داخل جدران المصطبة. وفى الجانب الشرقى للبناء الخارجىّ من المصطبة الذى كان فى الغالب ذا حجم عظيم كانت توجد حجرة مستطيلة الشكل، يستحسن أن نسميها «مزارًا،» وكان يقدم فيها القربان للمتوفى كما كانت تؤدى فيها الاحتفالات الخاصة به، وذلك لأنه لم يكن فى مقدور المتوفى بالرغم من بعثه من جديد إنسانًا حيًا أن يعول نفسه فى الحياة الآخرة من غير مساعدة أقاربه الأحياء. وكانت جميع تلك الاحتفالات الجنازية ترجع فى معظم طقوسها إلى المذهب الأوزرى، لأن إله الشمس فى المذهب الشمسىّ لم يقض نحبه بين الناس مثل «أوزير»، ولم يترك بعده أسرة تحزن عليه وتقيم له الاحتقالات الجنازية، فكان من الطبيعى إذًا أن يوضع المتوفى فى حماية «أوزير» بصفته ابن «جب» إله الأرض.

وقد صار من المعتاد من القرن الرابع والثلاثين قبل الميلاد فصاعدا أن يدفن الموظفون المقربون وأشياع فرعون فى الجبانة الملكية كما نشاهد ذلك فى مقابر الأسرة الأولى بالعرابة المدفونة. فكان هؤلاء المذكورون يؤلفون بذلك نوعًا من البلاط الجنازى حول قبر مليكهم الذى خدموه مدة حياتهم الدنيا، وقد صار الملك بذلك مقيدًا شيئًا فشيئًا بالتزامات لمساعدة رجاله الأشراف فى بناة مقابرهم، ومدهم من خزانة الدولة بما يساعد على بهاء جنائزهم وكمالها، فكان طبيب الملك المقرب يتسلم إذنًا على الخزانة والمحاجر الملكية ليعمل له «باب وهمى» عظيم فخم من الحجر الجيرى الأبيض الضخم وينقل إلى مقبرته. ويقص علينا المتوفى تلك الحقائق بسرور عظيم وتفصيل مبين فى نقوش قبره.

وفى نقوش أخرى نشاهد فرعون محمولاً فى محفته الملكية على الطريق الصاعد من الوادى إلى هضبة الصحراء ليشرف على بناء هرمه فيشاهد هناك مقبرة لم يكمل بناؤها بعد لأحد أشراف رجاله المقربين «دبِّحن» الذى ربما كان

يعتمد على سنوح فرصة رضا ملكى مثل هذه تلفت نظره إلى قبره الذى لم يتم بناؤه بعد، ويخصص الملك فى الحال خمسين عاملا يقومون بالعمل فى مقبرة ذلك الشريف، ثم أمر فيما بعد المهندسين الملكيين والحجارين الذين كانوا يعملون فى معبد الملك المجاور للمقبرة أن يحضروا «لدبحن» الذى أسعده الحظ «بابين وهميين» وأحجارًا لواجهة مقبرته وكذلك تمثالاً ليقام فى قبره.

ويقص علينا أحد مشهورى الزعماء[٤] فى تاريخ حياته الذى كتبه بنفسه فى ختام القرن السابع والعشرين قبل الميلاد، كيف أنه كان كذلك صاحب حظوة فيقول: «وبعد ذلك تضرعت... إلى جلالة الملك ليأمر يجلب تابوت لى من أحجار طرة البيض [وهى محاجر ملكية بالقرب من القاهرة أخذ منها الكثير من الأحجار لأهرام الجيزة] فأمر الملك خازن مالية الإله [خازن فرعون] أن يعبر النهر ومعه فصيلة من الجنود البحارة تحت إمرته ليحضروا إلى هذا التابوت من طرة، وعاد بالحجر فى سفينة كبيرة تابعة للبلاد [أى إحدى النقالات الملكية] وأحضر مع التابوت غطاءه والباب الوهمى... [وقطعًا أخرى عدة ليست أسماؤها المصرية واضحة المعنى] ومائدة قربان واحدة».

وفى مثل تلك المناسبات التى كانت كثيرة الحدوث كان ينتظر من الملك أن يقوم بتحنيط الشريف المقرب ودفنه من أمواله الخاصة. فمن ذلك أن الفرعون بعث طائفة موظفيه الجنازيين من كهنة ومحنطين لاستقبال الشريف «سبنى» عند عودته من السودان حاملاً جثمان والده[٥].

وبمثل ذلك أرسل الملك أحد قواده لإنقاذ جثمان شريف منكود الطالع كان قد ذبح مع كل جنوده عن بكرة أبيهم بيد البدو عند شاطئ البحر الأحمر أثناء بناء سفينة كان يراد الرحلة بها إلى بلاد «بُنت» أى ساحل الصومال، ويحتمل أن «بنت» هذه هى أرض «أوفير» الوارد ذكرها فى التوراة. ومن الواضح أن الفرعون قد رغب فى إنقاذ جثمان ذلك الشريف لكى يجهزه بعناية إلى الدار الآخرة، وإن كان منقذه لم يذكر لنا شيئًا عن ذلك فى نقوشه القصيرة. ويرجع السبب فى اهتمام الملك بذلك كل هذا الاهتمام إلى ما كان بينه وبين أى موظف مقرب من المودة

الشخصية. وقد ظهر ذلك واضحًا فى حادث «وشبتاح» أحد كبار وزراء الأسرة الخامسة حوالى سنة ٢٧٠٠ ق. م. إذ حدث أن الملك وأسرته وحاشيته كانوا ذات يوم يتفقدون مبانى عمارة جديدة لا يزال العمل جاريًا فيها تحت إشراف «وشبتاح» الذى كان رئيسًا للوزراء ورئيسًا لمهندسى العمارة أيضا. فيعجب جميع الحاضرين من المبنى، وعندئذ يلتفت الملك إلى رئيس وزارته الأمين مثنيًا عليه، ولكنه يلاحظ أن «وشبتاح» لا يعى كلمات العطف الملكى فيصيح الملك حتى يزعج صياحه رجال حاشيته ثم ينقل ذلك الوزير الذى أصيب بالفالج سريعًا إلى البلاط ويطلب الملك على عجل الكهنة وكبار الأطباء لإسعافه. ويحضرالملك صندوقًا به قراطيس طبية، غير أن كل ذلك لم يجد شيئًا لأن الأطباء أعلنوا أن حالة الوزير موئسة. وعند ذلك ينزل بالملك الحزن ويعتزل فى حجرته مصليًا «لرع»، ثم يقوم بكل الترتيبات اللازمة لدفن «وشبتاح» ويأمر له بصنع تابوت من الأبنوس ويأمر بتضميخ الجثة بالعطور فى حضرته شخصيًا. ثم أذن ابن ذلك الشريف المتوفى فى بناء القبر الذى منحه الملك المتوفى وحبس عليه الأوقاف.

كذلك تمتع بشبه هذا العطف الملكى شريف آخر كان قد أراد أن يدفن أبنه البار معه فى المقبرة نفسها، فيقول الابن «لقد التمست من جلالة سيدى الملك «بيبى الثانى» عاش إلى الأبد أن يمن علينا بتابوت وملابس وعطور من عطور الأعياد لأجل «زاو» {والده المتوفى}، فأمر جلالته مدير الأوقاف الملكية بإحضار تابوت من الخشب وعطور من عطور الأعياد، وزيت وملابس بما يقدر بنحو ٢٠٠ قطعة من نسيج الكتان الجيد، ومن كتان الجنوب الجميل.... على أن تؤخذ كلها من البيت الأبيض {الخزانة الملكية} التابع للبلاط لأجل «زاو» هذا.

وبعد أن يحتفل بدفن المتوفى بتلك الأبهة الملكية ويجهز بمثل ذلك الأثاث الفاخر تبقى مسألة من يعوله بعد ذلك؟ لقد كان الشعور فى جميع العصور - ولو نظريا - أن المتوفى ما كان ليجسر على وضع كل تلك المسئولية فى يد الأحياء من أسرته، إذ كانت الأسرة تئول فى النهاية إلى فرع منها تفتر عنايته بالأمر حتمًا ثم تأخذ فى الزوال حتى تختفى جملة واحدة، ومن أجل ذلك كان الشريف يقوم بعمل وصايا مدونة بعناية وهبات يوقف دخلها كله لتموين قبره وتقديم القرابين

من البخور والدهان والطعام والشراب والملابس بمقادير وفيرة وفى فترات متعددة. ومن الجائز أن يكون هذا الدخل مصدره أملاك الشريف نفسه، وقد يكون من المربوط على وظائفه السابقة ومرتباته الإضافية التى تقتضيها مرتبته فى الدولة. وعلى كل حال كان يخصص من كل ذلك الدخل جزء ثابت لصيانة قبر المتوفى وإقامة شعائره اليومية.

وقد شاهدنا فى عدة أحوال أن الوثيقة القانونية الضامنة لتلك الأوقاف، قد نقشت على جدار مزار القبر نفسه، ومن ثم حفظت لنا حتى الآن، فقد خلف لنا «حبزافى» [حاكم المقاطعة وأميرها] فى أسيوط عشر وثائق مدونة بإتقان على الجدار الداخلى لمزار قبره، وكان الغرض منها تخليد بيان الخدمات التى كان يرغب فى استمرار إقامتها فى قبره أو من أجله بوجه عام.

وكان ذلك الوقف يبلغ أحيانًا مقدارًا عظيمًا من المال بحالة مدهشة. ففى القرن التاسع والعشرين قبل الميلاد أوقف على قبر الأمير، «نكاورع» ابن الملك «خفرع» ما لا يقل عن اثنتى عشرة بلدة من أملاكه الخاصة، وربط كل دخلها على الصرف على صيانة قبره. وفى عهد الملك «وسركاف» فى منتصف القرن الثامن والعشرين ق. م. عين مدير قصره ثمانية من الكهنة الجنازيين لخدمة قبره. وبعد ذلك بقرنين نجد أن أميرًا من الوجه القبلى وقف على قبره محاصيل إحدى عشرة قرية وضيعة. وفى قبر من تلك القبور نجد أن دخل كاهن جنازى كان وحده يكفى للصرف على قبر ابنته على النمط الذى سنه صاحب القبر لنفسه. يضاف إلى هذه المخصصات التى هى من موارد الشريف الخاصة ما كان يهبه الملك فى كثير من الأحوال من هبات جديدة لأى شريف بعد وفاته، وبذلك كان يزيد فى المخصصات التى ربطها الشريف بنفسه على قبره أثناء حياته، أو كان الملك يقوم بصرف كل المخصصات اللازمة للقبر من الدخل الملكى.

والظاهر أن هذه المخصصات فضلاً عن كونها تقى المتوفى شر مخاوف الجوع والعطش والبرد فى الحياة الآخرة كان يقصد بها أكثر من أى شىء مساعدته على الاشتراك فى إقامة أهم أعياد السنة، واحتفالاتها الدينية، فإن شأن المصرى فى

ذلك كشأن أى شرقى آخر يجد السرور العظيم فى الاحتفالات الدينية فلم يرض أن يتخلى بعد ما فارق الحياة الدنيا عن الملاذ الجميلة التى كانت تتاح له كثيرًا فى هذه الفرص. لذلك كان تقويم الأعياد عنده بمكان عظيم من الأهمية، فكان مستعدًا لتخصيص دخل وفير يساعده على إقامة تلك الاحتفالات الخاصة بكل أيام التقويم المهمة فى عالم الآخرة، كما كان ينفق عليها بسخاء بين أصدقائه فى حياته الدنيا. بل إنه كان فى الواقع ينتظر أن يشترك فى الاحتفال بهذه الفرص المرحة بين أصدقائه فى المعبد كما كان معتادًا فعل ذلك فى حياته الدنيا. فكان يأمر تنفيذًا لذلك أن يشاد له تمثال فى ردهة المعبد. وكان الملك أحيانًا يأمر حفاريه بنحت هذا التمثال وإقامته داخل المعبد ليكون منه بمثابة عطف سام يميز به من يشاء من أشراف رجاله العظماء.

وكذلك كان شريف عصر الأهرام ينصب فى قبره أيضًا تمثالاً من الحجر أو الخشب يمثل صورته الحقيقية تمثيلاً تامًا فى حجمه الطبيعى وملونًا بالألوان الطبيعية، وكان هذا التمثال يخفى فى حجرة سرية مخبوءة فى أصل بناء المزار، وكثيرًا ما كان الملك يهدى أمثال هذه التماثيل لزعماء الأشراف الممتازين من رجال حكومته وبلاطه. ومن البدهى أن ذلك التمثال الذى يمثل المتوفى [وهو أقدم شىء عرف من نوعه فى الفن] كان الغرض منه أن يقوم مقام المتوفى الذى *صاغ جسمه، وبذلك يكون فى مقدوره أن يعود إلى المعبد ليتمتع على الأقل بشبه* حضور جثمانى [بتقمصه هذا التمثال] ثم يعود بتلك الطريقة نفسها إلى مزار قبره حيث يحتمل أن يجد صورًا أخرى لجسمه فى الحجرة السرية الملاصقة للمزار فيتقمصها.

من مثل هذه الطقوس نرى ظهور الحياة الآخرة فى شكل أكثر تقدمًا وأحب إلى الناس من ذى قبل، وقت أن كانوا يتصورونها فى شكل ساذج بسيط. وتدل هذه الآراء الجديدة على ظهور أول ميل نحو الاعتراف بشخصية الفرد كما يلاحظ ذلك فى تلك التماثيل التى تصور هيئة صاحبها بالضبط، والتى تعد أقدم ما عرف من نوعها. وهى تمثل لنا علية القوم المتعاظمين فقط [أى تمثل طبقة الأشراف رجالا ونساء]، أما عامة الشعب فكانوا وقتئذ لا يزالون من غير شك

يعتقدون أن موتاهم يسكنون القبر أو يعيشون فى عالم الغرب المظلم، أى فى تلك المملكة السفلية التى يحكمها الآلهة الجنازيون القدامى الذين صار زعيمهم فى النهاية «أوزير». أما عظماء البلاد أى الملك وبطانته على الأقل فقد انبثق أمامهم الآن فجر مصير أسعد حالاً من مصير عامة الشعب، إذ كان فى مقدورهم أن يسكنوا حسب رغبتهم مع إله الشمس فى مملكته السماوية الفاخرة. ومن ذلك الوقت فصاعدا نجد فى القبور الملكية ما يدل على هذه الآخرة الشمسية.

وقد كان من المعقول أن الملك نفسه ينتظر أن قبره العظيم يتغلب على عوامل الدمار والفناء التى قد تصيب مقابر أشراف رجاله التى هى أقل متانة من قبره، وكذلك كان يعنى بتنظيم أوقافه لتبقى ثابتة أكثر من أوقاف معاصريه الذين هم أقل منه قوة. والواقع أن الهرم اعتبر فى كل الأزمان أثبت شكل هندسى فى البناء. فقد كان الفرعون الراقد تحت هذا الجبل الضخم من الأحجار المنيعة يتطلع إلى خلود جسمه وشخصيته التى كانت مرتبطة به ارتباطًا وثيقًا لا انفصام له. وقد يمتد بنا البحث إذا فحصنا أصل الهرم من جهة هندسة بنائه، ولكن من المهم أن نلاحظ فى هذا المقام أن القبر الهرمى الشكل كان رمزًا شمسيًا بالغًا حد الغاية فى التقديس قد أقيم فوق جثمان الملك ليحيِّى مطلع الشمس التى كان الفرعون من سلالتها.

والواقع أن الملك كان يدفن قديمًا تحت رمز إله الشمس نفسه الذى كان منصوبًا فى حجرة قدس الأقداس بمعبد «عين شمس». وهذا الرمز الهرمى الشكل كان إله الشمس قد اعتاد أن يظهر جاثمًا فوقه فى هيئة الطائر مالك الحزين (فنكس) منذ اليوم الذى خلق فيه الآلهة. لذلك لما ظهر الهرم الملكى بشكل جبل شاهق فوق ضريح الملك، وقد أشرف على المدينة الملكية التى كانت مبنية فى أسفله، وعلى الوادى الممتد إلى ما بعده بعدة أميال، كان من غير شك يعد أسمى شىء يرحب بإله الشمس فى كل البلاد عندما يرسل أشعته الصباحية الساطعة على قمة الهرم الوهاجة قبل أن ينشر ظلاله على مساكن الفقراء المنتشرة بأسفله ببرهة طويلة. وقد عثرنا فعلاً على قمة هرم وهى قطعة من الجرانيت المصقول البديع هرمية الشكل ملقاة عند قاعدة هرم الملك «أمنمحات»

الثالث بدهشور وقد نقش على أحد جوانب هذا الحجر وهو من غير شك الجانب الذى كان يواجه الشرق رسم شمس مجنحة فوق صورة عينين نقش تحتهما هاتان الكلمتان «جمال الشمس». فالعينان تشيران هنا بطبيعة الحال إلى فكرة المشاهدة التى تفهم من تينك الكلمتين «جمال الشمس». ونجد أسفل ذلك نقشًا آخر يتألف من سطرين يبتدئ قوله: «لقد فتح وجه الملك «امنمحات الثالث» ليتمكن من رؤية رب الأفق عندما يقلع فى عرض السماء» [انظر صورة ٦].

ويجب أن نرى فى اختيار الشكل الهرمى ـ الذى يعد أعظم رمز شمسى ـ لقبر الملك برهانًا آخر على سيادة المذهب الشمسى فى البلاط الفرعونى. ومما يجدر بنا ملاحظته فى هذا المقام أن من أهم دواعى المحافظة على الشكل الهرمى عند إهداء قبر ملكى، الاحتماء من «أوزير» بوجه خاص وطائفة آلهته.

ولم يكن الهرم مبنى منعزلاً قائمًا بذاته، بل كان جزءًا من مجموعة، وبعبارة أدق الجزء الأعظم من مجموعة رائعة من البناء تشغل موقعًا بارزًا على حافة هضبة الصحراء المشرفة على وادى النيل. إذ كان قائمًا على الجانب الشرقى للهرم معبد منخفض ملاصق لمبنى الهرم نفسه، له رواق ذو عمد جميلة قائم بمقدمته، يؤدى إلى ردهة ذات عمد خلابة تحيط بها حجرات المعبد على كلا الجانبين، وكان يقوم فى مؤخرة المعبد مكان مقدس، وكان الجدار الذى خلف «قدس الأقداس» هذا، هو واجهة الهرم نفسه الشرقية. وقد أقيم أمام هذا الجدار باب وهمى ملاصق له يمكن للملك المتوفى الخروج منه من ضريحه ليتسلم القرابين المقدمة له ويتمتع بها فى ذلك المكان.

ويلى ذلك طريق مؤدية من وادى النيل إلى حيث مستوى الهضبة المقام فوقها الهرم أو المعبد، وكانت تلك الطريق مسقوفة ذات طول عظيم، وكانت مقامة من أحجار صلبة ضخمة وممتدة إلى باب المعبد نفسه. وكان يقوم عند الطرف الأسفل من ذلك الطريق معبد آخر فخم ذو عمد يعتبر بمثابة باب هائل للطريق، وقد سمى الأستاذ «ريزنر» هذا المعبد بحق «معبد الوادى». ومن المحتمل أن ذلك المعبد كان يوجد بداخل جدران مدينة المقر الملكى التى كانت فى أسفل الوادى. وبهذين المعبدين كانت بطبيعة الحال تقام الشعائر الدينية الجنازية التى كانت

تجرى بنظام على روح الملك، فهما شبيهان فى أصلهما بمزار قبر الشريف الذى تكلمنا عنه فيما سبق.

وتؤلف مجموعة العمائر المركبة من الهرم والمعبد الجنازى والطريق المسقوفة ومعبد الوادى أعظم فكرة فى هندسة البناء ظهرت فى ذلك العصر المبكر. وقد أضاف ما بقى من آثارها المكشوفة فى السنوات الأخيرة إلى معلوماتنا فصلاً جديدًا فى تاريخ العمارة.

وقد أنفق كل من فراعنة الأسرتين الثالثة والرابعة {قرابة٣٠٠٠ـ ٢٧٥٠ ق.م.} جزءًا كبيرًا من ثروتهم فى إقامة ذلك القبر الشاسع ليحوى جثمان الفرعون ويضمن بقاءه بعد الموت، وبتلك الكيفية صار الهم الأكبر لبقاء الملك فى الحياة الآخرة الشغل الشاغل للحكومة ودولاب أعمالها. وكثيرًا ما عجز الملك عن إتمام تلك المجموعة البنائية قبل موته، وبذلك كان يلقى على عاتق خلفاء الملك أعباء إتمامها كما كانوا يعملون كل ما فى وسعهم فى الوقت نفسه لإتمام مقابرهم أنفسهم. وكان الكهنة عند الفراغ من بناء تلك المجموعة يهدون صيغًا منظمة لتحفظ المعبد والهرم. أما لوازم الملك وهو راقد تحت بناء الهرم فكانت تراعى بكل عناية وذلك بإقامة الشعائر الرائعة فى المعبد الملاصق لقبره، ولا نعرف فى تلك الشعائر شيئًا سوى الأجزاء التى حفظت لنا منها من متون الأهرام، وهى تدلنا على أن ما كان مألوفًا إقامته فى الحياة من الأعياد كان يقام مثله للملك المتوفى، وبطبيعة الحال يكون ذلك بأعظم درجة من البهاء.

ومن البدهى أن تلك الشعائر كانت تتناول بوجه خاص تقديم الطعام الوفير والملابس وما أشبه ذلك. وكانت الصيغ التى يلقيها الكهنة الجنازيون تقدر بمائة وثمان وسبعين صيغة، أى أنها كانت تشغل $\frac{١}{٢٠}$ من متون الأهرام. وكانت تشمل أسماء ما يقدم من الطعام والشراب والملابس والدهان والروائح العطرية والبخور، ويظهر لنا من تلك الأسماء ما كانت تحويه مائدة الملك من الألوان التى لا يحصيها العد ـ ومثل ذلك عن ملابسه ومواد زينته وغير ذلك من لوازمه فى الحياة الآخرة.

ونجد فى الأوانى الفاخرة التى كشفها الأستاذ «برخارت» فى معبد الملك «نفرار كارع» بأبى صير {من القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد} دليلاً آخر على الأبهة الملكية التى كانت تقام بها شعائر القربان، فى حين أن جمال معبدى الهرم وعظمتهما قد هيئا فى حد ذاتهما مكانًا فريدًا تؤدى فى داخله كل تلك الفخامة الجنازية، فكان الكاهن بتلاوة نحو ثمانين صيغة من تعاويذ قربان الشعائر الجنازية يضع أمام الملك المتوفى تلك الملاذ الصورية التى كان يتمتع بحقيقتها فى الحياة الدنيا، ذلك إلى تلاوة بعض تعاويذ أخرى مبعثرة فى متون الأهرام. وفى أثناء تأدية هذا العمل كان الكاهن يدخل إلى الحجرة السرية الواقعة خلف ردهة المعبد والمؤدية إلى واجهة الهرم نفسه، وهنا يواجه الكاهن الباب الوهمى العظيم الذى كان يمكن روح الملك أن تأتى منه لتدخل المعبد ثانية عند خروجها من الضريح الملكى الذى يقع على عمق بعيد تحت ذلك المبنى الشامخ المقام فوقه. وكان الكاهن وهو واقف أمام هذا الباب الوهمى يخاطب الملك كأنه حاضر أمامه، مقدمًا له معرضًا عظيمًا من أثمن الهدايا، ويصحب كل هدية منها بصيغة معينة عند تقديمها طبقًا لما ذكرناه عن ذلك فيما سبق. غير أن حقيقة الموت الصارخة كان من المستحيل تجاهلها فى تلك الصيغ التى لم توضع إلا للاعتقاد بأن الملك المتوفى لا يزال حيًا ويشعر بكل ما يحتاجه الأحياء فى الدنيا، إذ نجد أن الكاهن كان يشعر وهو فى تلك الحجرة التى كان السكون مخيمًا عليها شعورًا شديدًا بصمت ذلك الملك الراقد المدفون تحت ذلك الهرم الهائل. ومن أجل ذلك كان يناديه من وقت لآخر ليستيقظ من سباته العميق ويشاهد الطعام والهدايا المبسوطة أمامه. وخوفا من سقوط شىء من هذه المواد المقربة كان الكاهن يلخصها كلها فى وعده للملك فيقول: «ها تقدم لك كل القرابين وكل الضحايا وكل ما ترغب فيه وكل حسن لك إلى الأبد مع الآلهة». وعلاوة على كل هذه الصيغ الخاصة بالهدايا الجنازية كانت توجد بعض تعاويذ لطرد الجوع من أعضاء جثمان الملك، فكان الكاهن يرتل هذه التعاويذ للملك من وقت لآخر أيضا.

ولما كان ملوك عصر الأهرام المبكر {أى فى القرن الثلاثين قبل الميلاد} يعتقدون فى صيانة جثمانهم بالمحافظة على تلك الإجراءات، فإنه كان بالبديهة

أن يتطلعوا بثقة إلى أنهم سيعيشون عيشة خالدة فى الحياة الآخرة. ولكن هل كانت سلالة ذلك الملك الشرقى لا تسأم من استمرار تقديم تلك القرابين الجنازية له دائمًا أبدًا؟ سنرى!

والواقع أن مثل هذه الصيانة تحتاج فى استمرارها إلى توظيف طائفة عظيمة من الكهنة ليظلوا قائمين بأعباء تلك الخدمة فى معبد الهرم على الدوام، ولم يبق لنا التاريخ أية قائمة تتضمن أسماء كهنة أى معبد ملكى كان. وكان أولئك الكهنة يعيشون على الهبات السخية التى كان فى وسع سلطة البيت المالك أن يضمن استمرار بقائها مدة طويلة.

فمن ذلك أن هيئة كهنة هرم الملك «سنفرو» بدهشور وأوقافه {القرن الثلاثين ق. م.} قد بقيا محترمين حتى لقد أعلن إعفاء طائفتهم من كل الرسوم والضرائب الحكومية بمقتضى مرسوم ملكى أصدره الملك «بيبى الثانى» فى عهد الأسرة السادسة، أى بعد وفاة الملك «سنفرو» المذكور بثلثمائة سنة، وذلك بالرغم من حدوث تغيير فى الأسرة المالكة مرتين منذ وفاة الملك «سنفرو». وكان من المحتم فى أمثال هذه الأوقاف المتراكمة من جيل إلى جيل أن يظل توزيعها قائمًا إلى أن تبطل فى نهاية أمرها وتزول من جراء ذلك.

ففى القرن الثلاثين ق. م. مثلاً حول الملك «سنفرو» نفسه إلى أحد أشراف رجاله مائة رغيف يوميًا من أوقاف المعبد الجنازى الخاص بأم أولاد الملك المسماة «نيما عتحب»، وكانت هذه الملكة قد توفيت فى ختام الأسرة الثانية، أى قبل العهد الذى عاش فيه «سنفرو» المذكور بنحو جيلين. وبذلك نرى أن الملك «سنفرو» نفسه، إن لم يكن قد اغتصب دخل تلك الملكة الجنازى، فإنه قد تصرف فيه بمكافأة أحد رجاله من دخل ذلك الوقف، بعد أن أدى ذلك الدخل المهمة التى خصص من أجلها نحو قبر تلك الملكة.

وكذلك نجد بنفس تلك الطريقة نفسها أن الملك «سحورع» عندما أراد أن يكافئ «برسن» (أحد رجال الأشراف المقربين إليه)، حول إليه دخلاً من الخبز والزيوت التى كانت فيما سبق تصرف كل يوم للملكة «نفرحتبس». وقد اضطر الملك إلى اتخاذ ذلك الإجراء لعدم وجود أى مورد آخر تحت تصرفه.

ومن تلك الإجراءات السالفة الذكر يتضح لنا أن القرابين الجنازية لم تمح من الوجود، بل كانت مستمرة سارية الاستعمال بعد وقفها قربة لأى قبر كان. غير أننا نجد فيما فعله كل من الملك «سنفرو» والملك «سحورع» تلميحًا للطريقة الوحيدة الممكنة الحصول للتخلص من تلك الالتزامات المورطة التى نشأت من تضاعف عدد المقررات الموقوفة على القبور، وذلك بتحويل القرابين التى كانت ملتزمة فيما مضى لقبور عتيقة تقادمت عليها العهود إلى قبور أخرى جديدة حديثة العهد. وحتى مع اتباع تلك الطريقة فإن عدد القبور الملكية الذى كان آخذًا فى الازدياد جعل استعمالها باطراد أمرًا صعبًا، بل كان مجرد الإشراف على تلك القبور ومباشرة إدارتها بقصد المحافظة عليها أمرًا صعبًا أيضًا. ومن ثم وجد كهنة الملك «سحورع» فى ختام القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد عندما أصبحوا غير قادرين على المحافظة على معبد هرم الملك، أن الأفضل والأكثر اقتصادًا أن يقيموا جدرانًا على مداخل المعبد الجانبية ويتركوا للدخول بابًا واحدًا هو الذى فى طرف الطريق المؤدى للمعبد. والظاهر أن ذلك كان فى اعتقادهم عملاً صالحًا لأنهم دونوا أسماء طائفة الكهنة الذين قاموا بهذا العمل على جدران الأبواب التى سدوها بهذه الطريقة، ثم عثر بعد ذلك على صورة للإلهة «سخمت» رسمت فى المعبد فقدست عرضًا إذ كانت تلك الإلهة موضع احترام وعبادة من أهالى القرى المحيطة بالمعبد، وقد بقيت تلك القرى تقوم باحترام تلك الإلهة وعبادتها عدة قرون، فكان ذلك سببًا فى صيانة جزء كبير من المعبد كان لابد من مصيره إلى الخراب والدمار منذ زمن طويل لولا حرمة تلك الإلهة. وقد كان حظ الملك «نفر أركارع» خلف «سحورع» أسوأ من ذلك، إذ هدم أحد خلفائه «نوسررع» بعد وفاته ببضع سنين الطريق المؤدية إلى المعبد الجنازى حتى يتمكن من تحويلها إلى طريق لمعبده القريب من تلك الجهة. وقد نتج من ذلك أن كهنة «نفر أركارع» لما صاروا غير قادرين على الإقامة فى أسفل الوادى هاجروا إلى الهضبة وأقاموا مساكنهم المبنية من اللبن حول ذلك المعبد تارة أو ملاصقة لواجهته تارة أخرى، وكانوا لا يزالون يقومون بتأدية وظائفهم بالمعبد، ولما كانت مواردهم آخذة فى النقصان والتقلص فقد كانت مساكنهم المذكورة تتحول تبعًا لذلك إلى أكواخ حتى

انتهى أمرها بالزحف إلى ردهة المعبد وحجراته. ولما صار الكهنة إذ ذاك فى حالة فقر باد فقد استولوا على جميع المعبد وجعلوه حيًا لهم. ولما صاروا فى نهاية الأمر ولا عائل لهم هجروا أكواخهم المتداعية نهائيًا فاختلطت أنقاضها بأنقاض المعبد نفسه، ولما جاء عصر الدولة الوسطى بعد وفاة الملك «نفر أركارع» بنحو ٦٠٠ سنة كان معبد هذا الملك قد صار مدفونًا على عمق عدة أمتار من التراب المتراكم فوقه، ثم استعملت تلك الأكوام التى تعلوه جبانة للدفن، وقد كشفت الحفائر لنا فيها عن مدافن على عمق متر أو مترين من رقعة ذلك المعبد.

وقد أصاب ذلك المصير نفسه جبانة الأسرة الرابعة العظيمة بالجيزة، وذلك أن الكهنة الجنازيين الذين كان أجدادهم يديرون الأوقاف الفخمة التى حبست على أعظم الأهرامات حجمًا - قد حشروا مدافنهم فى الطرقات والمساحات الخالية بين المقابر الملكية القديمة الخاصة بالسلالة البائدة، على أن أولئك الكهنة أنفسهم قد انقرضوا أيضًا قرابة سنة ٢٥٠٠ ق. م. أى بعد أن أسس الملك «خوفو» جبانته بالجيزة بنحو ٤٠٠ سنة. والواقع أنه لم يمض زمن طويل بعد سنة ٢٥٠٠ ق. م. حتى صارت منطقة أهرامات الدولة القديمة البالغ طولها نحو ٦٠ ميلاً من «ميدوم» جنوبًا إلى «الجيزة» شمالاً خلاء مقفرًا.

وإننا ندرك كنه هذه الحالة المحزنة من آراء رجال الفكر فى العهد الإقطاعى الذى جاء بعد ذلك بنحو ٥٠٠ سنة، وذلك عندما تأملوا فى انهيار تلك المقابر الضخمة.

عل أن ما صار أمرًا واضحًا جدًا بعد انقراض فراعنة عصر الأهرام العظيم كان أمرًا قد أخذ العقل يدركه قبل سقوط الدولة القديمة بزمن طويل، فإن أهرامات مصر تمثل لنا ذروة الاعتقاد فى كفاءة العتاد المادى التامة لضمان سعادة المتوفى فى الحياة الآخرة. فهى المظهر الرائع للكفاح الطويل للتغلب على القوى المادية المحضة، وهذا الكفاح ربما ترجع بدايته إلى نحو مليون سنة قام به صيادو عصر ما قبل التاريخ بمفردهم، أما فى ذلك العهد الذى نحن بصدده فقد قامت به قوى أمة مدربة بأسرها، فأهرام الجيزة الكبيرة التى تمثل لنا جهودًا

جبارة استنفدت كل موارد دولة عظيمة ترمى جميعها إلى غرض واحد سام هو وقاية جثمان رجل واحد هو رئيس الدولة وقاية أبدية داخل غطاء من المبانى الضخمة جدًا، حتى يتسنى لذلك الجثمان الملكى أن يقاوم بتلك الطريقة المادية المحضة غائلة كل الآباد ويقهر بتلك القوة الآلية الأسباب المانعة من الخلود. على أن التخلى عن بناية الأهرام الضخمة مثل أهرام الجيزة، والاكتفاء فى نهاية الأمر بكتابة متون الأهرام منذ عهد آخر ملك فى الأسرة الخامسة قرابة سنة ٢٦٢٥ قبل الميلاد داخل أهرام صغيرة، يؤكد لنا الاعتقاد بوجود السعادة فى الحياة الآخرة فى مكان ما آخر، أى الاعتقاد فى وجود نعيم فى مكان ما بعيد لا يعتمد فى إدراكه على الوسائل المادية فقط. فهذا الاعتقاد الجديد يؤكد إلى حد ما أن الأكوام من المبانى لا يمكنها أن تهب الإنسان الحياة الأبدية، بل يجب أن ينالها بروحانيته؛ وبذلك أخذ أقدم أتباع عقيدة القوة المادية يتعلمون أول درس لهم، وأوشك عصر الأخلاق يظهر ويشل ما عمله بناة الأهرام.

هوامش الفصل الرابع:

(١) أى أوزير.

(٢) يشير هنا إلى رواية «هملت» تأليف «شكسبير» أكبر شعراء الإنجليز.

(٣) هذه العلامة هى فى الحقيقة رابط الحذاء كما لاحظ ذلك لأول مرة بتكوم جن وهى كلمة مصرية تشتمل على الحروف الساكنة نفسها التى تحتوى كلمة «الحياة» فى المصرية، غير أن تفسير جن هذا الذى اعتقد أنه صحيح لم يقبله كل علماء المصرية.

(٣) هذه العلامة هى فى الحقيقة رابط الحذاء كما لاحظ ذلك لأول مرة بتكوم جن وهى كلمة مصرية تشتمل على نفس الحروف الساكنة التى تحتوى كلمة «الحياة» فى المصرية، غير أن تفسير جن هذا الذى اعتقد أنه صحيح لم يقبله كل علماء المصرية.

(٤) يشير هنا إلى الموظف الكبير «ونى» (انظر مصر القديمة للمعرب جزء أول).

(٥) انظر مصر القديمة للمعرب جزء أول.

الفصل الخامس

متون الأهرام وصعود فرعون إلى السماء

تمُدنا متون الأهرام والمسرحية المنفية بأقدم مصدر وصل إلينا عن التفكير البشرى عند الأقدمين. فلدينا فى هذين المصدرين أقدم مدى يمكن لنا الآن إدراكه عن تاريخ الإنسان العقلى. وكان الظن السائد أن كل الأهرام كانت عارية من النقوش إلى أن اقتحم العمال المصريون الذين كانوا يعملون فى الحفائر تحت إشراف «مريت» فى سنة ١٨٨٠ ميلادية ـ وهى السنة السابقة لوفاته ـ هرم «بيبى الأول»، ثم دخلوا فيما بعد هرم الملك «مرنرع»، فوجدوا جدران أروقة هذين الهرمين وممراتهما وحجراتهما مغطاة بآلاف الأسطر من النقوش الهيروغلفية، وهذه النقوش هى التى يطلق عليها الآن اسم «متون الأهرام».

وتوجد هذه المتون منقوشة فى خمسة من أهرام سقارة التى كانت تعد جبانة «منف» القديمة[1]. وقد قام بوضعها هنالك طائفة من الفراعنة وهم: الملك الأخير فى الأسرة الخامسة ثم الملوك الأربعة الأول الذين خلفوه فى الأسرة السادسة. وقد حكموا حسب ترتيبهم المذكور مدة تقرب من قرن ونصف قرن تبتدئ قرابة ٢٦٢٥ ق. م. وتنتهى قرابة سنة ٢٤٧٥ ق. م. أى أنهم حكموا طوال القرن السادس والعشرين، وعلى الأرجح ربع قرن قبل هذا التاريخ أيضا وربع قرن آخر بعده.

غير أنه يظهر لنا أن محتويات هذه المتون تشتمل على مادة أقدم من عصر النسخ التى وصلت إلينا، وتشير النسخ الخمس التى بأيدينا إلى مادة كانت

موجودة فيما مضى، ثم اختفت بعد، فإنك تقرأ فيها عن «فصل أولئك الذين يصعدون» و«الفصل الخاص بأولئك الذين يرفعون أنفسهم». وذلك يدل على أن هذين الفصلين كانا مستعملين قديمًا فى مناسبات لحوادث مختلفة فى أساطير ذلك العهد القومية، وبذلك يعتبر هذان الفصلان أقدم عهدًا من متون الأهرام التى بأيدينا.

وكذلك توجد فى هذه المتون إشارات إلى الخصومات التى كانت قائمة بين ملوك الشمال {الوجه البحرى} وملوك الجنوب {الوجه القبلى} مما يدل على أنها كتبت قبل عهد الاتحاد الثانى أى قبل القرن الرابع والثلاثين ق. م.، هذا إلى فقرات أخرى يرجع تاريخ عهدها إلى باكورة عهد الاتحاد الثانى أى فى الوقت الذى كانت فيه تلك الخصومات ما زالت مستمرة، وكان فيه ملوك الجنوب بالرغم من تلك الخصومات قابضين على زمام الحكم فى الشمال ومحافظين على وحدة الدولة، وقد كتبت كل هذه الفقرات بوجهة نظر أهل الجنوب.

على أننا نرى من ناحية أخرى أن بعض متون الأهرام قد ألفت فى زمان متأخر معاصر للدولة نفسها القديمة. مثل الصيغ التى وضعت لحماية الهرم والتى لم تكن بطبيعة الحال أقدم من ظهور الشكل الهرمى فى القرن الثلاثين ق. م. وظهر كذلك فى خلال مدة القرن ونصف القرن المذكورة التى كتبت فى أزمنتها نسخ متون الأهرام الخمسة اختلاف بين بعض النسخ وبعضها الآخر؛ فإن لدينا حججًا قاطعة تدل على إدخال تنقيح ظاهر على النسخ المتأخرة العهد منها ليس له نظير فى النسخ القديمة، وذلك يدل أيضًا على أن مراحل التفكير ونمو العادة والاعتقادات التى أخرجت هذه المتون إلى حيز الوجود كانت لا تزال مستمرة فى تطورها حتى ظهرت النسخة الأخيرة منها فى باكورة القرن الخامس والعشرين ق. م. لذلك تمثل لنا هذه المتون حال عصر لا يقل عن ألف سنة، ولا يعزب عن الذهن أن ألف السنة هذه كانت قد انتهت بالنسبة إلينا من نحو أربعة آلاف وخمسمائة سنة، والواقع أن مثل هذا القدر العظيم من الوثائق الباقية لنا عن العالم القديم ليس له مثيل فى أى مكان آخر من العالم. وهذه المتون تؤلف خزانة

من التجاريب التى كانت تدور فى حياة الإنسان القديم، ومعظمها مما لا يزال ينتظر دوره تحت محك الدرس والبحث.

ولقد كانت الغاية المطلوبة من متون الأهرام على وجه عام هى ضمان السعادة للملك فى الحياة الآخرة، لكنها مع ذلك تصور لنا دائمًا جزر الحياة المحيطة بها ومدها، شأنها فى ذلك شأن كل أدب قومى، فإنها تنطق بعبارات تدل على خبرة القوم الذين أخرجوها، وهذه العبارات تتناول الحياة القومية فى القصور والطرق والأسواق، وبعضها عبارات أنشأتها العزلة والعكوف فى المعابد المقدسة. وإن صاحب الخيال السريع ليجد فى هذه العبارات صورًا كثيرة عن ذلك العالم الذى تقادمت عليه الدهور وبقيت هى مرآته.

ومع أن هذه الصور تهتم بوجه خاص بذكر أحوال «الملك» فإنها لم توصد فى وجوهنا باب العالم المحيط بها، فمثلا عندما تعبر عن سعادة الملك فى الحياة الآخرة تقول: «هذا الذى سمعته فى البيوت وتعلمته فى الطرقات فى هذا اليوم الذى طلب فيه الملك ببيى للحياة». ومنها نلتقط لمحات عاجلة عن تلك الحياة فى البيوت وفى الطرقات التى مضى عليها خمسة آلاف سنة: «فالخطاطيف تشقشق على الجدار، والراعى يعبر الترعة خائضًا فى الماء حتى الحزام حاملاً عبر الماء رضيع قطيعه الضعيف، والأم تدلل رضيعها عند الغسق، ويشاهد الصقر عند الغروب مخترقًا السماء، وتشاهد البطة البرية مخلصة قدميها فارة من يد الصياد الذى فشل فى اقتناصها فى المستنقع، وعابر الماء واقف عند زورق العبور ولا مال معه يقدمه للنوتى مقابل مقعد فى الزورق المزدحم بالمسافرين ولكن يسمح له أخيرًا بالنزول إلى الزورق على أن يعمل مقابل نقله فى نزح الماء من الزورق المثقوب، ويشاهد الشريف جالسًا عند حافة بركته فى حديقته تحت ظلال الخميلة المصنوعة من سيقان الغاب».

وهذه الصور وكثير غيرها هى مما تزخر به الحياة الدنيوية لغمار سكان وادى النيل. أما الحياة فى القصور فقد انعكست صورتها فى تلك المتون بشكل أتم وأبهج من حياة العالم الخارجية عنها وعما يحيط بها، فإن الملك يشاهد فى بعض

الأوقات مثقلاً بأعباء مهام الدولة وبجانبه أمين سره يحمل محبرة وقلمين أحدهما للمداد الأسود والآخر للمداد الأحمر لكتابة العناوين، وكذلك نراه فى أوقات فراغه متكئًا بدون كلفة على كتف صديقه الحميم أو مستشاره، أو يشاهدان وهما يستحمان معًا فى بركة القصر والحاجب الملكى يقترب حتى يجفف جسميهما. وكثيرًا ما يشاهد على رأس موكب باهر مخترقًا طرق مدينته يتقدمه السعاة والمقدمون مفسحين أمامه الطريق، وعندما يعبر إلى الشاطئ الثانى وينزل من الزورق الملكى الوهاج يشاهد عامة الشعب ملقين أحذيتهم وملابسهم راقصين أمامه رافعين أصواتهم بتهليلات الفرح عند رؤيتهم طلعته أو يرى عند باب قصره وقد أحاطت به فخامة البلاط وبهاؤه، أو يشاهد مرتقيًا عرشه العظيم المزين برءوس الأسود وحوافر الثيران، وفى ذلك تقول المتون: «يشاهد الملك فى قاعة قصره وهو جالس على عرشه العجيب وصولجانه المدهش فى قبضته ثم يرفع يده نحو أولاده ليقفوا أمام هذا الملك ثم ينزل يده مشيرًا نحوهم فيجلسون ثانية».

والحقيقة أن هذه المشاهد قد صورت على أنها حوادث تنتظره فى الحياة الأخروية، غير أن عناصر الحوادث والألوان التى صورت بها تلك الحياة مأخوذة من الحياة الدنيا والتجارب الدنيوية، فمن ذلك أن أولئك الذين مر وصفهم بأنهم كانوا يلقون نعالهم وملابسهم ليرقصوا أمامه فرحًا عند وصول الملك حينما يعبر النيل السماوى هم الآلهة، ولكنهم مثلوا طبعًا كأنهم يفعلون فى السماء ما اعتاد رعاياه فعله فوق وادى النيل الأرضى. وكذلك هم الآلهة الذين نراهم يجففون أعضاء فرعون عندما يستحم مع إله الشمس فى «بحيرة البردى» فهم هنا أيضا يفعلون لفرعون ما كان حجابه يفعلون له على الأرض.

ولكن بالرغم من أن هذه المتون العتيقة غاصة بمناظر الحياة الدنيوية التى نقلت عنها فإنها فى مجموعها تصور أرضًا غير معروفة لنا تقريبًا، فإنه عندما يحاول الإنسان ارتياد مجاهل هذه الأرض يحس كأنه يرود غابة فطرية شاسعة الأرجاء كأنها غياض مسحورة مفعمة بأشكال غريبة وأشباح مخيفة تتراءى كأنها تقطن فى تيه لا منفذ فيه. فإننا نجد فيها كتابة عتيقة التهجية تضم فى ثناياها

كلمات ذات معنى غامض، قد يجوز أن يكون القارئ قد عرفها وهى مرتدية لباسها المعتاد الذى لبسته فيما بعد، وكذلك كانت تستعمل تلك الكلمات فى مواقف ومعانٍ غريبة عن القارئ الحديث غرابة تهجيتها.

ويوجد فى هذه المتون مجموعة أخرى كبيرة من الكلمات البالغة حد الغرابة المخالفة لتلك الكلمات المعروفة المتكررة، وأعنى بذلك طائفة من الكلمات العتيقة المهجورة التى عاشت حياة طويلة دائرة فى الاستعمال فى دنيا قد محيت تمامًا وصارت نسيًا منسيًا، فهى بعد أن وخطها المشيب كانت كالعداء المنهوك القوى تترنح على مرأى منا مدة قصيرة فى أقدم أفق معروف لدينا، فقد ظهرت فقط فى هذه المتون العتيقة ثم اختفت اختفاء أبديًا بعد عصر تلك المتون، ومن ثم لا نصادفها مرة ثانية فى متون مصرية أخرى. فهى تكشف لنا فى شىء من الإبهام عن دنيا من التفكير والكلام بادت من الوجود ويعتبر عهدها آخر العصور العديدة التى لا تحصى والتى مرت بها حياة الإنسان فيما قبل التاريخ حتى صار قاب قوسين أو أدنى من الدخول فى العصر التاريخى. ولكن هذه الكلمات الغريبة التى وخطها الشيب، وهى البقية الباقية لنا من عصر منسى مهجور، استمرت مستعملة مدة جيل أو جيلين فى متون الأهرام، وتستمر غرابتها بالنسبة إلينا عادة حتى يزول استعمالها نهائيًا. وليس لدينا من الوسائل ما نعرف به معناها أو إرغامها على أن تبوح لنا بأسرارها أو عن الرسالة التى كانت تحملها فى غضونها، وليس لدينا من فنون معرفة اللغات القديمة ما نحاول به إرغامها على كشف ما تكنه من الأسرار. ويوجد بجانب تلك الكلمات أيضًا طائفة أخرى من التراكيب العويصة التى زاد فى صعوبتها طبيعة ما تشير إليه من المعانى المبهمة الغامضة، فهى مفعمة بتلميحات عن حوادث أساطير ضاعت معالمها عنا، وعادات ومعاملات قد فات زمانها منذ عهد بعيد. وقوامها عناصر حياة وفكر وتجارب ضاعت معالمها كلها فى بيداء المجهول التام.

ذكرنا فيما سلف أن الغاية المهمة فى متون الأهرام هى فى الأصل ضمان سعادة الملك فى الحياة الأخروية، لذلك نجد أبرز شىء فى هذه المتون الاحتجاج الملح بل الاحتجاج الحماسى ضد الموت، ويمكن اعتبارها صورة لأقدم ثورة

عظيمة قام بها الإنسان ضد الظلمة والسكون العظيمين اللذين لم يعد منهما أحد. وكلمة الموت لم تذكر قط فى متون الأهرام إلا فى صيغة النفى أو مستعملة للعدو، فترى التأكيد القاطع مرة بعد الأخرى أن المتوفى حى يرزق «الملك تيتى لم يمت موتا بل جاء معظمًا فى الأفق». «هيا أيها الملك «وناس» إنك لم تسافر ميتا بل سافرت حيا، لقد سافرت لكى يمكنك أن تعيش، وإنك لم تسافر لكى تموت: «إنك لن تموت، هذا الملك بيبى لن يموت». «الملك بيبى لا يموت بسبب أى ملك... ولا بسبب أى ميت. هل قلت إنه مات؟ إنه لن يموت، هذا الملك «بيبى» يعيش أبدًا، عش! إنك لن تموت»: «وإذا رسوت {استعارة للموت} فإنك تحيا {ثانية}». «هذا الملك «بيبى» قد فر من موته».

وهكذا نجد تجنب ذكر الموت باستمرار فى هذه المتون، وكثيرًا ما تحتم صيغة نفى الموت بالتأكيد الآتى: «إنك تعيش، إنك تعيش، ارفع نفسك، إنك لن تموت فقم، ارفع نفسك» أو «ارفع نفسك أيها الملك بيبى السامى بين النجوم التى لا تفنى {وهى النجوم الثوابت} إنك لن تفنى أبدًا. وإذا لم يكن بد من الإشارة إلى حقيقة الموت المرة فإنه يسمى «النزول من البحر» أو ربط حبال السفينة فى المرساة كما سبق ذكر ذلك، أو كان يفضل فى مثل هذه الحالة ذكر كلمة الحياة منفية، ولذلك كان يستحب قول «ليس حيًا» بدلاً من النطق بالكلمة المشئومة. أو كانت هذه المتون القديمة تعيد إلى الذاكرة ذكريات حزينة لسعادة مفقودة قد تمتع بها الناس ذات مرة «قبل أن يأتى الموت».

ومع أن أسمى موضوع فى متون الأهرام كان الحياة، أى حياة الملك الأبدية، فإن هذه المتون كانت تتألف من مصادر متنوعة جدًا، ولما كانت كل طريقة وكل نفوذ يستعمل للوصول للغرض المقصود (الحياة بعد الموت) فإن الكهنة الذين وضعوا تلك المجموعة من الأدب القديم، والتى هى أقدم ما وصل إلينا للآن، ضمنوها كل أنواع التعاويذ القديمة التى كانت تعد فى نظرهم مرعية مستجابة، أو التى وجدوا أنها تفيد لذلك الغرض.

ويمكن القول بأن متون الأهرام تحتوى بوجه خاص على ستة موضوعات: شعائر جنازية ـ وشعائر خاصة بالقرب المأتمية عند القبور ـ وتعاويذ سحرية ـ

وشعائر قديمة خاصة بالعبادة ـ وأناشيد دينية قديمة ـ وأجزاء من أساطير قديمة ـ وصلوات وتضرعات لفائدة الملك المتوفى. وتقع هذه المتون فى طبعتها الحديثة الآن فى مجلدين من القطع الكبير يشتملان على القراءات والتوجيهات المختلفة لنصوصها، وهذا المجلدان يحتويان من المتون أكثر من ألف صفحة، وقد قسمها الناشر الأول إلى أربع عشرة وسبعمائة صيغة.

وإذا أمكننا الإشارة إلى متون الأهرام بصفة عامة كما فعلنا فلا يمكننا معرفة معانيها معرفة تامة، فإن ذلك يعد من أصعب الأمور، ولكن لحسن الحظ يمكن فهم شكل الأدب الذى تحويه هذه المتون واستساغته. فمن بين أقدم القطع الأدبية فى هذه المتون الأناشيد الدينية، وهى عبارة عن تركيب شعرى قديم بهيئة أبيات من الشعر الموزون المقفى ظاهر فيه التوازن بين كلماته ومعانيه. وقد نقل العبرانيون هذا التركيب الشعرى إلى أدبهم بعد ذلك بألفى سنة، وهو التركيب المعروف لنا فى «المزامير» باسم «توازن الأعضاء». ويرجع استعمال ذلك التركيب فى متون الأهرام إلى الألف الرابعة ق. م. وعلى ذلك يعد وجوده فى هذه المتون أقدم من وجوده فى أية بقعة أخرى من العالم بمراحل بعيدة. والواقع أنه أقدم صورة أدبية بين جميع أنواع الأدب المعروف لدينا.

وهذا النوع من الأدب لا ينحصر استعماله فى الأناشيد المذكورة فقط، بل يوجد كذلك فى نبذ أخرى من متون الأهرام، ولكنها لم تصل هنالك إلى درجة الكمال الذى نلمسه فى هذه الأناشيد.

وزيادة على ما ذكر من التركيب الشعرى الذى يرتفع بهذه النبذ إلى مرتبة الأدب بالمعنى المعروف لدينا الآن فإننا كثيرًا ما نجد بعض كتابات مبعثرة تحمل فى مظهرها صفات الأدب من الوجهة الفكرية واللغوية. فمثلا نجد أثرًا دقيقًا من مجال الخيال فى أحد الأوصاف الكثيرة التى وردت عن بعث «أوزير». إذ جاء فيه: «فك لفائفك إنها ليست لفائف بل هى خصلات شعر «نفتيس»: و«نفتيس» هى الإلهة المنتحبة المنثنية على جسم أخيها المتوفى. فالكاهن القديم الذى كتب ذلك السطر قد رأى فى اللفائف التى تلف الصورة الجامدة خصلات الشعر الغزيرة التى تتدلى من شعر الآلهة وتختلط باللفائف. ونجد كذلك قوة عنصرية

فى ذلك الخيال الوثَّاب الذى يلمح العواطف الودية لكل العالم فيجعل العناصر الطبيعية تشعر بالنازلة الرهيبة التى تتمثل فى موت الملك، وفى حلوله بين آلهة السماء، إذ يقول المحزونون على الملك: «السماء تبكى من أجلك، والأرض تزلزل من أجلك»، ويقول الناس عندما يرونه فى الخيال صاعدًا إلى القبة السماوية: «السحب تظلم السماء ـ والنجوم تمطر الأرض ـ والأقواس [مجموعة النجوم] تترنح ـ وعظام كلاب جهنم ترتعد ـ والبوابون واجمون عندما يرون الملك «وناس» يشرق فى شكل روح».

وليس لدينا شك فى أن الغرض من تلك المتون الجنازية كلها هو لمصلحة الملك، بل هى بوجه عام تحتوى على معتقدات لا تنطبق إلا عليه وحده، وبخاصة عندما نذكر أنها لم تكتب إلا فى المقابر الملكية فقط. فمن الحقائق المهمة التى يجب التنبيه عليها أن رجال أشراف ذلك العصر لم يستعملوا قط متون الأهرام فى نقوش مقابرهم.

ولما لم يكن فى مقدور متون الأهرام زعزعة العقيدة السائدة فى وجود الحياة فى القبور، فإنها لم تعر هذا الرأى اهتمامًا كبيرًا، بل وجهت جميع همها تقريبًا إلى حياة فى نعيم تقع فى مملكة بعيدة. ومما يستحق الذكر والاهتمام أن تلك المملكة البعيدة لا يراد بها إلا «السماء»، وأن متون الأهرام لا تعرف شيئًا تقريبًا عن الحياة الأخروية المظلمة التى توجد فى العالم السفلى. ولذلك فإن عالم الأموات عندهم لا يراد به إلا «العالم السماوى»، ونحن فى التعبير عنه بهذه الصيغة لا نعبر عن أى معنى من معانى كلمة السماء اللاهوتية المتكررة فى اللغة الإنجليزية. على أنه لا يكاد يوجد عندنا شك فى أن فكرة تصور جنة سماوية ـ وهى تلك الفكرة التى شاعت فيما بعد فى العهد المسيحى ـ يرجع أصلها إلى نفسه هذا الاعتقاد المصرى القديم نفسه المتوغل فى القدم.

وقد اختلط فى تلك الآخرة السماوية المذكورة فى متون الأهرام مذهبان قديمان: أولهما يتصور المتوفى فى صورة نجم، والثانى يتصور المتوفى حالا فى إله الشمس، أو هو إله الشمس نفسه، وبدهى أن هذين المذهبين اللذين يمكن تسميتهما: بالآخرة النجمية والآخرة الشمسية على التوالى كانا فى وقت ما

مستقلين، ثم دخل كل منهما فى شكل «آخرة سماوية» هى التى نجدها فى متون الأهرام. ولقد كان من التصورات الطبيعية عند سكان وادى النيل ذى السماء الصافية أن يرى فى سماء مصر ليلاً جموع أولئك الذين سبقوه إلى الحياة الأخروية ماثلين أمامه، فقد طاروا إلى السماء كالطيور مرتفعين فوق كل أعداء الهواء، فكانوا عند حلول الظلام فى كل ليلة يجتازون أقطار السماء بصفتهم نجومًا أبدية. وخص المصرى، فى تخيله جمهور الموتى، تلك النجوم التى تسمى «غير الفانية». وكان يعتقد أن تلك النجوم تقع فى الجهة الشمالية من السماء، ولذلك لا يكاد يوجد شك فى أن النجوم المقصودة بالذكر هى النجوم المحيطة بالقطب التى لا تغرب ولا تغيب. وقد قام جدال كبير بين علماء التاريخ القديم عن سر اتجاه ممر مدخل الهرم المنحدر شطر النجمة القطبية. ثم بينت نقوش متون الأهرام السر فى هذا الاتجاه الذى لم يهتد إليه أحد قبل ذلك، وهو أن روح الملك عندما تخرج من ذلك الممر يحملها هذا الاتجاه فورًا نحو النجوم القطبية.

ومع أن المذهبين المذكورين النجمى والشمسى يوجدان معًا جنبًا إلى جنب فى متون الأهرام، فإننا نجد أن المذهب الشمسى هو السائد فيها بدرجة عظيمة حتى يصح لنا بوجه عام أن نصف متون الأهرام بأنها شمسية الأصل. ومن المحتمل أن الاعتقاد بالمصير الشمسى قد نشأ فى عقيدة قدماء المصريين عن طريق شروق الشمس ثانية كل يوم بعد غروبها، فكأن الموت إنما يحدث على الأرض، أما الحياة فتكتسب فى السماء فقط، وهو المكان الأعلى الذى يرفع إليه الملك فوق المكان المحتوم الذى يصير إليه عامة البشر. «الناس يفنون وأسماؤهم تمحى. فأمسك أنت بذراع الملك «تيتى» وخذ أنت الملك تيتى إلى السماء حتى لا يموت على الأرض بين الناس».

وتلك الفكرة القائلة بأن الحياة توجد فى السماء هى الرأى السائد، وهى أقدم بكثير من المذهب الأوزيرى فى متون الأهرام. وقد بلغ هذا الرأى درجة من القوة جعلت نفس «أوزير» يمنح بضرورة الحال آخرة سماوية شمسية، وكان ذلك فى المرحلة الثانية التى دخلت فيها أسطورته فى متون الأهرام. والموضوع المهم فى متون الأهرام هو تطلع المتوفى لحياة أخروية فاخرة فى حضرة إله الشمس، حتى

أن القبر الملكى نفسه قد اتخذ من أقدس شكل يرمز به إلى إله الشمس، كما أوضحنا ذلك فيما سبق.

وقد عمد لاهوت الحكومة الذى جعل الملك الابن المجسم للإله «رع» وممثله على الأرض، إلى تصوير الملك يسبح فى السماء عند الموت ليسكن مع والده إلى الأبد، أو ليحل محله ويكون خلفه فى السماء كما كان خليفته فى الأرض. وعلى ذلك نجد أن الآخرة الشمسية هى فى الواقع المصير الملكى، ولا يحظى به إلا فرعون وحده، ثم صار ذلك المصير فيما بعد بالتدريج حقًا لسائر البشر يشاركونه فيه. غير أنه لم يكن فى الإمكان كما سنرى إعطاء ذلك الحق لهم إلا بعد أن يتصف كل مطالب بذلك المصير بالصفة الملكية أيضًا.

وبانتقال الفرعون إلى تلك المملكة العتيدة التى مقرها فى السماء [بالرغم من عدم انسجام الآراء الخاصة بموقفه هناك] كان يدعى للقيام بعملية تطهير فرضتها وأكدتها المتون بتكرار مملول. وكان ذلك التطهير فى العادة بالماء بصبه فوق البدن[٢] أو بالاستحمام فى البحيرة المقدسة الواقعة فى الحقول المباركة، حتى أن الآلهة كانت تقوم بخدمة الملك فى وقت إنجاز ذلك الاستحمام فيقدمون إليه المناشف ثم الملابس. ومن المحتمل أن يكون ذلك التطهير ذا مغزى خلقى مهم، وخاصة إذا رأينا هذا الاحتفال التطهيرى الشرقى العتيق قد استمر معمولا به إلى عصرنا الحالى فى الاحتفال التعميدى الموجود إلى الآن عند المسيحيين.

وكانت القبلة التى يتجه إليها الملك فى المذهب الشمسى هى الإقليم الواقع شرقى السماء، حيث لم تكن الشمس وحدها هى التى تولد فى تلك الجهة بل كانت كذلك الآلهة الأخرى تولد هناك. وفى تلك الجهة المقدسة توجد أبواب السماء العظيمة التى تقوم أمامها تلك «الجميزة العالية شرقى السماء التى يجلس فوقها الآلهة»، وكذلك نسمع عن الجميزتين اللتين فى الجانب الأقصى من السماء، و«هما اللتان يمسك بهما الملك عندما «يعبرون به إلى الشاطئ الثانى ويجلسونه فى الجانب الشرقى من السماء». ويجد الملك المتوفى فى ذلك المكان المقدس أيضًا إله الشمس. أو يجده إله الشمس، ومن ذلك المكان يرتفع إلى السماء، وكذلك يرسو فى هذا المكان القارب الذى يعبر به.

ولا يكاد الملك المتوفى يولى وجهه شطر الجهة الشرقية نحو ذلك الإقليم المقدس حتى تعترضه بحيرة واقعة فى الشرق، وكان لابد له أن يعبرها حتى يصل إلى مملكة إله الشمس. وكانت عين «حور» قد سقطت على الشاطئ الأقصى أى الشاطئ الشرقى لهذه البحيرة خلال شجاره مع «ست»، وكانت تسمى «بحيرة السوسن»، وهى طويلة إلى حد يجعلها تحتوى على «متعرجات» ولابد أنها تمتد إلى مسافة بعيدة شمالاً وجنوبًا على طول الأفق الشرقى. وكان يوجد خلف تلك البحيرة أرض العجب الزاخرة بالقوى الشريرة فى كل جهاتها، وكان كل شىء فيها حيًا، من ذلك المقعد الذى يجلس فوقه الملك، إلى السكان الذى كان يقبض عليه بيده، إلى القارب الذى نزل فيه، إلى الأبواب التى يمر بها، ولذلك كان فى مقدوره أن يتحدث مع كل هذه الأشياء أو مع أى شىء آخر يحبه هناك. وهذه الأشياء الشريرة كان فى قدرتها أن تتكلم معه، مثل قارب «بجعة لوهنجرن» Lohengrin[٣]. والواقع أن تلك الأرض كانت أرض «عجائب» كالتى نجدها فى قصص البجعة أو فى قصص «نبلونجن»[٤] Nibelungen فى الخرافات الألمانية، وهى تشبه دنيا «مورت د أرثر»[٥]، (Morte D'Arthur) التى يقابل فيها ابن السبيل العجائب فى كل منعطف.

وكان أوضح طريق فى نظر سكان ضفاف النيل لعبور «بحيرة السوسن» أن يركب الإنسان قارب العبور، وهذا ما يجده الملك المتوفى بين سيقان غاب شاطئ البحيرة، وملاحه واقف عند السُّكان يدفعه بسرعة، وكان على الملاح أن يلفت وجهه خلفه عند دفع القارب ولذلك سمى «انظر إلى الخلف» أو «الناظر إلى الخلف»، وهو لا يتكلم إلا نادرًا وإنما يقف صامتًا فى انتظار راكبه. وما كان أكثر التوسلات والتضرعات اللينة التى يحاول بها الملك المنتظر تملق ذلك الملاح صاحب الوجه الملفوت. فنسمعه وهو يؤكد له تأكيدًا قاطعًا يدل على المكر والخداع فيقول له: «إن هذا الملك «بيبى»: هو راعى قطيعك والمشرف على حظيرة ماشيتك»، ولذلك كان من الضرورى لمصلحة الملاح نفسه أن يعبر به فى الحال. وقد يحضر الملك معه إناء سحريًا لا يقوى الملاح على مقاومته، أو يقال للملاح بصفة قاطعة إن الملك طاهر من كل ذنب فى السماء والأرض والجزيرة التى هم

ذاهبون إليها. أو كان الملك يتقمص شكل القزم المهرج الذى كان يأخذ مكانه بين الراقصين أمام الملك فى الدنيا ليسرى بذلك عن قلبه أمام العرش العظيم. وكان حتمًا على الملاح إذًا أن يعبر به سريعًا إلى قصر «رع» وبلاطه ليسر بذلك إله الشمس. والواقع أن ذلك كله كان من المعلومات العامة الشائعة، إذ كان الملاح يخاطب بعد ذلك هكذا: «هذا ما سمعته فى البيوت وما تعلمته فى الطرقات فى اليوم الذى طلب فيه هذا الملك بيبى للحياة».

ونجد كذلك معارضة الملاح للقادم العتيد (المراد به الملك) فيقول له: «من أين أتيت؟» وعند ذلك كان حتمًا مقضيا على الملك أن يقيم الحجة على أنه من أصل ملكى. فإذا اتفق أن كان الملاح عنيدًا رغم ما بذل معه من الجهد وأبى أن يرسو بقاربه إلى الشاطئ فإن الملك عندئذ يخاطب المجداف الذى فى يده قائلاً: «هيا أنت يا من فى قبضة الملاح» فإذا كانت كلماته قوية مستجابة فإن المجداف يأتى بالقارب إلى الملك.

وكان فى مقدور ملاح عصر ما قبل التاريخ منذ أقدم العهود أن يعبر النيل على رمثين من الغاب مربوطين معًا بإحكام جنبا إلى جنب كأنهما لفافتا دخان ضخمتين(٦). وقد صورت لنا أسطورة من أقدم الأساطير الخاصة بسياحة إله الشمس كيفية عبوره المياه السماوية على زوج من تلك الأرماث التى اتخذها إله الشمس لعبوره رغم سذاجتها وبساطتها وصار استعمالها من الاعتقادات التى لا مناص منها فلم يبق للاعتقاد باتباعها إلا نقل قوة استعمالها عن طريق التآلف من «رع» إلى فرعون المتوفى حتى يضمن الأخير لنفسه سياحة ناجحة كالتى قام بها إله الشمس. وهكذا نجد أن رمثى السماء قد هيئا للملك «وناس» ليعبر بهما إلى الأفق حتى يصل إلى «رع» كما هيئا «لرع» ليعبر بهما حتى يصل إلى الأفق.

ومن الجائز أن تخفق جميع تلك الحيل المتعددة التى تعمل لعبور البحر الشرقى. وحينئذ يكون محتمًا على الملك أن يسلم نفسه إلى الهواء حتى يصعد به إلى السماء. فيقول متكلم مختف للملك: «جناحاك منشوران مثل الصقر ذى الريش الكثيف، ومثل الباشق الذى يرى مساء يخترق القبة الزرقاء». «إن الطائر يطير وهذا «الملك» بيبى يطير بعيدًا عنكم أيها الأنام. إنه ليس من أهل الأرض بل

هو من أهل السماء... هذا الملك «بيبى» يطير كسحابة فى السماء مثل الطائر Masthead. هذا الملك «بيبى» يصل إلى السماء على هيئة صقر، هذا الملك «بيبى» يصل إلى السماء مثل إله الأفق [حار أختى]. وكذلك يراه المتكلم مفلتًا من أيدى الناس كما تفلت الأوزة البرية من يد الصائد الذى يقيض على ساقيها وتطير إلى السماء «إن أطراف جناحيه هى أطراف جناحى أوزة عظيمة». وبتلك الكيفية يطير كأوزة، ويرفرف كما يرفرف الجعل». «ووجهه وجه صقر وجناحاه جناحا أوزة». إن الملك «وناس» يرفرف بجناحيه كالطائر «زرت Zeret»، والهواء يحمله مرتفعًا به إلى السماء.

«إن الملك «وناس» يذهب إلى السماء! إن الملك وناس يذهب إلى السماء على الريح»! «إن سحب السماء قد حملته بعيدًا وهى تعظم الملك «وناس» عند «رع». لقد صعد الملك على سحب المطر». أو كان الكاهن يرى أشباحًا غريبة فى سحابة دخان البخور التى تتصاعد فوقه فيصيح قائلاً: «إنه يصعد على دخان البخور العظيم».

وكذلك رأى القوم فى أشعة الشمس سلمًا إليها هو تلك الأشعة المائلة المصوبة نحو الأرض من بعض فتحات فى السحاب، وهذا السلم المشع أدلى من السماء لكى يصعد عليه الملك. «إن الملك «بيبى» قد وضع هذا الشعاع بمثابة سلم تحت قدميه، وصعد عليه الملك «بيبى» ليصل به إلى أمه وهى الصل الحى على رأس رع». وكذلك تظهر أشعة الشمس الشاسعة التى تنحدر تجاه الأرض كأنه مصعد قد تخيله أولئك القوم القدامى، ولذلك يقولون: «إن الملك» «وناس» يصعد على السلم الذى صنعه له والده «رع» [إله الشمس]، وكان منظر صعود الملك يدعو إلى إعجاب الآلهة، ولذلك يقولون: «ما أجملها من رؤية وما ألذها من مشاهدة عندما يصعد هذا الإله (يقصدون الملك) إلى السماء إذ يحمل هيبته على رأسه، وبجانبه الفزع منه، وتعاويذه السحرية موضوعة أمامه». ثم تدعى الناس والآلهة معًا بواسطة تعاويذ قوية التأثير ليرفعوا الملك: «أيها الرجال وأيها الآلهة ضعوا أذرعتكم تحت الملك «بيبى»! ارفعوه، اصعدوا به إلى السماء كذراعى «شو» (الجو) اللتين وضعتا تحت السماء، وهو (أى «شو») يرفعها، إلى السماء! إلى السماء! إلى الكرسى العظيم بين الآلهة».

غير أنه كان لا يزال محتملاً أن أبواب المملكة السماوية قد لا تفتح للقادم العتيد. ومن أجل ذلك نجد تأكيداً مكرراً بأن أبواب السماء المزدحمة مفتوحة أمام فرعون: «إن أبواب الأفق المزودجة مفتوحة ومزاليجها مزاحة». ونقابل هذا النداء دائماً فى متون الأهرام. ولاشك أن الوسيلة نفسها التى فتحت الباب «لعلى بابا» والأربعين لصاً ـ كما وردت فى كتاب ألف ليلة وليلة ـ قد فتحت لغيره أبواباً كثيرة فى الشرق القديم قبل أن تصير معروفة لنا نحن معشر العالم الغربى عن طريق قصة ألف ليلة وليلة بآلاف من السنين.

وكذلك نرى أنه بالرغم من اقتناع أولئك القوم بوجود الحياة الأخروية، بل بوجود حياة عظيمة قد ملئت بذكرها متون الأهرام، فإن هذه المتون نفسها تكشف لنا عن حالة الخوف من تلك الحياة، ذلك الخوف الذى كان يملأ قلوب سكان ذلك الشرق القديم، كلما تأملوا فى أخطار عالم تلك الآخرة التى لم يكونوا يعرفونها ولم يسبق لهم أن جربوها. فإنه كان يعترض ذلك القادم الملكى مخاوف احتمال عدوان الآلهة عليه أينما ولى وجهه وهو ينظر فى عرض البحر الشرقى، حيث كانت تزدحم بمخيلته آلاف الأخطار والمعارضات التى يكون من شأنها تكدير صفو تلك الصورة الجميلة التى كان يتخيلها فى نعيم الحياة الأخروية، كما نجد فى الشجاعة الجريئة التى يظهرها الملك مسحة قصصية، فإن الملك، وقد صار وحيداً فى السماء، ينهض فجأة فى شكل مارد هائل مدعياً السيادة على الآلهة أنفسهم، وبمواجهته المملكة السماوية يخاطب إله الشمس هكذا! «إنى أعرف اسمك، إنى لست جاهلاً اسمك، فاسمك هو «غير المحدود»، واسم والدك هو «مالك العظمة»، واسم أمك «الرضى» وهى التى تحملك فى كل صباح وستمنع ولادة «غير المحدود» فى الأفق إذا منعت هذا الملك «بيبى» من المجىء إلى المكان الذى أمنت فيه». فكان الملك باستعماله قوته السحرية بتلك الكيفية يجعل نفسه ملكاً على العالم ويهدد بوقف شروق «ولادة» الشمس نفسها إذا حجز هو عند الباب العظيم لملكة إله الشمس.

وهكذا يقترب الملك الراحل أخيراً من الشاطئ الشرقى «لبحيرة السوسن». «وهذا الملك يجد المعظمين بسبب «تسلح أفواههم»[٧] جالسين على شاطئ تلك

البحيرة... وهو مكان مورد الشرب لكل من صار معظمًا بسبب تسلح فمه».
ولكنهم عندئذ يعارضون القادم العتيد (أى الملك) فيجيبهم: «إنى واحد من المبجلين بسبب فمه المسلح». فيقولون للملك بيبى: «كيف حدث ذلك وكيف وصلت إلى هذا المكان الأفخم ومن أى مكان؟» عندئذ يقول قارب الصباح: «إن «بيبى» قد أتى إلى هذا المكان الأفخم من مكان ما لأن رمثى السماء هيئا لأجل «رع»، وعندما يقص الملك خبر عبوره الناجح كما قد عبر من قبله «رع» يصيح أهل السماوات مهللين بالفرح والسرور. وعندئذ ينزل فرعون معهم ويعيش عيشتهم ويجلس أمام القصر الذى يحكمون منه، وبعد ذلك يسمع الملك مرة أخرى صوتًا منفردًا يخرج من عالم الأموات معترضًا الملك عندما ينزل ويمر بالأبواب العظيمة للسماء يقوده «جب»: «هيا! من أين أتيت أنت يا ابن أبى؟» فيجيبه صوت آخر: «إنه أتى من عند التاسوع المقدس الذى فى السماء حتى يمكنه أن يشبعهم بالخبز». ثم تعود المعارضة مرة ثانية: «هيا! من أين أنت آت يا ابن أبى؟». وعندئذ يسمع الجواب: «إنه أتى من عند التاسوع المقدس الذى على الأرض ليمكنه أن يشبعهم بالخبز». غير أن ذلك السائل لا يزال غير مقتنع بالجواب: «هيا! من أين أتيت أنت يا ابن أبى؟» «إنه أتى من قارب «زند زندر». وبعد ذلك يسمع السائل لآخر مرة يسأل: «هيا! من أين أتيت أنت يا ابن أبى؟» «إنه آت من والدتيه هاتين الرخمتين ذواتى الشعر الطويل والثدى المتدلية وهما اللتان يوجدان على جبل «سهسه»، لقد ضمتا ثدييهما حول فم الملك «بيبى» غير أنهما لم يفطماه ولن يفطماه إلى الأبد». وبعد ذلك ينقطع الصوت المعارض ويدخل الفرعون مملكة السماء الأبدية.

هوامش الفصل الخامس

(١) عثر حديثًا على متون أخرى فى سقارة مثل هرم الملكة؛ «نيت».

(٢) أظن أن ذلك يقابل بالضبط فى الديانة الإسلامية غسل الميت قبل دفنه.

(٣) قارب البجعة للوهنجرن كان سفينة خرافية تجرها بجعات مسحورة وهو الذى حمل البطل الألمانى «لوهنجرن Lohengrin» إلى بحيرة مسحورة دون أن يقوده هو أو يدير دفته.

(٤) نبلونجن: هم جنس من المخلوقات خارق للطبيعة مثل الأقزام وكان فى حراسته كنز ضخم من الذهب قد استولى عليه البطل «سيجفرد».

(٥) «مورت» «د أرثر» Morte d'Arthur: هى رواية خرافية عن الملك «أرثر» ملك بريطانيا وفرسانه أصحاب المائدة المستديرة ألفها السير «مالورى» Sir A. Mallory وبعد ذلك صاغها فى قالب شعرى «تنيسون» الشاعر الإنجليزى تحت عنوان «أناشيد الملك» Idylls of the King والواقع أنه فى كل تلك القصص يطلب فيها إلى القارئ أن يتصور عالما خرافيًا تسكنه مخلوقات خارقة للعادة تجد فيه الحيوان والأشجار. وحتى الجماد كان فى قدرته أن يتكلم مع الناس.

(٦) وقد اتفق لمؤلف هذا الكتاب ذات مرة أنه لم يجد قاربًا، مثل فرعون، ليعبر به النيل فى بلاد النوبة فأسرع أحد أهالى القرية المجاورة وأحضر فى الحال رمثين من ذلك النوع مصنوعين من الغاب المجفف الذى ينمو على شاطئ النيل، وعبر بالمؤلف خليجًا واسعًا إلى جزيرة فى النهر القارب المنذر بالخطر. وقد كانت هذه أول مرة رأى فيها المؤلف مثل هذه الطريقة لعبور الماء، وقد كان من الأمور المهمة أن يجدوا المؤلف أن قاربا لم يسمع بمثله إلا فى متون الأهرام فقط التى يرجع عهدها إلى خمسة آلاف سنة مضت كان لا يزال باقيا مستعملاً كل يوم فى هذا النهر القديم فى بلاد النوبة النائية. وليس هناك من شك فى أن هذا القارب هو الذى يسمى غالبًا «الرمثين» فى متون الأهرام.

(٧) هذا التعبير الغريب يعنى أفواها مسلحة بتعاويذ سحرية جعلت الذين يملكونها يصيرون مبجلين.

الفصل السادس

المذهب الشمسىّ والآخرة السماوية

لقد تتبعنا ذلك الراحل الملكى أثناء مروره بالأبواب السماوية حيث كان ينتظر إعلان قدومه إلى إله الشمس الذى كان لابد للملك أن يحاوره من الآن فى مملكته. عند ذلك يُرى حجاب الملك متسابقين لإعلان مقدمه: «إن رسلك يذهبون، ورسلك المسارعين يعدون، وحجابك يسرعون فى سيرهم وهم يعلنون «رع» إنك قد أتيت يا هذا الملك بيبى». ثم نسمع رسالتهم عندما يصيحون فيقول «سبهو»: صه! تفرس أنه يأتى! «ثم يقول «سبهو» تفرس إن ابن رع يأتى! محبوب «رع» يأتى. ثم تزدحم الآلهة عند الشاطئ : «لقد وجد هذا الملك بيبى الآلهة واقفين مزملين فى ملابسهم، وفى أقدامهم نعالهم البيضاء فيخلعون نعالهم البيضاء على الأرض ويلقون بملابسهم بعيداً ويقولون: «إن قلبنا لم يدخله الفرح حتى مجيئك». ثم تستولى عليهم الرهبة عندما يسمعون نداء الحجاب ويشاهدون الملك يقترب منهم. فيقف «رع» أمام أبواب الأفق متكئًا على صولجانه والآلهة من حوله. وعندئذ ينادى صوت الحاجب: «إن الآلهة صامتون أمامك. إن تاسوع الآلهة قد وضعوا أيديهم على أفواههم».

إننا نحن أبناء الجيل القديم من أهل هذا العصر الحديث نشأنا نعتقد منذ صغرنا بوجود مملكة أخرى وراء السماوات تسكنها كائنات سماوية تعيش فى

نعيم مقيم، فمن ألذ الأمور لدينا أن نطلع على أقدم التأملات العقلية للإنسان، تلك التأملات التى صورت له حياة أخروية كالتى وصفناها، والواقع أننا نجد فى متون الأهرام أقدم صور بقيت لنا عن هذه الآخرة السماوية - وهى آراء نشأت ونمت منذ خمسة آلاف سنة مضت ولكنها تحملنا على أن نرى فيها الأساس الأصلى الذى نبع منه الاعتقاد بوجود مملكة فيها نعيم مقيم مقرها السماوات، ذلك الاعتقاد الذى لقنه لنا آباؤنا وأساتذتنا فى طفولتنا.

والواقع أن السماء كان لها دائمًا التأثير العميق على عقول البشر وأن ذلك الشعور بوجود سر خفى فى السماء ذات القبة الزرقاء المكونة أرضها من السحب قد ترك أثره بشكل ما فى الآداب القومية، من العصر الذى وجدت فيه تلك الصور الرهيبة التى نشاهدها فى متون الأهرام إلى زمن القصيدة الرائعة التى أبدعها خيال الشاعر الإنجليزى «شلى» وهو يتأمل جمال سحب الصيف.

ولقد وجد قدماء المصريين الذين نمت على أيديهم متون الأهرام أعظم السرور فى تدوينهم تلك الصور، حيث نراهم يذكرون بتنميق وترديد ذلك النعيم المقيم الذى كان يلقاه ويتمتع به الملك وهو فى حماية وصيانة وتكريم فى مملكة إله الشمس السماوية، فكان خيالهم ينتقل بهم من منظر إلى منظر ومن صورة إلى صورة. ولما كان المجال الخيالى فسيحًا أمام أفكارهم أمكن لخيالهم الانطلاق فيه دون أن يلقى ما يمانعه أو يعارضه، كنبات البردى لا يجد ما يعوقه عن الظهور بنفسه فوق الأرض. فكان خيالهم بسبب ذلك ينسج نسيجًا معقدًا ضم من الألوان ألف لون بحيث صار غير قابل للاندماج فى وحدة منسجمة متماسكة متجانسة. فنرى الملك مرة معتليًا عرشه فى بهاء شرقى مماثل لما كان يحدث فى عالم الأرض. ومرة ثانية تجده يهيم فى حقول البردى طالبًا للقوت؛ ثم يظهر فى بعض الجهات فوق مقدمة سفينة الشمس، وفى مرة أخرى يظهر كأنه أحد النجوم الثوابت قائمًا فى خدمة إله الشمس، ومع أننا لا نجد أية محاولة تنسجم بها تلك الصور المتناقضة، فإننا نخرج منها فى الجملة بفكرة عامة هى السعادة

الأبدية لملك يشبه الإله: فهو يضع تواريخه (سجل أعماله) بين شعبه وحبه بين الآلهة. «إن الملك يصعد إلى السماء بين الآلهة الساكنين فى السماء ويقف على المنصة العظيمة ويستمع (فى جلسة قضائية) لشئون الناس (القضائية)... إن «رع» يمد لك ذراعه على السلم المؤدى إلى السماء». وتقول الآلهة: «إن من يعرف مكانه يأتى. يا أيها الواحد الطاهر تربع على عرشك فى سفينة «رع» واسبح فى السماء... اسبح أنت مع النجوم الثوابت... اسبح أنت مع النجوم السيارة (التى لا تغيب)... عش أنت هذه الحياة اللذيذة التى يحياها رب الأفق»... «إن هذا الملك «بيبى» يذهب إلى (حقل الحياة) الذى هو مكان ولادة «رع» فى السماء. ويجد «قبحت» مقتربة منه ومعها هذه الأوانى الأربع التى تنعش بها قلب الإله الأعظم «رع» فى اليوم عندما يستيقظ (أو بالنهار عندما يستيقظ) فتنعش بها قلب هذا الملك «بيبى» ليحيا وهى تطهره وتنظفه. ويتسلم رزقه مما فى هُرى (مخزن غلال) الإله العظيم، وتكسوه النجوم الثوابت». ثم ينادى الصوت «رع» و«تحوت»، (وهما إلها الشمس والقمر): «خذا أنتما هذا الملك «وناس» معكما ليأكل مما تأكلان ويشرب مما تشربان ويعيش على ما تعيشان عليه ويجلس فيما تجلسان فيه وليصير قويًا بما صرتما به قويين ويسبح (فى السماء) فيما تسبحان فيه. إن خص الملك «وناس» مجدول (مبنى) من الغاب وبركة الملك «وناس» موجودة فى (حقل القرابين) وقرابينه موجودة بينكم أنتم أيها الآلهة. وماء الملك «وناس» خمر مثل خمر «رع». والملك «وناس» يدور فى السماء مثل «رع» ويخترق السماء مثل «تحوت». ثم يطلب الصوت الغذاء الإلهى للملك: أحضروا لبن «إزيس» للملك «تيتى» وفيضان «نفتيس»، ومنطقة البحيرة وأمواج البحر والحياة والفلاح والعافية والسعادة والخبز والجعة والملابس والطعام ليعيش الملك «تيتى» عليها». «تأمل! إن الاثنين اللذين على عرش الإله العظيم «رع» يطلبان الملك «بيبى» للحياة والسرور إلى الأبد وهذان الاثنان هما الفلاح والصحة». وبهذه الكيفية يجد الملك أن «الحال معه اليوم أحسن مما كانت عليه بالأمس». ثم نسمع الصوت يناديه:

هيا أيها الملك «ببى» الواحد الطاهر! إن «رع» يجدك واقفًا مع أمك «نوت» (إلهة السماء) وهى تقودك على صراط الأفق حيث تستقر فى مكان إقامتك هناك. فما أجمل تلك الإقامة مع روحك «كا» أبد الآبدين».

وتأتى أمامنا قصة انتقال الملك إلى السماء مرارًا وتكرارا فى صور مقنعة وتأكيد ملح، مما يجعلنا نعتقد أن المقصود من ذلك هو أن تصير كلمات تلك العبارات ذات قوة وسلطان نافذين. وتعرض أمامنا فى كل حين حياة الملك فى السماء مختصرة فى فقرة واحدة تشتمل على تلميحات قليلة عاجلة كل منها يشبه شعاع الشمس الذى يبدو لحظة على مرتفعات منظر طبيعى على مدى البصر.

ولدينا من تلك الفقرات معرض عظيم تدافع فيه إحداها الأخرى تدافع الأمواج المتلاحقة تريد الغلبة لنفسها فتكتسح كأنها الطوفان الحقيقة «البحتة»، القائلة بوجود الموت حتى تقضى عليها قضاءً مبرمًا. ومن الصعب أن ننقل إلى ذهن القارئ الحديث، التأثير الذى تتركه تلك الآلاف من الأسطر المنقوشة وهى تمر أمام أعيننا تستخف عبارتها بمناعة حقيقة الموت استخفاف المنتصر الظافر بأعدائه. ونخص بالذكر تلك المختصرات التى نبحثها الآن.

ولأن ما تدين تلك الفقرات فى سلطانها هو لمجرد حجمها الذى قد أقيم أمام وجه الموت كأنه السد المنيع، فإننا لايمكننا فهم هذا السلطان إلا إذا قرأنا المجموعة «متون الأهرام» جميعها.

ولعل أدق قطعة أدبية حفظت لنا فى متون الأهرام هى أنشودة الشمس التى تجد فيها الملك وإله الشمس نفسًا واحدة. وهذه الأنشودة تخاطب مصر بإسهاب معددة لها المنافع التى تتمتع بها فى كنف حماية إله الشمس وسيادته. ومن ثم تقدم مصر «لرع» ثروتها ومحصولها. ولما كان فرعون وإله الشمس نفسًا واحدة كان فرعون يهب تلك المنافع لمصر، وهى من جانبها تقدم له العطايا نفسها التى تقدمها لإله الشمس. ولهذا السبب نجد أن الأنشودة بأكملها معادة مع ذكر اسم

فرعون مكان اسم «رع» أو «حور» حيثما وجدا فى الأنشودة الأصيلة. وبتلك الكيفية كان الملك يستحوذ لنفسه على كل الاحترام وعلى كل القرابين التى كان يتسلمها إله الشمس من مصر.

غير أن خيال الكهنة لم يقف عند هذا الحد، إذ لم يكن كافيًا فى نظرهم مساواة الفرعون برع واتحادهما، بل نرى الفرعون المنتقل إلى السماء يصور بصورة مشعة شاسعة الأرجاء تفوق أهمية إله الشمس فى الظلمة الأزلية. لهذا نسمع ذلك الصوت الخفى يناديه: ياوالد الملك «تيتى»! ياوالد الملك «تيتى» فى الظلمة! ياوالد الملك «تيتى» يا «أتوم» فى الظلمة! أحضر الملك «تيتى» إلى جانبك حتى يشعل لك النور وليحميك كما حمى «نون» (المحيط الأزلى) هذه الإلهات الأربع فى اليوم الذى حمت فيه العرش وهى : «أزيس» و«نفتيس» و«نيت» و«سر كت». ويجتاز الملك المتوفى السماء فى شكل نار ملتهمة على أثر صعود الملك «وناس» على ذراع أشعة الشمس»؛ كذلك نرى الملك يحتل مكانة سامية واصلة بين الأرض والسماء : «هذه ذراعه اليمنى تحمل السماء فى رضا وهذه ذراعه اليسرى تحمل الأرض فى سرور.

وكذلك نجد خيال القوم يبالغ فى تصور صور ذات قوة كونية فيصير الملك «نتيجة المطر أى أنه خرج من منبع الماء». أو نجده يفوز بسر الأشياء وقوتها بصفته «مدون كتابة الإله الذى يقول ما هو كائن ويسبب خلق ما لم يكن». وقد ولد قبل أن توجد الدنيا أو الموت: «إن أم الملك «بيبى» أصبحت حاملاً فيه أنتم يا سكان «السماء السفلى»، إن هذا الملك «بيبى» قد ولد من أبيه «آتوم» قبل أن توجد السماء وقبل أن توجد الأرض، وقبل أن توجد الناس وقبل أن توجد الآلهة، وقبل أن يوجد الموت. إن هذا الملك «بيبى» يفر من يوم الموت كما فر «ست» من يوم الموت. إن هذا الملك من زمرتكم أنتم يا آلهة السماء السفلى الذين لا يمكنهم أن يموتوا بيد أعدائهم، إن هذا الملك «بيبى» لايموت بيد أعدائه وأنتم يا من لا تموتون بيد ملك، هذا الملك «بيبى» لن يموت بيد ملك وأنتم يا من لا تموتون بأى

ميت[1]، هذا الملك «بيبى» لن يموت بأى ميت: ولذلك كان الملك حاضرا وقت ولادة الآلهة حينما كانوا يولدون فى خلال سير الزمان».

على أن حلول الملك فى جسم «رع» نفسه واتحادهما فى نفس واحدة يشبه امتزاجه بكل الآلهة كمجموعة. ومن أهم فقرات متون الأهرام الفقرة التى تتلى عند الاحتفال بحرق البخور وما يقوم به هذا البخور باعتباره عاملاً مسيطرا له جاذبية متبادلة تحمل غالبًا شذى الملك العطر حينما يصعد البخور العميق من الأرض إلى الآلهة ليختلط بشذاهم ولذلك كان يجذبهم ذلك الشذى إليه بتوثيق عرى الروابط الصادقة والاتحاد بينه وبينهم.

وتلك الفقرة لها أهميتها لأنها تعتبر تفسيرًا كهنيًا مبكرًا جدًا لأهمية البخور بصفته رابطة الألفة بين الآلهة. وهذه الفكرة انتقلت إلى أوروبا ولا تزال باقية فى بعض فروع الكنائس المسيحية إلى الآن. وها هى الفقرة بنصها :

إن النار تهيأ والنار تضىء.

إن البخور يوضع على النار والبخور يضىء.

وشذاك يأتى للملك «وناس» يا أيها البخور.

وشذى الملك «وناس» يأتى إليك يا أيها البخور.

وشذاكم يأتى للملك «وناس» أنتم أيها الآلهة.

وشذى الملك «وناس» يأتى إليكم أيها الآلهة.

إن الملك «وناس» معكم يا آلهة.

وأنتم مع الملك «وناس» يا أيها الآلهة.

والملك «وناس» يعيش معكم يا أيها الآلهة.

وأنتم تعيشون مع الملك «وناس» يا أيها الآلهة.

والملك «وناس» يحبكم يا أيها الآلهة.

فأحبوه يا أيها الآلهة.

على أن هذه الألفة التى رمز إليها فيما تقدم تتضارب تضاربًا بينًا مع صورة مظلمة بغيضة بقيت لنا من عصور ما قبل التاريخ السحيقة فى القدم، وهى الصورة التى نشاهد فيها الفرعون المتوحش ينقض بوحشيته على الآلهة كصياد فى الغابة متعطش للدماء كأنه لا يزال يباشر حياة الصيد فى عصر ما قبل التاريخ، بل إن هذه الصورة قد تعيد إلى أذهاننا ذكرى تلك العادة الوحشية القديمة وهى أكل لحوم البشر، ومع أنه ليس لدينا برهان آخر يقوم دليلاً على وجود هذه العادة بمصر القديمة. والنص المشار إليه يبتدئ بوصف وصول الملك المخيف إلى السماء هكذا:

السحب تظلم الدنيا.

والنجوم تمطر على الأرض.

والأقواس (مجموعة نجوم) تترنح.

وعظام كلاب جهنم ترتعد.

والبوابون واجمون.

عندما يرون الملك «وناس» يشرق فى صورة روح.

بصفته إلهًا يعيش بأكل آبائه.

ويتغذى بأكل أمهاته.

إن الملك و«ناس» هو رب الحكمة.

وأمه لا تعرف اسمه.

إن مجد الملك «وناس» موجود فى السماء.

مثل والده آتوم الذى أنجبه.

وحينما أنجبه كان «وناس» أقوى منه.

....

إن الملك «وناس» يأكل الرجال ويتغذى بالآلهة.

وهو رب الرسل ومرسل رسالاته.

وإن «قابض خصل الشعر الأمامية» القاطن فى «كهو» هو.

الذى يشد وثاقهم للملك «وناس».

وإن الثعبان «الرأس الفاخرة» هو الذى يحرسهم له ويكبح جماحهم له.

وإن الذى على «الصفصاف» هو الذى يوقعهم فى الأحبولة له.

وإن «معاقب كل الآثمين» هو الذى يطعنهم للملك «وناس».

وهو ينتزع أحشاءهم له.

....

ويقطعها «شِسْمو» للملك «وناس».

ويطهو له جزءًا منها فى قدور المساء (أو كقدور مسائه أى وجبته وقت المساء).

والملك «وناس» هو الذى يلقف سحرهم.

ويلتهم آحادهم الأجلاء (أى أرواحهم).

وتكون كبارهم لوجبته فى الصباح.

ومتوسطو الحجم منهم يكونون لوجبته فى المساء.

وصغارهم لوجبته فى العشاء.

والمسنون من الرجال والعجائز من النساء لحرق بخوره.

وأما (الآحاد العظام الذين يوجدون فى شمال السماء).

فهم الذين يوقدون له النار تحت القدور التى تحتويهم.

وأرجل أكبرهم سنًا (هى الوقود).

والساكنون فى السماء يختلفون على الملك «وناس» (فى خدمته).

والقدور مفعمة له بأرجل نسائهم.

وقد أحاط بجميع السماوات (مقابل الأرضين).

ودار حول القطرين.

والملك «وناس» هو (الواحد العظيم القوى).

الذى يهزم (الآحاد الأقوياء).

....

وقد استولى على قلوب الآلهة.

وأكل الأحمر.

وابتلع الأخضر.

والملك «وناس» يتغذى من أعضاء ممتلئة.

وإنه شبعان إذ يعيش على قلوبهم وسحرهم.

....

وتعاويذهم فى جوفه.

ورتب الملك «وناس» لم تسلب منه.

فإنه ابتلع علم كل إله.

ومدة حياة الملك «وناس» هى الأبدية.

وحده هو مالا نهاية فى مكانته هذه.

(إذا أراد فعل وإذا لم يرد لم يفعل).

وهو الذى يسكن فى حدود الأفق أبد الآبدين.

تأمل إن أرواحهم (الآلهة) فى جوف «وناس».

وآحادهم الأجلاء مع الملك «وناس».

وعظيم نصيبه أكبر من (نصيب) الآلهة.

....

تأمل! إن روحهم موجودة مع الملك «وناس».

ويظهر لنا بوضوح تام فى هذه الصورة العجيبة الدافع لوجود عادة أكل لحم الإنسان المقوتة. فنجد أن الآلهة يصادون وتنصب لهم الشباك ويوثقون ويذبحون كالماشية المتوحشة لكى يلتهم الملك أجسادهم، وبخاصة أعضاءهم الداخلية كالقلب الذى هو مقر العقل وذلك اعتقادًا منه بأنه يمكنه أن يستولى بذلك لنفسه على صفات الآلهة وقواهم، «فمتى استولى على قلوب الآلهة فقد ابتلع علم كل الآلهة، وتعاويذهم تصبح فى جوفه». ومن جهة أخرى فإنه لما كانت أعضاء الآلهة التى قد التهمها الملك مشبعة تمامًا بالطعام فإنه أصبح بذلك غير قابل للجوع لأنه أكل حتى امتلأ تماما.

على أن الذى سبق بيانه يفتح أمامنا باب موضوع قد خصصت له متون الأهرام مكانا فسيحًا، وأعنى به موضوع توريد الطعام فى مملكة إله الشمس النائية البعيدة.

ولأجل أن نفسر تقديم الطعام للمتوفى عند قبره، ذلك الأمر الذى يبدو فى ظاهره عديم الجدوى بعد أن صار المتوفى بمقتضى المذهب الشمسى لا يمكث

فى قبره بعد الدفن حتى يصعد إلى السماء، نقول إن المفروض عند قدماء المصريين أن ذلك الطعام المقدم عند القبر كان ينقل إلى المتوفى بطرق شتى متنوعة.

وكان المتعارف أكثر من أى شىء آخر فى هذا الموضوع أن الإقليم السماوى الذى كان يمكث فيه المتوفى هو الذى يمده بكل حاجاته. فكان الملك بصفته ابن «رع» ومولودًا من آلهة السماء يمثل وهو يرضع منها أو من آلهة أخرى لها علاقة «برع» وبخاصة الإلهتين المتقادمتين لملكتى الجنوب والشمال فى عصر ما قبل التاريخ. وهاتان الإلهتان تظهران بشكل رخمتين لهما شعر طويل وثدى مدلاة... وهما تمدان يديهما إلى فم الملك «بيبى» ولكنهما لا يفطمانه أبدًا. ويسمع الصوت من أجل هذا يقول: «إيه يا أم هذا الملك «بيبى».. أعطى ثديك لهذا الملك «بيبى» أرضعى منها هذا الملك «بيبى».

وتجيب الآلهة على هذا قائلة. «يا بنى بيبى يا مليكى إن ثديى ممدودة لك لترضع منها يا مليكى، فعش يا مليكى ما دمت صغيرًا».

وهذا الموقف يظهر لنا العاطفة الإنسانية الطبيعية الحارة أكثر من أى موقف آخر فى اللاهوت الشمسى.

وعلاوة على هذا المصدر الغذائى ومصدر التغذى بأجساد الآلهة أنفسهم يوجد مصدر آخر وهو قرابين كل مصر، كما جاء ذكر ذلك فى أنشودة «رع»، وقد كان من المسلم به أن الدخل السماوى كان ملكًا للملك وأنه كفيل بسد كل حاجاته.

وأخيرًا كان من أهم المصادر العدة التى يستمد منها المتوفى قوته فى مملكة «رع» إن لم يكن أهمها كلها «شجرة الحياة» الواقعة فى الجزيرة السرية وسط «حقول القريان»، وهى التى كان الملك يبحث عنها وبصحبته نجم الصباح. ونجم الصباح هذا هو صقر أخضر فاخر وهو إله شمسى، ويعتبر هو والإله «حور دوات» نفسًا واحدة، وله أربعة أوجه مقابلة لصقور الشرق الأربعة، وكان نجم الصباح بلا شك موحدا معها أيضا، فنجده واقفًا على مقدمة زورقه السماوى

الذى يبلغ طول ٧٧٠ ذراعا وهناك يخاطبه الصوت قائلاً : «خذ هذا الملك «بيبى» معك فى حجرة زورقك... وخذ أنت خطافك هذا المحبب إليك وهو عصاك التى تخترق الترع، وهى التى فى طرفيها أشعة الشمس وأسنانها مخالب «فقدت» وبها يقطع الملك «بيبى» رءوس الأعداء القاطنين فى «حقول القرابين» حينما يكون قد نزل فى البحر. فاحن رأسك يا أيها البحر وأثن ذراعيك، فإن ابنى «نوت» (إلهة الشمس) هما هذان «بيبى» و«نجم الصباح» اللذان نزلا فيك لابسين أكاليل الزهر على رأسيهما ومتقلدين تيجان الزهر حول «نحريهما». وقد طلب هنا خضوع البحر لأن كلاً من «بيبى» و«نجم الصباح» كان عاكفًا على القيام برسالة كريمة لأجل «أزيس» و«حور». وبعد ذلك تستمر القصة قائلة: «إن هذا الملك «بيبى» قد فتح طريقه مثل صائدى الطيور، وتبادل التحيات مع أرباب الأرواح، وذهب إلى الجزيرة العظيمة الواقعة فى وسط «حقل القرابين» الذى تهيئ فيه الآلهة للبجع التحليق فوقه. والبجع هى النجوم التى لا تفنى (النجوم الثوابت)، وهى التى تعطى هذا الملك «بيبى» شجرة الحياة التى تعيش منها حتى يتسنى لكما «بيبى» و«نجم الصباح» فى الوقت نفسه أن تعيشا منها».

ومن الممكن إضافة تفاصيل عدة لهذه الصورة التى تمثل الآخرة السماوية. ولكن الصورة الإجمالية التى رسمناها فيما سبق تدل فى أقل مظاهرها على العناصر المهمة للمعتقدات التى كان يعتنقها قدماء المصريين عن الآخرة الشمسية فى عهد الدولة القديمة (قرابة ٣٠٠٠ - ٢٥٠٠ ق. م).

وليس لدينا شك فى أن عقائد هذا المذهب كانت تؤلف فى وقت ما مجموعة معينة، ليس لها علاقة مباشرة بمجموعة عقائد المذهب الأوزيرى بل كانت المجموعتان فضلاً عن هذا تناقض إحداهما الأخرى. وقد بقى لنا بعض البراهين الدالة على عدم تلاؤم هذين المذهبين، بل إن تلك البراهين تدل أيضًا على تعاديهما. فقد قيل عن إله الشمس إنه: «لم يعطه «أى الملك» لأوزير وأنه «أى الملك» لم يمت الموت (الحقيقى) وإنه وصل مبجلاً إلى الأفق». وفيما يأتى أبين

من ذلك: «أن «رع» آتوم «لم يعطك لأوزير، وأنه (أى أوزير) لايحاسب قلبك ولا يملك سلطانًا على قلبك».

ومن الواضح جدًا أن «أوزير» كان فى نظر أتباع المذهب الشمسى فى زمن ما يمثل مملكة الموت وسلطانها، وهى المملكة التى لم يكن أتباع «رع» ممن يحشرون إليها. فطبقًا لهذه الفكرة كان يخاف أن تدخل طائفة «أوزير» إلى الهرم بأجمعها لقصد سيىء. فكان من اللازم إذًا الأخذ بالمحافظة على الهرم بصفته الرمز العظيم للشمس، خوفا من حدوث عادية من «أوزير»، أو من «حور» الأوزيرى أو الآلهة الأخرى الذين هم من عصابة «أوزير».

ولقد كان من المحتم فى تلك الآونة الشروع فى إيجاد بعض التوفيق بين هذه المعتقدات الشمسية وبين تلك المعتقدات الأوزيرية. وحينما نتعقب سير هذا التوفيق بين المذهبين فيما بعد، ندرك كيف أن هذا السبيل قد أدى إلى فوز أوزير فى النهاية.

هوامش الفصل السادس:

(١) كان الاعتقاد أن الإنسان بعد الموت في قدرة روحه المادية أن تعود إلي عالم الأحياء وتؤذى الناس.

الفصل السابع

آلهة الطبيعة والمجتمع الإنسانى:

أوزير

لقد تتبعنا إله الشمس منذ بداية ملكه القديم الذى كان يعد فيه مجرد قوة طبيعية عظيمة إلى وقت الانتقال الذى دخل به إلى المجتمع الإنسانى بصفته ملكًا أرضيًا مسيطرًا على الحياة البشرية، وبذلك صار ميدان نشاطه هو ميدان الشئون البشرية. وقد حدث من جراء سيره فى ذلك الميدان بفخار لا يدانى وسر ليس فى الإمكان اختراق حجبه، أن حياته اليومية لم تترك مجالا لأن يشاركه الإنسان فى أى عمل من أعماله أو حركاته. على أننا نجد بجانب ذلك مملكة طبيعية أخرى بدأ الإنسان يسهم فيها ويقوم بأعمال الآلهة التى يصعب تحديدها ويوجه قواها الخفية، فتمكن بذلك من القيام بنصيبه فى أعمالها الخيرة، وتلك القوة الطبيعية التى أسلمت قيادها للإنسان أكثر من غيرها والتى مكنته من القيام فيها بنوع من المساهمة هى قوة الحياة النباتية.

فقد ذكرنا فيما مر أن استنبات الإنسان للقمح البرى والشعير قد غير مجرى حياة أهل ما قبل التاريخ تغييرا كليا، إذ انتقل الإنسان بذلك من حياة الصيد والقنص الداعية للتجوال إلى حياة الزراعة الداعية للاستقرار والإقامة. وقد ترجع بداية ذلك العهد إلى نحو ٨٠٠٠ أو ١٠٠٠٠ سنة مضت. وقد خلق هذا التحول عالمًا جديدًا ترجع أقدميته إلى العصر الحجرى الأخير.

ولما انتهى الأمر بأن صارت الزراعة تشغل المساحات الشاسعة فى كافة أرجاء

الشرق الأدنى، مكونة بذلك أول إقليم زراعى ظهر فى حياة التقدم البشرى المديد، أدى ذلك إلى ظهور شعور قوى بحاجة الناس فى كل بقعة إلى الاعتماد فى معايشهم على ثمرات الأرض الخضراء. وهذا الشعور أنشأ فى الناس عواطف يمكن مضاهاتها بتلك العواطف التى حدت بآبائنا إلى تعيين يوم من أيام الخريف لتقديم الشكر فيه لله على إنعامه عليهم بخيرات الحقول.

وعندما انتقل الإنسان القديم من معيشة الصيد إلى معيشة الزراعة صار شعوره بالاعتماد على قوة استنبات الأرض هو العنصر الناطق فى تعبيره الدينى عما يخالجه بشأن التغير البين الذى حدث فى حالة معيشته. فإن الحياة الدائمة التى يراها فى الأرض المثمرة التى تموت ثم تحيا ثانية مرات عديدة لا نهاية لها قد مثلت فى شكل إله يموت ثم يحيا وهكذا دائمًا أبدًا.

ولذلك لم يكن هذا الاعتقاد وقفًا على «أوزير»، أحب الآلهة المصرية إلى قدماء المصريين، بل تخطاه إلى كثير من الآلهة المحلية فى غرب آسيا، حيث كان هذا الإله يعرف هناك باسم «تاموز» «أو أدونيس»، وقد اعتقد القوم فيها أنها عاشت ثم ماتت ثم بعثت مرة أخرى. ولم ينس قدماء المصريين قط تلك العلاقة العتيقة التى أحدثها هذا الاعتقاد مع آسيا، وهى التى عبر عنها فى النهاية فى أسطورة «أوزير» التى تقص علينا كيف طفا جسد الإله الميت على وجه البحر وسار إلى شاطئ «جبيل»، ببلوص، الواقعة على الشاطئ الفينيقى فى آسيا، وقد عاد هذا الإله هناك إلى الحياة مرة أخرى متقمصًا جسم شجرة خضراء، ولذا صار رمز رجوع الحياة التى تنبعث ثانية بعد الموت: شجرة خضراء، ونشأ عن ذلك الحادث عيد جميل كان يقام فى كل سنة تذكرة لتلك المناسبة وذلك برفع شجرة مقتلعة وغرسها فى الأرض فى محفل عظيم، وكانت تجمل فتغطى بالأوراق الخضراء عند إرجاعها إلى الحياة على ذلك الوجه المذكور، وتلك الشجرة هى التى انحدرت إلينا فى صورة «عمود مايو»[1]. الذى لانزال نقيمه ونزينه بالابتهاج والرقص احتفالاً بعودة الربيع.

ومع أن هذا الحادث العظيم - حادث الاهتداء للزراعة - غير مدون بالطبع فى وثائق تاريخية، لوقوعه قبل عصر الاهتداء إلى الكتابة بعصور طويلة، فإننا نستطيع بلا ريب أن نتعرف فى مذهب «أوزير» صدى ذلك التغير العظيم الذى تمخض عن ظهور أقدم الزراع فى الأرض، وذلك لما تتضمنه العقيدة الأوزيرية من سماع أول صوت دينى يتحدث عن نعمة التمتع بالزراعة. وأن ذلك الإلهام الذى ألهمه عقل الإنسان حينما صار متصلاً اتصالاً وثيقًا بحياة الأرض الخضراء ومتعاونا فيها تعاونًا فعليًا يعد الآن من أقدم الأفكار التى خطرت فى الفكر الإنسانى. وقد كان لذلك أثر عميق فى الآراء البشرية عن الحياة فيما بعدْ الموت؛ فانتقلت تلك الفكرة إلى العقائد الإغريقية حيث صار من أصول تدشين المتدين الجديد أن تقدم له حزمة من سنابل القمح أو سنبلة منه واحدة. كما نجد صدى هذه الفكرة حتى فى كتاب العهد الجديد: «الحق الحق أقول لكم إن حبة الحنطة التى تقع على الأرض إن لم تمت فإنها تبقى وحدها وإن ماتت أتت بثمر كثير» (يوحنا ١٢ - ٢٤).

وقد امتزجت تلك الفكرة عند قدماء المصريين فى النهاية بطائفة من المعتقدات الخاصة بالثواب والعقاب فى الحياة الآخرة، ومن ثم تغيرت الآراء الخلقية المصرية القديمة من أساسها بسبب تلك الفكرة.

على أنه لابد لنا قبل الانتقال إلى بحث الخلق الأوزيرى أن نسبر غور أهمية موضوع «أوزير» بصفته إله طبيعة ولو إلى حد ما، وبينما لا نجد شكًا فى كنه الظاهرة الطبيعية التى كان يقوم بتمثيلها كل من «رع» و«أتوم» و«حور» وآلهة الشمس الأخرى فإننا من جهة أخرى نلقى شكًا عظيمًا وجدالاً شديدًا فى الظاهرة التى كان «أوزير» يقوم بتمثيلها.

إن أوضح بيان عن أصل «أوزير» هو حادثة العثور على ذلك الإله المتوفى بوساطة ابنه «حور» كما جاءت فى متون الأهرام: «إن «حور» يأتى ويتعرف والده فيك، شابا باسمك «الماء العذب». وبمثل ذلك الوضوح نجد الفكرة نفسها بادية

فى كلمات «رعمسيس الرابع» إذ يقول للإله: «إنك النيل حقًا» عظيم فى الحقول فى باكورة الفصول، فالآلهة والناس يعيشون بالندى الذى فيك. ففى هذين المصدرين القديمين قد وُحد «أوزير» والماء وبخاصة ماء النيل.

ومع أن «أوزير» صار مع الماء، بل مع ينابيع الماء العظيمة نفسًا واحدةً فإنه من الواضح، أن وظيفة خاصة للماء هى التى امتزج بها. فالماء بوصفه مصدرًا للخصب وبوصفه مانحًا للحياة هو الذى وحد به أوزير وهو الذى يسبغ الحياة على التربة. ومن ثم فإن «أوزير» كان يتصل بالتربة أيضًا اتصالاً وثيقًا.

وقد أيد هذا الرأى وأكثر منه ما جاء فى أنشودة من عهد القرن الثانى عشر ق. م. إذ إنها لم تقتصر على تأحيد «أوزير» بالتربة بل أحدته هو والأرض كلها، فتقول عنه تلك الأنشودة: «أما أنت فإن النيل ينبع من عرق يديك وإنك تنفث الهواء الذى فى حلقومك إلى أنوف الناس فوهبت القداسة لما تعيش عليه الناس. وكذلك توجد فى أنفك الشجرة وخضرتها والأعشاب والنباتات. والشعير والقمح وشجرة الحياة. وعندما تحفر الترع... وتبنى البيوت والمعابد، وعندما تنقل الآثار وتزرع الحقول، وعندما تنحت المقابر ومزاراتها فإنها ترتكز عليك كلها وأنت الذى تصنعها فهى على ظهرك رغم أنها أكثر من أن تدون، وظهرك لا يوجد عليه مكان خلو لأنها جميعها موضوعة فوقه...». «فكاتب هذه الأنشودة يعتبر أن «أوزير» هو الأرض نفسها وبخاصة الأرض المنتجة للخضرة».

ولذلك فإن الإشارات إلى أوزير المعروفة لنا تقرنه بحياة النبات أو توحده معها. ولعلنا نذكر أن المسرحية المنفية (التى يرجع عهدها إلى بداية «الاتحاد الثانى» حينما كانت قيادة الأمة فى عاصمتها «منف») أطلقت على تلك البلدة اسم «مخزن غلال الإله». ومن أجل ذلك أدخل رجال الفكر فى «منف» إلى «أوزير» فى مسرحيتهم المقدسة توضيحًا للسبب الذي من أجله صارت «منف» «مخزن غلال الإله». ولما كان القوم لا يزالون متجهين بتفكيرهم إلى صفات «أوزير» الطبيعية فإنهم يقولون إن إطلاق هذا الاسم على «منف» نشأ من أن «أوزير» «أغرق فى مياهه عند منف» وبذلك صارت «مخزن غلال الإله».

ثم إن الآراء الواردة فى متون الأهرام المبكرة التى تعتبر أقدم من تلك المسرحية تمثل «أوزير» مرتبطا ارتباطًا وثيقًا بالحياة النباتية.

ويؤحد «أوزير» أيضًا فى أقدم نسخة من كتاب الموتى مع الحنطة، إذ يقول المتوفى معبرًا عن نفسه: «إنى أوزير» وإنى أعيش كحبة[٢] حنطة وأنمو كحبة حنطة... وإنى شعير».

ويجب أن نقرن بهذه الأقوال المبكرة تلك الصور المتكررة التى تمثل القمح نابتا من جسد «أوزير» الراقد فوق الأرض، كما تمثل شجرة نابتة من قبره أو تابوته، أو تجعل تماثيل الإله المصورة على هيئة مومية فى قالب مكون من الدشيشة والتراب مدفونة مع المتوفى أو موضوعة فى حقل القمح ليضمن به الزارع محصولاً موفورًا من أرضه.

وعلى ذلك فقد صار واضحًا فى أقدم المصادر التاريخية التى عرفت للآن أن «أوزير» والمياه (وبخاصة فى الفيضان) والتربة والنبات كانت جميعًا نفسًا واحدة. وتبدو لنا تلك نتيجة للاتجاه المصرى إلى التفكير بالصور الواقعية.

فهذا الإله فى التفكير المصرى القديم كان من غير شك عنصر الحياة الذى لا يفنى أبدًا أينما كان، وكثيرًا ما نرى له صورًا تظهره حتى فى حالة الموت محتفظا بالقوة التناسلية. فحياة الأرض التى تموت ثم تحيا، والتى تتصل أحيانًا بالمياه التى تمنحها الحياة وأحيانًا أخرى بالتربة الخصبة، والتى تظهر فى النبات نفسه، كل أولئك وأوزير شىء واحد.

ولما كان النيل مثل النبات الذى يسقيه وينميه يعلو وينخفض فى كل سنة فقد كان من السهل تصور «أوزير» ممثلاً فى النيل، الذى يعد أهم ظاهرة فى الإقليم المصرى، أكثر من تصوره فى أى شكل آخر غيره[٣]. والواقع أن النيل لم يكن فى نظر القوم سوى المنبع الظاهر والرمز لهذه الخصوبة التى كان يمثلها «أوزير».

ثم إن وظائف «أوزير» بحكم طبيعتها قد أدمجته منذ القدم فى دائرة الشئون البشرية، مما جعله يتصف سريعًا بالصفات البشرية والاجتماعية. ولهذا فإن هذا

الإله الذى كان من شأنه أن يموت ثم يحيا وهكذا دواليك، والذى ظهر بأنه عرضة لمصير البشر من الموت وغيره، قد كان لا محالة ينبوعًا صالحًا لا ينضب لوضع الأساطير والخرافات - وتأليفها. فكان مثل «أوزير» كمثل إله الشمس، قد صار ملكًا من ملوك مصر الأقدمين بعد أن ظهر الملوك فوق الأرض. وكان فى العادة يسمى «وارث جب» إله الأرض، «الذى أعطاه قيادة البلاد لفائدتها، ووضع فى قبضته هذه الأرض وماءها وهواءها وخضرتها وكل ماشيتها، وكل ما يطير وكل ما يرفرف فوقها وحشراتها وحيوانات الصيد فى صحاريها، فصار كل ذلك مملوكًا شرعًا لابن «نوت»[٤] (أى أوزير)».

بتلك الكيفية بدأ «أوزير» حكمة الصالح بصفته ملكًا على مصر، «وكانت البلاد راضية بذلك عندما أشرق على عرش والده، مثل «رع» حينما يطلع فى الأفق». ولكن بعد أن مر زمن طويل على «أوزير» وهو ملك على مصر انحصر ملكه على وجه خاص فى الإشراف على استنبات الأرض (كما تؤكد ذلك الأدلة السالفة). ثم دخل بعد ذلك بالتدريج إلى الميدان السياسى أيضًا. فتقول عنه الأنشودة السالفة الذكر نفسها: «إنه هزم أعداءه وذبح مناهضيه بساعد قوى، وجعل خوفه يدب بين خصومه ومد تخوم بلاده».

ويبرز لنا بوجه خاص «أوزير» مصبوغًا بصبغة إنسانية فى العلاقات الأسرية التى نجدها مذكورة فى الأسطورة التى نسجت حوله، فنجد «إزيس» أخته وزوجه فى آن واحد قد وقفت إلى جانبه فى ولاء لتصد عنه أعداءه، «وحافظت عليه «بأن طردت أعداءه وصدت عنه (الخطر)». ومع ذلك فإن أعداءه استدرجوه إلى الموت بالحيلة إن لم يكن جهارا حتى تغلبوا فى النهاية عليه كما قص ذلك المؤرخ «بلوتارخ»، ولو أنه لا توجد لدينا أية وثيقة فى المصادر المصرية القديمة عن قصة الصندوق التى رواها «بلوتارخ» وذكر فيها أن خصوم «أوزير» المتآمرين عليه قد أغروه حتى دخل فى الصندوق ثم أغلقوه عليه حتى مات بداخله. وكان رأس أعداء «أوزير» الطيب، أخاه «ست» الذى كان مع ذلك يخاف الملك الطيب.

وقد نصت متون الأهرام التى تعد من أقدم المصادر القديمة على قتله، فإنها قالت : «وصرعه أخوه «ست» على الأرض فى «نديت»، أو تقول: وطرحه أخوه «ست» على جنبه على الشاطئ الأقصى لأرض جحستى».

ولكننا من جهة أخرى نجد أن المسرحية المنفية التى تعد أقدم ماوصل إلينا من المصادر القديمة لدرجة أنها أقدم من عصر الأهرام تقول : «إن «أوزير» أغرق فى مائه الجديد (أى ماء الفيضان)».

وعندما وصلت الأخبار إلى «إزيس» التعسة عن مقتل أخيها هامت على وجهها فى حزن شديد باحثة عن جثة سيدها: «باحثة عنه بلا كلل، فسارت فى أنحاء هذه الأرض محزونة غير هادئة البال إلى أن عثرت عليه».

وزيادة على ما ذكر فإن أقدم ما وصل إلينا من الأدب المصرى القديم مفعم بالإشارات عن تلك الزوجة المخلصة التى كانت ما تزال تواصل البحث عن زوجها القتيل: «لقد أتيت باحثة عن أخيك «أوزير» بعد أن هزمه أخوه «ست»».

أما قصة «بلوتارخ» فإنها تجعل «إزيس» تواصل السير فى بحثها حتى عرض البحر الأبيض المتوسط إلى أن تصل إلى «جبيل» (ببلوص)، وهو المكان الذى حملت إليه المياه جثة «أوزير» كما مر ذكره. غير أن متون الأهرام تشير إلى أن «أوزير» وجد أخيرًا فوق شاطئ «نديت» وهو المكان الذى ذبح فيه «أوزير» بيد «ست»، ويجوز أن «نديت» كان فى الأصل اسمًا قديمًا لإقليم «ببلوص»، وإن كان موقع «نديت» المذكورة قد حدد فيما بعد فى «العرابة المدفونة» بمصر، ولذلك كان أحد فصول رواية «أوزير» يمثل على شاطئ «نديت» القريبة من «العرابة المدفونة» بمصر.

أما الإلهة «نفتيس» فكانت غالبًا ترافق أختها «إزيس» فى هذا البحث الطويل عن جثة «أوزير»، وكانت كل منهما ممثلة فى شكل طائر : «إن «إزيس» تأتى «ونفتيس» تأتى إحداهما على اليمين والأخرى على الشمال... وقد وجدتا «أوزير» كما صرعه أخوه «ست» على الأرض فى «نديت»، وعندما رأتاه قالت «نفتيس» :

«لقد وجدته صريعًا على جنبه على الشاطئ.. يا أخى لقد بحثت عنك.. إبك أخاك يا «إزيس» إبك أخاك يا «نفتيس»! إبك أخاك». ومن ثم صار عويل «إزيس» و«نفتيس» على أخيهما «أوزير» أقدس تعبير معروف عن الحزن لدى قلب المصرى القديم. وقد تقلب ذلك العويل فى صور متنوعة شتى حتى ظهر أخيرا فى الأساطير الأوزيرية الأوروبية فيما بعد ذلك العهد الذى نحن بصدده الآن بنحو ثلاثة آلاف سنة.

وبعد ذلك قامت الأختان بتحنيط جثمان أخيهما حفظًا له من الفناء. وبعد أن وضعتاه فى قبره نبتت به شجرة جميز ثم أحاطت بجسد ذلك الإله المتوفى. والجميزة المذكورة هى مثل شجرة «الأريكا» التى ورد ذكرها فى قصة «بلوتارخ»، وتلك الشجرة المقدسة تمثل الرمز الظاهر لحياة «أوزير» الخالدة التى لا تفنى. وقد كانت فى أقدم المصادر القديمة مقدسة أيضًا وكانت تخاطب كأنها إلهة.

وهكذا كانت قصة حياة «أوزير» وموته. على أن حياته التى كانت تمثل لنا دورة من الظواهر الطبيعية لم تكن تقف طبعًا عند ذلك الحد، فإنها استمرت فى بعثه من جديد كما استمرت أيضًا فى قصة أخرى أضيفت فيما بعد مأخوذة عن اللاهوت الشمسى وهذه هى قصة «حور» بن «أوزير» المذكور والنزاع الشمسى الذى قام بين «حور» و«ست» مع أن هذا النزاع لم يكن «أوزيريا» فى الأصل.

وكذلك نلاحظ أن القوة الحيوية عند «أوزير» لم تنقطع قط حتى فى حالة الموت، إذ أن «إزيس» المخلصة قد اقتربت من سيدها المتوفى ثم احتضنته «وأسدلت عليه بريشها فيئا وبجناحيها نسيمًا... وبذلك بعثت الحياة ثانية فى أعضاء صاحب القلب الساكن المتعبة فوضع فيها نطفته، وبذلك أنجبت منه وريثًا له، ثم ربت هذا الطفل فى مكان منعزل لم يعرف بعد موضعه، وعندما اشتد ساعده قدمته أمام القاعة العظيمة فى عين شمس».

وقد كان خيال عامة الشعب مغرمًا بتأمل صورة الأم التى أخفت نفسها فى مستنقعات الدلتا التى قامت فيها بتربية «حور» الشاب، حتى إذا «ما اشتد

ساعده» صار قادراً على الانتقام من قاتل أبيه. وفى خلال تلك المدة التى ولد وتربى فيها «حور» لم يقعد «ست» مكتوف اليدين طبعًا، فقد لقى ذلك الطفل «حور» على يده كثيرًا من المخاطرات والمآزق، وقد حفظت لنا من هذه الحوادث نتف صغيرة جدًا لا يمكن تأليف قصة متصلة منها. ولكن حتى بعد بلوغ ذلك الصبى أشده وارتفاع قامته ثمانية أذرع (نحو ١٤ قدمًا) اضطر مع ذلك لصنع صندوق صغير طوله نحو نصف ذراع يكون مخبأ له يتقى بالاختفاء فيه شرور «ست» وعاديته. وعندما بلغ ذلك الإله الشاب سن الرجولة وصار فى مكنته مدافعة الأخطار خرج من مكمنه الذى كان فيه بالدلتا» وأتى مطهرًا ليتمكن من الانتقام لأبيه.

وكذلك كان موضوع بر «حور» بوالده محببًا إلى عامة الشعب، يسرح خيالهم ويجول مبتدئًا بحادث تصدى «حور» لمحاربة أعداء أبيه والانتقام له من «ست». وقد اشتد وطيس الموقعة التى نشبت بين «حور» و«ست» (وهى كما ذكرنا فيما مر، مأخوذة عن المذهب الشمسى) حتى أن ذلك الإله الشاب فقد عينه بيد «ست» عدوه وعدو أبيه، ثم غلب «ست» على أمره، واسترد الإله «تحوت» أخيرًا عين «حور» المفقودة بأن تفل ذلك الإله الحكيم على الجرح فصحت وشفيت. وتلك الطريقة التى سلكها الإله «تحوت» لشفاء العين هى بطبيعة الحال نوع من التطبيب الشعبى، تردد ذكره فى تلك الأسطورة فنال شهرةً وذيوعًا ثم تحول إلى آسيا حتى لقد يلوح لنا أن استعماله ظهر مرة أخرى فى كتاب العهد الجديد عند ذكر الحادث الذى يصور لنا المسيح مستعملاً تلك الطريقة نفسها لإبراء الأعمى، وفى ذلك بلا شك إذعان لعادة منتشرة بين العامة فى مثل تلك الحالة.

ثم إننا بعد ذلك نجد «حور» قد أخذ يبحث عن والده القتيل عابرًا البحر فى سبيل البحث عنه حتى يرفعه من بين الموتى ويقدم له عينه المصابة التى ضحى بها من أجله. وهذا العمل الذى يدل على البر بالوالد كما جاء مذكورًا فى متون الأهرام ضاعف تقديس «عين حور» التى كانت مقدسة من قبل فى التقاليد وفى

الشعائر المصرية القديمة حتى صارت رمزًا لكل تضحية، ولذلك صارت كل هبة أو قربة يصح أن تسمى «عين حور»، وخاصة إذا قدمت باسم القربان للمتوفى. وإذا استثنينا «الجعل المقدس» فإن «العين المقدسة» كانت تعتبر أعظم رمز منتشر نال احترامًا عظيمًا فى الديانة المصرية القديمة، ولذلك نرى عشرات الآلاف من الأعين المصنوعة من الفخار المطلى ذات اللون الأزرق أو الأخضر وغيرها مما صنع من الأحجار النفيسة الغالية، ولقد ملئت بتلك الأعين متاحفنا، هذا فضلا عما كان يحضره آلاف السياح معهم إلى بلادنا، وما كانت تلك الأعين فى الواقع إلا تذكارات ورموزًا لتلك القصة القديمة التى تحدثنا عن «حور» وبره بوالده.

ولدينا فصل فى متون الأهرام يحدثنا عن جميع ما جاء فى قصة بعث ذلك الإله القتيل، نجد فيه حادث بعث «أوزير» مرددًا مرارًا وتكرارًا. وذلك لأن معارضة الإنسان للموت قد عبر عنها بإلحاح بترديد ذكر تلك الحقيقة القاطعة القائلة ببعث «أوزير». فنرى فى تلك المتون أن القبر فتح له: «لقد أخرج لأجلك اللبن[٥]. من القبر العظيم». بعد ذلك يستيقظ «أوزير» ويفيق الإله المتعب من رقدته، ويقف الإله منتصبًا ويتمالك جسمه. «قف إنك لن تفنى، إنك لن تفنى».

غير أن حقد «ست» على «أوزير» لم ينته بعد هزيمته النكراء على يد «حور»، وحتى بعد إحياء «أوزير»؛ بل إنه دخل إلى محكمة الآلهة فى «عين شمس»، وأودع لدى هؤلاء الآلهة اتهامات باطلة ضد «أوزير». وليس لدينا بيان واضح عن تلك الخصومة أو عن نوع تلك الاتهامات التى اختلقت ضده، إلا أن «ست» قد اتخذ منها وسيلة للاستيلاء على عرش مصر. ولابد أنه كانت توجد ولو رواية واحدة تدل على أن المحاكمة كان موضوعها جريمة قتل «ست» لأخيه «أوزير»، ولكن «أوزير» فاز فى النهاية بالحكم لصالحه وأعيد عرشه إليه، ذلك العرش الذى كان ادعاه «ست» بالباطل.

وكان الحكم الذى صدر لصالح «أوزير» فى قالب يعبر عنه فى الحقيقة بكلمة «صادق» أو «حق» أو «عدل» أو «صوت الحق».. ولابد أن ذلك التعبير كان

اصطلاحًا رسميًا مستعملاً بمعنى يضاهى فى الغالب كلمة «منتصر» أو «نصر»، وذلك المعنى يحمل فى ثناياه المعنى الأصيل لكلمة «فائز» أو «فوز» عند استعمالهما فى معنييهما الخلقى والمادى. وتدل الخصومة بين «أوزير» و«ست» بعد تطورها على أنها قد اكتسبت معنى خلقيًا فى تلك المناسبة إن لم يكن لها ذلك فى بادئ الأمر. على أنه ستأتى هنا الفرصة الكافية فيما بعد لاستقراء وملاحظة سير ذلك التطور الخلقى الذى حمله فى ثناياه انتشار تلك الواقعة وذيوعها فى أسطورة «أوزير».

ومع أن «أوزير» تسلم فى النهاية زمام مملكته بعد بعثه من الموت وانتصاره على أعدائه بعد المحاكمة، فإنه بالرغم من كل ما ذكر لم يكن فى الواقع من أهل مملكة الأحياء، بل كان ملكه هو العالم السفلى المظلم الواقع تحت الأرض، وكان لابد له من النزول إليه فورًا.

وتقول المسرحية المنفية إنه بعد أن مات «دخل الأبواب السرية فى بهاء أرباب الأبدية، مقتفيًا أثر ذلك الذى يشرق فى الأفق بل أثر «رع» فى العرش العظيم» (يعنى منف)... وهكذا حضر «أوزير» إلى الأرض «فى قصر الملك» بالجهة البحرية من تلك الأرض التى وصل إليها (منف)، وطلع ابنه «حور» كالفجر ملكا على الوجه القبلى، وطلع ملكًا على الوجه البحرى، بين ذراعى والده «أوزير[٦]» وبذلك صار ابن «أوزير» خليفته على دنيا الأحياء. وأما ما كان تحت حكم «أوزير» فهو مملكة الأموات السفلية. وقد نال «أوزير» مكانته العظيمة السامية فى الديانة المصرية القديمة باعتباره بوجه خاص صديق الأموات وحاميهم.

هوامش الفصل السابع:

(١) عيد الربيع عند الفرنجة.

(٢) الحبة هنا تمثل إله الحب (نبر) والفقرة مقتبسة من متون توابيت الدولة الوسطى.

(٣) وأن الدليل الذى جاء متأخرًا علي لسان المؤلفين من الإغريق والرومان يؤيد على وجه عام النتيجة التي ذكرناها هنا، وليس لهذا الدليل المتأخر سوى أهمية ثانوية عندما يقرن بالمصادر القديمة التى ذكرناها فيما سبق. وأهم الفقرات التي وردت في المصادر الإغريقية الرومانية نجدها في كتاب «فريزر» Adonis, Attis, Osiris, P. 330 - 345, London, 1907، علي أن معالجة الموضوع في كتاب «فريزر» ينقصها التوسع في معرفة المصادر المصرية القديمة وبخاصة متون الأهرام.

(٤) «نوت» إلهة السماء كانت أم «أوزير».

(٥) لايزال وضع لبنة تحت رأس المتوفى عادة متبعة عند المصريين الحاليين في الوجه البحرى. (المعرب).

(٦) ولقد استمر «ست» الحقود يؤكد ادعاءه للعرش ضد «حور» الفتى. وتقص علينا ورقة بردية عثر عليها حديثا ونشرها الدكتور «ألن جاردنر» فى سنة ١٩٣١ في شكل قصة عامية. الأدوار التى مرت بها هذه القصة :

The Library of A. Chester Beatty : Description of a Hieratic Papyrus with a Mythological Story etc. by Alan H. Gardiner, London, The Oxford University Press, 1931.

الفصل الثامن

نور الشمس والخضرة

امتزاج «رع» مع «أوزير» وظفر «أوزير»

«إن الذى تزرعه بنفسك لا يحيى إلا ليموت»

(ياجاهل إن ماتزرعه أنت لايحيى إلا إذا مات).

ليست هذه الكلمات التى فاه بها القديس بولص إلا تلميحًا لما تركته الدورة السنوية فى الحياة النباتية (التى من شأنها الموت ثم الحياة) من التأثير العميق فى عقول الأقدمين.

ونحن نذكر أن الأساطير الإغريقية كانت مفعمة بمثل تلك الأفكار. كذلك كانت دنيا البحر الأبيض المتوسط فى كل مكان متحفزة لاعتناق الآراء الشرقية التى من هذا النوع، فكان تأثيرها من أجل ذلك ظاهرًا فى الإنجيل. وإن أقدم مظهر لتأثير الخضرة فى آراء الأقدمين التى لها علاقة بشأن الموت نراه بحالة واضحة فى ذلك الانتصار الباهر الذى أحرزته تلك «العقائد الأوزيرية» على ما سبقها من العقائد الخاصة بالحياة فى الآخرة. وليست «صلاة عيد الفصح» الحالية - طبعًا - إلا أحدث المظاهر الباقية لتلك القوة الملحة التى نشأت عن أقدم تأثير للطبيعة فى روح الإنسان.

وقد ذكرنا من قبل أن كل المعتقدات الشمسية والأوزيرية قد اندمج بعضها ببعض منذ عصر مبكر. ومع أنه يمكن تمييز نواة كل مجموعة من أساطير كل

عقيدة بسهولة، فإننا من جهة أخرى نجد أن اندماج الآراء الشمسية بالآراء الأوزيرية عن الحياة الآخرة قد ترك لنا مشكلة صعبة الحل جداً إذا نحن حاولنا فصلها من ذلك الاندماج لتتميز كل عقيدة منها عن الأخرى.

وذلك أن كلاً من نور الشمس والخضرة كانا مندمجين فى الديانة المصرية القديمة بعضها ببعض بحالة لا يمكن معها فصلهما من ذلك الاندماج، مثلهما فى ذلك كمثلهما فى الطبيعة لا يمكن فصلهما من ذلك الامتزاج. ولهذا كانت توجد مجموعة معتقدات خاصة بالحياة الآخرة يمكن تسميتها «معتقدات شمسية» ومجموعة أخرى خاصة بالحياة الآخرة أيضًا تسمى بلا نزاع «معتقدات أوزيرية»، غير أن هذين المذهبين قد اندمج بعضهما ببعض حتى صار لدينا مناطق محايدة عن ذلك الاندماج لايمكننا اعتبارها لواحدة منهما خاصة دون الأخرى. ومع ذلك يمكن تمييز المذهبين، من الأنظمة الخاصة بكل منهما، بسهولة أكثر.

فمن الواضح أن المذهب الشمسى كان لاهوت الدولة تحيط به أبهة الملك ونفوذه، على حين أننا نواجه فى مذهب أوزير ديانة الشعب التى اجتذبت إليها كل فرد متدين.

ومن المحتمل أن التاريخ القديم لتتابع هذين المذهبين كان كما يأتى : كان المصريون فى عهد ما قبل التاريخ يعتقدون اعتقاداً ساذجًا بوجود عالم سفلى للأموات مآل كل الناس إليه حتمًا. وخص الملوك بآخرة سماوية جليلة خصوا بها فى أول الأمر ثم شملت فيما بعد جميع عظماء القوم وأشرافهم - وقد تكلمنا عنها فيما سبق - ثم انتهى أمرها أخيرًا بأن صارت عالمًا شمسيا لهؤلاء الموتى.

ولما حل نفوذ «أوزير» الذى كان آخذًا فى الازدياد محل الآلهة الجنازيين الذين كانوا أقدم منه صار هو بذلك رب العالم السفلى.

وكان من نتائج ذلك أن أخذ «أوزير» وعالمه السفلى يناهضان الآخرة الشمسية السماوية فى سلطانها. وندرك فى ظهور هذين المذهبين جنبًا إلى جنب الكفاح الطويل الذى قام بين دين حكومى ودين شعبى لأول مرة فى تاريخ العالم البشرى.

والآن يجب علينا أن نبتدئ بتحديد أصل معتقد «أوزير» عن الحياة الآخرة بقدر ما نستطيع، ثم نقتفى بعد ذلك أثر سير الكفاح الذى لا يزال حتى الآن غير محدد بينه وبين ذلك اللاهوت السماوى العظيم الخاص بعقيدة الملك المتوفى وهى التى فحصناها فيما سبق. وربما كان أعظم شىء فى حياة سكان وادى النيل الأقدمين يكسبهم تقديرنا الخاص هو أن المذهب الأوزيرى قد علق فى الحال بعدوه بخيال الشعب ثم انتشر بين طبقاته، وبذلك أخذ يناهض المذهب الشمسى الذى كان يعتنقه رجال البلاط الملكى وكهنة الحكومة. ويتضح ذلك بوجه خاص فيما يتعلق بعقائد الحياة الآخرة التى ندرك من أدوار تطورها صبغ الديانة المصرية القديمة بالتدريج بالصبغة «الأوزيرية»، وبوجه خاص فى التعاليم الشمسية عن الحياة الآخرة.

على أنه لايوجد فى أسطورة «أوزير» ولا فى أخلاقه ولا فى المتأخر من تاريخه ما يشعر بوجود حياة أخروية سماوية. بل إننا نذكر أنه لا يزال يوجد بعض نصوص واضحة لايتطرق إليها الشك ترجع إلى عصور كان فيها «أوزير» يعتبر عدو الموتى الذين يعتنقون المذهب السماوى الشمسى، وهذه النصوص ما يزال فى مقدورنا تعرفها بين متون الأهرام وهى تشتمل على تعاويذ كان الغرض منها منع «أوزير» وأقاربه من دخول الهرم – وهو قبر شمسى – بقصد سيئ. وفيما قبل التاريخ كان مذهب «أوزير» (الذى كان فى وقت ما مذهبًا محليًا فى الدلتا) يحمل فى ثناياه عقائد تقول بأن الحياة الآخرة ممقوتة يخشى شرها كما كانت فى الوقت نفسه معادية للعقائد السماوية الخاصة بعالم الحياة الآخرة ومافيها من نعيم.

ولما هاجر «أوزير» من الدلتا إلى «أبيدوس» تصور القوم أن ملكه يقع فى الغرب أو تحت الأفق الغربى، ومن ثم أخذ «أوزير» مكانه فى العالم السفلى وأصبح ملكًا على عالم الأموات تحت الأرض؛ وتلاحظ تلك الظاهرة حتى فى متون الأهرام. وبلغ «أوزير» قمة فوزه بصفته رب مملكة الأموات السفلية.

ولما لم يكن فى أسطورة «أوزير» ووظائفه ما يجعله يرتفع إلى السماء فإننا كذلك نجد أن أبسط صيغ متون الأهرام لا تقول برفعه إلى عالم السماء.

وتشتمل قصة المصير «الأوزيرى» على صور متنوعة كالتى نجدها فى اللاهوت الشمسى، ولكن الخضرة التى كان يمثلها «أوزير» تستمر بعد موتها، ولذلك كان من المحتم أن يبعث «أوزير» من بين الموتى أيضًا. وكانت قيامته تعد فوزًا على الموت وقوة لا يعدلها شىء فى العقائد الجنازية المصرية القديمة. وكان من نتيجة ذلك أن الملك و«أوزير» قد أُحِّدا، ولذلك كان الملك المتوفى يفعل كل ما كان يفعله «أوزير»؛ فكان يتسلم قلبه وأعضاءه كما فعل ذلك «أوزير»، أو كان يتحول إلى «أوزير» نفسه. وكان ذلك أحب معتقدات القوم فى المذهب الأوزيرى، أى أن يتحول الملك إلى «أوزير» ويقوم من الموت ثانية كما قام «أوزير» نفسه من الموت.

ويبدأ تأحيد الملك بأوزير عند ولادة الملك، وقد جاء وصف ذلك فى متون الأهرام مشتملاً على كل العجائب والمعجزات الخاصة بالمولد الإلهى. ولم يقتصر الحال على تقمص الملك شكل «أوزير» فحسب بل إنه أحد معه تأحيدًا تاما، وذلك ما نجده مدونا عن تلك العقيدة فى متون الأهرام. ولذلك نرى «أوزير» نفسه تستحلفه الملوك على اختلاف أسمائها : «إن جسمك هو جسم هذا الملك «وناس»، ولحمك هو لحم هذا الملك «وناس»، وعظامك هى عظام هذا الملك «وناس»، وكما أنه (أى أوزير) يعيش فإن هذا الملك «وناس» يعيش، وكما أنه لا يموت فإن هذا الملك «وناس» لا يفنى». وعلى هذا الفرض يتسلم الملك المتوفى عرش «أوزير» ويصير مثله ملك الموت: «هيا أيها الملك «نفر كارع» (بيبى الثانى)! ما أجمل هذا! ما أجمل هذا الذى صنعه لك والدك «أوزير»! إنه أعطاك عرشه وأنت تحكم أولئك الذين فى الأماكن الخفية (أى الموتى) إنك تقود الصالحين منهم ويتبعك كل الأجلاء».

ولقد كان أسمى نفع نتج عن تأحيد الملك و«أوزير» أنه ضمن للفرعون المتوفى الخدمات الطيبة التى كان يقوم بتقديمها «حور» الذى يتمثل فيه البر البنوى لوالده «أوزير» فقد صارت كل الرعاية الصالحة التى كان قد نالها «أوزير» يومًا ما على يد ابنه «حور» من نصيب الملك المتوفى أيضًا. وفى متون الأهرام مجموعة

طويلة من الصيغ تشرح لنا تلك المناضلة التى قام بها «حور» ذلك الابن الشجاع لنصرة والده الملك المتوفى بصفته «أوزير»، ولكننا لا نكاد نجد فى كل ذلك أثراً للمصير السماوى ولا إشارة إلى ذلك المكان الذى حدث فيه ذلك النضال العنيف.

ومع أنه من الواضح أن كهنة عين شمس هم الذين صبغوا بادئ الأمر العقائد الجنازية بصبغة شمسية وسماوية، برغم أنها كانت فى أول أمرها أرضية فى أصلها وصبغتها، فإن هؤلاء الكهنة الشمسيين لم يكن فى مقدورهم أن يقاوموا النفوذ القوى الذى نشأ من انتشار مذهب «أوزير» بين الشعب؛ وانتهى الحال بأن صبغت متون الأهرام بصبغة «أوزيرية».

وإن التطور المستمر الذى نتعرف منه فى ذلك البحث سير الكفاح بين المذهب الشمسى الذى كان متبعًا فى معابد الحكومة وبين المعتقدات الشعبية لديانة «أوزير»، كما يتضح من متون الأهرام، يعد من أهم ما بقى لنا من أخبار العالم القديم، فقد حفظ لنا حقًا أقدم مثال للصراع الروحى والعقلى بين ديانة الحكومة وديانة الشعب وذلك الصراع يسوقنا إلى موازنته بالكفاح الذى حصل فيما بعد فى عهد الدولة الرومانية وهو اعتقاد الشعب فى «عيسى» الذى رفع إلى السماء وهو المذهب الشعبى من جهة، وبين عبادة الحكومة المنظمة لقيصر الذى كان يعتبر فى نظر القوم أنه «الشمس التى لا تقهر» من جهة أخرى ولا نزاع فى أن الديانة المسيحية المبكرة قد حملت فى ثناياها صدى ذلك الكفاح القديم الذى قام على ضفاف النيل بين الخضرة التى تحيا ثانية باستمرار وبين إله الشمس. فكان إله الخضرة (أى أوزير) البشرى فى نظر الشعب هو الذى استمال قلوبهم حتى أنه لم يكن فى مقدور كهنة الشمس مع ما هم فيه من ثراء أن يقاوموا قوة ذلك الميل.

ويمكننا أن نتتبع سير عملية صبغ العقائد بالمذهب «الأوزيرى» فى متون الأهرام حسب النسخ التى نشرتها الكهنة من حكم إلى حكم خلال عهد خمسة ملوك متتالين تمثلهم خمسة أهرامات تحتوى على خمس نسخ مختلفة من متون

الأهرام تختلف كل منها عن الأخرى فى قراءتها. وقد يكون فى إيراد بعض الأمثلة ما يظهر البرهان على ذلك ويوضح سير عملية هذا التطور.

فالسلم الذى يؤدى إلى السماء كان فى أصله عنصرًا من عناصر المذهب الشمسى. والدليل على أنه لم تكن له أية علاقة بأوزير، يظهر بأمور منها : أن إحدى الروايات الخاصة بقصة السلم تمثله فى حيازة «ست» عدو «أوزير» التقليدى. ويمكننا اقتفاء صبغ قصة السلم بالصبغة الأوزيرية! بسهولة فى أربع روايات ذكرت عنه. وتلك الروايات فى الحقيقة روايات مختلفة مأخوذة عن أصل واحد قديم، وتمثل هذه الروايات الأربع عصرًا يمتد إلى نحو قرن من الزمان أو على أقل تقدير نحو ٨٥ سنة. فيظهر أمامنا فى أقدم هذه الروايات التى حفظت لنا أن السلم لا يظهر منه إلا جزء يسير والصاعد عليه هو فرعون نفسه. على أننا نجد أن قصة السلم قد تم تطورها بعد مضى جيل، إذ كان الصاعد الأصلى الأول عليه هو «آتوم» إله الشمس ولكننا نجد أن الإلهتين «إزيس» و«نفتيس» الأوزيريتين قد ضمتا إلى القصة. وفى آخر رواية عرفت من هذه الروايات وهى التى جاءت بعد الرواية الأولى فى متون الأهرام بنحو ٨٥ سنة نرى أنه قد وضع فى فم «إزيس» و«نفتيس» ذلك الترحيب الذى كانت ترحب به الآلهة القدامى عندما كانوا يشاهدون الفرعون صاعدًا إلى السماء، وصار الصاعد هو «أوزير» نفسه. ومن ذلك نرى أن «أوزير» قد انتحل لنفسه الرواية الشمسية القديمة الخاصة بالسلم ونسب لنفسه المتن الشمسى القديم.

ومما هو جدير بالملاحظة هنا أن هذا التغيير قد حدث بالرغم من وجود تعقيدات محيرة، فقد مثلت تلك العقيدة الشمسية القديمة كلا من «ست» و«حور» مساعدين للملك عند صعوده فى السلم الذى نصبه «رع» و«حور» وذلك وفقًا لفكرة اشتراك «حور» و«ست» فى خدمة المتوفى، ولكن يظهر أن الكاتب لهذه النسخة لم يشعر بالتضارب الذى ينجم عن ذلك عندما يتحول الملك المرفوع إلى السماء إلى «أوزير». وهو تضارب واضح إذ أن «ست» هو عدو «أوزير» الخلقى وقاتله فصار يساعده على الوصول إلى مقره السماوى.

ولم يظهر تدخل «أوزير» فى أى مكان آخر من متون الأهرام بصورة تلفت النظر أكثر من ظهوره فى الصيغ الخاصة بالخدمات التى تقدمها للمتوفى الآلهة الشمسية الأربعة المعروفون بصقور الشرق الأربعة. وكانت الطريقة المحببة لصعود السماء، وفتح أبواب السماء، والعبور من شاطئ إلى شاطئ، وعملية التطهير، وما شاكل ذلك، هى أن تعمل كل تلك الأمور أولاً لكل من الصقور الأربعة بالتوالى ومن ثم تعمل للملك بجاذبية محتمة. وقد كتبت أربع صيغ عظيمة بهذه الكيفية، يحتوى كل منها على بيان للإجراءات التى كانت تجرى لكل من أولئك الصقور الأربعة المذكورين، ثم بيان لما يعمل مثلها للملك. ونجد فى أقدم تلك الصيغ أن أولئك الآلهة الأربعة كانوا جميعًا آلهة شمسيين وهم :

(١) حور الآلهة. (٢) حور الأفق.

(٣) حور «شزمت» (٤) حور الشرق.

وبعد ذلك العهد بجيلين نجد الصقور الأربعة أنفسهم لم يتغيروا، ثم نجد بعد ذلك تطورًا آخر حصل فى تلك المجموعة بظهور متطفل جديد حل محل أولئك الصقور الأربعة، فتبدو مجموعة من الآلهة هكذا.

(١) حور الآلهة. (٢) حور الشرق.

(٣) حور «شزمت» (٤) أوزير.

وبذلك نجد أن «أوزير» قد حشر نفسه فى تلك الطائفة الشمسية باحتلاله مكان «حور الأفق» الذى هو أقرب الآلهة الأربعة نسبة إلى الشمس. ويعد دخول «أوزير» هنا أكبر مثل مقنع لعظم قوته، كما يعد أظهر مثل لخطوات صبغ متون الأهرام بالصبغة الأوزيرية.

ويوازى ذلك المثل أيضًا بحالة تلفت النظر تاريخ مولد الشمس، فإنها يحتفل بوقوفها فى سيرها جنوبيًا وبداية عودتها شمالاً، وكان مولد الشمس هذا فى باكورة عهد المسيحية قد تحول إلى مولد الإمبراطور الرومانى الذى كان مؤحدا

مع إله الشمس، ولا شك أن اتخاذ المسيحيين لذلك العيد الشمسى القديم والاحتفاء به فى ٢٥ ديسمبر يقابل بالضبط حلول «أوزير» محل إله الشمس فى متون الأهرام منذ ثلاثه آلاف سنة قبل ذلك العهد المسيحى.

وبمثل ذلك صبغ بالصبغة الأوزيرية من زمن بعيد كل من السلم وقارب العبور والعوامات البردية، وبالاختصار كل العتاد الذى كان لازما للوصول إلى السماء، مع أنه لم يكن لأوزير بالسماء أية صلة، فلا عجب بعد ذلك إذا اندمجت السماء وسكانها فى «أوزير» حتى صارت النجوم الثوابت (التى لا تفنى) تسمى. «أتباع أوزير». وكذلك صار من الممكن أن نجد الملك ينقل إلى السماد بالطريقة نفسها عندما يولد مثل «أوزير» ممثلاً فى صورة نيل السماء ويفيض على السماوات كفيضان النيل على الأرض فيجعل كل السماء يانعة خضراء: «إن الملك ««وناس» يأتى إلى بركته التى فى إقليم الفيضان عند النيل العظيم، إلى مكان السلام ذى الحقول الخضراء التى فى الأفق، و«وناس» يجعل الخضرة نضرة فى إقليمى الأفق».

وبالرغم من أن كل ذلك قد أدى إلى صبغ العقائد الجنازية الشمسية والسماوية بصبغة «أوزيرية» فإن الحياة الآخرة مع ذلك بقيت سماوية، لذلك كان من الواضح أن إله الشمس عندما كان يأخذ «أوزير» إلى جواره فإن معنى ذلك أن مكانة إله الشمس فى تلك العقائد الجنازية المركبة كانت لا تزال هى المكانة الأولى، وحينئذ تبقى الحقيقة القائلة بأن العقائد السماوية عن الحياة الآخرة هى السائدة فى متون الأهرام كلها، أما عالم «أوزير» السفلى الذى ظهر فيما بعد، وكذلك سياحة إله الشمس فيه، فإنهما كانا وما يزالان يعدان فى مركز ثانوى بصفة قاطعة فى تلك العقائد الجنازية الملكية. أما عامة الشعب فكان إله الشمس فيما بعد فى نظرهم ينزل إلى العالم السفلى ليضىء على قوم «أوزير» فى مملكة الأموات. ويعتبر ذلك من أهم البراهين الدامغة الدالة على قوة «أوزير» عند عامة الشعب. أما فى لاهوت الملك والمعابد الحكومية فكان «أوزير» يرفع إلى السماء،

ومع أنه كان مصبوغا هناك بالصبغة الشمسية فإن مذهبه كان هو الآخر يصبغ العقائد الشمسية الخاصة بمملكة الأموات السماوية بعض الشيء بصبغة العقائد الأوزيرية؛ فكانت نتيجة ذلك أن حدث ارتباك كان لا بد من حدوثه عند اختلاط تينك العقيدتين إحداهما بالأخرى.

فنحن نذكر أن الملك فى كلا المذهبين قد تأحد مع الإله، وعلى ذلك نراه يسمى من غير تردد «رع» و«أوزير» فى الفقرة الواحدة من فقرات متون الأهرام.

وتوجد فى متون الأهرام فقرات كبيرة تدل على الارتباك والتعقيد الذى نتج من امتزاج تلك العناصر التى لا انسجام بينها، إذا كان التوفيق غير ممكن فى مثل تلك الفقرات بين ظهور كل من «رع» و«أوزير» بمظهر الملك الأعلى فى الحياة الآخرة: على أن مثل تلك المعتقدات الدينية المتضاربة لم يكن يشعر المصرى القديم من جراء تضاربها بأى قلق أكثر مما كانت تشعر به أية حضارة قديمة أخرى باستبقاء طائفة من عقائدها الدينية جنبًا إلى جنب مع عقائد أخرى تخالفها أو تتناقض معها كل التناقض. ولم تفلت العقائد المسيحية نفسها من تلك المتناقضات، كما أنها لم تفلت من تغلغل نفوذ الآراء المصرية القديمة عن الحياة الآخرة فيها. فنجد الآراء المصرية القديمة عن العالم السفلى وأبوابه الجهنمية وبحار اللهيب قد قامت بدورها فى تصوير جهنم الحامية فى الديانة المسيحية. كما أنه من المحتمل أن مملكة إله الشمس السماوية بما فيها من شجرة الحياة هى أصل فكرتنا نحن معاشر أهل الغرب عن الجنة التى فى السماوات وهى التى ظهرت فيما بعد فى الصور المسيحية الفنية واضحة خلابة.

وعلى أية حال فإنه يوجد فرق ملموس بين «أوزير» و«رع»، فأوزير يعتبر ملك الأموات دون غيرهم، ووظيفته سلبية حتى أنه يندر أن يقوم بعمل إيجابى حتى ولو كان لصالح عالم الأموات. ونعمة المصير الأوزيرى ينحصر معظمها فى التمتع بالخدمات الطيبة التى كان يقدمها «حور» قائمًا بدور ابن المتوفى حينما يتحول الأخير إلى «أوزير» فالخدمات التى كان يقوم بها الآخرون (أى التى لا يقوم بها

هو) هى التى يتمتع بها المتوفى (كما تمتع بها «أوزير» من قبل) وبذلك بقى «أوزير» إلهًا للموتى.

أما «رع» فإنه كان صاحب قوة عظيمة فى شئون عالم الأحياء، ومع أنه كثيرًا ما يشفع للموتى فإن سلطانه الأعظم فى هذا العالم الدنيوى، حيث يمتد وينمو حتى يسيطر على مملكة ذات قيم أدبية : وهى مملكة سنحصل منها على أقدم لمحات سنحت لنا عن كل هذا العالم، وذلك حينما نحاول الكشف عن عوامل هى فوق العوامل والمقاصد المادية التى رأينا أنها كانت فيما استعرضناه من المراحل صاحبة السيادة والسلطان على التصور المصرى القديم عن الحياة الآخرة.

الفصل التاسع

السلوك. والمسئولية، وظهور النظام الخلقى

كان غرضنا من ذكر ما جاء فى الفصول السالفة أن نضع أساسًا نبنى فوقه تلخيصا معقولاً لأبحاثنا عن تطور الحياة الخلقية عند قدماء المصريين، تلك الحياة التى بدأت فى التطور من عهد الاتحاد الثانى، أى فى الفترة التى وصلت فيها مدنية الدولة القديمة إلى أوج عظمتها بعد سنة ٣٠٠٠ ق. م. وقد لاحظنا فيما تقدم أنه منذ عهد الاتحاد الأول (أى قبل منتصف الألف الرابع ق. م.) كان موضوع الخلق الإنسانى تحت محك البحث، فكان يعبر عن هذا الخلق أو ذاك فى المجتمع بأنه محبوب أو مكروه (أى ممدوح أو مذموم). ولعلنا نذكر أن تلك الحقيقة قد كشفتها لنا وثيقة يرجع تاريخها إلى بداية الاتحاد الثانى وهى المسرحية المنفية، فقد رأينا فيها ترديد الأصداء من العصر السابق لذلك وهو ما قبل نهاية الاتحاد الأول.

والواقع أن نتف المصادر الضئيلة المدونة التى وصلتنا من القرون الأربعة الأولى من عصر الاتحاد الأول لم تزد معلوماتنا إلا الشىء القليل عن المعتقدات المصرية القديمة. ولكننا نجد بعد عام ٣٠٠٠ ق. م. (أى عندما بدأ عصر الأهرام) أن المقابر الضخمة الواقعة فى جبانتى الجيزة ومنف (سقارة)، وهى

معروفة لكل من ساح فى مصر فى عصرنا هذا، قد بدأت تبدو من نقوشها صور عن المجتمع المصرى المستحدث فى عهد الدولة القديمة، وصرنا نرى منها بعض لمحات عن معتقداتهم الخاصة بالخلق الإنسانى وبواعثه.

وأهم ما تكشفه لنا هذه اللمحات التطورات الظاهرية، وذلك لأن الحياة المصرية القديمة كانت تشغلها فى ذاك الوقت تلك الانتصارات المادية التى لم يسبق لها مثيل. إذ لم يوجد شعب آخر فى بقاع العالم القديم نال من السيطرة على عالم المادة بحالة واضحة للعيان تنطق بها آثاره الباقية للآن مثل ما ناله المصريون الأقدمون فى وادى النيل. فقد بنى المصريون القدماء بنشاطهم الجم صرحا من المدنية المادية يظهر أن الزمن يعجز عن محوه محوًا تامًا. وأما الأخلاق فهى اتجاه جوهر الحياة المنوع، الذى لا يدرك باللمس واللون، من العادات والتقاليد والصفات الشخصية المشكلة بتأثير القوى الاجتماعية والاقتصادية والحكومية التى تعمل باستمرار فى مناهج الحياة اليومية.

وهذه الأشياء التى تكون اتجاه الفرد وتدفع بالنفس الباطنة إلى اتخاذ موقف وقتى حاسم تكون جوًا أسمى للعالم القديم يصعب تحديده، ولم يصل إلينا عنها سوى لمحات جزئية نراها فى مبنى القبر واتجاه باب الهرم. وقد وجدنا عنها بعض إشارات ضئيلة فى متون الأهرام وفى نصائح «بتاح حتب» المشهورة، وحتى هذه الإشارات تدور كما شاهدنا بوجه خاص حول ذكر حالة الرفاهية المادية والنعيم المقيم الذى ينعم به المتوفى فى عالم الحياة الآخرة، وعلى أية حال فإن ما تكشفه لنا المصادر الباقية يعد ذا فائدة فريدة فى بابها، إذ تظهر لنا هذه المصادر الخطوة التالية فى التطور الخلقى، بعد المسرحية المنفية التى تؤلف مع تلك المصادر أقدم دور فى تطور الإنسان الخلقى كما هو معروف لنا، وهو الدور الذى كون أعظم الخطوات الأساسية فى تطور الحضارة. يضاف إلى ذلك أن تلك المصادر التى من عصر الأهرام لم تجمع[1] معًا قط من قبل، ولذلك فإننى عندما جمعتها لتدوينها من أجل وضع هذا الكتاب لم تكن دهشتى لكثرتها فقط، بل

كانت دهشتى أكثر عندما أدركت أنها تصور لنا الحياة فى الأسرة عند قدماء المصريين بصورة لاتدع مجالاً للشك فى أنها هى العامل الأول فى ظهور الأفكار الخلقية ونموها. فقد كان المصرى فى عصر الأهرام يشعر بوجود جو من الوازع الخلقى يزعه حتى أن متون الأهرام قد أظهرت لنا الآن ذلك الوازع مطلاً على ما قد مضى من تلك العصور التى لم تكن تعرف معنى للخطيئة والشجار بين «أفراد تلك الجماعة الأولى» من طائفة الأبرياء الذين ولدوا قبل أن يوجد «الشجار» و«الصوت» و«السب» و«النزاع» أو «التشويه المروع»[٢] الذى ارتكبه كل من «حور» و«ست» ضد الآخر. على أن الاعتقاد بوجود عصر للمثال الأعلى أو على الأقل بوجود عصر للعدالة والسلام يجب أن نربط بينه وبين ذلك العصر الذى يشار إليه فى متون الأهرام بأنه العصر الذى «قبل أن يظهر فيه الموت».

وفى ذلك العصر المبكر لأقدم جماعة بشرية وصلت إلينا أخبارها، ساد الاعتقاد بأن حق كل فرد فى التحلى بالأخلاق الفاضلة يمكن أن يقوم على أساس النهج والسلوك اللذين يعامل بهما أفراد أسرته، وهم والده ووالدته وإخوته وأخواته. وهذه الحقيقة تعتبر ذات قيمة بالغة ومكانة عظيمة فى ذلك البحث الجليل، وقد أكدها لنا أحد أشراف رجال الوجه القبلى الذى كان يعيش فى القرن السابع والعشرين ق. م. إذ قال فى نقوش قبره بعد أن عدد لنا كثيرًا من أعماله الطيبة: «إنى لا أقول كذبا لأنى كنت إنسانًا محبوبًا من والده، ممدوحًا من والدته حسن السلوك مع أخيه ودودًا لأخته». كما نجد بعد فترة من تاريخ هذا النقش أن أحد المقربين من الملك من أهل الصعيد الأقصى يؤكد أيضًا: «إن الملك مدحنى، وترك والدى وصية لمصلحتى لأنى كنت طيبًا ... وإنسانًا محبوبًا من والده ممدوحًا من والدته ويحبه كل إخوته». وكثيرًا ما نرى الأشراف فى عهد الأهرام يجمعون صفاتهم الحسنة فى العبارة الآتية : «كنت إنسانًا محبوبًا من والده وممدوحًا من أمه محبوبًا من إخوته وأخواته».

وكان البر بالوالدين من أهم الفضائل البارزة فى عصر الأهرام، فإننا نجد مذكورا فى النقوش القديمة مرارًا وتكرارًا فى جبانات الأهرام أن المقابر

الضخمة التى بها، كانت من صنع الأبناء البررة لآبائهم المتوفين، وأن الابن كان يعد لوالده مدفنا فاخرا. بل إن أحد الأبناء من أهالى ذلك العصر قد فاق كل من كان سواه من الأبناء فى بره بوالده، فقد ذكر فى نقوش قبره ما ياتى: «والآن قد عملت على أن أدفن فى القبر نفسه مع «زاو» هذا (يعنى والده) لكى أكون معه فى مكان واحد، على أنى لم أفعل ذلك لأنى لست فى مكانة تؤهلنى لبناء قبر ثانٍ، بل فعلته حتى أتمكن من رؤية «زاو» هذا كل يوم، ولكى أكون معه فى المكان عينه».

ولدينا حالة أخرى أعظم من هذه فى بر الابن بأبيه أيضًا، وهى قصة «سبِنّى» (حارس الباب الجنوبى) أى المحافظ على الحدود المصرية من جهة السودان عند شلال النيل الأول، فقد حدث أن «مخو» والد «سبنى» قد قام برحلة خطيرة فى قلب السودان طلبًا للإتجار، وهناك انقض عليه بعض القوم من الهمج وذبحوه. فلما سمع ابنه «سبنى» بذبح والده قام على الفور برحلة تحفها المخاطر فى قلب ذلك الإقليم المعادى واستخلص منه جثمان والده بعد أن تعرضت حياته خلال ذلك للموت، وأحضر جثمان والده ليحفظ فى مصر. وما يزال قبر «سبنى» باقيًا فى أسوان حتى الآن، ويحتوى ذلك القبر على النقوش الدالة على ما قام به الابن «سبنى» نحو أبيه «مخو» من ضروب الشجاعة لاستخلاص جثمان والده المذكور من أيدى أولئك الأعداء الهمج فى زمن عصر الأهرام العتيق.

على أن الأدلة المنقوشة على تلك الآثار التى تركتها لنا أقدم طائفة أرستقراطية عرفت فى التاريخ القديم يؤيد صحتها وجود تلك الرسوم الجميلة الزاهية الألوان التى كانت تلك الأسر الشريفة قد اعتادت أن تزين بها جدران مزارات القبور وبخاصة تلك التى بقيت إلى يومنا هذا بجبانات منف المترامية الأطراف. وتعرف تلك الجبانات الآن بجبانة «سقارة». وإن تلك المناظر الفخمة التى نجدها أحيانًا حافظة لألوانها الأصلية الزاهية للآن ليست فى الواقع إلا بيانًا خلابًا عن الحياة اليومية لأشراف عصر الأهرام.

وتلك المناظر المذكورة تؤلف فى وقتنا هذا صورة جذابة يتمتع بمشاهدتها للآن غالب رواد وادى النيل، والسائحون الذين يفدون زرافات ووحدانا فى كل شتاء إلى

مصر لمشاهدة آثارها القديمة. غير أنى أشك كثيراً فى أن واحداً من أولئك السائحين الذين يمتطون ظهور الحمير فتسير بهم وسط خمائل النخيل التى تغطى الآن طرقات مدينة «منف» القديمة وبيوتها يفقه أن ما يراه ويشاهده الآن فى أطلال جبانة مدينة «منف» يعد أقدم مظهر عرف لنا فى التاريخ عن حياة الأسرة. وعندما يجتاز ذلك الزائر الحديث خمائل النخيل المذكورة يقع بصره على منحدرات من كثبان الرمال المنتهية إلى قمة هضبة صحراوية تغطيها الرمال. تلك هى جبانة «منف» القديمة. ومن ثم يمكنه أن يطل على ما بقى من آثار تلك المدينة الشاسعة الأطراف التى تغطيها الآن الحقول الزاخرة بالزرع والنخيل الدانية القطوف.

ففى هذه البقعة كان يسكن أهل أولئك الأجيال الأقدمون البائدون فى مدينة عظيمة أقاموها منذ آلاف مضت من السنين، وعند نهاية أجلهم كانوا يحملون إلى تلك الهضبة التى يصعد إليها الآن ذلك الزائر الحديث، حيث كانوا يدفنون فيها فى مقابر فسيحة مبنية بالحجر الجيرى الضخم، وتلك المقابر القديمة التى يبلغ عمرها الآن قرابة خمسة آلاف من السنين ترى الآن صامتة خربة تغطيها الرمال القاحلة، غير أنه مازال فى مكنتنا أن ندخل مزارات تلك المقابر ونتجول فى حجراتها.

وجدران تلك الحجرات مغطاة بكثير من النقوش والمناظر ذات الألوان الزاهية التى تمثل لنا صوراً من الحياة القديمة[٢] ففى تلك المناظر المحفورة نشاهد صاحب إحدى تلك الضياع التى كانت تحيط بمدينة «منف» منقوشاً على الجدار بحجم عظيم وهو يقوم بالإشراف على رجال ضيعته الذين نقشوا معه فى الصورة بحجم أصغر منه كثيراً، فنراه يتفقدهم وهم يبذرون الحبوب أو يحصدون محاصيل الحقول أو يسوقون الماشية والقطعان غادين أو رائحين، أو يخوضون ترع الرى أو يعملون فى أحواض بناء قواربهم أو حوانيت تجارتهم أو مصانع عمل النحاس أو مكان صنع الفخار، وغير ذلك من مئات الصور التى تنبئنا عن كثير من نواحى نشاطهم وأعمالهم فى حياتهم الدنيوية.

بهذا قد صورت على تلك الجدران جميع مظاهر حياتهم الواسعة النطاق من زراعة وتربية ماشية وصناعة، مما درجت على أساسه تلك المدنية القديمة وترعرعت. وترى فيها الشريف المصرى القديم يصحب معه زوجته فى كل تلك الجولات الفسيحة فى أرجاء ضيعته الشاسعة، فكانت ترى تتهادى بجانبه حينما كان يدخل من الباب العظيم المؤدى إلى حديقته الغناء التى أقيمت فى وسطها كرمته البهيجة. فكانت زوجته فى الواقع تشاطره كل حياته وكل أعماله كما كانت ترافقه فى الوقت نفسه فى كل لحظة، وكانت أطفالهما فى صحبتهما دائمًا. ومن أمتع المناظر التى نشاهدها بين تلك الصور المنقوشة على جدران تلك القبور منظر يصور لنا طفلا صغيرًا يجرى بجانب والده ويقبض بإحدى يديه على هدهد صغير. كما نشاهد رب البيت يصطاد فى المستنقعات المخصصة لذلك الغرض وبجانبه زوجته وطفله وكلهم فى قارب من القصب يسبح بهم بين أزهار البردى الطويلة. ويلاحظ فى هذه الصورة أن الطفل كان منحنيًا نحو الماء ليقطف زهور السوسن المائية. أو نشاهد كذلك الشريف مرسومًا جالسا بحديقته، وأطفاله أمامه يلعبون الكرة أو يعبثون فى ماء بركة الحديقة وهم يصطادون السمك.

وهذه النقوش التى نشاهدها على مقابر «منف» تمثل حياة نحو ٥٠٠ سنة أى من ٣٠٠٠ ق. م. إلى ٢٥٠٠ ق. م. أو بعد ذلك، وهى تؤلف أول مظهر معبر عن حياة الأسرة بقى لنا من العالم القديم. وكان الاعتبار الأول فى اهتمامنا بتلك الرسوم حتى الآن أنها آثار فنية، ومصادر نستقى منها معلوماتنا عن حياة المصريين الأقدمين فى الزراعة والرعاية والصناعة، ثم إلى حد ما عن الحياة الاجتماعية عندهم. على أن العلاقات الأسرية المرحة المنطوية على الود، التى تنطق بها تلك النقوش تعد كشفا جديدًا ذا أهمية أساسية فى تاريخ الأخلاق. وذلك لأن هذه الصورة، مضافًا إليها النقوش المدونة فوق جدران القبور، مع حكم «بتاح حتب» التى سنرود مجاهلها بعد، تقدم لنا برهانًا تاريخيًا قاطعًا على أن الإدراك الخلقى نبتت جذوره من حياة الأسرة.

من ذلك يتضح أنه هنا، فى المصادر المصرية التى يرجع عهدها إلى النصف الأول من الألف الثالث لما قبل الميلاد، نجد مجموعة من الأدلة تظهر لنا تاريخيًا لأول مرة ما وصل إليه علماء النفس الاجتماعيون المحدثون من ملاحظاتهم عن حياة الإنسان كما نجده فى عصرنا الحاضر. وإنى أشير بذلك إلى ما وصلوا إليه من «أن الوازع الخلقى فى حياة الإنسان نبت من المؤثرات التى تعمل فى العلاقات الأسرية». وفى ذلك يقول مكدوجال(٤): « فمن هذه العاطفة (أى حنان الوالدين) ومن الدافع الذى يحدو بها إلى الحب والرعاية، ينشأ الكرم والاعتراف بالجميل والحب والشفقة وحب الخير الحقيقى وكل أنواع الخلق المجردة عن الأنانية، ففى تلك العاطفة تنبت الجذور الرئيسية لكل تلك الصفات التى لولا هذه العاطفة ما وجدت قط». ويشير «مكدوجال» وهو يناقش التطور الذى تمر به مثل تلك العواطف إلى الحقيقة القائلة: «إن كل غلطة ترتكب ضد الطفل الذى يعد موضع حنان والديه يكون من نتائجها المحتومة إثارة الغضب والحقد». ثم يستمر فيقول : «وهذه الرابطة الوثيقة بين عاطفتى الحنان والغضب تعد من الأهمية بمكان فى حياة الإنسان الاجتماعية، ويعد فهمها على حقيقتها أمرًا أساسيًا لتكوين نظرية صحيحة عن العواطف الخلقية، وذلك لأن الغضب الذى يثار بتلك الكيفية هو جرثومة كل سخط خلقى. وعلى السخط الخلقى بنيت بصفة عامة أركان العدالة، والجزء الأكبر من القوانين العامة. ولذلك يتضح بالرغم مما قد يظهر من تضارب، أن كلا من الرأفة والعقاب تضرب بوشائجها العريقة فى الغريزة الأبوية.

وعلى ذلك نجد أن كلا من آثار مقابر عصر الأهرام و«حكم بتاح حتب» التى سنأتى على ذكرها، بالرغم من أنهما لا يمثلان إلا مرحلة ثانوية فى التطور الخلقى عند الإنسان فى العالم القديم، يلقيان بالبديهة ضوءًا مفيدًا على المرحلة الأولى التى سبقت عصرهما من التقدم الإنسانى من تلك الوجوه، وذلك حينما نلاحظ أن تلك المصادر تمثل لنا صورة حقة عن عواطف المحبة فى حياة الأسرة من جهة علاقتها الوثيقة بالشعور الأخلاقى، وأن معلوماتنا عن الحياة البشرية البدائية نجدها اليوم لها أهمية عظيمة جدًا من هذه الناحية بالذات. وقد لخص

«وسترمارك» بدقة ملاحظات علماء الجنس البشرى عند فحص ما بقى لنا من الحياة الفطرية فى قوله : «توجد حقائق كثيرة جدًا يمكن فى الواقع اقتباسها للدلالة على أن حنان الوالدين لم يكن نتيجة من نتائج المدنية الحديثة بل هو ظاهرة طبيعية للعقل البشرى المتوحش كما هو معروف لنا»[٥].

فمنذ العصور المتوغلة فى القدم كانت مثل تلك المشاعر موجودة بلا أقل شك، وذلك وقت أن كان نضوب المياه فى هضبة شمال إفريقيا يضطر الصيادين المتوحشين إلى النزول إلى وادى النيل، وكانت تلك المشاعر تنمو فى ظلال فترة ذلك التطور التاريخى الذى انتهى بالاتحاد الأول للبلاد الذى لم يتجاوز عمره سنة ٤٠٠٠ ق. م. وبعد ذلك التاريخ بخمسمائة سنة أى فى القرن الخامس والثلاثين ق. م. ظهرت أمامنا أقدم الحقائق المدونة - ونعنى بذلك المسرحية المنفية، وبعد سنة ٣٠٠٠ ق. م كشفت لنا جبانة «منف» وحكمة «بتاح حتب» عن مرحلة أكثر تقدمًا من سابقتها فى حياة الإنسان الخلقية التى كان يتسع مجالها باطراد.

وعلى ذلك فإننا نتناول فى مصادر الدولة القديمة أقدم طائفة من البيانات التى تكشف لنا تاريخيًا أن آراء الإنسان الخلقية هى من ثمرات معالجته للشئون الاجتماعية، وتكون جزءًا من التطور الاجتماعى. وهذا الاستنتاج التاريخى يتفق تمام الاتفاق مع الملاحظات الاجتماعية الحديثة، كما ذكرنا ذلك فيما تقدم بالنسبة للأسرة. وقد أصاب «جرين»[٦] حيث قال:

«إنه لايمكن لإنسان ما أن يكون لنفسه ضميرًا، وإنه يحتاج دائمًا إلى الجماعة لتكونه له».

فنحن إذًا نرقب فى هذا العصر العتيق النواحى الراقية لمنهاج فى التطور لايمكن أن نلاحظ مثله فى أى عهد آخر قديم من تاريخ حياة الإنسان بأية جهة أخرى، ونتأمل ظهور شعور بالمسئولية الخلقية فى الوقت الذى كانت فيه تلك المسئولية قد بدأت تأخذ تدريجيًا شكل قوة وازعة متزايدة تسيطر على سلوك

الإنسان، وهو تطور يسير متجهًا نحو توطيد مكانة «الضمير» حتى يصير قوة اجتماعية ذات نفوذ فى حياة البشر أجمعين.

يدل على ذلك أنه فى الوقت الذى كان فيه مدى السلوك الحسن محصورًا على الأرجح فى أول الأمر فى دائرة الأسرة، فإن نطاقه قد أخذ يتسع حتى صار يشمل الجيرة أو الطائفة قبل عصر الأهرام بزمن طويل. فمن ذلك أننا نجد أن أحد الموتى يقص علينا فى نقوش قاعدة تمثال جنازى له منصوب فى قبره، وقد صوره المثال بصورة ناطقة له كأنها هو : «لقد طلبت إلى المثال أن ينحت لى هذه التماثيل، وقد كان مرتاحًا للأجر الذى دفعته إليه». كما يقول مدير ضيعة يدعى «منى» فى نقوش مأخوذة من مقبرته التى من عهد الأسرة الرابعة (٢٩٠٠ - ٢٧٥٠ ق. م.) وموجودة الآن فى متحف «جلبتوتيك» بمدينة مونيخ ما يأتى : «أما فيما يخص كل رجل عمل هذا لى (أى أسهم فى إقامة هذا القبر) فإنه لم يكن قط غير مرتاح، سواء أكان صانعًا أم حجارًا، فإنى قد أرضيته». فمن الواضح جدًا أن كلا من ذينك الرجلين أراد أن يعلن أنه حصل على معداته الجنازية من طريق شريف وأن كل من عمل فى إعدادها قد تسلم أجره كاملاً غير منقوص.

وكذلك ترك لنا أحد حكام المقاطعات ممن عاشوا فى القرن السابع والعشرين ق. م. البيان التالى عن حياته الصالحة حيث يقول : «لقد أعطيت خبزًا لكل الجائعين فى «جبل الثعبان» (ضيعته) وكسوت كل من كان عريان فيها، وملأت الشواطئ بالماشية الكبيرة وأراضيها المنخفضة بالماشية الصغيرة، وأشبعت كل ذئاب الجبل وطيور السماء بلحوم الحيوان الصغير.. ولم أظلم أحدًا قط فى ممتلكاته حتى يدعوه ذلك إلى أن يشكونى لإله مدينتى، ولكنى قلت وتحدثت بما هو خير. ولم يوجد إنسان كان يخاف غيره ممن هم أقوى منه حتى جعله ذلك يشكو للإله. ولقد كنت محسنًا لأهل ضيعتى بما فى حظائر ماشيتى وفى مساكن صيادى الطيور، وإنى لم أنطق كذبًا لأنى كنت امرأ محبوبًا من والده ممدوحا من والدته رفيع الأخلاق مع أخيه، وودودًا (لأخته)».

ونجد مرارًا وتكرارًا أن أولئك الناس القدماء الذين مضى على انقضاء زمنهم نحو ٤٠٠٠ أو ٥٠٠٠ سنة يؤكدون لنا براءتهم من عمل السوء؛ فيقص علينا رئيس أطباء الملك «سحورع» فى منتصف القرن الثامن والعشرين ق. م. ما يأتى : «إنى لم آت أى سوء قط ضد أى إنسان».

وبعد ذلك العهد بقليل نجد كاهنًا يقول ذلك الكلام نفسه أيضًا: «إنى لم أرتكب أى عنف ضد أى إنسان». وبعد ذلك العهد بقرن أيضا نجد كذلك مدنيا رقيق الحال قد أقام نصبًا على واجهة قبره ليقرأه الأحياء منقوشًا عليه الخطاب التالى : «أنتم أيها الأحياء الذين على وجه الأرض المارون بهذا القبر، جودوا بقربان جنازى مما عندكم فيؤتى به إلىّ لأنى كنت إنسانًا محبوبًا من الناس، فلم أجلد قط فى حفرة أى موظف منذ ولادتى، ولم أستول على متاع أى شخص قسرًا، وكنت أفعل ما يرضى جميع الناس». ونرى مثل ذلك فى نقش قبر آخر لإنسان كان على ما يظهر موضع اهتمام جيرانه إذ يقول : «لقد فعلت ما كان يحبه الناس ويرضى الآلهة حتى يجعلوا بيت أبديتى (أى قبره) يبقى واسمى موضع الحمد على ألسنة الناس».

ويتضح من مثل تلك الخطابات التى كانت توجه إلى الأحياء أن أهم غرض كان يرجوه المتوفى من الإدلاء بتلك التأكيدات الدالة على حسن سيرته فى المجتمع هو استدرار عطف الأحياء من جيرانه عليه حتى يقدموا له القرابين الجنازية من الطعام والشراب عند قبره.

وقد كان المتوفى فى اعتقاد القوم عرضة لأن يطلب للمحاسبة فيما بعد الموت عن أى خطأ يكون قد ارتكبه أو ظلم اقترفه أثناء حياته الدنيوية، فيقف هناك أمام إله الشمس الذى كان يجلس بصفته القاضى الأعلى لمحكمة العدل أسوة بمحاكم عالم الدنيا، ولذلك وضع «منى» مدير الضيعة، الذى سبق أن لاحظنا عنه فيما تقدم اهتمامه بدفع أجور العمال ممن قاموا ببناء قبره، التحذير الآتى على واجهة باب قبره : «إن التماسيح ستكون ضده فى الماء! والثعابين ضده على

اليابس، جزاء لكل من يقترف أى سوء ضده (أى ضد قبره) فإن الإله العظيم هو الذى سيحاكمه من أجل ذلك». وعلى ذلك يتضح أن القيم الأخلاقية كان لها تقديرها فى نظر الآلهة مما يجوز أن يؤثر ماديًا على سعادة المتوفى فى الحياة الآخرة.

وكلا الباعثين قد وجدا مجتمعين فى خطاب واحد موجه للأحياء على باب مقبرة «حرخوف» الألفنتينى الموطن، الذى توغل فى السودان فى القرن السادس والعشرين ق. م.، والذى يعتبر أكبر الرواد القدامى الذين جابوا مجاهل إفريقيا، وقد نحت قبره فى الصخور الغربية المطلة على بلدة «أسوان» الحالية، حيث يمكن لأى سائح قوى الساقين أن يتسلقها لزيارة ذلك القبر. ومن بين ما نقشه على واجهة ذلك القبر قصة حياته المليئة بالمخاطرات، ومنها قوله : «كنت... محبوبًا من والده ممدوحا من والدته يحبه كل إخوته، ولقد أعطيت خبزًا للفقير وملابس للعريان وعديت من لا قارب له. وأنتم أيها الأحياء الذين على وجه الأرض والمارون بهذا القبر، سواء أكنتم نازلين مع النهر أم صاعدين فيه، قولوا: ألف رغيف وألف إناء جعة (تقدم) لصاحب هذه المقبرة؛ وإنى فى مقابل ذلك سأشفع لكم فى العالم السفلى لأنى إنسان مجهز «بالسحر»، وكاهن مرتل فمه على علم. وأما من يدخل هذا القبر مدعيًا ملكيته الجنازية فإنى سأقبض عليه كما يقبض على طائر برى، وسيحاكم على ذلك أمام الإله العظيم، وإنى كنت إنسانًا يقول الحسن ويردد المحبوب، ولم أنطق قط بأى شئ قبيح لرجل صاحب سلطان ضد أى إنسان، وقد كانت غايتى أن تكون حالتى حسنة أمام الإله العظيم، على أنى لم أفصل بين أخوين بما يحرم ابنا متاع والده».

ويلاحظ فى ذلك الخطاب أن التهديد بالمحاكمة لم يستعمل فقط لمنع الإنسان الخارج على القانون من الاستيلاء على قبر المتوفى، بل إن له، فضلاً عن ذلك، مغزى آخر هو فكرة المحاكمة التى تعبر عن المسئولية الخلقية فيما بعد الموت، وأنها بالتأكيد هى الباعث الذى حدا بذلك الرائد العظيم أن يعيش عيشة فاضلة.

أى أن غرض المتوفى أن يتوقف مصيره على حياته اليومية فى عالم الدنيا؛ مثال ذلك قوله : «لقد رغبت فى أن يحسن حالى فى حضرة الإله العظيم». ومن ذلك نعرف أنه كان ينتظر طوال حياته احتمال وقوفه أمام الحضرة الرهيبة فيما بعد الموت ليحاسب على كل سيئة يكون قد ارتكبها فى أثناء حياته الدنيوية.

ولا شك أن تدوين مثل تلك الأقوال فى جبانات عصر الأهرام (أى منذ خمسة آلاف سنة) لم يكن أمرًا قليل الأهمية والجدوى؛ لأنه أقدم برهان على الشعور بالمسئولية الخلقية عند قدماء المصريين فى عالم الحياة الآخرة، إذ نجد فى بلاد أخرى - بعد مرور ما يربو على ألفى سنة من ذلك التاريخ - إن الخير والشر كانا يحالان معًا إلى عالم واحد من عالم الأموات من غير أن يكون بينهما أى تمييز. فكأن ما ذكرناه عن ذلك فيما تقدم كان مشهدًا خلقيًا فريدًا لا نظير له ننظر من خلاله ذلك التسامى رغم ما يحيط به من حالك الظلام الكثيف، فكان مثله مثل شعاع الشمس ينفذ فى حوالك الظلمات.

على أن الوازع الخلقى لم يبق منحصرًا نفوذه فى العوامل الشخصية، مقتصرا على علاقة الإنسان بأسرته وجيرانه أو المجتمع الذى يعيش فيه فحسب، بل كان قد بدأ تأثيره يظهر فى واجبات الحكومة نحو عامة جميع الشعب ولو أدى تنفيذ تلك الواجبات إلى عدم رعاية حقوق الأسرة أصلاً. فقد وجدنا فى عصر مبكر مثل عصر الأهرام أن الوزير العادل «خيتى» قد صار مضرب الأمثال بسبب الحكم الذى أصدره ضد أقاربه عندما كان يرأس جلسة للتقاضى كانوا فيها أحد الطرفين المتخاصمين، إذ أصدر حكمه ضد قريبه دون أن يفحص وقائع الحال، وكان ذلك منه تورعًا عن أن يهتم بمحاباة أسرته أو ممالأتها ضد خصومها. وقد جاء فى أحد النقوش القديمة التى تعرضت لإعادة ذكر الحادث: «وحينما أراد واحد منهم أن يستأنف الحكم... فإنه (أى الوزير) صمم على رأيه الأول». وبعد مضى ألف وخمسمائة سنة على ذلك الحادث كان اسم «خيتى» المذكور يقتبس فى الحياة الحكومية مثلا للإجحاف بالغير يجب ألا يحتذى حذوه. وقد أخبر

الفرعون وزراء القرن الخامس عشر ق. م. : «أن الحكم المشهور الذى أصدره «خيتى» السالف الذكر كان أكثر من العدالة» لما فيه من الشطط فى التحرز عن محاباة الأقارب).

وتحتوى متون الأهرام أيضًا على أدلة قاطعة لا تقبل الشك على أن طلبات «العدالة» و«الحق» كانت قوتهما أقوى من سلطان الملك نفسه. فلم يكن الملك معفى من القيام بما تحتاجه قبور الأشراف، التى تنطق نقوشها بأنهم كانوا مهتمين بإقامتها كل اهتمام، وكان الإله الذى يعمل الملك على إرضائه هو «رع» وهو الإله الذى كانت تعمل الرعية على إرضائه. وإليك ما جاء فى أحد النقوش: «لا توجد سيئة اقترفها الملك «بيبى». وهذه الكلمة ذات وزن فى نظرك يا «رع». ونجد فى صيغة شمسية الطراز أن نوتى «ع» يخاطب هكذا: «أنت يا من تعبر بالبرىء الذى لا سفينة له، يانوتى حقل القصب، إن الملك «مريرع» (بيبى الأول) عادل أمام السماء والأرض». ومن ذلك أيضًا : «إن هذا الملك «بيبى» برىء إن هذا الملك «بيبى» ممدوح». وكذلك كان «نجم الصباح» (وهو إله شمس) يقدر المركز الخلقى لفرعون المتوفى، فترى فى النقش ما يأتى : «أنت يا «نجم الصباح» اجعل «بيبى» هذا يجلس لأنه برىء، واجعله يرتفع لأنه مبجل». وكان لابد بالطبع من تحديد قيمة المتوفى الخلقية بصفة قانونية وإجراء قانونى طبقًا لما وهبه المصرى القديم من الإدراك القانونى الحاد. فقد رأينا أن الأشراف يشيرون إلى المحاكمة فى نقوش قبورهم، وأن الملك نفسه عرضة لهذه المحاكمة، بل إن الآلهة لا يفلتون منها، إذ قد ذكر أن كل إله يساعد الفرعون فى رفعه إلى السماء يبرأ أمام «جب» (إله الأرض).

على أن الفرعون الذى أعلنت براءته ورفع إلى السماء بتلك الكيفية كان يستمر فى إظهار الصفات الحسنة نفسها فى القيام بأعمال ملكه السماوى الذى يسند إليه: «إنه يقضى بالعدل أمام «رع» فى يوم العيد (المسمى) رأس السنة، فالسماء فى سرور، والأرض فى حبور حينما سمعا أن الملك «نفر كارع» (بيبى

الثانى) قد أقام العدل (مكان الباطل)، والذى يجلسون مع الملك «نفر كارع» فى قاعة العدل مرتاحون للقول الحق الذى خرج من فمه». ومما يلفت النظر أن الملك كان يقضى بتلك العدالة فى حضرة «رع» إله الشمس. وكذلك نجد تصريحًا شمسيًا يؤكد بأن الملك «وناس» قد «أقام العدل فيها (أى فى الجزيرة التى استقر فيها) مكان الباطل».

ونجد فى القرن الثامن والعشرين ق. م. أن أحد ألقاب الملك «وسركاف» الرسمية لقب «مقيم العدالة» (ماعت)، وعلى ذلك نرى أن اعتبار الملك الراحل إلى السماء حاكمًا بها (أى بالعدالة «ماعت») فى الحياة الآخرة إن هو إلا استقرار للنظام الخلقى الذى كان يرعاه فوق الأرض، ولذلك تقص علينا متون الأهرام: «أن الملك وناس» يخرج للعدالة (يعنى ماعت) ليأخذها معه (أى ماعت)».

وكذلك تقص علينا متون الأهرام : «إن الملك «وناس» يخرج فى يومه هذا ليتمكن من إحضار العدالة (ماعت) معه».

ولمناسبة التأمل فى لقب الملك «وسركاف» الملكى السالف الذكر يتجه نظرنا إلى ذكرى أخرى ممتعة، وهى أنه فى خلال حكم تلك الأسرة ختم أحد وزرائها العظام مجموعة من حكمه الطريفة بالكلمات الآتية: «لقد بلغت من العمر العاشرة بعد المائة منحنى الملك فى خلالها هبات تفوق هبات الأجداد لأنى أقمت العدل للملك حتى القبر». فهذا الوزير الأول الذى فاه بذلك البيان - هو «بتاح حتب» الذى اعتزل منصب الوزير الأول للملك «إسيسى» أحد ملوك الأسرة الخامسة فى القرن السابع والعشرين ق. م. وليس من شك فى أن «بتاح حتب» هذا بلغ سن الرجولة الناضجة فى عهد الفرعون «وسركاف»، وبذلك يمكننا أن نرى بعض الصلة بين قول ذلك الوزير الحكيم : «إنى أقمت العدل» وبين لقب «وسركاف» الرسمى وهو مقيم العدالة».

وإن حِكم «بتاح حتب» تمدنا بأقدم نصوص موجودة فى أدب العالم كله للتعبير عن السلوك المستقيم. وفى حين أنه لم يصلنا من العهود السابقة لها سوى نتف

مبعثرة للتعبير عن السلوك الخلقى وعن التقدم المدهش فى مجارى الإدراك الخلقى الذى وصل إليه الإنسان فى عهد الاتحاد الثانى، فإننا نجد أن حكم «بتاح حتب» الغزيرة المادة تلخص لنا مقدارًا كبيرًا من أدب ذلك العصر. وحينما شعر ذلك الوزير المسن بضعفه الناشئ من تقدمه فى السن، كما ذكره هو فى مقدمة حكمه، طلب إلى الملك أن يسمح له بتعليم ابنه (أى ابن الوزير) ليعده للقيام بأعباء الواجبات الحكومية حتى يكون مساعدًا لوالده وخلفا له، وقد وافقه الملك على ذلك، وحينئذ قام الوزير الكبير بالنصح لابنه بألا يسىء استعمال الحكمة التى سيلقنه إياها بل ينتهج سبيل التواضع، فيقول: «لاتكونن متكبرًا بسبب معرفتك، فشاور الجاهل والعاقل لأن نهاية العلم لا يمكن الوصول إليها وليس هناك عالم بلغ فى فنه حد الكمال، وإن الكلام الحسن أكثر اختفاء من الحجر الأخضر الكريم، ومع ذلك فإنه يوجد مع الإماء اللائى يعملن فى إدارة حجر الطاحون». ثم يعقب ذلك ثلاث وأربعون فقرة تحتوى على نصائح مختلفة المواضيع، لم يبذل أى جهد لترتيبها أو تنظيمها، بل كتبت كل فقرة منها عفو الخاطر بحسب ما كان يخطر فى ذهن رجل مسن حنّكته تجاريب الحياة ومسئولياتها التى أراد أن يطرحها عن كاهله إلى كاهل غيره.

ويؤكد فى حِكمه التأكيد القوى وجوب مراعاة حسن الذوق واستعمال الذهن، الذى أطلق عليه كالمعتاد كلمة «القلب». وأحسن الصفات القيمة التى يجب على الشاب أن يتحلى بها أن يكون قادرًا على الإصغاء أو الطاعة (يقابلها حرفيًا: يستمع) فنجده يقول : «إن المستمع هو الذى يحبه الإله، أما الذى لا يستمع فإنه هو الذى يبغضه الإله. والعقل (القلب حسب النص الأصلى) هو الذى يجعل صاحبه مستمعا أو غير مستمع. إن ثروة المرء العظيمة هى عقله.. فما أفضل الابن عندما يصغى لأبيه، والابن إذا وعى لما يلقيه عليه والده فإنه لن يخيب فى مشروع من مشروعاته. وعليك أن تعلم من يستمع إليك كأنه ابنك، ومن سيكون ناجحًا فى نظر الأمراء، ومن يوجه فهمه حسبما يقال له.. ما أكثر المصائب التى تنزل بمن لا يستمع. والرجل العاقل يبكر فى الصباح ليصلح من شأن نفسه، أما

الجاهل فإنه يصبح فى حالة ارتباك، كما أن الأحمق الذى لا يستمع، فإنه لم يسئ إليه أحد، بل هو يعتبر الحكمة جهلاً، وما يفيد كما لا نفع يرجى منه. والابن المطيع (الذى يستمع)... يصل إلى الشيخوخة وينال الاحترام. وهو يتكلم بدوره لأولاده معيداً لهم نصائح والده... فهو إذًا يتحدث لأولاده وهم بعد ذلك يتحدثون لأولادهم».

من ذلك يتضح أنه منذ القرن السابع والعشرين ق. م كان السلوك قد أصبح أمرًا تقليديًا وحكمة ذات معيار يرثها الابن عن أبيه.

وكان للنجاح الدنيوى المكانة السامية إذ ذاك، وكانت السبل للتحقق من الوصول إليه عظيمة الأهمية، ولذلك شغلت هذه الأمور نحو ثلث نصائح ذلك الوزير المسن (أى ١٤ فقرة من ٤٢ فقرة). وبعض هذه النصائح يوصى بالتخلق بالحذر فى حضرة العظماء، حتى أن بعض فقراتها تعرفنا آداب المائدة فى حضرة الرئيس، فتقول : «خذ ما يقدم لك حينما يوضع أمامك دون أن تنظر إلى ما هو أمامه، ولا تصوبن لحظات كثيرة إلى الرئيس أى لا تحملق فيه. وانظر بمحياك إلى أسفل إلى أن يحييك، وتكلم فقط بعد أن يرحب بك، واضحك حينما يضحك، فإن ذلك يدخل السرور على قلبه، وما تفعله يكون مقبولاً لأن الإنسان لا يعلم ما فى القلب». ومن المهم جداً ألا يكون الإنسان كثير الكلام فى أى موقف، وأن يتجنب على وجه خاص السلوك العدائى والتعجرف على الناس.

وقد خصص جزء أكبر بكثير مما تقدم إلى الحكمة الصائبة فى تسيير أعمال الإنسان الرسمية. فمن ذلك قوله: «إذا كان رئيسك فيما مضى من أصل وضيع فعليك أن تتجاهل وضاعته السابقة واحترمه طبقًا لما وصل إليه، لأن الثمرة لا تأتى عفواً. ولا تعيدن قط كلمات حمقاء وخرجت من غيرك فى ساعة غضب. والزم الصمت فإنه أحسن من أزهار «تِحتّف». وتكلم فقط إذا كنت تعلم بأنك ستحل المعضلات، وإن الذى يتكلم فى المجالس لفنان (يعنى فى : الكلام) وصناعة الكلام أصعب من أية حرفة أخرى. وعليك أن تقدم للأمير النصيحة التى

تساعده لأن قوتك يتوقف على مزاجه، وبطن الرجل المحبوب تملأ وظهره يكسى تبعًا لذلك. كن عميق القلب نزر الكلام... وكن ثابت الجنان طوال كلامك، فعسى أن يقول الأمير الذى يسمع كلامك : ما أصوب الكلام الذى يخرج من فمه!».

والدافع البدهى لمثل تلك النصيحة هو اتباع سياسة دنيوية مبنية على اليقظة والتفطن. ومن المدهش أنها لم تلوث بشىء يذكر من العقيدة الميكيافيلية(٧) فى مثل ذاك العهد العريق فى القدم. ومن الواضح أن ذلك السياسى المسن كان ذا نظرة خارقة فى انتهاز الفرصة المهمة لمصلحته، مع أنه فى الوقت نفسه لم يحرم حاسة الإدراك لما هو أثمن من ذلك. وعلمه بتقلبات ظروف الحياة الإنسانية قد علمه التواضع، ولذلك قال ينصح ابنه: «إذا أصبحت عظيمًا بعد أن كنت صغير القدر وصرت صاحب ثروة بعد أن كنت محتاجًا.... فلا تنسين كيف كانت حالك فى الزمن الماضى، ولا تفخر بثروتك، التى أتت إليك منحة من الإله (أى الملك)، فإنك لست بأفضل من غيرك من أقرانك الذين حل بهم ذلك». وفضلاً عن ذلك فإن حياة الموظف المدنى محفوفة بالمخاطر، ولذلك يقول : «احذر الأيام التى يمكن أن يأتى بها المستقبل». وإذًا من الحكمة أن تكون سخيًا مع غيرك بحسن نية عملاً للمستقبل؛ وفى ذلك يقول: «أشبع أصدقاءك بما جد لك بسبب نيلك الحظوة عند الإله (أى الملك) إذ لا أحد يعرف مصيره إذا فكر فى الغد، وإذا اعتور حظوته لدى الملك شىء فإن الأصدقاء هم الذين لا يفتنون يقولون: مرحبًا... فعليك أن تستبقى ودهم لوقت السخط الذى يهدد الإنسان، ولكن سترى فيما بعد: أنه حينما تسوء حالك فإن فضيلتك ستكون فوق أصدقائك».

ويجب على المرء أن يتحرى أخلاق أصدقائه: «فإذا كنت تبحث عن أخلاق من تريد مصاحبته فلا تسألنه عن شىء ولكن اقترب منه وتعامل معه، على انفراد معه، وامتحن قلبه بالمحادثة، فإذا أفشى شيئًا قد رآه أو أتى أمرا يجعلك تخجل له، فعندئذ احذر حتى من أن تجاوبه».

على أن مسئوليات الأسرة كانت فى نظره أهم من الأصدقاء؛ فتراه يقول : «إذا كنت رجلا ناجحا، وطد حياتك المنزلية، وأحب زوجتك فى البيت كما يجب».

وبعد أن ذهب هذا الكتاب إلى المطبعة أحضر إلى أحد فلاحى «الأقصر» الذين يستخرجون السماد من وسط الخرائب الأثرية بشظية من الحجر الجيرى الأبيض عثر عليها فى تلك الخرائب. فوجدت عليها كتابات يرجع عهدها إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة كتبت بالحبر، وهى بضعة أسطر اقتبسها كاتبها من نصائح «بتاح حتب» التى كان قد انقضى على وضعها إذ ذاك نحو ١٥٠٠ سنة. وكان المداد الذى كتبت به ما يزال أسود يقرأ بوضوح. وتلك الأسطر هى صورة معدلة من نصائح ذلك الوزير المسن عن الزوجة. فخيل لى أن ذلك الحكيم القديم قد دخل فجأة إلى حجرتى فى الأقصر ليزودنى بشىء أكثر مما علمت عن أفكاره، لأن إحدى الفقرات المعدلة كانت جذابة فى محتوياتها إذ جاء فيها: «إذا كنت رجلا ناجحا فأسس لنفسك بيتًا واتخذ لنفسك زوجة تكون سيدة قلبك». ولكننا نجد فى المتن القديم الذى كان أقل من ذلك شاعرية: «وأحب زوجتك كما يجب». وقد عرف «الحب الذى يجب أن يكون» بأنه حب يحمل فى ثناياه الحب العملى الذى يجب على الزوج لزوجته إذ يقول : «أشبع جوفها واستر ظهرها». ومع أنه لا يوجد حد لمتع الحياة الكمالية تقف عنده مطالب المرأة فإن ما تعزه المرأة الحديثة وتشاركها فيه أختها القديمة فوق ضفاف النيل من العطور ينحصر فى الروائح والدهان الغالية، وهى التى لم ينس ذلك الحكيم السياسى المسن أن يضمها إلى قائمة حاجات زوج ابنه إذ يقول : «إن علاج أعضائها هو الدهان».

وبذلك يرى ذلك الوزير المسن العاقل أن الزوج الكيس هو الذى يجعل زوجته سعيدة أولاً بالمحبة التى يلزمه أن يفسح لها فى قلبه الاعتبار الأول، ثم يأتى بعد ذلك بمستلزمات الجسم من غذاء وملابس، ثم بالكماليات كالعطور والدهان؛ فنراه يقول : «اجعل قلبها فرحًا ما دمت حيًا، فهى حقل مثمر لسيدها»، وهذه الملاحظة الأخيرة قد سبقت ما جاء فى القرآن المنزل على الرسول محمد ﷺ بعد مضى خمسة وثلاثين قرنا[٨].

أما عن الأبوة فقد كان فيها «لبتاح حتب» آراء حاسمة، ففى ذلك يقول : «إذا كنت رجلا ناجحا وأسست لك بيتا وأنجبت ولدا اكتسب رضا الإله (يقصد الملك)، فإذا عمل صالحا ومال إلى طبعك وسمع نصائحك وكانت خططه ذات نتائج حسنة فى بيتك، ومعتنيا بمالك كما يجب، فابحث له عن كل شىء حسن فهو ابنك الذى ولدته لك «كا» (نفسك) ولا ينفرن قلبك منه. ولكن إذا جنح إلى السوء وأعرض عن خططك (يعنى أوامرك) ولم يعمل حسب نصائحك وصارت خططه لا خير فيها وتحدى كل ما تقوله... فعدئذ أقصه عنك لأنه ليس ابنك ولم يولد لك...».

ومع أن ذلك الوزير المسن كان يقدر تمامًا قيمة النجاح الدنيوى وإحراز الثروة فإنه كان يرى من الواجب ألا تطغى على روابط الأسرة، فتراه يقول : «لا تكونن شرهًا فى القسمة، وانبذ الطمع حتى فى حقك، ولا تطمعن فى مال أقاربك فإن الالتماس اللين يجدى أكثر من القوة... وإن القليل الذى يؤخذ بالخداع يولد العداوة (حتى) عند صاحب الطبع اللين (يعنى الحليم)».

ولما كان الطمع من أكبر الصفات الدميمة الداعية لتفكيك روابط الأسرة المتماسكة، تراه يحذر من ذلك فيقول : «إذا أردت أن يكون خلقك محمودًا وأن تحرر نفسك من كل قبيح فاحذر الشراهة فإنها مرض عضال لا يرجى شفاؤه والصداقة معها مستحيلة، لأنها تجعل الصديق العذب مرًا، وتقصى ذا الثقة من سيده، وتجعل كلا الأبوين كالغرباء، وكذلك تفعل فى أخوة الأمهات، وتفصل الزوج من زوجه، فهى حزمة من أنواع الشر، وعيبة بها كل شىء مرذول، والشره لا قبر له».

وقد شفع «بتاح حتب» هذا البحث، الذى ينطق بما للروابط الخاصة بالأسرة من القيمة العظيمة فى بيت الإنسان، بوجُوب احترام أهل بيوت غيره ولو كانوا من غير ذوى قرباه، فنجده يحذر الزائر تحذيرًا شديدًا من محاولته الاقتراب من النساء، بل يحتم عليه أن يتباعد عنهن بقدر المستطاع، فيقول فى ذلك : «إذا

أردت أن تحافظ على الصداقة فى بيت تدخله سواء أكنت سيدًا أم أخا أم صاحبًا، فاحذر القرب من النساء، فإن المكان الذى يكن به ليس بالحسن، ومن الحكمة إذًا ألا تحشر نفسك معهن. ومن أجل ذلك يذهب ألف رجل إلى الهلاك بسبب متعة برهة قصيرة تضيع كالحلم ولا يجنى الإنسان من معرفتهن غير الموت».

على أنه توجد من تلك النصيحة صورة أخرى مستحدثة تصف طريق معاملة النساء بطلاوة أكثر مما سلف، هذا نصها: «وعندما يفتتن الإنسان بأعضائهن البراقة (النص الحرفى : أعضاء من الزجاج) فإنها بعد ذلك تصير مثل حجَر «هرست» أى شيئا تافهًا، والأمر لحظة وجيزة مثل الحلم والموت يأتى بعده فى النهاية». وإننا نعلم أن جريمة الزنا (الخيانة الزوجية) كانت عقوبتها الموت فى الأزمان التى تلت ذلك العصر الذى عاش فيه «بتاح حتب»، ولا يبعد أن ذلك العقاب كان متبعًا فى عهد الدولة القديمة.

ولقد كان رأى ذلك الوزير المسن فى الحظيات يمثل عصره طبعًا، فقد خصهن بفقرة قصيرة يحض فيها على معاملة الحظية بالرفق، ويضاف إلى ذلك أيضًا أن ذلك الوزير قد حض ابنه فى تلك المناسبة على ألا يحاول قط إفساد الصبية.

وتسود جميع حكم ذلك الوزير السياسى المسن روح الشفقة الكريمة، وهى تبتدئ فى نظره أولاً ببيت الرجل وأسرته التى كانت تعد رابطتها على أعظم جانب من الأهمية والمكانة، ثم تمتد إلى من توجد بينه وبينهم أى معاملة أو علاقة رسمية، يبدو لنا ذلك مما يوصى به هذا الحكيم المسن ابنه بأن يتوخى فى مسلكه المرح والابتهاج، إذ يقول له: «كن باش الوجه ما دمت حيا». ثم يستمر فى كلامه متأثرًا بروح تشعر بأنها هى أصل للمثل المشهور لدينا : «لا فائدة من النحيب على لبن مهراق».

وذلك المرح البالغ البادى من روح تلك الكلمات يتفق مع إلحاح ذلك الوزير المسن فى طلبه للراحة والترفيه.

ومن المحتمل أن بتاح حتب لا يشير فيما يأتى من كلامه إلى شىء أكثر من الحث على الاهتمام باقتناص الفرص للتمتع بألوان الطعام اللذيذة وتشنيف الأسماع بالموسيقى ومزاولة الرقص والتلهى بلعب الداما، والتلذذ بمشاهدة الحديقة الغناء والرياضة بالصيد فى المستنقعات، أو الذهاب إلى ضيعته مستريضًا محمولاً فى محفة فوق أكتاف خدمه وحوله الذين يتحببون إلى سيدهم فى أغانيهم وهم يرددونها على سمعه: «ما أسعد الذين يحملون المحفة! خير لنا أن تكونى مملوءة من أن تكونى خالية».

على أن «بتاح حتب» يحض ابنه بقوله له : اتبع لبك (أى روحك) ما دمت حيا، ولا تفعلن أكثر مما قيل لك ولا تنقص من الوقت الذى تتبع فيه قلبك، ولا تشغلن نفسك يوميا بغير ما يتطلبه بيتك، وعندما يواتيك الثراء متع نفسك لأن الثراء لا تتم (فائدته) إذا كان صاحبه معذبًا».

ولا غرابة فى أن تكون الشفقة عند رجل بمثل هذه الروح من الأمور المألوفة، ولهذا نرى ذلك الوزير المسن يقول لابنه: «إذا كنت حاكمًا فكن شفيقًا حينما تسمع كلام المتظلم، ولا تسئ إليه قبل أن يغسل بطنه ويفرغ من قول ما قد جاء من أجله... وإنها لفضيلة يزدان بها القلب أن يستمع مشفقًا».

وليس هناك من شك فى أن تكون هذه الشفقة ذات علاقة وطيدة بالمعاملة الحسنة المبنية على الحق - ولا غرابة إذًا إذا وجدنا الحق والعدالة قد اتخذا لهما مكانة فى «حكم بتاح حتب» تسامت على كل مكانة، حيث يقول : «إذا كنت حاكمًا تصدر الأوامر للشعب فابحث لنفسك عن كل سابقة حسنة حتى تستمر أوامرك ثابتة لا غبار عليها، إن الحق جميل وقيمته خالدة، ولم يتزحزح من مكانه منذ خلق لأن العقاب يحل بمن يعبث بقوانينه، وقد تذهب المصائب بالثروة، ولكن الحق لا يذهب بل يمكث ويبقى، والرجل المستقيم يقول عنه : «إنه متاع والدى قد ورثته عنه».

ومن ثم كان نصح ذلك الشاب بأنه عندما يقوم بأية مهمة يجب أن : «يتعلق بأهداب الصدق (أو الحق) ولا يتخطاه حتى ولو كان التقرير الذى يقدمه لا يسر

القلب». ولذلك كان لزاما على ذلك الشاب أيضًا أن يبلغ رئيسه الحقائق حتى ولو كانت مرة.

ولاشك فى أن هذه السبيل كانت تتطلب قوة خلق عظيمة، وهذا ما كان يرجوه ذلك الحكيم لابنه إذ يقول له: «حصل الأخلاق... واعمل على نشر العدالة وبذلك تحيا ذريتك».

وكذلك يذكر ابنه : «بأن الفضيلة التى يتحلى بها الابن لها قيمتها عند الأب، والخلق الحسن يبقى شيئا مذكورا». ويقول له أيضًا: «فإذا استمعت ووعيت ما ألقيته عليك فإن كل صنيع لك سيكون على غرار عمل الأجداد. أما انطباق هذه الأشياء على العدالة فالفضل فيه يرجع لهم (أى للأجداد) وذكراها لن تمحى من أفواه الناس لأن نصائحهم جديرة بالتقدير، وكل كلمة ستنقل ولن تمحى من هذه الأرض أبدًا، وسيكون للكلام قيمته حسبما تنطق به الأمراء.... وعندما يصيب رئيسك شهرة جديرة بالتقدير فإنها ستبقى حسنة أبد الدهر وستخلد كل مزاياها. وإن الرجل الحكيم تنعم روحه باستمرار بقاء فضله على الأرض. والرجل العاقل يعرف بعمله، وقلبه ميزان لسانه، وشفتاه تصيبان القول عندما يتكلم، وعيناه تبصران عندما ينظر، وأذناه تسمعان ما يفيد ابنه الذى يقيم العدل ويبرأ من الكذب». وربما كان ذلك الوزير المسن قد عبر عن روحه الخلقية أحسن تعبير حينما حذر من الطمع فيما سلف. وإننا نجده الآن فى صورة المنتصر الظافر إذ يقول من غير كبير مناسبة بما تقدم : «إن الرجل الذى اتخذ العدالة معيارًا له وصار وفقًا لجادتها يكون ثابت المكانة». ولا نزاع فى أننا نجد فى هذا الكلام نغمة الحكمة العبرانية كما وصلت إلينا فى كتاب «العهد القديم» وإن كانت حكمتنا هنا (يريد حكمة بتاح حتب) أقدم من حكمة العبرانيين بألفى سنة.

وقد ختم ذلك الوزير المسن نصائحه لابنه بعبارة تحبب إلى نفسه العدالة إذ يقول له فى منتهاها: «تأمل ! إن الولد النجيب الذى يهبه الإله يقوم بأداء أكثر مما يؤمر. فهو يقيم الحق وقلبه يسير على صراطه. وبقدر ما تصل إلى ما

وصلت أنا إليه سيكون جسمك سليمًا ويكون الملك مرتاحًا إليك فى كل ما يجرى، وكذلك تصل إلى السن التى وصلت إليها. وأن السنين التى عشتها على الأرض ليست بالقليلة، فقد بلغت العاشرة بعد المائة، والملك قد حبانى بمكافأة تفوق كل مكافآت الأجداد لأنى أقمت العدل للملك حتى الممات». وقد لاحظنا فيما تقدم ذكره أن أحد ألقاب الملك «وسركاف» كان لقب «مقيم العدالة»، وهذا يدل على أن حكم «بتاح حتب» المذكورة كانت ذات مكانة راجحة لدى الجهات العليا حتى فى أيام شبابه.

ويتناول أكثر من نصف حكم «بتاح حتب» أخلاق الإنسان وسلوكه. وما بقى منها يختص بشئون الإدارة وسلوك الإنسان الرسمى. ويلاحظ بوجه عام أن تلك الحكم تحث على توخى اللطف والاعتدال وتأكيد الذات الذى تصحبه الحكمة واللباقة. وكل ذلك فى الواقع ينم عما كان عليه ذلك الوزير من منتهى حسن الذوق وسلامته فى تقدير الأمور ووزنها بالميزان الصحيح، مما عنى بتوصية ذلك الشاب باتباعه والسير على نهجه. فالحياة فيها الكثير مما يجعلنا نحبها، ويجب أن يحظى فيها الإنسان بقسط وافر من الاستمتاع البرىء، وأن يحافظ على ساعات الراحة والدعة حتى لا تطغى عليها أعباء الوظيفة أو غيرها. ذلك إلى أنه يجب على المرء أيضا أن يكون دائم البشاشة والطلاقة لأنه لا فائدة من النحيب على ما فات. وبالجملة فإن النغمة التى تغلب على فلسفة نصائح ذلك الوزير المسن هى شدة اهتمامه بالأخلاق والوازع الخلقى. وأبرز واجب تنطق به سطورها هو : «ارع الحق وعامل الجميع بالعدالة».

وخليق بهذا الحكيم القديم أن يؤكد لنا مرارًا أن أعظم فضيلة دائمة يتحلى بها الإنسان فى الحياة هى العدالة والخلق العظيم، فإنهما يبقيان بعد موته ولذلك تبقى ذكراه خالدة.

على أنه ليس من باب الصدفة أن تذكر مثل هذه الحقائق المقنعة فى ملف بردى قديم يكشف لنا فى الوقت نفسه عن جو مشبع بالرحمة والمحبة يسود حياة

الأسرة ويوحى باحترام الوالدين وبرهما، والتحذير بوجه خاص من وخامة عاقبة الشره الذى تقضى على وئام الأسرة بالتفكك. فإن كل تلك العواطف وليدة عالم اجتماعى واحد ونمت وترعرعت فى بيئة واحدة، فالأسرة هى العامل الأول فى تلك العواطف، وما بقى فهو الثمرة الطبعية لتلك الروابط الأسرية. لذلك نجد فى حكم «بتاح حتب» تأكيدًا قاطعًا لما نستنبطه من نقوش المقابر، ومن الصور التى رسمت على جدرانها، من أن حياة الأسرة هى التى هيأت للإنسان فى بادئ الأمر الشعور بالمسئوليات الخلقية.

وفى ذلك العصر نفسه صارت أمثال تلك المسئوليات موضوعًا للتفكير والبحث، وفيه أيضًا بدأ التأمل الفكرى فى الطبيعة البشرية يعمل عمله، فكانت المقارنة بين الرجل العاقل والرجل الأحمق، وحصلت الموازنة بين صفتى الخير والشر، فكان ذلك فجر عالم جديد قوامه هذه القيم الجديدة. كما نشأ فى ذلك العصر الشعور بالشخصية المسئولة، وصار العالم الإنسانى ميدانًا جديدا لتطاحن المشاعر الخلقية المختلفة الغاية، فكانت تتصادم فيه قوى جديدة بأسلحة جديدة. وفى ذلك العصر الذى يعتبر أقدم العصور إدراكًا لقيمة الفرد الإنسانى الأخلاقية برزت الشخصيات الممتازة فسمت على دهماء القوم من النكرات التى غمرها جوف الماضى القديم. فاستطاع الرجل القوى أن يحدث تأثيرًا فى المجتمع بما كان يتحلى به من المزايا العقلية والصفات الخلقية البارزة.

وقد حفظت لنا آثار ذلك العصر التاريخى العظيم أسماء بعض أصحاب تلك الشخصيات الممتازة. ففى خلال القرن الثلاثين ق. م. نجد «أمحو تب» وهو وزير عظيم فى الأسرة الثالثة استبدل لأول مرة فى التاريخ بناء اللبن والخشب والغصون - وهو الذى كان سائدًا فى عصره - البناء بالأحجار الضخمة وأوجد بذلك أول عمارة بالحجر فى العالم، وصار يعد بذلك أول فرد بارز الشخصية فى التاريخ البشرى. وأما كلماته الحكيمة الغالية ومعارفه الطبية فقد صيرت اسمه ذا شهرة متداولة فى البيوت مدى آلاف السنين، ولكونه طبيبًا عظيمًا صار

موضعًا للتعظيم والإجلال واسمه ما يزال يذكر بعد اسم «اسكلبويس» الإغريقى، وهو المعروف عند الرومان باسم «اسكولابيس» Aesculapius وهو إله الطب فى كل العصور. وبالرغم من ضياع كلماته الحكيمة للآن فإن أخلافه ظلوا يقتبسونها مدة خمسة عشر قرنًا بعد وفاته.

وهنالك وزير آخر من الحكماء يدعى «كاجمنى» عاش فى القرن الثلاثين ق. م. (أى أنه كان موجودًا بعد زمن «أمحوتب» بمدة قصيرة) ويعرف أن له وصايا حكمية أيضا كان قد ألقاها على ابنه، غير أنها أيضًا لم تصل إلينا. وكذلك كان يعيش بعد «أمحوتب» بقرن واحد الحكيم «حردادف» بن الفرعون «خوفو» بانى الهرم الأكبر بالجيزة، وقد بقيت أمثاله الحكيمة على أفواه الناس بجانب أمثال «أمحوتب» أكثر من ١٥٠٠ سنة فى الأزمان الغابرة.

غير أنه لم يبق لنا من أقوال أولئك الحكماء الذين عاشوا فى عصر الأهرامات إلى يومنا هذا إلا نصائح «بتاح حتب» التى لم تكن إلا جزءًا ضئيلاً مما خلفه ذلك العصر الأول العظيم عن العقل البشرى.

ويجب أن نضع مع أصحاب تلك الشخصيات أول عالم مجهول فى العلوم الطبعية، وهو مؤلف أقدم رسالة علمية تبحث فى الجراحة، وربما يرجع عهده إلى عهد «أمحوتب» نفسه. ومؤلف تلك الرسالة الذى هو أقدم عالم طبعى عرف لنا للآن، يعد أول إنسان ميز بين القوى الطبعية والقوى الإلهية، إذ ذكر فى بيانه عندما كان يفحص إصابة فى رأس إنسان أن أصلها يرجع إلى سبب خارجى، وعبر عنها بألفاظه التى كتبها فقال : «إنها شىء طرأ من الخارج» أى أن الحادث جاء من الخارج. ولكن بالرغم من الاعتراف بأن الإصابة قد نتجت من سبب طبعى خارجى فإنها اعتبرت فى الوقت نفسه إصابة تحتمل فى ثناياها «سر حسن الحظ» أو «سوء الحظ». وقد عبر الجراح العتيق عن ذلك بقوله: «يعنى نفس إله خارجى أو الموت، لا من حدوث شىء قد تولد من لحم المريض». وقد ميز هنا بين مجال الأسباب الطبعية فى نظام جسم الإنسان الداخلى، وبين دائرة

«حسن الحظ» أو «سوء الحظ» الأمر الذى كانت تسيطر عليه الآلهة. وهذه الملاحظة العويصة هى على ما أعلم أول شىء من نوعه عثرنا عليه فى مخلفات التفكير الإنسانى الذى بقى للآن[٩]. كذلك بدأ فى ذلك العهد التعبير عن قوة الشخصية والقوى التى نعبر عنها بقوى الأخلاق، لا فى المؤلفات المدونة التى وضعها رجال الفكر والتأمل مثل «بتاح حتب» فقط، بل صارت كذلك تلمس بوضوح فى منتجات الفن فى ذلك العصر وبخاصة فى إنتاج أعظم المثالين العباقرة الذين أنتجوا أقدم تماثيل وصلت إلينا للآن. فكان قد نتج عن اتباع الخطة الثابتة المتفق عليها فى فن النحت لمدة طويلة أن استجد طراز فى نحت تماثيل الأشخاص فى الدولة القديمة يكاد ينقصه أو ينقصه كلية إبراز الصفات المميزة لشخصية صاحب التمثال، ومن الجائز أن مثالى ذلك العصر كانوا يظهرون لنا فى التماثيل التى نحتوها أقدم المعايير للصور البشرية ليكشفوا لنا عن وحدة الأشكال الناتجة من التأثيرات التى أوجدها ذلك النظام الخلقى الطويل المدى الذى محا ما كان بين طبقات المجتمع من الفوارق. على أن هذه الظاهرة لذلك النوع من النحت قد بالغ فى تأكيدها النقاد الأحداث، يدل على ذلك أن أعظم ما أخرجه نحاتو عصر الدولة القديمة يظهر لنا أنهم كانوا قد بدأوا يبرزون قوة الشخصية الممتازة واستقلالها حينما أخذت تبرز لنا لأول مرة فى شخص الفرعون المهيب. يظهر لنا ذلك بوضوح مؤثر فى صور ذلك العصر المعبرة التى فى مقدمتها تمثال «خفرع» بانى الهرم الثانى بالجيزة، مما كان له بلا شك تأثير عميق فى التصورات الخاصة بالإلهية. ويضاف إلى ذلك مجموعة كبيرة من الصور تنقل إلى مخيلتنا تأثيرات مهمة عن شخصيات تلك الطائفة من عظماء الرجال الذين كانوا يحيطون بالفرعون فى عصر الأهرامات، من رجال السياسة والحكماء والفنانين ورجال العمارة والمهندسين، وهم الذين جعلوا من مصر منذ خمسة آلاف سنة مضت بلداً يضم عجائب المبانى التى ما تزال إلى يومنا هذا تعد من عجائب الدنيا، فى حين أن مبانى غرب آسيا أقيم معظمها من الطوب طوال العصر الذى سبق بناء القصور الإمبراطورية فى فارس وقد محيت

الآن عن آخرها. وهذه الموازنة لا تخلو من الأهمية وتؤيد الاعتقاد بأن مصر كانت البلد الذى ولد فيه أول عصور الشخصيات العظيمة.

على أن ظهور أولئك الرجال ذوى الشخصيات العظيمة لم يكن وليد الساعة بل كان ثمرة التجارب والحياة النظامية مدى ألف سنة من تاريخ البشر. فكانوا أول رجال أمكنهم الرجوع بالبصر ليجيلوا أنظارهم فى ذلك الماضى حيث يشرفون على مشهد عميق من حياة الإنسان الأولى. ولابد أنهم كانوا أثناء قيامهم بذلك يتلمسون فى الظلام أحسن تعبير يعبرون به عن آرائهم نحو نظام بنى البشر، على أن يكون ذلك التعبير متضمنًا سر تلك الأعمال العظيمة التى ورثوها عن أسلافهم السابقين.

وقد انتهى بهم الأمر فعثروا على بغيتهم التى نشدوها فى التعبير عن ذلك بكلمة واحدة جامعة حوت فى ثناياها كل معانى السمو والرفعة فى الحياة البشرية، تلك الكلمة هى «ماعت»، التى تعد من أقدم التعابير المعنوية ذات المعانى المتعددة التى وصلت إلينا من كلام بنى الإنسان منذ الأزمان الغابرة، وهى التى سبق لنا التعبير عنها هنا بالكلمات الآتية: «الحق» و«العدل» و«الصدق»، وذلك لأن تلك المعانى كلها قد انتهى الأمر بأن مثلت فى لغة المصريين الأقدمين بهذه الكلمة الواحدة «ماعت»، وتلك الكلمة كانت تستعمل عند أجدادهم فى أول الأمر لأداء معنى واحد فقط هو «الحق» بمعنى «الصواب»، كما نستعمل نحن كلمة «صواب» هذه فى العلوم الرياضية والأخلاقية معًا.

ثم إنه فى بداية عصر الدولة القديمة أخذ معنى كلمة «ماعت» هذه يتسع تدريجًا حتى صار يشمل معنى واسعًا عظيمًا، فلم تكن تعنى نقيض الباطل فقط بل تعنى نقيض الأخطاء الخلقية على وجه عام أيضا. على أننا لا نعلم متى بدأ هذا التطور فى معنى تلك الكلمة، غير أن الذى يجدر بنا ملاحظته هنا أن كلمة «ماعت» هذه لم ترد فى الجزء الذى عثرنا عليه من المسرحية المنفية، وإن كان من الجائز أن عدم ذكرها فى هذا الجزء راجع إلى مجرد المصادفة المحضة.

وبعد سنة ٢٠٠٠ ق. م. بدأ عظماء رجال الدولة القديمة يجدون فى معانى كلمة «ماعت» ما يعبر عن الأمور التى جاءت وليدة التجارب القومية والتى كان لها أثرها فى الحياة العامة للأمة. فمع أن تلك الكلمة العظيمة لم تفقد شيئًا من دلالتها على صفات الإنسان الخلقية الشخصية، فإنها صارت تعبر أيضًا فى نظر عقول رجال الفكر فى الدولة القديمة عن معنى النظام القومى أى النظام الخلقى للأمة والكينونة القومية التى تسير تحت سلطان إله الشمس.

ولنعد بذاكرتنا الآن قليلا إلى ذلك الماضى الذى أمكن حكماء الدولة القديمة أن يرجعوا البصر للتأمل فيه، ذلك الماضى المتسع المدى الذى كان فى أنظارهم سببًا لاتساع معنى كلمة «ماعت» أيضًا حتى ألبسها كل تلك المعانى الآنفة. فقد كان لدى أولئك الحكماء قوائم بأعمال الملوك الأوائل الذين حكموا البلاد المصرية قديمًا قبل العهد الذى تأسس فيه الاتحاد الأول، فكانوا على علم بأن ذلك الاتحاد قد مهد له حكم الدويلات المحلية الصغيرة، وأنه بما تم فيه من توطيد أركان النظام فى مصر قد أفضى مرة ثانية إلى قيام الاتحاد الثانى الذى دام عهده ألف سنة، أى من قرابة القرن الخامس والثلاثين إلى حوالى القرن الخامس والعشرين ق. م..

ومن المهم جدًا أن نلاحظ أن هذه هى أول مرة فى تاريخ البشر نجد فيها ألفًا كاملاً من السنين المتصلة الحلقات دون أن يمس فيها اتصال لدائرة القومية أو بعبارة أخرى اتصال التطور البشرى فى هيئة قومية موحدة. فقد كان تطورًا ثابتًا قامت فيه أمة يبلغ تعدادها بضعة ملايين من النسمات البشرية لأول مرة فوق الكرة الأرضية بتأسيس بناء ضخم من الحياة البشرية المنظمة دام مدة ألف سنة متوالية لا انفصام لها.

وقد كان التأثير البالغ الذى استولى على نفوس أولئك الحكماء من تأملهم فى حالة تلك الحكومة الراسخة الأركان ونظامها الدقيق الذى كان يسير بدون انقطاع طوال مدة ذلك العصر هى التى جعلت كلمة «ماعت» المصرية القديمة

تتسع وتزيد زيادة محسوسة فتحمل من المعانى أكثر مما كانت تحمل من قبل، حتى صارت فى نهاية الأمر لا تدل فقط على معنى «العدل» أو«الصدق» أو «الحق»، مما كان يتصور رجال عصر الأهرام أنه شىء يترسمه ويسير بمقتضاه الفرد الإنسانى، بل صارت أيضًا تدل على معنى الحقيقة الواقعة التى تسود الناحية الاجتماعية والحكومية، بل أصبحت تلك الكلمة تعبر عن النظام الخلقى للعالم، وصار هذا النظام وحكومة الفرعون يدلان على معنى واحد. وقد كان كبير القضاة فى المحاكم المصرية القديمة يحلى صدره بصورة من اللازورد رمزًا للإلهة «ماعت». وكان من عادة القاضى أن يشير إلى المحق من المتخاصمين الواقفين أمامه بتوجيه ذلك الرمز إليه.

وكان الحكيم «بتاح حتب» يفخر بسيادة «ماعت» وخلودها فيقول : «إن ماعت عظيمة وتصرفها باقٍ فلم تخذل منذ زمن بارئها».

وكثيرًا ما نجد على الآثار القديمة أن ماعت هى الشىء الذى يعتبره الفرعون شخصًا يشد أزره أمام الفوضى والظلم والخداع الذى كان يقع ضده من مناهضيه للاستيلاء على العرش، ممن كانوا يبتلون الشعب بما يحدثونه من سوء النظام. ولقد كانت ألف السنة التى قضتها الحكومة المنظمة بتلك الكيفية هى التى وضعت أمام أعين حكماء الدولة القديمة تلك الصورة الجليلة التى تمثل الأثر الفعال والإحسان البالغ اللذين أسدتهما «ماعت»، مما أسبغ عليها معنى تاريخيًا لم يكن من الممكن اكتسابه بطريقة أخرى.

ومن الواضح أن المجتمع والحكومة معًا، وكذلك التأثيرات الاجتماعية والحكومية معًا، قد أدت جميعها إلى ذلك النظام الذى قام بتلخيصه الحكماء المصريون القدماء فى كلمة جامعة واحدة هى «ماعت».

فإن «ماعت» قد نشأت فى أول أمرها بمثابة أمر شخصى خاص بالفرد للدلالة على الخلق العظيم فى الأسرة أو فى البيئة التى تحيط بالإنسان مباشرة، ثم انتقلت بالتدريج فى سيرها إلى ميدان أوسع فصارت تمثل الروح والنظام

للإرشاد القومى والإشراف على شئون البشر بحيث تكون الإدارة المنظمة مفعمة بالاقتناع الخلقى.

وبتلك الكيفية وجدت لأول مرة بيئة ذات قيم عالمية، وحينما بدأ المصريون يتصورون الحاكم الإلهى لهذه البيئة كانوا فى الحقيقة يسيرون فى الطريق المؤدى إلى عقيدة التوحيد السامية. وكان ذلك الحاكم الإلهى هو إله الشمس، وقد تخيل القوم روح حكمه فى شكل شائق بأن تصوروا «ماعت» فى هيئة إلهة وجعلوها بنت الشمس. وبالسير فى هذه السبيل وصل المصريون فى النهاية، كما سيأتى، إلى عقيدة التوحيد الرفيعة، فلم يكن من مجرد الصدفة أن بلغوها قبل أن تهتدى إليها أية أمة أخرى بزمن طويل. وكذلك لم يكن من باب المصادفة أن كان ثانى الشعوب اهتداء إلى عقيدة التوحيد المذكورة أقرب جيران مصر عبر حدود أسيا فى فلسطين، وقد قال أحد أنبيائهم : «إليكم يا من تخافون اسمى ستشرق شمس العدالة تحمل الشفاء فى جناحيها[١٠]. (ملاخى ٤ - ٢). ويشير هذا التعبير بداهة إلى إله الشمس المصرى القديم الذى يرسم عادة بصورة قرص الشمس المجنح.

وبذلك يتضح لنا على الفور عندما ننظر إلى الأمام متجهين نحو آسيا، لماذا أتت حضارة غربى آسيا متأخرة فى مثل هذا التطور؟

فالتصور المصرى للنظام الإدارى والخلقى العظيم، الذى أطلق عليه اسم «ماعت» والذى صار أسمى مظهر للحضارة الشرقية القديمة، كان كما رأينا نتيجة للتطور الاجتماعى الحكومى مدة ألف سنة من حياة أمة عظيمة موحدة ثابتة منظمة كانت تخطو دائمًا فى خلالها نحو الارتقاء والتقدم. فى حين أن فكرة ذلك النظام الإدارى والخلقى، بالرغم من تمثيله إلى حد ما فى الصورة الجميلة التى ظهر بها الملك العادل بعد ذلك العهد بألفى سنة على يد الأنبياء العبرانيين، فإنه لم يظهر بشكل واضح فى غربى آسيا إلى أن جاء «زروستر» يحمل نظامه الخلقى العظيم، وذلك بعد أن علت كلمة بلاد فارس فى عهد

«قورش» وخلفائه. وفى تاريخ غربى آسيا ما ينبئنا بوضوح عن سر استحالة ظهور هذا التطور فيه قبل ذلك العهد، إذ نجد فى مصر التى كانت تعرج فى مراقى التقدم فى عهد الاتحاد الثانى وعصر الدولة القديمة، حضارة كانت ثمرة عهد لا يقل عن ألف سنة من التجارب الاجتماعية يقودها نظام قومى ذو أسس ثابتة نشطة، فيها من القوة الحيوية ما مكنها من الدوام أكثر من ألف السنة التى مكثتها، فى حين أن بابل التى كانت تعتبر أشهر ممالك غربى آسيا وقتئذ قد استمرت خلال ألف السنة هذه ترزح تحت عبء الفوضى من جراء الحروب الصغيرة التى كانت فى معظم ذلك الوقت تشتعل نيرانها بين دويلات المدن التى كانت تتألف منها وقتئذ.

أما فى مصر فإنها كانت حتى قبل بداية هذه الألف من السنين قد انتهت من الشحناء التى كانت قائمة بين دويلات مقاطعاتها بزمن طويل. حقًا إن الحضارة المادية كانت متساوية فى أعمارها فى كل من غربى أسيا ومصر، ولكن الحضارة فى أوسع نواحيها ليست إلا نتيجة لتطور اجتماعى طويل. ومن ثم نجد أن البراهين التى يتمسك بها الأثريون للاستدلال على أن المدنية البابلية (التى لم يكن لديها الفرصة الكافية للنمو والتطور الاجتماعى المطرد) كانت أقدم من المدنية المصرية، بحجة ما عثر عليه من البرت النحاسية وصناعة صياغة الذهب، ليست إلا براهين سطحية لا تستحق النقد والتفنيد. ولا جدال فى أن التقدم السياسى والاجتماعى وتطور الحضارة البشرية على وجه عام، كان ظهورها كلها فى وادى النيل متقدمًا بعدة قرون على أمثاله فى غربى آسيا. والحقيقة أن الحضارة فى «بابل» أتت متأخرة فى تطورها الدينى والاجتماعى والسياسى عن حضارة مصر بما لا يقل عن ألف سنة.

وتلك الحقيقة لها أهميتها إذ تعدنا لفهم الأهمية الفريدة لمدة ألف السنة العظيمة التى تطورت فيها الحضارة فى مصر ذلك التطور الخطير. فعلى ضفاف النيل بالذات نرى طليعة التقدم البشرى أى بوادر شعور الإنسان لأول مرة بكنه

الفتح الذى بدأه، وبعد أن جنى ثمرة التجارب القومية التى استمرت ألف سنة أخذ يعد نفسه لخوض معركة الشئون الاجتماعية التى كانت تتهيأ لمهاجمته من الداخل. فقد ظفر هو فيها فى تلك المدة بأعظم الانتصارات الباهرة على أعدائه الخارجين، فى عالم القوى المادية. ولكنه الآن أمام الوازع الداخلى الذى صار هو الآخر بدوره يطلب منازلته لدخول ميدان جديد أسمى من ميدان المادة، بعد أن كان ذلك الميدان السامى لا يعرف عنه المصرى القديم شيئًا إلا القليل.

وتوجد عندنا الأدلة القاطعة على أن أقدم المبادىء الخلقية عند قدماء المصريين أخذت دورها فى النمو وهى مقرونة بإله الشمس لا بالإله «أوزير»، لأن نصائح «بتاح حتب» تقول بجلاء إن إله الشمس هو خالقها (أى خالق العدالة). نجد ذلك واضحًا فى فقرة من وثيقة يرجع عهدها إلى الدولة الوسطى حيث حشر أتباع «أوزير» فيها اسمه حشرا. وهذا دليل مهم على اشتعال نار الحرب الدينية التى كان يزكيها أتباع «أوزير» فى ذلك العصر، ومما يؤسف له فى هذا الصدد أن أول إله تخيله المصريون قاضيًا خلقيًا فى عالم الحياة الآخرة لم يذكر اسمه بالنص وإنما وصف بأنه «الإله العظيم» فقط من غير أن يذكر له اسم. وقد وردت هذه الصفة بتوسع فى فقرة واحدة بالعبارة التالية : «الإله العظيم رب السماء»، ولذلك لا يكاد يوجد مجال لأن يكون المقصود من هذه العبارة أى إله آخر غير إله الشمس بأنه «رب المحاسبة فى الآخرة». ولا نزاع فى أن هذا الإله هو الذى يقصده «إنتى» أحد أشراف «دشاشة» فى قوله : «أما من جهة كل الناس الذين سيعملون السوء ضد هذا (يريد القبر) والذين يعملون أى شىء يسبب خراب هذا القبر والذين يتلفون الكتابة التى فيه، فإنهم سيحاسبون على ذلك أمام الإله العظيم رب الحساب فى المكان الذى تحاكم فيه الناس».

أما التطور السريع الذى ظهر فيما بعد فى النصائح الخلقية فى مذهب «أوزير» وكذلك استيلاء «أوزير» على مكانة القاضى فى المحاكمة الأخروية فلم يكن قد ظهر بعد فى متون الأهرام، لأن التطور الذى جعل تلك العناصر تظهر

بوضوح فى عهد الدولة الوسطى كان قد بدأ فى ذلك العصر المظلم الذى جاء إثر انتهاء عصر الأهرام. وعلى ذلك يكون إله الشمس - خلافًا للرأى السائد - هو أقدم الحامين للخلق الفاضل وأول من سمى بالقاضى العظيم فى عالم الحياة الآخرة.

وأما «أوزير» فإنه ظهر بعد ذلك العهد بألف سنة قاضيًا خلقيًا عظيمًا فى الحياة الآخرة، على إثر اعتباره المدعى المنتصر فى محاكمة عين شمس وحامى الأموات الذى تغلب على كل أعدائه. على أن اغتصاب «أوزير» لهذه المكانة يعد دليلا آخر على التطور الذى لم يكن فى الإمكان مقاومته فى صبغ الديانة المصرية القديمة بالصبغة الأوزيرية. وإلى هذه الأحداث التى جاءت متأخرة والتى استقى منها العلماء الأحداث آراءهم، يرجع السبب فى النتيجة الشائعة القائلة بسيادة «أوزير» الخلقية من عهد بعيد. وعلى أية حال فإن أقدمية المذهب الشمسى واضحة تمامًا فى هذا الموضوع كما هى واضحة فى تفاصيل أخرى.

على أن هذه المطامح الخلقية المبكرة كانت لها حدودها، إذ لا ننسى أننا نتناول البحث فى عصر مضى عليه الآن ما بين ٥٥، ٤٥ قرنًا من الزمان. وقد رأينا أن أهم الانتصارات التى قام بها الإنسان فى ذلك العصر القديم كانت فى منازلة القوى المادية، وقد خرج منها خروج الظافر الغالب، فى حين أن الإنسان القديم وهو فى وسط طائفة من الارتباكات ذات المؤثرات المضللة قد أخذ يرى قبسًا صغيرًا من القيم الجديدة التى تسمو فوق الأعمال المادية المجردة.

ولا نزاع فى أن سيطرة «ماعت» بقيت فى جملتها المثل السامى فى نظر الحكماء، ولكن الفساد فى الجهات الرسمية جعلت تحقيقه أمرًا مستحيلاً. شأنه فى ذلك شأن الفساد الذى لا يزال للآن العقبة القائمة فى وجه العدالة عند الحكومات الشرقية إلى أيامنا هذه(١١).

فيجب ألا نتخيل إذًا أن الواجبات التى كان يفرضها ذلك التصور الخلقى كانت شاملة عامة، أو أنه كان فى مقدوره أن يشمل كل ما ندركه نحن فى معناه من

الصفات. فمثلا نجد أن مستلزمات القاضى العظيم فى عالم الآخرة كانت لا تتناقض مع أفظع الملاذ الشهوانية، إذ لم تكن تلك اللذات الشهوانية المباحة فى عالم الآخرة مقصورة على ما صورته لنا متون الأهرام بل نص على الطرق الفعلية التى يحصل بها إشباع تلك الشهوات؛ ولذلك كان يؤكد للملك المتوفى حيازته على اللذة البهيمية فى أشنع معانيها. من ذلك ما جاء فى بعض النقوش من : «أنه هو الرجل الذى يغتصب النساء من أزواجهن من أين شاء وحينما يشتهى قلبه».

ومهما يكن من أمر فإن نشأة الاعتقاد بأن النعيم فى جميع صوره يتوقف على ما للإنسان من الصفات الخلقية فى الحياة الدنيا، تعد من الخطوات الخطيرة، ولابد أن يكون الشعور القوى بالوازع الخلقى هو الذى جعل الفرعون نفسه، المقدس المعتبر فوق كل قانون أرضى، معرضًا للحضور أمام ذلك القاضى السماوى، ومكلفًا بأن يتزود لذلك بالزاد الخلقى. وهذه الخطوة لا يمكن الوصول إليها طفرة واحدة. ومن الممكن أن نرى حتى فى مدة القرن ونصف القرن التى شغلتها عصر متون الأهرام بعض أثر التقدم فى الشعور الخلقى وهو يشمل بأحكامه الشديدة حتى الملك نفسه. فنجد مثلاً فى فقرة من متون الأهرام البيان التالى عن الملك: «إن هذا الملك «بيبى» برىء». وقد حدث أن تلك الفقرة التى وردت بها هذه العبارة قد وجدت بصورة مختلفة فى نقوش هرمى «وناس» و«تيتى»، وكانا ملكين حكما قبل «بيبى». ففى كل من النصين المعدلين لا نجد ذكرًا لعبارة البراءة. وينتج من ذلك أنه بعد مضى مدة تتراوح بين الستين والثمانين سنة رأى كاتبو تلك المتون أن إضافتها من الصواب فأضافوها.

على أنه ليس من السهل أن يقرأ الإنسان تقدم شعب ما ورقيه الروحى والعقلى فى آثار هى قبل كل شىء مادية كما لو كان يقرؤها فى الوثائق الأدبية. إذ من السهل أن يضل الإنسان ويخطئ فى ترجمة تلك الإشارات الضئيلة التى تمدنا بها تلك الآثار المادية المحضة. والواقع أن هذه الآثار تخفى وراءها طائفة من

القوى الإنسانية والتفكير البشرى لايمكننا الاهتداء إلى معظمها. ومع ذلك فإنه يكاد يكون مستحيلاً على الإنسان أن يتأمل مقابر ملوك الأسرة الرابعة الهائلة المعروفة بأهرام الجيزة ثم يوازنها بالمقابر الملكية الصغيرة التى أقامها ملوك الأسرتين التاليتين بعدها دون أن يرى وراء هذا التغيير المفاجئ والمدهش معا أسبابًا فوق الأسباب السياسية المحضة، فأهرام الجيزة العظيمة، كما قلنا من قبل، تمثل حرب القوى المادية الهائلة بغية الوصول بالعوامل المادية المحضة إلى تخليد جثمان الملك المادى بإحاطته بغطاء هائل من المبانى ليس فى الإمكان اختراقه حتى يحفظ فيه إلى الأبد مع كل ما كان يربط روح الملك بالحياة المادية قبل الموت. ومع أن أهرامات الجيزة العظيمة تدل بعظمتها على أنها أكبر شاهد باقٍ ينطق بظهور أقدم إنسان منظم، وبانتصار الجهود المتضافرة، فإنها فى الوقت نفسه برهان صامت يعبر تعبيرًا فصيحًا عن محاولة الإنسان الحصول على نعيم مقيم خالد بالقوة المادية المحضة.

ولم يكن من الممكن لمثل ذلك النضال الهائل ضد قوى التحلل والفناء أن يستمر فى طريقه إلى غير نهاية، وذلك لأسباب طبعية محضة انضمت إليها اتجاهات سياسية أيضًا. ولكن مع كل هذه الأسباب مجتمعة فإن مجرد إدخال متون الأهرام فى المقابر الملكية خلال القرن ونصف القرن الأخير من عصر الأهرام كان على وجه التقريب فى حد ذاته تخليًا عن ذلك الصراع الهائل المعتمد على القوى المادية والتجاء ظاهرا إلى عوامل أخرى أقل ظهورًا من ذلك. كما أن الاعتراف بالحساب فى الآخرة وبحاجة الإنسان إلى قيم خلقية يتصف بها فى الحياة الآخرة يعد فى الواقع أعظم من ذلك أهمية فى نفس هذا الاتجاه. فهذه الخطوة تعلم لنا التحول من الارتكان على العوامل الظاهرية الخارجة عن شخصية المتوفى إلى الاعتماد على القيم النفسية الباطنة. وبذلك بزغ فجر عقيدة خلود الروح لأول مرة على عقول البشر، باعتبار الأبدية أمرًا يحصل عليه الإنسان بالروح لا بالجثمان.

وقد كان ذلك فاتحة عهد انتقال من المزايا المادية الظاهرة إلى الصفات الروحية الباطنة؛ ولذلك كان أيضًا خطوة من الخطوات المهمة التى كنا نترقبها فى ذلك المنهج الطويل، وهى ابتداء ظهور الشخصية المستقلة بعد أن كان كل شىء ينسب إلى جملة الشعب، أى أن فجر ظهور كفاية الشخصيات الفردية وتفوقها قد طلع على عقول أولئك الناس الذين عاشوا فى ذلك العالم القديم. وصارت مثلهم العليا تنتمى إلى أخلاق أكبر الآلهة عندهم، كما اعتبر ملك ذلك الإله عالمًا خلقيًا عظيمًا يتولى الملك فى الأرض إدارته وتدبير أموره نائبًا عن الإله لفائدة الأمة المصرية.

بذلك الفوز السامى القويم تم هذا التطور الذى أحرزه عصر ألف السنة التى بدأت مع بداية الاتحاد الثانى وانتهت بعد حلول سنة ٢٥٠٠ ق. م. بقليل.

هوامش الفصل التاسع:

(١) كانت أول محاولة لجمعها معًا فى عام ١٩١٢ فى كتاب المؤلف Development of Religion & Thought in Ancient Egypt, P. 166. غير أنه فى هذا البحث لم يكن تاريخ حكم «بتاح حتب» التى ترجع بالتحقيق إلى عهد الدولة القديمة، قد عرف بعد

(٢) وذلك أن «ست» اقتلع عين «حور» من محجرها. وأما «حور» فقد سلت خصيتى «ست».

(٣) إن معهد جامعة شيكاجو الشرقى يقوم الآن بنفقات بعثة للرسم أرسلها إلى هذه الجبانة العظيمة تحت إشراف الأستاذ «برنتيس دول» Prentice Duell للقيام بعمل أول نسخ كاملة من نقوش الدولة القديمة هذه. وهذه الرسوم تعمل بالرسم التخطيطى وبالألوان وتطبع فى مجموعات من الألواح بالقطع الكبير. وقد ساعد على إمكان تنفيذ هذا المشروع ما قدمه «جون ركفلر» من المساعدة المادية الكريمة.

(4) W. Mac Dougall, An Introduction to Social Psychology, P. 74 (Rev fd Boston - 1926.)

(5) E. Westeronark, Origin & Development of Moral Ideas, Vol. 1, P. 531. London.

(6) T. H. Green, Prolegomena to Ethics, P. 387, 5th. Ed., Oxford University Press. 1912.

(٧) وهى القائلة: فرق تسد، والغاية تبرر الواسطة.

(٨) وهو قوله تعالى : ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ (سورة البقرة آية ٢٢٢) وقد أشار المؤلف فقط إلى هذه الآية ولم يذكرها فأوردناها هنا للفائدة.

(9) See The Author's Edwin Smith Surgical Papyrus, Voll, P.P. 212 - 214. (2 Vols. Chicago, 1930).

(١٠) وتشرق لكم أيُّها المتقون لاسمى شمس البر والشفاء فى أجنحتها.

(١١) يشير هذا إلى أن المؤلف متأثر بتعصب الغربيين فى آرائهم عن شعوب الشرق.

الفصل العاشر

انهيار المذهب المادي وأقدم عهد للتخلص من الأوهام

تعد أهرام الجيزة دليلاً قويًا على السيطرة والثروة اللتين كانتا متجمعتين فى أيدى فراعنة الأسرة الرابعة، وبقاء تلك المبانى الرائعة مدة تقرب من خمسة آلاف سنة يعتبر دليلاً آخر يعزز ذلك، إذ أن الفرعون الذى كان فى مقدوره أن يجمع كل ثروة رعاياه ومجهودهم وهم عدة ملايين لإقامة ضريح يبلغ ارتفاعه ٤٨١ قدما، ومساحته لا تزال تشغل نحو ١٣ فدانًا من المبانى الصلبة، لابد أنه كان قد جمع فى يده زمام حكومة قوية مركزة. ولاشك أنه كان يستعمل تلك السلطة دون أن يكترث كثيرًا بالآلام التى كانت تعانيها الإنسانية من تسخيره إياها فى تلك الأعمال الشاقة. ونحن نعلم الآن أن كبار الموظفين الذين كانوا يديرون دفة تلك الإدارة العظيمة قد أثروا منها تدريجًا، وبخاصة من الأراضى التى كان الملك يهبها إياهم، وبذلك أسسوا لأنفسهم ضياعًا عظيمة حتى صاروا يعيشون كما يعيش حكام الإقطاعيات فى مقاطعاتهم، وبعد انقضاء بضعة قرون وصل أولئك الموظفون إلى درجة عظيمة من الاستقلال. أى أن حكومة البلاد التى كانت مركزة فى يد الملك والتى تنطق بها ضخامة المقابر الملكية الشاسعة الأرجاء بالجيزة أخذت تنحدر نحو اللامركزية التامة، ولم يأت عام ٢٥٠٠ ق. م. حتى صارت الدولة المصرية القديمة مؤلفة من مجموعة من الإقطاعات المفككة الأوصال مهددة بفقد كل رابطة بينها، تكاد تقضى عليها عوامل التمزيق

والتفريق. وبذلك نرى أنه فى فترة تقدر بأقل من ألفى سنة قامت أولى المدنيات بدورة التطور كاملة، من توحيد كلمة رؤساء المقاطعات المحليين فى عصر ما قبل التاريخ إلى تأليف حكومة متحدة من تلك المقاطعات جميعًا عن طريق أقصى درجات تركيز السلطة، ثم عادت ثانية إلى اللامركزية بخطى متوالية إلى أن رجعت سيرتها الأولى، حيث صارت مكونة من مقاطعات محلية مستقلة. فكانت هذه أول دورة فى تجارب البشرية. وقد رأينا أنها تركت أثرًا بالغًا عميقًا فى عقول رجال الفكر، إذ صار فى مقدورهم لأول مرة عند نهاية الدولة القديمة أن يرجعوا بأبصارهم إلى ذلك الماضى القديم والتأمل فى ذلك المنهج الطويل من تطور النظام البشرى. وقد تبين لهم كيف أن أخلافهم، بتأثير سير هذا الموكب العظيم الممثل لأقدم حياة بشرية منظمة فى التاريخ، قد نقلوا تدريجًا آلهة الطبيعة القدامى إلى مملكة الشئون الاجتماعية، وسترى الآن تأثير التجارب الاجتماعية النامى على أفكار هؤلاء الحكماء بشأن الإنسان والسلوك البشرى وعن الإله.

والأرجح أنه بعد سنة ٢٥٠٠ ق. م. بقليل انهارت حكومة الدولة القديمة أى الاتحاد الثانى ومزقت أوصال البلاد شر ممزق. وخلال أوقات الشجار الذى كان قائمًا بين الأشراف المحليين على أثر ذلك الانهيار ظهر عميد أسرة من حكام الإقطاعات كان يقطن «أهناسية المدينة» الواقعة على مسافة ٢٥ فرسخًا جنوبى «منف» واستولى على السلطة التى كانت لملوك «منف» مدة طويلة وأقام نفسه فرعونا على البلاد، غير أن هذه الأسرة الإهناسية التى كانت ضعيفة فى سياستها لم تترك لنا عنها إلا شيئا ضئيلاً من آثارها يحدثنا عن أخبار ذلك العصر، فقد انفصل عنها النصف الجنوبى من الوجه القبلى ونال استقلاله، كما أن المناوشات كانت قائمة أحيانًا ضدها على الحدود فى مصر الوسطى. ومع أن التأثير العظيم الذى نتج عن هذا الانهيار التام فى حكم الاتحاد الثانى بعد أن عمر ألف سنة لم يظهر فى أول الأمر ظهورًا تامًا فإنه كان فى ذلك مثله كمثل سقوط «رومة» إذ ترك أثرًا قويًا على عقول القوم الذين شاهدوه، فقد أقلع رجال

الفكر عن التفكير فى الأبهة الظاهرة الكاذبة وتحولوا إلى التأمل العميق فى القيم الباطنة. ولابد أن الحياة المتحضرة فى أمهات مدن الدولة القديمة مثل «منف» و«عين شمس»، وهى التى كانت مركزًا للقوة والثقافات، كانت لاتزال باقية فيها على ما هى عليه. هذا فضلاً عما فى «أهناسية» نفسها، فإننا نعلم على الأقل أن أحد ملوكها كان حكيما ذا عقل مفكر راجح. ومما يؤسف عليه أن اسم ذلك الملك مجهول لنا للآن، ولكنه لما قارب حكمه النهاية كتب رسالة فى سلوك الملك ليعلم بها ابنه «مريكارع»، وقد سميت هذه الرسالة «تعليم موجه إلى «مريكارع»».

وتلك الوثيقة المهمة مدونة على بردية محفوظة الآن بمتحف «لنينجراد» وهى تحمل بين سطورها أدلة قاطعة تثبت أنها كتبت فى العصر الذى تنسب إليه، ويمكن أن نعتبرها صوتًا حقيقيًا لملك «أهناسية» المسن الذى كان يرجع بنظره إلى الوراء للاستفادة من ماضى تلك الدولة القديمة، وذلك لعظيم احترامه للحكمة التى تمخضت عنها تلك الأزمان. إذ نرى ذلك السياسى المحنك يتحدث عن الرجل الحكيم فيقول : «إن الحق (يعنى «ماعت») يأتى إليه مختمرًا حسبما كان عليه الأجداد، فعليك إذًا أن تقتدى بآبائك وأسلافك.. تأمل، لأن كلماتهم مدونة فى المخطوطات فافتحها لتقرأها واقتد بمعرفتهم، وبتلك الكيفية يصير صاحب الصناعة على علم بها». ونحن من جانبنا يمكننا أن نلحظ فى تلك الكلمات تأثير نصائح «بتاح حتب» الذى عرف فى نصائحه الكلام بأنه «صناعة» وعرف المتكلم الماهر بأنه «محترف»، ولابد أنه كان بين تلك المخطوطات ملف البردى الذى يحتوى على نصائح «بتاح حتب» والذى كان الملك الإهناسى يأمر ابنه بفتحه وقراءته حتى يمكنه التبصر فيما يحويه من الحكم التى مضى عليها وقتذاك نحو ٤٠٠ سنة. ويقول ذلك الملك المسن : «كن ممن يحسنون صناعة الكلام لتكون قوى البأس لأن قوة الإنسان هى اللسان، والكلام أعظم بأسًا من كل حرب». وهذا القول أشبه بقولنا: «القلم أشد بأسًا من السيف». غير أن ذلك السياسى المصرى - كما أظهر لنا ذلك «بتاح حتب» - كان يعرف معرفة تامة أن اللسان الذرب

يحتاج إلى توجيه حكيم، إذ يضيف إلى ماسبق قوله : «إن الرجل الفطن لا يجد من يفحمه، كما أن الذين يعرفون أنه أوتى الحكمة لا يعارضونه، وبذلك لاتحدث مصيبة فى زمانه». وكان من المستحيل بداهة أن يتجاهل الإنسان الصعوبات القائمة فى موقف البلاد السياسى إذ ذاك، ولذلك أسديت النصيحة إلى الأمير الصغير بالمحافظة على العلاقات السلمية بينه وبين جنوب الوجه القبلى المستقل فى ذاك الوقت. وقد خصص جزء كبير من تلك النصيحة للعناية بحدود البلاد المصرية المكشوفة من جهة آسيا شرقًا ولوبيا غربًا.

ولقد برزت فطنة ذلك السياسى المسن بوجه خاص فى سياسة البلاد الداخلية، إذ نجده يعترف اعترافًا صريحًا بقوة الأسر الشريفة العظيمة، ولذلك فإنه يوصى بمعاملتها بتلك السياسة التى اتبعها كثير من ملوك أوروبا فيما بعد – وهى سياسة المهادنة والتعاون. كما أبدى فطنة عظيمة فى الوقت نفسه لتقديره ضرورة البحث عن الكفايات المغمورة فى الأوساط الدنيا وتكوين رجال جدد يمكن استخدامهم ضد رجال الإقطاع القدامى، ولذلك نراه يقول : «أعل من شأن الجيل الجديد ليحبك أهل الحاضرة... إن مدينتك ملأى بالشباب المدرب الذين هم فى سن العشرين. ضاعف الأجيال الجديدة من أتباعك، على أن يكونوا مزودين بالأملاك وقد منحت لهم الحقول وجعلت فى حيازتهم قطعان الماشية. وإياك أن ترفع من شأن ابن العظيم على ابن الوضيع، بل اتخذ لنفسك الرجل من أجل كفايته». ومع ذلك فإنه ليس من الفطنة أن تهمل الأسر الشريفة العريقة. ولذلك يقول : «عظم من شأن أشرافك لينفذوا قوانينك، لأنهم إذا لم يكونوا أهل يسار فإنهم لا يقيمون العدل فى إدارتهم للأمور. إن الرجل الغنى فى بيته لا يتحيز (يعنى فى حكمه) لأنه صاحب عقار وليس محتاجًا، ولكن الرجل الفقير (وهو فى وظيفته) لا يتكلم حسب العدالة (يعنى ماعت) لأن الرجل الذى يقول : «ليت لى» لن يكون محايدًا بل ينحاز إلى الشخص الذى يحمل فى يده العطية (re-ward)، فالعظيم من كانت أشرافه عظماء والملك الخطير من كانت له حاشية، والرفيع من كان حوله أشراف كثيرون. وإذا تكلمت الصدق (يعنى ماعت) فى

بيتك فإن الأشراف المتسلطين على الأرض سيهابونك. والملك ذو العقل المحايد يفلح حاله لأن داخل (القصر) هو الذى يبعث الاحترام فى الخارج».

وفضلاً عن المسئولية فيما يختص بالعدالة الدنيوية يؤكد الملك المسن لابنه بأنه على الملك واجبات مهمة فى المعبد، وأنه محتم عليه أن يوجه كل عنايته لإقامة جميع الشعائر المقدسة مما يظهر بكل جلاء اعتماده التام على العطف الإلهى. على أن فضيلة الملك على أية حال لا تظهر بإقامة أمثال هذه الشعائر الخارجية الظاهرة وحدها، كما أنها ليست ضمانًا كافيًا لرضى الإله، فإن أخلاق المعطى أعظم خطرًا من الهبة التى يبذلها. ولذلك نجد الملك المسن يأتى فى وصيته بما يعد من أنبل ما جاء به التفكير الخلقى بمصر القديمة إذ يأمر ابنه بأن يحفظ فى ذهنه: «أن فضيلة الرجل المستقيم أحب (يعنى عند الإله) من ثور (أى الذى يقدم قربانًا) الرجل الظالم». فلابد إذًا لذلك الشاب عندما يتربع فوق العرش أن يحكم طبقًا للصفات الخلقية الباطنة، ولذلك يقول له والده: «أقم العدل لتوطد به مكانتك فوق الأرض، وواس الحزين ولا تسئ إلى الأرملة ولا تحرمن رجلاً من ميراث والده ولا تضرن الأشراف فى مراكزهم، ولا تقم بالعقاب (يعنى بنفسك) فإن ذلك لا يفيدك، بل عاقب بواسطة الجلادين ومن غير إسراف، وبذلك تستتب لك الأرض... والله عليم بالرجل الثائر والله يجازى عسفه بالدم.. ولا تقتلن رجلاً تعرف قدره وتكون قد جودت معه الكتابة (يعنى فى المدرسة بطبيعة الحال)».

أما التخلق بالوداعة التى طالما وصى بها «بتاح حتب» فقد أفاض فى الحض عليها ذلك المسن حكيم «أهناسية» إذ يقول مستحلفًا ابنه: «لا تكونن فظًا، لأن الشفقة محبوبة، وليكن أكبر أثر لك محبة الناس لك... وسيحمد الناس الله على مكافأتك لهم مقدمين الشكر على عطفك وطالبين لك العافية فى صلواتهم».

وقد ذكرنا فيما مر أن «بتاح حتب» كان كثير الاهتمام بالمستقبل فى هذه الدنيا بسبب تقلبات الحظ التى تحف بمركز الإنسان فى هذه الحياة، والملك فى تلك الوثيقة ينصح ابنه «مريكارع» بأن يفكر فى المستقبل فى الحياة الآخرة، فيقول له

فى ذلك: «إنك تعلم أن محكمة القضاة الذين يحاسبون المذنب لا يرحمون الشقى يوم مقاضاته ولا ساعة تنفيذ القانون.. ولا تتحدثن عن طول العمر لأنهم (يعنى القضاة) ينظرون إلى مدة الحياة كأنها ساعة، فإن الإنسان يبعث ثانية بعد الموت وتوضع أعماله بجانبه كالجبال. إن الخلود مثواه هناك (يعنى فى الآخرة) والغبى من لا يكترث لذلك، أما الإنسان الذى يصل إلى الآخرة دون أن يرتكب خطيئة فإنه سيثوى هنالك ويمشى مرحًا مثل الأرباب الخالدين (يعنى الأبرار المتوفين)».

ويرى ذلك الملك المسن أن الحياة الصالحة فوق الأرض هى العماد الأعظم الذى ترتكز عليه الحياة الآخرة، إذ يقول فى ذلك: «إن الروح تذهب إلى المكان الذى تعرفه ولا تحيد فى سيرها عن طريق أمسها». ولا شك أنه يقصد بذلك طريقها المعتاد للخلق القيم الكريم. على أن القبر كان فى نظره فى الوقت نفسه من الأشياء المهمة، حيث يقول : «زين مثواك (يعنى قبرك) الذى فى الغرب، وجمل مكانك فى الجبانة بصفتك رجلاً مستقيما مقيما للعدالة (يعنى ماعت) لأن ذلك هو الشىء الذى تركن إليه قلوب أهل الاستقامة».

ولما كان أهم أمر فى حياة الإنسان هو علاقته بربه، سواء أكان ذلك فى هذا العالم أم فى الحياة الآخرة، فإنه يقول فى ذلك أيضًا: «يمر الجيل إثر الجيل الآخر بين الناس والله العليم بالأخلاق، قد أخفى نفسه... «وهو الذى لا يعبأ بما تراه الأعين، فاجعل الإله يُخدم بالصورة التى سوى فيها سواء أكانت من الأحجار الكريمة أم من النحاس، كالماء الذى يحل محله الماء، إذ لا يوجد مجرى ماء يرضى لنفسه أن يبقى مختفيًا بل يكتسح السد الذى يخفيه».

وهذا التصريح المهم الذى جاء على لسان رجل من رجال الفكر فى مصر منذ أكثر من أربعة آلاف سنة مضت ليس إلا محاولة منه للتمييز بين الإله وبين صنم المعبد التقليدى الذى كان يظهر فى احتفالات المعبد وتهتف له الجماهير. ولكن كينونة الإله كما قال كالماء الذى يكتسح السد أمامه، لا يمكن أن تبقى محبوسة فى الصورة المحسوسة، وهو الشىء الذى عبر عنه بأنه «لا يعبأ بما تراه العيون»، على حين أن الإله الخفى العليم بالأخلاق قد أخفى نفسه فلا يمكن إدراكه

كجسم من الماء يمتزج فى جسم آخر مثله من الماء. على أنه من الصعب جدًا أن يدرك الإنسان معنى أمثال هذه التشبيهات وبخاصة فى لغة فقيرة جدًا فى التعابير المعنوية.

ولكن من الواضح أن لدينا فى تلك البردية سلسلة أفكار عن إله الشمس نجد فيها المفكر المصرى القديم يقترب من عقيدة التوحيد[1]. إذ نجد أنه يعترف بوجود طائفة من الآلهة يقومون مقام القضاة فى عالم الآخرة، وبذلك يبتعد بعدًا واضحًا عن الاعتراف بوحدانية الإله، ولكنه من جهة أخرى كان يقترب جدًا من الاعتراف بالتسلط الخلقى لإله واحد لدرجة أن كلمة إله صارت تدل فى بعض المواضع - مع شىء من التناقض - على مدلولها الحقيقى. ونلاحظ زيادة الإمعان فى صوغ هذه التأملات بصيغة التوحيد فى الصورة الآتية التى صور فيها الحكيم الأهناسى الخالق الحاكم الرءوف، فى خاتمة تأملاته، إذ يقول : «إن الله قد عنى عناية حسنة برعيته، فقد خلق السماوات والأرض وفق رغبتهم وأطفأ الظمأ بالماء وخلق لهم الهواء حتى تحيا به أنوفهم، وهم صور منه خرجت من أعضائه. وهو يرتفع إلى السماء حسب رغبته، وخلق النبات والماشية والطير والسمك غذاء لهم، وقد ذبح أعداءه وعاقب أطفاله بسبب ما دبروه حينما عصوا أمره. وصنع النور حسب رغبتهم كى يسبح فى السماء ليراهم، كذلك أحاطهم بسياج من حمايته، وهو يسمعهم عندما يبكون، وجعل لهم حكامًا وهم فى الأرحام ليحموا ظهر الضعفاء منهم».

والإشارة هنا إلى أن الإله ذبح أعداءه تنويه بأسطورة إله الشمس وعهد حكمه على الأرض بصفته فرعونًا عليها. وذلك عندما تآمرت رعيته عليه فإنه اضطر أن يوقع بهم الهلاك. فنجد فى تلك الأسطورة ناحية خلقية تدل على حرمان الإنسان من العطف الإلهى. وكذلك نتعرف فيها تعرفًا تاما سيادة إله الشمس الخلقية، ومن الواضح أن ذهن الملك الإهناسى المسن اتجه إلى محاولة الموازنة بين فكرته السامية للحاجات الخلقية وبين التقاليد الموروثة الخاصة بقيمة الوسائل المادية، ولذلك يقول لابنه: «أقم آثارًا باقية للإله لأنها تجعل اسم صانعها

يبقى، ودع المرء يعمل ما فيه صلاح روحه بتأدية الطهر الشهرى وبأخذ النعلين الأبيضين وزيارة المعبد، وإماطة اللثام عن الرموز الدينية، والدخول فى قدس الأقداس، وأكل الخبز فى المعبد، وضاعف القربان، وأكثر من عدد الرغفان، وزد فى القربان الدائم، لأن فى ذلك خيرًا لفاعله، واجعل آثارك فيه حسب ثروتك، لأن يومًا[٢] واحدًا قد يبقى أثره إلى الأبد، ورب ساعة واحدة تنفع للمستقبل، والله عليم بكل من يقوم له بأية خدمة». على أن محاولة الموازنة بين المادية والحاجات الأخلاقية ظاهرة فى التصريح القيم الذى اقتبسناه فيما سبق عندما قال الملك المسن لابنه: «إن فضيلة الرجل المستقيم أحب عند الله من ثور الظالم. ومع ذلك قرب القربان للإله، ـ ليكافئك بالمثل ـ، ولتحفل به مائدة القربان وكذلك بالنقوش، لأن ذلك هو ما يخلد اسمك، والله يعلم من يقرب له القربان».

فنجد هنا اعترافًا صريحًا بقيمة الحياة الصالحة فى نظر الإله، وهو الذى لا يقبل أن تقوم الهدايا عنده مقام الأخلاق. وهذا الاعتراف يفوق بمراحل كثيرة أعظم المثل العليا فى عصر الأهرام. وبالرغم من ذلك فإن تقاليد الأجداد فيما يتعلق بقيمة الوسائل المادية، سواء أكان ذلك فى العمارة أم فى تقديم القربان، كانت لا تزال تجد قبولاً عند ذلك الملك المسن. وبتصريحه هذا قد استخلص الملك نتيجة من ذلك ـ قد تكون بغير قصد منه ـ لا يمكن أن تترك هكذا معلقة ودون أن يفصل فيها. فكان كر القرون يثبت بدون هوادة بطلان الاعتماد على العوامل المادية البحتة للحصول على النعيم الأخروى لروح الإنسان، كما كان سير الزمان ينحسر بلا شفقة عن انهيار العقيدة المادية، وكذلك بدأت الظلال القائمة التى تنم عن أقدم صورة لعدم الانخداع بالأوهام تخيم على سماء مصر.

على أن حكمة ذلك الحكيم الأهناسى المتوج لم تفقد تأثيرها بعد انقراض أسرته بزمن طويل. وقد رأينا صداها فى ترجمة حياة أحد الأشراف كتبها لنفسه على شاهد قبره فى عهد الأسرة الحادية عشرة، إذ يقول: «لقد سمعت أفواه الناس تنطق بتلك الحكمة التى توجد فى أفواه العظماء: إن فضيلة الرجل هى أثره الباقى ولكن الرجل صاحب السمعة الرديئة يصير نسيًا منسيًا». والواقع أننا

بعد انقضاء بضعة قرون على ذلك نجد ذكريات لعظات ذلك الملك الأهناسى وردت بعبارة واحدة تقريبًا فى نقش كل من مقبرتى شريفين نقشا عليهما تاريخ حياتهما وكانا يعيشان فى عهد الملك «سنوسرت الأول» أى بعد سنة ٢٠٠٠ ق. م[٣]. بجيل واحد، وكان أحدهما شريفًا من أغنياء «أسيوط» رأى الفخر كل الفخر فى أن يقول: «إنه كان إنسانًا يفصل بين المتخاصمين دون محاباة، لأنى كنت ثريًا وما أكرهه هو الكذب، وكنت متزن العقل من غير ميل».

وأما ترجمة حياة الثانى فإنها منقوشة على لوحة جميلة من الحجر الجيرى الأبيض محفوظة الآن بمتحف المترو بوليتان للفن، وصاحبها هو الشريف «منتووسر» يقول فيها: «لقد كنت امرأ يستمع للقضايا حسب الحقائق دون إظهار محاباة لمن يحمل الهدية (يعنى الرشوة) لأنى كنت صاحب ثراء أرفل فى بحبوحة النعيم»[٤].

ونجد هنا حالة يكاد يحاول بها الإنسان أن يعتبر الثراء عونًا على معاملة الناس بالحق فى تصريف العدالة. على أن بطلان الاعتماد على العوامل المادية كان قد أخذ فى الظهور للعيان بازدياد مطرد بعد انتهاء عصر الاتحاد الثانى. فإن ارتكان الملوك العظام الذين حكموا فى عهد الأهرام على مثل هذه الوسائل المادية قد جعلهم يكافحون بلا طائل ضد الموت مدة قرون عدة، وهذا الكفاح قد أخذت آثاره المتداعية تدل فى كل يوم على خيبة الطرق المادية فى أداء الغرض منها. فقد كان صراع أولئك الجبابرة الذى استمر نحو خمسمائة سنة، يتمثل جليا أمام الأعين فى هيئة سور عظيم من الأهرام يمتد نحو ستين ميلاً على حافة الصحراء الغربية، وكأنه خط من الحصون الأمامية الصامتة يشرف على حدود الموت. وكان قد انقضى إذ ذاك ما يقرب من ألف سنة على بناء أول هرم منها، وكذلك قد انطوت قرون عدة منذ أن طوى رجال العمارة سجلاتهم البردية الحاوية لرسوم آخر هرم منها، وجمع طوائف العمال آلاتهم وانصرفوا إلى أوطانهم. كما هجر الكهنة منذ زمن بعيد تلك المعابد الفاخرة والأبواب العظيمة الأنيقة التى كانت مقامة على جانب الوادى حينما صاروا ولا عائل يعولهم.

فأصبحت تلك الجبانة الهرمية التى يبلغ امتدادها ستين ميلا ثاوية فى صمت مقفر مدفونة فى الرمال إلى عمق كبير، يغطى نصف حجم مبانيها الخربة بما تحويه من تيجان الأعمدة الملقاة على الأرض والأعمدة المطروحة فوق أديم الغبراء، فهى خرائب مهجورة، لا يرى بينها إلا شبح ابن آوى المنقرض يتسلل بين دمنها، وكأن رؤية هذا الحيوان المقدس «لأنوبيس» إله الموتى العتيق تشير إلى فشل الحماية التى كان يقوم بها آلهة الصحراء الجنازيون القدامى. على أنه حتى فى يومنا هذا لا يجد الإنسان منظرًا رائعًا مثل منظر جبانات الأهرام المصرية القديمة فى أى بقعة من بقاع العالم القديم، ونحن لا نزال نذكر ما شعرنا به من الاحترام الرهيب الذى تركته تلك الجبانات فى نفوسنا عندما زرناها للمرة الأولى. ولكن هل كان ذلك التأثير الذى ألم بنفوسنا يحس به خلفاء بناة الأهرام بعد انقضاء بضعة قرون على تشييدها؟ وهل صارت تلك الأهرام من الآثار القديمة فى نظر أولئك الأقوام الذين كانوا يعيشون فى سنة ٢٠٠٠ ق. م.؟

نعم إن جبانة الأهرام قد تركت أثرًا عميقًا فى عقول الحكماء المصريين القدامى الذين ظهروا بعد انتهاء عهد الاتحاد الثانى. على أنه إذا كان قد وجد فى عصر الأهرام نفسه بعض الفتور فى الاعتقاد بأن الإنسان بالقوة المادية المحضة يمكنه أن يتحكم فى الخلود، إن منظر تلك الخرائب الهائلة الآن قد أيقظ هذه الشكوك عند هؤلاء الحكماء وزاد فيها حتى جعلها شكًا علنيًا. وهذا التشكيك قد عبر عنه بعد ذلك العهد بزمن قصير فى صورة أدبية ذات تأثير ظاهر.

ولاشك أن ذلك العصر قد بعد كل البعد عن عهد التسليم بالعقائد التقليدية دون معارضة فيها كما ورثت عن الآباء. فإن عقيدة التشكك تعنى تجربة طويلة للعقائد الموروثة وبحثًا مستمرًا فيما كان معترفًا به حتى ذاك الوقت دون تفكير، الشعور بالمقدرة الشخصية على الاعتقاد فى الشىء أو إنكاره، وهى تعد خطوة مميزة إلى الأمام نحو نمو الوعى النفسى والوازع الشخصى.

على أن عقيدة التشكك هذه لا تنمو إلا بين أفراد الشعب الذى له مدنية ناضجة، ولا تنبت أبدًا فى الأحوال الفطرية. ولذلك فإن ذلك العصر، البالغ نحو

خمسمائة سنة والذى يمثل قمته أولئك المتشككون الذين جاءوا عقب سقوط الاتحاد الثانى، يعد عصرًا مهمًا فى تاريخ التقدم العقلى عند البشر. وقد عبر هؤلاء الحكماء عن حالتهم العقلية فى مرثية كانت تغنى غالبًا فى نوع من الأعياد (يشبه عيد «كل الأرواح») كان يحتفل به فى الجبانة أهالى الموتى وأقاربهم عند قبور أجدادهم الراحلين.

فلدينا روايتان لهذه الأنشودة غير كاملتين: إحداهما مدونة على بردية، والثانية كانت منقوشة على جدران أحد القبور بطيبة. غير أن النسخة التى دونت على البردية كانت منقولة عن نقوش قبر، بدليل أن عنوانها هكذا: «الأغنية التى فى مثوى «مزار القبر» الملك «إنتف»[٥] المرحوم وهى المواجهة للضارب على العود».

وإنه لمن المدهش حقًا أن نجد ملكًا من ملوك الأسرة الحادية عشرة (أى قرابة سنة ٢١٠٠ ق. م.) يأمر بنقش هذه الأنشودة فوق جدار مزار قبره، غير أنه يمكننا أن نستنتج من قراءة سطورها أن المغنى عندما كان ينشد أغنيته كان يقف على مكان مرتفع يشرف منه على جبانة أهرام الدولة القديمة.

وها هى ذه الأنشودة:

«ما أسعد هذا الأمير الطيب[٦].

إن المقدر الجميل قد وقع.

وتذهب الأجيال من الناس

وتبقى أخرى،

منذ عهد الذين كانوا من قبلنا.

والآلهة الذين وجدوا فى غابر الزمان،

والذين يرقدون فى أهرامهم،

وكذلك الأشراف والمبجلون قد رحلوا

ودفنوا فى أهرامهم.

وأولئك الذين بنوا مزارات لقبورهم،

فإن أماكنهم أصبحت كأن لم تكن.

تأمل ماذا جرى فيها.

لقد سمعت أحاديث «أمحتب» و«حَرْدادِف».

وهى كلمات لها شهرة عظيمة مثل أقوالهم.

تأمل مساكنهم هنالك،

فإن جدرانها قد هدمت.

وأماكنها قد أصبحت لا وجود لها،

كأنها لم تكن قد وجدت قط.

ولم يأت أحد من هنالك،

ليحدثنا كيف حالهم،

وليخبرنا عن حظوظهم،

لتطمئن قلوبنا،

إلى أن نرحل نحن أيضًا،

إلى المكان الذى رحلوا إليه.

شجع فؤادك على أن ينسى ذلك،

ولتسر باتباع رغبتك،

وأنت على قيد الحياة.

وضع العطور على رأسك.

وارتد ملابس من الكتان الرقيق،

وضمخها بالعطور العجيبة.

وهى أشياء الإله الأصيلة.

وزد كثيرًا فى مسراتك،

ولا تجعلن قلبك ييتئس.

واتبع ما تشتهى وما يطيب لك.

وهيئ شئونك على الأرض،

حسبما يمليه عليك قلبك،

إلى أن يأتى يوم مغيبك،

حينما لا يسمع صاحب القلب الساكن نعيهم،

ولا الذى فى القبر يصغى للعويل.

اغتنم التمتع باليوم السعيد،

ولا تجهدن نفسك فيه.

اصغ! لم يأخذ إنسان متاعه معه.

ولم يعد إنسان ثانية ممن رحلوا إلى هنالك».

هكذا كان شعور بعض المفكرين المصريين عن ذلك العصر العتيد حينما كانوا يشرفون بأعينهم على مقابر أجدادهم ويدركون عدم فائدة جبانات أهرام الدولة القديمة الشاسعة الأرجاء. ونلاحظ هنا أنه حتى بعض أسماء الحكماء الذين عاشوا قبل ذلك العهد بألف سنة مثل «أمحتب» «وحردادف» اللذين صارت أقوالهما مضربًا للأمثال، ونالا بذكرهما فى الأنشودة تخليدًا لذكراهما أكثر من تخليد الذكر بالقبور الضخمة، قد جاءت ثانية على لسان ذلك المغنى. ومن الصعب أن نعتقد أن ذكر «أمحتب» وهو أول الاثنين اللذين ورد ذكرهما على لسان المغنى كان من باب المصادفة المحضة، فإن «أمحتب» كان أول مهندس للعمارة أقام

المبانى بالأحجار فى نطاق واسع. أى أنه أول منشئ للمبانى الحجرية. فقد كان «أمحتب» مهندس العمارة للملك «زوسر»، الذى عاش فى القرن الثلاثين ق. م، المشيد لأقدم مبنى كبيرًا بالحجر لا يزال باقيًا إلى الآن من آثار العالم القديم وهو الذى يسمى «هرم سقارة المدرج». ومن المواضيع البارزة الغريبة فى هذه الأنشودة أن يرجع المغنى بالإشارة إلى مقبرة ذلك المهندس العظيم ويذكر أنها فى حالة خراب حتى صارت كأنها لم تغن بالأمس. والواقع أن مكانها لا يزال مجهولاً إلى يومنا هذا. وكذلك نجد أن «حردادف» الحكيم الثانى الذى جاء ذكره أيضًا فى هذه الأنشودة كان ابن الملك «خوفو»، ولهذا كان له اتصال بالهرم الأكبر. وكون تخليد اسمى هذين الحكيمين أتى فقط عن طريق مداومة ذكرهما والتحدث عن حكمتهما دليل آخر على بطلان تأثير العوامل المادية التى كانت معتبرة وسيلة للخلود والبقاء. كما أن اختفاء أرواح أمثال هذين الرجلين فى عالم آخر لا يرون فيه ولا يرجع إلى الدنيا منه أحد يحدثنا عن مصيره، يعد من أعظم النغمات المشجية الحزينة التى نراها فى سطور تلك الأنشودة العتيقة، وكأننا نسمع تلك النغمة يتردد صداها ويتجاوب ترجيعها فى الشرق (بعد أن انقضى على عهدها ثلاثة آلاف سنة) فى بعض مواضع من رباعيات «عمر الخيام» إذ يقول:

«إنه أمر عجيب! أليس كذلك؟ حينما نرى أنه من عشرات الآلاف الذين مروا قبلنا بباب الظلمة لم يعد أحد منهم ليخبرنا عن الطريق التى إن أردنا أن نكشف عنها لا بد أن نمر فيها أيضا».

وهنا ينكشف لنا الغطاء عن عقيدة التشكك التى تشك فى جميع الطرق، المادية وغير المادية، التى كان يرى أنها تؤدى إلى السعادة أو أنها على الأقل تؤدى للحياة بعد الموت. ولم يكن لمثل تلك الشكوك من جواب. بل كانت هناك طريقة واحدة فقط يستطيع بها الإنسان إزالتها من ذهنه مؤقتًا، وذلك بأن ينغمس فى الملاذ الشهوانية التى قد تغطى على أمثال تلك الشكوك وقتًا ما ولو بنسيانها: «كل واشرب وكن فرحًا لأننا سنموت فى الغد».

وأما الرواية الثانية التى كتبت بها تلك الأنشودة فإنه قد عثر عليها فى قبر كاهن آمون «نفرحتب» فى «طيبة»، غير أنها لا تكاد تماثل الأولى ولا تعادلها فى التأثير، ومما يؤسف عليه أنها ممزقة ولكنها على أية حال تحتوى على بعض أسطر قيمة يجب الالتفات إليها، منها:

«كيف يرقد هذا الأمير العادل».

إن المصير الطيب قد نزل به،

والأجيال من الناس تموت

منذ زمن الإله «رع»،

ويحل مكانها أجيال أخرى.

إن «رع» يشرق بنفسه فى الصباح المبكر.

ويغرب «آتوم» ليستريح فى «منو»(٧).

والرجال تلقح والنساء يحملن،

وكل أنف يستنشق الهواء.

والإصباح يأتى ويلدن كثيرًا.

وهم (المواليد) يأتون فى الأماكن (المخصصة لهم).

احتفل باليوم المرح يا أيها الولد المقدس.

وضع أحسن العطور كلها عند أنفك،

وتيجان البشنين على كتفيك وحول نحرك.

وأختك(٨) التى تسكن فى قلبك

تجلس إلى جانبك

وضع الغناء والموسيقى أمامك،

واترك ظهريًا كل شىء كريه.

ولا تذكر إلا ما يبهج نفسك.

إلى أن يأتى يوم الوصول إلى البر (يعنى الموت)،

فى الأرض التى تحب الصمت.

لقد سمعت كل ما حدث

لأولئك....

فبيوتهم قد نهبت

ومكانها لا أثر له

فكأنها لم تكن بالأمس قط

منذ زمن الإله

وأولئك السادة....

أتريد أن تغرس لنفسك شجرًا محبوبًا

على شاطىء بركتك

لتجلس روحك تحته

ولتشرب من مائها؟

اشبع رغباتك كلها،

واعط الخبز لمن لا حقل له،

وبذلك تنال اسمًا طيبًا

للمستقبل[٩] ويبقى إلى الأبد.

ثم تستمر الأغنية فتورد تأملات عن الاغترار بالثراء، وكأن ذلك بمثابة تفسير للسطر الوحيد الذى ورد فى النسخة الأولى مشيرًا إلى أنه لا يوجد إنسان فى

قدرته أن يأخذ متاعه عند رحيله عن هذه الدار، فالثراء لا فائدة منه، لأن القدر نفسه قد دهم:

«أولئك الذين كان لهم مخازن غلال،

فضلا عما كان لديهم من الخبز للقربان،

وكذلك (دهم) من لم يكن لديهم شيء من ذلك»

ومن ثم حذر الرجل الغنى بما يأتى:

«اذكر أنت اليوم

حينما تُجرّ (فى الزحافة الجنازية)

إلى أرض... ... .

فاتبع رغباتك كلها

فلا يوجد إنسان يعود ثانية.

فالمغنى الذى يرتل هذه الأنشودة الثانية لا يجد أملاً فى التفكير فى الموت ومصيره. غير أنه يرى من الخير أن يترك الإنسان وراءه سمعة حسنة دائمة، لا لأن ذلك ينفعه حتمًا فى عالم الآخرة، بل لكى تبقى ذكراه فى الدنيا على الألسنة وفى أذهان من يأتون بعده. والواقع أن واجب الإنسان من جهة الحياة الخلقية التى فرضها الإله العظيم الذى سيأتى محاسبته للبشر فيما بعد، وكذلك الفوائد التى يجنيها الفرد من دنيا الأموات، وهى التى تأتى بطبيعة الحال نتيجة للقيام بهذا الواجب، لم يرد لها ذكر فى هذه الأغنية التى تتمثل فيها عقيدة التشكك، فهى تتجاهل الآلهة بوجه عام، والإله الواحد الذى تذكره هو إله الشمس «رع» أو «آتوم»، وهو الذى يظهر حتى فى مناسبة ذكر المومية حيث كنا ننتظر فى ذلك ذكر الإله «أوزير». وعلى ذلك يمكن تلخيص تعليم طائفة المتشككين هؤلاء الذين ألقوا تعاليم آبائهم ظهريًا فى أنها إشباع الرغبات النفسية وحسن الأحدوثة بعد الموت.

ولا نزاع فى أن بداية التفكير الأخلاقى يرجع تاريخها إلى عهد المسرحية المنفية، غير أن المصريين الأقدمين لم يصلوا إلى الاستقلال النفسى الذى مكنهم

لأول مرة من تصور المجتمع البشرى فى كليته، حتى صار بذلك فى أنظارهم مملكة يمكن تأملها بإنعام وتدبر، إلا بعد عصر تاريخ تلك المسرحية بنحو ١٥٠٠ سنة ق. م. أى فى العهد الإقطاعى وبخاصة بعد سنة ٢٠٠٠ ق. م. وقد كانت نتيجة مثل هذا التأمل عند بعض الناس أنهم وقعوا فى حالة تشاؤم فظيع. ألم تكن أخلاق المجتمع قد بلغت من الظلم درجة أصبحت معها الرغبة فى «السمعة الحسنة» أقل مما تصوره مغنى أنشودة الضارب على العود؟ وما يجنى الإنسان من ذلك لو أن سمعته الحسنة ضاعت ظلمًا من غير جرم جناه، أو لو أن فرص تمتعه بالملاذ قد قطعت بالمرض أو سوء الحظ؟ والحقيقة أن هذا الموقف بذاته هو الذى مثل أمامنا فى ورقة محفوظة الآن بمتحف برلين، ربما كانت أهم وثيقة وصلت إلينا من ذلك العهد السحيق. ويمكننا أن نسميها «محاورة بين إنسان يائس سئم الحياة وبين روحه»، لأن عنوانها القديم مفقود. وموضوع هذه المحاورة العام هو اليأس المستحكم الذى نتج من مثل الحالة السالفة الذكر، فأفضى الشعور به إلى أن الموت هو الخلاص الوحيد من الحياة. وغنى عن البيان أن اختيار مثل هذا الموضوع فى مثل ذلك العهد السحيق هو أمر من أعجب الأمور. إذ هو فى الواقع موضوع يصف الحالة العقلية والتجارب الباطنة لنفس معذبة تتألم ما حاق بها من الظلم وسوء الطالع، وبذلك يعد هذا الموضوع أقدم قطعة أدبية تناول موضوعها الخبرة الروحية، وهى فى نظرنا تعد أقدم مقال يمثل لنا صورة مما ورد فى سفر نبى الله «أيوب»، عليه السلام، وقد كتب المقال طبعا قبل أن تظهر التجربة المماثلة الحاوية لمثل هذا الشعور فى شعر مماثل بين العبرانيين بنحو ألف وخمسمائة سنة.

ومن المؤسف أن المقدمة التى تقص علينا الأحوال التى دعت إلى ذلك الاضطراب الروحانى قد فقدت. ومع أنه بذلك تنقصنا مقدمة الكتاب فإن بعض الحقائق التى كانت تحتويها تلك المقدمة حتمًا، وتضع أمامنا الأسباب التى أدت إلى تلك المحاورات التى يقدمها ذلك الكتاب، يمكن استنباطها من تلك المحاورات ذاتها. والبائس الذى نحن بصدده (لأننا لم نعرف له اسمًا) كان رجلاً لطيف

الروح، ولكنه بالرغم من ذلك قد دهمه الحظ العاثر من كل ناحية. فما كاد يصيبه المرض حتى ابتعد عنه أصدقاؤه حتى إخوته الذين كان من الواجب عليهم القيام بمواساته فى مرضه، وبالجملة لم يجد خلاً وفيًا، وفى وسط تلك المصائب سرق جيرانه متاعه أيضًا. وما عمله من صالح بالأمس قد نسى. وبالرغم من أنه كان صاحب حكمة فإنه كان يصد كلما أراد أن يدافع عن حقه. وقد حكم عليه ظلمًا، واسمه الذى كان يجب أن يكون محل احترام صار نتنًا فى أنوف الناس.

والجزء من الوثيقة الباقى الذى وصل إلينا يبدأ بذلك الوقت العصيب عندما كان يضرب فى ظلمات اليأس وصمم على الانتحار، فتراه وهو واقف على حافة القبر وروحه فزعة من الظلمة تأبى عليه اتباعه فى فعلته. ويلى ذلك محاورة طويلة نرى منها أن ذلك التعس كان يناقش نفسه، أى يتحدث مع شخص جرده من روحه كأنه يتحدث مع ذات أخرى. وقد كان أول الأسباب فى عصيان روحه له وامتناعها عن متابعته إلى الحياة الآخرة خوفها ألا تجد قبرًا تقر فيه بعد الموت.

وقد يظهر ذلك غريبًا جدًا لأول وهلة من رجل اتضح أنه يشك كثيرًا فى فائدة مثل تلك المعدات المادية التى كانت تعد للمتوفى عند ترحيلة إلى آخرته. ولكننا لا نلبث أن نكشف عن سر ذلك على الفور، فنرى أن هذه كانت حيلة أدبية (كغيرها مما سيأتى ذكره فيما بعد) أراد الكاتب أن يتخذ منها فرصة للتنديد بتلك المعدات الجنازية.

والظاهر أن روحه نفسها قد اقترحت عليه فى أول الأمر الانتحار حرقًا، ولكنها فرت بنفسها من تلك النهاية الفظيعة.

ولما لم يكن ـ من بين الأحياء ـ صديق أو قريب حميم لتلك النفس يقف بجانب التابوت ويحتفل بجنازته، أخذ يستحلف روحه أن تقوم له بكل ذلك. ولكن الروح أبت عليه الموت فى أى شكل كان. ثم أخذت تصف له فظائع القبر: ثم «فتحت روحى فمها وأجابت عما قلته: «إذا تذكرت الدفن فإنه حزن وذكراه تثير الدمع وتفعم القلب حزنًا، فهو ينتزع الرجل من بيته ويلقى به على الجبل (أى الجبانة» لن تصعد أبدًا ثانية لترى الشمس. على أن هؤلاء الذين بنوا بالجرانيت الأحمر

المبنى الجميل وشيدوا قبورهم فى الأهرام وصاروا مثل الآلهة ترى هناك موائد قربانهم خاوية كموائد أولئك المتعبين الذين يموتون فوق الجسر من غير خلف لهم فيبتلع الفيضان ناحية من أجسامهم، وتلفحهم حرارة الشمس أيضًا، ويلتهمهم سمك شاطئ النهر ويعبث بهم. اصغ إلى! وإنه لجدير بالناس أن يصغوا، تمتع بيوم السرور وأنس الهموم».

هذا إذًا هو جواب الروح عندما تمثل أمامها منظر الموت المعتاد. وقد أكد ذلك البائس أن: «من كان فى هرمه، ومن وقف أحد الأحياء بجوار سرير موته، يكون سعيدًا». وقد سعى أن تقوم روحه «بدفنه وبتقديم القرابين له وتقف عند القبر يوم الدفن لتجهز السرير فى الجبانة».

ولكن كان مثله مثل ضارب العود فى الأنشودة السالفة الذكر، إذ تذكرت روحه قبور العظماء التى خربت وموائد قربانهم التى صارت خاوية مثل موائد العبيد التعساء الذين ماتوا كالذباب فى وسط الأعمال العامة على جسور الرى وقد صارت أجسامهم عرضة للحر اللافح والسمك الملتهم، فى انتظار الدفن. فلم يكن هنالك إلا حل واحد للتخلص من كل ذلك وهو: «أن يعيش الإنسان ناسيًا حزنه منغمسًا إلى آذانه فى السرور».

ويلاحظ أنه إلى هنا لم تختلف هذه المحاورة التى تنحصر كل فلسفتها فى أن «يأكل الإنسان ويشرب، ويكون مرحًا لأنه سيموت فى غده» عما جاء فى أغنية الضارب على العود. ولكننا بعد ذلك نجدها تأخذ فى الخروج والافتراق عن زميلتها بنتيجة خطيرة تجاوزت بها حد تلك الأنشودة بكثير، إذ أخذت تبين أن الحياة فوق أنها ليست فرصة للسرور والإسراف فى اللذات، فهى عبء أثقل حملاً من الموت. وقد وضح ذلك فى أربع مقطوعات شعرية خاطب بها ذلك التعس روحه. وتلك المقطوعات تؤلف الجزء الثانى من تلك الوثيقة، ولحسن الحظ نجدها أوضح كثيرًا من الجزء الأول. والمقطوعة الأولى تصف لنا مقت العالم بغير حق لاسم ذلك التعس، ويكون كل ثلاثة أبيات منها مقطوعة تبتدئ بالمقطع التالى: «إن اسمى ممقوت». ثم يرى الكاتب بعد ذلك أن يقوى ذلك المقطع

بذكر شيء ممقوت مما يوجد فى حياة الشعب المصرى اليومية وبخاصة رائحة السمك والطير النتنة السارحة فى حياة سكان وادى النيل. وهاك ذكر ذلك:

مقت اسمه ظلماً:

انظر إن اسمى ممقوت، أكثر من رائحة الطير فى أيام الصيف عندما تكون السماء حارة.

انظر إن اسمى ممقوت أكثر من مقت مصايد السمك فى يوم صيد تكون السماء فيه حارة.

انظر إن اسمى ممقوت أكثر من رائحة الطيور فوق تل الصفصاف المملوء بالأوز.

انظر إن اسمى ممقوت أكثرمن رائحة الصيادين على شواطئ المستنقعات بعد الصيد.

ثم يتلو ذلك ست مقطوعات بالأسلوب نفسه. ومع أن ذلك الشعر مركز على وتيرة واحدة لحقيقة أن اسم ذلك الرجل التعس قد صار نتنًا فى أنوف أصدقائه، فإننا نجده فى الشعر الثانى يترك ذكر نفسه ليصور لنا أولئك الذين كانوا سببًا فى بؤسه. فنراه يلقى نظرة على مجتمع أهل عصره فلا يجد فيه إلا الفساد والخيانة والظلم وعدم الإخلاص، حتى بين أهل أسرته.

وهذا الشعر أيضًا اتهام رهيب، وكان يستهل كل مقطوعة دائمًا بجملة استفهامية يتردد فيها قوله: «لمن أتكلم اليوم؟».

وربما كان يقصد بذلك، أى صنف من الناس هؤلاء الذين أخاطبهم؟ وقد كان الجواب الذى يعقب كل استفهام برهانًا جديدًا لمقاصده، وهاك ما قاله فى ذلك:

فساد الناس:

لمن أتكلم اليوم؟ الإخوة سوء، وأصدقاء اليوم ليسوا جديرين بالحب.

لمن أتكلم اليوم؟ القلوب تميل إلى اللصوصية، لكل إنسان يغتصب متاع جاره.

لمن أتكلم اليوم؟ فالرجل المهذب يهلك والصفيق الوجه يذهب فى كل مكان.

لمن أتكلم اليوم؟ فإن سمح الوجه قد صار بائسًا وصار الخير لا يحفل به فى أى مكان.

لمن أتكلم اليوم؟ فإن الذى كان يُظن أنه يثير الغضب بأخلاقه الشريرة، يسر منه الناس جميعًا رغم أنه خطيئته فظيعة.

لمن أتكلم اليوم؟ فإن الناس يسرقون، وكل إنسان يغتصب متاع جاره.

لمن أتكلم اليوم؟ فإن الخائن صار أمينًا، ولكن الأخ الذى يأتى بها (يعنى الأمانة) يصير عدوًا.

لمن أتكلم اليوم؟ لا يوجد رجل عادل.

وقد تركت الأرض لأولئك الذين يرتكبون الظلم».

لقد تنحت روح ذلك المتألم عن الموت، ثم أخذت تقترح عليه أن يعيش عيشة اللهو والملاذ كطريق للخلاص مثل الذى جاء فى أنشودة الضارب على العود. ولما أحس ذلك التعس من أعماق قلبه بفظاعة الموت وأخذ يفهم عدم فائدة العتاد المادى المحض لدفع غائلة الموت، نكص على عقبيه مدة قصيرة ثم عاد يتأمل الحياة. والقصيدتان اللتان دوناهما هنا تصوران لنا ماذا رأى عندما رجع لبحث الحياة. أما ما يلى فهو وثبة منطقية، بعد العلم بأنه ليس هناك أى بصيص من الأمل فى الحياة، إلى الاقتناع التام بأن الموت هو الخلاص الوحيد من ذلك البؤس الذى انغمر فيه.

فالقصيدة الثالثة إذًا أنشودة قصيرة فى مدح الموت، غير أنها ليست بحثًا ساميًا فى مزايا الموت مثل الذى نطق به «أفلاطون» بعد ١٥٠٠ سنة فى قصة موت «سقراط» كما أنه لا يمكن مقارنتها بالتشاؤم الفلسفى السامى الذى نراه فى سفر ابتلاء «أيوب» النبى (صلوات الله عليه). ولكنها تعد أقدم صيغة وصلت إلينا عبر بها الفرد عما أصابه من العذاب ظلمًا، وأول صرخة من متألم برىء وصل إلينا صداها من عصور ذلك العالم القديم، وهى تعد بحق ذات فائدة

فريدة ولا تخلو من جمال بما احتوته من حرارة نفسية خلابة.

ومما يلفت النظر أنها لا تحتوى على أية فكرة عن الإله بل تتناول فقط موضوع التخلص السار من آلام الماضى التى لا تحتمل، دون أن تتطلع للمستقبل. وقد كان من خصائص العصر والجو الذى نظمت فيه تلك القصيدة أن يصور ذلك الخلاص السار فى شكل صور محسوسة مأخوذة من الحياة اليومية لسكان وادى النيل الأقدمين. وهاك ما قاله فى ذلك:

الموت خلاص سار:

«إن الموت أمامى اليوم، كالمريض الذى أشرف على الشفاء، وكالذهاب إلى حديقة بعد المرض.

إن الموت أمامى اليوم، كرائحة بخور المر، أو كالجلوس تحت الشراع فى يوم شديد الريح.

إن الموت أمامى اليوم، كرائحة زهرة السوسن، أو كجلوس الإنسان على شاطئ السكر.

إن الموت أمامى اليوم، مثل مجرى الماء العذب!، ومثل عودة الرجل من سفينة حربية إلى داره.

إن الموت أمامى اليوم، كسماء صافية، ومثل رجل يصطاد طيورًا لا يعرفها.

إن الموت أمامى اليوم، كمثل رجل يتوق لرؤية منزله، بعد أن أمضى سنين عدة فى الأسر».

وبالرغم من أن تلك الصور مأخوذة من الحياة فى عالم متوغل فى القدم، ومعظمها يكاد يكون غير مألوف لنا، فإنها لم تفقد كل تأثيرها فى أنفسنا، إذ نجد فيها الحياة مشبهة بمرض طويل نشفى منه بالموت، مثلما يدخل الناقه حديقة جميلة، وأن الموت مثل عبير المر يحمله ريح النيل العذب بينما المسافر يجلس تحت الشراع الذى يزجيه الريح، وأن الموت مثل أوبة المحارب المنهوك

القوى الذى كان يسير فى المياه البعيدة ثم يقترب من وطنه، أو مثل السرور الذى يحدث فى نفس الأسير العائد من المنفى النائى إلى الوطن السعيد. فتلك الصور لها تأثير شامل يؤثر فى نفس كل إنسان فى أى عصر وفى أى جو(١٠).

وموضوع المنظومة الرابعة هو النظرة العاجلة إلى المستقبل النهائى، الذى لم تتعرض لذكره الأنشودة السابقة قط. فإننا نجد فى كل من مقاطعها الثلاثة أنه يبتدئ بقوله: «إن الذى هنالك»، وهو تعبير عادى، وبخاصة إذا ورد بصيغة الجمع. «إن الذى هنالك» يقصد به الأموات، وقد سبق أن رأيناه فى النصيحة الموجهة إلى «مريكارع». فمن ذلك «أن الذى هنالك» سيكون نفسه إلهًا «ويوقع عقاب الشر على مرتكبه» لا على البرىء كما هو الحال فى حياة ذلك التعس الذى نحن الآن بصدده. ومن ذلك أيضًا «أن الذى هنالك ينزل فى السفينة السماوية مع إله الشمس وسيرى أن أحسن القرابين تقدم لمعابد الآلهة ولا تصرف (عبثًا) فى الرشوة أو يسلبها السراق من الموظفين». ومنه أيضًا: «إن الذى هنالك» هو حكيم محترم لا يطرد عندما يشكو إلى الموظفين الفاسدين بل يوجه شكايته إلى إله الشمس «رع» ويهيئ له تلك الفرصة وجوده يوميًا مع الإله.

وقد سبق أن أعلن ذلك التعس فى بداية شجاره مع روحه أنه مقتنع بتبرئته فى عالم الآخرة، ثم هو يعود مرة ثانية إلى ذكر ذلك الاقتناع فى المنظومة الرابعة التى هى خاتمة تلك الوثيقة المهمة. وبذلك تكون قد اختتمت بحل كالحلول التى تصورها نبى الله «أيوب» (عليه السلام) أى الالتجاء إلى العدالة فى الحياة الآخرة (ولو أن «أيوب» (عليه السلام) لم يتخذ من ذلك مبررًا لطلب الموت). وبذلك يكون الموت طريقًا إلى الدخول فى قاعة المحاكمة الإلهية. ولذلك وجب السعى إلى بلوغ تلك النهاية سعيًا سريعًا. فيقول:

الميزات السامية للقاطنين هنالك: (يعنى فى الآخرة)

«إن الذى هنالك، سيقبض على المجرم كإله حى، ويوقع عقاب السوء على من اقترفه.

إن الذى هنالك، سيقف فى سفينة الشمس، ويجعل أحسن القرابين هنالك تقدم للمعابد.

إن الذى هنالك، سيكون رجلاً عاقلاً غير منبوذ، مصليًا «لرع» حينما يتكلم».

ولما كان هذا التعس يتوق للخلاص السار الذى يهيئه له الموت، وكان يظهر عليه أنه قد استعاد بعض الثقة بما سينعم به من الميزات السامية فى عالم الآخرة، فإننا نرى روحه تستسلم فى النهاية، فيدخل فى ظلال الموت ويسير فى طريقة ليكون مع «أولئك الذين هنالك».

على أننا نحن بدورنا نرقب بكثير من التأثر هذا الرجل المجهول (الذى يعد أقدم روح بشرية معروفة لنا يذهب إلى تلك الحجرات الداخلية التى سمحت لنا الأحوال بأن نلقى عليها نظرة سريعة، بعد أن مر عليها أربعة آلاف من السنين.

وكان رجال ذلك العهد الإقطاعى يجدون لذة عظيمة فى مثل تلك المؤلفات الأدبية. وقد قام بنقل هذه الورقة التى نحن بصددها، المحفوظة فى برلين، كاتب لا تزال ملاحظته الختامية ظاهرة تقرأ بوضوح فى نهاية تلك الوثيقة، وهى: «لقد انتهيت من نسخها من البداية إلى النهاية طبق الأصل المكتوب»: فيكون قد نقلها إذًا من أصل قديم، ولا شك أنه كانت توجد عدة صور منقولة مثلها على رفوف مكتبات رجال الفكر فى ذلك العصر.

وإن قصة ذلك التعس ترجع فى أصولها إلى التجارب الشخصية التى كان يعانيها فعلاً رجال ذلك الزمان، ولذلك كانوا يجدون فائدة من مطالعتها لأنها فى الواقع علامة واضحة فى نمو الشعور الذاتى الطويل المدى، وهو التطور البطىء الذى انتهى بظهور الفرد باعتباره قوة خلقية فصار الفرد يشعر بأن له ضميرًا مسيطرًا يستطيع بإيحائه أن يواجه المجتمع وينتقده.

وذلك الموقف الذى يقفه الرجال الشاعرون بالمسئولية الخلقية العظيمة معروف لنا نحن أهل هذا العالم الحديث من الأمثلة التاريخية العديدة، مثل الأنبياء العبرانيين وعيسى ومحمد (صلوات الله عليهم أجمعين) وعدد عظيم أيضًا

من الأنبياء الأوروبيين من «سفونارولا»[11] إلى «جون ويزلى»[12]. غير أن تجاريب البشر لغاية عصر الإقطاع المذكور (أى منذ ٤٠٠٠ سنة مضت إلى الآن) لم تكن قد أنتجت لنا حتى ذلك الوقت شبيهًا لرجل من هؤلاء، فكان ظهور أشباههم فى وادى النيل فى ذلك الوقت يعد حادثًا مهمًا من الحوادث التاريخية الخطيرة الشأن. كما يعد دليلاً قاطعًا على ظهور ميدان جديد للفكر الإنسانى، والمسئولية الإنسانية. ولنستعرض الآن ذلك بشىء من التفصيل.

فبالرغم من أن قصة ذلك التعس هى قصة تجربة شخصية لفرد واحد فإنها مع ذلك تحمل فى ثناياها ما يصح أن يكون تحليلاً لأحوال ذلك المجتمع، الذى ترجع إلى نقائصه بوجه عام تلك التجربة الفردية التى مرت بها حياة ذلك التعس.

وفى نصائح «بتاح حتب»، وفى خلال عصر الدولة القديمة كله، وحتى إلى عصر النصيحة الموجهة إلى «مريكارع»، كان المفكرون المصريون الاجتماعيون يجدون سرورًا عظيمًا فى البحث فى المثل العليا للخلق العظيم برزانة وتدبر، وقد أدى بهم ذلك إلى تصورات سامية ونبيلة حقًا. غير أنهم لم يوجهوا فكرهم إلى موازنة تلك التصورات السامية بالمستوى الخلقى المنحط الذى كان يعيش به المجتمع البشرى بالفعل.

وفى النصيحة الموجهة إلى «مريكارع» نجد ذم «ثور الذى يقترف الظلم»، كما نجد بعض الشعور بأن خطايا الإنسان تكدست بجانبه يوم الحساب مثل الجبال، ولكننا بجانب ذلك لا نجد شعورًا بانحطاط المجتمع الخلقى. وها نحن الآن نقترب من الدخول فى عصر صار فيه الحكماء المصريون على علم بالفرق الشاسع بين المثل العليا الموروثة للأخلاق العظيمة وبين الانحطاط الخلقى المخيف الظاهر فى المجتمع الذى يحيط بهم. وليس هناك من جديد فى تجاربنا المشابهة لذلك فى العصر الحاضر، ولكن فى تجربة التعس المنكود دار البحث أو كاد يقصر على شخص الكاتب، ومن ناحية أخرى نجد اهتمامًا عظيمًا بأمر الانحطاط الخلقى قد أخذ يبدو، مضافًا إليه قدرة الباحث على تأمل وإدراك ما

كان عليه الناس من حقارة ومهانة، يتضح ذلك من موضوع تناول الأفكار المحزنة المشبعة بروح التشاؤم عن ذلك العصر العظيم، عصر الوعى النفسى النامى وأول عصر كشفت فيه الأوهام من المجتمع.

وقد عبر لنا عن تأملاته المحزنة عن المجتمع كاهن من كهنة عين شمس يدعى «خع خبررع سُنب» كان يعيش فى ذلك العصر. وذلك فى مؤلف كان لا يزال متداولاً بعد تأليفه بقرون طويلة حينما نقله كاتب من عصر الأسرة الثامنة عشرة على لوحة من الخشب محفوظة الآن بالمتحف البريطانى. وهذا المؤلف له أهمية خاصة، إذ يدلنا بمجرد الشروع فى تلاوته على أن أمثال أولئك الرجال الذين عاشوا فى العهد الإقطاعى كانوا يشعرون شعورًا تامًا بأنهم يفكرون على نمط جديد، وأنهم قد أقلعوا عن التلطف التقليدى الذى كانت تتميز به حكمة آبائهم. ويفتتح كاهن عين شمس هذا مقاله القصير بما يأتى: «ليتنى كنت أعرف صيغًا للكلام لا يعلمها أحد وأمثالاً غير معروفة أو حتى أحاديث جديدة لم تذكر (يعنى من قبل) خالية من التكرار، لا ذلك الكلام الذى جرت به الألسن من زمن بعيد مضى، وهو ما تكلم به الأجداد....

إنى أقول ذلك بحسب ما قد رأيت، مبتدئًا بأقدم الناس حتى وصلت إلى أولئك الذين سيأتون بعد....

إن العدالة قد نبذت وأخذ الظلم مكانه فى وسط قاعة المجلس، وخطط الآلهة قد انتهكت حريتها وأهملت نظمها، والبلاد صارت فى هم، والحزن عم كل مكان، وصارت المدن والأقاليم فى عويل، وكل الناس صاروا على السواء يرزحون تحت عبء الظلم. أما الاحترام فإن أجله قد انتهى...

وعندما أريد أن أتحدث عن كل ذلك تنوء أعضاء جسمى بحمله، وإنى فى بؤس من أجل قلبى المحزون، وإنه لألم أن أهدئ روعى من جهته. ولو كان قلب آخر لانثنى (ولكن) القلب الشجاع فى الملمات يكون رفيقًا لسيده. ليت لى قلبًا يتحمل الألم. فعندئذ كنت أركن إليه... فتعال إذًا يا قلبى لأتكلم إليك، ولتجيبنى عن كلامى ولتفسر لى ما هو كائن فى الأرض... إنى أفكر فيما قد حدث. إن

المصائب تقع اليوم، ومصائب الغد لم تأت بعد، وكل الناس لاهون عن ذلك، مع أن كل البلاد فى اضطراب عظيم. وليس إنسان خاليًا من الشر، فإن جميع الناس على السواء يأتونه، والقلوب بالحزن مفعمة. فالآمر والمأمور صارا سواسية، وقلب كل منهما راضٍ بما حصل، والناس عليه (يعنى الشر) يستيقظون فى صباح كل يوم ولكن القلوب لا تنبذه، ولا تزال اليوم على ما فعلته فى ذلك بالأمس. فلا يوجد إنسان عاقل يدرك، ولا إنسان يدفعه الغضب إلى الكلام، والناس تستيقظ فى الصباح كل يوم لتتألم. إن مرضى ثقيل وطويل. والرجل الفقير ليس له حول ولا قوة لينجو ممن هو أشد منه بأسًا. وإنه لمؤلم أن يستمر الإنسان ساكتًا على الأشياء التى يسمعها، ولكنه مؤلم أن يجيب الإنسان الرجل الجاهل».

ففى ذلك المقال نجد إنسانًا قد تحركت نفسه من أعماقها بما شاهده من فساد بنى قومه، فهو يتأمل هذا المجتمع بصفة كونه وحدة كاملة، ومع أنه كان دائمًا يشير إلى بؤسه فيما ذهب إليه، فإن شقاءه لم يكن هو العبء الرئيسى الذى يقصده بكلامه، بل كان كل همه منصرفًا إلى المجتمع الذى كان مكبلاً بالخمود غير قادر على إدراك شقائه، وحتى لو كان شاعرًا به بأية حال فإنه لم يكن لديه الكفاية التى تمكنه من إصلاح ذاته. وإن كثيرًا من تأملاته، الخليقة بأن نجد لها المقام اللائق بها بين أقوال الناقدين الاجتماعيين فى عصرنا هذا ممن امتازوا بحاسيتهم الخلقية. فمن الواضح إذًا أن الإنسان قد وصل وقتئذ إلى عصر استيقظ فيه القوم لأول مرة فى تاريخ البشر وشعروا بإحساس عميق بما أصاب المجتمع البشرى من الانحطاط الخلقى.

وقد كان هذا الاتجاه الجديد فى تفكير أولئك المفكرين الاجتماعيين راجعًا إلى حد ما إلى ظهور إدراك خلقى حساس متزايد. ولكن أسبابًا أخرى ساعدت على انقشاع الوهم. فهؤلاء المفكرون كانوا قد تأثروا تأثرًا عميقًا بتأملهم للحياة البشرية الاجتماعية فوق الأرض والمصير الإنسانى للحياة الآخرة فيما بعد الموت. وقد لاحظنا فيما سبق بعض ما شعروا به من خيبة الأمل عندما انكشفت لهم عدم فائدة العوامل المادية المحضة لضمان سعادة الروح فى الدار الآخرة. فهذه

الأمور المادية التى كانت تقليدًا للأجداد يرجع تاريخه إلى أزمان غابرة قد انهدمت، وبانهيارها ذهب معها كل ما كان يعتبر ضمانًا لحياة الإنسان فى عالم الآخرة. ومن المحتمل أن ثقتهم التقليدية المتينة فى حكمة أجدادهم كانت قد انهارت من أساسها انهيارًا عنيفًا، لأنه إذا كان ذلك موقفهم من التقاليد الموروثة الخاصة بالحياة فى عالم الآخرة فإنهم صاروا أقل اقتناعًا بما يتعلق بالحياة الراهنة. فقد قام لمدة ألف سنة نظام قومى ثابت الأركان كان يمثله ويحافظ عليه الفرعون، وكان اسم ذلك النظام «ماعت» (أى الصدق ـ الحق ـ العدالة). ولكن هذا النظام كذلك قد أخذ هو الآخر ينهار إذ ذاك، فقد رأينا بالفعل فى النصيحة الموجهة إلى «مريكارع» أن الأمة قد انقسمت قسمين، شمالى وجنوبى، وأن الملك كان همه منصرفًا إلى تحصين مملكة الشمال من خطر الغزاة الأجانب. وقد انحلت تدريجيًا قوة الأمة النظامية التى دامت مدة طويلة، حتى كشف الغزاة الأجانب عن مواطن الضعف فى البلاد التى كانت فى يوم ما أمة عظيمة، وتدفق الغزاة الأجانب إلى الدلتا من جهة آسيا شرقًا، ومن جهة لوبيا غربًا. وهكذا سادت الفوضى فى البلاد تمامًا. ولابد أن تلك النكبة هى التى وصفها لنا كاهن عين شمس المتقدم ذكره فى الرثاء الذى أوردناه.

وقد أظلم تفاؤل حكماء الدولة القديمة الهادئ، الذى عبرت عنه حكم «بتاح حتب»، على أثر وقوع نكبة مزدوجة، كانت أولاً ضياع الأمل جملة فى الحياة الأخرى؛ ذلك الأمل القائم على إعداد العتاد المادى الوفير للحياة الأبدية؛ وثانيًا الانهيار المحزن لذلك النظام الإدارى الخلقى الذى كان يبدو خالدًا، والذى كان الدعامة التى قامت عليها حياة المجتمع البشرى للأمة المصرية القديمة. وقد هوى فى ظلام شامل أمل الرجال المفكرين ـ مثل كاهن عين شمس ـ فى هذه الحياة والحياة المقبلة، ولم يكن فى مقدور أحد حتى إله الشمس نفسه كشف هذه الغمة، إذ فى خلال حياة قومية دامت نحو ألفى سنة قد أقامت الإنسانية المنظمة بعض القيم الخلقية التى كان ينتظر لها الدوام والاستمرار، ولكن ما كان يعتز به القوم من تلك القيم الخلقية قد محى كلية.

وقد كان ذلك أول عصر معروف فى التاريخ كشف فيه عن الأوهام الاجتماعية، على أن مثل ذلك الانهيار الظاهرى قد حاق بالآمال البشرية مراراً عدة منذ ذلك العهد، وكان آخر تلك الانهيارات ما حدث بنا بعد الحرب العالمية مما لا يزال يخيم علينا للآن بويلاته. فهل كان العويل على تلك الحال هو الجواب الوحيد الذى أجاب به المصريون الأقدمون حينما كانت تلك الأشباح التى تقشعر منها الأبدان تخيم حولهم؟!

وإننا نرى من ناحيتنا نحن الذين لا نزال نحارب الفساد ونعالج سوء الإدارة الموجودين للآن فى الحكومة البشرية فى جميع العالم، أنه من الأمور المهمة فى نظرنا أن نتتبع ما أجاب به أولئك القوم، الذين مضى على زمنهم ٤٠٠٠ سنة، من جواب جرىء وأفكار صائبة عندما وجدوا أنفسهم قد أصبحوا مغمورين فى مثل تلك النكبة التاريخية الأولى التى حفظتها لنا الوثائق الإنسانية القديمة المدونة.

هوامش الفصل العاشر:

(١) كان أول من أشار إلى هذه الحقيقة هو الأستاذ «جاردنر» فى ترجمته الجريئة لكل هذه الوثيقة. وإنى أميل إلى الظن بأن المعنى التام لهذه الفقرة المدهشة التى ذكرناها هنا لم يتمكن أحد منا من فهمها فهما تامًا.

وإنى أظن أن المؤلف يقصد من عبارته كالماء الذى يحل محله الماء إلخ، أن الإله الذى شبه بالماء إذا حل فى أى جسم كان سواء أكان من النحاس أو أية مادة أخرى فإنه لابد أن يجد لنفسه منفذا ليخرج منه ويظهر قوة، فإذًا يصير تصوير الإله فى أى شكل مادى ليس بالأمر المهم. (المعرب).

(٢) أى عمل يوم واحد.

(٣) راجع Griffith, Proceedings of the Society of the Biblical Archaeology, XVIII (1896), 195 ff Plate II, 15-16; & Gunn, journal of Egyptian archaeology, XII (1926). P. 282.

(٤) كان أول من وجد رابطة بين هذين الاقتباسين وبين التعاليم الموجهة إلى «مريكارع» هو الأستاذ «كيس»

H. Kees, A. Z., Vol., 63 (1928), P. 76-78.

(٥) هو أحد ملوك الأسرة الحادية عشرة.

(٦) يعنى الملك المتوفى الذى كتبت فى قبره الأغنية.

(٧) هذان السطران إنما يعيدان إلى الذهن توالى طلوع الشمس وغروبها بلا انقطاع. وكلمة «منو» معناها جبل الغرب الذى تغيب فيه الشمس.

(٨) أختك = زوجتك أو حبيبتك.

(٩) فمع أن القبر والخميلة المتصلة به هو تعب لا ثمرة فيه من جهة فإن القيمة الخلقية والشفقة على الفقير وما ينجم عن ذلك من حسن الأحدوثة سيبقى من جهة أخرى.

(١٠) إن تشبيهين من هذه التشبيهات غامضان: «فمجرى النهر الصغير» يحتمل أن يكون إشارة إلى مجرى الماء الجاف الذى تشبهت به الحياة. وامتلاء هذا المجرى فجأة بمياه الفيضان هو الانعاش الذى يرحب به وهو ما شبه به الموت. أما التعبير برجل يصطاد طيورًا لا يعرفها. فيحتمل أنه يشير إلى اقتراب الصائد من أقاليم غير مألوفة له. وأما التعبير «بالقعود على شاطئ السكر» فإن ذلك يمثل صورة اللذات البهيمية فى حانة على جسد طريق عمومى أطلق عليه هنا كلمة شاطئ.

(١١) «سفونا رولا جيرولامو» هو راهب من أهالى فلورنسا عاش فى نهاية القرن الخامس عشر م. وقد كان مصلحًا قويًا دعا جميع الناس أن يتوبوا من خطاياهم وقد تغالى فى إصلاحه حتى أنه أنب البابا نفسه على سوء أعماله. وكان له أعداء كثيرون منهم البابا الإسكندر السادس. وقد اتهم بالإلحاد وحكم عليه بالشنق، ثم حرق جسمه فيما بعد.

(١٢) «جون ويزلى» John Wesely ولد عام ١٧٠٣ ومات عام ١٧٩١ وهو مصلح دينىّ شهير وقد أسس طائفة الوزلية وهى مشهورة بآرائها الضيقة المتعصبة.

الفصل الحادى عشر

الأنبياء الاجتماعيون الأوائل وفجر المسيحية (التبشير)

إن ما أبرزه لنا كل من ذلك الرجل التعس وكاهن عين شمس المسمى «خع خبرورع سُنب» من سوء الظن المطلق بالحياة الدنيا، لم يكن أمرًا عامًا، إذ كان يوجد رجال مفكرون لا يزالون يمنون أنفسهم بدنو الأيام ذات الأحلام السعيدة فى المستقبل القريب، وذلك بالرغم مما يعرفونه عن فساد المجتمع وما ترتب على سوء الحكم فى البلاد من النتائج الوخيمة (يعنى خسوف ماعت).

ولما كان تدهور البلاد الإدارى نفسه له دخل عظيم فى وقوع تلك النكبة الاجتماعية بالبلاد، فقد جعل بعض المتفائلين يعتقدون بأن قيام حكومة أحسن حالاً مما هم فيه خليق بأن يعيد النظام المندثر ويعلن قدوم يوم أكثر إشراقًا بل انبثاق فجر «عهد ذهبىّ»، وإذ كانت الحال كذلك فهلموا إلى حكومة حسنة وليخسأ الفساد!

تلك هى الألفاظ التى ذاعت وشاعت إذ ذاك. على أنه لو كان فى مقدور أولئك المفكرين الذين يرجع تاريخهم إلى نحو ٤٠٠٠ سنة مضت للآن - أن ينظروا إلى المستقبل البعيد، وهم بحسب ما وصلت إليه معلوماتنا أول من حاولوا أن يوجدوا حكومة صالحة، لفقدوا شيئًا من شجاعتهم عند أمعان النظر فى تحقيقات نظام «تمانى[١]» أو محاكمة «كابون[٢]»، وكيف على كل حال يستطاع الوصول إلى حكومة أحسن حالاً مما كان؟

إن الجواب عن ذلك كان واضحًا جليًا عند المفكر الاجتماعى المصرى القديم، فقد كان بعض أولئك المفكرين مقتنعًا بإمكان الدخول فى عصر جديد على أساس جيل من الموظفين الأمناء العدول، رأى آخرون أن تحقيق ذلك يتأتى على يد ملك عادل مخلص مجدد ينقذ المجتمع مما فيه.

فعندما فحص رجال الطائفة الأولى الحياة رأوا وجوب التمسك بالمبادئ العملية السليمة للحياة الحقة التى يمكن أن تطبق على الحياة اليومية لطائفة الموظفين، وهؤلاء المفكرون كانوا لا يزالون يؤمنون بوجوب سيادة الحق الخالد؛ الذى هو «ماعت» القديمة، وقد استمروا عى تمسكهم بأهداب ذلك الأملِ ووجوب إعادتها للسيطرة على الحياة المصرية، وهذه الآراء قد عُبر عنها فى مقال يمكننا أن نسميه «الفلاح الفصيح». ومن حسن الحظ أن ذلك المقال لم يصل إلينا عن طريق نسخة متأخرة محرفة مثل الكثير غيرها من وثائق ذلك العصر التى وقعت بأيدينا، بل بقيت محفوظة حتى وصلت إلينا فى لفافة من البردى الفخم الذى كتب فى ذلك العصر الإقطاعى، وتلك اللفافة محفوظة الآن بمتحف «برلين».

على أننا لم نهتد إلى معرفة اسم مؤلفها، وهو أمر جرت به العادة فى مخلفات ذلك العصر المجهول، وقد وضع المؤلف بين أيدينا فى ذلك المقال مناقشاته فى هيئة قصة شرقية ممتعة، مؤلفة، ضمنها وهى فى شكلها المسرحى سلسلة من الأبحاث عن خلق الموظف المستقيم وما انطوت عليه روحه، وما ينجم عن ذلك من إقامة العدالة الاجتماعية والإدارية نحو الفقير.

ولعلنا بهذه المناسبة نذكر الكلمات الدالة على اليأس التى فاه بها «خع - خبرو - رع - سنب» حيث قال: «وصار الرجل الفقير لا قوة له تحميه ممن هو أقوى منه». ولعلنا كذلك نذكر أن «مريكارع» قد حدثه والده فيما نصحه به قائلاً له: «إن الموظف الذى يقول: «ليت لى» ليس عادلاً بل يظهر التحيز إلى جانب الفرد الذى بيده الهدية» (يعنى الرشوة)، وقد كان العلاج الذى نُصح به الأمير «مر يكارع» من والده فى «أهناسية» لإصلاح تلك الحال هو أن يجعل لكل موظف مرتبًا وفيرًا.

وسنرى الآن أن ذلك العلاج وحده كان غير ناجح، لأننا سنجد فيما يأتى بعد، أنه وقع على مشهد من القصر الملكى بجوار «أهناسية» اضطهاد غاشم أقدم على

ارتكابه موظف فاسد الأخلاق فى ضيعة «المدير العظيم لبيت الملك» فى ذلك الزمن وهو يدل دلالة قاطعة على أن الوظيفة ذات المرتب الضخم لا تغرس فى نفس صاحبها العدالة ولن تغنى الفقير شيئًا من اضهاد رجال الحكومة له.

ومن الأمور الشائقة أن نرى ذلك المفكر القديم الذى كتب «قصة الفلاح الفصيح» منذ ٤٠٠٠ سنة وهو يجاهد ليظفر بالتغلب عل تلك العقبة الكأداء، عقبة فساد الحكم التى بقيت منذ ذلك العصر من أعقد المسائل المستعصية على المشرفين على الإدارة فى الشرق، وهى فى الواقع مسألة لم يهتد إلى حلها حلاً كاملاً للآن فى مصر الحديثة حتى بعد وجودها تحت الإدارة الإنجليزية الحاذقة المجرية.

ومجمل هذه القصة أن فلاحًا من أهالى إقليم «الفيوم» فى منطقة وادى النطرون الواقعة فى الصحراء الغربية كان يقطن قرية تسمى «حقل الملح»، وجد أن مخزن غلال أسرته أشرف على النفاد، فحمل قطيعًا صغيرًا من الحمير بحاصلات قريته وسار به نحو مدينة «أهناسية» الواقعة بالقرب من مدخل «الفيوم»، يريد أن يستبدل بحاصلاته غلالاً، وكانت الحالة تحتم عليه المرور من طريق به منزل رجل يدعى «تحوتى ناخت»، وهو موظف صغير من موظفى «رنزى» الذى كان إذ ذاك من الأشراف وكان يحمل لقب «المدير العظيم لبيت الفرعون»، وكانت بلدة «أهناسية» مقرًا للملك، فعندما رأى «تحوتى ناخت» حمير ذلك الفلاح تقترب منه دبر حيلة لاغتصابها بما عليها، فأرسل على الفور أحد الخدم إلى منزله فجاء بصندوق مملوء من نسيج الكتان، فأخرج النسيج ونشره على الطريق العامة حتى غطاها كلها، من حافة حقله المزروع قمحًا الواقع على الجانب الأعلى من الطريق إلى ماء الترعة الذى يقع فى الجانب المنخفض منها، وكان ذلك الفلاح البرىء - كما تقول القصة - يتقدم فى سيره «على الطريق العامة لكل الناس»، وهى التى سدها «تحوتى ناخت» المذكور بنسيجه ذلك - ويلاحظ هنا ما تكشف عنه عبارة كاتب القصة من الغضب - ولما كان الفلاح يخشى السير فى فى الماء الذى فى الجهة المنخفضة من الطريق فإنه آثر السير بحميره المحملة فى الجهة العليا منها محازيا حافة حقل القمح، وفى أثناء السير التقم أحد الحمير

بضع سيقان من جذور ذلك القمح المغرى، فتهيأت بذلك فى الحال الفرصة المدبرة التى تمناها «تحوتى ناخت» الماكر الذى كان يترقب ذلك عن كثب، وفى هذه اللحظة تقدم الفلاح إلى «تحوتى ناخت» مقدمًا له الاحترام والخضوع بكلامه وهيئته، ولكن بما لا يحط من كرامته، فما كان من «تحوتى ناخت» المذكور إلا أن زمجر وسخط وقبض على الحمير، عند ذلك عاود الفلاح إيضاح ظروفه فى أدب واحتشام، ثم أردفه باحتجاج جرىء فانبرى يقول: «إن طريقى مستقيمة، وقد سد أحد جانبيها وعلى ذلك سرت بحميرى على تلك الحافة، أتغتصب حميرى لأن واحدًا منها التقم ملء فيه من سيقان قمحك؟ إنى أعرف رب هذه الضيعة، فهى ملك «مدير البيت العظيم» «رنزى بن مرو»، وأعرف أنه هو الذى يقضى على كل سارق فى أنحاء هذه البلاد، فهل أسرق فى ضيعته»؟ فلما أحفظت «تحوتى ناخت» جسارة هذا الفلاح أمسك بغصن من الأثل الأخضر وأخذ يضرب فريسته بدون رحمة ولا مبالاة بصياح الفلاح واحتجاجاته المتكررة، واستاق كل الحمير إلى منزله، وقضى الفلاح المسكين أربعة أيام يرجوه فيها إرجاع الحمير بدون جدوى، وطوال هذه المدة كان يتألم لبعده عن أسرته التى أشرفت على الموت من الجوع، فصمم على رفع شكواه إلى «مدير البيت العظيم» نفسه الذى حدث فى ضيعته ذلك الاعتداء الصارخ، وزاد الفلاح شجاعة فى رفع شكايته إليه ما اشتهر به «مدير البيت العظيم» من حبه للعدالة حتى صار مضربًا للأمثال فى عدالته، وبينما يقترب الفلاح من المدينة إذ قابله لحسن حظه، «مدير البيت العظيم» المقصود خارجًا من باب ضيعته الواقعة على النهر وهو يسير فى طريقه للركوب فى قاربه الرسمى فى الترعة. وعند ذاك استطاع الفلاح، بما أوتيه من أدب جم وسيطرة على أساليب البيان وتوجيه للأقوال الحسنة التى تليق لمثل ذلك المقام، أن يسترعى أذن ذلك الرجل العظيم، فأصغى إليه بعض لحظات فى أثناء ميسره لركوب قاربه، ثم أرسل بأحد خدمه ليسمع قصة ذلك الفلاح، فلما رجع الخادم وأخبر «رنزى» بتلك السرقة التى ارتكبها، «تحوتى ناخت» لم يسع «مدير البيت العظيم» إلا أن يبسط ذلك الأمر على حاشيته من الموظفين، فكان جوابهم إزاء ما حصل هو بيت القصيد الذى احتال المؤلف بمهارته حتى

جعله فرصته لأن يضع أمام القارئ - بدون تعليق - صورة واضحة للمعاملة الشائعة التى كانت تقابل بها مثل شكاية ذلك الفقير فى االدوائر الحكومية إذ انحاز فى الحال زملاء مدير البيت إلى جانب مرءوسهم «تحوتى ناخت» السارق ولذلك كان جوابهم على «رنزى» جوابًا ملؤه عدم المبالاة قائلين له: «إن القضية يحتمل أن تكون قضية فلاح قد دفع ما يستحق عليه من الضرائب إلى رئيس غير رئيسه خطأ، وإن «تحوتى» قد استولى على ما يستحقه من الضرائب بحق من الفلاح، ثم تساءلوا بغضب: «هل يعاقب «تحوتى ناخت» بسبب قليل من النطرون والملح؟ أو على أكثر تقدير فى موضوع كهذا، يصدر إليه الأمر بإعادتها، وهو بلا شك معيدها له»، ومما يلفت النظر هنا وينطبق على ما اعتادته طبقة أولئك الموظفين أنهم تجاهلوا الحمير كلية وهى التى كان ضياعها معناه موت ذلك الفلاح وأسرته جوعًا.

وفى ذلك الوقت نفسه كان الفلاح واقفا على مقربة يسمع بضياع ماله وخرابه المحتم، يتغاضى عنه رجال السلطة ويتجاهلون أمره، وفى تلك الأثناء كان «مدير البيت العظيم» يجلس شبه حالم فى صمت، وهذا المشهد يمثل لنا باختصار طابعا طبعت به عصور كاملة من التاريخ الاجتماعى فى الشرق، فمن ناحية نرى تلك الطائفة المنعمة من أتباع ذلك الرجل العظيم، بما نشأوا عليه من المطاوعة والملق، وهم فى ذلك يمثلون الطراز الغالب فى طبقة الموظفين. هذا من جهة، ومن جهة أخرى نشاهد صورة ذلك الفلاح المنكود الحظ الذى لا صديق ينصره وقد اغتصب متاعه فتتمثل فيه صورة مؤثرة للمطالبة بالعدالة الاجتماعية، وهذا المنظر يعد من أقدم الأمثلة الدالة على المهارة الشرقية فى تصوير المبادئ المعنوية فى شكل مواقف ملموسة، وهى التى صورت فيما بعد أبدع تصوير فى أقوال «عيسى» (عليه السلام).

أما ما كان من شأن ذلك الفلاح، فإنه لما رأى أن «مدير البيت العظيم» لم يحر جوابًا، حاول مرة أخرى أن ينجى نفسه وأسرته من الموت الذى كان يتهددهم جميعًا بسبب الجوع، فتقدم إلى الأمام خطوة وخاطب بفصاحة مدهشة ذلك الرجل العظيم الذى كانت قضيته الآن بين يديه، متمنيًا له سياحة طيبة عند

نزوله فى قاربه الذى كان فى الترعة، ثم لهج بشهرة «مدير البيت العظيم» فى فعل الخير، مما كان يعلل به نفسه عند رفع قضيته إليه، فكان من قوله له: «لأنك والد اليتيم وزوج الأرملة وأخ لمن هجره الأهلون وستر من لا أم له، دعنى أضع اسمك فى هذه الأرض فوق كل قانون عادل، يأيها القائد الذى لا يشوبه طمع، ويأيها الرجل العظيم الذى يتجنب الصغائر، ويحطم الظلم ويثبت الحق، أجب إلى الصيحة التى ينطق بها فمى فإذا تكلمت فعليك أن تسمع، أقم العدل أنت يا من قد مُدحت ويا من يمتدحه الممدوحون، اكشف عنى الضر، انظر إلى فأنى أحمل أثقالاً فوق أثقال، حقق أمرى، انظر، فإنى فى حيرة[٢].

وقد شعر «مدير البيت العظيم» بسرور عظيم من لباقة الفلاح، الخارقة للعادة، البادية فى حسن منطقه وفصاحة لسانه، حتى أنه تركه دون أن يقطع فى قضيته برأى وذهب على الفور إلى البلاط حيث قال للملك: «يا مولاى لقد عثرت على أحد أولئك الفلاحين يحسن القول بحق». فسر الملك سروراً عظيماً، وكلف «مدير البيت العظيم» أن يصحب الفلاح معه دون أن يقطع فى قضيته برأى، رغبة فى أن يرتجل له الفلاح خطبا أخرى أيضًا، وكذلك أمر الملك بتدوين أقواله بدقة وأن يقدم له الطعام وكل ما يلزمه، وأن يرسل خادمًا إلى قريته ليتحقق أن أسرته ليست بحاجة إلى شىء ما خلال تلك الفترة التى يقضيها عند الملك، وقد نتج عن تلك الإجراءات أن أخذ الفلاح يلقى على أسماع «رنزى» ما لا يقل عن ثمانى شكايات.

وعند هذه النقطة تنتهى هذه المقدمة التمثيلية، وهى التى كان الغرض منها أن تسبغ على ذلك المقال الاجتماعى ثوبًا يجعله فى صورة قصة، وبعد ذلك تبتدئ الخطب الثمانية التى يتألف منها جميعًا ذلك المقال الاجتماعى.

وتلك الخطب الموجهة إلى «مدير البيت العظيم» «رنزى» صور لنا فى أول الأمر خيبة الأمل المحزنة التى صادفها الفلاح فى اعتقاده بما اشتهر به ذلك الرجل العظيم من أنه لا يحيد عن العدل.

وعلى ذلك يبتدئ خطابه الثانى بالتقريع، فيقاطعه «رنزى» فى ذلك بالتهديد، فلا يثنى ذلك من عزم الفلاح ويواصل تقريعه.

أما خطابه الثالث فيعود فيه إلى مدائح كالتى كان ذكرها فى أول شكاياته «إلى رنزى»، فتراه يقول : «يا أيها المدير العظيم للبيت الملكى»، مولاى، إنك «رع» رب السماء مع حاشيتك، إن أقوات بنى الإنسان منك لأنك كالفيضان، وأنت إله النيل الذى يخلق المراعى الخضراء ويمد الأراضى القاحلة، ضيق الخناق على السراق، واحم التعس، ولا تكون كالسيل ضد الشاكى. احذر، فإن الأبدية تقترب، وفضل أن تعمل حسب المثل القائل «إن نفس الأنف إقامة العدل أو الحق (ماعت)». ونفذ العقاب فى من يستحق العقاب، وليس هناك شىء يعادل استقامتك، هل يخطئ الميزان؟ وهل تميل عارضة الميزان إلى أحد الجانبين؟.. لا تنطقن كذبًا لأنك عظيم (أنت بذلك مسئول). لا تكن خفيفًا لأنك ذو وزن، ولا تكلمن بهتانًا لأنك الموازين، ولا تحيدن لأنك الاستقامة، افهم إنك والموازين سيان، فإذا مالت فإنك تميل (كذبًا) ولسانك هو المؤشر العمودى للميزان، وقلبك هو المثقال وشفتاك هما ذراعاه».

وهذه المقارنات بين أخلاق «مدير البيت العظيم» وبين الموازين تظهر مرات متكررة فى خطب ذلك الفلاح[٤]، والعبرة التى تؤخذ من ذلك واضحة، إذ أن مفتاح الطريق الحق بأيدى الطبقة الحاكمة فإذا هم أخفقوا فى اتباعه ففى أى مكان آخر يمكن الحصول عليه؟ إذ كان المرجو منهم أن يوازنوا بين الحق والباطل ثم يفصلوا فيه بقرار عادل كالموازيين الدقيقة التى لا تخطئ. وبتلك الكيفية كانت الموازين تؤلف رمزًا شاع تداوله في الحياة المصرية حتي صارت كفتا الميزان تظهران (فى النقوش) بمثابة رمز مجسم لتصوير محاكمة كل روح فى عالم الحياة الآخرة.

وقد وجدت الموازين فى ذلك المقال لأول مرة فى تاريخ الأخلاق، وقد بقيت صورتها وهى منصوبة فى يد إلهة العدالة العمياء رمزًا لذلك إلى يومنا هذا.

والحقيقة أن ذلك الرمز ترجع نشأته إلى ظهوره بين رجال الفكر فى العهد الإقطاعى بمصر منذ أربعة آلاف سنة، ولم يكن الأمر قاصرًا على تصوير الميزان بأكمله بمثابة رمز للاستقامة فى ذلك العهد الإقطاعى، بل كانت أجزاؤه كذلك

تستعمل على الدوام لذلك الغرض أيضًا، فنجد «العامود الذى يرتكز عليه الميزان، كما نجد «عارضة» الميزان التى تتدلى منها كفتاه، وكذلك نجد بوجه خاص «خيط الميزان»، ونجد «الثقل» المربوط فيه وهو الذى يتدلى من قطعة خشبية بارزة عند قمة العامود الذى يرتكز عليه الميزان، ونجد كذلك «لسان» الميزان (المؤشر) الذى يمتد عموديًا إلى أسفل من وسط العارضة التى تحمل كفتى الميزان ويتحرك معها كلما تحركت، وعند الوزن يمكن موازنة اللسان دائمًا بخيط الوزن المعلق من خلفه، حتى إذا ما كان طرف اللسان على استقامة واحدة من خيط الثقل فإن عارضة الميزان تكون أفقية تمامًا وتكون الكفتان متوازنتين ومستويتين، وعلى هذا يكون خيط الميزان الذى لا يحيد هو الضابط الصحيح الذى يحفظ الميزان عن الخطأ.

ولا يفوتنا أن نلاحظ هنا أن الفلاح كان يذكر «مدير البيت العظيم» بظهوره أمام محاسبة الموازين التى لا تتحيز إلى جهة دون الأخرى، إذ يقول له: «احذر لأن يوم الآخرة يقترب»، وهذا المثل من الأمثلة القليلة التى يلتجأ إليها فى الشكايات بتحذير الظالم مما يتعرض له من المسئولية فى الحياة الآخرة. ويوجد كذلك مثال آخر من ذلك النوع فى تلك الوثيقة بالخطبة الثانية من خطب الفلاح.

وقد صارت الآن تهديدات الفلاح «لمدير البيت العظيم» أكثر مما يحتمل فى شدتها أثناء وقوفه أمام القصر، ومن أجل ذلك أرسل خادمين ليجلدا ذلك الرجل التعس، ولكن بالرغم من ذلك فإن الفلاح انتظر قدوم «رنزى» من غير خوف وهو خارج من معبد العاصمة وواجهه بخطبة رابعة، ثم تلاها بخطبة خامسة، وبالرغم من أن هذه كانت أقصر خطبه كلها فإنها ألذعها فى الاتهام، إذ يقول: لقد نصبت لتسمع الشكاوى، وتفصل بين المتخاصمين وتضرب على يد السارق، ولكنك تتحالف مع السارق، والناس تحبك رغم أنك معتد ولقد نصبت لتكون سدا للرجل الفقير يحميه من الغرق، ولكن انظر فإنك أنت فيضانه الجارف».

كل هذا و«رنزى» كان لا يزال ملازمًا للصمت. فيبتدئ الفلاح خطابه السادس لاجئًا من جديد إلى عاطفة العدالة التى اتصف بها «مدير البيت العظيم» وما اشتهر به من حب الخير، فيقول له: «يا مدير البيت العظيم»، اقض على الظلم

وأقم العدل وقدم كل ما هو خير وامح كل شىء، حتى تكون كالشبع الذى يقضى على الجوع، أو كاللباس الذى يخفى العرى، أو كالسماء الصافية بعد سكون العاصفة الشديدة، أو كالنار التى تطهو الطعام، أو كالماء الذى يطفئ الغلة».

ولما استمر «رنزى» لا يحير جوابًا أيضًا على ذلك الاستعطاف اهتاج الفلاح الشقى وعاد إلى نغمة القدح من جديد، فأخذ يقول له: «إنك متعلم ، إنك مهذب، لقد تعلمت ولكن لا لتكون سارقًا. إنك متعود لأن تفعل ما يفعله كل الناس وقد وقع مثلك أقاربك فى الأحبولة نفسها، وأنت يا من تمثل الاستقامة بين كل الناس قد صرت على رأس البغاة فى كل البلاد، إن البستانى الذى يزرع الشر، يروى حقله بالعسف ليثمر زرعه البهتان، وبذلك تغمر الضيعة بالشر.»

ومع ذلك فإن هذه الاتهامات لم تحرك ساكنًا عند «مدير البيت العظيم»، فأخذ الفلاح يفتتح خطبته السابعة، فيبدأ بالمديح المعتاد، فنراه يصف «مدير البيت العظيم» بأنه «السكان الذى توجه بأمره سفينة كل البلاد». ثم يرجع فجأة إلى وصف حالته التعسة، فيقول «إن جوفى[٥] مفعم، وقلبى مثقل، وإن فى السد لكسرًا يتدفق منه الماء، ولهذا فإن فمى مفتوح ليتكلم»، غير أن استمرار تغاضى ذلك الحاكم وعدم اكتراثه، وهو ذو الشهرة الذائعة بالعدل والرأفة، قد زاد فى غيظ ذلك الفلاح التعس وبلغ مبلغًا جعله يرى أن فى صمت مدير البيت العظيم ما يطلق ألسنة أكثر الناس غباء وعيًا، فنراه يقول له: «لا يوجد فرد صامت لا تحفزه حالتك إلى الكلام، ولا من نائم لا تجعله حالتك يستيقظ من رقدته، ولا من إنسان مكتئب إلا جعلته يثور، ولا من فم ارتج عليه إلا افترت شفتاه، ولا من جاهل إلا صيرته حالتك حكيمًا، ولا من غبى إلا جعلته حالتك يتعلم».

ولما لم يكن فى مقدور ذلك الفلاح أن يكبح جماح غضبه، فإنه أخذ يلقى خطبته الثامنة، واستمر فى قدحه فيقول: «إن قلبك جشع، وذلك لا يليق بك، إنك تسرق، وذلك لا ينفعك... إن الموظفين الذين نصبوا لدرء الظلم هم مأوى لمطلقى العنان، وحتى الموظفين الذين أقيموا لمنع الظلم أصبحوا أنفسهم ظالمين».

ومع كل ذلك فإن ذلك الفلاح لم ين عن المطالبة بتحقيق العدالة، ولذلك يعود من جديد إلى المطالبة بها فى أعظم عبارات فاه بها فى ذلك المقال العظيم، إذ يقول: «أقم العدل لرب العدل وهو الذى أصبح عدله حقًا، أنت يا من تمثل القلم والقرطاس واللوح، بل تمثل «تحوت»[٦] لأنك بعيد عن عمل السوء، على أن العدل عندما يكون قائما يكون حقيقة عدلاً، لأن العدالة (يعنى ماعت) أبدية، فهى تنزل مع من يقيمها إلى القبر عندما يوضع فى تابوته ويثوى على الأديم، واسمه لا يمحى من الأرض بل يذكر بسبب عدله وهكذا تكون استقامة كلمة الله».

على أن السؤال الذى ينشأ عن ذلك طبعًا بعد ذكر هذه الكلمات المؤثرة هو: هل لا يزال هناك مجال للظلم رغم ذلك، ولقد أخذ الفلاح (يسأل هذا السؤال) فقال: هل هو ميزان يد لا يحيد؟ هل هو ميزان ثابت لا ينحرف؟» أو هل مجرد العجز عن الوصول إلى تصحيح الخطأ المشين الذى حاق به هو الدافع إلى هذا الموقف، مع أن الحاكم العادل الذى فى قدرته أن يصلح هذا الخطأ كان حاضرًا منذ البداية؟ «إنك لم تكن مريضًا، إنك لم تفر، إنك لم تمت! (ولكن) لم تجازنى حسب الكلمة الطيبة التى خرجت من فم «رع» نفسه وهى: «تكلم الصدق وافعل الصدق[٧] لأنه عظيم ولأنه قوى ثابت، والجزاء عليه سيلاقيك وسيتبعك حتى *الشيخوخة الموقرة*».

ولما لم يفه «رنزى» بجواب على هذه الكلمات السامية، رفع الفلاح صوته عاليًا مرة أخرى، وألقى مرافعته النهائية اليائسة وهى خطبته التاسعة، التى يذكر فيها «مدير البيت العظيم» بخطر الانضمام إلى جانب الغش، لأن من يأت فعلاً كهذا «لا يرزق أولادًا ولا يجد من يرثه على الأرض، ومن يقلع فى سفينته (الغش) فلن يرسو على الأرض ولن تربط مراسى سفينته فى الميناء... ومن لا يكترث لا أمن له، ولا صديق لمن يصم أذنه عن الحق، والجشع لا يحظى بيوم سعيد... انظر *فإنى أبث شكواى إليك ولكنك لا تنصت، فسأذهب إذًا وأبث شكايتى منك إلى* «آنوب»». ولما كان «آنوب» هو إله الموتى فإن الفلاح كان يقصد من ذهابه إليه أنه سينتحر، وعندئذ يرسل «مدير البيت العظيم» خادمه ليجىء بالفلاح ثانية بعد أن هم بالرحيل، وإذ ذاك يتبادلان معًا بعض العبارات المبهمة المعنى، على أن «رنزى»

كان فى خلال ذلك الوقت قد دون فى بردية جديدة كل شكايات الفلاح بحسب ترتبها، والمفروض أن ما انحدر إلينا من تلك الوثائق هو نسخة من هذه البردية، ولكن مما يؤسف له أن خاتمتها ممزقة أشد التمزيق، ويمكننا أن ندرك أن لفيفة البردى التى أعدها أمناء أسرار «رنزى» قد حملها «رنزى» هذا إلى الملك، وقد وجدها الملك «سارة لقلبه أكثر من أى شىء فى كل البلاد».

وبعد ذلك يأمر الملك «مدير البيت العظيم» أن يفصل فى قضية الفلاح، وإذ ذاك يحضر المختصون بهذا العمل سجل الضرائب الذى يحدد الناحية التابع لها ذلك الفلاح بالصفة الرسمية، كما يبين موقفه القانونى والاجتماعى وعدد أفراد أسرته ومقدار ثروته، ثم يعقب ذلك فى الوثيقة بعض كلمات مفتتة، يقل عددها عن اثنتى عشرة كلمة، يمكننا أن نفهم منها على وجه التقريب أن «تحوتى ناخت» قد عوقب، وأن ممتلكات ذلك الموظف الجشع المغتصب قد أعطيت للفلاح.

ومما يسترعى النظر حقًا أن نجد أشراف رجال البلاط الفرعونى منذ أربعة آلاف سنة مضت يهتمون بإسعاد حال الطبقات الدنيا لدرجة أنهم كانوا يكلفون أنفسهم مشقة تدوين مثل تلك المقالات، التى لم تكن بداهة إلا بمثابة دعاية إلى نظام قوامه العدل والشفقة بالفقراء، وأمثال أولئك الرجال كانوا حملة أقلام لإعلان حرب مقدسة لنصرة العدالة الاجتماعية، وقد جعلوا ذلك المقال بالذات ممتعًا فى قراءته لطبقة الأغنياء الموجه إليهم ذلك المقال، وبالرغم من الغموض المستمر فى لغته، وأسلوبه الرنان واستعاراته القوية وتشبيهاته الغريبة، مما جعل الكثير من فصاحة ذلك الفلاح مستعصية الفهم على أبناء هذا العالم الحديث، فإن المقال قد اكتسب فى عصره مكانة جعلته أدبًا من الطراز الراقى، ولا شك أنه كتب بالأسلوب الذى كان مستحسنًا عند أهل ذلك العصر، وأن ذلك التهكم الفكه، اللاذع الذى يبدو فى بعض نواحيه كان مما يزيد فى شهرته الأدبية عند قدماء المصريين الذين كانوا محبين بطبيعتهم للتفكه، ولكنه مع ذلك كان أدبًا يرمى إلى غرض خلقى.

وقصة ذلك الفلاح الفصيح تعد تصويرًا حيًا ناطقًا عن عجز أولئك الموظفين الأمناء إذا لم يكن يشد أزرهم ملك عادل رءوف، وقد كان هناك فى ذلك العصر

مفكرون اجتماعيون يحسون بالحاجة إلى وجود حاكم عادل، وكان من بين الحكماء الذين يتطلعون إلى وجود مثل هذا الملك العادل، الحكيم «إبور»، وهو أحد الأنبياء الاجتماعيين الذين عاشوا فى ذلك العصر العظيم، وقد ألف مقالاً فى شكل تمثيلى مؤثر، لم يقتصر فيه على اتهام أهل عصره بحرارة فحسب، بل ضمن مقاله أيضا وصايا إيجابية، يرمى من ورائها إلى إيجاد نهضة يتجدد بها المجتمع، بل ذهب به الأمل أيضًا إلى ترقب عصر ذهبى يأتى به ذلك الإصلاح المنشود.

وتلك «الوثيقة» المذكورة تعد من أهم الوثائق التى تسترعى النظر بين كافة مجموعة تلك المقالات الاجتماعية والخلقية التى كتبت فى ذلك العهد - الإقطاعى، ويصح لنا أن نسميها، «تحذيرات إبور»[٨]، ومما يدعو إلى الأسف أن بداية هذه البردية قد فقدت، وهى الجانب الذى كان يحتوى على بيان الأحوال التى دعت ذلك الحكيم إلى الإدلاء بتحذيراته الواردة فى هذه الوثيقة، وإن كانت تلك الأحوال فى ظواهرها الرئيسية واضحة.

ويمكن تلخيص تلك الوثيقة فيما يأتى: يقوم الحكيم «إبور» بإلقاء اتهام طويل مفعم بالغضب عن حالة عصره أمام ملك (لم يعرف اسمه بالتحقيق الآن)، وبحضور آخرين يحتمل أنهم كانوا حاشية ذلك الملك مجتمعين عنده فى ذلك الوقت، وينتهى بالنصيحة والتحذير من الإهمال فى الأخذ بالإصلاح، ويلى ذلك رد قصير من جانب الملك، ثم ينتهى المقال بتعقيب قصير للحكيم المذكور على الرد الملكى.

وهذا الخطاب الرئيسى الطويل الذى قام بإلقائه ذلك الحكيم يشغل الجانب الأكبر من المقال، كما أن الاتهام يشغل من الخطاب ما لا يقل عن الثلثين (أى بنسبة نحو عشر صفحات من الأربع عشرة صفحة التى يحتويها الخطاب). على أنه لم يراع فى ذلك الاتهام أى ترتيب منطقى فى عناصره، بالرغم مما بذل من الجهد الظاهر فى تنسيق أقوال ذلك الحكيم بوضعها على هيئة مقاطع مقفاه وكل مقطوعة منها تبتدئ بالعبارة السابقة لها نفسها، على النمط الذى رأيناه فى شعر الرجل التعس.

وسنحاول فى الفقرات التالية أن نلخص أهم محتويات ذلك الاتهام على أساس المواضيع التى تناولها، كما أننا سنورد بعض العبارات بنصها ليتبين منها نوع الكلام الذى أفضى به ذلك الحكيم، ولما كانت هذه البردية ممزقة، ولغتها عويصة صعبة، فإن ترجمتها ترجمة متصلة من الأمور المستحيلة، حتى ولو توافرت الشروح التى تكفل إزالة هذه الصعوبة[٩].

يبدأ ذلك الحكيم بإلقاء نظرة ثاقبة على نظم الحياة لأهالى وادى النيل فى ذلك الوقت، فيجد أن كل شىء قد آل إلى الفوضى، فالحكومة قد وقفت حركتها تقريبا، «وقوانين قاعة العدل قد ألقى بها ظهريًا، فصارت تدوسها الناس بالأقدام فى المحال العامة، والفقراء يفضونها على قارعة الطريق[١٠]».

ويرجع السبب فى سوء النظام هذا إلى حالة الهياج والحروب الدائرة فى داخل البلاد: «فالرجل يضرب أخاه من أمه، فما العمل فى ذلك؟... انظر فإن الرجل يذبح وهو بجانب أخيه، فى حين أن أخاه يتركه حتى ينجو هو بنفسه... والرجل ينظر لابنه نظرته إلى عدوه... ويذهب الرجل إلى الحرث والزرع وهو مسلح بدرعه...»

ويضاف إلى سوء النظام وإلى الثورة الداخلية أهوال الغارات الأجنبية على البلاد، فإن أملاك مصر بعد أن صارت فريسة لسوء النظام والفتنة الضاربة أطنابها بالبلاد قد صار رجالها أيضًا غير قادرين على صد غزوات الأسيويين عن حدود شرق الدلتا، وحاق الهلاك بالأملاك المصرية ووقف سيل الحركة الاقتصادية: «انظر فإن كل أصحاب الحرف لا يقومون بأى عمل قط، وأعداء البلاد يفقرونها فى حرفها. (انظر إن الذى يحصد) المحصول لا يعرف عنه شيئًا ومن لم يحرث الأرض (يملأ أهراءه)... انظر إن الماشية قد تركت ضالة فى السبيل ولا يوجد أحد يجمعها ويلم شتاتها، فكل إنسان يأخذ لنفسه منها ما يسمه (يعنى بالكى)... والحروب الداخلية لا تأتى بضريبة... ومائدة بيت المال الذى لا دخل له؟»

والتجارة الخارجية تنحط وتختفى فى مثل تلك الأحوال التى كانت عليها داخلية البلاد، «فأصبح القوم لا يقلعون بسفنهم شمالاً إلى «جبيل»[١١]، وإذًا ماذا نصنع للحصول على خشب الأرز اللازم لمومياتنا، وهو الذى من خراجه تدفن الكهنة ومن زيته تحنط الأمراء حتى بلاد «كريت»، وقد أصبحت (يعنى الأخشاب) لا ترد».

والوقوع فى مثل تلك الأحوال كان محتملاً، لأن الأمن العام والتجارة قد اختفى أثرهما، وبالرغم من أن الطرق كانت محروسة فإن الناس كانوا يترصدون فى الأدغال حتى يمر السائح الذى دهمه الليل ويسلبوه ما يحمل ويجردوه مما معه بالعصى ويذبح ذبحا شنيعًا». «وفى الحق إن البلاد كانت تدور على عقبها (أى أن نظام الأشياء مقلوب رأسًا على عقب) كما تدور عجلة صانع الفخار، فمَن كان لصًا صار رب ثروة، والغنى صار إذ ذاك إنسانا منهوبا»، وهكذا انقلبت أوضاع كل الأشياء، طبقًا لما يدل عليه مفهوم تشبيهها بعجلة صانع الفخار، فانهارت الشئون الاجتماعية انهيارًا تامًا،

وإننا نجد فى أطول مجموعة من فقرات تلك الوثيقة - التى أنشئت على وتيرة واحدة - أن ذلك الحكيم يضع أمامنا صور تغير الأحوال بالنسبة لأفراد معينين وطبقات خاصة من المجتمع، فيضاهى فى الفقرة الواحدة بين ما كان عليه الماضى وما هو جارٍ فى ذلك الوقت، إذ نراه يقول: «انظر إن الذى لم يكن يملك زوجا من الثيران صار الآن صاحب قطيع منها، وذلك الذى كان لا يجد ثورًا لحرثه صار الآن يملك قطيعًا، انظر إن الذى لم يكن يملك غلالاً صار الآن صاحب مخازن من القمح، وذلك الذى كان يذهب للبحث عن الغلال لنفسه صار هو الآن يخرجها من مخزنه».

ولا شك أن للانحطاط الخلقى شأنًا فى ذلك الخراب الشامل الذى حاق بالبلاد، وإن كان لم ينص صراحة على أنه هو السبب الظاهرى لذلك البؤس العام، إذ نراه يقول: «إن المتحلى بالفضائل يسير وهو محزون لما حدث فى البلاد، ويقول آخرون: «لو كنت أعلم أين يوجد الإله لقدمت له قربانًا، وفى الحق إن (العدالة) موجودة فى البلاد باسمها فقط، وما يلقاه الناس حينما يلتجئون إليها هو العسف[١٢]».

فلا عجب إذًا من وجود ذلك اليأس الشامل: «وفى الحق إن السرور قد مات ولم نعد نتذوقه بعد، ولا يوجد فى الأرض إلا الأنين المزوج بالحسرات».

«وفى الحق أن كلاً من العظيم والحقير صار يقول: ليتنى كنت ميتًا، ويقول الأطفال الصغار: ليتنا لم يعلنا أحد ومتنا قبل هذا...، وفى الحق إن قلوب كل القطعان صارت تبكى، والماشية تئن بسبب حالة البلاد».

على أنه لم يكن فى مقدور ذلك الحكيم أن يشاهد كل ذلك دون أن تثور عواطفه، فكان بدوره متأثرًا تأثرًا عميقًا، لتلك الكارثة العامة ويطلب من الله أن يقضى على كل شىء، إذ يقول ليت الناس يفنون، فلا يحدث حمل ولا ولادة، وليت البلاد تخلو من الغوغاء حتى يقضى على الشجار»، وكان ذلك الحكيم يقرع نفسه لأنه لم يسع من جهته لإنقاذ ذلك الموقف من قبل، إذ يقول أيضًا: «ليتنى رفعت صوتى فى ذلك الوقت، حتى كنت أنقذ نفسى من الألم الذى أنا فيه الآن، فالويل لى لأن البؤس عم فى هذا الزمان».

تلك هى الصورة القاتمة التى صورها لنا ذلك الحكيم المصرى القديم، ويجب أن نعتبر تلك الشكاية، التى سبق أن قلنا إنها تشغل ثلثى الوثيقة كما حفظت لنا، أنها وصفت الحالة عند قدماء المصريين فى عهد معين، على أن العلاقة الوثيقة التى بين ذلك المقال والمقالات الأخرى التى من ذلك العهد الإقطاعى، من حيث اللغة والفكر ووجهة النظر، لا تدع للشك مجالاً فى تحديد تاريخ عهدها بالضبط، ولا شك أن حالة مصر السيئة التى صورها لنا ذلك الحكيم هى ظواهر الحالة التى أعقبت انهيار نظام الحكومة والاعتداء على البلاد الذى جاء إثر سقوط الدولة القديمة، أى فى نهاية عصر الأهرام، وانحلال الاتحاد الثانى.

ولأن «إبور» كان فى شدة التأثر لتلك الحال الموئسة التى صورها، لم يشأ أن يتخلى عن أهل الجيل الذى عاش فيه بل عمد فى النهاية، كما كان منتظرًا، إلى تبين السبب الذى يدعو إلى الأمل، ومع أنه تصادفنا عند الوصول إلى هذه النقطة فجوة كبيرة فى تلك البردية، فإننا نجد فى النهاية أهم فقرة فى جميع مقال ذلك الحكيم، وهى تعتبر من أروع ما دون فى كل الأدب المصرى القديم.

ففى هذه الفقرة العظيمة يتطلع ذلك الحكيم إلى المستقبل، متوقعًا إعادة البلاد إلى سيرتها الأولى، وذلك فى نظره بلا نزاع نتيجة طبيعية للنصائح الإصلاحية التى كان قد فرغ من غرسها فى قلوب مواطنيه، فهو يرى الحاكم الأمثل الذى يتوق إلى قدومه، وهذا الملك المثالى الذى قد حكم مصر فى يوم من الأيام باسم إله الشمس «رع».

ولما كان ذلك الحكيم يرى فى سلطته المقدسة العصر الذهبى فإنه يوازن بينه وبين الحكم الغاشم الذى ترزح تحت عبئه البلاد فى عصره، فنراه يقول: «فهو يطفئ لهيب (الحريق الاجتماعى)، ويقال عنه إنه راعى كل الناس[١٣]، ولا يحمل فى قلبه شرًا، وحينما تكون قطعانه قليلة العدد فإنه يصرف يومه فى جمع بعضها إلى بعض وقلوبها محمومة[١٤] (من الحزن)، ليته عرف أخلاقها فى الجيل الأول، فعندئذ كان فى مقدوره أن يضرب الشر وكان فى قدرته أن يمد ذراعه ضده (يعنى الشر)، وكان فى مقدوره أن يقضى على بذرتهم هناك وعلى وراثتهم... فأين هو اليوم؟ هل هو بطريق المصادفة نائم؟.. انظر إن بأسه لا يرى...»

فنجد فى ذلك صورة الملك الأمثل، وهو الحاكم العادل الذى لا يحمل فى قلبه شرًا، وهو الذى يجول بين رعيته كالراعى يجمع شتات قطيعه لمتناقص الظمآن إن مثل ذلك الحكم العادل الذى نجد له نظيرًا فى حكم نبى الله «داود» (عليه السلام) عند العبرانيين قد حدث، ويمكن أن يحدث ثانية، على أن عنصر الأمل فى ظهور الملك الصالح المنتظر كان فى نظره أقرب من حبل الوريد، بل كان محققًا عنده، كما تدل الكلمات الختامية التى وردت بالفقرة السابقة عند قوله: «أين هو اليوم، هل هو بطريق المصادفة نائم؟ انظر إن بأسه لا يرى». ولا يسعنى (لإبراز المعنى المقصود) إلا أن أضيف إلى الجملة الأخيرة لفظى «حتى الآن».

على أن الأهمية الخاصة التى نستنتجها من تلك الصورة تنحصر فى أن المثل العليا الاجتماعية أو الحلم الذهبى لمفكرى ذلك العصر البعيد على أقل تقدير، إن لم نقل منهجهم الاجتماعى، كانت تشمل الحاكم الأمثل الطاهر النقى الخير المقاصد الذى يعز عشيرته ويحميها ويسحق الأشرار، وسواء أكان التنبؤ بقدوم

هذا الحاكم محددًا أم لا، فإن صورة أخلاقه وأعماله قد كشف النقاب لنا عنها ذلك الحكيم القديم. وقد كشف النقاب عنها فى حضرة الملك الموجود إذ ذاك، وفى حضرة أولئك الذين اجتمعوا حوله حتى يقتبسوا شيئًا من بهائه. وذلك بطبيعة الحال هو عين التبشير بالمسيحية قبل أن تظهر بين العبرانيين بما يقرب من ١٥٠٠ سنة.

وقد أدت الموازنة الفظيعة التى كانت تجول فى ذهن ذلك الحكيم المصرى القديم بين حكم الملك الأمثل وبين حكم الفرعون الجالس على العرش، الذى يقف فى حضرته، إلى أن ينطق الحكيم بأقسى الاتهامات ضد مليكه، فكان مثله فى ذلك مثل «ناثان»[١٥] عندما وجه كلماته اللاذعة إلى «داود» (عليه السلام) قائلاً : «أنت هو الرجل» فلقد وضع الحكيم مسئولية كل ما صوره من مساوئ فوق عاتق الملك، إذ يقول لمليكه «إن الأمر الملكى، والمعرفة والعدالة (يعنى ماعت) فى قبضة يدك، ولكن ما تضعه فى البلاد هو النزاع وصوت القلاقل.. ولقد فعلت ذلك لتشتد علينا هذه الأمور، لقد نطقت زورًا وبهتانًا».

وعندما انتهى ذلك الحكيم من خطابه الطويل، أجابه الملك بنفسه على أقواله، غير أنه ليس فى وسعنا أن نصل إلى ما قاله الملك فى إجابته على الحكيم مما بقى لنا من تلك النتف المفتتة من الصفحة الممزقة التى دونت عليها الإجابة.

وقد وصلت تقريعات ذلك الرجل الحكيم إلى قمتها فى قوة التعبير حين أشار إلى أخلاق الفرعون التقليدية وهى التى كانت تشمل الأمر الملكى والمعرفة والعدالة (يعنى ماعت)، أى النظام الإدارى والخلقى القديم الذى حافظ عليه ملوك الاتحاد الثانى مدة ألف سنة، وهو الذى قد حلت الآن محله الفوضى.

فيتضح الآن تمامًا من ذلك أن حالة سوء النظام الشاملة التى وصفها فى أقواله «إبور» قد ظهرت فى فترة من العهد الذى جاء بعد سقوط الدولة القديمة. ويستحيل علينا الآن أن ندرك موقف ملوك «أهناسية» الذين أنتجوا مثل تلك المقالات المثالية المدهشة، أو نحدد علاقتهم بانهيار نظام الحكم، فهل كان احتذاؤهم المثل الأعلى الاجتماعى فى مثل ذلك العصر، سببًا من أسباب ضعفهم

السياسى؟ لقد لاحظنا أنه من وسط ذلك الخراب القومى الذى صور لنا بتلك الكيفية من غير تحفظ، أن الحكيم «إبور» كان ما يزال يحمل فى نفسه بعض الأمل فى إنقاذ البلاد من ذلك الخراب، فهل كان فى ذهنه بعض الرجال المعروفين بقوة الشكيمة ممن أبقى عليهم الدهر من أسر الأمراء القدامى؟ على أنه من الجائز أن آماله كانت موجهة إلى قائد كان «بأسه لا يرى»: يؤيد ذلك ما فاه به حكيم آخر كان يعيش فى ذلك العصر نفسه (وسنصغى لكلامه وشيكًا) كما يؤيده ما تساءل به حكيمنا المذكور بتدبر وإنعام إذ يقول: «أين هو اليوم؟ هل هو بطريق المصادفة نائم؟»

والواقع أن حكيمًا آخر من ذلك العصر نفسه كان يجول فى ذهنه شخصية الملك المنتظر الذى سيكون فاتحة للعصر الجديد المنتظر، لأنه لم يتردد فى ذكر اسمه، كما سيأتى الآن قريبًا.

ولدينا فى بردية أخرى عثر عليها «جولنيشف[١٦]»، وهى موجودة الآن بمتحف «لينينجراد»، نبوءات كاهن مرتل اسمه «نفرروهو» وهو يدعى أنها ألقيت فى حضرة الملك «سنفرو» أى قبل العصر الذى بصدده بما يقرب من ألف سنة.

والواقع أن ذلك مجرد وضع تمثيلى ليسبغ على كلمات «نفر روهو» المهمة قوة التأثير. ومن حسن الحظ أن كاتبًا من عهد الدولة الحديثة ممن عاشوا فى القرن الخامس عشر ق. م. قد ظهرت له أهمية ذلك المقال، حتى أنه لما لم يجد لديه برديًا جديدًا ينقله فيه أخذ جزءًا من بعض أوراق مستعملة فى تدوين حسابه هو ونقل تلك النبوءات على ظهرها، وبذلك بقيت نبوءات «نفر روهو» فى تلك الصورة التى وصلتنا عفوًا بما تحويه من غموض بسبب أغلاطها الكثيرة التى حدثت عند نقله لها بطريق المصادفة كما ذكرنا.

يبدأ «نفرروهو» بالمقدمة التاريخية المزعومة، ثم يصف الخراب والفوضى اللذين كانا يحيطان به. ومثله فى ذلك مثل «خع خبرورع سنب» إذ يتكلم مع قلبه، فنراه يقول: «انصت يا قلبى وانع تلك الأرض التى فيها نشأت.... لقد أصبحت هذه البلاد خرابًا، فلا من يهتم بها، ولا من يتكلم عنها، ولا من يذرف الدمع، فأى

حال عليها تلك البلاد؟ لقد حجبت الشمس فلا تضىء حتى يبصر الناس». وقد كان من جراء تعطيل أعمال الرى العظيمة العامة أن «أصبح نيل مصر جافًا فيمكن للإنسان أن يخوضه بالقدم، وصار الإنسان عندما يريد أن يبحث عن ماء (يعنى النهر) لتجير عليه السفن يجد طريقه قد صار شاطئًا والشاطئ صار ماء، وكل طيب قد اختفى، وصارت البلاد طريحة الشقاء بسبب طعام البدو الذين يغزون البلاد، وظهر الأعداء في مصر، فانحدر الأسيويون إلى مصر... وسأريك البلاد وهى مغزوة تتألم. وقد حدث فى البلاد ما لم يحدث قط من قبل... فالرجل يجلس فى عقر داره موليًا ظهره عندما يكون الآخر يذبح بجواره....

«سأريك الابن صار مثل العدو، والأخ صار خصمًا، والرجل يذبح والده، وكل فم ملؤه (حبنى) (صياح المتسول؟)، وكل الأشياء الطيبة قد ولت، والبلاد تحتضر.... وأملاك الرجل تغتصب منه وتعطى الأجنبى....»

«وسأريك أن المالك صار فى حاجة والأجنبى فى غنى... وأن الأرض قد نقصت وفى الوقت نفسه تضاعف حكامها، وصارت الحبوب شحيحة فى حين أن المكيال صار كبيرًا، وتكال الحبوب (أى بجابى الضرائب) حتى يطفح الكيل....».

«سأريك البلاد وقد صارت مغزوة تتألم، وأن منطقة عين شمس لن تصير بعد مكان ولادة كل إله».

وبعد ذلك يتحول «نفرروهو» من غير تردد أو تشكك عن تلك الصورة التى يصف فيها القحط الذى وقعت فيه البلاد وينادى بالكلمات التالية المهمة معلنًا قدوم الملك الذى سيخلص مصر مما حاق بها، وإذ يقول: «سيأتى ملك من الجنوب اسمه «أمينى»، وهو ابن امرأة نوبية الأصل وقد ولد فى الوجه القبلى، وسيستلم التاج الأبيض، ويلبس التاج الأحمر، فيوجد بذلك التاج المزدوج، سينشر السلام فى الأرضين (يعنى مصر) على الوجه الذى يحبه أهلها...».

«وسيفرح أهل زمانه، وسيجعل ابن الإنسان[١٧] اسمه باقيًا أبد الآبدين. أما الذين كانوا قد تآمروا على الشر ودبروا الفتنة فقد أطبقوا أفواههم خوفًا منه، والأسيويون سيقتلون بسيفه، واللوبيون سيحرقون بلهيبه، والثوار سيستسلمون

لنصائحه، والعصاة سيخضعون لبطشه، وسيخضع المتمردون للصل الذى على جبينه».

«وسيقيمون «سور الحاكم» حتى لا يتمكن الأسيويون من غزو مصر، وسيستجدون الماء حسب طريقتهم التقليدية لكى تردها أنعامهم، والعدالة (معات) ستعود إلى مكانها، والظلم ينفى من الأرض، فهنيئًا لمن سيرى ذلك ومن سيكون من نصيبه خدمة ذلك الملك».

فنرى فى ذلك القدوم الفعلى للملك المخلص للبلاد بالفعل، الذى كان مجيئه هو الأمل الذى ينشده الحكيم «إبور»، وقد ذكر «نفرروهو» ذلك الملك بالاسم، ورسم كتابة الاسم «أمينى» الذى استعمله «نفرروهو» هو اختصار مشهور للاسم الكامل «امنمحات»، وواضح أنه المؤسس العظيم للأسرة الثانية عشرة والمصلح الذى أعاد توطيد سلطان مصر فى العهد الإقطاعى قرابة سنة ٢٠٠٠ ق. م.، وقد ذكر عنه فى نقش تاريخى بعد ذلك العصر بثلاثة أجيال بشكل يسترعى الأنظار: «أنه قد محى الظلم لأنه أحب العدل كثيرًا (يعنى ماعت)[١٨]، وقد كان عرافنا هنا واثقًا من أن بطله «أمنمحات» سيستولى على التاجين اللذين يرمزان لحكومة البلاد المتحدة مصر السفلى ومصر العليا، وأنه سيفتح عصرًا جديدًا غير أنه يرجئ الإصلاح العظيم علي وجه عام إلي المستقبل. وذلك يضع أمامنا سؤالا جديرًا بالاهتمام وهو: هل هذا التأكيد الصارخ مجرد نبوءة عن حادثة بعد وقوعها؟ أو كان ذلك إعلانا ناجحًا عن بطل منتصر قد نجح نجاحًا عظيمًا فى إصلاح مصر العليا حتى أن انتصاره النهائى وإصلاحه لكل مصر كان متوقعًا حدوثه؟ أو هل كان «نفرروهو» مرسالا من قبل «أمنمحات» إلى مصر السفلى ليعلن قدومه إليها؟ أو هل كان كأى شخص من أنصار «أمنمحات» يعظم إصلاحاته بتصويرها بجانب صورة ما صارت إليه البلاد من الدمار والخراب قبل مجيئه؟

وإنه لمن المستحيل أن يعطى الإنسان جوابًا شافيًا عن تلك الأسئلة، ولكن الأرجح على ما يظهر أن «نفرروهو» كان حقيقة محاطًا فى زمنه بالخراب الذى صوره لنا فى تلك الصورة القوية، وأن تاريخ حياة «أمنمحات» المقرونة بالنجاح فى

مصر العليا قد جعل نجاحه فى إعادة وحدة البلاد إلى ما كانت عليه وإرجاع مجدها القديم متوقعًا. وقد يبدو من المدهش حقًا أن يذكر «نفرروهو» صراحة أن الفرعون الجديد ليس من سلالة البيت المالك القديم، على أنه لا شك كان فى البلاد إذ ذاك مطالبون بالعرش أو مدعون له كثيرون، لدرجة أن ظهور مطالب آخر مثل «أمنمحات» قد أصبح لا يثير تأثيرًا يذكر.

كما أن تسمية «أمنمحات» «بابن الإنسان» كما ذكر ذلك فيما سلف عن لسان ذلك المتنبئ - يلفت النظر ويوحى إلينا فى الحال بوجود علاقات قد لا نرى لها وجودًا، إذ إن ذلك التعبير قد استعمل فى النصيحة الموجهة إلى «مريكارع» ليدل على «ابن رجل ذى أهمية» وقد جرى فى بلاد بابل القديمة استعمال تعبير مشابه لذلك التعبير، وذلك الإعلان الذى أعلنه ذلك المتنبئ يشكل قيام مليكه بعملين هما من الأهمية للشعب البائس فى مصر الطريحة بمكان، وهما:

(أولاً) القضاء على المغيرين وأخذ العدة لدفع الغارات المقبلة.

(ثانيًا) إصلاح النظام الداخلىّ.

أما «سور الحاكم» فكان قلعة قديمة لحماية الدلتا الشرقية واقعة على التخوم الأسيوية، وقد بنى لحراسة الطريق من آسيا إلى مصر فى عهد بناة الأهرام. وقد أعلن «نفرروهو» أن الملك الجديد سيعيده كما كان من قبل.

والصورة التى رسمها لنا ذلك المتنبئ عن مآل الأسيوين تذكرنا بما ورد فى الرواية العبرانية الخاصة برحلة دخول أجدادهم إلى مصر.

وأما اعلان الإصلاح الذى سيحدث فى النظام الداخلى فإنه يسترعى الأنظار لقصره وبساطته، إذ يقول: «إن العدالة ستعود إلى مكانها والظلم ينفى من الأرض» . إذًا هى «ماعت» القديمة التى سيعيدها الملك الجديد فى شكل نظام ثابت ليكون مرة أخرى رقيبا ومهيمنًا على حياة الشعب المصرى الاجتماعية، أى أن «ماعت» وهى ذلك النظام القديم الذى مكث ألف سنة مرشدًا ومهيمنا على الحاكم وحكومته، ستعود مرة أخرى وتبسط سلطانها من جديد. ومن المفهوم أن

الابتهاج الذى يبشر به ذلك المتنبئ العتيق يشير إلى عودة المثل العليا القديمة للأخلاق الفاضلة والسعادة القديمة.

غير أن ذلك كان - مع الأسف - بعيدًا عما وقع فعلاً، فإن «أمنمحات» كان حقًا من كبار الإداريين فى العالم القديم، وقد استطاع بما وهبه الله من فطنة عظيمة أن يعيد بلا نزاع ذلك النظام القديم بقدر ما سمحت له الأحوال، ولكنه مع ذلك قد حتمت عليه الظروف أن يتخذ عماله وموظفيه فى إدارة شئون الأمة من بين أولئك الرجال الذين ترعرعوا وشبوا فى عهد ذلك الانحطاط الذى جاء عقب عصر الأهرام، وأشربت قلوبهم بطبيعة الحال الارتياح إلى الفوضى والفساد اللذين هوى إللى حضيضهما الشعب المصرى خلال عدة أجيال بل قرون حتى أنقذهم «أمنمحات» منهما فى ذلك الوقت.

وقد كشفت لنا النظرات الخلقية التى جال بها أمثال «الرجل التعس» و «خع خبرورع سنب» و«كاهن عين شمس» - ولا يقل عنهم جميعًا «إبور» - عن حالة مزعجة من الانحطاط الاجتماعى، أما ما كان يشعر به «بتاح حتب» القديم من اقتناع واطمئنان نراهما فى قوله: «إن كل شىء على ما يرام»، فقد اختفى إلى الأبد.

وقد كان الملك «أمنمحات» نفسه يشعر بهذه الحقيقة، إذ أنه وجد بعد حكم طويل ناجح امتد منذ أكثر من جيل من الزمان، أن عدم الثقة بالناس، التى كان يحس بها الملك المسن طوال حياته، حقيقة لا مراء فيها لمسها لمسًا عندما حاول بعض القوم اغتياله، وحينما بدأ يشعر بوطأة كبر السن وجه إلى ابنه «سنوسرت» وهو أول من سمى بهذا الاسم من ملوك مصر - كلمة فى صورة نصيحة مختصرة، جريا على الطريقة التى اتبعها والد الأمير «مريكارع» ولكن بروح تختلق عن تلك، فيقل لابنه معرفًا العدالة: أنصت لما أقوله لك، حتى تصير ملكا على البلاد وحتى تصبح حاكم الشاطئين، وحتى يكون فى مقدورك أن تزيد فى خيرات البلاد، قوِّ نفسك أمام جميع كل أتباعك، لأن الناس يصغون لمن يرهبهم، ولا تقترين منهم على انفراد، ولا تملأن قلبك بأخ، ولا تعرفن صديقًا، ولا تتخذن لنفسك خلانًا (تضع فيهم ثقة) لا نهاية لها. وحينما تنام حافظ بنفسك على قلبك، لأن الإنسان

لا أناسى له يوم الكريهة، لقد أعطيت السائل وأطعمت اليتيم، وقبلت الحقير والعظيم (فى حضرتى)، غير أن الذى أكل زادى قد عصانى ومن مددت له يدى قد بعث فيها الخوف».

وهذه الصورة التى تدل على سوء الظن بالناس المفعم بالتشاؤم قد أعقبها الملك بقصة محاولة اغتيال حياته، وهى حادثة تفسر إلى حد ما شدة سخط ذلك الملك المسن الحانق على العالم، وعدم اغتراره بالمظاهر.

وتلك الآراء عن المجتمع البشرى، بما فيها من دالة قاطعة على منتهى الريبة وسوء الظن بالناس، وكان شعور النفوس بها عميقًا إلى حد أنها عكست آثارها على أعظم أنواع الفنون فى ذلك العصر، وأعنى بذلك فن نحت التماثيل البشرية فى العهد الإقطاعى، إذ نجد فى هيئات التماثيل السامية التى تمثل فراعنة الدول الوسطى نفسها الوجوه الحزينة التى كانوا يواجهون بها الحياة فى عصرهم.

وعندما تمعن النظر فى تلك الوجوه التى تتمثل فيها الجرأة والبطولة، والتى ظللتها ظلال اليأس والقنوط، نرى أن نفس هذه الوجوه نفسها تعد كشفًا جديدًا فى ميدان الفن، يميط لنا اللثام من غير شك عن روح ذلك العصر الذى يعتبر أقدم عصر معروف تخلص من الأوهام ولم ينخدع بالمظاهر.

هوامش الفصل الحادى عشر:

(١) تمانى Tammany: نظام ديمقراطىّ فى مدينة نيويورك، وهذا النظام له سمعة سيئة للأثر الفاسد الذى أحدثه فى سياسة المدينة.

(٢) كابون Capone: هو أحد مشاهير الأشقياء فى أمريكا وقد بقى طليقا يعيث فى الأرض الفساد عدة أشهر بسبب الرشوة، ولما ألقى القبض عليه فى النهاية بدأت محاكمته بصعوبة كبيرة، ويرجع السبب فى ذلك إلى الرشوة الى كان يأخذها شهود الزور من جهة وإلى إرهاب كل من كان يتقدم للشهادة ضده من جهة أخرى.

(٣) أن خاتمة هذا الكلام فى بردية أقدم من هذه «برلين» تقرأ كالاتى: «حقق أمرى (أو افحص أمرى) انظر إنى قليل».

(٤) وهذه المقارنة كان عظماء الأشراف فى العهد الإقطاعى مغرمين باستعمالها فى النقوش التى كانوا يدونونها على لوحات قبورهم.

(٥) «الجوف» (البطن» كان مقر العواطف، توجد نفس الفكرة تصف شاكيا خائفا فى نصائح «بتاح حتب» يطلب فيها معاملة الشاكى بشفقة.

(٦) إله الكتابة والقضاء.

(٧) فى كلام كهذا يجدر بنا أن نذكر أن كلمة الصدق «ماعت» هى دائمًا نفس الكلمة التى يستعملها المصرى لتدل على «الحق» «والعدالة» و«العدل» حسب المقام الذى تقع فيه، ففى مثل المقام الذى نحن بصدده الآن لا يمكننا أن نميز أى معنى يقصده الفلاح بالذات من معانى هذه الكلمة دون الأخرى.

(٨) وقد ترجمها الأستاذ «جاردنر» فى طبعة ستبقى نموذجا، راجع: Alan H. Gardiner, The Admonition of An Egyptian Sage, Leipzig (1909)

(٩) تراجم القطع المقتبسة هنا معظمها من ترجمة «جاردنر» الذى كان محترسا فى ترجمته مما يستحق عليه الثناء.

(١٠) لقد كانت هذه فعلة شنعاء فى نظر النظام المصرى إذ كان سحب الكتابات والوثائق من المصالح العامة للاستشهاد بها أو للاطلاع عليها من الأمور المنظمة تنظيما دقيقا، فالقواعد التى كانت تحدد وظيفة الوزير قد بقيت لنا.، راجع»

Breasted, Ancient Records of Egypt, Vol, II, P, 279

(١١) وكانت ببلوص (جبيل) فى ذلك العهد أعظم ثغر تجارى فى فينيقيا.

(١٢) إن ملء النقص الذى فى الوثيقة بكلمة «العدالة» (ماعت) هو اقتراح الأستاذ «زيته» وذلك بالنسبة إلى وجودها كثيرا مقابلة للكلمة التى استعملت هنا بمعنى «العسف» (أسفت) وذلك منذ عهد متون الأهرام وما بعده، وتكملة النقص بتلك الكلمة يتفق مع المتن تماما، ولكن الأستاذ «جاردنر» يقول إن الآثار التى بقيت فى هذا الفراغ من المتن لا تتفق مع هذا الإصلاح الذى اقترحه «زيته» غير أن «جاردنر» لم يضمن طبعته الأصل الهيراطيقى لهذه الفقرة.

(١٣) أو «الراعى»، و «إله الشمس» يسمى «راعيا شجاعا يسوق ماشيته» فى أنشودة شمسية من عهد الأسرة الثامنة عشرة، وفى التعاليم الموجهة إلى «مريكارع» تسمى الناس «قطيع الله»، وهو إله الشمس كما يستدل على ذلك من المتن.

(١٤) يحتمل أن معني ذلك ظمآن، وربما كان ذلك رمزًا للمخزون، قارن قلوب «القطعان» (الماشية الصغيرة) تبكى كما ورد فى ص ٢٣٧.

(١٥) وقد لحظ هذه المشابهة جاردنر: ناثان هو النبى العبرانى الذى أرسله الله لتأنيب «داود» على فعلته الشنعاء وذلك أن «داود» أحب «بتشبع» بنت «إليعام» وامرأة «أوريا» الحيثى، وقد عزم «داود» على الزواج منها بعد أن حملت منه سفاحا، فأمر سرا أن يرسل «أوريا» زوجها إلى ميدان القتال فى موضع بحيث لا يكون مفر من قتله، وقد حدث ذلك فعلاً، وبعد أن أتمت «بتشبع» أيام الحداد التقليدية تزوج منها «داود»، ولكن الله غضب عليه من أجل ذلك وأرسل إليه النبى «ناثان» ليؤنبه على فعلته تلك، فقال له: «كان رجلان واحد منهما غنى والآخر فقير، وكان للغنى غنم وبقر كثير جدا، فأما الفقير فلم يكن له شىء إلا نعجة واحدة صغيرة قد اقتناها ورباها وكبرت معه ومع بنيه جميعًا وتأكل من لقمته وتشرب من كأسه وتنام فى حضنه، وكانت له كابنة، فجاء ضيف للرجل الغنى، فأبى أن يأخذ من غنمه ومن بقره ليهىء غداء للضيف الذى جاء له، فأخذ نعجة الرجل الفقير وهيئها غداء للرجل الذى جاء إليه، «فحمى غضب «داود» على الرجل جدا وقال لناثان: «حى هو الرب وأنه يقتل الرجل الفاعل ذلك ويرد النعجة أربعة أضعاف لأنه فعل هذا الأمر لأنه لم يشفق». فقال «ناثان» لداود: «أنت هو الرجل» (صموئيل إصحاح ١١، ١٢)

وقد ذكر «ناثان» هذه المقارنة لأنه «داود» رغم أنه متزوج من كثير، لم يكن قانعا بهن، بل كان لابد له أن يأخذ زوجة «أوريا» أيضا.

(١٦) جولنيشف أحد علماء اللغة المصرية الحاليين.

(١٧) يقصد «بابن الإنسان» الملك المقصود، وقد أطلق هذا الاسم على المسيح عليه السلام.

(١٨) راجع Breaste, Ancient Records of Egypt, Vol, I P 283 وقد يجوز أن السياح الذين يسيحون فى نهر النيل يذكرون أنهم قد شاهدوا هذا النقش العظيم منقوشا حول قاعدة جدار المزار العظيم لمقبرة «خنوم حتب» المنحوتة فى صخور جبال بنى حسن.

الفصل الثانى عشر

أقدم جهاد فى سبيل العدالة الاجتماعية وتعميم المسئولية الخلقية

لم يشاطر كل رجال الفكر الاجتماعيين الذين كانوا فى البلاط الملكى فى العهد الإقطاعى الفرعون تشاؤمه المطلق الذى كان يشعر به. وقد رأينا بعض أولئك المفكرين قد أدركوا أن الملك العادل الذى يتوقع مجيئه لإنقاذ البلاد قد يكون عاجزًا عن أداء رسالته بدون مساعدة طائفة من الموظفين العدول، كما بينا أن الغرض المقصود من المقال المصرى القديم الذى سميناه «الفلاح الفصيح» هو المساعدة على إنشاء طائفة من الموظفين المتصفين بالكفاية والأمانة يقوم على أكتافهم بناء العصر الجديد الذى تسوده العدالة الاجتماعية.

والآن نتساءل عما إذا كانت تلك المقالات الاجتماعية التى ظهرت فى العهد الإقطاعى قد صارت حقا قوى اجتماعية؟

والواقع أننى فى سنة ١٩٢٢م. اشتريت من أحد تجار الآثار بمدينة «الأقصر» شظية من الحجر الجيرى كبيرة الحجم سطحها مغطى من الوجهين بالكتابة الهيراطيقية، وعلماء الآثار الحاليون يطلقون على مثل تلك الشظية كلمة «ستراكون» (Ostrakon «شقفة»)، وقد لاحظ زميلى الدكتور جاردنر بين ما لاحظه ـ عندما عرضتها عليه ـ أن من بين محتويات كتابتها جملة مقتبسة من قصة «الفلاح الفصيح» مع أن تاريخ كتابة تلك الشظية يرجع حسب ما يبدو إلى

القرن الثانى عشر أو الثالث عشر ق. م. فذلك الاقتباس إذًا يدلنا على أن قصة ذلك الفلاح كانت ما تزال ذات قيمة أدبية إلى أواخر الدولة الحديثة!؟

والآن فهل المصادر الباقية حتى الآن - مما يكشف لنا عن حالة قدماء المصريين الاجتماعية والحكومية فى العهد الإقطاعى - تدل على أن ذلك الجهاد فى سبيل العدالة الاجتماعية قد أدى إلى نتيجة ما؟ أو أن الآمال فى ظهور المخلص وقيام المثل العليا للحياة الاجتماعية - وهى التى تكلم عنها المتنبئون الاجتماعيون فى ذلك العصر صراحة - قد بقيت مجرد أحلام؟!

وهل استمرت تلك الصور القاتمة المحزنة التى وجدناها فى مقالات رجال الفكر المتشائمين أمثال «الرجل التعس» و «خع خبرو رع سنب» والملك «أمنمحات الأول» تدل على الحقيقة الواقعة!؟

وهل أن إدراك عصر الإقطاع بما بدا أنه طبيعة المجتمع الإنسانى الحقيقية وما أسفر عنه ذلك من انقشاع الوهم، قد بقى بغير نتائج إنشائية مثمرة؟

وقد شاهدنا أن آمال الذين ينتظرون ظهور المخلص كانت مؤسسة على ظهور ملك عادل، فى حين أن غيرهم من المصلحين الاجتماعيين - ممن امتازوا بالآراء العملية - كانوا يرون قلب نظام المجتمع عن طريق إيجاد جيل جديد من الموظفين العدول، ورغم تشاؤم «أمنمحات الأول» قد ظهرت لنا أدلة قاطعة على أنه هو نفسه قد قام بمجهودات ومشروعات دبرت بعناية حتى تضمن له عهد حكم عادل، وقد كان رئيس الوزارة أو الوزير الأعظم لسان حال الفرعون، ويعتبر أهم عضو فى الحكومة بعده.

وقد حفظت لنا نسخ من خطاب وجهه الملك مشافهة إلى وزيره الأعظم يرجع تاريخها جميعًا إلى عهد الدولة الحديثة، أى بعد العهد الاقطاعى ببضعة قرون، وقد كان الملك يلقى ذلك الخطاب كلما أسندت مسئولية الحكم إلى وزير أعظم جديد.

ذلك الخطاب العظيم يقدم الدليل على أن أحلام المتنبئين أمثال «إبور» و «نفرروهو» اللذين كانا يتنبئان بظهور مخلص قد تحققت فيما له علاقة بالأخلاق الملكية، أى أن روح العدالة الاجتماعية التى كانوا يشعرون بها قد وصلت إلى العرش ثم انتشرت حتى فى نفسه كيان الحكومة نفسه، والخطاب هو كما سيأتى:

النظام الذى ألقى على كاهل الوزير الأعظم «س»[١].

«اجتمع أعضاء المجلس فى قاعة مجلس الفرعون (له الحياة! والفلاح! والعافية!) وقد أمر الواحد (يعنى الملك) بإحضار الوزير الأعظم «س» الذى نصب حديثًا (إلى قاعة المجلس). وقال له جلالته: تبصر فى وظيفة الوزير الأعظم، وكن يقظًا لمهامها كلها، انظر إنها الركن الركين لكل البلاد».

«واعلم أن الوزارة ليست حلوة المذاق، بل إنها مرة.... فالوزير الأعظم هو النحاس الذى يحيط بذهب بيت (سيده).... واعلم أنها (يعنى الوزارة) لا تعنى أظهار احترام أشخاص الأمراء والمستشارين، وليس الغرض منها أن يتخذ بها الوزير لنفسه عبيدًا من الشعب»...

«واعلم أنه عندما يأتى إليك شاكٍ من الوجه القبلى أو من الوجه البحرى أو من أية بقعة فى البلاد، فعليك أن تطمئن إلى أن كل شىء يجرى وفق القانون، وأن كل شىء قد تم حسب العرف الجارى، فتعطى كل ذى حق حقه، واعلم أن الأمير يحتل مكانة بارزة وأن الماء والهواء يخبران بكل ما يفعله، واعلم أن كل ما يفعله لا يبقى مجهولاً أبدًا»...

وبعد ذلك يضع الفرعون لوزيره الأعظم التفاصيل التى يجب أن يسير على نهجها فى القضايا التى تقدم إليه، ثم يستشهد له فى ذلك بقضية حكم فيها خطأ وزير يسمى «خيتى»، وهو وزير قديم ذائع الصيت من عهد الأهرام، إذ يقول له: «انظر لقد كان ما ألقيه عليك مثلاً مدونًا فى مرسوم تعيين الوزير الأعظم، فى «منف» وكان ينطق به الملك ليحث به الوزير على الاعتدال...» «احذر ما قد قيل عن الوزير «خيتى»، فإنه يحكى أنه جار فى حكمه على بعض عشيرته الأقربين منحازًا للغرباء خوفًا من أن يتهمه بمحاباة أقاربه خيانة منه، وأنه عندما استأنف أحدهم ذلك الحكم الذى أصدره ضدهم أصر على إجحافه، واعلم أن ذلك يعد تخطيًا للعدالة (يعنى ماعت)».

«فلا تنس أن تحكم بالعدل. لأن التحيز يعد طغيانًا على الإله، وهذا هو التعليم (الذى أعلمك إياه) فاعمل وفقًا له».

«وعامل من تعرفه معاملة من لا تعرفه، والمقرب من الملك كالبعيد عنه، واعلم أن الأمير الذى يعمل بذلك سيستمر هنا فى هذا المكان... ولا تغضبن على رجل لم تتحر الصواب فى أمره، بل اغضب على من يجب الغضب عليه، اجعل نفسك مهيبا ودع الناس يهابونك، والأمير لا يكون أميرًا إلا إذا هابه الناس... واعلم أن الخوف من الأمير يأتى من إقامته العدل».

و«أعلم أن الإنسان إذا جعل الناس يخافونه أكثر مما ينبغى دل ذلك عى ناحية نقص فيه فى نظر القوم، فلن يقولوا عنه (إنه رجل بمعنى الكلمة)، واعلم أن رهبة الأمير تبعث الرعب فى نفس الكاذب عندما يعامله (الأمير) بما يفزعه منه».

«واعلم أنك ستصل إلى تحقيق الغرض من منصبك إذا جعلت العدل رائدك فى عملك، انظر! إن الناس ينتظرون العدل فى كل تصرفات الوزير، وهى سنة العدل المعروفة منذ أيام حكم الإله فى الأرض، والناس يقولون عن كاتب الوزير «إنه كاتب عادل»، أما الذى يقيم العدل بين جميع الناس فهو الوزير».

«انظر! دع الرجل الذى يؤدى وظيفته يعمل حسبما يؤمر به، واعلم أن نجاح الرجل هو أن يعمل حسبما يقال له، ولا تتوان قط فى إقامة العدل، وهو القانون الذى تعرفه، واعلم أنه جدير بالملك ألا يميل إلى المستكبر أكثر من المستضعف».

«انظر فى القانون الملقى على عاتقك (تنفيذه)».

ويلاحظ هنا أن أهم تشديد فى كل هذه الوثيقة الحكومية ينصب على العدالة الاجتماعية، فلم يكن الغرض من الوزارة إظهار تفضيل الأمراء والمستشارين على غيرهم أو استبعاد أحد من أفراد الشعب، بل إن كل عدالة تجرى يجب أن تكون حسب القانون فى كل قضية، على ألا ينسى الوزير أن وظيفته بارزة جدًا ولذلك كانت كل تصرفاته معروفة ظاهرة بين الناس حتى إن المياه والرياح كانت تذيع أخباره بين كل الناس، ولا تعنى العدالة أن يقع أى ظلم على من لهم مكانة سامية كما حدث فى القضية الشهيرة التى ينسب أمرها إلى الوزير القديم «خيتى» المنفى الأصل، وهو الذى حكم فيها ضد أقاربه مع أن الحق كان فى جانبهم، وليس هذا من العدل فى شىء.

وتعنى العدالة من جهة أخرى الحياد المطلق والتسوية بين الناس دون تمييز فرد على فرد، فيكون سواء لديك من تعرفة ومن لا تعرفه ومن قرب من الملك ومن لا علاقة له بأحد من بيت الملك، إن إدارة الأمور بتلك الكيفية تضمن للوزير الاستمرار الطويل فى منصبه، ومع أن الواجب المحكم على الوزير أن يظهر منتهى الحكمة عند الغضب، فيجب عليه أن يجعل من موقفه ما يكسبه احترام الشعب له بل رهبتهم منه، ولكن هذه الرهبة يجب أن يكون عمادها الوحيد إقامة العدل من غير تمييز، لأن «الرهبة الحقيقة من الأمير هى إقامته للعدل»: ومن ثم لا يكون فى حاجة إلى تكرار إرهاب الناس بالشدة والغطرسة إذ إن ذلك يولد تأثيرًا كاذبًا عنه بينهم، فإقامة العدل كافية وحدها لأن تكون لهم رادعًا، والناس يتطلعون إلى العدالة فى ديوان الوزير، لأن العدالة كانت قانونه المعتاد منذ أن قام بالحكم إله الشمس فوق الأرض، بذلك كان قدماء المصريين فى العهد الإقطاعى ينظرون إلى الوراء خلال ألف السنة التى مكثها الاتحاد الثانى وما قبله إلى عهد الاتحاد الأول الذى كان قائمًا فى «هليوبوليس» مدينة الشمس، ومنذ ذلك العهد كان الوزير هو الشخص الذى يذكر فى أمثالهم بأنه «الذى سيقيم العدل بين الناس كلهم» ونجاح الرجل كان يتوقف على مقدرته فى تنفيذ التعليمات واتباعها، وعلى ذلك لا يتوانى فى تصريف العدالة، ولا ينسى أن الملك يحب الضعيف ومن لا ناصر له أكثر من المستكبر.

أما فيما يختص بالأراضى التى يحتمل أن تكون أملاك الملك وكذلك ما يتعلق بملاحظة الموظفين المكلفين برعايتها، فإن الملك قد ختم القانون الذى يعتبر بحق «دستور إعلان الحقوق للفقراء» (Magna Carta) بالكلمات التالية: «راع القانون الذى ألقى على عاتقك»

هل هى رؤية الملك الأمثل الذى ذكره «إبور» أمام البلاط؟ أو صورة الفساد القاتمة التى صورها «الرجل التعس»؟ أو رؤية ذلك المنظر المؤثر الذى دل على الاضطهاد الرسمى وكشفته لنا قصه «الفلاح الفصيح»؟ أى هذه العوامل هى التى أحاطت أخيرًا العرش الملكى بجو من العدالة الاجتماعية حتى أن تنصيب رئيس الوزراء وقاضى القضاة فى الدولة - (لأن الوزير الأعظم كان يلقب أيضًا بذلك

اللقب الأخير) - جعل الملك يلقى خطاب عرش ليكون بمثابة تصريح رسمى من رئيس البلاد الأعلى إلى أكبر موظف فى الهيئة التنفيذية يضمّنه المبادئ الأساسية التى تقوم عليها العدالة الاجتماعية؟!

إننا الآن بالطبع نستطيع القول بأن تلك الوثيقة الرسمية المفعمة بروح العدالة الاجتماعية كانت هى النتيجة المباشرة لتلك المقالات المصرية الاجتماعية التى طالعناها فيما تقدم، وتوجد بعض الأدلة على صحة ذلك الاستنتاج، إذ أن نفس الرعاية التى أظهرها الملك فى هذه التعليمات بتفضيله الضعيف على المستكبر أو العنيف القلب، يوجد مثلها فى تحذيرات «إبور»، وعلى وجه عام فإن خطاب تنصيب الوزير يتفق تمام الاتفاق مع تعاليم تلك المقالات المصرية الاجتماعية.

وسواء أكان المقصود من سياسة الملك الاجتماعية المذكورة فى مقاله ذلك هو استجابة ظاهرة لتلك المقالات أم لا، فليس لذلك أهمية ذات شأن، إذ أنه من الظاهر جدًا أن موضوع «الضمير» فى ذلك العصر الإقطاعى قد صار يعد شيئًا أكثر من كونه مجرد تأثير خاص بسلوك الفرد، فقد صار «الضمير» فى الواقع قوة اجتماعية ذات تأثير عظيم فى الحياة الاجتماعية لأول مرة فى التاريخ البشرى.

ومن الواضح أن الملك قد صار منقادًا لنفوذ المفكرين الأخلاقيين فى ذلك العصر، وأن سياسة العدالة الاجتماعية صارت تكون جزءًا من هيكل النظام الحكومى. وقد انتهى عهد تلك الأيام الخالية التى كان يعتبر فيها سلوك الإنسان الخلقى مرضيًا إذا رضى عنه الأب والأم والإخوة والأخوات، وجاء العهد الذى يصح أن نسميه عصر «الضمير» الاجتماعى وهو الذى بحلوله بزغ عصر الأخلاق.

وقد رأى أنصار ظهور المخلص الاجتماعى أن حلمهم ذلك قد تحقق فيما يختص بظهور الملك العادل وذلك عندما اعتلى «أمنمحات الأول(٢)» عرش الملك، فماذا كان من أمر المصلحين الذين كانوا أقل خيالاً من مطامحهم وأعنى بهم الذين كان أساس آمالهم إنشاء جيل جديد من الموظفين العدول؟ الحقيقة الواقعة

أنه لا يمكن فصل أحد المنهجين عن الآخر، لأن حكم الملك العادل لا يكون له بمفرده تأثير يذكر إذا لم يعتمد على طائفة من الموظفين العدول ليقوموا بتنفيذ السياسة الملكية العادلة. وقد كان الملك «أمنمحات الأول» يؤمن بتلك الحقيقة إيمانًا راسخًا، ولعدم ثقته بالناس كان ضعيف الأمل فى أن تأتى استقامته بمفرده بالنفع المأمول، على أن مفكرًا مثل مؤلف قصة «الفلاح الفصيح» (الذى نجهل اسمه الآن) كان يتطلع إلى ظهور نتائج ما كتبه، ولدينا بعض الأدلة التى تثبت أنه لم يخب ظنه.

ومع أنه لم يصل إلينا شىء يذكر من الوثائق التى تكشف عن كيفية سير نظام الحكومة المصرية فى ذلك العهد، فإننا نجد من جهة أخرى أن النقوش الجنازية التى دونت على مقابر حكام المقاطعات والموظفين فى ذلك العهد الإقطاعى قد كشفت لنا عن عقائدهم الاجتماعية وإن السائحين الذين صعدوا فى النيل فى وقتنا هذا ليذكروا زيارتهم لتلك المقابر إذ كانت تحملهم البواخر النيلية لمقابر «بنى حسن»، ومن الجائز أن قبر «أمينى»، ذلك الأمير الإقطاعى ورئيس الحكومة الإقطاعية فى تلك الجهة، لم يترك إلا أثرًا بسيطًا فى أذهان أمثال أولئك السائحين، ولكن الواقع أن ذلك القبر يعد أثرًا جليل القدر فى التاريخ الاجتماعى لذلك العهد، إذ نجد فيه على الأقل مثلاً يثبت أن الرجال الذين قاموا بالحملة الاجتماعية المقدسة قد كان لحملتهم بعض التأثير على جيل الموظفين الجدد، إذ يقص علينا «أمينى» هذا فى نقش كتب على باب مزار قبره ما يأتى:

«لا توجد بنت مواطن قد عبثت بها، ولا أرملة عذبتها، ولا فلاح طردته، ولا راعٍ أقصيته، ولا رئيس خمسة سلبته رجاله مقابل ضرائب (يعنى لم تسدد). ولا يوجد بائس بين عشيرتى، ولا جائع فى زمنى، وعندما كانت تحل بالبلاد سنون مجدية كنت أحرث كل حقول مقاطعة «الغزال» (يعنى مقاطعته) إلى حدودها الجنوبية وإلى حدودها الشمالية، محافظًا بذلك على حياة أهلها ومقدما لهم الطعام حتى أنه لم يوجد بها جائع قط. وقد أعطيت الأرملة مثل ذات البعل، وإنى لم أرفع الرجل العظيم فوق الرجل الحقير فى أى شىء أعطيته، ثم أقبل بعد ذلك الفيضان العظيم بالغلال الغنية والخيرات الكثيرة، ولكنى مع ذلك لم

أجمع المتأخر على الحقول (يعنى من الضرائب)».

ويخيل إلينا أننا نسمع فى ذلك السجل صدى الأوامر التى صدرت إلى الوزير الأعظم عند تنصيبه، وبخاصة فى العبارة التى يقول فيها «أمينى»[٣]: «إنى لم أرفع الرجل العظيم فوق الرجل الحقير فى أى شىء أعطيته».

وإنه لمن السهل علينا أن نعتقد أن أميرًا كذلك الأمير كان حاضرًا بالبلاط الملكى وسمع الفرعون وهو يلقى تلك الأوامر على رئيس وزرائه عند تنصيبه، وإذا كانت إدارة «أمينى» لمقاطعته قد وصلت إلى أى حد مما يدعيه فيما كتبه فإنه يجب علينا أن نستخلص من ذلك أن تلك التعاليم الاجتماعية التى فاه بها الحكماء أمام البلاط الملكى كانت معروفة لدى العظماء فى طول البلاد وعرضها. وإذا وصل بنا الاستنتاج إلى أن ما كتبه «أمينى» مغالى فيه حتى جعل حكمه يبلغ درجة عظيمة من المثالية، فإنه لايزال أمامنا المغزى الذى نستخلصه من رغبته فى إحداث مثل ذلك التأثير مما نقرؤه فى ترجمة حياته.

هذه الحالة تنطبق على سجلات بعض حكام المقاطعات الأخرى فى ذلك العصر نفسه، كالتى نجدها منقوشة فوق محاجر المرمر فى «حتنوب»، وهى تحتوى على عدة تأكيدات من ذلك الصنف، تقص علينا أن الشريف كان رجلاً «أنقذ الأرملة وواسى المتألم، ودفن المسن، وأطعم الطفل، وعال كل مدينته فى زمن الجدب، وهو الذى أطعمها فى وقت القحط، وهو الذى زودها بسخاء بلا تمييز فكان عظماؤها فى ذلك مثل أصاغرها».

كذلك ذكرنا فيما تقدم أنه فى عهد «سنوسرت»[٤] الأول» بن «أمنمحات الأول» قد افتخر شريفان فى ترجمة حياتهما الجنازية بأنهما كانا قاضيين يقومان بتأدية وظيفتهما بالعدالة وبدون محاباة أو تفكير فى أية مكافأة (يعنى رشوة) يأخذانها، وقد قصا علينا افتخارهما ذاك بلغة النصائح نفسها الموجهة إلى «مريكارع» فدلا بذلك على أن المثل العليا الاجتماعية التى فاه بها ذلك الحكيم الملكى الأهناسى القديم كانت ماتزال ذات نفوذ، بعد قرون مضت على التفوه بها، فى ذلك العصر الإقطاعى. فمن البدهى إذًا أن المثل العليا للعدالة الاجتماعية

التى تشغل مكانًا بارزًا جدًا فى أدب ذلك العصر لم يقتصر تأثيرها على الملك فحسب بل أحدثت كذلك تأثيرًا عميقًا بين طبقة الحكام فى كل مكان.

ولا شك أننا نجد فى ذلك انقلابًا عظيمًا، فالتشاؤم الذى كان ينظر به رجال العصر الإقطاعى الأول إلى الحياة الآخرة، أو يتأملون به مصير الجبانات المخربة التى يرجع تاريخها إلى عصر الأهرام، أو اليأس الذى كان ينظر به بعضهم إلى الحياة الدنيوية، كل ذلك قد قوبل بتيار مضاد فى إنجيل من الحق والعدالة الاجتماعية أخرج للناس فى نصائح ملؤها الأمل على لسان أولئك المفكرين الاجتماعيين الأكثر تفاؤلاً، وهم رجال رأوا الأمل فى القيام بجهود إيجابية توصل إلى الأحوال المرضية.

ويجب علينا أن نعتبر تحذيرات «إبور» وتنبؤات «نفرروهو» وقصة «الفلاح الفصيح» أمثلة رائعة للقيام بمثل تلك الجهود، وأن كتاباته هى الأسلحة التى استعملتها أقدم طائفة قامت بالجهاد فى سبيل الإصلاح الخلقى والاجتماعى.

والواقع أن منتهى ما كان يرغب فى الوصول إليه رجل مثل «إبور» يتمثل فى خطاب العرش الذى ألقاه الملك عند تنصيب رئيس وزرائه. فإن الملك الذى فى قدرته أن يلقى خطابًا كهذا يقرب فى سموه من ذلك الملك الأمثل الذى كان يحلم بظهوره «إبور» ومن الملك الذى اعتقد «نفرروهو» أنه قد عثر عليه، ولدينا ما يحملنا من جهة أخرى على الاعتقاد أن «أمينى» الذى كان أميرًا لمقاطعة «بنى حسن» يمثل تمثيلاً صادقًا جيل الموظفين الجدد العدول الذين كان يأمل مؤلف قصة «الفلاح الفصيح» أن يراهم قائمين بأعباء الحكومة فى مصر.

وقد لاحظنا فيما سبق أن مجرد استحسان الأسرة لسلوك الفرد لم يعد بعد كافيًا فى ذاته، فقد أتى عصر التفكير بمثل عليا للسلوك الشخصى يرتبط أمرها بطبقات بأسرها من المجتمع، فصار السلوك عرضة لحكم المجتمع عليه، وهذا الحكم الاجتماعى، قد وضع الآن فى فم إله الشمس، فقد قال الفلاح الفصيح لمدير البيت العظيم «أقم العدل لرب العدل»، وكذلك أشار فى كلامه إلى «هذه

الكلمة الطيبة التى خرجت من فم «رع» نفسه وهى تكلم الصدق وافعل الصدق»، وفيها كما نذكر أن «الصدق» معناه كذلك الحق والعدالة «ماعت».

كذلك رأينا فى أوامر الملك للوزير الأعظم أن ذلك المنهاج الخاص بالشفقة الاجتماعية والعدالة الاجتماعية، وهو الذى يفضل فيه الملك الرجل الضعيف ومن لا ناصر له على الرجل القوى المستكبر، كان يرمى بوضوح إلى غرض دينى ينسب إلى الإله، فيقول الملك فى ذلك «إنها لعنة من الإله أن يظهر الإنسان تحيزًا». فنرى من ذلك أن آراء العدالة الاجتماعية عندما وجدت منفذًا عمليا لظهورها أولا فى الملكية المثلى، ثم بعد ذلك فى أخلاق الفرد المكلف بإقامتها، انعكست صورتها على أخلاق إله الشمس ونشاطه، وهو الملك الأمثل. أى أن وجوب المحافظة على العدالة الاجتماعية التى أخذ الناس يشعرون به فى قرارة أنفسهم قد صار أمرًا إلهيًا واعتقدوا فى الحال أن مقت أنفسهم للظلم هو مقت الإله نفسه للظلم، وبذلك صارت مثلهم العليا فى الأخلاق هى كذلك مثل الإله فاكتسبت بهذا المظهر الجديد قوة مسيطرة جديدة.

وبذلك كان من السهل الاعتقاد، زيادة على ما ذكر، بأن العدالة هى القانون التقليدى لوظيفة الوزير منذ الزمن الذى كان يحكم فيه إله الشمس مصر. وكذلك حكم الفرعون الذى جرى وراثيًا مدة ألفى سنة منذ تأسيس الاتحاد الأول، وكان المفروض فيه أنه كان استمرارًا لسريان دم «رع» وسلالته، كان كذلك استمرارًا لإقامة نظام العدل القديم الذى أقامه إله الشمس على الأرض، وقد ألقى الملك أمره بكل وضوح على الوزير، غير أنه لم يتردد فى الوقت نفسه فى الالتجاء إلى المحكمة العليا، فكان على الوزير أن يقيم العدل لأن الإله الأعظم الذى يشرف على الدولة يمقت الظلم، وليس ذلك اتباعًا لأمر الملك فقط.

ثم إنه بعد انقضاء قرابة اثنى عشر أو ثلاثة عشر قرنًا من الزمان على ذلك العصر نجد أن أنبياء بنى إسرائيل يعلنون بقوة سيادة «يهوه» الخلقية على سيادة الملك عندهم، ولكن كم كان عدد الأجيال التى لابد أنهم سلخوها فى خدمة الدين بغير فائدة ظاهرة قبل أن يتغلب صراع الأنبياء هذا ويحرز النصر حتى عبر عن روح الحكومة العبرانية، وإن كان ذلك التعبير فيها أقل بكثير عما عبر به الملوك

فى العصر الإقطاعى عند قدماء المصريين، مع أننا لم نعتد ربط مثل تلك المبادئ الحكومية بالشرق القديم بل ولا بالشرق الحديث.

ويرجع تأثير تلك المثل العالية للعدالة الاجتماعية التى وجدت سبيلها إلى الحكومة بدرجة عظيمة، إلى الشكل الذى انتشرت به بين كل طبقات الشعب، فإن مثل تلك العقائد لو كانت أعلنت بين القوم فى شكل مبادئ مجردة لما لفتت إليها الأفكار ولما أحدثت إلا تأثيرًا قليلاً، بل ربما لم تحدث أى تأثير مطلقًا فإنه المصرى كان يفكر دائما فى الأشياء المعينة، والصور المجسمة، فهو مثلا لا يفكر فى السرقة بل يفكر فى السارق نفسه، ولا يفكر فى الحب بل فى المحب، ولا يفكر فى الفقر بل فى الرجل الفقير وهلم جرا، ولذلك لم ير الفساد الاجتماعى بل شاهد المجتمع الفاسد، ولهذا كان الوزير «بتاح حتب»، وهو رجل يقوم بأعباء الوظيفة بإيمان سليم فى قيمة السلوك الحق والإدارة الحقة ليخلق بذلك السعادة، وسلم إرث تلك التجربة إلى ابنه، وكذلك «الرجل التعس» كان رجلاً حل به الظلم الاجتماعى فعبر عنه فى صورة روح يائسة تعبر عن يأسه وأسبابه، وكذلك أيضًا كان «إبور» رجلا تسكن فى نفسه الرؤية التى أدركت كلا من الفساد الفتاك بالمجتمع والحلم الذهبى بظهور الملك الأمثل الذى يصلح كل شىء، وكذلك أيضا كان «الفلاح الفصيح» رجلاً يتألم من اضطهاد الموظفين له ويصرخ بأعلى صوته مستغيثًا من ذلك، وكذلك أيضًا كانت أوامر «أمنمحات» صيغت فى قالب ملك يتألم من الخيانة المخزية التى حدثت له وجعلته يفقد كل ثقة بالناس فألقى تجاربه تلك إلى ابنه.

فكانت النتيجة اللازمة لذلك أن تلك العقائد التى تعزى إلى أولئك المفكرين الاجتماعيين قد وضعت فى شكل تمثيلى، وأن العقائد نفسها قد عبر عنها فى هيئة محاورات نشأت عن تجارب وحوادث مثلت كأنها حقائق واقعية.

وإننا نكرر هنا أن مثل تلك التعاليم كانت بلا شك تلاقى فى الشرق، بل ما زالت تلاقى فى كل بقاع العالم، أعظم الإقبال والانتشار بوضعها فى تلك الصور، وهى الصور التى صورت بها بكل بساطة مشكلة الألم الإنسانى التى مثلت لنا بشكل بارز فى قصة «أيوب» (عليه السلام). كما أن قصة «إحقار» التى كشف

حديثا عن أصلها الآرامى القديم تعد بلا شك مقالاً معبرًا عن غباوة جحود الجميل ونكرانه، وقد صيغت فى ذلك الطراز نفسه، فى حين أن أمثال «عيسى» عليه السلام» وهى أجمل تلك القصص جميعًا، تتبع فى تصويريها الطريقة نفسها والصورة اللتين كانتا شائعتين فى الشرق مدة أزمان مضت، و«أفلاطون» عندما أراد أن يتحدث عن خلود الروح اتخذ من موت «سقراط» موضوعا مسرحيًا عبر فيه عن العقائد التى أراد أن يضعها أمام الناس فى تضاعيف محادثة جرت بين «سقراط» وصحبه(٥).

ومما هو جدير بالنظر هل أن تلك الأبحاث الأخلاقية والفلسفية، والتى تلقى فى صورة محاورات بعد التمهيد لها بمقدمة تجعل الموضع كله فى هيئة قصة، كان لها أثرها فى ظهور الشكل الحوارى فى آسيا وأوروبا؟ على أن انتشار قصة «إحقار» انتشارًا عامًا فى أنحاء العالم يدل على مدى تنقل مثل ذلك الإنتاج الأدبى، وقد يكون من الأمور الجديرة بالذكر فى موضوعنا أن أقدم صورة لقصة «إحقار» هذه قد نبتت فى مصر.

وقد لاحظنا من قبل أن المثل العليا الاجتماعية التى نبتت فى العهد الإقطاعى قد أضيفت إليها سلطة مقدسة وعزيت إلى أصل إلهى، ومن المهم أن نفحص الدليل على قيام تلك الحقيقة، وأن نثبت بصفة قاطعة شخصية ذلك الإله المقصود الذى كان يلتجئ إلى سلطانه رجال المثل العليا فى الاجتماع، إن هذه المثالية الاجتماعية - التى هى أقدم شىء من نوعها كانت بلا جدال مرتبطة بحكم إله الشمس على الأرض، وقد لاحظنا فيما تقدم أنه كان إلهًا للشئون البشرية فى عالم الأحياء، فى حين أن «أوزير» كان إلهًا للموتى، ولا نزاع فى أن الملك الأمثل هو «رع» إله الشمس الذى كانت تجدد فخامة حكمه الخلقى فى الفرعون الذى كان خليفة له على الأرض.

ولقد التجأ فى أوامره لرئيس وزرائه إلى التصريح بأنها أتت وفقًا لحكم إله الشمس وجريًا على تقاليده المتبعة، فالإله «رع» هو الذى كان صاحب السيادة على أفكار أولئك الفلاسفة الاجتماعيين فى العهد الإقطاعى، لأننا نجد فى «أغنية الضارب على العود» حتى مومية المتوفى قد وضعت أمام إله الشمس، وإليه كان

يتطلع «الرجل التعس» ليبرئه فى الآخرة، وقد كان «خع خبرو رع سنب» كاهنا لإله الشمس بمدينة «هليوبوليس». كما أن رؤية «إبور» للملك الأمثل الذى سيأتى فى المستقبل قد برزت إليه من ذكريات النعيم المقيم لحكم «٠رع» على الأرض بين الناس فى حين أن ملخص كل شكاوى «الفلاح الفصيح» كانت تنحصر فى تلك الكلمة الطيبة التى خرجت من فم «رع» نفسه: تكلم الصدق وافعل الصدق (أو الحق) لأنه عظيم وأنه قوى وأنه دائم».

فالواجبات الخلقية التى تظهر فى اللاهوت الشمسى ليست إذًا إلا صورة لأقدم بعث اجتماعى جديد لم نعرف نظيرا له فى تاريخ العالم. وقد كان من أهم نتائج الملكية المثلى لحكم إله الشمس، الأمل فى تكرار مثل ذلك الحكم الطافح بالخير، وكان ذلك الأمل هو الذى جلب معه فكرة انتظار ملك مخلّص يأتى فيما بعد.

ومن الواضح هنا، كما فى متون الأهرام، أن علاقة «أوزير» بالمثل العليا للحق والعدالة فى ذلك الوقت كانت أمرا ثانويًا، لأن «أوزير» كان قد حوكم ثم اتضحت براءته فى قاعة «هليوبوليس» العظمى، أى أنه حوكم أمام محكمة الشمس التى كان معترفًا بها أنها المحكمة التى لابد أن يفوز الإنسان ببراءته أمامها، وقد حدث ذلك فى الوقت الذى كانت فيه أسطورة «أوزير» ماتزال فى دور التكوين والتأليف.

أما رفع «أوزير» إلى منصب قاض فيما بعد فليس إلا صبغًا لوظائفه بالصبغة الشمسية على أساس القضاء الشمسى فى متون الأهرام، إذ نجد فى تلك المتون أن «أوزير» قد صعد بالفعل فوق عرش «رع» السماوى. ثم نراه الآن يستولى على كرسى القضاء الخاص «برع»، وبتلك الكيفية صار إله الشمس المتصرف الخلقى العظيم الذى يحاكم أمامه الجميع بمقتضى العدالة، ولم يستثن من بينهم أحداً حتى ولا «أوزير» هذا، ولا داعى لأن ننكر هنا وجود بعض المبادئ الخلقية فى العقيدة الأوزيرية المبكرة، وهى المبادئ التى نجد بعض الدلائل على وجودها فى المذاهب المحلية لعدة آلهة مصرية من عصر الأهرام، ولكن يجب علينا لهذه المناسبة ألا ننسى أن متون الأهرام قد حفظت لنا بعض المتون التى اعتبر فيها «أوزير» بعيدًا جدًا عن أن يكون ملكًا أمثل وصديقًا للإنسان، لأنها تميط اللثام

عن عداوته للموتى وخصومته لجميع الناس، ولم يظهر «أوزير» بمظهر الحامى للعدالة بشكل صريح إلا فى العهد الإقطاعى، وسنرى الآن «أوزير» و«رع» قد وضعا جنبًا إلى جنب فى التفكير الخلقى فى ذلك العصر.

وكان لابد فى ذلك الوقت لكل عظيم وكل قوى أن ينتظر المحاكمة أمام محكمة العدل، على أن يكون ذلك على قدم المساواة مع الفقير ومن لا ناصر له فى المعاملة وفى الأحكام، وتلك المعاملة لم تذكر فقط فى الاعتقادات الدينية والمبادئ الاجتماعية، بل ذكرت كذلك رسميًا فى السياسة الملكية، ولا يكاد يكون هناك أى شك فى أن مثل تلك العقائد الخاصة بالعدالة الاجتماعية كما وجدناها فى ذلك العصر قد ساعدت مساعدة عظيمة على نمو الاقتناع بأن الإنسان الذى يصير مقبولا أمام محكمة عدالة الإله العظيم ليس هو الرجل الذى يكون صاحب سلطان وثروة وإنما هو رجل الحق والعدالة[٦]:

وقد تأثر الكهنة الذين كانوا مشتغلين باللاهوت فى ذلك العصر تأثرًا عظيمًا بذلك الميل إلى نشر الديمقراطية (أى تعميم المساواة بين الناس)، ويكشف لنا عن مبلغ ذلك التأثير خطاب أساسى مهم لإله الشمس عثر عليه فى متون التوابيت الخشبية التى يرجع تاريخها إلى ذلك العصر الإقطاعى، إذ يقول: ولقد خلقت الرياح الأربعة ليتنفس بها الإنسان مثل أخيه الإنسان مدة حياته، لقد خلقت المياه العظيمة ليستعملها الفقير مثل السيد».

«لقد خلقت كل رجل مثل أخيه، وحرمت عليهم إتيان السوء، ولكن قلوبهم هى التى نكثت ما قلته».

«لقد جعلت قلوبهم لا تغفل عن الغرب (الموت والقبر) ليقربوا القرابين للآلهة المحلية[٧]».

وإنه لأمر مهم جدًا أن نجد فى ذلك المتن المساواة التامة بين بنى الإنسان فى قوله: «لقد خلقت كل إنسان مثل أخيه».

وقد نظر إلى ذلك البيان فورًا من ناحيته الخلقية فى قوله «ولقد حرمت عليهم إتيان السوء ولكن قلوبهم هى التى نكثت ما قلته»، وإن ظهور مثل تلك النظرة - إلى الإنسانية - التى قضت على كل الفوارق الاجتماعية فى نظر الخالق

العظيم عند خلقه للناس وجعلهم سواسية أمام المسئولية الخلقية - يعد أمرًا غريبًا، ويزيد فى غرابته ظهوره قبل عصر المسيح (عليه السلام) بألفى سنة، أى أنه كما نلاحظ كان معاصرًا على وجه التقريب لعهد الملك «حمورابى»[٨] الذى سن فى قانونه العظيم: «إن كل العقوبات والأحكام القضائية تدرج حسب مراكز المدنيين الاجتماعية أو مكانة المتخاصمين الاجتماعية»، وهذه الحقيقة تفسر لنا على الفور، السبب الذى من أجله نعتبر أن ما أضافته المدنية البابلية إلى إرثنا الخلقى فى غربى آسيا، فى حكم العدم.

ومن ثم نرى أن الحقوق الخاصة التى كان يدعيها العظماء والأقوياء لأنفسهم من الإجلال والسعادة فى عالم الآخرة، أخذت تختفى وتزول، ومن هنا أيضًا بدأت عقيدة المساواة بين البشر فى التمتع بنعيم الآخرة تأخذ مجراها، بمعنى أن عالم الحياة الآخرة قد صار ديمقراطيًا لكل البشر على السواء.

والآن يجب علينا أن نحاول إدراك تأثير الآراء الخاصة بالعدالة الاجتماعية التى ظهرت فى العهد الإقطاعى إزاء تطور الاعتقادات المصرية القديمة فيما يتعلق بمصير الأرواح البشرية فى عالم الحياة الآخرة.

هوامش الفصل الثانى عشر:

(١) كان هناك طبعًا اسم الوزير، وكان يختلف باختلاف اسم الوزير الذى يعين.

(٢) أول ملوك الأسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ ـ ١٩٧٠ ق. م.)

(٣) «أمينى» مختصر اسم «أمنمحات».

(٤) سنوسرت الأول «سوزستريس» (١٩٨٠ ـ ١٩٣٥ ق. م.)

(٥) إن وجه الشبه بمحاورات «أفلاطون» قد لاحظه الأستاذ «جاردنر» فى كتابه.

(٦) إن أكرمكم عند الله أتقاكم.

(٧) لقد شاهدت تلك الفقرة أولا بتابوت «ست حزحتب» Cairo 28085 وهى التى وضعت فى طبعة المعهد الشرقى تحت B 3 C Bersheh 3 Cairo وإنى مدين للأستاذ «دى بك» (De Buck) لأنه استلفت نظرى إلى تلك المتون المماثلة لذلك المتن إذ يوجد أحدهما فى القاهرة والآخر فى متحف برستول، والمتن الآخر هو الأصح ولكن المتن (B 6C) يعطينا صورة أوفى من غيره وقد استعملت كل الثلاثة فى ترجمتى هذه.

(٨) هو ملك بابل حكم قرابة عام ١٩٠٠ ق. م ومن أهم أعماله القانون الشهير الذى وضعه لبلاده.

الفصل الثالث عشر

إقبال عامة الشعب على اعتناق مُثل الآخرة الملكية وانتشار السحر

إن عقيدة التشكك إزاء الاستعداد للحياة الآخرة، بما فيه من بناء قبر ضخم مجهز بالأساس الجنازى الوفير، ثم التسليم بعدم فائدة العتاد المادى للمتوفى، لم يخرج أمرهما عن كونه موجة عكسية صغيرة وسط تيار محيط الحياة المصرية، وذلك بالرغم مما رأيناه من المبالغة فى شأنهما فى العصر الإقطاعى، والواقع أن مثل تلك الاتجاهات كانت، من جهة، من مستلزمات عقيدة التشاؤم واليأس المطلقين، كما كانت من جهة أخرى من مستلزمات الاعتقاد (الآخذ فى النمو) بضرورة التزود بالقيم الخلقية للحياة الآخرة، ولم تخرج تلك الآراء عن كونها ثورية لم تحمل فى تيارها الجم الغفير من الشعب المصرى، ولذلك لما صارت سعادة الآخرة حقا مشاعًا لجميع المتوفين سارع عامة الشعب إلى التعلق بهذا الامتياز الجديد الذى يجعل لهم حق التمتع بذلك المصير السماوى الفخم الذى كان من زمن بعيد موقوفًا على الفرعون فقط، فأقبلوا على تلك الشعائر الجنازية وواصلوا القيام بالمحافظة على طقوسها.

وقد استمرت العناية بإقامة تلك الشعائر تزداد وتنتشر دون أى التفات إلى ذلك الصمت البليغ والخراب البادى اللذين كانا يخيمان فوق هضبة الأهرام وفوق جبانات أولئك الأجداد. وباستعراض الماضى نجد أن والد «مريكا رع» بالرغم من أنه كان يشعر شعورًا قويًا بتلك الأهمية الخطيرة للحياة الفاضلة، لم ير أن يزين

لابنه الاستغناء عن القبر، إن يقول له: «زين مثواك (يعنى قبرك) الذى فى الغرب وجمل مقعدك فى الجبانة، ولكنه لم يفته فى الوقت نفسه أن يضيف إلى ذلك قوله: «كإنسان مستقيم أقام العدالة، لأن ذلك هو ما يعتمد عليه القلب».

ويتضح من ذلك أن هذا الملك المسن لم يكن تعتبر القبر المتين وحده كافيا لضمان السعادة فى الحياة الآخرة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى نرى أن «إبور» قد قال للملك: «وفضلاً عن ذلك فإنه من الخير أن تقيم أيدى الناس الأهرام وتحفر البحيرات وتغرس خمائل جميز الآلهة».

وقد كان يعد فقدان القبر فى نظر طائفة الموظفين الأثرياء أرهب عاقبة ممكنة لعدم ولاء المتوفى للملك، ولذلك قال أحد الحكماء لأولاده «لا قبر لإنسان خارج على جلالة الملك، بل إن جثته سيلقى بها فى الماء[1]».

ومن أجل ذلك اتجه الأشراف فى ذلك العصر إلى بناء المقابر وتجهيز معداتها طبقا لما كانت عليه الحال قديمًا. والواقع أنه لم يعد بعد فى قبضة يد الملوك ذلك السلطان المطلق على الحكومة حتى يمكنهم أن يتخذوا منها مجرد هيئة منظمة لإقامة المقبرة الملكية الهائلة، ومع ذلك فإن طبقة الموظفين المكلفين بإقامة مثل تلك المبانى لم يترددوا فى موازنتها بالجيزة (جبانة الجيزة)، فقد أظهر «مرا» أحد مهندسى الملك «سنوسرت الأول» ارتياحًا عظيما عندما كلف من قبل الملك «ليقوم له ببناء مثوى أبدى تفوق شهرته «رُستا» (يعنى الجيزة) ويكون أثاثه أحسن من أثاث أى مكان آخر وفى المنطقة الممتازة الخاصة بالآلهة، فكانت عمد ذلك المثوى تخترق السماء، والبحيرة التى حفرت فيه قد وصلت إلى النهر، وأبوابه العظيمة التى تناطح السماء قد أقيمت من أحجار طرة البيضاء، وقد فرح «أوزير»، أول أهل الغرب، بكل آثار سيدى (الملك)، كما سررت أنا نفسى وابتهج قلبى بما قد قمت بإنجازه[2]، و«المثوى الأبدى» المذكور هنا هو قبر الملك، وهو يشمل كذلك المزار أو المعبد الجنازى الذى يكون قبالته، كما يدل على ذلك الوصف المذكور.

ومع أن مقابر أشراف الإقطاعات لم تعد تبنى بعد حول هرم الملك كما كان يفعل الأشراف ورجال الإدارة فى زمن عصر الأهرام، وصارت الآن منبثة فى

إقطاعاتهم فى طول البلاد وعرضها، فإنهم استمروا يتمتعون إلى حد ما بالهبات الجنازية اتى كانت تصرف من الخزانة الملكية، تشهد بذلك الصيغة الدينية المألوفة: «هى قربان يهديه الملك»، وهى الصيغة التى كانت شائعة فى المقابر التى حول الأهرام - فصارت الآن تنقش بكثرة بمقابر الأشراف.

على أن هذه الحالة لم تعد مقصورة على مقابر الأشراف، إذ أنه بعد التطور الأخير فى معتقدات الطبقات الراقية عن الآخرة وانتشارها بين الشعب، صار من العادات المعروفة المرعية أن يتضرع كل إنسان إلى الملك حتى يعطيه نصيبًا من تلك الهبات الجنازية الملكية، ولذلك نجد كل طبقات المجتمع - حتى أحقر العمال - المدفوعين فى العرابة المدفونة كانوا يتضرعون لنيل «قربان يهبه إليهم الملك»، بالرغم من أنه كان من المستحيل طبعا أن تتمتع غمارة الشعب بامتياز كهذا.

على أننا لا نحصل على فكرة وافية عن تلك العادات الطلية الخاصة بتموين المتوفى فى الحياة الآخرة إلا فى ذلك العهد الإقطاعى، ولا غرو، فقد صارت تلك العادات الآن متأصلة فى حياة الشعب، وقد حفظت لنا المقابر التى ما تزال باقية إلى الآن فى مقاطعات الوجه القبلى بعض بقايا تلك الشعائر اليومية والعادية، وكذلك ما كان خاصًا منها بالاحتفالات والأعياد، مما كان الشعب يظن أنه بواسطتها يدخل السرور على الذين قد رحلوا إلى الدار الآخرة حتى تصير حياتهم أكثر مرحًا، وذلك على النمط الذى لاحظناه فى الاحتياطات التى كان يتخذها الأشراف فى عصر الأهرام.

فإن الشريف الثرى «حبزافى» الأسيوطى (حاكم مقاطعة أسيوط) الذى كان يعيش فى القرن العشرين ق. م. أقام لنفسه قبل وفاته تمثالاً فى كل من معبدى المدينة الرئيسيين: أحدهما فى معبد الإله «وبوات»، وهو إله محلى قديم لذلك المكان فى صورة ذئب، ومن ذلك الاسم اشتقت المدينة اسمها «ليكوبوليس» (يعنى بلدة الذئب)على يد اليونان ، وأما التمثال الآخر فقد أقامه فى معبد «أنوبيس»، وهو إله معروف فى صورة الكلب أو صورة ابن آوى، وقد كان ذلك الإله يومًا ما أحد الآلهة المناهضين «لأوزير». وكان معبد الإله «وبوات» يقع فى وسط المدينة،

فى حين أن معبد الإله «أنوبيس» كان يقع بعيدًا عنه على ظاهر حدود الجبانة فى سفح الجبل الذى نحت فى واجهته على مسافة من ارتفاعه، قبر «حبزافى» الفخم، وقد نصب فى ذلك القبر تمثالاً ثالثًا لنفسه أيضًا يقوم برعايته كاهنه الجنازى، ولم يكن له إلا كاهن واحد يعنى بقبره، ويقوم بالاحتفالات التى كان يرغب فيها، ولكن «حبزافى» دبر ما يلزم للكاهن من المساعدة عند الاقتضاء، بأن عهد بهذه المساعدة إلى كهنة المعبدين وبعض موظفى تلك الجبانة، وقد تعاقد على ذلك مع كل أولئك كما تعاقد مع الكاهن الجنازى، معينًا بالضبط ما يجب عليهم عمله وما يجب أن يتسلموه من غلات ذلك الشريف فى مقابل قيامهم بتلك الخدمات أو مقابل القربان الذى كان يقدم بانتظام كل يوم وفى المواسم الخاصة فيما بعد موت هذا الشريف.

وتلك العقود البالغ عددها عشرة قد دونها ذلك الشريف فى نقوش ظاهرة إلى الآن فوق الجدار الداخلى لمزار قبره. وهى تقدم لنا صورة قريبة جدًا من تقويم الأعياد كان يحتفل بها فى تلك المدينة الإقليمية التى كان يحكمها «حبزافى»، وهى أعياد كان الاحتفال بها يعم الأحياء والأموات على السواء.

فإذا اتخذنا محتويات تلك العقود أساسًا فإن الصورة الخيالية التالية التى نستنبطها من ذلك كفيلة على ما نأمل بالتعبير عن الحياة التى توحى بها تلك العقود.

إن أهم تلك الاحتفالات تلك التى كانت تقام بمناسبة مقدم السنة الجديدة، فكانت تقام قبل حلولها، وعند بدايتها وبعد بدايتها، فتبدأ الاحتفالات قبل نهاية السنة القديمة بخمسة أيام فى أول يوم من أيام النسىء الخمسة، التى تنتهى بها السنة، فكان يرى فى ذلك اليوم كهنة الإله، «وبوات» سائرين فى موكب، مخترقين شوارع أسيوط وأسواقها، وكانوا فى نهاية المطاف يخرجون من المدينة حاملين إلههم «وبوات» إلى معبد «أنوبيس» الذى كان يقع فى سفح جبل الجبانة، وهنالك يذبح ثور للإله الزائر (يعنى للإله «وبوات»)، وكان كل كاهن إذ ذاك يحمل بيده

رغيفًا كبيرًا أبيض مخروطى الشكل، وعند دخولهم ساحة معبد «أنوبيس» هذا يضع كل منهم رغيفه عند قاعدة تمثال «حبزافى».

وبعد مضى خمسة أيام من ذلك التاريخ كان ينحدر مدير الجبانة وبصحبته تسعة من موظفيه من فوق تلك الجبال عند حلول المساء، مارين بأبواب القبور المفتوحة، التى كانت حراستها موكلة إلى هؤلاء الموظفين، ثم يدخلون فى ظلال المدينة التى فى سفح تلك الجبال، وكانت المدينة فى تلك الآونة يخيم عليها الظلام منذ كانت تقع فى ظلال تلك الجبال المشرفة عليها، كان هذا فى ليلة رأس السنة الجديدة، وكانت الأنوار المبعثرة التى أشعلت ابتهاجًا بالعيد قد بدأت تنبعث عند الشفق من داخل البيوت ومن الشرفات.

وحينما تكون تلك الفئة ماضية فى سيرها بالشوارع الضيقة الواقعة فى أطراف المدينة تعترضهم فجأة الأسوار العالية لمعبد الإله «أنوبيس». وعندما يدخلون من بابه العالى العظيم يسألون عن «الكاهن العظيم»، فيقدم لهم هذا على الفور حزمة من المشاعل، فيأخذونها ويعودون أدراجهم مصدعين فى الجبل بتؤدة ومشرفين على المدينة كلما تسلقوا الجبل فى عودتهم، وحينما يشرفون من فوق الجبل على أسقف المدينة الملتفة فى الظلام الدامس كانوا يكشفون فى وسطها مجموعتين منعزلتين من الأنوار، إحداهما تقع بالضبط تحت أقدامهم فى حضيض الجبل، والأخرى تقع على مسافة بعيدة فى قلب المدينة، فكانتا تشبهان جزيرتين متلألئتين بالنور فى بحر من الظلمة يمتد إلى مسافة من تحت أرجلهم، وهاتان المجموعتان من النور هما ساحتا المعبدين اللذين كانت الأنوار تسطع فى أرجائهما.

وبالرغم من أن سيدهم القديم[٣] «حبزافى» كان مدفونًا فى بلاد النوبة النائية فإنه كان حاضرًا بتمثاله المقام فى وسط تلك الأفراح والأعياد التى كانت تعج بهما ساحة ذينك المعبدين، فقد كان تمثاله المنصوب فى المعبد ينعم بعينيه اللتين كان يشرف بهما على الجموع التى كانت تزخر بهم هاتان الساحتان المختالتان بجمال أعمدتهما الزاهية، وكان (يعنى التمثال) يتمتع مثل أصدقائه الأحياء

الموجودين أسفل منه - بروح ذلك الفيض العميم الذى كان مبسوطًا أمامه عندما يشاهد رغفان القربان موضوعة عند قدميه، وهى التى ذكرنا فيما مر أن الكهنة كانت تضعها هناك، وكانت أذناه (يعنى التمثال) تملآن بضجيج آلاف الأصوات التى كانت تتعالى بالفرح المنبعثة من جماهير المدينة المجتمعين بمعبدى الإلهين يترقبون انقضاء ذلك العام الراحل ويستقبلون العام الجديد، وكأن أصواتهم اصطفاق بحر يزخر بأمواجه، ينبعث من بعيد فوق الأسقف المظلمة إلى أن يصل جرسه المتضائل إلى آذان طائفة حراس الجبانة المرتفعة القائمة بين ظلمات الجبال وهم يشرفون على المدينة فى صمت رهيب.

وكانت تطل من فوق رءوسهم بالضبط واجهة تلك المقبرة التى كانت قد أعدت لتضم جثمان سيدهم الراحل «حبزافى»، وقد كان المتقدمون فى السن من بين أولئك الحراس يذكرونه جيدًا ويذكرون الكرم الذى طالما لاقوه على يديه، وأما المحدثون منهم فكان فى نظرهم اسم «حبزافى» مجرد اسم لا يحمل معنى ما، فكانوا لا يجيبون إلا متباطئين ومتثاقلين عندما كان شيوخهم يحثونهم على إضاءة أنوار القبر، وحينما كان يتعجلهم صوت كاهن «حبزافى» من أعلى الجبل قائلاً: «لا تتأخروا أكثر من ذلك فى إضاءة الأنوار»، وعندئذ يخرج الشرر من قدح الزناد، وعلى إثره تضاء أول شعلة ومنها تضاء المشاعل الأخرى بسرعة، وكان الموكب الذى يشمل أولئك الحراس يسير حول مرتفع من الجبل فسيح الأرجاء ثم يعود الموكب ثانية إلى باب القبر العالى، حيث يكون فى انتظارهم كاهن «حبزافى» فيدخلون من غير توانٍ إلى مزار القبر العظيم.

وكان يشاهد انعكاس أنوار تلك المشاعل المتألقة فى غير نظام فوق جدار ذلك المزار، فترى عليه صورة ضخمة للسيد الراحل ترتفع عالية حتى تختفى رأسه وسط الظلمة التى لم تصل إليها أنوار تلك المشاعل المتضائلة، ويبدو على صورته كأنها تحثهم على تأدية واجباتهم نحوه بالدقة والعناية عملاً بما هو مدون بالعقود العشرة المنقوشة فوق جدار المزار نفسه. و،كان «حبزافي» يبدو في الصورة مرتديًا لباسًا بهيجًا ومتوكئًا فى رقة على عصاه التى بيده، وطالما كان المسنون من

تلك الطائفة يرونه قائمًا على هذا الوضع وهو يفصل فى القضايا التى كانت تعرض عليه حينما كان يساق المذنبون إلى داخل باب ديوانه بين صفين من ضباطه المتزلفين، أو كما كان يشاهد فى حالة أخرى وهو يراقب سير تقدم العمل فى إحدى ترع الرى المهمة حتى يفتتح بها حقل زراعة جديد، فكان هؤلاء الحراس يسجدون خضوعا أمام صورته تلك المهيبة، يسوقهم إلى ذلك الدافع الطبعى الذى ليس لهم فيه اختيار، كما كان يسجد أمامه الكتاب وأصحاب الحرف والفلاحون الذين نشاهد صورهم تملأ الجدران التى أمامه، وقد لونت بالألوان الجميلة البارزة فوق الجدران، وتلك الصور تمثل الصناعات وأسباب الترفيه التى كانت تضمها تلك الضياع العظيمة التى كان يملكها «حبزافى» وقتذاك، وهى تؤلف دنيا مصغرة يرى فيها ذلك الشريف الراحل، عندما يدخل إلى مزار قبره، أنه لا يزال يغدو ويروح بين مناظر حياة الريف ومسراتها التى كان هو السيد المرموق فيها، فقد كان يخيل إليه أن جدران مقبرته قد رجعت واتسعت حتى صارت تشمل حقول الزراعة والأسواق، ومصانع السفن وأحواضها، ومستنقعات صيد الطيور، وردهات الحفلات، وقد عمر النحات والرسام الجدران بتلك المناظر، حتى صارت فى الواقع كأن الحياة تدب فيها.

عند ذلك توضع المشاعل الموقدة حول القرابين التى تملأ سطح مائدة القربان العظيمة المصنوعة من الحجر فى المزار، وخلف تلك المائدة تمثال «حبزافى» جالس فى كوة منحوتة فى أصل الجدار، وبعد ذلك تنسحب جماعة الحراس الصغيرة على مهل، ملقين عدة نظرات سريعة على الباب الوهمى المقام فى جدار المزار الخلفى، وكانوا يعتقدون أن «حبزافى» يمكنه فى أى وقت شاء أن يبرز منه تاركًا عالم الظلام المستتر خلف ذلك الباب الوهمى ليدخل إلى عالم الأحياء ويحتفل مع الأحياء من أصدقائه بعيد رأس السنة المذكور.

وأما اليوم التالى، وهو اليوم الأول من السنة الجديدة، فيعد أعظم أيام الأعياد فى التقويم السنوى، وكان القوم يتبادلون فيه الهدايا فرحين، كما يتوافد أهل الضياع أيضًا يحملون الهدايا إلى سيد ضيعتهم، وقد انهمكت سلالة «حبزافى»

فى ملذاتها وجرت فيها إلى آخر شوطها، ولكن شروطه التى أبرمت بانتباه، وحذر، وهى التى كانت ولا تزال مدونة فى سجلات المدينة، تضمن له الاهتمام بأمره وعدم إهماله، وفى الوقت الذى كان فيه الفلاحون ومستأجرو الإقطاعية يشاهدون مزدحمين عند الباب العظيم لبيت ذلك الشريف، حاملين هداياهم لسيدهم الحى، غير مفكرين فى سيدهم الراحل، كان حراس الجبانة العشرة بقيادة رئيسهم يجتازون أطراف المدينة مرة أخرى سائرين نحو إحدى خزائن الضيعة لتسلم ما كان من حقهم أن يتزودوا به منها، ثم لا يلبثون أن يعودوا أدراجهم حاملين ٥٥٠ فطيرة مستديرة و٥٥ رغيفًا من الخبز الأبيض و١١ إناء مملوءة بالجعة. ثم يرجعون من حيث جاءوا مقتحمين طريقهم فى تمهل وسط مرح الزحام حتى يبلغوا مدخل الجبانة عند سفح الجبل، فيجدون هناك زحامًا عظيمًا أيضًا وكل واحد من أولئك المزحمين محمل بمثل ما حملوا به، إذ كان الطيبون من أهل «أسيوط» يحملون عطاياهم من الأطعمة والشراب، بين جلبة عظيمة من الأفراح القائمة وسط تلك المناظر الخلابة التى لا عداد لها من صور تلك الحياة الشرقية، كما يشاهد مثل ذلك إلى اليوم بالجبانات الإسلامية فى مصر فى أيام عيد الفطر (وباقى الأعياد الإسلامية)، ويقصدون إلى الجبل حيث يدخلون بما يحملون إلى أبواب المزارات العديدة، والتى كانت منتشرة فى وجه الجبل على مثال عيون أقراص النحل فى خليتها، حتى تتمكن موتاهم من مشاطرتهم تلك الأعياد المرحة.

والواقع أن ذلك العيد يعد أقدم مثال من «عيد كل الأرواح»[٤] وكان حراس الجبانة يسرعون إلى قبر «حبزافى» بما معهم من المؤن فيسلمونها على الفور إلى كاهن الجنازىّ ثم يعودون أدراجهم، حتى يحافظوا على النظام بين جمهور أفراد الشعب المرح الذين كانوا يتسلقون الجبل من كل مكان.

وكلما بليت جدة النهار قامت المعدات اللازمة للاحتفالات المسائية على ساق وقدم، من إشعال الأنوار وتمجيد المرحومين الذين ماتوا، وكان حراس الجبانة، مع كثرة تعبهم من تأدية واجباتهم الشاقة طوال اليوم بالجبانة المزدحمة، ينحدرون

للمرة الثانية من فوق الجبل إلى معبد الإله «وبوات» بالمدينة حيث يكون جميع كهنة المعبد عن بكرة أبيهم فى انتظارهم، فيقوم «الكاهن الأعظم» رئيسهم بتسليم حراس الجبانة عشرة المشاعل اللازمة لإنارة مقبرة «حبزافى»، فكانت تضاء فى الحال بالمشاعل التى يحملها الكهنة، ثم يتحرك بعد ذلك الموكب المؤلف من الحراس والكهنة معًا، فيسير على مهل مجتازا ساحة المعبد، ثم يخترق السور المقدس سائرًا نحو الركن الشمالى للمعبد، كما ينص على ذلك لنا العقد الذى أبرمه «حبزافى» مع الكهنة، وهم يرتلون تفخيم «حبزافى» (جعله روحا). وكان كل كاهن يحمل معه رغيفًا كبيرًا مخروطى الشكل من الخبز الأبيض كالذى سبق أن وضعوا مثله أمام تمثال «حبزافى» فى معبد «أنوبيس» منذ خمسة أيام مضت، وأن الكهنة عندما يصلون إلى الركن الشمالى من المعبد يعودون ثانية إلى القيام بواجباتهم فى وسط المحراب المزدحم بدهماء الشعب، وكانوا بطبيعة الحال يسلمون رغفانهم إلى حراس الجبانة لأن هذه الرغفان كانت كنص العقد. خاصة بتمثال «حبزافى» الذى فى «قبره»، أما موكب الحراس الصغير المؤلف من عشرة أشخاص فكان يخترق شوارع المدينة المتألقة بالأنوار، والحراس يقتحمون طريقهم بمشقة عظيمة وسط زحام الشعب، وفى النهاية يبلغون الباب العظيم لمعبد «أنوبيس» حيث تكون الأنوار قد بلغت غايتها من البهجة والرواء، ولا ينسى فى ذلك تمثال «حبزافى». وحينما يظهر الموكب خارج المدينة ثانية نراهم لا يزالون يشقون طريقهم بصعوبة بسبب دهماء الناس الذين يسيرون فى طريقهم نفسه ، وكانت واجهة الجبل المظلمة التى تشرف عليهم يتخللها هنا وهناك معالم من النور تسير وئيدة مصعدة فوق الجبل، وكانت تلك الأنوار صادرة من مشاعل أهل المدينة الذين صعدوا مبكرين ووصلوا إلى الجبانة لوضع تلك الأنوار بها أمام تماثيل أمواتهم وقبورهم، وأما الحراس فإنهم يصعدون إلى مقبرة «حبزافى» كما فعلوا فى الليلة المنصرمة، ويسلمون المشاعل والخبز للكاهن «حبذا فى» الذى ينتظرهم، وهكذا يشترك ذلك الشريف المتوفى مع أولاده ورعاياه الأحياء فى الاحتفال بأعياد رأس السنة.

وفوق تلك الأعياد وغيرها من الأعياد الكبرى التى كان يتمتع بها المتوفى على الوجه المذكور، فإنه لم ينس فى أى عيد من الأعياد الموسمية الصغيرة التى كان يحتفل بها فى أول كل شهر وفى منتصف الشهر أو فى أى يوم من «الأيام المحتفل بها».

وأما حاجاته اليومية فكان يقوم بأدائها طائفة خارجة عن هيئة الكهنة تخدمه بالتناوب بمعبد «أنوبيس». ولأن ذلك المعبد كان على مقربة من الجبانة، كان أولئك الخدم يذهبون كل يوم بعد الفراغ من تأدية أعمالهم فى المعبد حاملين نصيبًا من الخبز مع إناء مملوء بالجعة ويضعونهما أمام تمثال «حبزافى» (الذى يكون منصوبًا فوق السلم السفلى لقبره). وعلى ذلك كان لا يمضى يوم واحد من أيام السنة لا يتسلم فيه «حبزافى» ما يلزمه من الطعام والشراب(٦). وإن مثل تلك الاعتقادات والعادات لتدل على شدة تمسك قدماء المصريين بتلك التقاليد المادية الخاصة بالحياة فى العالم الآخرة، التى هى فى نظرهم الضمان الوثيق لاستمرار بقاء جثمان المتوفى بعد الموت، بالرغم مما ظهر من الأفكار التى ألقت ضوءًا جديدًا على ضرورة التحلى بالأخلاق الفاضلة استعدادًا لاستقبال الحياة الآخرة فيما بعد الموت.

على أن بقاء إمداد الأشراف المتوفين بمثل ذلك العتاد المادى إلى الأبد، كان بالطبع من المستحيل. ولذلك قال «خنوم حتب» أحد الأمراء الإقطاعيين ذوى البأس فى «بنى حسن» فيما يختص بأوقافه الجنازية: «وأما فيما يتعلق بالكاهن الجنازى أو أى شخص آخر يعبث بها فإنه لن يستمر بعد وابنه لن يستمر بعده فى هذا المكان» (يعنى مشرفًا على حراسة مدفنه). فيظهر من هذا خوف الشريف المذكور من عدم دوام تقديم العتاد المادى له بعد الموت، ومثل هذه المخاوف كثيرة تردد ذكرها الوثائق التى من هذا القبيل.

وكذلك قد شاهدنا أيضًا أن «حبزافى» ذاك كان يبدى مخاوفه من انقطاع ذراريه عن تقديم العتاد المادى لحياته الآخرة، ليس ذلك بغريب، فنحن أبناء هذا العصر الحديث لا يكاد يدفعنا البر نحو الاهتمام بقبر جد من أجدادنا الذين

رحلوا عنا إلى الحياة الآخرة، وفى بلاد جديدة مثل بلادنا (يقصد الولايات المتحدة بأمريكا) لا يوجد إلا النزر اليسير من بيننا الذين يعرفون أين دفن آباء أجدادهم.

فالمفهوم أن كهنة «أنوبيس» و«وبوات» وحراس الجبانة بأسيوط كانوا يواصلون أداء واجباتهم ما دام كاهن «حبزافى» الجنازى يتسلم مرتباته، وما دام مخلصًا فى القيام بالتزاماته بأن يذكرهم بالقيام بما عليهم من الواجبات ويلاحظ تنفيذها.

وقد رأينا أن وقفًا من مثل تلك الأوقاف استمر نافذ المفعول إلى ما بعد تغيير الأسرة نفسها (من الأسرة الرابعة إلى الخامسة) واستمر على أقل تقدير حوالى ثلاثين أو أربعين سنة فى منتصف القرن الثامن والعشرين ق. م. وحتى فى الأسرة الثانية عشرة نجد أنه كان لا يزال يوجد احترام عظيم فى مصر العليا للأجداد من الدولة القديمة، فقد قام حكام مقاطعة «البرشة»[7] فى القرن التاسع عشر والعشرين من قبل الميلاد بإصلاح مقابر أجدادهم التى كانت ترجع إلى عصر الأهرام، مع أن تلك المقابر كان قد مضى عليها حينئذ أكثر من ٦٠٠ سنة وكانت متداعية خربة، وقد اعتاد الحاكم التقى الورع أنه يسجل ما يفعله من مثل هذه الإصلاحات بالكلمات التالية: «إنه (يعنى حاكم المقاطعة) قد عملها تخليدًا منه لذكرى أجداده الذين في الجبانة الذين هم أرباب ذلك المرتفع. فأصلح ما وجده مخربًا وجدد ما وجده مهدمًا، ولم يقم أسلافه الذين كانوا قبله بذلك». ونجد أن أشراف تلك المقاطعة قد استعملوا تلك الصيغة فى مقابر أجدادهم خمس مرات، كما نجد أن «أنتف» أمير «أرمنت» قد اتبع تلك الطريقة نفسها، حيث يقول: «لقد وجدت مزار الأمير «ناخت يوكر» آل إلى الدمار، فجدرانه قديمة وتماثيله محطمة ولم يعتن به أى إنسان، فبنيته من جديد وزدت فى بنائه، وجددت تماثيله، وأقمت بالحجارة أبوابه، حتى يصير مكانه ممتازًا عن أماكن الأمراء العظام الآخرين».

على أن القيام بمثل ذلك البر للأجداد الراحلين كان نادرًا جدًا، وفى الحالات التى تم فيها شىء من ذلك لم تكن له فائدة أكثر من تأخير وقوع ذلك اليوم

المشئوم الذى تزول فيه تلك الآثار جملة، والمدهش فى ذلك أنهم، مع وجود مقابر أجدادهم مخربة أمامهم، كانوا لا يزالون يقيمون لأنفسهم تلك الأضرحة التى كان محتومًا عليها أن تلقى مثل ذلك المصير.

ولدينا قبر «خنوم حتب»، وهو أكبر القبور التى تركها لنا أمراء مقاطعة «بنى حسن» منذ ٤٠٠٠ سنة، مضت، تتضمن جدرانه ـ بين تلك الرسوم الملونة الجميلة التى تزينها ـ كتابات حشرت بين النقوش الأصلية، تستغرق مدد كتابتها نحو ١٢٠ جيلاً من الناس، وقد خطها كاتبوها على عجل، باللغة المصرية القديمة القبطية واليونانية والعربية والفرنسية والإيطالية والإنجليزية، وأقدم هذه الكتابات كانت لكاتب مصرى دخل إلى ذلك المزار المذكور منذ ٣٠٠٠ سنة مضت وكتبها باليراع (يعنى الغاب) والمداد فوق الجدار، وهذا ما جاء بها من الكلمات: «لقد حضر الكاتب «أمنموسى» ليرى معبده «خوفو» وقد وجده كالسماء تسطع فيها الشمس». وكان قد مضى على بناء المزار المذكور نحو ٧٠٠ سنة عندما زاره ذلك الكاتب المصرى، وبالرغم من أن صاحبه الشريف المذكور كان أعظم أشراف عصره، فإن أمره قد صار نسيًا منسيًا، حتى أن ذلك الزائر لما وجد اسم «خوفو» قد كتب عرضا فوق الجدار فى سياق نقش جغرافى، ظن ـ خطأ ـ أن ذلك المزار هو مزار الملك «خوفو» بانى الهرم الأكبر فى الجيزة، وذلك مما يشعر باختفاء كل معرفة تدل على ذلك الشريف أو أوقافه الجنازية التى كانت تمده فى العالم الآخر ـ وذلك بالرغم من تلك الاحتياطات التى قام بتسجيلها فوق جدران قبره، فما أتفه قيمة تلك اللعنات[8] التى نجدها فوق تلك الجدران التى طمس معالمها الدهر وما أقلها جدوى!؟

ولكن المصرى لم يكن عاجزًا العجز كله عن علاج هذه الشدة البالغة، وحاول مقاومتها بنقش صلوات فوق واجهة قبره كان يعتقد أنها ذات تأثير قوى فى إمدادها للمتوفى بكل ما يحتاجه فى الآخرة، وضمن هذه الصلوات نصًا يستحلف به كل مار ـ فى رجاء حار ـ أن يتلو فوق قبره تلك الأدعية المنقوشة.

وهذه الأدعية تمثل لنا اعتقاد القوم فى تأثير تلك الكلمات النافذة حينما كانت تقرأ من أجل المتوفين، وقد نما هذا الاعتقاد نموًا عظيمًا منذ عصر

الأهرام، وهو نمو سار جنبًا إلى جنب مع تعميم تلك العادات الجنازية التى كانت من قبل خاصة بالطبقة العليا من الشعب، وكان مثل تلك الصيغ الدينية فى عهد الأهرام ينحصر استعماله كما سبق ذكره فى عهود الأهرام المتأخرة، كما أنها كانت مقصورة على مصير الفرعون فى عالم الآخرة، فصارت الآن تستعملها الطبقة الوسطى مع طائفة الموظفين بكثرة.

وفى الوقت نفسه برز إلى عالم الوجوود طائفة أخرى من «الأدب الجنازى»، وهو ما نسميه نحن الآن «متون التوابيت»، وهذه المتون هى صيغ مشابهة لسابقتها وتتحد معها فى الغرض الذى ترمى إليه، غير أنها كانت أكثر ملاءمة لحاجات غمارة الناس، ولذلك شاع استعمالها بين دهماء الشعب فى العهد الإقطاعى، وإن كان بعض أجزائها يرجع عهده إلى زمن أقدم بكثير من ذلك الوقت، كما أن «كتاب الموتى» الذى ظهر فيما بعد لا يخرج عن كونه مؤلفًا من منتخبات من «متون التوابيت».

وهذه المتون تتألف من مقتبسات كثيرة أخذ بعضها من «متون الأهرام» وبعضها من الأدب الجنازى الشعبى، وكانت تكتب إذ ذاك على الأوجه الداخلية للتوابيت المصنوعة من خشب الأرز السميك، ولا يزال عدد متون التوابيت آخذًا فى الازدياد، إذ ما زالت تكشف توابيت من ذلك العصر فتضاف متونها إلى المجموعة التى لدينا، وكان كهنة كل بلدة يمدون كل صانع تابوت بنسخ من تلك المتون أو التعاويذ، وقبل تركيب قطع التابوت كان الكتاب التابعين لصانع التابوت يملئون أوجهه بالقلم والمداد نَسْخًا مما قدم لهم من تلك المتون، وكانت كلها تنسخ بإهمال كبير وتحريف، إذ كان مجهود الكتاب إذ ذاك منصرفًا إلى ملء تلك الألواح بالكتاب بأسرع ما يمكن، حتى أنهم كانوا فى بعض الأحايين يكررون كتابة الفصل الواحد مرتين أو ثلاث مرات فى التابوت الواحد نفسه، وقد وجدنا مرة أن فصلاً واحدًا قد كتب ما لا يقل عن خمس مرات فى تابوت واحد[٩].

وفيما يختص بالناحية التى اتحدت فيها متون التوابيت مع متون الأهرام فإنا قد ألفنا وظيفتها ومحتوياتها على وجه عام، فإن عالم الآخرة الذى كان يتطلع

إليه الأهلون فى ذلك العهد الإقطاعى كان لا يزال إلى درجة عظيمة عالمًا سماويًا وشمسيًا كما كان الحال فى عصر الأهرام، فإن «متون التوابيت» تسودها بدرجة مدهشة فكرة الآخرة السماوية، إذ نجد توحيد المتوفى نفسه مع إله الشمس كما وجدناه فى متون الأهرام، بل إنه يوجد فصل عنوانه «صيرورة المتوفى» «رع أتوم»، ثم عدة فصول أخرى عنوانها: «صيرورة المتوفى صقرًا» (وهو الطائر المقدس الممثل لإله الشمس).

على أنه كما تدخل «اللاهوت الأوزيرى» فى متون الأهرام قد تدخل أيضا فى متون التوابيت، بل فى الواقع استولى عليها، وأحسن مثال لذلك هو المتن الذى صار فيما بعد جزءًا من «كتاب الموتى» باسم الفصل السابع عشر المشهور والذى اعتبر فى العصر الإقطاعى الذى نحن بصدده من الفصول المحبوبة، إذ نجده يتقدم على كل المتون الأخرى المكتوبة على عدد من التوابيت، وهو فى جملته يعبر عن توحيد المتوفى مع إله الشمس وإن كان يذكر معه بعض الآلهة الآخرين أيضًا، فيقول فيه الرجل المتوفى:

«إنى أتوم» أنا الذى كنت وحيدًا.

وإنى «رع» عند أول ظهوره.

وإنى «الإله العظيم» خالق نفسه.

والذى سوى أسماءه، ورب الآلهة.

والذى لا يدانيه أى إله بين الآلهة.

البارحة ملكى، وإنى أعرف الغد».

وقد عثر على شرح لهذا المتن الشمسى القديم، يرجع تاريخه إلى العهد الإقطاعى، وعند التعليق فى هذا الشرح على السطر الذى جاء به «البارحة ملكى، وإنى أعرف الغد» أضيفت جملة «ذلك هو أوزير» مع أنه من الواضح تمامًا أن ذلك النص كان خاصًا بإله الشمس فقط. وقد كان من جراء صبغ تلك المتون بالصبغة الأوزيرية أن أدخل العالم السفلى الأوزيرى حتى فى المتون الشمسية

والسماوية، وبذلك لم يقتصر الأمر فى متون التوابيت على امتزاج مجموعة المعتقدات الشمسية والأوزيرية بعضها ببعض بحالة أتم وأكثر مما كانت عليه من قبل - بل كانت النتيجة أن «رع» قد حشر الآن فى عالم الآخرة السفلى، ويمكن التعبير عن مجرى هذه الحوادث (بشىء من المبالغة) بقولنا: إن «أوزير» فى متون الأهرام قد رفع إلى السماء، فى حين أنه فى متون التوابيت وكتاب الموتى قد نزل «رع» إلى الأرض.

غير أن الارتباك الذى نتج عن ذلك كان أدهى وأمر مما جاء فى «متون الأهرام»، ويذكرنا ذلك الامتزاج بين المصير السماوى المتألق الفاخر وبين عالم آخرة مظلم واقع فى ظلمات العالم السفلى بما جاء فى روحيات الأمريكيين السود من النص على الإقامة فى مكان ما على نهر الأردن فى الأرض الموعودة وإلى جانب ذلك مثوى فى السماوات[١٠] أو تذكرنا بالقول بمصير سفلى يكون بمثابة تمهيد للوصول إلى جنة سماوية.

وإنه لمن الأمور الصعبة أن يكون الإنسان أية فكرة متصلة الحلقات عن الحياة الآخرة التى كان يأمل أهل ذلك العصر فى الوصول إليها، إذ نجد الصورة الشمسية الأوزيرية المركبة التى ذكرت فيما سبق في متون الأهرام، كما نجد الصور الشمسية الأوزيرية المركبة التى ذكرت فيما سبق فى متون الأهرام، كما نجد أن أولئك الكهنة - الذين يرجع إليهم جمع متون التوابيت - قد أرخوا لخيالهم العنان ليتجول فى تحويرها كيف شاءوا، فالمتوفى المصرى القديم الذى كان يشاطر الآن «أوزير» مصيره - وكان يسمى كذلك «أوزير» باعتراف ابنه «حور» - يسمع بنفسه كلمات الخضوع والوعد بالسعادة الموجهة إليه من ابنه المقدس المذكور، ثم تنتقل تلك الصور الأوزيرية فجأة فتصور الامتيازات الشمسية هكذا:

«إنك تطوف حول الأقطار مع «رع» فيجعلك ترى الأماكن الممتعة، وتجد الأودية مفعمة بالمياه لغسلك وإنعاشك، ثم تقطف أزهار البطاح ونور «هنى»؟ وأزهار السوسن والزنبق، وتأتى إليك طيور البرك بالآلاف جاثمة فى طريقك، وعندما ترمى خطافك لصيدها يسقط منها ألف برنين صوته، وهى أوز «رو»؟ والعصفور

الأخضر والسمان وطيور «كونوست»؟ وقد أمرت بأن يؤتى إليك بالغزلان الصغيرة والعجول البيض، وأمرت بأن يؤتى إليك بالجداء، والكباش المسمنة بالحبوب، وقد ربطت لك سلم السماء، والإلهة «نوت» تفتح لك ذراعيها، ثم تبحر بسفينتك فى بحيرة الزنبق».

ففى تلك الصورة نشاهد المتوفى يصطاد فى البطاح - وهى التسلية المحببة إلى الفرعون وأشرافه - ولكنه ينتقل فجأة إلى بحيرة علوية فى السماء.

فيتضح من ذلك أن المصير الذى كنا نراه خاصا بالملوك فى كل الصيغ التى جاءت بها «متون الأهرام» قد صار من نصيب كل إنسان، بل إن الحياة التى كانت أبسط من تلك التى وصفناها، أى التى كان المواطن المتواضع يصبو إلى دوام استمرارها فى عالم الآخرة، صار لها أيضًا مكان مرموق فى «متون التوابيت»، فكان فى وسع المتوفى وهو راقد فى التابوت أن يقرأ التعويذة الخاصة «ببناء بيت لرجل فى العالم السفلى، وحفر بركة حديقة وغرس أشجار فاكهة»، وعندما يصير المتوفى صاحب بيت تحيط به الحديقة وبه البركة وحولها الأشجار الوارفة، فإنه يجب أن يضمن له استيطانه فيه. ومن ثم أعد له «فصل يتناول وجود الرجل فى بيته»، غير أن سكناه لذلك البيت منفردًا من غير مرافقة أسرته وأصحابه، كانت أمرًا لا يمكن للنفس احتماله، ومن ثم أعد فصل آخر لذلك عنوانه «ختم مرسوم خاص بالأسرة لإعطاء الرجل أهل بيته فى العالم السفلى»، ونجد فى هذا المتن أن تفاصيل المرسوم قد ذكرت خمس مرات فى صيغ مختلفة، فنجد فيه أن: «جب» إله الأرض «قد قرر أن يعطى إلىّ أهل بيتى وهم أولادى وإخواتى ووالدى ووالدتى وعبيدى وكل مؤسستى». وخشية أن يصادرها أى تأثير خبيث نجد الفقرة الثانية من ذلك الفصل تؤكد أن: «جب» قد قال: «إنه سينطلق لى فى الحال سراح أهل بيتى أى أطفالى وإخوتى وأخواتى ووالدى ووالدتى وكل عبيدى وكل مؤسستى ناجين من كل إله، ومن كل إلهة ومن كل موت (أو أى إنسان ميت غيره)». ولضمان تنفيذ ما جاء بذلك المرسوم أعد فصل آخر عنونه «ضم أهل بيت الرجل إليه فى العالم السفلى»، ونص فى هذا الفصل على «اجتماع شمل

أهل البيت من الأب والأم والأطفال والأصدقاء، والأقارب والأزواج والحظيات والعبيد والخدم، بل وكل ما يملكه الرجل ليكون معه فى العالم السفلى».

ولأن فكرة إعادة بيت الرجل وأهله إليه فى عالم الآخرة تتضمن الاعتقاد القديم القائل بضرورة تقديم الطعام باستمرار إلى المتوفى، فقد وجد فصل آخر لذلك عنوانه: «فصل فى أكل الخبز فى العالم السفلى». أو «أكل الخبز على مائدة «رع» والبذل بسخاء فى هليوبوليس». ويصف لنا الفصل الذى يلى هذا الفصل مباشرة كيف «يقعد القاعد ليأكل الخبز عندما يقعد «رع» ليأكل الخبز أيضًا..... أعطنى خبزًا عندما أكون جائعًا، وأعطنى جعة عندما أكون عطشان».

وقد ظهر لنا فى «متون التوابيت» ذاته اتجاه ظاهر جدًا بلغ غايته فى «كتاب الموتى». وهذا الاتجاه ينحصر فى أنه عالم الآخرة هو مكان تحفّ به الأخطار والمحن التى لا عداد لها، وإن معظم تلك الأخطار مادية ولو أنها كانت فى بعض الأحيان تمس عتاد المتوفى العقلى، وكان السلاح الذى يستعمل للنجاة من تلك الأخطار وأضمن الوسائل التى يمكن الحصول عليها لحماية المتوفى، هو تمكين المتوفى من بعض القوى السحرية بتزويده فى العادة برقية خاصة تتلى عند اللحظة الحرجة، وقد عظم شأن هذا الاتجاه بعد ذلك، فجعل من «متون التوابيت»، ومن بعدها «كتاب الموتى» الذى نبت منها، مجموعة من التعاويذ كانت تزداد على مر الأيام، وكانت تعتبر فى نظر القوم ذات أثر فعال لا شك فيه فى حماية المتوفى أو تزويده فى الحياة الآخرة بما يلزمه من نعيم.

فمن ذلك أنه كانت توجد تعويذة «يصير بها المتوفى ساحرًا»، وهى موجهة إلى الأشخاص المعظمين الذين فى حضرة «آتوم» إله الشمس، وهذه التعويذة فى ذاتها لا تخرج بالطبع عن كونها رقية، وتختتم بالكلمات الآتية: «إنى ساحر»، وخوفًا من فقدان المتوفى قوته السحرية كان من تقاليد القوم «وضع رقية سحرية مع المتوفى حتى لا تنزع منه قواه السحرية حينما يكون فى العالم السفلى»، ولا شك أن أبسط تلك الأخطار التى عملت من أجلها تلك الرقى كان منشأه تلك التخيلات الصبيانية الساذجة التى كان دهماء الشعب يتخيلونها، وكانت فى الغالب سخيفة

إلى أقصى حد، إذ نجد تعويذة عن «منع أخذ رأس الرجل منه»، ومن قبل نجد فى «متون الأهرام» تلك الرقية القديمة التى تمنع إجبار المتوفى على أكله برازه. ولما كان لا بد لجسم الإنسان من التحلل فقد وجد لمنع ذلك التحلل رقيتان لضمان «أن الرجل لا يتحلل جسمه فى العالم السفلى».

وقد كان من جراء ثقة الناس العمياء بمثل تلك التعاويذ أن صار فى يد الكهنة فرصة لا حد لها للكسب، وقد ازداد خصب خيالهم فى إنتاج التعاويذ الجديدة باستمرار، وقد كانت تباع بطبيعة الحال للمشترين السذج الذين كان عددهم فى ازدياد، وقد ساعدت تلك الوسيلة كثيرًا بلا شك على زيادة مخاوف الشعب من أخطار الحياة الآخرة، كما ساعدت على نشر الاعتقاد فى كفاية مثل هذه الوسائل لدرئها.

ومما لا يدع مجالاً للشك فى أن ذلك كله من صنع الكهنة تخيل القوم صورة كاتب سرى اسمه «جبجا» عدو للموتى، وعلى ذلك ألفت رقية خاصة لمساعدة المتوفى على تكسير الأقلام وتهشيم أدوات الكتابة وتمزيق الملفات الخاصة «بجبجا» الشرير.

ومثله فى ذلك، الخطر الداهم الذى كان أيضًا موضعًا للخوف فى متون الأهرام وهو مهاجمة الثعابين السامة للمتوفين، فكان أهل العصر الإقطاعى يحبون أن يدرأوه أيضًا عن أنفسهم، ولذلك كان المتوفى يجد فى لفافته، التى تكون بصحبته، رقى لأجل «دفع الثعابين ودفع التماسيح عنه».

وفضلاً عن ذلك كانت الطريق الخاصة بالمتوفى تعترضها النيران، وكان لابد له من الهلاك إذا لم تكن لديه رقية «ليخرج بها من النار» أو يتمكن «بها من الخروج من النار التي خلف الإله العظيم[11]، وعندما كان المتوفي يضطر بالفعل إلى الدخول فى النار فقد كان فى قدرته أن يدخلها وهو فى أمان منها بوساطة «تعويذة لدخول النار والخروج من النار خلف السماء».

والواقع أن الكهنة قد رسموا للمتوفى مصورًا للرحلة التى تنتظره، ليكون مرشدًا له عند باب النار العظيم فى المدخل وليريه الطريقين اللذين يمكنه أن

يسلكهما، وكان أحد ذينك الطريقين بريا والآخر مائيًا، وبينهما بحيرة من نار. وكان ذلك المصور ملونًا بالألوان المختلفة على صفحة قاع التابوت من الداخل حيث يكون جثمان المتوفى فوقها، إذ إن ذلك المكان هو الملائم لرسم مصور العالم السفلى.

وكان مع ذلك المصور دليل سحرى يسمى «كتاب الطريقين»، وكان أيضًا مسجلا فوق التابوت، على أنه مكان يخشى بالرغم من كل تلك الإرشادات أن يتجول المتوفى لسوء حظه فى مكان إعدام الآلهة، ولكنه كان ينجو من ذلك بتعويذة «عدم الدخول فى مكان إعدام الآلهة».

وخوفا من أن يحكم على المتوفى بالمشى منكوسًا على رأسه، فإنه كان يجهز «بتعويذة تمنعه المشى على رأسه منكوسًا»، وكان أولئك الموتى التعساء الذين يجبرون على المشى بذلك الوضع المنكوس أشد أعداء الإنسان فى عالم الآخرة، ولذلك كانت الحيطة منهم أمرًا ضروريًا جدًا، إذ يقال للمتوفى: «إن الحياة تأتى إليك ولكن الموت لا يأتى إليك... وهى (الجوزاء والشعرى ونجم الصباح) تنجيك من حنق الموتى الذين يمشون ورءوسهم إلى أسفل، وأنت لست منهم... استيقظ للحياة... استيقظ للحياة فإنك لن تموت، قم للحياة فإنك لن تموت».

وبتلك الكيفية ظل الاعتقاد فى قوة تأثير السحر آخذًا فى الانتشار، وكان بمثابة سلاح لا يخطئ فى يد المتوفى، وسنرى السحر فى النهاية يسود كل المعتقدات الجنازية الأخرى كما سيكشف لنا ذلك «كتاب الموتى» بعد مضى عدة قرون على ذلك العهد الذى نحن الآن بصدده.

وليس من شك فى أن المذهب الأوزيرى كان له أثر عظيم فى انتشار استعمال تلك الوسائل السحرية الجنازية، إذ إن أسطورة «أوزير» التى كانت منتشرة فى ذلك الزمن انتشارًا عامًا قد جعلت لكل طبقات الشعب إلماما بنفس تلك الوسائل التى اتخذتها «إزيس» لإحياء زوجها «أوزير» من الموت، وهى الطرق التى صار كل مصرى قديم يعتقد فى تأثيرها العظيم فى حالته الأخروية كما أثرت فى «أوزير» من قبل.

ومع ما كان لمذهب «أوزير» من القوة فى عصر الأهرام فإن انتشاره العام الآن فى العهد الإقطاعى قد فاق كل انتشار عرف عنه من قبل، ونرى فى ذلك ظفر ديانة الشعب المناهضة إذ ذاك لعبادة «رع» الحكمية التى كانت تشبه العبادات بأية كنيسة معترف بها الآن، وسيادة «رع» تعتبر ظفرًا سياسيًا، أما ظفر ديانة «أوزير» التى كان يشد أزرها بلا ريب طائفة من مهرة الكهنة وربما كانوا يقومون لها بدعاية مستمرة وقتئذ، فإنه كان انتصار لعقيدة شائعة بين جميع طبقات المجتمع، وهو انتصار لم يكن فى طاقة أى طائفة صده، ولا فى طاقة الحكومة ولا الأشراف مناهضته، وذلك لأن النعم التى كان يقوم بإغداقها المصير الأوزيرى فى الحياة الآخرة، على كل الناس جعلها ذات جاذبية قوية شاملة لا تضاهيها أية جاذبية أخرى منافسة لها. وإذا كانت تلك النعم المذكورة فى يوم ما مقصورة على الفرعون وحده، كما كان المصير الشمسى فى متون الأهرام مقصورا عليه، فإننا قد شاهدنا أنه حتى الآخرة الشمسية الملكية قد صارت الآن من حق الجميع.

ومن بين القبور المبجلة التى يرجع تاريخها إلى عهد الأسرة الأولى فى «العرابة المدفونة» قبر كان يعتبره القوم فى العصر الذى نحن بصدده، قبر «أوزير» (مع أن عمره كان وقتئذ ما بين ١٢، ١٤ قرنًا)، وقد طار صيته بسرعة حتى صار المقام المقدس فى مصر، فكانت تحج إليه كل طبقات الشعب، وكانت أعظم البركات التى يطمع فيها الإنسان أن يدفن بجوار ذلك القبر المقدس، ولذلك كان أكثر من موظف ممن قاموا بمأمورية أو رسالة رسمية فى هذه الجهة ينتهز الفرصة لإقامة قبر له هنالك، وإذا تعذر بناء قبر حقيقى لمن يريد ذلك كان من الخير أن يقيم لنفسه مقبرة وهمية على الأقل، يكتب عليها اسمه وأسماء باقى أسرته وأقاربه، وإذا تعذر ذلك أيضًا أقام لنفسه نصبًا تذكاريًا أو لوحة ينقش عليها صلوات للإله العظيم توسلاً من الزائر وأسرته، وقد فعل ذلك الكثير من الحجاج والزوار، من الموظفين، وفى ذلك يقول موظف من عهد الملك «سنوسرت الأول»: «لقد أقمت هذا القبر عند طريق سلم الإله العظيم لأكون من بين أتباعه، ولكى يقدم الجنود الذين يأتون فى ركاب جلالته إلى روحى (يعنى الكا) من خبزه

ومئونته، وقد فعلت ذلك أسوة بكل رسول ملكى يأتى للتفتيش على حدود جلالته».

وكان داخل سور معبد «أوزير» وما جاوره مزدحمًا بتلك التذكارات وهى كما نجدها اليوم تؤلف جزءًا مهمًا من المصادر التى يصح الاعتماد عليها فى تاريخ ذلك العصر .

وأغرب من كل ما تقدم أن بعض حكام المقاطعات الأقوياء كان يأمر بحمل جثمانه إلى «العرابة المدفونة» لتقام له شعائر خاصة هناك، ثم تجلب معه بعض الأشياء المقدسة لتودع معه فى قبره المقام له فى وطنه، كما يحمل المسلمون الآن معهم الماء من «بئر زمزم» إلى أوطانهم، أو كما كانت تحمل السيدات الرومانيات المياه المقدسة من معبد «إزيس»» بفيلة إلى حيث يتبركون بها فى بلادهم.

وقد رسم «خنوم حتب» فوق جدران مزار قبره «ببنى حسن» هذه الرحلة فى النيل، وفى ذلك المنظر نرى جسمه المحنط محمولاً فوق قارب جنازى صاعدا فى سيره نحو الجنوب «وخلفه الكهنة والمرتلون، وقد أطلق فى النقوش على ذلك المنظر اسم «الرحلة صعودًا فى النهر لمعرفة أشياء العرابة[١٢]» ويوجد مع ذلك المنظر منظر آخر يمثل الرحلة منحدرة في النهر ومعبرًا عنها بالكلمات الآتية: «العودة محملين بأشياء العرابة»، ولا ندرى بالضبط كنه تلك الأشياء المقدسة التى يؤتى بها من العرابة، ولا سبيل لدينا الآن لمعرفتها، غير أنه من الواضح أنه فى تلك الزيارة الخاصة بالإله العظيم فى «العرابة المدفونة» يقدم المتوفى نفسه شخصيًا للإله العظيم، وبتلك الكيفية يضمن المتوفى المذكور لنفسه عطف الإله فى الحياة الآخرة.

وكان الزوار الذين يأتون إلى «العرابة المدفونة» بهذه الصفة، قبل الوفاة أو بعدها، يحملون معهم الكثير من القرابين التذكارية لدرجة أن الحفارين المحدثين عثروا على قبر «أوزير» المزعوم مدفونًا على عمق بعيد تحت أكداس عظيمة من الفخار المهشم وغيره من الهدايا التى تركها الحجاج فى هذا المكان منذ آلاف السنين.

ولابد أنه كان يجتمع هناك فى الواقع الجم الغفير من أولئك الحجاج الزائرين لذلك المقام المصرى المقدس فى كل الأوقات، وبخاصة فى ذلك الموسم الذى كانت تمثل فيه حوادث أسطورة الإله فى شكل مسرحى يمكننا أن نسمه بحق «مسرحية الآلام» (المأساة).

وبالرغم من أن تلك المسرحية قد فقدت تمامًا، فإن لدينا لوحة «أخرنوفرت» التذكارية المحفوظة الآن بمتحف برلين تمدنا بالملخص الذى يمكننا أن نستخلص منه ولو على الأقل عناوين أهم فصول المسرحية المذكورة.

كان «أخرنوفرت» موظفًا من رجال حكومة «سنوسرت الثالث»، أرسله الملك ليقوم ببعض الإصلاحات فى معبد «أوزير» بالعرابة المدفونة.

ويتبين لنا من العناوين المدونة بتلك اللوحة التذكارية عن المسرحية المذكورة أن تمثيلها كان حتمًا يستمر عدة أيام، وأن الأرجح أن تمثيل كل فصل من فصولها المهمة كان يستغرق على أقل تقدير يومًا كاملاً، وأن الجمهور كان يشترك فى كثير مما كان يحدث فى تمثيلها، ويتضح لنا من ذلك المختصر المدون على لوحة «أخرونوفرت» أن تلك الرواية كانت ذات فصول ثمانية:

فالفصل الأول يكشف لنا عن ذلك الإله الجنازى القديم «وبوات» خارجًا فى موكب ليشتت أعداء «أوزير» ويفتح له الطريق.

وفى الفصل الثانى يظهر لنا «أوزير» نفسه فى قاربه المقدس، فينزل فيه بعض الحجاج، ومنهم «أخر نوفرت» كما يقص ذلك علينا فى نقوش لوحته التذكارية بزهو وافتخار، وكان «أخرنوفرت» هذا يساعد «أوزير» فى صيد الأعداء الذين يعترضون مسير القارب، ولا شك أنه كانت تحدث من الجمهور إذ ذاك حركة عامة كالتى شاهدها، «هردوت» فى «بابريميس»، بعد ذلك بألف وخمسمائة سنة فكان بعضهم يقوم بحماية الإله فى القارب، بينما يمثل الآخرون دور أعدائه المزدحمين فى خارج القارب، وقد يعودون برأس أحدهم مهشمًا، فى زهو من أجل ذلك الاحتفال، ويلاحظ هنا أن «أخرنوفرت» - مثل «هردوت» - قد مر على

موضوع موت الإله مر الكرام دون أن يذكر شيئًا عن ذلك، وقد كان فى نظره موضعًا مقدسًا لا يصح وصفه، وذكر لنا فقط أنه قام بتنظيم، «الموكب العظيم» - للإله - وهو احتفال مظفر نوعًا ما - عندما لاقى الإله حتفه، وهذا هو موضوع الفصل الثالث.

وفى الفصل الرابع يخرج «تحوت» رب الحكمة، ولا شك أنه يجد الجثة، وإن كان ذلك لم يرد له ذكر. ويتألف الفصل الخامس من الاحتفالات المقدسة التى يجهز الإله بواسطتها للدفن.

فى حين أن الفصل السادس يشاهد الجمهور يسير فى زحام عظيم إلى المقام المقدس بالصحراء الواقعة خلف «العرابة المدفونة»، حيث يضعون جثمان ذلك الإله الراحل فى قبره.

وأما الفصل السابع فلابد أنه كان مشهدًا رائعًا، فعلى شاطئ (أو ماء) «نديت» القريبة من العرابة المدفونة يهزم أعداء «أوزير» - ومن بينهم طبعًا الإله «ست» وأتباعه - فى موقعة عظيمة على يد «حور» بن «أوزير»، ولم يذكر لنا «أخرونوفرت» شيئًا عن بعث الإله وقيامه ثانية من بين الأموات.

ولكن فى الفصل الثامن وهو الأخير نشاهد «أوزير» وقد عاد إلى الحياة يدخل معبد «العرابة المدفونة» فى موكب مظفر.

فيتضح إذًا من كل ما ذكر أن المسرحية المذكورة قد مثلت أهم الحوادث الواردة فى أسطورة «أوزير».

وقد كان لمثل ذلك العيد الشعبى الكبير مكانة عظيمة فى قلوب القوم، إذ نشاهد مرارًا وتكرارًا فى الألواح المنصوبة تضرع الحجاج بالصلاة للإله العظيم لينالوا بعد الموت حظوة الاشتراك فى هذا الاحتفال العظيم، وذلك يماثل بالضبط ما رتبه «حبزافى» لنفسه ليشاطر بنصيبه فيما بعد الموت فى الاحتفالات بالأعياد الأسيوطية.

وقد كان لصياغة حوادث أسطورة «أوزير» فى شكل مسرحى على الوجه المتقدم أثر قوى فى أنفس عامة الشعب، واستولت مسرحية آلام «أوزير» هذه فى

أى شكل من أشكالها على خيال عدة مجتمعات مصرية، وكما أن «هردوت» قد وجدها فيما بعد فى «بابريميس»، وكذلك ظلت تنتشر من بلدة إلى أخرى حتى حازت المكانة الأولى فى تقويم الأعياد السنوية، وبذلك نال «أوزير» مكانة سامية فى حياة عامة الشعب وآمالهم لم ينلها أى إله آخر، وقد كان مصير «أوزير» الملكى وانتصاره على الموت كما صور بتلك الصورة المسرحية الناطقة، سببًا فى انتشار الاعتقاد بين الشعب بأن ذلك المصير، الذى كان فى وقت ما وقفًا على الملك فقط، قد صار من نصيب كل إنسان، ولم يكن يلزم لأى شخص يرجو مثل ذلك المصير إلا أن يحصل، كما ذكرنا من قبل، على العوامل السحرية نفسها التى استعملتها «إزيس» لإرجاع الحياة إلى زوجها الميت الذى هو «أوزير» المقتول ذبحًا، وتلك العوامل تجلب لكل إنسان ذلك المصير المبارك الذى ناله ذلك الإله الراحل.

وقد كان حدوث مثل ذلك التطور فى العقيدة المأتمية الشعبية على الوجه الذى شاهدناه مدعاة لازدياد ثقة الناس باطراد فى كفاية السحر وقوة تأثيره ونفعه فى الحياة الآخرة.

ومن الصعب أن يفهم العقل الحديث كيف أن مرافق الحياة جميعها قد تسرب إليها الاعتقاد فى السحر بحالة صيرته صاحب السيطرة على العادات الشعبية، وظاهرًا على الدوام حتى فى أبسط الأعمال اليومية المنزلية العادية، فصار من الأشياء التى يزاولها الإنسان بطبيعة حياته كالنوم أو تجهيز الطعام، بل لقد صار السحر يتألف منه الجو نفسه الذى كان يعيش فيه عالم الشرق القديم.

فكانت الحياة المنزلية فى الشرق قديمًا غير ممكنة فى نظر القوم إلا بالالتجاء دائمًا إلى نفوذ تلك العوامل السحرية، ولولا نفوذها لأبادت القوى المهلكة الخفية الحرث والنسل.

ولاعتقادهم أن مثل تلك الوسائل لا غنى عنها وبخاصة ضد الأمراض، فإن الأمور العادية الخاصة بالحياة المنزلية والاقتصادية كانت توضع دائمًا تحت حماية السحر، فكانت الأم لا يمكنها أن تهدئ من روع طفلها المتألم المريض وتجعله يضطجع طلبًا للراحة إلا بعد الاستنجاد بالقوى الخفية لتقوم بتخليص

الطفل من المرض ومن الحسد ومن سلطان أشباح الشر السوداء، التى كانت تكمن فى جميع الأماكن المظلمة من البيت، أو التى كانت تتسلل من الأبواب المفتحة عندما يسدل الظلام خيامه فوق البيت، وتدخل جسم ذلك الطفل الصغير فتنشر فيه الحمى.

وكان من هؤلاء الشياطين من يمكنهم التشكل فى صورة محبوبة، فيقترب الواحد منهم من المريض الصغير مظهراً له العمل على شفائه وتخفيف آلامه، ونستطيع أن نسمع صوت الأم وهى تنحنى على طفلها تختلس النظر خلال ذلك الباب المفتوح إلى الظلمة المسكنة بقوى الشر هذه، وتقول:

«هرول إلى الخارج أنت يا من تأتى فى الظلمة، يا من يدخل إلينا خلسة وأنفه إلى خلفه، ووجه فوق ظهره، ويا من تفقد ما قد جئت من أجله».

«هرولى إلى الخارج يا من تأتين فى الظلمة، ويا من تدخلين إلينا خلسة وأنفها إلى خلفها ووجهها فوق ظهرها، ويا من تفقدين ما قد جئت من أجله».

هل أتيت لتقبل هذا الطفل؟ إنى لن أسمح لك بتقبليه!»
هل أتيت لتخفيف آلامه؟ إنى لن أسمح لك بتخفيف آلامه»
هل أتيت لتلحق به ضرا؟ إنى لن أسمح لك بأن تضره
هل أتيت لتأخذيه؟ إنى لن أسمح لك بأن تأخذيه منى

«لقد أعددت له ما يحيمه منك: من نبات «إفت» إنه يسبب الآلام، ومن البصل الذى يلحق بك الضرر، ومن الشهد الحلو المذاق (للأحياء) من الرجال ومر المذاق لمن هم هنالك (يعنى للموتى)، ومن الأجزاء المؤذية من سمك «إبدو»، ومن فك «مِررت»، ومن العمود الفقرى للسمكة».

ولم تقتصر الأم الوجلة على ابنها على استعمال التعويذة الآنفة الذكر بمثابة رقة، بل كانت تشفعها بمزيج شهى تعطيه الطفل المريض فيبتلعه، وهو مزيج

مصنوع من الأعشاب والشهد والسمك وكان خاصًا بطرد الشياطين الشريرة (ذكورا وإناثًا) ممن كانت تصيب الطفل بالمرض أو تهدد باختطافه، وإننا نجد فى وصف الشهد بأنه «حلو المذاق (للناس الأحياء) ومر المذاق لمن هنالك (يعنى للأموات)» ما يشعر بنوع هذه الشياطين، إذ أنه من الواضح أن بعضًا من الشياطين التى تشير الأغنية إلى الفزع منها هم الأموات أنفسهم الذى تجردوا من أجسامهم، وعلى ذلك كانت حياة أهل الدنيا فى تصادم مع الأموات طول مدة حياتهم من هذه الناحية، فكان من اللازم حينئذ العمل على كبح جماح أولئك الأموات الأشرار ووقفهم عند حدودهم، ومن هنا كانت التعاويذ والحيل السحرية التى دلت على تأثير فعلها ضدهم فى الحياة الدنيا، ولابد أن لها قيمتها فى الحياة الآخرة أيضًا.

ومن ذلك أن تلك الرقية السالفة الذكر التى منعت خطف الطفل من أمه كان يمكن استعمالها كذلك ضد من يسعى لسلب قلب أى رجل فى العالم السفلى، ولكى يتمكن الرجل المتوفى من الدفاع عن نفسه ما عليه إلا أن يقول:

هل حضرت لتأخذ قلبى هذا الحى؟ إن قلبى هذا الحى لن يعطى لك!»

وعلى ذلك فإن الشيطان الذى كان يريد أخذ قلبه ليفر به يضطر حتمًا إلى التسلل بعيدًا عنه.

وبتلك الطريقة أخذ السحر الذى يستعمل فى الحياة الدنيا اليومية يستعمل بحالة مطردة للنفع فى الحياة الآخرة ويوضع تحت طلب الموتى وتصرفهم.

لقد رأينا فيما تقدم ذكره عن عصر الأهرام أن الاعتقاد الدينى وقتئذ لم يقل بعد بوجود محاكمة عامة تجرى حتمًا على كل الناس فى الحياة الآخرة، وكل ما فى الأمر أن الذى اقترف ذنبًا خاطئًا كان يطلب للمحاسبة فى عالم الآخرة على ذنبه، فكان إله الشمس يعقد هنالك محكمة للفصل فى مثل تلك القضايا، وفى العهد الإقطاعى صار إله الشمس يؤكد - كما يستدل من متون التوابيت - أن كل إنسان مسئول عن خطيئته: «لقد جعلت كل رجل مثل أخيه، وقد حرمت عليهم

إتيان الشر، ولكن قلوبهم هى التى نكثت بما قلت». كذلك ذكرنا فيما تقدم فى النصائح الموجهة إلى «مريكارع»: «أن ذنوب الرجل كانت تكون بجانبه كالجبال فى حضرة القضاة المهيبين فى عالم الآخرة»، فنرى من ذلك أنه مهما كانت حياة الإنسان نقية فإنه كان من مستلزمات معتقدات العهد الإقطاعى أن الإنسان لابد له من اجتياز امتحان المحاكمة الخلقية للحصول على السعادة المنشودة فى الحياة الآخرة، وقد صار هذا الشعور بالمسئولية الخلقية فيما بعد الموت من العوامل القوية فى حياة الشعب المصرى القديم، غير أنه كان هنالك عاملان قويان يعملان على هدم تلك المسئولية، وهما:

(أولاً): استمرار اعتقاد عامة الشعب فى كفاية العوامل المادية، مثل إقامة القبور وإعداد معداتها، لضمان سعادة المتوفى فى الحياة الآخرة.

(ثانيًا): ازدياد الاعتماد على نفع قوة السحر فى عالم الآخرة، وهو اعتقاد نال تشجيع الكهنة فتطرقوا فيه واشتطوا، إلى حد أنهم حاولوا إنتاج تعاويذ سحرية تضمن للمتوفى قبوله خلقيًا عند محاكمته فى عالم الآخرة.

هوامش الفصل الثالث عشر:

(١) إن «الرجل التعس» يشير إلى المصير المشابه لذلك بالجثة المنبوذة.

(٢) والواقع أن الحفائر التى قام بها متحف المتروبوليتان بمديينة نيويورك قد كشفت ما عليه تلك المنطقة التى ضمت ذلك الهرم الذى أقامه «سنوسرت الأول» باللشت من الفخامة التى تفوق العادة المألوفة.

(٣) كان «حبزافى» قد أرسل فيما بعد إلى بلاد النوبة حاكمًا عليها فمات ودفن بها، وقد كشف «رزنر» قبره بجهة «قرمة» عام ١٩١٣، أى أنه لم يشغل قط القبر الذى أعده بأسيوط، ومع ذلك بقيت تقام له الشعائر وتقدم القرابين كما لو كان القبر يضم جثمانه.

(٤) «عيد كل الأرواح» هو عيد مسيحى يعقد فى اليوم الثانى من نوفمبر، وفيه يعقد احتفال مهيب بالكنيسة الكاثوليكية الرومانية ليتضرعوا إلى الله لأرواح الأموات المخلصين

(٥) إن طبيعة هذا الاحتفال الذى كان يحتفل به الأحياء فى عيد يوم رأس السنة وغيره لأجل موتاهم. رغم أنه غير واضح فى تفاصيله، لابد أنه كان كما يدل عليه اسمه فنيًا، فهو يعنى «إجراء جعل الإنسان مفخمًا»، وقد رأينا فيما سبق أن من النعوت التى يتصف بها المتوفى هو التفخيم، وعلى ذلك كان هذا الاحتفال يقام لتحويل المتوفى إلى «روح مفخم»، وذلك بالضبط ما كان يحول إلى «روح» (با) باحتفال مشابه يقيمه الأحياء ويمكن اعتباره فى الواقع مماثلا كثيرًا لعيد «التفخيم».

(٦) لقد سعينا فى البيان السابق أن نشير ببعض التفاصيل إلى مركز المتوفى فى احتفالات الأعياد السنوية بشكلها الذى كان الناس يرعونه فى حياتهم، ومن المحتمل أننا قد أرخينا العنان للخيال فيها، أما الحقائق المجردة فنجدها «فى شروط وصية حبزافى «فى كتاب المؤلف Development

والشروط نفسها نجدها of Religion & Thought in Ancient Egypt, P. 268 & 269
مترجمة فى كتاب المؤلف .Ancient Records, Vol. I. P. 258 - 271

(٧) المقاطعة الخامسة عشرة من مقاطعات الوجه القبلى (انظر مصر القديمة خريطة الوجه القبلى).

(٨) كانت تكتب لعنات على جدران المقابر يقصد بها أن تضر من يعبث بها.

(٩) إن متون التوابيت يتألف منها أعظم وأكبر مجموعة من المصادر المصرية التى لم تنشر بعد (لقد نشرت الآن) ويوجد من هذه التوابيت نحو مائة بالمتحف المصرى وهذا فوق ما يوجد فى المتاحف الأوروبية والأمريكية، فيكون مجموعها كلها ١٢٨ تابوتًا، وفى عام ١٩٢١ أخذ معهد جامعة شيكاجو الشرقى على عاتقه إنقاذ هذه المجموعة الضخمة من الأدب الدينى المصرى من الضياع، وهو الآن على وشك نشرها بأجمعها فى مؤلف واحد، وقد قام الدكتور «دى بك» بنقل هذه المتون فاستغرق مدة عشر سنين، وقد تم نقلها الآن، وهذه النسخ تحتوى على ٣٠،٠٠٠ سطر واقعة فى ٦٨٢٥ صفحة من المخطوطات، وهى تشغل ٢٧ مجلدًا من الأوراق السائبة، على أن طبع هذه المتون فى أربعة أو خمسة مجلدات سيحتاج عدة سنين، ويجد القارئ بيانًا تاما عن الفهرس القديم لهذه المتون فى كتاب المؤلف:
Development of Religion & Thought, P. 273.

(١٠) إن «الروحيات» هى الأغانى الدينية التى كان يغنيها فى الأصل العبيد السود الأمريكيون الذين اعتنقوا الديانة المسيحية.

(١١) لقد أصبح من الثابت على وجه التقريب أن سيدنا إبراهيم كان يعيش فى هذا العصر أى عصر الدولة الوسطى الذى ظهرت فيه متون التوابيت، وربما كان من معتقدات هذا العصر الدخول فى النار والخروج منها بواسطة السحر: «قلنا يا نار كونى بردًا وسلامًا على إبراهيم».

(١٢) يقول نص العنوان أن كلا هذين المنظرين قد رسما لتوضيح الرحلة إلى «العرابة المدفونة»، غير أن الواضح من عبارة النقوش «السياحة صعودًا فى النهر والعودة» ومن المناظر المرسومة نفسها أن السياحة إلى العرابة والعودة منها هى التى مثلت فالسفينة الصاعدة إلى أعالى النيل أى ضد التيار نشاهد شراعها منتشرًا بهيئة تنبئ بذلك، على حين أن السفينة الأخرى التى للعودة يشاهد صاريها قد أزيل من مكانه كما هو المعتاد عند السير مع التيار فى أيامنا هذه، وفضلا عن ذلك فإن وضع السفينتين كما تشاهدان فعلاً فى الرسم الذى على جدار القبر يدل على أن واحدة منهما ذاهبة إلى العرابة والأخرى عائدة منها، على أن التعبير بالرسم على هذا الوجه لا يقتصر على هذا المنظر وحده بل نجده متبعًا فى سفن «حتشبسوت» المرسومة على جدران معبد الدير البحرى، فنرى بعضها متجهة إلى «بنت» (بلاد الصومال) والتى كانت آتية منها.

الفصل الرابع عشر

الحساب فى الآخرة والسحر

لقد تتبعنا ذلك التطور الطويل الذى مرّ فيه الاعتقاد بالمسئولية الخلقية فى الحياة الآخرة، وهو اعتقاد ـ كما نذكر ـ كان حاضرًا فى أذهان بناة الأهرام، غير أنه كان منحصرًا فى ذاك الوقت فى تعرض المتوفى للمثول أمام إله الشمس، بصفة كونه قاضيًا وذلك استجابة لطلب إنسان قد أخطأ الميت فى حقه، لا ليحاسب حسابًا شاملاً، فكان الاعتقاد القائم إذ ذاك أنه إذا لم يطلب الإنسان للمحاكمة بتلك الصفة فإنه من المحتمل ألا يتعرض فى الآخرة لأى حساب آخر، وبعد عصر الأهرام ببضعة قرون ـ أى فى وقت ظهور النصائح الموجهة إلى الملك «مريكارع» ـ نجد أن ذلك الاعتقاد قد أخذ يحدد ويعين بحالة أوضح مما كان عليه من قبل.

فإن ذلك الملك المسن الذى ألقى بتلك الكلمات الحكيمة إلى ابنه «مريكارع» كان متأثرًا تأثيرًا عميقًا بالحقيقة القائلة إنه كان حقًا حتى على الملك نفسه ألا يغفل عن تبعته فى عالم الآخرة، عن حياته فى هذه الدنيا من الناحية الأخلاقية، ولعلنا نذكر نصيحته المهمة التى يقول فيها: «إنك تعلم أن محكمة القضاة الذين يحاسبون المخطئ لا يتسامحون فى ذلك اليوم الذى يحاسبون فيه الشرير وقت تنفيذ الحكم... ولا تركنن إلي طول الأيام، لأنهم ينظرون (يعنى القضاة) إلى مدى حياة الإنسان كأنها ساعة واحدة[1]، والإنسان يعيش بعد الموت وأعماله تكوم

بجانبه كالجبال، لأن الحياة الأخرى أبدية ولا يهمل أمرها إلا الغبى، أما من يصل إليها دون أن يرتكب إثمًا فإنه سيبقى هناك كإله يسير بخطى واسعة مثل أرباب الخلود (يعنى الأموات البررة)».

وإذا كان الإنسان يعد لنفسه قبرًا فى الجبانة فإن «مريكارع» كان يذكّره والده بأن يقيم قبرًا لنفسه «بصفته إنسانًا مستقيم الحال وبصفته إنسانًا أقام العدل (يعنى ماعت) لأن ذلك هو الذى يركن القلب إليه».

و«الفلاح الفصيح» الذى لا صديق له كان يقول «لمدير البيت العظيم» عند مرافعته عن نفسه مطالبًا إياه بتوخى العدالة: «احذر إن الأبدية تقترب».

وقد رأينا أن «أمينى» أمير مقاطعة «بنى حسن» العظيم، نقش على باب قبره سجل أعماله الصادرة عن العدالة الاجتماعية فيما يختص بمعاملته لرعيته، راجيًا أن يكون ذلك السجل خير جواز مرور يتخذه للذهاب فى سفره إلى عالم الآخرة.

وقد ملئت محاجر المرمر بجهة «حتنوب» (بيت الذهب)، الواقعة فى الصحراء الشرقية خلف «تل العمارنة»، بالنقوش التى دونت فيها حياة أمراء ذلك العهد الإقطاعى الذين جاوروا تلك البقعة، حيث ذكروا مرارًا وتكرارًا ما كانوا عليه من حب الخير والعدالة، وبمثل هذا التكرار دون أولئك الرجال الذين عاشوا فى العهد الإقطاعى فوق مقابرهم ما كانوا يعزونه لأنفسهم من الأخلاق العادلة، فيقول موظف من موظفى ذلك العصر اسمه «سِسِنِبْنِف» فى نقش على ناووسه: إنه أقام العدالة وكان يمقت الباطل، الذى لم يره».

وتبين لنا متون التوابيت بجلاء أن الشعور بالمسئولية الخلقية فى عالم الآخرة قد تعمق تعمقا عظيمًا فى نفوس القوم منذ عصر الأهرام إلى ذلك الزمن، فنجد أن موازين العدالة، التى كثيرًا ما ذكرها ذلك «الفلاح الفصيح» فى تظلمه المسرحى ضد «مدير البيت العظيم»، قد صارت إذا ذاك تحتل مكانة واقعية عظيمة، ممثلة فى مشاهد حساب الآخرة، حيث يقول قائل للمتوفى: «إن أبواب السماء مفتوحة لجمالك، إنك تصعد... وذنبك مغفور، وظلمك قد محى بأيدى أولئك الذين يزنون بالموازين فى يوم الحساب».

وكما كان «الفلاح الفصيح» يسمى «مدير البيت العظيم» فى كثير من الأحيان «موازين العدل» كذلك كان من الممكن أن يكون المتوفى متحليًا بالأخلاق الفاضلة الحقة التى تشبه فى استقامتها كفتى الميزان اللتين لا تحيدان. ومن ثم نجد «متون التوابيت» تقول: «تأمل إن فلانًا هذا (إشارة إلى المتوفى) هو موازين «رع» التى يوزن بها الصدق (يعنى الحق)»، وهنا يتضح لنا لمن كانت موازين الصدق هذه، ومن هو ذلك القاضى الذى يشرف عليها، فنجده - كما كان الحال قديمًا - «إله الشمس» الذى كان قد حوكم أمامه الإله «أوزير» نفسه. ونجد فى مناسبة أخرى خاصة بمحاكمة المتوفى أمام الإله «رع» أن هذه المحاكمة كانت تعقد بحجرة القارب الشمسى.

وقد صار المطلب الخلقى الذى يشترطه القاضى الأعظم من الأمور الطبيعة المفهومة، ولذلك يقول المتوفى: «إنه يحب الحق ويكره الباطل، وهو الذى تسير الآلهة فى سبيل عدالته المحبوبة»، وعندما يدخل المتوفى تلك السبل الإلهية الحقة، يكون بداهة قد ترك وراءه الرذائل الخلقية، ولذلك يقول المتوفى أيضًا: «إن خطيئتى قد أقصيت عنى ومحى إثمى، ولقد طهرت نفسى فى تينك البحيرتين العظيمتين اللتين فى أهناس».

وتلك الحمامات التطهيرية الرسمية التى كثيرًا ما نصادفها مذكورة فى «متون الأهرام» قد صارت الآن تدل بوضوح على معنى خلقى، حيث يقول المتوفى محدثًا عن نفسه: «إنى أسير فوق الطريق التى أغسل فيها رأسى فى بحيرة الحق».

وكثيرًا ما نجد المتوفى يقرر مرارًا أن حياته كانت نقية، إذ يقول: «إنى إنسان أحب الحق، وما كرهته هو الباطل».

«إنى أقعد بريئًا وأقوم بريئًا».

«لقد أقمت العدل ومحوت الباطل»

ولقد ذكرنا أن القاضى الذى تقف أمامه كل الأرواح كان فى الأصل «رع»، لكن «أوزير» كذلك ما لبث أن أظهر نفسه من زمن مبكر فى موقف ذلك القاضى، حيث نقرأ فى «متون التوابيت» عن «المجلس العظيم (أو محكمة العدل) للإله

أوزير» وكان ذلك منذ زمن بعيد يرجع إلى الأسرة التاسعة أو العاشرة (من القرن الرابع والعشرين إلى الثانى والعشرين ق. م.) فى أيام حكم الملك «مريكارع»، ولا شك أن انتشار عبادة «أوزير» التى كانت آخذة فى الازدياد له علاقة عظيمة بانتشار الاقتناع - الذى صار الآن عامًا - بأن كل روح لابد أن تلقى ذلك الحساب الخلقى العسير الذى ينتظرها فى الآخرة.

وقد صار من المتبع عادة منذ بداية الدولة الوسطى أن يضاف إلى اسم كل متوفى نعت «المبرأ»، وهذا النعت هو الذى كان قد ناله «أوزير» فيما مضى بصفته الخصم الظافر على أعدائه، المبرأ أمام محكمة إله الشمس، وقد كان ذلك النعت - كما نعلم من «متون الأهرام» - لا يضاف إلا إلى اسم الفرعون فقط، غير أنه صار بالتدريج امتياز تمنحه كل روح، أو على الأقل صار من حق كل روح متسمة بالأخلاق الفاضلة.

وكذلك نجد أنه بعدما نال المذهب الأوزيرى القبول عند البلاط الملكى صار الملك يوحّد مع «أوزير المبرأ»، وصار الكهنة يضعون «أوزير» قبل اسم كل ملك متوفى، وقد رأينا فى «متون الأهرام» أن الملك «بيبى» كان يسمى «أوزير بيبى»، كما كان الملك «تيتى» يسمى «أوزير تيتى».

وقد كان من نتائج انتشار عبادة «أوزير» الآخذة فى الازدياد أن المنهج الذى كان يرمى إلى صبغ الحياة الأخرى الملكية الفاخرة بالصبغة الديمقراطية قد صار حينئذ يوحد كل متوفى، ذكرًا كان أو أنثى، بالإله «أوزير». وعلى ذلك لم يقتصر المتوفى على دخول مملكة «أوزير» - كما كان الحال قديمًا - ليتمتع بحمايته وعطفه، بل صار المتوفى - ذكرا كان أو أنثى - «أوزير» نفسه واعتبر ملكًا.

ولذلك نجد - حتى فى دفن الفقراء - أن المومية كانت تصور فى شكل «مومية أوزير» وموضوعة مثلها على ظهرها، وكانت التعاويذ التى تمثل شارات الملك الفرعونى ترسم على داخل جوانب التابوت، أو كانت توضع بهيئة تماثيل بجانب جثمان المتوفى، وقد ظهرت قوة عبادة «أوزير» بحالة تلفت النظر فى العادة الجديدة، وهى إضافة اسم «أوزير» قبل اسم المتوفى، فإنه وإن كان من الجائز

للمتوفى أن يوحد مع إله الشمس أيضا ـ كما كان يحدث كثيرًا ـ فإنه بالرغم من ذلك كان ينعت باسم «أوزير» فى حين أن اسم إله الشمس «رع» لم يضف قط قبل اسم المتوفى.

وبظهور الدولة المصرية الحديثة بعد سنة ١٦٠٠ ق. م نجد أن الأدلة التى تكشف لنا عن ذلك التطور الخلقى الطويل الأمد ـ الذى اقتفينا أثره فى هذا البحث ـ قد ازدادت فى كميتها وفى أهمية قيمتها، وبخاصة فيما يبين لنا شعور المصرى المتزايد بمسئوليته الشخصية، عن نوع أخلاقه، ذلك بأن مرحلة التفكير لهذا التطور الخلقى قد تقدمت تقدمًا محسوسًا ـ لأن المصرى القديم فى ذلك الوقت كان قد تعمق فى التفكير فى طبيعة نفسه البشرية، وكان من نتائج ذلك أن صار المفكرون من المصريين ـ آنئذ ـ يرون أن المسئولية الخلقية لكل إنسان مترتبة بصفة قاطعة على إدراكه (فهمه) الشخصى.

ولعلنا نذكر بمناسبة هذا التصور الأخير المهم عن «الفهم» أنه لم يكن للعقل اسم فى اللغة المصرية القديمة غير كلمة «القلب» القديمة. ففى عصر الأهرام وجدنا أن «بتاح حتب» ذلك الوزير الحكيم المسن كان يذكر «القلب» على أنه مركز المسئولية والإرشاد، إذ قال فيما ذكرناه له سابقًا: «إن المستمع (يعنى إلى النصيحة الطيبة) هو المرء الذى يحبه الإله، أما الذى لا يصغى فهو الذى يبغضه الإله، والقلب هو الذى يجعل صاحبه مصغيًا أو غير مصغٍ، وحظ الإنسان الحسن هو قلبه». كما نجد فى نصائح «بتاح حتب» أيضًا أن قلب الرجل قد صار دليله، بل فى الواقع قد صار ضميره.

على أن القلب الإنسانى صار فى عهد الدولة الحديثة يعتبر أكثر من مستمع مجيب إلى النصيحة الطيبة، بل صار أكثر من مرشد إلى حسن الحظ.

حقًا إن آراء «بتاح حتب» عن القلب من حيث نعته له بالمرشد الحكيم قد استمرت، إذ فى خلال القرن الخامس عشر، نرى أحد حجاب بلاط الفاتح «تحتمس الثالث» يذكر خدماته التى أداها للملك، فيقول: «لقد كان قلبى هو الوازع لأن أقوم بها، بإرشاده لى فى شئونى. وكان... كأنه شاهد ممتاز، فلم أهمل

كلامه، وخشيت أن أتخطى إرشاده، وبذلك كان الفلاح حليفى لدرجة عظيمة، وقد كنت بسبب ما أوحى إلىّ (أى قلبى) أن أعمله ناجحًا، وكنت بإرشاده نابها، تأمل... فقد قال القوم إنه وحى من الإله يوجد فى كل أنسان، وإن من أرشده إلى الصراط السوى فى إنجاز العمل، لسعيد، تأمل.. فإنى كنت هكذا».

على أننا نجد أن أقارب «بحيرى» - وهو أمير من أمراء «الكاب» - قد خاطبوه بعد موته داعين له بقولهم: «ليتك تعيش فى الآخرة بقلب فرح وفى كنف الإله الذى فيك».

كما نجد ميتًا آخر يقرر: «أن قلب الإنسان هو إلهه، وقد كان قلبى مرتاحًا لأعمالى».

فكل ذلك يدل على أن المصرى القديم قد صار حينئذ شديد الحساسية - بدرجة لم يصل إليها من قبل - لما كان يوحى به إليه ذلك الوازع الباطنى المنبعث من قلبه، وهو الذى سمى - ببعد نظر مدهش - «إله المرء».

وذلك لأن القلب قد صار الآن ذا شعور أكثر اتزانًا وأكثر سيطرة وسلطانا على الإنسان مما كان عليه فى عهد ذلك الوزير الحكيم «بتاح حتب»، فصار يعلن استحسانه لما يكون عليه المرء من السلوك الحسن أو استياءه لما يكون عليه من السلوك السيئ.

ولما صار المصرى القديم يشعر بسلطان ذلك الوازع القلبى شعورًا كاملاً أخذ - إذ ذاك - يلبس كلمة «القلب» معنى أوفى حتى صار أقرب بكثير مما فى عصر الأهرام من مدلول كلمتنا «الضمير».

وقد صرنا الآن فى مركز يجعلنا نفهم أهمية التحديد والدقة اللذين بهما صور لنا المصرى، عند بزوغ فجر الدولة الحديثة، فكرته النامية عن الحساب فى الآخرة.

وهذه الآراء - التى نجد فيها تفصيلا أوسع من قبل عن الحساب فى يوم الميعاد - قد وصلتنا عن طريق «كتاب الموتى». وقد اجتمعت عندنا ثلاث روايات مختلفة عن الحساب فى الآخرة، عثر عليها فى أتم وأحسن اللفائف البردية التى

وصلت إلينا للآن، وكانت هذه الروايات فى الأصل - بلا شك - مستقلاً بعضها عن البعض الآخر، وعنوان الرواية الأولى منها هكذا: «فصل فى دخول قاعة الصدق (الحق)»، وهى تحتوى على ما يقوله المتوفى عند الوصول إلى قاعة الصدق عند ما يطهر فلان (يعنى المتوفى) من كل الذنوب التى اقترفها، ثم يوجه نظره إلى وجه الإله ويقول: «سلام عليك أيها الإله العظيم رب الصدق، لقد أتيت إليك يا إلهى وجىء بى إلى هنا حتى أرى جمالك، إنى أعرف اسمك وأعرف أسماء الاثنين والأربعين إلهًا الذين معك فى قاعة الصدق (هذه)، وهم الذين يعيشون على الخاطئين ويلتهمون دماءهم فى ذلك اليوم الذى تمتحن فيه الأخلاق أمام «وننفر» (أوزير)».

انظر... لقد أتيت إليك.

أنى أحضر العدالة إليك، وأقصى الخطيئة عنك.

إنى لم أرتكب ضد الناس أية خطيئة...

إنى لم آت سوءًا فى مكان الحق،

وإنى لم أعرف أية خطيئة.

وإني لم أرتكب أي شيء خبيث

إنى لم أفعل ما يمقته الإله.

وإنى لم أبلغ ضد خادم شرًا إلى سيده.

إنى لم أترك أحدًا يتضور جوعًا،

ولم أتسبب فى بكاء أى إنسان.

وإنى لم أرتكب القتل.

ولم آمر بالقتل؛

إنى لم أسبب تعسًا لأى إنسان.

إنى لم أنقص طعامًا فى المعابد،

ولم أنقص قربان الآلهة.

إنى لم أغتصب طعامًا من قربان الموتى.

إنى لم أرتكب الزنا.

إنى لم أرتكب خطيئة تدنس نفسي داخل حرم إله البلد الطاهر.

إنى لم أخسر مكيال الحبوب.

إنى لم أنقص المقياس.

إنى لم أنقص مقياس الأرض.

إنى لم أثقل وزن الموازين.

إنى لم أحول لسان كفتى الميزان.

إنى لم أغتصب لبنًا من فم الطفل.

إنى لم أطرد الماشية من مرعاها.

إنى لم أنصب الشباك لطيور الآلهة،

إنى لم أتصيد السمك من بحيراتهم (أى الآلهة).

إنى لم أمنع المياه عن أوقاتها.

إنى لم أضع سدًا للمياه الجارية[٢].

إني لم أطفئ النار في وقتها (أى عند وقت نفعها)[٣]

إنى لم أستول على قطعان هبات المعبد.

إنى لم أتدخل مع الإله فى دخله».

والآن ننتقل إلى منظر آخر يمثل الحساب أيضًا، حيث نجد القاضى «أوزير» يساعده اثنان وأربعون إلهًا يجلسون معه لمحاسبة المتوفى، وهم شياطين مخيفة يحمل كل منهم إسمًا بشعًا مزعجًا، ويدعى المتوفى أنه يعرف أسماءهم ولذلك يخاطبهم واحدًا واحدًا بالاسم، وهاك بعض أسمائهم:

«خطوة واسعة - خرجت من عين شمس».

و «محتضن اللهيب الذى خرج من طرة».

و«آكل الظل الذى خرج من الكهف».

و«عينان من لهيب خرجتا من «لتوبوليس» (أوسيم)».

و«كاسر العظام الذى خرج من أهناس».

و«آكل العظام الذى خرج من مكان الإعدام».

فكان المتوفى ينادى أصحاب هذه الأسماء وأمثالهم من الأسماء التى اخترعها خيال رجال الكهانة المصريين، ويوجه لكل إله منها - بدوره - اعترافًا ببراءته من خطيئة معينة.

ومن الظاهر - طبعًا - أن أولئك الاثنين والأربعين قاضيًا ليسوا إلا أسماء مخترعة، وهم يمثلون - كما هو معروف منذ مدة طويلة - الأربعين مقاطعة أو أكثر، أو الأقسام الإدارية، التى تتألف منها البلاد المصرية، ولا شك أن الكهنة ألّفوا تلك المحكمة من اثنين وأربعين قاضيًا قصد الإشراف على أخلاق المتوفى من أية ناحية كانت من أنحاء البلاد، حيث يجد المتوفى أن نفسه تواجه قاضيًا على الأقل من بين أولئك القضاة قد جاء من «البلدة التى كانت موطنا له»، فيكون ذلك القاضى على علم بسيرة ذلك المتوفى المحلية وشهرته فى أقصى وأدنى «الشارع الرئيسى» فى بلده وبذلك لم يكن فى إمكانه أن يخاتله أو يغشه.

وتتناول هذه الاعترافات الاثنان والأربعون موضوع الإقرارات نفسه التى ذكرناها فى الخطاب السالف تقريبًا، وقد وجد الكهنة الذين حرروا هذه الاعترافات بعض الصعوبة فى إيجاد الخطايا الكافية لملء قائمة مؤلفه من اثنين وأربعين خطيئة، ولذلك نجد من بينها عبارات كثيرة معادة، هذا عدا التكرار الظاهر الذى ورد مع تغير طفيف فى بعض الألفاظ، والجرائم التى يمكن اعتبارها من أعمال العنف هى التى يتبرأ منها المتوفى بقوله:

« إنى لم أقتل رجالاً»(٥).

«إنى لم أسرق» (٢).

»إنى لم أتلصص» (٤).

«إنى لم أسرق امرءا ينتحب على متاعه» (١٨).

«ولم تكن ثروتى عظيمة إلا من ملكى الخاص» (٤١).

«إنى لم أغتصب طعاما» (١٠).

«إني لم أبعث الخوف» (٢١)

«إنى لم أزك الشجار»(٢٥).

هذا ونجد المتوفى كذلك ينكر الغش وغيره من الصفات المذمومة، إذ يقول:

«إنى لم أنطق كذبًا» (٩).

«إنى لم أضع الكذب مكان الصدق» (٤٠).

«ولم أكن أتصامّ عن كلمات الصدق» (٢٤).

«إنى لم أنقص مكيال الحبوب» (٦).

«ولم أكن طماعًا» (٣).

«وقلبى لم يلتهم (يعنى لم يطمع؟)» (٢٨).

«ولم يكن قلبى متسرعًا» (٣١).

«إنى لم أضاعف الكلمات عند التحدث» (٣٣).

«ولم يكن صوتى عاليًا فوق ما يجب» (٣٧).

«وفمى لم يثرثر» (١٧).

«ولم تأخذنى حدة الغضب (فى طبعى)» (٢٣).

«إنى لم أسب» (٢٩).

«ولم أكن متسمعًا» (١٦).

«ولم أكن متكبرا (منفوخا)» (٣٩).

كما كان المتوفى أيضا بعيدا عن ارتكاب الرذائل الجنسية، إذ يقول:

«إنى لم أرتكب زنا مع امرأة» (٩).

«إنى لم أرتكب ما يدنس عرضى» (٢٠، ٢٧).

وكذلك ينكر المتوفى أيضا مجاوزته للحدود الرسمية، إذ يقول:

«إنى لم أعب فى الذات الملكية» (٣٥).

«إنى لم أسب الإله» (٣٨).

«إنى لم أذبح الثور المقدس» (١٣).

«إنى لم أسرق هبات المعبد» (٨).

«إنى لم أنقص طعام المعبد» (١٥)

«أنى لم أرتكب شيئًا تكرهه الآلهة» (٤٠).

وإن إنكار هذه النقائص وغيرها مما لم يمكننا فهمه هو الذى يتألف منه ذلك الإقرار بالبراءة، ويسمى هذا الجزء المذكور من كتاب الموتى فى العادة باسم «الاعتراف».

ومن الصعب على الإنسان أن يبتدع اسمًا مخالفًا لطبيعة بيان المتوفى الحقيقية أكثر من مخالفة تلك التسمية لها. إذ هى إعلان واضح عن براءة المتوفى، فتكون ـ بطبيعة الحال ـ عكس ما يفهم من كلمة «اعتراف» هذه، ولهذا السبب قد صار فساد تلك التسمية من الأمور الظاهرة، لدرجة أن بعض محررى ذلك الفصل أضافوا بعد كلمة «اعتراف» كلمة «إنكارى»، وصاروا يسمونه «اعتراف إنكارى»، مع أن هذه التسمية ليس لها أى معنى قط، لأن المصرى القديم لم يعترف بشىء فى تلك المحاكمة، وهذه الحقيقة فى غاية الأهمية فى تطور المصرى الدينى القديم كما سيتضح فيما نذكره بعد.

والواقع أن الخطأ فى حسبان ذلك الجزء من كتاب الموتى اعترافًا ـ معناه الوقوع فى خطأ بين فى فهم ذلك التطور الذى كان يسير بالمصريين الأقدمين ـ إذ

ذاك - على مهل نحو اعترافهم التام بخطاياهم وإظهارهم لها بتواضع، وهو أمر لا وجود له مطلقًا فى أية ناحية من نواحى كتاب الموتى.

ثم بعد أن يذكر المتوفى براءة نفسه أمام هيئة المحكمة العظمى يوجه خطابه إليهم بوثوق، فيقول:

«سلام عليكم يا أيها الآلهة.

إنى أعرفكم وأعرف أسماءكم.

وإنى لن أسقط أمام أسلحتكم.

لا تبلغوا عنى شرًا لذلك الإله الذى تتبعونه.

إن قضيتى لم تأت أمامكم.

قولوا عنى الصدق أمام (الرب المهيمن).

لأنى أقمت الصدق (يعنى العدل) فى أرض مصر.

وإنى لم أسب الإله.

وإن قضيتى لم تأت أمام الملك الحاكم وقتئذ.

سلام عليكم أيها الآلهة الذين فى قاعة الصدق (هذه)

والذين خلت أجسامهم من الخطيئة والكذب.

والذين يعيشون على الصدق فى عين شمس... أمام حور الساكن فى قرص شمسه[٤].

انظروا إنى آتٍ إليكم بدون خطيئة وبدون شر وبدون ذنب.

إنى أعيش على الحق،

وأتغذى من عدالة قلبى.

لقد فعلت ما يقول به الناس وما يرضى الآلهة.

ولقد أرضيت الإله بما يرغب فيه.

فأعطيت الجائع خبزًا

والصادى ماء

والعريان لباسًا

ولمن لا قارب له رمثا.

وصنعت قربانًا مقدسًا للآلهة وقربانًا من الطعام للموتى.

فنجونى أنتم واحمونى أنتم.

ولا تقدموا ضدى أية شكاية أمام الإله العظيم

لأنى إنسان طاهر الفم وطاهر اليدين،

وإنى من قال له كل من رآه: مرحبًا، مرحبا».

وبتلك الكلمات تتحول إدعاءات المتوفى عن خلقه العظيم إلى تأكيدات بأنه قد راعى كل مستلزمات المذهب الأوزيرى الرسمية، وهذه يتألف منها أكثر من نصف ذلك الخطاب الختامى الموجه إلى آلهة المحكمة.

وأما الرواية الثالثة عن المحاكمة فهى التى ـ من غير شك ـ أثرت أعمق تأثير على نفس المصرى، فهى تشبه تمثيلية «أوزير» فى «العرابة المدفونة» فى قوة تعبيرها وشدة تأثيرها، وتصور لنا المحاسبة فى الآخرة عن طريق الموازين. فنشاهد الإله «أوزير» ـ فى بردية «آنى» الفاخرة المحلاة بالصور ـ جالسًا فوق عرشه فى نهاية قاعة المحاكمة، وخلفه كل من الإلهتين «إزيس» و«نفتيس»، وقد اصطف على طول أحد جوانب القاعة الآلهة التسعة المعروفون بتاسوع «عين شمس» يرأسهم إله الشمس، وهم الذين ينطقون فيما بعد بالحكم، دالين بذلك على أن ذلك المنظر الثالث من المحاكمة كان فى بدايته شمسىّ الأصل، وهو الذى احتل فيه «أوزير» الآن المكان الأول، ونشاهد فى وسط المنظر «موازين» «رع» التى يزن بها الصدق»، طبقًا لما سبق ذكره عن تسميتها بذلك الاسم فى العهد الإقطاعى.

ولكن المحاكمة التى تظهر فيها تلك الموازين - صارت - وقتئذ - أوزيرية الصبغة، حيث كانت الموازين فى يد الإله الجنازى القديم، «أنوبيس» الممثل برأس ابن آوى، ويقف خلفه، «تحوت» كاتب الآلهة ليشرف على الميزان وفى يده القلم والقرطاس حتي يسجل النتيجة، وخلف «تحوت» يقف حيوان بشع الهيئة يسمى «الملتهمة» له رأس التمساح وصدر الأسد ومؤخرة فرس البحر ويكون متحفزا الالتهام الروح إذا وجدت ظالمة، وقد صور بجوار الميزان بدقة موحية - صورة القدر وفى رفقته الإلهتان، رننوث «ومسخنت»، وهما إلهتا الولادة، على أهبة التأمل والتدبر فى مصير تلك الروح التى أشرفتا عليها حينما جاءت إلى هذا العالم قبل ذلك، ويجلس خلف الآلهة المتربعين فوق عروشهم إلها الأمر والعقل.

على أننا كثيرًا ما نجد فى لفائف بردية أخرى - فى هذا الموضع - إلهة العدل بنت «رع» قائمة عند مدخل قاعة المحاكمة، لتقود إلى قاعة المحاسبة الروح التى جاءت حديثًا.

وفى بردية «آنى» يدخل «آنى» وزوجه القاعة التى يقرر فيها المصير مطأطئ الرأس بهيئة تدل على الخضوع، ويطالب، «أنوبيس» فى الحال بقلب «آنى». والإشارة الهيرغليفية التى تدل على القلب - وهى التى تمثل هنا قلب «آنى» - تشبه كثيرًا الإناء الصغير، ومن ثم نرى هذه الإشارة القلبية موضوعة فى إحدى كفتى الميزان، كما نرى فى الكفة الأخرى ريشة - وهى الرمز الهيروغليفى الدال على الصدق أو العدالة أو الحق (يعنى ماعت).

ويخاطب، «آنى» قلبه فى هذه اللحظة الحرجة قائلاً:

« يا قلبى الذى أتيت من أمى

يا قلبى الخاص بكيانى

لا تقفن شاهدًا ضدى

ولا تعارضنى فى المجلس (يعنى محكمة العدل)

ولا تكونن حربًا علىّ أمام رب الموازين

ولا تدعن اسمى يصير منتن الرائحة فى المحكمة

ولا تقولن ضدى زورًا فى حضرة الإله.

والظاهر أن هذا الاستعطاف لم يأت بالأثر المطلوب، لأن «تحوت» رسول التاسوع العظيم الموجود فى حضرة الإله ««أوزير» يقول على الفور:

اسمع أنت هذه الكلمة بالحق:

إنى قد حاسبت قلب أوزير (آنى)(٥)

إن روحه شاهدة عليه

وأخلاقه قد وجدت مستقيمة على حسب ما أظهره الميزان العظيم

ولم يوجد له أى ذنب.

فيجيب الآلهة التسعة على الفور:

« ما أحسن ذلك الذى يخرج من فيك العادل»

وقد شهد ذلك «أوزير آنى» المبرأ من الذنوب: إنه ليس له ذنب فلم نجد أنه اقترف شرًا

ولن يكون للملتهمة سلطان عليه

وليؤمر بإعطائه الخبز الذى يوضع أمام «أوزير»

والضيعة التى فى حقل القربان كما عمل لأتباع «حور».

وبعد أن يحكم له بهذا الحكم المرضى يقود «حور» بن (إزيس) «آنى» المحظوظ ويقدمه إلى «أوزير» حيث يقول له فى الوقت نفسه:

«إنى آتٍ إليك يا «وننفر» (أوزير) وإني أحضر لك «أوزير آني»

إن قلبه المحقق يخرج من الميزان وليست له خطيئة فى أى إله أو إلهة.

لقد حاسبه «تحوت» كتابة

وقد شهدت له الآلهة التسعة شهادة عادلة جدًا

فليؤمر بإعطائه الخبز والجعة اللتين توضعان أمام أوزير وننفر» مثل أتباع «حور».

وبعد ذلك يضع «آنى» يده فى يد «حور» ويخاطب «أوزير» فيقول:

«تأمل إنى أمامك يا رب الغرب

إن جسمى خالٍ من الذنب

إنى لم أنطق كذبًا على علم منى

وإذا كان ذلك قد فرط منى فإنى لم أكرره ثانية

دعنى أكن مثل أصحاب الحظوة من أتباعك».

وعندئذ يركع أمام الإله العظيم، وعند تقديمه مائدة القربان يصير مقبولاً ويدخل فى مملكة «أوزير»(٦).

فتلك البيانات الثلاثة عن الحساب فى الآخرة، برغم ما فيها من الحواشى والملحقات التى زخرفها بها الكهنة، ذات أثر فعال فى النفوس حتى فى نظر الباحث الحديث حينما يمعن النظر فى تلك اللفائف البردية التى مضى عليها ٣٥٠٠ سنة، ويرى أن تلك المناظر ليست إلا تصويرًا مجسما للشعور بالمسئولية الخلقية نفسه إيحاء الوازع الباطنى نفسه الذى لا نزال - نحن الآن - نطالب به أنفسنا، إذ نجد أن «آنى» يتضرع لقلبه - الذى هو الكلمة المعبرة عنده عن «الضمير» - بألا ينم عليه، مما نرى صدى صيحته تنحدر على مدى الآباد والدهورر فى مثل هذه الكلمات التى قالها، «ريتشارد»(٧) (Richard) حيث قال:

«إن ضميرى له ألف لسان مختلف

وكل لسان يأتى معه بقصة مختلفة

وكل قصة تقضى على بأنى شرير»

وقد أصغى المصرىّ إلى ذلك الإيحاء وخافه وحاول إخفاءه وإسكاته، أى أنه اجتهد فى إسكات وحى القلب ولم يعترف إلى ذلك الوقت بذنوبه بل تشبث فى

إلحاح ببراءته، ولقد كانت الخطوة الثانية عندما ارتقى فى تطوره فصار يُظهر ـ فى خضوع ـ شعوره بخطيئته إلى ربه، وقد وصل إلى تلك الخطوة فيما بعد، ولكن حدث إذ ذاك أن تدخل عامل آخر فعاقه إعاقة شديدة عن تحرير ضميره تحريرًا تاما.

وليس هناك من شك فى أن هذه المحاكمة الأوزيرية التى صورت لنا بذلك الوضوح المجسم، مضافا إليها ذلك التقدير العام لعبادة «أوزير» فى عهد الدولة الحديثة، يرجعان لدرجة كبيرة إلى نشر الاعتقاد بالمسئولية الخلقية فيما بعد الموت، وإلى تعميم تداول تلك الآراء الخاصة بالقيم السامية للأخلاق الطاهرة النقية، مما شاهدناه سائدا بين علماء الأخلاق والفلاسفة الاجتماعيين الذين نشئوا فى البلاط الفرعونى من عدة قرون خلت فى العهد الإقطاعى، فإنه بتلك الكيفية قد أضفى مذهب «أوزير» على الأخلاق الفاضلة قوة عظيمة فى نظر الشعب، ومع أن بابه كان مفتوحًا على مصراعيه ليدخله جميع الناس فإنه كان من واجب الجميع أن يبرهنوا على أهليتهم لرضاء الإله «أوزير» من الناحية الخلقية.

فلو أن الكهنة تركوا الأمر على هذه الحال لكان ـ فيه الخير، ولكنَ لسوء الحظ ـ كان انتشار الاعتقاد فى نفع قوة السحر وتأثيرها فى الحياة الآخرة ما يزال مستمرًا، إذ كان المعتقد أن كل النعم المادية يمكن الحصول عليها ـ من غير نزاع ـ باستعمال الرقية الملائمة، بل كان فى الإمكان كذلك أن يعاد إلى الإنسان بتأثير تلك العوامل السحرية كل شىء حتى العتاد العقلى، ألا وهو «القلب» الذى معناه ـ فى اللغة المصرية القديمة ـ «الفهم» أو «العقل».

فقد رأينا ـ فيما سبق ـ كيف أن نفس تلك الرقية نفسها التى تمكن الأم الهلوع من منع الشيطان الرجيم من خطف طفلها كان فى الإمكان كذلك استعمالها لمنع أخذ قلب الإنسان منه (أى سلب عقله منه)، وقد وضعت الكهنة فى «متون التوابيت» فى عصر العهد الإقطاعى ـ رقية لذلك الغرض عنوانها: «فصل فى عدم السماح بأخذ قلب الرجل منه فى العالم السفلىّ»، وقد أضيفت الآن هذه الرقية إلى كتاب الموتى. وبذلك نجد أن السحر قد دخل إلى عالم جديد وهو عالم «الضمير» والصفات الشخصيات والأخلاق.

وقد أغرت الكهنة أبواب الكسب والارتزاق ـ التى كانت لا تقف حيلتهم فيها عند حد ـ على اتخاذ خطوة خطيرة للاحتيال على الكسب، ألا وهى السماح لمثل تلك العوامل أن تتدخل بتلك الكيفية فى القيم الخلقية، بزعمهم إنه فى مقدور السحر أن يصير عاملا للوصول إلى الغايات الخلقية.

وسنرى فيما يأتى أن كتاب الموتى هو على الأخص كتاب للرقى والتمائم السحرية، وأنه حتى الجزء الخاص منه بحساب الآخرة لم يستمر طويلاً خاليا من ذلك، حيث نجد أن تلك الكلمات المؤثرة التى وجهها «آنى» إلى قلبه عندما كان يوزن بالموازين الأخروية وهى قوله له: «يا قلبى لا تقم شاهداً ضدى»، صارت تدون إذ ذاك على «جعل مقدس» مصنوع من الحجر (وهو «الجعران») يوضع فوق قلب الميت، حتى يكون بمثابة أمر له نفوذ سحرى فعال يمنع القلب من أن ينم على أخلاق المتوفى.

وقد صارت ألفاظ تلك الرقية فصلاً مستقلاً من فصول كتاب الموتى عنوانه: «فصل لمنع قلب الرجل من معارضته له فى العالم السفلى».

وكانت مناظر المحاكمة فى الآخرة ومتن إعلان البراءة تنسخ بكثرة على صفحات البردى، يقوم بنسخها الكتبة ثم تباع لكل الناس، ولا يكتب اسم المتوفى فى هذه النسخ، بل يترك مكانه خاليًا ليملأه المشترى بعد حصوله على تلك الوثيقة.

وكانت كلمات الحكم التى تعلن أن المتوفى قد فاز فى المحاكمة وبرئ من كل شر تدون فى كل بردية من تلك الصحف، وعلى ذلك كان فى إمكان كل إنسان مهما كانت أخلاقه فى الحياة الدنيا ـ أن يستولى من الكتبة على شهادة تقول بأن فلانا ـ الذى ترك مكان اسمه خاليا ـ كان رجلا فاضلاً (يعنى من قبل أن يعرف من سيكون فلانًا هذا).

وقد كان فى مقدور الميت أن يحصل حتى على صيغة سحرية شديدة القوة والتأثير لدرجة تجعل «إله الشمس» ـ الذى يعتبر القوة الحقيقة الكامنة وراء تلك

المحاكمة ـ يسقط من سماواته فى النيل إذا لم يخرج ذلك الميت برىء الساحة تمامًا من محاكمته.

وبذلك نجد أن أقدم انتشار للأخلاق الفاضلة أمكننا تتبعه فى حياة الإنسان القديم، قد توقف فجأة، أو على الأقل قد صدم صدمة عنيفة، بتلك الحيل الممقوتة التى كان يستعملها أولئك الكهنة الدجالون جريًا وراء الكسب.

ولسنا فى حاجة إلى بيان ما أدى إليه تدخل السحر فى ذلك الشأن الدينى من الخلط بين العوامل الحقيقية وغير الحقيقية، وذلك الارتباك هو بعينه ما كان ينتج قديمًا من عجز الإنسان عن فهم الفرق بين «ما يدخل فى نفس الإنسان» وبين «ما يخرج منها».

فتلك البراءة التى تصدر صدورًا آليا بعوامل خارجية لتنجية الإنسان من العقوبات التى مصدرها من الخارج، لا يمكن ـ بطبيعة الحال ـ أن تزيل الأضرار التى نشأت فى باطن الإنسان، وإن الإيحاء الباطنىّ الذى كان يحس به المصريون الأقدمون أكثر من أية أمة أخرى فى الشرق القديم، والذى بنيت عليه كل فكرة عن الحساب الخلقىّ العسير فى عالم الآخرة، لا يمكن محوه بمثل تلك الوسائل الخارجية التى ابتدعها لهم السحر، ولابد أن الاعتقاد العام الذى سرى فى الاعتماد على مثل تلك الحيل، للفرار من المسئولية الخلقية عن حياة مرذولة، قد سمم حياة الشعب الفطرية.

ومع أن كتاب الموتى يكشف لنا أكثر من أى مصدر قبله فى تاريخ مصر عن صيغة المحاكمة الخلقية فى عالم الآخرة وكيفيتها وتوخى المصريين الحقيقة فى تصوير المسئولية الخلقية، فإنه كذلك مظهر لمدى انحطاط المبادئ الخلقية فى ذلك الوقت، بل إنه بتحول كتاب الموتى إلى سلاح لضمان البراءة الخلقية فى عالم الآخرة بدون مراعاة لقيمة أخلاق الشخص نفسه قد صار قوة إيجابية مفسدة.

ويزيد من شر هذا الإنتاج الكهانى (أى كتاب الموتى) أنه ينتظم طائفة من الرقى والتعاويذ السحرية التى يعتقد فيها القوم القدرة على جلب ما يرضى الميت من الحاجات المادية والجثمانية فى عالم الآخرة.

وقد ازداد عدد تلك الرقى فى عهد الدولة الحديثة، وكان لكل منها عنوانها الدال على ما تؤديه للميت من الأعمال، وقد تكون من هذه الرقى السالفة الذكر، مضافًا إليها بعض الأناشيد الدينية القديمة فى مديح «رع» و«أوزير» مما كان بعضه ينشد أمام الجنائز، ويحتوى عادة على بعض البيانات عن الحساب فى الآخرة، مجموعة كانت تدون إذ ذاك بصفتها متونًا جنازية على صحف من البردى وتوضع مع الميت فى قبره، وهذه الأوراق البردية هى التى صارت تعرف ـ عندنا عادة ـ باسم كتاب الموتى.

والواقع أنه لم يكن موجودًا ـ فى عهد الدولة الحديثة ـ كتاب كهذا يعرف بذلك الاسم، بل كانت كل لفافة بردى تحتوى على مجموعة من المتون الجنازية تؤلف حسبما اتفق مما يقع تحت يد الكاتب، أو من المتون التى كانت سوقها رائجة وقتئذ ـ أى المتون التى كانت محببة إلى الناس أكثر من غيرها، وقد كانت توجد لفائف فخمة ذات بهاء يبلغ طول الواحد منها من ٦٠ إلى ٨٠ قدمًا، وتشتمل على فصول أو رقى يتراوح عددها من ٧٥ إلى ١٢٥ أو ١٣٠، فى حين كان الكتبة من جهة أخرى ينسخون لفائف صغيرة متواضعة، لا يزيد طول الواحدة منها على بضعة أقدام ولا تحتوى إلا على منتخب صغير من تلك الفصول التى تعد أكثر أهمية من غيرها، والواقع أنه لم توجد بين لفائف ذلك الوقت لفافتان تحتوى كل واحدة منهما على مجموعة التعاويذ نفسها التى تشتمل عليها الأخرى، وقد بقى الحال كذلك إلى عهد البطالسة (أى بعد القرن الرابع ق. م. بقليل) حينما جمع منتخب شبه معتمد من تلك الفصول تقرر استعماله تدريجًا، ومن ذلك يتضح، كما ذكرنا فيما سبق، أنه لم يكن هناك كتاب يعرف باسم كتاب الموتى ـ بصحيح العبارة ـ فى عهد الدولة الحديثة، بل كانت توجد مجاميع متنوعة فقط من الفصول الجنازية تملأ الأوراق البردية الجنازية التى وجدت فى ذلك العصر، وقد بلغ مجموع تلك الفصول أو التعاويذ التى كان تؤلف منها تلك اللفائف ما يربو على مائتين، مع أن أكبر لفافة منها كانت لا تحتوى على تلك الفصول جميعًا.

وقد كان استقلال كل فصل بذاته ـ أو بعبارة أخرى تمييز كل فصل عن غيره من باقى الفصول ـ واضحًا فى ذلك العهد بفضل اتباع العادة التى جرت بوضع

عنوان لكل فصل قبله، وقد كانت بداية تلك العادة فى متون التوابيت، حيث وضعت عناوين لبعض فصولها.

وكانت توجد مجاميع من الفصول تتألف منها أكبر نواة متداولة لكتاب الموتى وتسمى غالبًا: «فصول للصعود فى النهار»، وهى تسمية نجدها مستعملة فى متون التوابيت أيضًا، وبالرغم من كل ذلك لم يكن هناك عنوان شائع عن لفافة كاملة لكتاب الموتى باعتباره وحدة شاملة.

ومع أن بعض نبذ ضئيلة من متون الأهرام قد استمرت طويلاً مستعملة فى كتاب الموتى، فإنه يمكننا القول بأن تلك المتون قد اختفت على وجه عام تقريبًا، وأما متون التوابيت فقد ظهرت ثانية بمقدار عظيم جدًا أسهمت مساهمة كبيرة فى تكوين المجاميع المتوعة التى يتألف منها الآن «كتاب الموتى»

وقد ابتدع فى هذه المجاميع عنصر لا نرى له إلا أثرًا يسيرًا فقط فى «متون التوابيت»، ذلك هو إضافة صور فاخرة فى لفائف الموتى من الدولة الحديثة، تصور حياة المتوفى فى عالم الآخرة. وقد كان القوم يعتقدون فى تأثير مفعولها اعتقادا عظيما وبخاصة ما شاهدناه فيما سبق من منظر المحاكمة فى الآخرة، الذى صار - إذ ذاك - يصور بهيئة متقنة.

ويمكن القول عن تلك الصور الواردة فى كتاب الموتى «بأنها ليست إلا مثالاً آخر لإحكام الطرق السحرية بقصد تحسين أحوال الحياة الأخرى، والواقع أن كتاب الموتى نفسه - على وجه عام - ليس إلا مثلاً مركبًا بعيد المرمى يوضح مدى اعتماد القوم المتزايد على السحر فى الحياة الآخرة،

وكانت المكاسب التى تجبى بتلك الطريقة لا حد لها. ومن الواضح أن ذكاء أولئك الكهنة المرتزقة قد لعب دورا عظيمًا فيما حدث من التطور بعد ذلك، إذ أن أشراف الدولة المترفين لم يروا فى تصوير الاخرة بمناظر الفلاحة مستقبلاً جذابًا، إذ كان من الممكن للمتوفى أن يحرث فيها وأن يزرع ويحصد الثمار من حقله السعيد حيث كانت الحبوب تنمو إلى ارتفاع سبعة أذرع لقرابة ١٢ قدمًا)(٨)، فلم يعد يروق فى نظر أولئك العظماء المنعمين، فى عصر يزخر بالثراء، أن يكلفوا

القيام بعمل ما، أو أن يجبروا على الذهاب حتى إلى حقول المنعمين، ليكدوا وينصبوا.

ولذلك كانت توجد منذ الدولة الوسطى دمى مصنوعة من الخشب تمثل خدم الميت فى الحياة الآخرة، توضع معه فى القبر لتقوم بدلاً منه بأداء ما يلزمه القيام به من العمل بعد الموت، كما كان يقوم له بذلك خدمه فى الحياة الدنيا،

وقد تدرجت هذه الفكرة إذ ذاك بعض الشىء فى سبيل التطور فصارت تصنع تماثيل صغيرة للمتوفى يحمل كل منها حقيبة وفأسًا، وكان يدون على صدور مثل تلك التماثيل رقية ماكرة هى:

«يا أيتها الدمية[٩] المتخذة لفلان (هنا يكتب اسم المتوفى) إذا نوديت أو إذا طلبت للقيام بأى عمل فى العالم السفلى... فإنك تعدين نفسك لى فى كل الأزمات لتزرعى الحقول ولتروى الشواطئ ولتنقلى الرمل من الشرق إلى الغرب ولتقولى إننى ههنا».

وهذه الرقية كانت ضمن الرقى التى تدون فى بردى المتوفى تحت عنوان: فصل فى جعل الدمية تقوم بعمل المرء فى العالم السفلى[١٠]، ثم تفنن القوم فى إتقان هذه الحيلة فصار يخصص لكل يوم من أيام السنة دمية من تلك الدمى الصغيرة وتوضع جميعًا مع الميت فى قبره، وقد عثر على تلك الدمى بمقادير عظيمة فى الجبانات المصرية القديمة، حتى أن المتاحف (والمجاميع الخاصة) فى كل العالم قد صارت الآن آهلة بها.

ولا غرابة إذًا إذا كان كهنة ذلك العصر وكتبته قد انتهزوا تلك الفرصة السانحة لابتزاز أموال الناس حبًا فى الكسب الذى كان يأتى إليهم بتلك الطريقة السهلة، ولذلك ضاعفوا أخطار الآخرة وأهوالها إذ ذاك مضاعفة عظيمة، وادعوا أنه كان فى مقدورهم إنقاذ المتوفى لدى كل موقف حرج بالتعويذة الفعالة التى تنجيه من ذلك الخطر حتمًا، فإنه فضلاً عن التعاويذ العديدة التى تساعد المتوفى على الوصول إلى عالم الآخرة، كانت توجد أيضًا تعاويذ تمنع فقدان المتوفى فمه أو رأسه أو قلبه، وأخرى لتساعده على استذكار اسمه، كما كان منها

ما يساعده على التنفس والأكل والشرب، ومنها ما يمنعه أكله لبرازه، ومنها ما يمنع الماء الذى يشربه من أن يتحول إلى لهيب. ومنها ما يحول الظلام نورًا، كما كان من التعاويذ ما يحجب عن الميت كل الثعابين والوحوش المؤذية. وغير ذلك كثير من تلك التعاويذ.

وكذلك ازداد الآن موضوع التقمصات التى كان يرغب الميت فى أن تتقمصها روحه، وقد وضع فصل صغير لكل حالة يرغبها الميت، ليساعده على أن يتقمص فى صورة، «صقر من الذهب» أو «صقر إلهى» أو «زنبقة» أو «مالك الحزين (فنكس)» أو «بجعة» أو «الثعبان المسمى ابن الأرض» أو «تمساحً أو «إله». والأدهى من كل ذلك هو اختراع فصل قوى المفعول يمكن الإنسان باستعماله أن يتخذ لنفسه أى شكل يريده.

فمن مثل ذلك الإنتاج الذى تقدم ذكره يتألف الجزء الأعظم من مجموعة المتون التى نسميها الآن «كتاب الموتى» فإذا سميناه بعد ذلك «إنجيل المصريين»(١١) الأقدمين»، نكون إذًا قد أسأنا فهم وظيفة هذه اللفائف ومحتوياتها.

وإن ذلك الاتجاه الذى نتجت عنه تلك المجموعة من التعاويذ أو الرقى وهى التى يطلق عليها اسم «فصول» نجده ظاهرًا أيضًا بشكل مميز فى كتابين آخرين يكون كل منهما وحدة متماسكة متصلة، وأولهما «كتاب الطريقين» ويرجع عهده - كما تقدم ذكره - إلى عصر الدولة الوسطى، وقد أسهم ذلك الكتاب من قبل مساهمة عظيمة فى تأليف كتاب الموتى فيما يختص بالبوابات النارية التى كان يمر بها المتوفى حتى يصل إلى عالم الآخرة وإلى الطريقين اللذين كان يسير فيهما فى سياحته.

وعلى أساس مثل تلك التصورات أنتج خيال الكهنة أيضًا «كتاب الموجودين فى العالم السفلى أو ما فى العالم السفلى»، وهذا الكتاب يصف لنا الرحلة السفلية التى تقوم بها الشمس خلال الليل، حينما تخترق الممرات ذات الكهوف الأثنى عشر التى فى أسفل الأرض، وكل منها تمثل مسيرة ساعة، وباجتياز الاثنى عشر كهفًا تنتهى الشمس من آخر مطافها وتبلغ النقطة التى تطلع منها فى الشرق صباحًا.

وأما الكتاب الثانى فيسمى عادة باسم «كتاب البوابات»، وهو يمثل الوصول إلى كل من الاثنى عشر كهفًا بالدخول إلى كل كهف من بوابته، وهو خاص باجتياز تلك البوابات[١٢].

ومع أن تلك التصانيف لم تنتشر قط الانتشار الذى حظى به «كتاب الموتى» فإنها كانت تعدّ - مع ذلك - كتب إرشاد سحرية ألفها الكهنة للكسب كما فعلوا فى معظم الفصول التى يتألف منها «كتاب الموتى».

والأمر الذى خلص «كتاب الموتى» نفسه من وصمة أنه كتاب سحرى وكفى يستعمل فى عالم الآخرة، وهو بسطه للآراء القديمة الخاصة بالمحاكمة الخلقية فى عالم الآخرة وتقديره الظاهر لمسئولية «الضمير».

وقد رأينا فيما تقدم أن علاقة الإنسان بالآلهة كانت قد صارت من قبل حلول العهد الإقطاعى شيئًا أكثر من إقامته للشعائر الدينية الظاهرة، فالآن قد أصبحت هذه العلاقة أمرًا يتعلق بالقلب والأخلاق.

ولقد كان الشعور الخلقىّ عند المصرى قويًا جدًا، لدرجة أنه لم يجعل قيمة الحياة الفاضلة موقوفة على قبوله عند «أوزير» فى عالم الآخرة فحسب، ومن ذلك يتضح لنا تقصير النظرية الأخلاقية الأوزيرية، التى تأمر الإنسان بالتفكير فى العواقب الخلقية فى عالم الآخرة فقط، فإن «أوزير» لم يخرج عن كونه إله الموتى كما ذكرنا ذلك كثيرًا فيما تقدم، وقد نادى فلاسفة الاجتماع الأقدمون فى العهد الإقطاعى بالفضائل التى شرعها «رع» إله الشمس وطالبوا بالعدالة الاجتماعية فى هذا العالم كما طالب بها «رع».

ولم يعدم أولئك الفلاسفة بعض الأخلاف فى عهد الدولة الحديثة، ممن رأوا فى المذهب الشمسى واجبًا يحتم عليهم أن يحيوا حياة حقة فى هذه الدنيا، كما أدركوا أنه ينالهم الثواب فى الدنيا إذا عاشوا عيشة صالحة، فإله الشمس لم يكن - بوجه خاص - إله الموتى، بل كان الإله الذى يحكم فى شئون البشر الدنيوية، وقد شعر الناس بالمسئولية الخلقية التى فرضها عليهم «رع» فى كل ساعة من حياتهم

الدنيوية، فقرابة سنة ١٤٠٠ ق. م. وجه أحد مهندسى الملك «أمنحتب الثالث» أنشودة مدح إلى إله الشمس، قال:

«لقد كنتُ قائدًا مغوارًا بين آثارك، مقيمًا العدل لقلبك.

وإنى أعلم أنك مستريح للعدالة.

وإنك تجعل من يقيمها على الأرض عظيمًا.

ولقد أقمتها، ولذلك جعلتنى عظيمًا»

وكذلك حينا كان الفرعون يعقد يمينًا، فإنه كان يحلف «بحب «رع» لى وبمقدار عطف والدى «آمون» علىّ» (وقد وحذ «آمون» مع «رع» منذ زمن بعيد).

كما أن الفاتح «تحتمس الثالث»، عندما كان يقسم بذلك القسم توكيدًا لما يقوله وتعظيمًا لاحترامه للصدق عند الإله، يشير عند حلفه إلى وجود إله الشمس، هكذا:

«لأنه يعرف السماء ويعرف الأرض ويرى جميع العالم فى كل ساعة».

ومع أنه من الأمور المسلم بها أن عالم الآخرة السفلى فى المذهب الأوزيرى يصور لنا إله الشمس بأنه ينتقل من كهف إلى كهف تحت الأرض، مارًا فى عالم «أوزير» السفلى وجالبًا معه النور والفرح إلى السكانين هناك، فإن تلك الفكرة لم تكن معروفة فى اللاهوت الشمسى كما هو مذكور فى «متون الأهرام».

والواقع أن إله الشمس كان يعتبر فى عهد الدولة الحديثة قبل كل شىء إله عالم الأحياء من البشر، حاضرًا معهم، نشطًا فى مراقبة شئونهم الدنيوية على الدوام، ولذلك كان الناس يشعرون بمسئوليتهم أمامه الآن وفى هذه الحياة الدنيا، وكانت سيطرته تلك قد تعمقت فى قلوب الناس واتسع أمامها المجال باتساع أفق ذلك العهد الإمبراطورى، إلى أن انبثق لأول مرة فى تاريخ العالم، لأعين سكان وادى النيل القدامى، فجر رؤية الإله العالمى.

هوامش الفصل الرابع العاشر:

(١) وفي القرآن الكريم: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (آية ٤٧ من سورة الحج).

(٢) هذه إشارة إلى تحويل مياه ترع الري في وقت الفيضان إلى غير أصحابها، هذه الطريقة لا تزال للآن من أهم الطرق المستعملة في مصر للغش في الري.

(٣) المتن ظاهر ولكن المعنى غامض بعض الشيء.

(٤) يجب أن نلاحظ هنا أن ذلك برهان آخر على أن المحكمة أصلها شمسي.

(٥) ترك الكاتب ذكر اسم «آني» بعد «أوزير» سهوًا.

(٦) انظر الصورة ١٥

(٧) هو ريتشارد الثاني ملك انجلترا (١٣٧٧ ـ ١٣٩٩م) وهذا الاقتباس من رواية للشاعر الإنجليزي «شكسبير» كتبها بهذا الاسم «ريتشارد الثاني».

(٨) كتاب الموتى الفصل ١٠٩.

(٩) إن الكلمة التي تعبر عن هذه الدمى تكتب عادة «يوشابتي» أو «شوابتي» وتترجم بكلمة مجاوب. وعلى أية حال فإن أصل هذه الكلمة غامض جدًا ومعناها غير مؤكد.

(١٠) انظر كتاب الموتى الفصل السادس.

(١١) إن التسمية «إنجيل المصريين الأقدمين» يرجع عهد إطلاقها على كتاب الموتى على أقل تقدير إلى وقت انعقاد المؤتمر الشرقي في لندن عام ١٨٧٤م حيث رتب لنشر كتاب الموتى، انظر:

Naville, Todtenbuch Einleitung, Berlin, 1886, P. 5.

(١٢) ومن المحتمل أن السياح الذين ساحوا فى نهر النيل يذكرون رؤية هذه البوابات العظيمة فى مقابر الملوك بالأقصر، مثال ذلك ما يشاهد فى قبر «رعمسيس السادس» الواقع فوق مقبرة «توت عنخ آمون» بالضبط.

الفصل الخامس عشر

السيادة العالمية وأقدم عقيدة للتوحيد

لقد ترك النفوذ الاجتماعى مدة العهد الإقطاعى فى مصر أعظم أثر له فى الدين والأخلاق، كما فعل ذلك من قبل النفوذ السياسى ـ أى الحكومة المصرية ـ فى عصر الأهرام. وكلا الأثرين كانا منحصرين فى القطر المصرى.

حقا إن عصر الأهرام قد اهتدى إلى فكرة ـ مبهمة نوعًا ـ عن دولة إله الشمس ذات الاتساع الشاسع المدى، وخوطب إله الشمس فى «متون الأهرام» مرة باللقب الطنان «الذى لا حد له». كما رأينا أن عصر الأهرام كان قد أوجد، بالإدراك الاجتماعى الذى قام به أمثال «بتاح حتب» دولة للقيم الخلقية العامة، وفى إعطاء إله الشمس السيادة على مثل هذه الدولة دليل على أن المصريين كانوا قد بدأوا يسيرون بالفعل فى الطريق المؤدى إلى «التوحيد» كما أننا نتذكر مما سبق أن نصائح الملك الأهناسى المجهول الاسم قد سارت بالمصريين شوطًا بعيدًا فى ذلك الطريق. وقد كان وقتئذ فى مقدور المصريين بما تصوروه من النظام الإدارى الخلقى العظيم، الذى أوجدوا له من قبل كلمة تدل عليه، أن يتقدموا نحو الوصول إلى المعرفة التامة للوحدانية.

ولكن على الرغم من ذلك قد بقى هذا النظام الخلقى فى عصر الأهرام فكرة قومية لم يمتد نظامها حتى يشمل العالم كله.

فقد كان إله الشمس يحكم مصر فحسب، حيث نجده فى أنشودة الشمس العظيمة بمتون الأهرام يقف حارسًا على الحدود المصرية، فيقيم هناك الأبواب التى تمنع الأجانب من دخول مملكته المحروسة.

وكان إله الشمس فى عصر الأهرام أيضًا قد بدأ عملية إدماج آلهة مصر الآخرين فى ذاته، وهى عملية استحالت حتى فى ذلك العصر السحيق إلى صورة، قومية من العقيدة الحلولية القومية التى تقول بأن الإله يحل فى كل شىء، وبأن جميع الآلهة تستحيل فى النهاية من حيث الأشكال والوظائف إلى وحدة واحدة. ولكنه مع تلك العملية وبالرغم من استمرارها طويلاً، فقد تركت دولة ذلك الإله العظيم مقصورة على مصر. ولذلك كان هذا الإله بعيدًا كل البعد عن أن يكون إلهًا عالميًا.

والواقع أن المصريين ظلوا إلى ذلك العهد غير مدركين للفكرة العالمية، أى لفكرة الإمبراطورية العالمية، التى يمكنهم أن يسيطروا عليها بحاكم دنيوى واحد.

ولكن تأثيرات البيئة المقصورة على حدود وادى النيل كانت قد امتدت إلى أقصى مداها، وإذا بمسرح الفكر والعمل ينفسح للقوة القومية، بتلك التوسعات الخارجية الرائعة. فإن اللاهوت الشمسى السريع الاندماج والتجاوب مع أحوال ذلك العالم الصغير المكون من وادى النيل، قد دل على أنه لا يقل حساسية وتجاوبًا مع ذلك العالم الأكبر الجديد الذى وصل الأفق المصرى إلى مداه.

وإن توسع مصر الإمبراطورى شمالاً وجنوبًا، إلى أن شمل سلطان الفرعون الأقطار الأسيوية والأفريقية المجاورة، وكون منها أول إمبراطورية ثابتة الأركان فى التاريخ، لهو أبرز حقيقة فى تاريخ الشرق فى القرن السادس عشر قبل الميلاد، كما يعد توطيد تلك السلطة على يد «تحتمس الثالث» فى مدى عشرين سنة بما قام به من الغزوات فى آسيا، حادثًا عظيما فى تاريخ العاهليات الحربية، نرى فيه لأول مرة فى تاريخ الشرق مدى ما تستطيعه القوات العاملة المنظمة لدولة عظيمة.

إذ إن تلك القوات بهجومها المتواصل على ممالك أسيا الغربية قد جعلت السيادة المصرية لا ينازعها منازع، من الجزر الإغريقية فسواحل آسيا الصغرى

ومرتفعات أعالى نهر الفرات شمالاً، إلى الشلال الرابع لنهر النيل جنوبا.

وقد ذكر ذلك القائد الحربى العظيم نفسه تلك الملاحظة التى اقتبسناها آنفا عن إلهه، وهى التى قال عنه فيها:

«إنه يرى جميع العالم فى كل ساعة».

وإذا كان ذلك القول صحيحًا فما ذلك إلا لأن سيف ذلك الفرعون كان قد مد سلطان إله مصر حتى نهاية حدود الإمبراطورية المصرية. بل إن «تحتمس الأول» قد أعلن قبل ذلك العهد بخمسين سنة أن ملكه يمتد «إلى نهاية ما تحيط به الشمس». وقد كان القوم فى عهد الدولة القديمة يتصورون أن إله الشمس هو فرعون، ومملكته فى مصر. فلما اتسع نطاق المملكة المصرية وصارت عاهلية عالمية كان من المحتم كذلك أن يمتد سلطان الإله بهذا القدر. ولما كانت الملكية قد انبثت مظاهرها فى العقائد الدينية من زمن بعيد، فكان لا بد للإمبراطورية كذلك من أن تؤثر تأثيرًا قويًا فى الفكر الدينى.

ومع أن ذلك قد جرى بكيفية آلية لا تكاد تحس، فإنه كان مصحوبًا باستيقاظ عقلى هز التقاليد المصرية القديمة من أساسها وجعل رجال ذلك العصر يفكرون فى عالم من التفكير أوسع أفقًا من قبل. فقد مضى على إله الشمس ألفا سنة وخمسمائة وهو فرعون مصرى، أى فرعون حاكم لمصر، ولكن بعد سنة ١٦٠٠ ق. م. صار ذلك الفرعون سيدًا على العالم المتحضر إذ ذاك. وكان «تحتمس الثالث» الفاتح أول شخصية ظهرت لها نواحٍ عالمية فى التاريخ البشرى، ويعتبر بذلك أول بطل عالمى. ومن ثم كان له تأثير عميق فى عصره، وتمثلت فكرتا السيطرة والإمبراطورية العالميتين مجتمعتين بصورة ظاهرة ملموسة فى حياته. وقد ظهرت آنئذ بوادر للعالمية فى لاهوت الدولة يرجع سببها المباشر إلى تلك التأثيرات التى أحدثتها شخصية «تحتمس الثالث» وأخلاقه. وقد اضطرت مصر إلى الخروج من عزلتها العريقة فى القدم فى أحضان واديها الضيق والاشتراك فى العلاقات العالمية التى كان لا بد أن يحسب لها فى لاهوت ذلك العصر حساب فعال، إذ إنها كما أوضحنا علاقات كان لإله الشمس بها صلة لا انفصام لها.

أما العلاقات التجارية التى كانت قائمة منذ أزمان سحيقة جدًا فلم تكن كافية لإدخال العالم الخارجى فى دائرة التفكير المصرى بدرجة محسوسة. فقد كانت أطراف ممتلكات الآلهة محددة ومحصورًا أقصاها فى تخوم وادى النيل الخارجية، وذلك منذ زمن بعيد وقبل أن يصير العالم الخارجى مألوفًا لسكان وادى النيل، فلم يكن فى مقدور المعاملات التجارية وحدها مع عالم أوسع من مصر أن يزحزح تقاليد البلاد عما كانت عليه. فكم من تاجر رأى حجرًا يسقط فى «بابل» النائية كما رأى مثله يسقط فى «طيبة» المصرية أيضًا، ولكنه مع ذلك لم يخطر بباله، ولا ببال أى رجل آخر فى ذلك العصر العتيق، أن القوة الطبيعية التى تجذب الحجر الساقط هى واحدة فى كلتا هاتين المملكتين اللتين تفصلهما مسافات شاسعة، إذ كان العالم فى الواقع وقتئذ لا يزال بعيدًا جدًا عن زمن ذلك الصبى الراقد تحت شجرة التفاح [1]، الذى كشف عن قوة عالمية وراء سقوط التفاحة. وكم من تاجر فى ذاك العصر أيضًا قد رأى الشمس تبزغ خلف معابد «بابل» البرجية كما كانت تبزغ بين المسلات المتجمعة فى «طيبة»، ولكن تفكير ذلك العصر لم يكن قد وصل بعد إلى إدراك مثل هذه الحقائق ذات الأثر البعيد، وذلك بالرغم مما قاله «تحتمس» الفاتح عن إله الشمس:

«إنه يرى جميع العالم فى كل ساعة»

فإن العالمية التى تصورها أولاً خيال رجال الإمبراطورية المفكرين وكشفت لهم المجال العالمى الطبيعى لدولة إله الشمس هى العالمية كما بدت فى السلطة العاهلية. أما التوحيد فليس إلا العاهلية فى الدين.

وعلى ذلك لم يكن من باب الحدس أو الصدفة أن نجد أن أول هذه التصورات قرابة سنة ١٤٠٠ ق. م. فى عهد «أمنحتب» [2] الثالث الذى كان أعظم أباطرة مصر أبهة، إذ نجد أن توأمين من رجال العمارة هما «سوتى» و «حور» كانا يعملان فى «طيبة» لحساب الملك «أمنحتب» الثالث، وقد تركا لنا أنشودة للشمس على لوحة توجد الآن فى المتحف البريطانى. وهذه الأنشودة توضح لنا مدى ميل ذلك العصر والمجال الآخذ فى الاتساع والذى كان ينظر به رجال الإمبراطورية إلى العالم مدركين مبلغ امتداد دولة إله الشمس التى لا حد لها.

وهذه الأنشودة الشمسية تحتوى على الأسطر الآتية الجليلة المعنى، وهى:

«إنك صانع مصور لأعضائك بنفسك

ومصور دون أن تصور.

منقطع القرين فى صفاته مخترق الأبدية

مرشد الملايين إلى السبل.

وعندما تقلع فى عرض السماء يشاهدك كل البشر

(رغم أنك) فى ذهابك خفى عن أنظارهم.

إنك تجتاز سياحة مقدارها فراسخ،

بل مئات الآلاف ملايين المرات.

وكل يوم تحتك (تحت سلطانك).

وحينما يأتى وقت غروبك،

فإن ساعات الليل تصغى إليك أيضًا.

وعندما تجتازها فإن ذلك لا يكون نهاية كدك.

وكل الناس تنظر بواسطتك.

أنت خالق الكل ومانحهم قوتهم.

أنت أم نافعة للآلهة والبشر،

وأنت صانع مجرب.....

وراع شجاع يسوق ماشيته

وأنت ملجؤها ومانحها قوتها.

....

هو الذى يرى ما خلق،

والسيد الأحد الذى يأخذ جميع الأراضى أسرى كل يوم

بصفته واحداً يشاهد من يمشون عليها،

مضىء فى السماء وكائن كالشمس.

وهو يخلق الفصول والشهور،

فالحرارة عندما يريد.

والبرد عندما يشاء.

فكل بلاد فى فرح عند بزوغه كل يوم، لكى تسبّح له».

ومن الواضح فى مثل هذه الأنشودة أن مدى جولة إله الشمس الشاسع حول كل البلاد، وفوق كل شعوب الأرض، قد لقى فى النهاية اهتماماً... وإنه قد اتخذت الخطوة الأخيرة وهى مد سلطان إله الشمس على كل الأراضى والشعوب.

ولم تصل إلينا وثيقة أقدم منها مما أنتجه التفكير المصرى تضم تعبيرات صريحة يتمثل فيها ذلك التفكير كالتى نجدها هنا فى قوله:

«السيد الأحد الذى يأخذ جميع الأراضى أسرى كل يوم

بصفته واحدا يشاهد من يمشون عليها».

ومن الأمور المهمة أن نلاحظ أيضاً أن ذلك الاتجاه كانت له علاقة مباشرة بالحركة الاجتماعية فى العصر الإقطاعى المصرى، إذ نجد أن النعوت التى نعت بها إله الشمس، نحو قوله:

«الراعى الشجاع الذى يسوق ماشيته

وهو ملجؤها ومانحها قوتها».

ترجع بنا إلى عهد النصائح التى وجهت إلى «مريكارع»، وهى التى سميت فيها الناس «قطعان الإله»، كما ترجع بنا أيضاً إلى أفكار «إبور» حيث يقول: «إنه راع لجميع الناس»

ومثله النعت الآخر الخطير الشأن وهو قوله: «أم نافعة للآلهة والبشر»، فإنه يحمل فى ثناياه فكرة مشابهة تشعر بالاهتمام ببنى البشر. أى أن النواحى الإنسانية فى سلطان إله الشمس، التى اشترك فى إيجادها بوجه خاص رجال الفكر فى العهد الإقطاعى، لم تختف بين العوامل السياسية القوية لذلك التسلط العالمى الجديد.

وحدث أنه عندما خلف «أمنحتب الرابع» والده «أمنحتب الثالث» قرابة سنة ١٣٧٠ ق. م. قام نزاع شديد بين البيت المالك من جهة وبين نظام الكهانة الذى كان على رأسه الإله «آمون» من الجهة الأخرى. وقد كان من الواضح أن ذلك الملك الشاب ينحاز إلى معاضدة جانب إله الشمس القديم ضد الجانب المنتصر للإله «آمون»، الذى كان رجال كهانته الطيبيون الأقوياء قد أخذوا يدعون إلههم الذى كان من قبل إلها محليًا خامل الذكر باسم مركب هو «آمون رع»، مدللين بذلك على أنه صار موحداً مع إله الشمس «رع» وقد أخذ «أمنحتب الرابع» فى باكورة حكمه يناصر فى حماسة فكرة جديدة للمذهب الشمسى ربما كانت نتيجة أريد بها التوفيق بين المذهبين.

وفى الوقت الذى كان فيه موقف البلاد المصرية السياسى فى آسيا فى غاية الحرج - أخذ الملك ينهمك بكل حماسة فى تعضيد التسلط العالمى لإله الشمس الذى أدركنا كُنْهه فى أيام والده. فأعطى هذا الملك إله الشمس اسمًا جديداً خلص به المذهب الجديد من التقاليد المحفوفة بخطر الشرك فى اللاهوت الشمسى القديم، فصار إله الشمس يسمى «آتون»، وهو اسم قديم يطلق على الشمس المجسمة.

ومن المحتمل أن هذه التسمية لا تدل إلا على قرص الشمس فقط. وهذا الاسم الجديد ذكر مرتين فى أنشودة رجلى عمارة «أمنحتب الثالث» التى اقتبسنا منها جزءًا فيما تقدم، كما لاقى بعض الإقبال فى عهد ذلك الملك، إذ قد سمى به أحد قواربه الملكية «أتون يسطع».

ولم يقتصر الحال على إعطاء إله الشمس اسمًا جديداً، بل منحه ذلك الملك الشاب كذلك رمزًا جديداً. فقد ذكر فيما مر سابقًا أن أقدم رمز لإله

الشمس كان الشكل الهرمى، كما كان يرمز له كذلك بالصقر، لأن الصقر من أسمائه.

على أن هذين الرمزين كانا مفهومين بين سكان وادى النيل فقط، ولكن «أمنحتب الرابع» كان فى مخيلته وقتئذ مسرح أفسح وأوسع من القطر المصرى.

إذ أن الرمز الجديد قد مثل لنا الشمس بقرص تخرج منه أشعة متفرقة متجهة إلى أسفل، كل شعاع منها ينتهى طرفه بصورة يد بشرية [٢].

وقد كان ذلك الرمز يشعر بالسيادة ويدل على السيطرة القوية الخارجة من منبعها السماوى وهى تضع أيديها فوق العالم وعلى شئون البشر الأرضية، هذا فضلاً عن أن أشعة إله الشمس منذ عصر متون الأهرام قد شبهت بذراعين له، واعتبرها الناس إذ ذاك نائبة عنه فى الأرض:

«إن ذراع أشعة الشمس قد رفعت مع الملك «وناس».

صاعدة به إلى السماوات».

وقد كان ذلك الرمز الجديد سهل الفهم لكل البشر الذين يسيطر عليهم الفرعون، كما كان معناه واضحًا كل الوضوح حتى إنه كان فى استطاعة سكان نهر الفرات أو رجال بلاد النوبة على النيل السودانى أن يدركوا عظم شأنه على الفور، بمعنى أن ذلك الرمز لم تقتصر دلالته على السيطرة العالمية فحسب، بل صار خليقا أن يكون رمزا عالميًا إلى أقصى حد.

وكذلك بذلت بعض الجهود لتعريف القوة الشمسية التى رمز لها بتلك الصورة. فقد كان اسم إله الشمس الكامل: «حور أختى (حور الأفق) فرحًا فى الأفق باسمه (الحرارة التى فى «آتون»).

وكان ذلك الاسم يوضع فى طغراءين ملكيين، مثل اسم الفرعون المزدوج (يعنى اسمه ولقبه) وهذا الوضع مأخوذ من مشابهة سلطان آتون لسلطان الفرعون، كما إنه برهان آخر يدل بوضوح على التأثير الذى أوجدته الإمبراطورية المصرية بصفتها الحكومية فى مذهب اللاهوت الشمسى. غير أن الاسم الموضوع فى

الطغراءين حدد لنا بوجه عام مقدار القوة المحسوسة الواقعية للشمس فى العالم الظاهر، ولم تكن له أية دلالة سياسية قط.

والكلمة المصرية القديمة التى ترجمتها فى اسم ذلك الملك «حرارة» قد يكون معناها أحيانًا «نورا» أيضا، ومن الواضح أن ما كان الملك يعبده هو قوة الشمس التى نشعر بها على الأرض. وهذه النتيجة تنسجم مع العبارات العديدة التى سنجدها فى أناشيد «آتون»، وهى التى نرى فيها «آتون» نشطا باسطًا أشعته على كل مكان فوق وجه الأرض.

ومع أنه من الواضح أن ذلك المذهب الجديد قد استقى وحيه من مدينة «هليوبوليس»، حتى أن الملك الذى اتخذ لنفسه منصب الكاهن الأعظم للإله «آتون» سمى نفسه «الناظر الأعظم»، وهو لقب كاهن «هليوبوليس» العظيم نفسه، فإنه بالرغم من ذلك كان قد أزال معظم سقط المتاع القديم من الطقوس التى كانت تتألف منها ظواهر اللاهوت التقليدية، ولذلك نرانا نبحث عبثًا فى ذلك اللاهوت الجديد عن القوارب الشمسية، كما نرانا نبحث عبثًا عن باقى الإضافات التى أدخلت فيما بعد على المذهب الشمسى مثل السياحة فى كهوف الأموات السفلية، وغير ذلك. فإنها كلها قد محيت منه جملة.

فإذا كان الغرض الذى رمت إليه حركة مذهب «آتون» هو التوفيق بينها وبين كهنة «آمون» فإنها قد فشلت، وقام بينهم ألد الخصام، الذى اشتد وبلغ الذروة عندما صمم الملك على أن يتخذ من «آتون» إلهًا واحدًا للإمبراطورية المصرية ويقضى على عبادة «آمون». وقد نتج عن ذلك المجهود الذى بذل لمحو كل الآثار الدالة على وجود «آمون» (ذلك الإله الحديث العهد) أن اتخذت إجراءات غاية فى التطرف. إذ نجد أن الملك قد غير اسمه من «أمنحتب» (يعنى «آمون» مرتاح أو راض) إلى «إخناتون» (يعنى «آتون» راض). وذلك الاسم الجديد الذى اتخذه الملك لنفسه هو ترجمة للاسم القديم للملك إلى ما يماثله فى المعنى فى مذهب «آتون» هذا من جهة، وكان اسم «آمون» من الجهة الأخرى يمحى أينما وجد فوق آثار «طيبة» العظيمة، حتى أن الملك، تنفيذا لفكرته هذه، لم يحترم فى ذلك حتى ولا

اسم والده الملك «أمنحتب الثالث». مع أن الأمر لم يكن قاصرا على محو اسم «آمون»، بل تعداه حتى إلى كلمة الآلهة (بصفتها جمع إله) فكانت تمحى أيضًا أينما وجدت (كأنه رأى أن الجمع مظنة لتعدد الآلهة فمحاه)، وكذلك عوملت أسماء سائر الآلهة الأخرين معاملة «آمون» فكان مصيرها المحو.

وقد هجر الملك «إخناتون» طيبة برغم ما كان لها من السيادة والأبهة عندما وجد الارتباك فيها بالتقاليد اللاهوتية القديمة أكثر مما يحتمل، وأقام لنفسه حاضرة جديدة فى منتصف الطريق بين «طيبة» والبحر تقريبًا، فى بقعة تعرف فى وقتنا هذا باسم «تل العمارنة» وسماها «أخيتاتون» (أفق آتون)، كما أسس فى بلاد النوبة مدينة لآتون مشابهة لها، ومن المحتمل جدًا أنه أقام مدينة أخرى لذلك الإله فى آسيا، وبذلك صار لكل من الثلاثة الأجزاء العظيمة التى تتألف منها الدولة وهى مصر والنوبة وسوريا مقر لمذهب «آتون» وقد بنيت كذلك معابد أخرى لآتون فى أماكن مختلفة من مصر نفسها.

ولم يتم ذلك طبعًا دون تأليف حزب قوى من رجال البلاط الملكى يمكن للملك به أن يناهض أولئك الكهنة المنبوذين، وبخاصة كهنة «آمون». وقد أثرت الفتنة التى نتجت عن ذلك الانقلاب بلا شك تأثيرًا خطيرًا فى قوة البيت المالك. إذ كان حزب ذلك البلاط الذى نما إذ ذاك فى ظل «إخناتون» يعمل معه متضامنين على نشر ذلك المذهب الدينى الجديد، الذى يصح أن تعد قصته أروع الفصول وأكثرها إمتاعًا فى تاريخ الشرق القديم، يدلنا على ذلك ما بقى من نقوشه على جدران تلك المقابر التى نحتها الملك فى الصخر لأشراف رجاله قبالة الجبال المنخفضة التى تقع فى الهضبة الشرقية القائمة خلف تلك المدينة الجديدة. والواقع أننا مدينون لمقابر مثل هؤلاء من أعوان الملك بمعلوماتنا عن مشتملات تلك التعاليم المهمة التى كانت تنشر فى تلك الآونة. وهى تحتوى على سلسلة أناشيد فى مدح إله الشمس، كما تحتوى على مديح إله الشمس والملك بالتبادل. وهذه التعاليم تمدنا على الأقل بلمحة عن عالم الفكر الجديد، الذى نشاهد فيه ذلك الملك الشاب وأعوانه رافعين أعينهم نحو السماء محاولين بذلك إدراك مجالى الذات الإلهية فى بهائها الذى لا حد لقوته ولا نهاية، وهى الإلهية التى لم

يعد سلطانها منحصراً فى وادى النيل، بل امتد بين جميع البشر وفى العالم كله.

ولا يمكننا الآن أن نأتى بشىء عن هذه السانحة أفصح من تلك الأناشيد، التى تقص علينا بنفسها شيئًا عن تلك التعاليم. وأطول أنشودة بينها وأهمها هى الآتية[٤].

بهاء «آتون» وقوته العالمية

تشرق وتضىء

«أنت تبزغ بجمالك فى أفق السماء

أنت يا «آتون» الحى الذى كنت فى أزلية الحياة

فحينما كنت تطلع فى الأفق الشرقى

كنت تملأ كل البلاد بجمالك

أنت جميل وعظيم ومتلألئ ومشرق فوق كل أرض

وأشعتك تحيط بالأرضين حتى نهاية جميع مخلوقاتك

أنت «رع» [٥] وأنت تخترق حتى نهايتها القصوى (يعنى الأرضين)

وأنت توثقهم (يعنى البشر) لابنك المحبوب (الفرعون)

ورغم أنك قصىّ جدًا فإن أشعتك فوق الأرض

ورغم أنك تجاه البشر فإن خطواتك خفيّة (عنهم)».

الليل والإنسان

«وحينما تغيب فى أفق السماء الغربى فإن الأرض تظلم كالموات

فينامون فى حجراتهم

ورءوسهم ملفوفة

ومعاطسهم مسدودة

ولا يرى إنسان الآخر

فى حين أن أمتعتهم تسرق

وهى تحت رءوسهم

وهم لا يشعرون بذلك»

المزامير

تجعل ظلمة فيكون ليل فيه يدب كل حيوان وعر

المزامير (١٠٤ ـ ٢٠)

الليل والحيوان

«وكل أسد يخرج من عرينه (ليفترس)

وكل الثعابين تنساب لتلدغ

والظلام يخيم

والعالم فى صمت

فى حين أن الذى خلقهم ق فى أفقه»

المزامير

الأشبال تزمجر لتخطف ولتلتمس من اللّه طعامها

المزامير (١٠٤ ـ ٢١)

النهار والإنسان

«الأرض زاهية حينما تشرق فى الأفق

وعندما تضىء بالنهار مثل «آتون»

فإنك تقصى الظلمة إلى بعيد

وحينما ترسل أشعتك

تشرق الشمس فتنصرف وفى مأويها تربض. الإنسان يخرج إلى عمله وإلى شغله إلى المساء

(المزمور ١٠٤ ـ ٢٢ و ٢٣)

تصير الأرضان (مصر) فى عيد
والناس يستيقظون ويقفون على أقدامهم
عند إيقاظك لهم
وبعد غسلهم لأجسامهم يلبسون ثيابهم
ثم يرفعون أذرعتهم تعبداً لطلعتك
ثم بعد ذلك يقومون إلى أعمالهم فى
كل العالم»

النهار والحيوان والنبات

«وجميع الماشية ترتع فى مراعيها
والأشجار والنباتات تينع
والطيور فى مستنقعاتها ترفرف
وأجنحتها منتشرة تعبدا لك
وجميع الغزلان ترقص على أقدامها
وجميع المخلوقات التى تطير أو تحط
تحيا عندما تضىء عليها»

النهار والمياه

«والسفن تقلع فى النهر صاعدة
أو منحدرة فيه على السواء
وكل فج مفتوحً لأنك أشرقت
والسمك يثب فى النهر أمامك

هذا البحر الكبير الواسع الأطراف
هناك دبابات بلا عدد
صغار حيوان مع كبار
هناك تجرى السفن. لوياثان

وأشعتك تنفذ إلى وسط البحر	هذا خلقته ليلعب فيه
الأخضر العظيم».	(المزمور ١٠٤ ـ ٢٥ و ٢٦)

خلق الإنسان

«أنت خالق الجرثومة فى المرأة

والذى يذرأ من البذرة أناسيًا

وجاعل الولد يعيش فى بطن أمه

ومهدئًا إياه حتى لا يبكى

مرضعًا إياه حتى فى الرحم

وأنت معطى النفس حتى تحفظ الحياة على كل إنسان خلقته

وحينما ينزل من الرحم (أمه) فى يوم ولادته

فأنت تفتح فمه كلية

وتمنحه ضروريات الحياة»

خلق الحيوان

«وحينما يصير الفرخ فى لحاء البيضة

فأنت تعطيه نفسًا ليحفظه حيًا فى وسطها

وقد قدرت له ميقاتًا فى البيضة ليخرج منها

وهو يخرج من البيضة فى ميقاته (الذى قدرته له)

فيصبح ويمشى على رجليه حينما يخرج منها»

الخلق العالمى

«ما أكثر تعدد أعمالك	ما أعظم أعمالك يارب
إنها على الناس خافية	كلها بحكمة صنعت

يا أيها الإله الأحد
الذى لا يوجد بجانبه إله آخر
لقد خلقت الأرض حسب رغبتك
وحينما كنت وحيداً (لاشىء غيرك):
خلقت الناس وجميع الماشية والغزلان،
وجميع ما على الأرض،
مما يمشى على رجليه،
وما فى عليين مما يطير بأجنحته.
وفى الأقطار العالمية سوريا،
وكوش وأرض مصر.
فإنك تضع كل إنسان فى موضعه.
وتمدهم بحاجاتهم.
وكل إنسان لديه قوته.
وأيامه معدودات.
والألسنة فى الكلام مختلفة،
وكذلك تختلف أشكالهم وجلودهم،
لأنك تخلق الأجانب مختلفين»
ملآنة الأرض من غناك
المزمور ١٠٤ ـ ٢٤)

رى الأراضى فى مصر وخارجها

«أنت تخلق النيل فى العالم السفلى،

وأنت تأتى به كما تشاء

ليحفظ أهل مصر أحياء (كلمة أهل التى استعملت هنا مقصورة فى اللغة على أهل مصر).

لأنك خلقتهم لنفسك

وأنت سيدهم جميعًا

وأنت الذى تنهك [٦] نفسك من أجلهم.

وأنت رب كل قطر

و(أنت) الذى تشرق من أجلهم

وأنت شمس النهار عظيم الافتخار.

وجميع الأقطار العالية القاصية.

أنت تخلق حياتها أيضًا.

لقد وضعت نيلا فى السماء،

وحينما ينزل لم يصنع أمواجًا فوق الجبال

مثل البحر الأخضر العظيم،

فيروى حقولهم فى مدنهم.

ما أكرم مقاصدك يا رب الأبدية.

ويوجد نيل فى السماء للأجانب

ولأجل غزلان كل الهضاب التى تتجول على أقدامها.

أما النيل فإنه يأتى من العالم السفلى لمصر».

فصول السنة

«أشعتك تغذى كل بستان (كلمة التغذية هنا تعنى تغذية الأم لطفلها).

وعندما تبزغ فإنها تحيا،

فهى تنمو بك.

أنت تخلق الفصول

لأجل أن ينمو كل ما صنعت.

فالشتاء يأتى إليهم بالنسيم العليل،

والحرارة لأجل أن يذوقوا أثرك (أى أن يكون لها طعم لذيذ فى فمهم)».

السيطرة العالمية

«أنت خلقت السماوات العلى لتشرق فيها

ولتشاهد كل ما صنعت حينما كنت لا تزال وحيدًا (لاشىء غيرك).

مضيئًا فى صورتك أنت «آتون» الحى،

وبازغا وساطعا وذاهبًا بعيدًا وآيبًا (فى الغدو والآصال).

أنت تخلق الملايين من الصور وحدك بنفسك:

من مدن وقرى وحقول وطرق عامة وأنهار.

وجميع العيون تراك تجاهها،

لأنك «آتون» (شمس) النهار فوق الأرض.

وحينما تغيب،

فإن جميع الناس الذين سويت وجوههم

لكى لا ترى نفسك بعد وحيدًا

يغشاهم النعاس حتى لا يرى واحد منهم ما قد خلقته.

ومع ذلك فإنك لا تزال فى قلبى».

وحى الملك

«ليس هناك واحد آخر يعرفك إلا ابنك «إخناتون».

لقد جعلته عليمًا بمقاصدك وبقوتك».

الرعاية العالمية

«العالم يعيش بصنيع يدك، أنت الذى خلقتهم
فيحيا حينما تشرق
ويموت حينما تغيب،
لأن حياتك طول مدى نفسك
والناس يعيشون بواسطتك
إن أعين الناس لا ترى إلا جمالك حتى تغيب،
وكل عمل يطرح جانبًا
حينما تغيب فى الغرب.
وحينما تشرق ثانية
فإنك تجعل كل كف تنشط لأجل الملك
والخير فى أثر كل قدم،
لأنك خلقت العالم
وأوجدتهم لابنك
الذى ولد من لحمك
ملك الوجهين القبلى والبحرى
العائش فى الصدق، رب الأرضين
«نفر خبرو رع وان رع» (إخناتون)
ابن «رع» العائش فى الصدق، رب التيجان
«إخناتون» ذو الحياة الطويلة
(ولأجل) كبرى الزوجات الملكية. محبوبته
سيدة الأرضين «نفر نفرو آتون» (نفرتيتى)
عاشت وازدهرت أبد الآبدين».

ويحتمل ألا تمثل هذه الأنشودة الملكية العظيمة إلا قطعة منتخبة أو سلسلة منتخبة من شعائر «آتون» كما كانت تقام من يوم لآخر فى معبد «آتون» بتل العمارنة.

ومما يؤسف له أن هذه الأنشودة لم تدون فى تلك الجبانة إلا بمقبرة واحدة فقط. وقد فقد منها نحو ثلثها من جراء تعدى المخربين من الأهالى الحاليين، ولذلك لم يصلنا من الجزء المفقود إلا نسخة حديثة نقلت من غير اعتناء وعلى عجل منذ خمسين سنة (أى فى سنة ١٨٨٣م).

وأما المقابر الأخرى فقد كتبت نقوشها الدينية بالنقل عن الفقرات والجمل التى كانت شائعة الاستعمال وقتئذ، والتى تكوّن منها مجمل مذهب «آتون» كما فهمه الكتاب والرسامون الذين قاموا بزخرفة تلك المقابر. وعلى ذلك يجب علينا ألا ننسى أن البقايا التى وصلت إلينا عن طريق جبانة «تل العمارنة» من مذهب «آتون»، وهى مصدرنا الرئيسى، قد مرت بشكل آلى بأيدى فئة قليلة من الكتبة المهملين غير المدققين ذوى العقول الخاوية الفاترة، ممن لم يخرجوا عن كونهم أذنابًا لحركة عقلية دينية عظيمة. وفيما عدا هذه الأنشودة الملكية نجد أن أولئك الرسامين كانوا يقنعون فى كل مكان بالقطع والنتف، التى نقلت فى بعض الأحوال من تلك الأنشودة الملكية نفسها أو عن قطع أخرى، ويضعونها مرقعة فى هيئة أنشودة قصيرة، ثم ينقشونها كلها أو بعضها بدون أدنى تصرف، وهم ينتقلون من قبر إلى آخر.

ولما كانت المواد التى فى متناولنا عن ذلك المذهب ضئيلة إلى هذا الحد، مع أهمية الحركة التى أماطت لنا عنها اللثام، فإن تلك المعلومات الجديدة القليلة التى تمدنا بها تلك الأنشودة القصيرة، تعتبر ذات قيمة عظيمة [٧].

وقد عزيت تلك الأنشودة فى أربع حالات إلى الملك نفسه ـ أى أن الملك يشاهد وينشدها أمام «آتون». وهاك نصها كما جاءت:

«أنت تشرق بجمالك يا «آتون» الحى يا رب الأبدية.

إنك ساطع وقوى وجميل

وحبك عظيم وكبير

أشعتك تمد بالبصر كل واحد من مخلوقاتك

ولونك الملتهب يجلب الحياة إلى قلوب البشر

عندما تملأ بحبك الأرضين.

إيه أيها الإله الذى سوى نفسه بنفسه

خالق كل أرض

وبارئ كل من عليها

حتى الناس وكل قطعان الماشية والغزلان

وكل الأشجار التى تنمو فوق التربة

فإنها تحيا عندما تشرق عليهم

وأنت الأب والأم لكل من خلقته

وعندما تشرق فإن عيونهم

ترى بواسطتك.

إن أشعتك تضىء كل العالم

وينشرح بسبب رؤيتك كل قلب.

عندما تشرق بصفتك سيدهم.

وعندما تغيب فى أفق السماء الغربى

فإنهم ينامون كأنهم أموات؛

رءوسهم ملفوفة بالغطاء

وتقف معاطسهم

حتى يعود شروقك فى الصباح

فى أفق السماء الشرقى.

وعندئذ يرفعون أذرعتهم إليك تعبداً،

فإنك تجعل قلوب البشر تحيا بجمالك،

لأن الناس تحيا عندما ترسل أشعتك

ويكون جميع الكون فى عيد:

فالغناء والموسيقى وتهليل الفرح

تكون فى قاعة بيت بِنْبن[٨]

فى معبدك فى «أخيتاتون» مكان الصدق (ماعت)

الحائز لرضاك.

فيه يقدم لك الطعام والمئونة،

ويؤدى لك ابنك الطاهر احتفالاتك السارة.

يا «آتون» الحى فى مواكبه البهجة،

كل ما خلقته يطرب أمامك،

ويفرح ابنك الجليل وقلبه فى حبور.

آه يا «آتون» الحى المولود كل يوم فى السماء.

إنه يلد ابنه الجليل «وان رع» (إخناتون):

مثل نفسه دائماً.

ابن «رع» اللابس جماله «نفر خبرو رع وان رع» (إخناتون)

فأنا ابنك الذى تسر به،

والذى يحمل اسمك.

قوتك وبطشك يسكنان فى قلبى،

أنت يا «آتون» العائش على الدوام...

لقد خلقت السماء العليا لتشرق فيها،

لكى تشاهد كل ما صنعته

عندما كنت لا تزال وحيداً (لا شىء غيرك)

آلاف الألوف من الأنفس موجودة فيك لتحفظها حية،

لأن مشاهدة أشعتك[٩] هو نفس الحياة فى المعاطس.

وجميع الأزهار تحيا وكل ما تنبت الأرض

يصير نامياً لأنك تشرق.

فهى نشوى أمامك،

وجميع الماشية تطفر على أقدامها،

والطيور تطير فى المستنقع من الفرح،

وأجنحتها التى كانت مطوية تنتشر،

مرفوعة لآتون الحى تعبداً.

أنت يا خالق...[١٠]

ففى هذه الأناشيد نرى قوة عالمية ملهمة لم توجد من قبل، لا فى الفكر المصرى القديم ولا فى فكر أية مملكة أخرى. فهى تشمل فى مداها العالم كله. ويقول الملك إن الاعتراف بسيادة إله الشمس العالمية كان هو كذلك أمر عالمى، وإن جميع البشر يعترفون بسلطانه، وكذلك قال الملك عنهم فى لوحة الحدود العظيمة:

«إن آتون» خلقهم (لنفسه هو)

فجميع الأراضى وأهل بحر إيجة يحملون

ضرائبهم وجزيتهم فوق ظهورهم إلى الذى

أوجد حياتهم والذى بأشعته تحيا البشر

وتستنشق الهواء».

فمن الواضح أن «إخناتون» كان يريد بذلك دينًا عالميًا، يحاول أن يحله محل القومية المصرية التى سبقته، وسارت عليها البلاد مدة عشرين قرنا مضت.

وبجانب تلك القوة العالمية، نجد كذلك أن «إخناتون» كان متأثرًا تأثرًا عميقا بأزلية إلهه. وكان الملك نفسه يتقبل ـ بسكينة واطمئنان ـ أنه نفسه مصيره للفناء، فنراه فى باكورة حكمه فى «تل العمارنة» يعلن التعليمات الدقيقة الخاصة بدفنه فيما بعد الموت، ويسجلها باستمرار فوق اللوحات التى أقامها على الحدود المصرية، ولكنه مع ذلك كان يعتمد على علاقته الوثيقة بآتون ليضمن له شيئًا من خلود إله الشمس، ومن أجل ذلك كان يحتوى لقبه الرسمى دائمًا ـ بعد ذكر اسمه ـ على النعت الآتى: «ذو الحياة الطويلة»

على إنه فى بداية كل شىء قد برأ «آتون» من الوحدة الأزلية ـ أى أنه الخالق لكينونة نفسه ـ إذ نجد فى إحدى لوحات [11] حدود «تل العمارنة» العظيمة أن الملك يسميه هكذا:

«سورى المكون من مليون ذراع.

ومذكرى بالأبدية

وحجتى فى إدراك الأشياء الأبدية

وهو الذى سوى نفسه بنفسه بيده هو

والذى لا يعرفه صانع».

ونجد أن الأناشيد تبدى انسجامًا مع هذه الفكرة وتميل إلى تزويد تلك الحقيقة القائلة:

«بأن خلق العالم الذى يلى ذلك قد حدث

حينما كان الإله لا يزال وحيدًا (لاشىء غيره)».

وتكاد الكلمات: «حينما كنت لا تزال وحيداً (لاشىء غيرك)» تكون نداء يردد فى تلك الأناشيد.

وهو الخالق العالمى الذى ذرأ كل أجناس البشر وميز بعضهم عن بعض فى لغاتهم وألوان جلودهم، ولا تزال قوته المنشئة مستمرة تأمر بالخروج من العدم إلى الحياة حتى من البيضة الجامدة.

ولم يظهر عجب الملك من قوة إله الشمس المانحة الحياة بشكل بارز فى أى مكان آخر أكثر مما نجده بسذاجة فى تعبيره عن تلك المعجزة، التى تتمثل فى أنه داخل لحاء بيضة الذى يسميه الملك «حجر البيضة» ـ أى أنه فى هذا الحجر الذى لا حياة فيه ـ تجيب أصوات الحياة نداء أمر «آتون» فيخرج مخلوق حى بعد أن أنعشه النفس الذى يمنحه إياه (ذلك الإله).

وتلك القوة المانحة الحياة هى مصدر الحياة والزاد الدائم، والواسطة المباشرة لها هى أشعة الشمس التى تجلب النور والحرارة إلى الناس. وهذا الإدراك المدهش لقوة الشمس بصفتها منبع كل الحياة فوق الأرض يردد باستمرار دائم، إذ نرى الأناشيد تميل إلى الإمعان فى ذكر أن أشعة الشمس قوة عالمية عتيدة على الدوام:

«أنت فى السماء ولكن أشعتك فوق الأرض

أشعتك تنفذ إلى أعماق البحر الأخضر العظيم

أشعتك فوق ابنك المحبوب.

ذلك الذى يجعل بأشعته الإبصار كاملاً

إن مشاهدة أشعتك هى نفس الحياة فى المعاطس

وطفلك (يعنى الملك) الذى ولد من أشعتك

لقد سويته (يعنى الملك) من أشعة نفسك.

أشعتك تحمل مليونا من الأفراح الملكية

وحينما ترسل أشعتك فإن الأرضين

تكون فى فرح

أشعتك تشمل الأرضين وحتى كل ما صنعته

وسواء أكان فى السماء أم فى الأرض فإن كل الأعين تشاهده دائمًا

وهو يملأ (كل الكون) بأشعته

ويجعل كل البشر يعيشون».

كما أن اعتماد مصر فى حياتها على النيل بداهة جعل من المستحيل تجاهل ذلك المنبع الحيوى فى عقيدة الملك «إخناتون»، والواقع إنه لا شيء يكشف لنا بوضوح قيمة عقيدة «إخناتون» وميله إلى الاعتماد على العقل، أكثر من أنه محا بلا تردد طائفة الأساطير والتقاليد التى كانت محترمة والتى كانت تقول بأن النيل هو الإله «أوزير» عدة أزمان. ثم نسب الفيضان فى الحال إلى قوى طبيعية يسيطر عليها ذلك الإله الذى يعبده، وهو الذى خلق - بمثل ذلك الاهتمام - للبلاد الأخرى نيلاً آخر فى السماء.

وقد تجوهل الإله «أوزير» كلية، فلم يذكر قط فى كل الوثائق الإخناتونية، بل ولا فى أى قبر من قبور «تل العمارنة».

بهذه الآراء الأخيرة ينتقل تفكير «إخناتون» إلى ما وراء الإدراك المادى المحض لنشاط الشمس فوق الأرض، ويقدر مبلغ اهتمام «آتون» الأبوى بجميع المخلوقات.

وهذا التفكير هو الذى يرفع من شأن الحركة التى قام بها «إخناتون» إلى حد بعيد فوق كل ما كانت قد وصلت إليه ديانة قدماء المصريين أو ديانات الشرق بأجمعه قبل ذلك الوقت. فقد كان إله الشمس فى نظر «إبور» راعيًا شفيقًا، كما تقدم ذكره فيما سبق، كما كان الناس فى نظر «مريكارع» - كما سبق ذكره أيضًا - قطعانه التى من أجلها صنع الهواء والماء والطعام. ولكننا نجد أن «إخناتون» يذهب إلى أبعد من ذلك، حيث يقول لإله الشمس: «أنت أب وأم لكل ما صنعت». وهذا التعليم هو الذى مهد الطريق لكثير من التطور الذى ظهر فى الديانة فيما بعد حتى إلى عصرنا الحالى.

فكان جميع العالم الحى، فى نظر تلك الروح الحساسة التى كانت تدب فى نفس ذلك الخيالى المصرى، يملؤه شعور قوى بوجود «آتون» مع التقدير لشفقته الأبوية. فمستنقعات السوسن، بأزهارها النشوانة التى تينع بإشعاع «آتون» الأخاذ، وطيورها التى تنشر أجنحتها تعبدًا «لآتون» الحى، والماشية التى تطفر فرحة فى ضوء الشمس، والسمك الذى يثب فى النهر مرحبًا بالنور العالمى الذى تنفذ أشعته» حتى فى وسط البحر الأخضر، «كل أولئك تكشف لنا عن مدى إدراك «إخناتون» لذلك الوجود العالمى للإله وسيطرته على الطبيعة، وعن إدراك باطنى لذلك الوجود عند كل المخلوقات.

وهذا التقدير لتجلى قوة اللّٰه فى العالم الحسى هو مثل الذى نجده بعد ذلك العهد بنحو ٧٠٠ أو ٨٠٠ سنة فى المزامير العبرية، ومثل ما جاء على لسان شعراء الطبيعة بيننا منذ عصره «وردزورث»[١٢](wordsworth). ومن الظاهر أن أعمق المصادر لقوة تلك الثورة العظيمة ـ بالرغم من أصلها السياسى ـ يرجع إلى اعتمادها على التأمل فى عالم الطبيعة، كما نراه فى الحض على «تأمل سوسن الحقول». ولأن «إخناتون» كان رجلا مأخوذا بالإله، فقد انقاد عقله بحساسية وإدراك مدهشين إلى ما حوله من المظاهر المرئية الدالة على وجود الإله. فقد كان مأخوذًا بجمال النور الأبدى العالمى، ولذلك نرى أشعته تغمره فى كل أثر صور عليه من آثاره التى بقيت لنا. واقتصر فى ذلك على شخصه وعلى الملكة وأولاده، لأنه كان يدعى لنفسه علاقة مع إلهه لا يشاركه فيها أحد. فهو الذى يدعو ربه بقوله:

«ليت عينى تقران بمشاهدته يوميًا

«حينما يشرق فى بيت «آتون» هذا ويملؤه

هو بأشعته هذه ـ هذا الجميل فى حبه ـ

ويرسلها علىّ فى حياة راضية أبد الآبدين».

ويمرح الملك فى ذلك النور، الذى وحّده أكثر من مرة مع الحب، كما هو الحال هنا، أو مع الجمال باعتباره البرهان الظاهر الدال على وجود الإله، وذلك بنشوة

قل أن يكون لها نظير، وفرح يبلغ حد الوله كالذى كانت تشعر به روح كروح «رَسْكِن»[١٢] عندما كان يمعن النظر فى النور، فقد وصف «رسكن» النور وهو يسطع فوق المناظر الطبيعية الجميلة، قال:

«النور المتنفس الحى المبتهج

الذى يشعر ويتسلم ويفرح ويعمل

ويختار شيئًا وينبذ آخر

ويبحث ويجد ويفقد ثانية

متنقلاً من صخرة إلى صخرة

ومن ورقة شجر إلى ورقة

ومن موجة إلى موجة

متوهجًا أو بارقًا أو متلألئًا

بحسب ما يصيب أو (كما فى أقدس مظاهره) يكون ممتصّا ساترًا لكل

شىء فى كمال سكونه العميق،

وعندئذ نراه يفقد ثانية فى حيرة وشك وظلمة

أو يمحى ويختفى واقعًا فى حبائل الضباب الجارف

أو يذوب فى الهواء مكتئبًا،

ولكنه ـ سواء أكان متأججًا

أم خافتا، لامعا أم ساكنًا ـ

هو النور الحى، الذى يتنفس فى أعمق سكونه.

وهو النور الذى ينام ولكنه لا يموت أبدًا»

فنجد فى هذا الوصف الافتتان الحديث ببهجة النور، وهو الإنجيل الحقيقى لجمال النور، الذى كان أول مبشر به هو ذلك الخيالى الوحيد «إخناتون» الذى

عاش فى خلال القرن الرابع عشر ق. م.، وقد كان من الجائز كذلك فى نظر «إخناتون» أن النور ينام، كما يتضح من قوله: «يذهب خالق الأرض ليستريح فى أفقه»، غير أنه كان (فى نظره كما كان فى نظر «رسكن»)[14] «ينام ولكن لا يموت قط».

وقد نجح الأستاذ «زيته» فى ترجمة فقرة مهشمة فى الأنشودة الكبرى فأظهر معناها بأنه الرغم من أن الظلمة قد خيمت والناس قد نامت فإن «إخناتون» يمكنه أن يشعر به، حيث يقول «ومع ذلك فإنك لا تزال فى قلبى».

فتلك الناحية من حركة « إخناتون» تدل إذًا على أنها إنجيل الجمال والرأفة فى نظام الطبيعة، وإدراك لرسالة الطبيعة إلى روح الإنسان، مما جعلها تعتبر أقدم النهضات التى نسميها «الرجوع إلى الطبيعة»، وهى التى ظهرت فى إنتاج أمثال الفنانين «ملت»(Millet)و «بربيزون»(Barbizon)، أو فى آراء «وردزورث»(Words-worth) وأخلافه. فالرسامون فى ذلك الوقت كانوا يصورون حياة المستنقعات البرية بروح جديدة تختلف عن روح السرور الهادئ الذى صور به رسامو «مصاطب الأهرام»، تلك الصور الهادئة التى تمثل نزهات الأشراف فى حقول البردى، مما تتحلى به جدران مزارات قبورهم بالجبانة المنفية الكائنة «بسقارة».

وأما الصور التى رسمت فوق الجص وتزين رقعة قاعة قصر «إخناتون» ذات الأعمدة «بتل العمارنة»، فمفعمة بروح مرح جديدة تسود الحياة، وتشعرنا عند رؤيتها بشىء من العاطفة القوية التى أنارت يد الفنان وهو يرى بعينى ذهنه الثور الوحشى يقفز فى أدغال البردى ضاربا بِرأسه نحو الطيور الهلوعة المشقشقة فوق يراع المستنقع كأنها تؤنب ذلك الطفيلى الفظ الذى ينزل الضرر بأوكارها.

ولكن مما يؤسفنا أشد الأسف أن تلك النقوش الفاخرة التى كانت تتألق فيها الحياة والحركة؛ والتى طالما تمتعت بهما أعين الناظرين فى عصرنا الحالى « بتل العمارنة»، قد دمرت إلى الأبد بأيدى أولئك المخربين الأحداث من أهالى القرى المجاورة لبلد «تل العمارنة».

وهذه الروح الجديدة ـ فى عصر إخناتون ـ التى استمدت إلهامها من جمال الطبيعة وفيضها، كانت كذلك ذات حساسية شديدة لحقيقة الحياة الإنسانية والعلاقات البشرية، دون تأثر بشىء من العرف أو التقاليد، إذ مثلت بدون تكلف أو تحفظ علاقات «إخناتون» الطبعية البهيجة بأسرته، وظهر ذلك حتى فوق الآثار العامة. فقد عثر على تمثال صغير غير تام الصنع فى مصنع أحد المثالين الملكيين «بتل العمارنة»، لم يقتصر فيه صانعه على تمثيل الملك جالسًا وابنته الصغيرة فوق حجره وهو يضمها كما يضم الأب الملكى أميرة صغيرة، بل مثل الفرعون وهو يقبل ابنته الصغيرة كما يفعل ذلك أى والد معتاد. وليس من الصعب على الإنسان أن يتصور الحنق والهلع اللذين أثارتهما مثل تلك الصورة الملكية فى شعور طائفة المحافظين على التقاليد فى عصر «إخناتون»، وهم أولئك الأشراف من رجال التقاليد فى البلاط الملكى الذين يرون وجوب تصويرالفرعون كما جرى تصويره من ألفى سنة فى هيئة حضرة سامية جالسة فى جلال جامد، أى فى صورة شخصية رزينة مقدسة لا يشوبها أى مظهر من مظاهر المشاعر البشرية أو جهات الضعف الإنسانية. وقد بقى محفوظًا لنا للآن ذلك الكرسى الجميل الذى جىء به من قصر «تل العمارنة» وأودع فى مقبرة «توت عنخ آمون»، وهو مزين بمنظر يظهر فيه الملك الشاب جالسًا فى استرخاء بحالة تدل على التبسط وعدم التكلف، إذ نشاهد إحدى ذراعيه ملقى بها فى استهتار فوق ظهر كرسيه، وأمامه الملكة الشابة الجميلة واقفة وفى يدها إناء صغير من العطور تصب منه برشاقة أنيقة بضع نقط من الطيب فوق ملابس زوجها الملك. ونجد هاهنا لأول مرة فى تاريخ الفن منظرًا موضوعه العلاقات الإنسانية، اتخذ فيه الفن المعبِّر الحياة الإنسانية موضعًا لبحثه. وهذان مثلان فقط من بين الأمثلة العديدة التى يمكن ذكرها للاستدلال على شخصية «إخناتون» القوية واستعداده لطرح قيود التقاليد بغير أدنى تردد فى سبيل تأسيس عالم من الأشياء على حقيقتها الفطرية السليمة.

ولذلك نرى من المهم أن نلاحظ أن «إخناتون» كان رسولاً لكل من عالمى الطبيعة والحياة الإنسانية فكان مثله فى ذلك مثل «عيسى» استقى دروسه من

سوسن الحقل وطيور الهواء وسحب السماء من جهة، ومن المجتمع الإنسانى الذى يحيط به من جهة أخرى، كما يتمثل فى مثل قصة «الابن المبذر»[١٥]

أو«الطيب السامرى»[١٦] أو «المرأة التى أضاعت قطعة نقودها»[١٧]. وعلى ذلك النمط استقى ذلك الرسول المصرى القديم الثائر تعاليمه من التأمل فى مشاهد عالمى الطبيعة والحياة الإنسانية معا.

ومع أن الفن المعبر عن تلك الحركة الثورية التى كان زمامها فى يد «إخناتون» قد وجد مرتعًا جديدًا فى حياة الإنسانية، فقد كان هناك شىء كثير لم يكن فى مقدور «إخناتون» أن يتجاهله من التجارب المصرية عن المجتمع البشرى. فقد قبل «إخناتون» عن طيب خاطر المذهب الشمسى الموروث الذى ينطوى على نظام خلقى عظيم، وإذا كنا قد خصصنا فى هذا المختصر التاريخى للأخلاق عند قدماء المصريين جزءًا لا بأس به عن «عقيدة التوحيد» الإخناتونية الثورية، فما ذلك إلا لأن تلك الحركة التوحيدية هى ذروة التقدير القديم للنظام الخلقى الذى نودى به على لسان المفكرين المصريين القدماء الذى عاشوا فى عهد الأهرام وأسسوا مملكة عظيمة من القيم الخلقية العالمية التى تتمثل فى تلك الكلمة الشاملة الجامعة «ماعت» (العدالة) التى أوجدها إله الشمس فى «هليوبوليس». وقد بنى هذا التوحيد الجديد على أسس ثلاثة:

أولها: كما رأينا كان سياسًا، حتى أن اسم إله الشمس الجديد كان يوضع فى الطغراء الفرعونى باعتباره شعارًا ملكيا مزدوجا.

والثانى: اعتبار سلطان إله الشمس وسيطرته العالمية قوة طبعية ملموسة حاضرة فى كل مكان تتمثل فى حرارة الشمس ونورها.

والثالث: كان التطور المنطقى لمذهب «هليوبوليس» الخاص بالنظام الخلقى، الذى كان أقدم من عهد «إخناتون» بنحو ألفى سنة.

بقى علينا الآن أن نفحص آخر هذه الأسس الرئيسية التى قام عليها التوحيد عند «إخناتون». على أننا عند هذه النقطة نشعر بقلة ما لدينا من المصادر المدونة

وضآلتها، وإن كانت المصادر النادرة التى بقيت لنا من ذلك العصر تكشف لنا عن مدى التقدم فى تفكير ذلك الملك الشاب خلال نصف الجيل الذى حكمه.

ولا يمكن الباحث أن يظن أن حركة نامية ذات تقدم مثل الحركة التى قام بها «إخناتون» لم تكن قد أنتجت أبحاثًا دونت فيها تعاليمه، بل إن لدينا من الدلائل ما يثبت وجود مثل تلك الأبحاث. ففى مقابر «تل العمارنة» التى ولع أصحابها من أشراف رجال البلاط الإخناتونى بأن يرسموا فوق جدرانها ما كانت عليه علاقاتهم مع مليكهم، نجد أنهم كانوا يشيرون باستمرار إلى ذلك المذهب الجديد، ولم يكن لديهم للتعبير عنه إلا كلمة واحدة وهى كلمة «التعليم»، وهذا التعليم منسوب للملك وحده. ولا يمكن أن يتسرب إلينا شك فى أن ذلك التعليم هو الاسم العام للبيان الرسمى لمذهب «إخناتون» الذى كتب طبعًا فى رسالة من نوع ما على أوراق البردى.

على إنه بعد سقوط «إخناتون» لم يترك أعداؤه حجرًا واحدًا لم يقلبوه لإزالة كل أثر باق يدل على حكمه الممقوت عندهم، وقد دمروا بطبيعة الحال مخطوطات الملك هذه المدونة على البردى. وأما معلوماتنا عن تلك الحركة من ناحية العقائد الدينية فهى مستقاة بأجمعها من نتف وقطع وقعت لنا عرضًا، وبخاصة تلك الأناشيد التى زين بها أشراف رجاله جدران مقابرهم.

وحينما نقرأ أنشودة «آتون» العظمى لأول مرة يدهشنا أن مثل هذه الأنشودة، التى تعبر عن الوحى الدينى، لا تشتمل إلا على إشارات قليلة عن موضوع الأخلاق والسلوك الإنسانى، وهو الذى كان قد احتل مكانه بارزة - كما نعلم - بين عناصر الديانة الشمسية الهليوبوليسية التى تضرب إليها حركة «إخناتون» الدينية بوشائج قوية، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن القوة الرئيسية التى حركت روح «إخناتون» كانت العاطفة.

والواقع أن ثورة «إخناتون» كانت فى روحها أولاً وقبل كل شىء عاطفية بدرجة قوية، نجد هذه الحقيقة ظاهرة جلية فى الأناشيد، كما نجدها كذلك بارزة جدًا فى الفن. فعندما يرسم لنا أحد فنانى «تل العمارنة» صورة «إخناتون» أو أحد

رعاياه وهو يتعبد، رافعا ذراعيه تضرعًا إلى إله الشمس، فإن وسائله العاطفية فى مثل تينك الذراعين المرفوعتين تبلغ فى شدة جاذبيتها روعة ذراعى «إلونورادوز»[١٨] (Eleonora Duse) حينما تبسطهما باستعطاف لاستقبال محبوبها «أرماندو» (Armando). فالذى كان يعبده «إخناتون» هو جمال إله الشمس وفيضه. وهذه العاطفة هى التى نقلتها إلينا أناشيد «تل العمارنة»، فهى لذلك لا تحتوى على لاهوت أو خلقيات اجتماعية. وبالرغم من ذلك فإنه من الواضح تمامًا أن «إخناتون» قد قبل قبولا شاملاً اعتناق الخلقيات الهليوبولسية، التى كانت قد بلغت الذروة فى سموها، بل إنه فى الواقع أبرز النظام الخلقى للتعاليم الشمسية القديمة فى شكل أوضح مما كان عليه فى أى وقت كان قبل حكم «إخناتون».

على أن علاقة حركة «إخناتون» هذه الوثيقة باللاهوت الهليوبوليسى ظاهرة فى كل نواحيها. فقد كان توحيد السلالة الملكية بسلالة إله الشمس على يد كهنة «هليوبوليس» فى متون الأهرام، وما ترتب عليه من اعتبار كل فرعون ابنا لإله الشمس، قد نقل إلى الإله «رع» كما ذكرنا من قبل صفات الحكم الكريمة التى تشبع بها فراعنة العهد الإقطاعى. ففى ذلك الحين كان الفرعون قد صار «الراعى الطيب» أو «راعى الماشية الطيب». وهذه الصورة التى تنطق بعطف الملك الأبوى وحمايته لرعاياه قد نقلت إلى «رع» وبذلك اكتسب «رع» لنفسه، بشكل مدهش، صفات إنسانية وعطفًا أبويًا نتيجة لذلك التطور الذى حدث فى تصوير الملكية فى العهد الإقطاعى.

وبذلك كانت تلك القوى الاجتماعية التى أوجدت هذا المثل الأعلى للملكية، هى المؤثرات النهائية التى ـ بمعونة الملكية ـ قد زادت من سلطان «رع»، وأكسبته صبغة إنسانية، بعد أن كان مركزه قبل ذلك سياسيًا لا يخرج عن كونه فكرة آلية مهملة. فكأن هذه الصفة الإنسانية التى كسبها «رع» كانت قريبة من التى كان ينشدها «أوزير» نفسه.

وكانت التعاليم الإخناتونية منجذبة بكليتها نحو هذا الميل الذى ينعطف إليه المذهب الشمسى، إذ قد عثرنا على أنشودة للشمس من عهد والد «إخناتون» سمى فيها إله الشمس «الراعى الشجاع الذى يرعى قطعانه»، وهذه إشارة تربط

بوضوح مذهب «آتون» بالحركة الاجتماعية الخلقية التى ظهرت فى العهد الإقطاعى.

وحينما نعيد إلى ذاكرتنا الآن الأصل الهليوبوليسى لماعت (الحق، الصدق، العدالة) التى صارت تمثل فى إلهة، هى بنت إله الشمس، يجب أن نلاحظ ما جاء فى كتاب الموتى من أن جماعة الآلهة الذين يجلسون فى قاعة «ماعت» لا يوجد بأجسامهم إثم ولا بهتان وأنهم يعيشون على الصدق «ماعت»، وهناك يؤكد الميت براءته لأولئك الآلهة بقوله: «إنى أعيش على الصدق وأتزود من صدق (أو عدالة) قلبى».

فهذا المذهب الشمسى الذى كان يشد أزره أولئك الآلهة فى «هليوبوليس» قد اعتنقه الآن «إخناتون» بجوارحه، حتى أنه كان على الدوام يذيل اسمه الملكى الرسمى فى كل آثار الدولة العظيمة بهذه الكلمات: «العائش على الصدق (ماعت)»، وهذا النعت المهم الذى ألحق باسم «إخناتون» جعله الممثل الرسمى والمعاضد للنظام الخلقى القومى العظيم، الذى تصوره كهنة المذهب الشمسى قديما فى «هليوبوليس» فى عهد يرجع تاريخه إلى عصر الأهرام، وألبسه المفكرون الاجتماعيون والرسل فى العهد الإقطاعى المصرى أهمية خلقية فاقت ما كان عليه فى أى زمن من قبل. فإذا أعدنا إلى ذاكرتنا ما كان يدعيه «إخناتون» من التسلط على سائر العالم بلا برهان، ظهر لنا أن ما كان يرمى إليه من وراء إضافته تلك الكلمات إلى اسمه الملكى إنما هو امتداد سلطان النظام الخلقى القديم القومى حتى يصير نظامًا مسيطرًا على سائر العالم الدولى العظيم الذى كان هو سيده إذ ذاك..

وبذلك نجد أن سيطرة مملكة الشمس القديمة للقيم الخلقية، وقد امتدت إلى حدودها العالمية المنطقية، وأن «التوحيد» الذى كان منطويًا فى ثنايا تعليم كهنة هليوبوليس، قد نطق بهما . «إخناتون» نطقًا لا إبهام فيه ولا خفاء».

وتمشيًا مع هذه الحقيقة قد سمى «إخناتون» عاصمة ملكه الجديدة فى تل العمارنة «مقر الصدق (ماعت)»، كما جاء فى الأنشودة القصيرة. وقد كان أتباعه

على علم تام باعتقاده المتين فى «ماعت». ولذلك كان رجال البلاط الملكى يعظمون «الصدق» كثيراً، إذ يقول أحد أعلام أعوان الملك، وهو «آى» الذى قام بخلع الملك «توت عنخ آمون» فيما بعد عن عرشه:

«إنه (يعنى الملك) أحل الصدق فى جسمى

وإن الذى أمقته هو الكذب

وإنى أعلم أن «وان رع» (يعنى إخناتون) يمرح

فيه (يعنى الصدق).»

ثم يؤكد هذا الرجل نفسه أن إله الشمس: «قلبه مرتاح للصدق وأن الذى يلعنه هو الكذب».

كما يذكر لنا موظف آخر فوق جدران قبره فى «تل العمارنة»:

«سأتكلم لجلالته (لأنى) أعلم أنه يعيش فيه (أى فى الصدق)

وإنى لا أفعل ما يكرهه جلالته لأن الذى أمقته

هو حلول الكذب فى جسمى

ولقد قررت الصدق لجلالته لأنى أعرف إنه يعيش فيه.

إنك «رع» والد الصدق....

وإنى لم آخذ رشوة للكذب

كما أنى لم أقص الصدق لأجل الرجل العسوف».

ويجب أن نذكر هنا مرة ثانية ـ كدليل مهم على تفانى «إخناتون» فى الصدق ـ إنه لم يقصر فضيلة الصدق على السلوك الشخصى فحسب، بل أدخله كذلك فى ميدان الفن، حيث صارت له فيه نتائج ذات آثار بارزة فى التاريخ.

وعلى ذلك كان «رع» لا يزال فى ذلك الانقلاب الذى قام به «إخناتون» المنشئ المعاضد للصدق أو الحق (ماعت)، أى لذلك النظام الخلقى والإدارى كما كان الحال منذ أكثر من ألفى سنة مضت. وإذا كنا لم نسمع عن حساب الاخرة فى

مقابر «تل العمارنة»، فمن الواضح أن ذلك إنما يرجع إلى نبذ سحابة الآلهة وأنصاف الآلهة وعلى رأسهم «أوزير»، ممن كانوا يؤلفون هيئة المحاكمة فى حساب الآخرة بشكلها الموضح فى كتاب الموتى. فأولئك الآلهة قد بادوا الآن، واختفى ـ على ما يظهر ـ منظر المحاكمة التمثيلى باختفائهم، وإن كان من الواضح أن المستلزمات الخلقية فى المذهب الشمسى ـ الذى نشأت فيه فكرة المحاكمة فى الآخرة وانتشرت ـ لم تنته المطالبة بها فى التعاليم الإخناتونية ولم تفتر.

وكذلك الحملة التى قام بها الكهنة على عالم الأخلاق بالعوامل السحرية الآلية لضمان براءة الميت فيما بعد الموت، فقد أقصاها «إخناتون» بداهة عن تعاليمه، فصارت الجعل القلبية (الجعارين)، التى كانت مألوفة من قبل، لا ينقش فوقها التعاويذ السحرية لإخماد وحى «الضمير» عند المتهم، بل صارت آنئذ ينقش فوقها أدعية بسيطة موجهة إلى «آتون» طلبًا لحياة طويلة وعطف وطعام. وما ذكرناه عن «الجعل» (الجعارين) ينطبق تمامً على الدمى (يوشبتى)، التى هى تماثيل صغيرة كان الغرض منها القيام بالأعمال بدلاً من الميت إذا طلب لذلك فيما بعد الموت فى الحياة الآخرة.

وإذا فكرنا مليا فيما ذكر نجد أن أمثال تلك التغييرات الأساسية تبسط أمامنا عظيم المد الجارف، من الفكر والعادات والتقاليد الموروثة عن الأقدمين، الذى تحول عن مجراه على يد ذلك الملك الشاب الذى كان يقود ذلك الانقلاب، وإننا إنما نبدأ فى تقدير قوة شخصية «إخناتون» العظيمة عندما ندرك هذه الناحية من حركته الدينية إدراكا واضحًا. فقد كانت الوثائق الدينية قبل عهده تنسب عادة إلى الملوك القدامى والحكماء الأولين، وكانت قوة أية عقيدة ترتكز بوجه خاص على ما يعزى إليها من الأقدمية الساحقة وعلى قدسية العادة العريقة فى القدم. وقد كان معظم تاريخ العالم حتى عهد «إخناتون» عبارة عن سير الحوادث بمجرد سطوة التقليد الذى كان سلطانه لا يعارض، وليس لدينا استثناء بارز فى هذا المجال إلا ذلك الطبيب النطاسى والمهندس العظيم «إمحتب» الذى أدخل على فن العمارة البناء بالأحجار فأقام أول مبنى من الحجر، وهو ذلك القبر

الهرمى الشكل الذى يرجع تاريخه إلى القرن الثلاثين قبل الميلاد. وفيما عدا هذه الشخصية من المصريين الأقدمين لم يكن سوى نقط من الماء فى تيار الحياة الجارف العظيم.

فإذا استثنينا «إمحتب» هذا كان «إخناتون» أول شخصية مستقلة ظهرت فى التاريخ، فإنه قد أحرز مكانته السامية بنفاذ بصيرته وحسن تدبيره وتفكيره العقلى، ثم نهض بنفسه علانية وقام فى وجه كل التقاليد ونبذها ظهريًا. ولم يلجأ فى توطيد مذهبه الجديد إلى أية وسيلة من وسائل الأساطير والروايات العتيقة السائدة عن سلطان الآلهة، ولا إلى شىء من العادات القديمة التى اكتسبت قداسة بمر الدهور، بل اعتمد فقط على البراهين العتيدة الظاهرة الدالة بنفسها على سلطان إله وهى أدلة ظاهرة للعيان أمام الجميع.

وأما من جهة التقاليد، فإنه اجتهد فى القضاء عليها أينما وجد فى السجلات التى يمكن الوصول إليها أى مظهر مادى للآلهة الأخرى. على أن هذه السياسة، التى كان قوامها الهدم إلى هذا الحد، كان لابد حتمًا من أن تصادف معارضة قوية فتاكة. وسنفحص الآن بعض عوامل تلك المعارضة.

هوامش الفصل الخامس عشر:

(١) يشير بذلك إلى نظرية «نيوتون» وجاذبية الأرض.

(٢) أمنحتب الثالث حكم من ١٤١١ ـ ١٣٧٥ ق. م .

(٣) أنظر الشكل ١٦.

(٤) يلاحظ بعض التغييرات فى ترجمة هذه الأنشودة عند مقارنتها بالترجمة التى دونها المؤلف فى كتابه تاريخ مصر، ويرجع السبب فى ذلك لقراءة جديدة لبضع تغييرات فى نسخة «ديفز» التى راجعها مراجعة دقيقة(Rock Tombs of ElAmarna, vol. vl, Pl. Xxvll, London.) هذا إلى بحوث جديدة عملت فى هذه الوثيقة. فالترجمة التى عملها الأستاذ «زيته» قد أضافت بعض تراجم جديدة لقطع قد أخذت بالكثير منها. انظر- H. Schafer, Amarna in Rel und Kunst, P. 63 70, (Leipig 1931) على أن تقسيم القصيدة إلى مقطوعات لا يوجد فى الأصل المصرى ولكنا اتبعناه هنا للإيضاح، كما وضعنا عناوين للمقطوعات لمساعدة القارئ الحديث.

(٥) يوجد فى الأصل المصرى جناس بين كلمة «رع» وبين كلمة «نهاية».

(٦) وفى القرآن الكريم: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ (سورة ق ـ الآية ٣٨).

(٧) لقد جمعت الأنشودة القصيرة فى متن مؤلف من كل القراءات فى الجزء الثانى من كتاب المؤلف Hymnis in Solem الذى لم ينشر بعد. وقد أضيف إلى ذلك المنسوخات التى نُقلتها بنفسى. وكذلك قد جمع «دافيز» متنا مُركباً من نقوش خمس مقابر فى كتابة (Amarna, vol. iv, Pls XXXII - XXXII) والترجمة التى أوردناها هنا مستقاة من كلا المصدرين.

(٨) كان البنبن حجرا هرمى الشكل مثل الهرم الصغير الذى يتوج المسلة. وقد كان هذا الحجر يعتبر فى غاية القداسة. وكان فى الأصل يحتل مكانة ممتازة فى المعبد أو فى بيت معبد الشمس الذى فى «هليوبوليس». وهذه الفقرة تدل على أن «إخناتون» قد أدخل فى معبد «تل العمارنة» بنبن مماثلاً للذى كان فى «عين شمس» (هليوبوليس).

(٩) وفى رواية أخرى «أن النفس يدخل فى المعاطس عندما تظهر نفسك لهم».

(١٠) بقية هذا السطر قد فقدت. ولم يصل إلى هذا الحد من خمسة المتون لهذه الأنشودة إلا متن واحد وتجده كذلك قد انقطع عند هذه النقطة.

(١١) هذه لوحات أقامها «إخناتون» على حدود مدينته «أخيتاتون» (تل العمارنة).

(١٢) «وردزورث» شاعر إنجليزى (١٧٧٠ ـ ١٨٥٠) وهو مشهور بأشعاره فى وصف الطبيعة.

(١٣) هو «جون رسكن» الكاتب الإنجليزى الشهير (١٨١٩ ـ ١٩٠٠) ويمتاز بنقده وطول باعه فى الكتابة عن الفن.

(١٤) انظر: .Ruskin, Modern Painters, Vol. I, P. 250 (New York1873)

(١٥) ذكرت قصة الابن المبذر فى إنجيل لوقا (الإصحاح ١٥ ـ ١١ ـ ٣٢) وتتلخص فى أن رجلاً غنيًا كان له ولدان أحدهما مستقيم الحال والثانى جامح، وقد استولى الثانى على ما يستحقه من المال وترك بيت والده ولم يلبث أن أضاع كل ما يملكه فى الفساد ولم يكن لديه فى النهاية ما يقتات به، غير أنه قدم وعاد إلى بيت والده وطلب إليه أن يكون خادمًا عنده لأنه لا يستحق أن يكون ابنه، ولكن الأب بدوره فرح لندم ولده وعودته إلى بيه فأقام له وليمة فرحًا به. أما الابن الطيب فإنه غضب من تصرف والده ولكن والده أجابه قائلاً يابنى إنك معى وكل ما أملك هو لك ومن الصواب أن تفرح وتسر لأن أخاك هذا كان ميتاً وعاد إلى الحياة ثانية وكان قد فقد ثم وجد.

(١٦) أما السامرى الطيب فقد ورد ذكره كذلك فى إنجيل لوقا (إصحاح ١٠ ـ ٣٠ ـ ٣٥) وذلك أن رجلاً كان مسافراً من «أورشليم» إلى «أريحا» فهاجمه اللصوص وسرقوا متاعه وتركوه مشرفًا على الموت على قارعة الطريق. وقد مر بالرجل الجريح قسيس ولكنه لم يساعده. ومر به كذلك «لاوى» ولم يأخذ بيده. ولكن مر به فى النهاية سامرى فأشفق عليه عندما رآه، وضمد جراحه وحمله على حماره إلى أن أتى به إلى فندق واعتنى به، وفى الغد أعطى صاحب الفندق دينارين وقال له اعتن به ومهما أنفقت أكثر فعند رجوعى أوفيك حقك.

(١٧) وقصة المرأة التى أضاعت قطعة نقودها كذلك مذكورة فى إنجيل لوقا (١٥ ـ ٨ ـ ٩) وذلك أن امرأة كانت تملك عشر قطع من الفضة ففقدت واحدة منها. وبدلا من إهمالها فإنها أضاءت شمعة وكنست كل البيت بمكنستها وبحثت بعناية حتى عثرت على قطعة النقود وعندئذ نادت كل أصدقائها وجيرانها قائلة لهم: افرحوا معى لأنى عثرت على قطعة النقود التى كنت قد فقدتها.

(١٨) «إلونورا دوز» ممثلة ذائعة الصيت فى الروايات المحزنة، وهى فرنسية الأصل عاشت فى أواخر القرن التاسع عشر م. وقد كانت مشهورة على وجه خاص بعمق عاطفتها والإبداع الذى كانت تمثل به أدوارها العاطفية. أما «أرماندو» فهو باطل فى إحدى الروايات التى جعلت «إلونورا دوز» ذات شهرة عالمية.

الفصل السادس عشر

سقوط «إخناتون»

عصر انتشار التنسك الشخصى

الكهانة وخاتمتها

قامت حركة «إخناتون» بين شعب عظيم ما لبث أن وقف مجرى حياته فجأة، وحول إلى اتجاه غريب عنه بالرغم من قوة اندفاعه التى كانت لا تكاد تقاوم. فأصبحت أماكنه المطهرة وقد عبث بها، ومزاراته المقدسة المحاطة بذكريات آلاف السنين وقد أوصدت وطردت كهنتها، كما صودرت الأموال المربوطة على القرابين والمعابد، ومحى ذلك النظام العتيق جملة واحدة. ففى كل مكان كانت طوائف بأجمعها تسير مدفوعة بالغرائز التى تجرى فى أجسامهم منذ قرون لا يحصيها العد وفق عادات وأخلاق موروثة، فإذا ذهبوا إلى أماكنهم المقدسة وجدوها كأن لم تغنِ بالأمس، وهناك يقفون ذاهلى العقول أمام تلك المعابد القديمة الموصدة الأبواب. وتلك القاعات المبجلة عند القوم منذ الطفولة الأولى، والتى كانت فيما مضى تزخر بأفراح الجماهير أيام الأعياد المقدسة فى «أسيوط»، قد صارت الآن صامتة خاوية. وفى كل يوم، عندما كانت المواكب الجنازية تعرج على حافة الصحراء وفوق هضبة الجبانة كانت تفاجأ بأن «أوزير» ذلك المعزى والصاحب العظيم والمحامى عن الأموات أمام كل خطر، قد نفى من البلاد ولم يعد فى إمكان أى إنسان أن يذكر اسمه. وحتى فى الأيمان التى كان يعقدها القوم، وهى التى اختلطت بدمائهم مع ألبان أمهاتهم فى الرضاعة، فإنه كان محظورًا عليهم أن تخرج من شفاههم تلك الأسماء التى تكاد تنطق بها ألسنتهم عفوا، فكان لابد

ألا يشتمل اليمين القديم أمام القاضى فى المحكمة إلا على اسم الإله «آتون» فقط. فكان كل ذلك فى نظر القوم كما لو طلب الآن إلى رجل من عصرنا أن يعبد «س» ويحلف باسم «ص».

ولابد أن كثيرًا من الكهنة المتذمرين الذين كانوا يكظمون غيظهم الشديد فى صدورهم، قد مزجوا سخطهم ذلك بسخط طوائف بأسرها من الباعة وأصحاب الحرف الحانقين، كالخبازين الذين لم يعودوا يكسبون عيشهم من بيع «فطائر الشعائر» ـ كما كان قديمًا ـ خلال أيام الأعياد التى كانت تقام فى المعابد، وكالصناع الذين لم يعد فى مقدورهم الآن بيع تعاويذ الآلهة القدامى عند أبواب المعابد، وكالحفارين المرتزقة الذين أصبح ما صنعوه من تماثيل الإله «أوزير» مكدسًا تحت الأتربة المتراكمة فى عدة من المعامل التى صار عاليها سافلها، أو كحجارى الجبانة الذين وجدوا أن ما صنعوه من شواهد القبور المزخرفة بالنقوش الزاهية المنقولة من كتاب الموتى قد استبعد من مدينة الأموات، وكالكتاب الذين كانت لفائفهم البردية المخطوطة المنقولة من كتاب الموتى أيضًا ـ تعد إذ ذاك ـ لعنة لمن يستعملها إذا كانت مملوءة بأسماء الآلهة القدامى، أو إذا كانت تحمل كلمة الإله بصيغة الجمع، وكرجال الكهانة المسرحيين والممثلين الذين صاروا يطردون من تلك الأماكن المقدسة فى الأيام التى اعتادوا فيها أن يمثلوا للشعب تمثيلية «المأساة الأوزيرية»، وكطوائف الحجاج المتذمرين فى«العرابة المدفونة» ممن كانوا يعتزمون الاشتراك فى تلك التمثيلية التى تعبر عن حياة «أوزير» وموته ثم بعثه بعد الموت، وكالمشعوذين الذين حرموا كل أسهم تجارتهم الخاصة بالاحتفالات السحرية التى كانت تستعمل بنجاح منذ أيام أقدم الملوك منذ ألفى سنة، وكالرعاة الذين صاروا لا يجسرون بعد أن يضعوا رغيفًا وإناء من الماء تحت شجرة راجين بذلك الفرار من غضب الإلهة التى تسكن تحت الشجرة والتى كان فى مقدورها أن تنزل المرض بأهل المنزل عند غضبها، وكالفلاحين الذين صاروا يخافون أن ينصبوا تمثالاً ساذجًا «لأوزير» فى الحقل ليطردوا به الشياطين المؤذية المسببة للجدب والقحط، وكالأمهات اللائى يخشين وهن يدللن أطفالهن عند الشفق أن ينطقن بتلك الأسماء المقدسة القديمة وبالصلوات التى تعلمنها فى

طفولتهن ليبعدن عن صغارهن شياطين الظلام الراصدة لاختطافهم. وفى وسط هذه البلاد جميعها، وقد عمتها ظلمة سحب التذمر الخانق، ضرب ذلك الملك الشاب المدهش هو ومن حوله من تلك الطائفة المؤيدة له، سرادق دينه فى رائعة النهار، وفى هدوء لا شعور معه بذلك الظلام الدامس، الذى شمل كل ما يحيط به والذى يزداد فى كل يوم ظلمة منذرة بعظيم الخطر.

فإذا رسمنا حركة «إخناتون» ومن خلفها ذلك التذمر الشعبى الذى سبق وصفه، ثم أضفنا إلى تلك الصورة ما هو أقرب من ذلك خطرًا وهو معارضة الكهانة القديمة السرية، ومعارضة حزب «آمون» الذى لم يكن بعد قد غلب على أمره تمامًا، وطائفة الجنود الأشداء الذين كانوا ساخطين على سياسة الملك السلمية فى آسيا وعدم اهتمامه بإدارة أملاكه الدولية والمحافظة عليها، أدركنا شيئًا عن تلك الشخصية القوية لذلك القائد الأول فى عالم الفكر فى التاريخ. ويعد حكمه أقدم محاولة لسيطرة آراء الحاكم التى لا تحفل بحالة الشعب الذى فرضت عليه تلك الآراء ومدى استعداده لقبولها. وقد عبر عن مثل ذلك «ماثيو أرنولد» (Mathew Arnold) تعبيرًا حسنًا عند تعليقه على الثورة الفرنسية بقوله: «ولكن شدة الولع بالإسراع فى القيام بتطبيق سياسى لكل تلك الآراء الجميلة التى يمليها العقل كان سيىء العاقبة... فالأفكار لا يمكن أن تقدر فوق قيمتها ولا تعشق لذاتها، كما أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش فى حدودها أكثر مما يجب، ولكن إذا نقلت الأفكار فجأة إلى عالم السياسة والحياة العملية بقصد قلب نظام العالم بما تحويه من الأوامر، فإن هذا شىء آخر من جميع الوجوه». ولكن «إخناتون» لم يكن لديه سابقة ما مثل الثورة الفرنسية للرجوع إليها والاعتبار منها، بل كان هو نفسه أول ثائر عالمى، وقد كان مقتنعًا كل الاقتناع بأن فى مقدوره أن يضع فى قالب جديد عالم الديانة والفكر والفن والحياة بعزم ثابت لا يقهر، وأن يجعل آراءه فى الحال ذات تأثير عملى فعال.

وعلى ذلك قامت مدينة سهل «تل العمارنة» الجميلة، فكانت جزيرة خيالية للنعيم فى وسط بحر من التذمر، بل كانت حلمًا مملوءا بالآمال الخيالية فى عقل غاب عنه تمامًا أن الماضى لا يمكن محوه. والعجب أن ظهور مثل ذلك الرجل لأول

مرة لم يكن إلا فى الشرق وفى مصر بالذات، حيث لم يكن يوجد رجل آخر يستطيع نسيان الماضى غير «إخناتون». على أن عالم أمم البحر الأبيض المتوسط العظيم، الذى كانت مصر تسوده حينذاك، لم يكونوا أحسن استعدادًا لقبول ديانة أولية أكثر من سادتهم المصريين. ويذكرنا خيال «إخناتون» الدولى بآمال «الإسكندر الأكبر» الذى جاء بعده بألف عام، ولكنه كان سابقًا لعصر الإسكندر بعدة قرون.

على أن الحقيقة التى كانت تحيط به والمركز المهدد، اللذين كان «إخناتون» يدعو حزبه لتبصرهما كل يوم، قد صوروا فى وصف كتبه زوج ابنته «توت عنخ آمون» بعد موته بمدة، حيث قال:

«وأغلقت معابد الآلهة من «إلفنتين» (يعنى الشلال الأول) إلى مستنقعات الدلتا....

وهجرت أماكنهم المقدسة ونبت فوق دمنها المرعى.

وصارت معابدهم كأن لم تغنِ بالأمس، وبيوتهم صارت طرقًا معبدة والبلاد كانت فى مأزق سيئ.

وأما الآلهة فقد هجرت هذه الأرض.

وإذا أرسل قوم إلى سوريا لمد حدود مصر لم يكن الفوز حليفهم قط.

وإذا دعا الناس إلهًا لإنقاذهم لم يجب دعوته، وكذلك إذا استعطف الناس إلهة لم تجب قط. فكانت قلوبهم فى أجسامهم عليها أقفالها».

وكان أتباع «إخناتون» فى مثل هذه الأحوال يدعون أن يستمر حكمه حتى «تصير البجعة سوداء ويصير الغراب أبيض، وإلى أن تتحرك الجبال وتسير ويجرى الماء من أسفل إلى أعلى».

أما سقوط ذلك الثورى العظيم فيحوطه الغموض التام. وكانت النتيجة المباشرة لسقوطه هى إعادة عبادة «آمون» والآلهة القدامى، فرضها كهنة «آمون» على «توت عنخ آمون»، ذلك الشاب الضعيف زوج ابنة «إخناتون»، ثم أعادوا

النظام القديم إلى ما كان عليه. ونجد فى بيان «توت عنخ آمون» عن إعادة عبادة الآلهة إيضاحًا شائقًا للحالة العقلية والدينية لقادة رجال الحكم بعدما اختفى «إخناتون». وقد أشار الملك الجديد إلى نفسه فى هذا البيان بقوله:

«إنه الحاكم الطيب الذى قام بأعمال عظيمة لوالد كل الآلهة (يعنى «آمون»).

والذى أصلح له كل ما كان مخربًا حتى صار آثارًا خالدة.

ومحيت من أجله الخطيئة فى الأرضين (مصر) وبذلك دامت العدالة (يعنى ماعت)...

وجعل الظلم شيئًا تمقته البلاد كما كان الحال فى البداية»

ويتضح من ذلك أن سقوط «إخناتون» اعتبر فى نظر أعدائه المنتصرين إعادة للنظام الخلقى القديم «العدالة» (يعنى ماعت) وإقصاء للظلم. وبعد ذلك أخذ «توت عنخ آمون» يصف الحالة التى ورثها، فى فقرة ذكرناها فيما تقدم.

وهكذا لعنت ذكرى ذلك الرجل العظيم صاحب المثل الأعلى، ولم يظهر اسم إخناتون قط فى القوائم الملكية العظمى المسجلة فوق الآثار بين أسماء كل ملوك مصر الماضين. وعندما كانت الإشارة إلى اسمه ضرورية فى الوثائق الحكومية فى عهد الفراعنة الذين أتوا فيما بعد كان يسمى «مجرم أخيتاتون».

وقد كان فرح كهنة «آمون» باسترداد سلطانهم فرحًا عظيمًا، ولدينا أنشودة لآمون من ذلك العصر تصف لنا فوز أتباعه وتنطق بشماتتهم عندما كانوا ينشدونها، حيث جاء فيها:

«إنك تصل إلى من يبغى عليك

والويل لمن يهاجمك

مدينتك تبقى

ولكن من يهاجمك يهوى

وشمس من لا يعرفك تغيب... يا آمون!

وأما من يعرفك فإنه يضىء

ومعبد من هاجمك فى ظلمة

بينما جميع الأرض فى نور.»

ففى هذه الأنشودة يظهر جليًا حقد أعداء «إخناتون» المشبع بالتشفى والسخرية المملوءة بالشماتة عندما تقول:

«وشمس من لا يعرفك (يعنى إخناتون) تغيب.... يا آمون»

و«معبد من هاجمك (يعنى إخناتون) فى ظلمة».

هكذا كانت حالة معبد الشمس «بتل العمارنة» الذى كان فنانو «إخناتون» يصورونه دائما مغموراً ببحر من ضوء الشمس، بينما كان «آتون» المشع يشرق من فوقه وقد ضمه فى أحضان أشعته الفياضة.

ولم يبق الآن شىء من معبد ذلك النور الأبدى، الذى كان يومًا ما ساطعا، إلا بقايا ضئيلة من أساسه. فهل بقى أى شىء آخر؟ وهل تجرى أقدم ثورة للعقل البشرى مجراها ولا تترك خلفها نتيجة باقية؟

إن ثورة «إخناتون» كانت عنيفة فى طرقها أكثر مما يجوز، فلم يخلد شىء مما أحدثه من الانقلاب. فالفن المدهش الذى أحدثته كان مهذبًا أكثر مما كان يلزم فى التصور وقوة التعبير فلم يعش طويلاً. وقد كشفت لنا معامل الملك التى كانت فى « تل العمارنة» عن منزلة حب ذلك الفن المدهش عند أولئك الفنانين الملكيين، وقد ترك عملهم هذا أثره فى فن العصر الذى جاء بعده، غير أن فنى النحت والتلوين لم يستردا قط تلك الحرية التامة التى نعما بها فى عهد «إخناتون» ، كما أنهما لم يلقيا ثانية جو تلك الحقيقة الدقيقة التى كانت تسود فن معامل «تل العمارنة»

وأما فى الأخلاق فلم يعد تعظيم الصدق بتلك الدرجة السامية التى بلغها فى تصور «إخناتون». ومما لا شك فيه أن تقديره العاطفى للجمال والفيض اللذين شاهدهما فى صنع الإله قد ترك أثرًا لم ينس قط بأكمله. وليس من شك مطلقًا

فى أن تلك الأنشودة المصرية قد بقيت فى شكل ما بعد موت «إخناتون»، حتى عرفها العبرانيون بعد قرون مضت واستعملها مؤلف المزمار الرابع بعد المائة» وبذلك لم تختف جملة روح مذهب «آتون» وسنجد فيما بعد برهانًا آخر على تأثيرها، وعلى أن عنف هجوم إخناتون التعصبى على التقاليد قد جعل من الطبيعى أن ينزل عليه وعلى حركته الانتقام الجزائى الذى كانت خاتمته الدمار التام.

فلا غرابة إذًا فى أن تلك العاصفة حينما هبت اكتسحت على وجه التقريب كل أثر لأقدم باحث عن المثل الأعلى. وليس لدينا ما ينبئنا عنه إلا القليل فوق ما عثر عليه من بقايا مدينته، التى كانت بمثابة مركز منعزل للمثل العالية، التى لم يدركها غيره أو يعرفها، إلا بعد مضى قرون عدة، حينما تألف أولئك البدو الذين كانوا إذ ذاك ينزحون إلى أقاليم «إخناتون» الفلسطينية وكونوا أمة، كان لها من المطامح الاجتماعية والخلقية والدينية ما كان من نتائجه ظهور أولئك الرسل العبرانيين وأصحاب المزامير، ليواصلوا السير بالروح والرؤيا اللتين سبقهم فيها أصحاب الأحلام الاجتماعيون من المصريين الأقدمين.

وكان من جراء انهماك «إخناتون» فى معنويات ثورته العظيمة أن عكفته على التأمل والتيه فى الأحلام بقصر الشمس فى «تل العمارنة»، فى حين أن الحيثيين، وهم الأعادى الجدد أصحاب البأس الشديد فى غربى آسيا، كانوا قد قاموا بفتح سريع لدولة مصر الأسيوية، وفى حين أن الكهنة والجنود بين شعبه نفسه قد قوضوا سلطان الأسرة الثامنة عشرة تقويضا تامًا، وهى أسرة ذلك الفرعون ذات الصولة التى سادت الشرق القديم نحو مائتين وثلاثين سنة. وبهدم سلطان «إخناتون» بدأت مصر عصرا جديدًا يختلف عما قبله. حقًا إن بهاء عظمتها الظاهرى وذلك المظهر الرائع لثباتها الطويل المدى كان ذكرهما لا يزال يتردد فى تعابير الافتخار اللفظية التقليدية، ولكن الحالة الواقعية أخذت تضمحل بعض الشىء عندما اقترب القرن الرابع عشر ق. م. من نهايته.

وكان أصداء المذهب الإخناتونى لم ينقطع ترددها بعد، كما كانت علاقته بالتعليم الشمسى الهليوبوليسى القديم لا يزال معترفًا بها. بل إن الأنشودة المعبرة

نفسها عن الفوز (المفعم بالشماتة) الذى أحرزه كهنة «آمون» ضد مذهب «إخناتون» تنم عن اتصالها بالمذهب الشمسى القديم، وعن تعبيرها عن أبوة «رع» عندما تنتقل إلى مديح «آمون» وتصفه بأنه «الراعى الطيب» و«النوتى»، وهى أفكار نبتت فى أثناء الحركة الاجتماعية للعهد الإقطاعى المصرى كما تقدم ذكره فيما سبق.

والواقع إنه بالرغم من العودة إلى عبادة «آمون» فإن الأفكار والاتجاهات التى نشأت منها ثورة «إخناتون» لم تختف جملة. حقًا لم يكن فى الإمكان اتباعها على أنها توحيد يشمل القضاء على الآلهة الأقدمين، غير أن نواحى «آتون» الإنسانية والخيرية التى تتمثل فى عنايته بكل البشر كانت قد استولت على خيال الطبقة المفكرة. ولذلك نجد تلك الصفات نفسها التى كانت لآتون تنسب آنئذ إلى «آمون»، حيث كان الناس يرتلون له ما يأتى[1]:

«رب الصدق ووالد الآلهة

خالق الناس وبارئ الحيوان

رب كل كائن

ومنشئ شجرة الحياة

خالق الأعشاب ورازق الماشية لتحيا»

وهذه الأنشودة التى اقتبسنا منها هذه الأسطر لا تتردد فى تسمية ذلك الإله الممدوح باسم «رع» أو «آتوم»، دالة بذلك على أن حركة «آتون» قد تركت السيادة التقليدية لإله الشمس «رع» الهليوبوليسى دون مساس بها. وكذلك نجد فيها قطعة أخرى تحتوى على ترديد لأصداء مذهب «آتون» حيث جاء بها ما يأتى:

«سلام لك! يا رع يا رب الصدق

الذى أمر فوُجدت الآلهة

يا آتوم الذى خلق الناس

والذى حدد صورهم

وخلق أرزاقهم

والذى ميز لون (كل جنس) عن الآخر

والذى يسمع دعوة من فى الأسر

والذى تتدفق من قلبه الرحمة عندما يدعوه إنسان

والذى يخلص الضعيف من المستكبر

والذى يفصل بين الضعيف والقوى.

رب المعرفة الذى فى فمه الأمر السائد.

والذى يأتى النيل حبا فيه

رب الحسن عظيم الحب

الذى بمجيئه يحيا البشر».

وكذلك بقيت الجمل الدالة على التوحيد منبثة بين سطور هذه الأنشودة بلا تردد، وإن كانت الأنشودة دائمًا تشير إلى الآلهة. فتقول:

«الفريد فى ذاته، الخالق لكل كائن

الواحد الأحد، خالق كل موجود

والذى نشأ الناس من عينيه

وخرجت من فمه الآلهة

خالق الأعشاب للماشية

وشجرة الحياة لبنى الإنسان

والذى يضع قوت السمك (فى) النهر

والطيور التى تجوب السماء

والذى يمنح النفس ما يوجد فى البيضة

ويجعل ابن الدودة يعيش

والذى يضع ما يعيش عليه البعوض

وكذلك الدود والحشرات

والذى يمد الفيران بحاجاتها فى أجحارها

والذى يعول الطيور فى كل شجرة فتعيش.

سلام عليك يا من خلقت كل ذلك

أنت يا واحد يا أحد يا ذا الأذرع العديدة

وأنت (يا نائم) صاح بينما كل الناس تنام

ساع فى البحث عن الأشياء الطيبة لماشيته

فالماشية جميعها تقول: السلام عليك

وكل مملكة تقول: العزة لك

بمقدار علو السماء وعرض الأرض وعمق البحر»

على أنه توجد أنشودة لأوزير من ذلك العصر نفسه، يخاطب فيها بما يأتى:

«أنت أب الناس وأمهم

وهم يعيشون من نفسك».

وفى كل ذلك نجد روح التضرع الإنسانى، التى سبق أن ظهرت، كما ذكرنا آنفًا، إبان التعليم الاجتماعى فى العهد الاقطاعى المصرى. فإن تفضيل المستضعف على المستكبر المتجبر، والأمر السائد والمعرفة، وهى صفات مقصورة على الملكية والإلهية، قد عثرنا عليها كلها من قبل فى تلك المقالات الاجتماعية لأمثال «إبور»، بل أيضًا فى الوثائق الحكومية مثل الوثيقة الخاصة بنصيب الوزير الأكبر فى الأسرة الثانية عشرة من ملوك المصريين القدماء. وكذلك القول بأن الإله هو الأب والأم لمخلوقاته يرجع بالطبع إلى ما كان عليه الاعتقاد فى مذهب «آتون».

ومع أن أمثال تلك الأناشيد لا تزال كذلك تحتفظ فى ثناياها بالعقيدة العالمية، والتغاضى عن فكرة القومية، وبالنظر الواسع البعيد المرمى، مما كان شأنه بارزًا فى تعاليم «إخناتون»، فإنها بالرغم من ذلك تكشف لنا عن ثقة فردية بطيبة الإله، فهى بذلك برهان مهم على ظهور الوجدان الشخصى وتكشف لنا عن بداية عصر جديد ساد فيه التدين الإنفرادى الذاتى.

وعندما نمضى فى إمعان النظر فى المعتقدات البسيطة الخالية من تعقيدات رجال الدين فى خلال القرنين الثالث عشر والثانى عشر، أى فى القرنين اللذين أعقبا عصر «إخناتون»، نجد أن ثقة المتعبد فى عناية إله الشمس بكل المخلوقات حتى بأقل مخلوقاته قد تطورت إلى روح تعبدية وشعور فياض بالاتصال الذاتى بالإله، مما ظهرت بوادره من قبل فى قول «إخناتون» لإلهه: «وإلى الآن فإنك ما زلت فى قلبى»

وعلى ذلك نجد أن التأثير الباقى لمذهب «آتون» وعقائد العدالة الاجتماعية للعهد الإقطاعى، قد بلغ أوجه فى أعمق تعبير، عن الروح الدينية الخالصة، وصل إليه رجال مصر. ويضاف إلى ذلك أن هذه المعتقدات، ذات العلاقة الوثيقة الشخصية بين المتعبد وإلهه، بالرغم من تأصلها أولاً فى تعاليم فئة قليلة محصورة، قد صارت آنئذ بمرور القرون، ومع التطور التدرجى البطىء، منتشرة انتشارًا واسعًا بين طبقات الشعب. وكانت النتيجة انبثاق فجر عصر التقوى الانفرادية والإلهام الباطنى الذى يناجى به المرء ربه.

والواقع إنه تطور مهم، وإنه كالكثير من الانقلابات التى تعقبناها فى هذا الكتاب، يعد أقدم تطور رأيناه من نوعه فى تاريخ الشرق القديم، وبالنسبة إلى هذا الموضوع بالذات، فى تاريخ البشرية جميعًا.

وفى مقدورنا أن نتعقبه فى «طيبة» وحدها، ولا يخفى ما فى ذلك من الإمتاع الشائق، ما دام فى مقدورنا أن نتعرف ما كان يجول فى نفوس عامة الشعب الذين كانوا يملئون الطرقات والأسواق، والذين حرثوا الحقول وزرعوها ونهضوا بالصناعات، والذين أمسكوا بدفاتر الحسابات وقاموا بأعمال السجلات

الرسمية، والذين قطعوا الأخشاب ورفعوا المياه، وغيرهم من الرجال والنساء الذين وقع على كواهلهم عبء الحياة المادية العظيم فى تلك الحاضرة الشاسعة للدولة المصرية القديمة فى خلال القرنين الثالث عشر والثانى عشر ق. م.

فنجد - مثلاً - أن كاتبًا فى أحد مخازن الخزانة فى جبانة «طيبة» يدعو «آمون» فيقول:

«الذى يأتى إلى الصامت[٢]

الذى ينجى الفقير

ويعطى النفس لكل إنسان يحبه

....

امدد إلىّ يدك

نجنى، اسطع على

لأنك تخلق قوتى

....

أنت الإله الأحد لا إله غيرك

فأنت نفس رع الذى يشرق فى السماء

وآتوم خالق البشر

الذى يسمع دعاء من يدعوه

والذى ينجى الإنسان من المتكبر

والذى يجرى النيل لأجل من هو بينهم

والهادى لجميع الأنام

وعندما يشرق يعيش البشر

وقلوبهم تحيا عندما يرونه

والذى يمنح النفس ما فى البيضة

والذى يجعل البشر والطيور تعيش

والذى يرزق الفيران بحاجاتها فى أجحارها

وكذلك الديدان والحشرات».

فالإله الذى يوجه عنايته إلى كل شىء حتى المحافظة على العصافير، مثل إله «عيسى»، رأى فيه أهل «طيبة» موئلاً يشكون إليه مصائبهم وهمومهم فى حياتهم اليومية، واثقين فى شفقته وحنانه وفيضه. كذلك نصب أحد الرسامين الذين يقومون برسم المناظر الجنازية فى جبانة «طيبة» لوحة تذكارية فى أحد مزارات الجبانة، تبنى كيفية نجاة نجله من مرض ألم به بفضل «آمون» وشفقته العظيمة. فكان «آمون» فى نظره الإله الجليل الذى يسمع شكاية الشاكين، ويجيب الفقير المعذب إذا استغاث به، ويمنح النفس من قوّس الدهر قناته ويقص علينا قصة رحمة الإله «آمون» فيما يأتى:

«الحمد لآمون

إنى أنظم الأناشيد باسمه

وإنى أقدم له الحمد

بقدر علو السماء

وعرض الأرض.

وأتحدث عن قوته

إلى الذى يسير فى النهر منحدرًا

والذى يسير فى النهر صاعدًا.

احذره!

وكرر ذلك للابن والبنت

وللصغير والكبير

وخبر بذلك الجيل بعد الجيل

من الذين لم يولدوا بعد

واخبر بذلك السمك فى النهر

والطيور فى السماء

وكرره لمن لا يعرفه حتى الآن

وللذى يعرفه.

احذره!

أنت يا آمون إنك رب الصمت

الذى يأتى عند استغاثة الفقير.

وعندما أستغيث بك فى كربتى

ففى الحال تأتى وتنجينى.

ليتك تمنح نفسًا من يقوس الدهر قناته

وليتك تنجينى وأنا فى الأغلال.

وعندما يستغيث الناس بك

فإنك أنت الذى تأتى إليهم من بعيد».

«إن» نب رع «رسام آمون» فى مدينة الأموات، وهو ابن «باى» رسام «آمون» فى مدينة الأموات، قد أقام هذه اللوحة التذكارية باسم ربه «آمون» رب «طيبة» الذى يأتى لإجابة الفقير المستغيث به، مقدمًا له التسبيحات باسمه لعظم قوته ومقدمًا التحميدات أمامه وأمام كل الأرض لأجل الرسام «نخت آمون»، وذلك عندما رقد مريضًا مشرفًا على الموت، وكان فى قبضة «آمون» بسب خطيئته.

«لقد وجدت أن رب الآلهة أتى كريح الشمال وأمامه الهواء العطر حتى ينجى الرسام «نخت آمون» ابن رسام «آمون» فى الجبانة «نب رع» وابن سيدة البيت «بشد».

ويقول: «بالرغم من أن العبد اعتاد ارتكاب الخطيئة فإن الرب من شأنه الرحمة. لأن رب «طيبة» لا يصرف كل اليوم غاضبًا، فإذا غضب لحظة فإن ذلك الغضب لا يدوم طويلاً... بل يلتفت إلينا فى شفقة. إن «آمون» يلتفت إلينا بنفسه.

ثم يقول: «سأضع هذه اللوحة باسمك وسأسجل هذه الأنشودة بكتابتها فوقها، إذا شفيت لى الرسام «نخت آمون». هكذا خاطبتك وقد أجبتنى، والآن انظر إلى وقد أنجزت وعدى. إنك رب من يدعوك. أنت الذى ترضى من الحق والعدالة. أنت رب «طيبة».

صنعها الرسام «نب رع» وابنه «خاى».

وهكذا صار إله الشمس أو «آمون» الذى قام مقامه، ملاذًا للمحزونين. فهو الذى يسمع الشكوى ويجيب دعاء من يستغيث به، والذى يحضر عند ذكر اسمه، وهو الإله المحب الذى يسمع الصلوات، والذى يمد يده إلى الفقير وينجى اليائس. وبمثل ذلك الأم المصابة التى أهملها ابنها «ترفع ذراعيها للإله فيسمع استغاثتها».

وصارت آنئذ العدالة الاجتماعية التى نشأت فى عهد الدولة الوسطى المصرية حقًا يطالب به كل فقير أمام الإله، الذى صار هو نفسه قاضيًا عادلاً لا يقبل الرشوة، رافعًا للحقير، حاميًا للفقير، غير باسط يده للغنى.

وعلى ذلك يدعوه الفقير فيقول: «يا آمون اصغ لمن يقف وحيدًا فى المحكمة فقيرًا وخصمه غنى، فتضطهده المحكمة (حيث تقول): «فضة وذهبا للكتاب! وثياباً للخدم» ولكن «آمون يستحيل بنفسه إلى وزير أول[٣] ليجعل الفقير فائزًا، فيتضح أن الفقير على حق وينتصر الفقير على الغنى. فأنت يا «آمون» أنت النوتى فى المقدمة الذى يعرف الماء، وأنت سكان السفينة، والذى يعطى الخبز لمن لا خبز عنده، ويحفظ خادم بيته حيًا». ولأن الإله وقتئذ هو «آمون رع» الذى كان فى الصورة الأولى ملكًا فإننا نجده يخاطب هكذا: «يا إله الأزلية. أنت يا وزير

الفقير الذى لا يأخذ المكافأة الدنيئة، والذى لا يقول: «إيت بشهود»، أنت «آمون رع» الذى يعدل على الأرض بأصبعه، والذى كلماته أمام القلب، فيجعل النار مأوى لمن يرتكب الخطيئة فى حقه، والمحق مثواه فى الغرب (يعنى النعيم فى الدار الآخرة)».

فالغنى والفقير يحيق بهما غضب الإله على السواء إذا وقعت منهما الخطيئة، واليمين الذى يصدر استخفافا أو كذبًا ـ يجلب غضب الإله فيصيب الحانث المرض أو العمى، وذلك ما لا يمكن النجاة منه كما ذكرنا إلا إذا أتبع المذنب ذلك بالتوبة والندم والتجأ إلى التذلل والخضوع راجيًا عطف إلهه.

وهذه أول مرة نجد فيها أن «الضمير» قد تحرر تمامًا، فيعتذر المذنب ويندم على جهله وارتكابه الإثم، فنراه يقول:

«أنت يا واحد يا من لا أحد غيره

أنت يا إله الشمس الذى لا مثيل له

يا حمى الملايين ومخلص مئات الألوف

الذى يحمى من يستغيث به

أنت يا رب «هليوبوليس» (عين شمس)

لا تعاقبنى على ذنوبى العديدة

فإنى أمرؤ جاهل بنفس جسمه

إنى رجل لا عقل له لأنى طيلة اليوم أتبع أهوائى

كما يتبع الثور علفه».

ونلاحظ هنا على الفور الفرق الشاسع بين هذا الاعتراف وكتاب الموتى الذى لا تعترف الروح فيه بأية خطيئة بل تدعى البراءة التامة. على أنه فى هذا الموقف *الذى يعترف فيه الإنسان الآن* بخطيئته مع إبداء غاية التذلل والخضوع، نجد أنه على اتصال باطنى بالإله ليلاً ونهارًا، كما نرى فيما يأتى:

«تعال إلىّ يا رع» حور أختى حتى ترشدنى»

وكما أننا نجد العبرى التقى يحب «بيت المقدس» موطن ربه منذ القدم، كذلك كان ذلك المصرى القديم يولى وجهه فى تعبده شطر مدينة الشمس العظيمة التى نشأ فيها مذهب آبائه منذ قرابة ثلاثة آلاف سنة، حيث يقول:

«إن قلبى يتطلع إلى «هليوبوليس»

فإن قلبى يشرح وصدرى يفرح

وتضرعاتى يستمع إليها

وحتى صلواتى اليومية وأناشيدى الليلية

وتوسلاتى ستزدهر فى فمى لأنها سمعت هذا اليوم».

فالأناشيد القديمة كانت تتألف من أوصاف الحوادث الخرافية، وكلها أمور خارجية بالنسبة لحياة المتعبد، حتى أنه كان فى مقدور كل إنسان أن يبتهل إلى الإله بنفس الصيغة التى يبتهل بها غيره. فصارت الابتهالات آنئذ مظهرًا لإحساسات باطنية، أى أنها تعبير يراد به الاتصال الذاتى بالإله، وهو اتصال يرى فيه المتعبد أن إلهه يغذى الروح كما يغذى الراعى قطيعه، ونجد ذلك فى القول الآتى:

«يا آمون أنت يا مخرج القطعان فى الصباح

ومرشد المتألم إلى المرعى

وكما يقود الراعى القطعان إلى المرعى فأنت كذلك تفعل

يا آمون خذ بزمام المتألم إلى الطعام لأن آمون رع يرعى من يتكل عليه.

يا «آمون رع» إنى أحبك وقد ملأت قلبى بك

وستنجينى من أفواه الناس فى اليوم الذى يفترون فيه علىّ الكذب

لأن رب الحق يعيش فى الحق

وإنى لن استسلم للخوف الذى فى قلبى

لأن ما قاله «آمون» يعلو ويزدهر».

حقًا إنه كانت توجد وسائل ظاهرية ومادية تزيد فى هذا الاتصال الروحى بالإله، وقد رأينا الرجل العاقل يحث غيره بحكمة على «الاحتفال بعيد إلهه وأن يعيد الاحتفال فى مواسمه، لإن الإله يغضب على من يتعدى حدوده»

ومع ذلك فقد كانت أعظم الوسائل تأثيرًا لكسب عطف الإله ورضاه هو التدبر والتفكر فى أناة وصمت مع الاتصال الباطنى، وهو ما كان يراه حتى الحكماء الذى يميلون إلى عدم الخروج جملة على العادات التقليدية، كما نرى فيما يأتى:

«لا تكن كثير الكلام، فبالصمت تنال الخير...

أما من جهة أمر الإله فلعنته فى رفع الصوت،

تعبد بقلب سليم كل كلمة من كلماته باطنة

فبذلك تنال ما تحتاجه ويسمع كلماتك

ويتقبل قربانك»

بمثل هذه الروح كان يتجه المتعبد إلى ربه كأنه عين ماء روحانية منعشة ومن ذلك أيضًا:

«أنت أيتها البئر العذبة للصادى فى الصحراء

إنها موصدة لا تفتح للثرثار - ولكنها مفتوحة للصامت

فعندما يأتى الصامت فإنه يجد البئر»

على أن هذه الروح - روح الاتصال الصامت - التى يرجى بها طيبة الإله الرحيمة، لم تكن وقفًا على فئة قليلة مختارة، ولا على جماعات الكهنة المتعلمين.

فإننا نجد فوق أحقر الآثار لعامة الشعب أن «آمون» كان يدعى بالذى «يأتى للصامت» أو «رب الصامت» كما لاحظنا ذلك فيما تقدم.

وقد كان من جراء ذلك التطور النهائى للشعور الدينى الذى توجت به ثورة «إخناتون» الدينية والعقلية، كما توجت به كذلك عقائد العدالة الاجتماعية التى ظهرت فى العهد الإقطاعى، أن وصلت الديانة المصرية القديمة إلى أسمى تطوراتها.

وأما فى الأخلاق وفى موقف الإنسان تجاه الحياة فإن الحكماء استمروا فى المحافظة على روح الاحترام لأسمى المثل العليا العملية. وهو موقف ندرك فيه تقدما محسوسًا على التعاليم العتيقة للآباء، فصاروا يحفلون بحسن الذكر وطيب الأحدوثة ويتشددون فى المحافظة على السمعة، فيقول الحكيم (آنى):

«دع كل مكان تحبه نفسك معروفًا عند الناس».

وكانت أحوال السكر وعيشة الخلاعة تعرض بكل نتائجها الوخيمة أمام الشباب، كما كانت أخطار الفحش والفجور تعرض للشباب بدون تحفظ وبصراحة عارية من كل ستر أو حجاب، حيث يقول:

احذر المرأة الأجنبية التى لا تعرف فى بلدتها،

ولا تنظرن إليها،

ولا تعرفنها فى جسدها.

لأنها فيضان (من الشر) عظيم وعميق لا يعرف الرجل دورانه.

والمرأة التى يكون زوجها بعيدًا جدًا، تقول لك فى كل يوم إنى جميلة.

وعندما تكون بعيدة عن الأعين تقف (أمامك) لتوقعك

فى أحابيلها.... يا لعظم الجريمة التى تستحق الموت.

عندما يرتكبها الإنسان ولو لم يعلم بذلك الملأ.

لأن الإنسان يسهل عليه بعد ارتكاب

هذه الخطيئة أن يرتكب كل خطيئة.

أما أطايب الحياة ومتاعها فيجب على الإنسان أن ينظر إليها بتحفظ فلسفى، ومن الحماقة أن يعتمد الإنسان على الثروة الموروثة ويظنها مجلبة للسعادة: «لا

تقل إن جدى من أمى له بيت فى ضيعة كذا وكذا، فإنه حين تأتى للقسمة حسب الوصية مع أخيك لا يكون نصيبك إلا حظيرة فقط»

فإن مثل هذه الأشياء فى الواقع لا دوام لها ولاثبات:

«وهكذا نجد أن الناس إلى الأبد لا شىء،

فواحد غنى وآخر فقير...

ومن كان غنيًا فى السنة الماضية قد صار شريدًا هذا العام.

ومجرى الماء فى العام المنصرم قد صار هذا العام مكانًا آخر.

والبحار العظيمة تصير جافة والشواطئ تصبح بحارًا».

فنجد فى هذا الكلام مثلا لذلك الاستسلام الشرقى للمقابلة بين أحوال الحياة الدنيوية الذى كان على ما يظهر قد نما وانتشر بين كل الشعوب الشرقية القديمة[٤].

ولما انتقل الشعب المصرى القديم إلى ألف السنة الأخيرة ق. م. كان نمو الضمير الذى تتبعنا مجراه فى نحو ألفى عام، قد وصل إلى نهايته بتحقيق هذا الانتقال العميق المهم، الذى كان يمهد لمجيئه من عدة قرون. فإن الوازع الباطنى الذى نما فى الأصل من المؤثرات الاجتماعية ثم زاد تطوره خلال قرون مضت فى التفكير العميق، قد صار المتعبدون يعترفون الآن من غير تحفظ بأنه أمر الإله نفسه.

وقد رأينا أن هذه الفكرة كانت قد ظهرت قبل ذلك بنحو ٥٠٠ سنة، أى فى بداية عهد الإمبراطورية المصرية. ولكن فى هذا العصر الذى هو عصر الورع الشخصى، صار الضمير هو صوت الإله بدون أدنى شك، وذلك ما لم يحدث من قبل مطلقًا.

وإزاء ذلك لم يكن هناك بالطبع مجال لإخفاء الخطيئة أو إنكارها بعد وقوعها من المخطئ، وإذ كان المؤمن يشعر بأن كل أمره معلوم عند ربه فقد أصبح يضع نفسه ـ بدون أدنى تحفظ ـ فى يد الله المرشد والمهيمن على كل حياته وحظوظه.

ومع أن رضاء المجتمع كان لا يزال أمرًا مهمًا، وضغط المؤثرات الاجتماعية محسوسا، فإن ذلك صار فى المرتبة الثانية إزاء الإله العليم بكل شىء.

وهذا الموقف الجديد قد كشف لنا غطاؤه فى رسالة عظيمة يمكننا أن نسميها «حِكم «أمينموبى»، وبرديتها محفوظة الآن بالمتحف البريطانى[٥].

وكما كان يحدث كثيرًا فى مثل تلك النصائح التى كانت تصدر من رجال الحكمة المصريين القدماء، قد اعتبرت حكم «أمينموبى» أيضًا - ملقاة من هذا الحكيم على ابنه. وهى فى نظمها ووضعها تعد أكثر ترتيبًا من أية وثيقة أخرى من نوعها مما فحصناه من تلك الوثائق للآن. فقد قسمت بنظام إلى ثلاثين فصلاً وكل فصل منها خاص بموضوع معين، وتبدو مقسمة إلى مقطوعات كل منها يشتمل على أربعة أسطر أو ستة أو ثمانية، كما يوجد بعض مقطوعاتها مؤلفًا من سطرين فقط. ويلاحظ أنه لم يبذل فى تأليف تلك الحكم أى جهد لتنسيق فصولها أو ترتيبها ترتيبًا منطقيا.

ولقد قال الأستاذ «لَنج» أحد أساتذة جامعة كوبنهاجن، وهو ممن لهم الفضل الأكبر فى فهم ذلك المقال المدهش، عند تناوله الموازنة بين «أمينموبى» وغيره من أسلافه السابقين: «إن آراء «أمينموبى» الدينية أعمق بكثير من سابقاتها، كما أنها تنفذ إلى الأعماق بدرجة عظيمة تفوق فيها آراء أسلافه من الحكماء، إذ كانت التقوى فى نظر أصحاب الحكمة الآخرين تعد فضيلة، وأن فكرة الموت والخلود الأبدى قوة دافعة للمرء على السلوك الفاضل، وأن اللّٰه وحده هو الذى يعطى الغنى والحظ. فى حين أن الشعور بالإدانة للّٰه وحده هو فى نظر «أمينموبى» العامل الفاصل فى كل تصوراته عن الحياة وسلوكه فيها»

ولذلك كان «أمينموبى» يتمسك أمام ابنه دائمًا بهذه النظرة إلى الحياة الدنيا فى المعاملات الشخصية والرسمية، مع الشعور التام بتلك المسئولية أمام الإله فى كل حين. ومما يزيد فى أهمية تلك النصائح ووصولها إلى هذه القمة من تقدير الضمير والإحساس برقابة اللّٰه، وذلك فى تعاليم مفكر مصرى فى القرن العاشر ق. م.، وقبل أن يكتب أى شىء من التوراة، إننا نعرف الآن أن حكم «أمينموبى»

هذه قد ترجمت إلى العبرية وقرأها العبرانيون. وإن قسما مهمًا منها قد وجد سبيله إلى كتاب العهد القديم.

وإننا نجد حكيمنا هذا عند تناوله موضوع تهيئة ابنه للانخراط فى سلك الوظائف الحكومية المصرية، يبين له تلك المغريات التى قد تدفعه إلى استغلال الفرص الرسمية ابتغاء المكسب من ورائها. فنراه يعددها الواحدة تلو الأخرى، ويحذر ابنه الشاب من الاستسلام لمثل تلك المغريات. فإذا كان فى وظائف مسح الأرض فنصيحته له هى:

«لا تزحزح الحد الفاصل الذى يفصل (بين) الحقول
ولا تكن جشعًا من أجل ذراع من الأرض
ولا تتعد على حد أرملة
وارقب أنت من يفعل ذلك فوق الأرض
فبيته عدو للبلد
وأهراؤه تخرب
وأملاكه تؤخذ من أيدى أطفاله
ومتاعه يعطاه غيره
لا تطأن حرث الغير
وخير لك أن تبقى بعيدًا عنه
احرث الحقول حتى تجد حاجتك
وتتسلم خبزك من جرنك الخاص بك
وإن المكيال الذى يعطيكه اللّه خير لك
من خمسة آلاف تكسبها بالبغى.
والفقر مع القناعة والرضا) عند اللّه خير

من الثروة (المغصوبة بالعدوان) القابعة فى الخزائن

وأرغفة لديك مع قلب فرح خير لك

من الثروة مع التعاسة»

ومن المهم أن نلاحظ أن أمينموبى كان لايزال يحترم الرأى العام فى مثل تلك المواقف، لأنه عندما ينصح ابنه بمراعاة الأمانة فى السجلات المالية يقول له:

«وخير لك المدح (تناله) كفرد يحبه الناس

من الثروة (المجموعة) فى الخزائن»

وذلك لأن الغنى مع «الضمير» الشاعر بالذنب لا قيمة له:

«وما فائدة الملابس الجميلة

إذا كان الإنسان باغيا (متعديًا على غيره) أمام اللَّه؟»

ولما كان موظفو بيت المال عند المصريين القدماء لهم علاقة كبيرة بالموازين والمكاييل، فقد اهتم بها «أمينموبى» كثيرًا، حيث يقول لابنه:

«لا تجعلن إحدى كفتى الميزان تحيد غشًا

ولا تعبث بالموازين

ولا تنقض من عدد (أنصبة أو مقادير) مكاييل القمح

ولا ترغبن فى مكاييل الحقل (لأنها ربما كانت عظيمة كما فى أيامنا)

ولا ترغبن عن مكاييل الخزانة (لأنها كانت بالطبع أنقص من مكاييل الحقل)

فقوة الجرن أكبر

من القسم (اليمين الرسمية للحكومة) بالعرش العظيم.

وهذه المقارنة المبهمة الواردة فى السطر الأخير «ضرب مثل» يحتمل إنه يعنى به أن قوة المخزن الملكى الضارة المفسدة أكبر فى تأثيرها من «يمين الإخلاص الرسمى للعرش» الذى يقسم به الموظف عند تسلمه عمله. والاستقامة فى

الأعمال الرسمية. لابد من مراعاتها بالدقة فى الصغيرة والكبيرة، ولذلك يبدأ الحكيم فصلا آخر بالكلمات الآتية:

«ولاتطمعن فى متاع رجل حقير»،

ثم يعقبه مباشرة بابتداء آخر قال فيه:

«لاتطمعن فى متاع رجل عظيم».

ثم نجد كذلك أن «أمينموبى» كان يهتم كثيرًا بمحافظة ابنه على الاستقامة التى لا تراخى فيها ولا هوادة فى المعاملات الشرعية وفى التقاضى أمام المحكمة، حيث يقول:

«لا تجبرن رجلاً على الذهاب أمام المحكمة

لأنك لن تجعل العدالة تلتوى

فلا يتجه وجهك نحو الملابس البراقة (يعنى التى يلبسها الخصم)

بينما تطرد من تكون ملابسه قذرة بالية.

لا تأخذن العطايا من القوى

ولا تضطهد الضعيف من أجله،

فالعدالة هبة عظيمة من الله يهبها من يشاء.

فقوة من كان مثله (أى مثل الله)

تنجى المكتئب من ضرباته (يعنى ضربات القاضى).

اعط المتاع أصحابه

وبذلك تبغى لنفسك الحياة.

ومع أن قلبك يعمر فى بيتهم (يعنى فى بيت الملاك الذين تحابيهم)

يكون جسمك مصيره لمقصلة الجلاد».

وإن الكلام الرزين والأخلاق السلسة تعتبران من الأمور المهمة فى نظر حكيمنا، كما أن التهديدات الصاخبة الجوفاء لا يقوم لها وأن أمام تدابير اللّه ضد أعدائنا:

«لا تقولن : لقد وجدت رئيسًا قويا

والآن يمكننى أن أهاجم رجلاً فى مدينتك.

ولا تقولن: لقد وجدت حاميًا

والآن يمكننى أن أهاجم الرجل الممقوت.

فالحقيقة أنك لا تعلم تدبير اللّه

وأنك لا تدرك الغد.

ضع نفسك بين يدى اللّه

إلى أن يهزمهم صمتك (أى إلى أن يهزم اللّه أعداءك بسبب صمتك)».

ثم يستمر «أمينموبى» فى نصائحه حاضًا ابنه على التباعد عن الصراحة الخارجة عن الحد، بل إنه يعود كثيرًا فيحذره من هذه العادة الخطرة فى كل مقاله، فمن ذلك قوله:

«إذا سمعت خيرًا أو شرًا

فاتركه وراءك غير مسموع.

وضع الكلام الحسن على لسانك

وأما الكلام السيئ فابقه مخفيًا فى جوفك».

وبهذه الفكرة نفسها التى تجول فى ذهن ذلك الحكيم نراه ينصح ابنه بألا يسترق السمع فى البيوت العظيمة، وأخذ يحثه بهذه المناسبة على مراعاة التواضع فى مسلكه إذا كان على مائدة رجل عظيم. وقد قدمت مثل هذه النصيحة وببعض تعبيراتها قبل مقال «أمينموبى» بنحو ثمانية عشر قرنًا، وهى تلك الحكم التى ألقاها «بتاح حتب» على ابنه فى عهد الأسرة الخامسة. ولأنها

حكمة بالغة فى السلوك الواجب نحو الرؤساء، ظل المصريون القدماء يحترمونها مدة تنوف على ألفى سنة، فقد وجدت سبيلها إلى الحياة العبرانية، وهى تعد من غير شك أقدم قطعة جاءت فى التوراة.

ونجده كذلك يحذر ابنه الشاب من المراءاة والمعاملة ذات الوجهين فى كل علاقاته مع العظماء، حيث يقول:

لا تطلّقن قلبك من لسانك

فإنك بذلك تحظى بنجاح كل مقاصدك،

وسينجم عن ذلك أنك تكون رجلا ذا وزن أمام الجمهور ومقبولاً بين يدى اللّه،

لأن اللّه يمقت الرجل صاحب القول الكاذب

وأكبر ما يمقته الرجل ذو القلبين[٧]».

وإذا كانت مصاحبة العظيم تغرى بالنفاق، فإن مصاحبة المتسرع والأحمق خطرة أيضًا، ولأنها تؤدى بالإنسان إلى فحش القول وهجره:

«لا تؤاخين الرجل الأحمق

ولا تلحفن عليه فى المحادثة».

والمقال على هذه الوتيرة مفعم بالتحذير من الرجل المشاغب والرجل المستهتر. وأما الأخلاق الفاضلة فهى أخلاق الرجل المتحلى بالرقة والتواضع وضبط النفس، على عكس تلك الأخلاق الذميمة التى تعرف عن الرجل الأحمق. وقد وضع «أمينموبى» فى بداية نصائحه مقابلة بين الأخلاق وأضدادها الذميمة بهيئة شجرتين، إحداهما برية نشأت فى الغابة ولا يتعهدها أحد، والأخرى تزدان بها الحديقة. وفى ذلك يقول:

«إن الرجل الأحمق، الذى يخدم فى المعبد

مثله كمثل شجرة نامية فى الغابة.

ففى لحظة يفقد أغصانه

ويكون مصيره إلى مرفأ الأخشاب

وينقل بعيدًا عن مكانه

والنار مثواه.»

وأما الرجل الحازم حقًا! الذى يضع نفسه جانبًا (حيث يجب)

فمثله كمثل شجرة باسقة فى الحديقة

يفلح وتتضاعف ثمرته

ويثمر فى حضرة سيده

فظله وارف وثمرته أكلها حلو

ويجد فى الحديقة مصيره»

وينهى «أمينوبى» عن الاشتباك مع السفيه، فيقول: «لا تشتبكن فى نزاع مع سفيه اللسان»

ويحض الشاب على عدم الدخول فى علاقة ما مع أمثال أولئك الرجال. والكلمة التى عبر بها ذلك الحكيم عن الرجل الطائش والمشاغب والأحمق هى النعت «حار»، وفيها ما يوضح المعنى وزيادة. وهذه الكلمة المصرية القديمة معادلة للكلمة العبرية التى ترجمت بها فى كتاب الأمثال من الكتاب المقدس وهى «المستخف»، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى نجد أن التسمية التى استعملها ذلك الحكيم أيضًا للدلالة على «المتواضع» و «الضابط لنفسه» هى «الصامت حقًا» الذى يعامل الجميع بلطف وتواضع. وهذا المعنى يتصل اتصالاً وثيقًا بالعابد المتبتل الصامت الذى تقدم ذكره فيما مضى، وهو يماثل على ما يظهر «الرجل الحازم» الذى نجده فى الأمثال العبرية. ومثل ذلك الرجل يعامل الأرملة التى يجدها تتلقط فضلات الحقل برفق وأناة، كما ذكر «أمينوبى» ابنه بأن:

«اللَّه يحب الذى يدخل السرور على الرجل المتواضع

أكثر من الذى يحترم الرجل العظيم»

وهذه الروح الرقيقة العطوفة هى التى تنصح بأن الفقير والمحزون لا يعاملان بالقسوة، كما يقول الحكيم:

«لاتضحك من رجل أعمى ولا تهزأ بقزَم

ولا تؤذين زمِنا (يعنى مقعدا)

ولا تستهزئن برجل يكون فى يدى اللّه (يعنى بين يدى اللّه)

ولا تقسو عليه عندما يبغى (يعنى يجور أو يذنب).

وأما البشر فهم من طين وقش (يعنى اللبن المصنوع من الطين مخلوطًا بالتبن)

واللّه هو بانيهم.

فهو يهدم ويبنى ثانية كل يوم

فيخفض ألفًا كما يشاء

وألفًا يجعلهم مشرفين

ما داموا فى الحياة الدنيا.

وإنه لسعيد من يصل إلى الغرب (يعنى الدار الآخرة)

وهو ناجٍ فى يد اللّه».

وإن عدم ثبات أحوال الإنسان، وتوقفها على مشيئة اللّه تعالى، قد حدا «بأمينوبى» إلى تحذير ابنه من الاعتزاز بالثروة الزائلة: حيث قال له:

«لا تدع قلبك يجرى وراء الثروة

ولا تجهد نفسك فى طلب المزيد

عندما تكون قد حصلت (بالفعل) على حاجتك.

وإذا جاءت إليك الثروة من طريق السرقة

فإنها لا تمكث عندك زمن الليل،

فحينما ينبلج الصباح فإنها لم تكن فى بيتك بعد

لأنها تكون قد صنعت لنفسها أجنحة مثل الأوز وصعدت إلى السماء

اعبد «آتوم» إله الشمس عندما يشرق

وقل امنحنى سلامة وصحة،

وسيمنحك ما تحتاجه مدى الحياة

وتأمن من الخوف».

والواقع أن هذه النتيجة الحكيمة التى يقول فيها «أمينوبى» إن «الثروة (المغصوبة) تصنع لنفسها أجنحة» وتطير بعيدًا، وصورها لنا فى تلك الصورة البارزة عن الثروة الأرضية التى لا تدوم وتكون عرضة للزوال والفناء، نعرف لها مثيلاً فى صورة أخرى انحدرت إلينا عن طريق محرر «كتاب الأمثال» العبرى وانتشرت فى حياة العالم الغربى بعد ظهورها بين سكان مصر بثلاثة آلاف سنة.

ويرى حكيمنا أن الاعتماد على مثل تلك الموارد الدنيوية الزائلة لا يجدى نفعًا، وأن الضمان الوحيد لذلك هو اللّه، فيجب أن نعبده، وبذلك «تنجو من الخوف» وعلى هذا فإن راحة البال والتخلص من الخوف يمكن الحصول عليهما بالاعتماد على اللّه وحده فقط.

وعلى ذلك نجد هذا الحكيم المصرى القديم يقول فى أنبل فقرة من نصائحه لابنه:

«لاتنم فى الليل وأنت خائف من الغد،

لأننا لا ندرى عندما ينبثق الفجر ماذا يكون عليه الحال فى الغد؟

فالإنسان لا يعلم ما سيكون عليه الغد.

اللّه فى كماله

والإنسان فى عجزه

والكلمات التى يتكلمها الناس تختلف فى اتجاهها

على حين أن أعمال الله مختلفة الاتجاه[8].

لا تقولن: لست أحمل خطيئة

ولاتجهدن نفسك فى إثارة النزاع.

أما الخطيئة فأمرها عند الله

وهو الذى يختمها بأصبعه.

وليس فى يد الله إنسان كامل

ولا يقف العجز حائلاً أمامه

فإذا أجهد الإنسان نفسه ليصل إلى الكمال

فإنه فى لحظة يهدمه (بنفسه).

كن رزينًا فى عقلك. وثبت قلبك

ولا تجعل من لسانك سكانًا،

فإن كان لسان الإنسان كسكان السفينة

فإن رب الجميع هو ربانها».

فهل كان هناك عندما نصح السيد المسيح (عليه السلام) تلاميذه بقوله: «لا تفكروا فى الغد» أى صدى لتلك الحكمة المصرية القديمة فى تلك الكلمات ؟؟ إنه من المحتمل ألا يكون فى مقدورنا أبدًا الإجابة على هذا السؤال، غير أن حكم «أمينموبى» قد قدمت لنا مساعدة جوهرية فى الكشف عن مدى انتشار التعاليم الخلقية المصرية القديمة فيما وراء شواطئ النيل وبخاصة فى فلسطين. على أن أعظم الأجزاء انتشارًا من حكم «أمينوبى» قد تجاوزت فلسطين إلى مدى شاسع ولا تزال بين ظهرانينا.

وقد أوضح الأستاذ «زيته» أن السطرين الغامضين فى ظاهرهما، وهما الخاصان باختلاف اتجاه كلمات الناس وأعمال الله، لا يمكن أن يكون المقصود منهما سوى الفرق الشاسع بين كلمات الناس (أى مقاصدهم) وما يتلوها من

أفعال اللّه (سبحانه وتعالى)، وعلى ذلك تكون الترجمة ببعض التصرف هكذا: «الكلمات التى يتكلمها الناس تختلف فى اتجاهها وأعمال اللّه تختلف فى اتجاهها». وتكون المقابلة هنا على البديهة هى بين «كلمات الناس» و«أعمال الإله». وعندما يذكر أنهما «يختلفان» فإن المعنى المقصود يكون بداهة «أنهما يختلفان عن بعضهما». وعلى ذلك يكون لدينا هنا المثل العالى فى أقدم صورة له:

«الإنسان يريد واللّه يفعل مايريد».

وإن مثل ذلك الانتشار الواسع للرأى المصرى القديم عن علاقة اللّه بالإنسان يفتح لنا ذلك الموضوع الواسع، وهو تأثير التطور الخلقى المصرى القديم لا فى تاريخ الإنسان القديم فحسب بل فى تاريخ المدنية الغربية أيضًا. ولما كان بحث ذلك الموضوع يجب أن تتألف منه خاتمة هذا الكتاب، فيجب قبل أن نتناوله بالبحث أن نلقى نظرة قصيرة على المراحل الأخيرة من ذلك التفكير الخلقى المصرى القديم قبل أن يحشر سكان وادى النيل إلى معمعة عاهليات البحر الأبيض المتوسط الأسيوية.

ذلك بأنه بعد سقوط العاهلية المصرية فى القرن الثانى عشر قبل المسيح كانت قوى حياة البلاد الداخلية والخارجية قد اضمحلت وفقدت كل تأثير لها فى إزكاء نار التفكير الخلقى مرة أخرى حتى يقوم بأى نشاط حيوىّ يسمو به إلى أكثر مما وصل إليه، بل قد حل مكان ذلك ركود وجمود قاتلان لا يأبهان لشىء من عوامل النمو والنشاط، وكأنما اعترى حياة تلك الأمة التى كانت ممتلئة نشاطا وحيوية ذهول خامد. ولذلك نجد أن التطور الذى أعقب ذلك الأوان كان مجرد ظواهر رسمية آلية لا تتناول أى تقدم فى التفكير والإنتاج العقلى. وكانت قوة الكهانة بصفتها ذات نفوذ سياسى قد جعلت الملك «تحتمس الثالث» فى القرن الخامس عشر ق.م. ينصب رئيس كهنة «آمون» رئيسًا لجميع كهنة مصر فى ذلك الزمان، أى أنه صار الرئيس الدينى للدولة.

ومع أن هذه «البابوية الآمونية» قد قاست عنفًا شديدًا على يد «إخناتون» فإنها قد استردت فيما بعد كل ما فقدته، بل زادت عليه أكثر حتى أن «رعمسيس

الثانى» سمح لوحى «آمون» أن يرشده فى تعيين الكاهن الأعظم للإله. ولذلك كان من السهل فى تلك الأحوال على الكاهن الأعظم لآمون أن يجعل منصبه هذا وراثيا.

ولما لم يكن فى مقدور البلاد أن تقاوم تلك القوة السياسية الكهنية، التى كانت بمثابة دولة داخل الدولة، وكانت البلاد دائمًا فريسة لتعديها الاقتصادى، فإن مصر هوت بذلك إلى الانحطاط بسرعة، إلى أن صارت حكومة كهانة فقط، حتى إنه قرابة سنة ١١٠٠ ق. م. سلم الفرعون صولجانه إلى رئيس القوة الحاكمة التى صارت وقتئذ هى حكومة المعبد.

وفى خلال التطور الطويل، الذى كان من جرائه استيلاء طائفة الكهنة على إدارة شئون العرش، لبست المظاهر الخارجية والرسمية للتدين من حلل الفخامة والأبهة ما لم تصل إليه من قبل أية قوة دينية فى تاريخ التدين القديم. ولذلك فإن معابد ذلك العصر ستبقى دائمًا من أروع الآثار الباقية من العالم القديم.

والواقع أن تلك القصور «الإلهية» الضخمة قد رفعت من قيمة الشعائر الدينية الظاهرية إلى مستوى لم تتمتع به من قبل، لا فى فخامة مبانيها فحسب بل فى معداتها العظيمة الرائعة أيضًا.

وقد صار آنئذ «آمون طيبة» وهو متوج بتاج من العظمة لم يسمع بمثله فى بذخ الشرق قط، فى أيدى كهنته الماكرين، مجرد مصدر للقرارات السياسية والإدارية، بل إن الأحكام القضائية المعتادة كان يصدر الفصل فيها بإيحاء من الإله، كما كان غير ذلك من أمور الوصايا والهبات خاضعًا كذلك لما يوحى به الإله. فكأن الدعاء القديم الذى كان يبتهل به المظلوم إلى الإله «آمون» أن يستحيل بنفسه إلى وزير للرجل الفقير قد نفذ تنفيذا حرفيا بحتًا، وأفضى إلى نتائج لم تكن فى حسبان الذين قاموا بتأليف هذا الدعاء.

أما الدين بصفته قوة شخصية خلقية فقد بقى فى قلوب الفقراء وحثالة الشعب من المتدينين فقط، من أمثال أولئك الذين عثرنا على أدعيتهم الناطقة بورع أصحابها وإيمانهم الشخصى على أحقر اللوحات المقدمة للنذر فى جبانة

«طيبة»، وهذه الألواح المنذورة، مجتمعة مع نصيحة «آنى» وحكم «أمينوبى» قد كشفت لنا عن روح عصر ساد فيه الورع الشخصى وكان خاتمة تطور الآراء الخلقية عند قدماء المصريين، وكان ذلك بعد مرور بضعة أجيال من ألف السنة الأخيرة ق. م.، وفى الوقت نفسه الذى انهارت فيه المملكة العبرانية المتحدة، التى لم يقم بالحكم فيها غير ثلاثة ملوك ثم انقسمت إلى مملكتين. ومن المهم جدًا أن نلاحظ أن التطور الخلقى عند قدماء المصريين ـ كسائر عناصر ثقافتهم ـ قد وقف وانتهى أمره تقريبًا قبل بداية الحياة القومية العبرانية، بعد أن سار فى تدرجه نحو خمسة وعشرين قرنا.

وعندما انتقل ذلك الانحطاط المصرى القديم الذى دام نحوًا من خمسمائة سنة إلى دور إصلاح ونهضة بعد سنة ٧٠٠ ق. م كان عصر الابتكار والتجديد فى النمو الباطنى للتدين والأخلاق قد مضى وقضى عليه قضاءً أبديًا.

فبدلاً من أن نجد نشاطًا فياضًا يبدو من تلقاء نفسه فى شكل آراء ومظاهر جديدة، كما كان الحال فى بداية كل تلك العصور العظيمة التى مرت بها البلاد، فإننا نجد أن مصر قد رجعت إلى الماضى للأخذ بما كان لها فيه من مجد تالد، وحاولت عن رغبة أن تصلح الحكومة وتعيدها إلى ما كانت عليه حال المملكة المنقرضة فى تلك الأيام الخالية قبل أن تحدث عصور الإمبراطورية المصرية تلك التغييرات والتجديدات. إذ كانت مصر القديمة فى نظر هؤلاء القوم ـ كما بدت لهم من خلال ضباب ألفى سنة مضت ـ صورة أسبغت عليها نعمة الكمال المثالى الذى سادها من قبل فى عهد حكم الآلهة. ولاشك أن جماعة الرجوع إلى القديم، عند محاولتهم بعث الديانة والمجتمع والحكومة من جديد على الأسس القديمة، كان لابد أن يعترضهم على الدوام ذلك التقلب الذى لا مناص من حدوثه ـ سواء أشعروا به أم لم يشعروا ـ بسبب أحوال الشعب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. فإنه لم يكن فى الإمكان محو ألفى السنة التى انقضت منذ عصر الأهرام، ولذلك كانت الأحوال الواقعية الجديدة تبدو صارخة من خلال ذلك الستر القديم الزائف الذى أحيطت به الشئون الحاضرة. ولما عثر على حل تلك المعضلة، كان العلاج مماثلاً لما حاوله العبرانيون فيما بعد عندما وقعوا فى مثل

هذا المأزق، فنسب القوم للعناصر الجديدة كذلك ماضيًا مجيدا سحيقا، كما نسبت كل مجموعة التشريعات العبرية إلى سيدنا «موسى» (عليه السلام) وبذلك أنقذوا هذا الإحياء النظرى.

فكتابات الأهرام الجنازية القديمة، وهى ما نسميه «متون الأهرام»، بعثت من جديد، وبالرغم من أنها لم تكن فى الغالب مفهومة كانت تنقش فوق التوابيت الحجرية الضخمة، وكذا «كتاب الموتى» الذى كان لا يزال يحدث فى تأليفه بعض التغيير، قد ظهرت فيه آثار واضحة تنم على هذه الحركة. وفى مزارات المقابر أيضًا ذات الصور الجديدة نجد المناظر السارة المأخوذة من حياة الشعب فى المستنقعات والمراعى وفى المعامل ومرافئ بناء السفن، وكلها صورة نقلت بدقة مدهشة عن المناظر المنقوشة فى مقابر عصر الأهرام التى بنيت على هيئة المصاطب. وقد وصلت الدقة فى نقلها لدرجة أن الباحث لأول وهلة كثيرًا ما يشك فى تاريخ الأثر الذى نقشت فوقه. والواقع أن شخصًا من رجال «طيبة» يدعى «آبا» أرسل فنانيه الرسامين إلى أحد القبور التى من عهد الدولة القديمة بالقرب من «أسيوط» لينقلوا عنه النقوش التى يريدها فى القبر الذى كان يعده لنفسه فى «طيبة»، وكان كل السبب فى ذلك أن صاحب القبر القديم كان يسمى هو الآخر «آبا» أيضًا.

كذلك رأينا فيما تقدم فى الفصل الثالث من هذا الكتاب أن «المسرحية المنفية» قد وصلت إلينا لأن الفرعون الأثيوبى الذى وجد فى القرن الثامن ق. م. أخذته روح التقوى فأمر بإعادة تدوين كتاب قديم، كان مكتوبًا على بردية من عهد الأسر القديمة، باعتبار «إنه من صنع الأجداد وأنه قد أكله الدود» فنقش على حجر من البازلت الأسود يوجد الآن بالمتحف البريطانى.

وهكذا جرى البحث وقتئذ بشغف عن الكتابات واللفائف القديمة المقدسة التى بقيت من عهد تلك الأيام الخالية، حيث كانت تجمع وفوقها تراب تلك العصور الماضية ثم تفرز وترتب. لقد صار الماضى القديم صاحب السيادة العليا. ولا شك أن الكاهن الذى كان يحبذ ذلك الماضى العتيق كان فى الحقيقة يعيش فى عالم من الخيالات، حيث لم يكن لكل ذلك أى معنى حيوى لأهل العصر الذى يعيش

فيه. وبمثل ذلك كانت نفس الروح الرجعية فى «بابل» هى السائدة، وقت أن كانت امبراطورية «نبو خاد نزر» (بختنصّر) هى الأخرى تقوم بحركة بعث جديد. كما سادت تلك الفكرة نفسها أيضًا فيما بعد بين العبرانيين العائدين من المنفى. فكأن العالم قد أخذ يطعن فى السن، وكان القوم يتحدثون بولوع وشغف عن أيام شبابه الغابر. على أن هذا المنهاج الذى كان يجرى مجراه للاحتفاظ بالقديم هوى بذلك التدين العتيد عند المصريين القدماء من حضيض إلى حضيض أبعد منه غورا نحو الانحلال والجمود، حتى آل أمره إلى ما وجده عليه المؤرخ الإغريقى «هردوت» من مجرد شعائر ظاهرية جامدة وتقاليد كهنوتية لا حصر لها، كانت تؤدى بحذق ودقة، اشتهر المصريون بسببهما بأنهم أكثر شعوب العالم تمسكًا بالدين. غير أن تلك الشعائر لم تعد بعد تعبر عن حياة باطنية نامية متطورة، كما كانت عليه الحال فى تلك الأيام الخالية، وقبل أن تخمد الحيوية المبتكرة عند الجنس المصرى.

هذا وقد كنا نتتبع فيما تقدم على وجه عام نمو تلك الأفكار الخلقية عند ذلك الشعب المصرى العظيم، الذى ظل يتطور خلال مدة تنوف على ثلاثة آلاف سنة تتنازعه فيها القوى الباطنة فى ذلك الإنسان القديم مع العوامل المحيطة، حتى هيأت تصوره للقوى الإلهية وتكييفه لمقاييس السلوك البشرى. فالإلهية كما كان يدركها الإنسان فى كل مكان من العالم الشرقى القديم، هى من نتائج الخبرة البشرية، والآراء القديمة عن الإله ليست إلاّ تعبيرًا عن أحسن ما أحس به الإنسان وتخيله ممثلاً فى أرقى كائن تصوره. والواقع على ما أظن أن ما قصده «روبرت ج. إنجرسول» عندما قال فى سخرية لاذعة: إن أسمى عمل قام به الإنسان هو صنعه لإله أمين» هو قول - بالرغم من كل ذلك - صادق حتى الأعماق. فقد رأينا كيف وصل المصريون القدماء فى تطوراتهم البطيئة إلى «إيجادهم للإله الأمين»، ونحن[٩] بدورنا قد حصلنا على إلهنا بالوراثة عن العبرانيين.

وقد وصلنا الآن إلى مركز يمكننا من الإجابة عن كُنْه تلك الوراثة للأفكار الخلقية والدينية، أهى من صنع وإنتاج المدنية العبرانية فقط؟ أم أن التاريخ

يكشف لنا أن إرثنا الخلقى قد تكون إلى درجة عظيمة فى عصر أقدم بكثير من العهد العبرانى، وإنه قد انحدر إلينا على شكل إنتاج تألف من طائفة من المدنيات العظيمة، وعلى ذلك يعد أعلى وأسمى تعبير أنتجته الحياة الإنسانية القديمة برمتها، أى إنه يعد أسمى رسالة قام بتقديمها إلينا والدنا «الإنسان القديم».

هوامش الفصل السادس عشر:

(١) من أنشودة «آمون» الكبرى، وهى بردية بدار الآثار بالقاهرة. ويرى بعضهم أنها أقدم من عهد «إخناتون».

(٢) وفى القرآن الكريم: «وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعانى فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون» (سورة البقرة (٢) - آية ١٨٦).

(٣) كان من أكبر الوظائف الذى يتولاها الوزير الأول منصب رئيس القضاة.

(٤) انظر مثلا أغنية «سندباد الجمال فى حاشية بيت الرجل الثرى (طبعة الجزائر لكتاب سندباد البحرى - المتن العربى صفحة٤).

(٥)نشرها السيرولس بدج Sir E. Wallis Budge, Facsimiles of Egyptian Hieratic Papyri in the British Museum, etc. Pls. I - XIV.

Admonitions of Amenemapt, the Son of Kanekht (Second Series London, 1923).

(٦) راجع: H. O. Lange, Das Weisheitsbuck des Amenemope, P. 18 (Copenhagen, 1925).

(٧) وجاء ذم المراءاة فى القرآن الكريم فى مناسبات منها: «فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون» (آية ٦١٣ من سورة الماعون (١٠٧)). وفى الحديث أيضا كثير، ومنه «ملعون ذو الوجهين».

(٨) ومما يجرى مجرى الأمثال أو هو من الأقوال الشائعة: «أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد»، وجاء هذا برواية أخرى: «بينما يقطع الجريد يفعل الله ما يريد».

(٩) يريد بقوله «نحن» الغربيين

الفصل السابع عشر

مصادر إرثنا الخلقى

لقد فحصنا بشىء من الإيجاز ـ فى الفصول السابقة ـ أهم المصادر الأصلية التى تكشف لنا عن ظهور المبادئ الخلقية وتطورها فى إفريقية الشمالية الشرقية منذ منتصف الألف الرابع قبل الميلاد إلى أن انطوت مصر فى غمار عاهليات البحر الأبيض المتوسط الأسيوية فى القرن السادس ق. م وعلى ذلك قد استغرق التطور الخلقى الذى كشفت لنا عنه هذه الوثائق الأصلية مدة تقرب من ثلاثة آلاف سنة. وكان غربى آسيا فى خلال تلك المدة الطويلة كذلك يتمخض بدوره هو الآخر عن طائفة من المدنيات العظيمة، كان لها أهمية أساسية فى مستقبل تقدم الجنس البشرى. وأقدم تلك المدنيات هى المدنية البابلية، التى يمكننا الآن أن نتتبع نشأتها خلال بضعة القرون الأولى من الألف سنة الرابعة ق. م. ولقد أحرزت الحضارة البابلية بعض التقدم السامى فى عالم الفن فى خلال ألف السنة الثالثة ق. م. فإن استعمالها المبدع للصور الحيوانية المتباينة الأشكال فى تراكيب متزنة تكاد تنطق بما تمثله من مناظر القوة والحركة، قد أثر فى الفن الزخرفى فى جميع أدوار العالم التاريخية التالية لذلك. وقد كان هذا الفن متأثرًا تأثرًا عميقًا بالأساطير العتيقة التى نشأت فى غربى أسيا، ولاسيما البابلية منها، مما عبر عنه الأدب المبكر أبلغ تعبير وظهرت له حيوية مدهشة، حتى صارت هذه الأساطير شائعة الانتشار إلى ما وراء تخوم «بابل» بمسافة بعيدة، وكانت ذخرًا

كبيرًا لموضوعات الفن الزخرفى المبكر فى غربى آسيا. على هذا النحو شقت أسطورة الطوفان البابلى طريقها متجهة غربًا شطر البحر الأبيض المتوسط حتى انتشرت فى سوريا وفلسطين، إلى أن فتحت فى النهاية طريقًا لها إلى الأدب العبرانى، ومن ثم وصلت إلينا عن طريق «العهد القديم». وتوجد فى جميع الأدب العبرانى إشارات لتلك الأساطير، وبخاصة فى الأناشيد الدينية التى نسميها «المزامير».

على أننا إذا استثنينا اهتمام الحضارة البابلية الأولى بالفن، نجد أن تلك الحضارة بقيت مادية محضة لدرجة مدهشة، وأنه إنما كان بعد ظهور المملكة الكلدانية (بابل الجديدة) فى القرن السادس ق. م، وما تبع ظهورها من سيادة الفرس بعد عهد «كورش»، أن كشف لنا البابليون عن نشاط ذهنى بارز، حيث وضع فلكيوهم العظماء الأسس التى شاد عليها علماء اليونان فيما بعد علم الفلك.

وكان البابليون ـ بطبعهم ـ شعبًا تجاريًا على الأخص، وجل اهتمامه منصرفًا إلى المعاملات وتنظيم شئونها حسب القانون. وقد قال أحد علماء الإنجليز البارزين فى التاريخ الآشورى[1] عن ذلك الشعب: «لم يوجد شعب آخر كان منصرفًا على الدوام إلى طلب المال والحصول عليه ومنهمكًا بكلياته فى البحث وراء النجاح فى هذه الحياة (أكثر من البابليين». فقد كانت قافلاتهم وقافلات «الأشوريين» تتوغل غربيًا فى آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين من أزمان سحيقة ترجع إلى الألف الثالث ق. م وقد سرت بجانب هذه المعاملات البابلية التقاليد والقوانين التجارية التى كان التجار البابليون يسيرون على مقتضاها. وبعض هذه القوانين نفسها ـ مما انحدر إلينا عن طريق «قانون حمورابى» ـ كانت متداولة الاستعمال كذلك فى فلسطين قبل عهد العبرانيين، ثم وصلت عن طريق «العهد القديم» إلى الحضارة الغربية، حيث يقابل للمرة الثانية، فوق مكتب دراسات المستشرق الحديث، القانون العبرانى قوانين «حمورابى» البابلية. ولا شك فى أن مثل نظام عطلة يوم السبت قد دب إلى الحياة الفلسطينية عن طريق مثل هذه الاتصالات العملية التى كانت تستند عليها المعاملات التجارية، فإنه سواء أراد

رجل الأعمال الغربى الذى يعيش اليوم فى الشرق الأدنى أم لم يرد، فإنه يتحتم عليه مراعاة السير فى المعاملات التجارية حسب التقويم المتبع، فيما يختص بالأيام المقدسة التى لا يجرى فيها بيع ولا شراء. ولابد أن مثل هذه الحال هى ما كان يسير عليه التجار الفلسطينيون حينما كانوا يتعاملون مع التجار البابليين.

وعلى ذلك نجد أن الفلسطينيين لم يأخذوا عن البابليين شيئًا يذكر من معتقداتهم وآرائهم الدينية سوى ما يتعلق بالأوضاع الظاهرية والشعائر المرعية. أما العقائد الجوهرية المكونة لأركان الدين فلم يكن الأخذ عنها بمثل هذه السهولة. وقد تصور البابليون الأوائل آلهتهم ممثلة فى القوى الطبيعية، وهم فى ذلك مثل المصريين القدماء، فكانت أقدم معبوداتهم آلهة الطبيعة. ولذلك نجد فى أنشودة عظيمة ـ كانت لا بد مستعملة فى عبادة «سِن» إله القمر فى معبده بمدينة «أور» ـ أن مؤلفها الكاهن كشف فيها عن أصل عالم الطبيعة حيث رأى عفوًا إله القمر يقوم بعمله، ثم يذكر أن عمل ذلك الإله ينتقل فى الوقت نفسه إلى دائرة الشئون البشرية. وهو فى ذلك الوقت لم يسند إليه خلق كل الأشياء المادية فحسب، بل عزا إليه أيضًا تأسيس كل النظم البشرية ـ كتأسيس الدولة ـ بما فى ذلك من الحكومة والديانة الرسمية، وبخاصة حياة الشعب الخلقية، حيث يقول:

«إن كلمتك يتولد منها الصدق والعدالة

وعلى ذلك يتكلم الشعب الصدق».

وهذه الأنشودة الرائعة، بما تحويه من صورة سامية تنطق بسؤدد إله القمر، بما فى ذلك من إنشائه الحياة الطاهرة وصيانتها، تدل على أنه كانت توجد هناك عقول مفكرة بين الكهنة الذين كانوا يقومون بالواجبات الدينية الرسمية فى «بابل القديمة». على أنه من المؤكد أن الكاهن الذى ألف هذه الأنشودة لم يخصص منها غير جزء يسير جدًا لسلطان القمر من الناحية الخلقية. فقد كان أكثر اهتمامه موجهًا لما لذلك الإله من السلطان الذى لا حد له على موارد البلاد المادية، ولذلك كان معظم الأنشودة منصرفًا إلى تلك الناحية من الصورة التى صورها لنا. فمن بين الثمانية والأربعين سطرًا التى تشملها تلك الأنشودة لا يوجد إلا نحو سطرين ـ بل سطر واحد على وجه التأكيد ـ خصصه ذلك المؤلف الكاهن «للصدق والعدالة». والأنشودة هى كما يأتى بعد حذف بعض سطورها:

«أيها الأب الرحيم الشفيق

الذى فى قبضته[٢] حياة الأرض قاطبة

أيها الأب إن ألوهيتك كالسماء العالية:

نهر عريض مفعم بالأثمار،

هو الذى يخلق الأرض ويؤسس المعابد

ويسمّى أسماءها

والوالد الذى يلد الآلهة والناس

ويجعل المساكن تقام وينشئ القرابين

وهو الذى يدعو الملكية ويعطى الصولجان

ويحدد ما هو مقدر للإنسان فى الأيام البعيدة

وهو الأمير ذو البطش لا يرى ما فى قلبه الفسيح أى إله

....

والرب الذى يقرر حكم السماء والأرض

والذى لا مبدل لأمره

والقابض على النار والماء والمرشد للمخلوقات

الأحياء، فمن ذلك الإله الذى يعادلك؟

من المعظم فى السماء؟

إنك أنت وحدك المعظم

ومن المعظم فوق الأرض؟

إنك أنت وحدك المعظم

وحينما يتردد صدى كلمتك فى السماء فإن آلهة العالم العلوى يسجدون لك، وحينما يتردد صدى كلمتك فوق الأرض فإن آلهة العالم الدنيوى يقبلون الأرض

لك.

وحينما ترتفع كلمتك إلى عليين كالهواء فإنها تجعل المراعى تنمو وعيون الماء تغزر

وحينما تنزل كلمتك إلى الأرض فإن الكلأ يخرج شطأه

وكلمتك تصيّر الحظائر بما فيها من قطعان سمينة

وتنشر المخلوقات الحية.

وكلمتك يتولد منها الصدق والعدالة وعلى ذلك يتكلم الناس الصدق

وكلمتك السماء العلا، والأرض المستورة التى لا يخترق حجبها نظر

ومن يفهم كلمتك؟ ومن يضارعها؟

اشمل بنظرك بيتك! انظر إلى مدينتك! انظر إلى «أور»[٢].

فنجد أن الأنشودة طموحًا دينيًا فى مستوى عال، لا بد أنه كان قد أحدث تأثيرًا واسع النطاق فى آسيا الغربية. والواقع أن هذه الأنشودة تذكرنا بالمزامير العبرانية، مع أنها ترجع إلى ما قبل ظهور الدين العبرانى بزمن بعيد. وعلى أية حال فإن مهمتنا الخاصة هنا لا شأن لها بالدين على وجه عام، بل تتعلق خاصة بالآراء والمبادئ الخلقية وإذًا ما الذى كانت تشتمل عليه الحياة البابلية من المبادئ الخلقية؟ وما الأفكار الخلقية التى تركها لنا البابليون؟

والواقع أن فن النحت عندهم لا يمدنا بأى برهان محسوس على براعتهم فى رسم الصور الإنسانية، وهو دليل على قلة اهتمامهم بالتعبير عن أخلاق الإنسان عن طريق الرسم أو بتصوير الملامح البشرية، ذلك بأنهم لم يهتموا بالتفكير فى الفروق بين مختلف أنواع الأخلاق كما تبرز لنا عندما نقابل بين حياة الطيبين وحياة الأشرار. والدليل الذى يلفت النظر لتلك الحالة العقلية هو عدم معرفتهم شيئًا عن المحاكمة فى عالم الآخرة فيما بعد الموت، فكل الناس عندهم، الطيب والخبيث، كان مرجعهم إلى «شول» الذى هو المثوى السفلى نفسه المظلم للجميع.

وبالرغم من ذلك فإن شعب بابل قد تقدم فى معتقداته فصار يؤمن بأن

«شماش» إله الشمس، الذى يمثل عندهم إله العدل ـ كما كانت الشمس تمثل إله العدالة عند المصريين القدماء ـ كان يبغض السلوك الذى لا ينطوى على المودة. وهذا المذهب قد عبر عنه فى أنشودة «لشماش» جاء فيها:

«يا شماش أنت الذى لا يفلت من شباكك شرير

ولا يفر من فخك خاطئ.

أما من يحنث فى يمينه فإنك تعجل له العقاب،

ومن لا يحترم كل مقدس فلن يستطيع الفرار منك.

شباكك العريضة مطروحة لمن يقترف الشر

ولمن يرفع بصره إلى زوجة رفيقه.....

إذا أشهرت سلاحك عليه فلا منجى له

فإذا وقف أمام المحكمة فليس فى استطاعة أحد مساعدته ولو كان والده.

وليس هناك من يعارض كلمة القاضى حتى إخوته

فهو يحبس فى فخ نحاسى لا مناص له منه.

وأما من يضمر السوء فإنك[٤] تحطم قرنه

ومن يتحيز إلى المسىء فإن الأرض التى تحت قدميه تميد به

....

والقاضى الجائر تجعله يشاهد الأغلال،

ومن يقبل الرشوة ويلتوى فى الحق

فإنك تثقله بالعقاب.

أما من يأبى الرشوة ويتحيز إلى جانب الضعيف

فإنه يدخل السرور العظيم على «شماش» ويعيش طويلاً.

والقاضى الحذر الذى يقضى بالعدل

يعد لنفسه قصرًا ويكون مثواه مقرًا ملكيًا.....

كمثل ماء الينبوع الأبدىّ فيه بذرة لا تنفد

لمن يعمل بتقى وطيبة ولا يعرف الغش........

أما المرء الدنىء العقل فإنه يسجل (على نفسه) ذلك بالقلم،

أما الذين يرتكبون الشر فإن بذرتهم لا بقاء لها.

فنجد فى هذه الأنشودة مبدأ الجزاء الحسن للرجل الفاضل والعقاب للمذنب، مع الاعتراف بالصفة الاجتماعية للأخطاء. غير أن مثل هذا الاعتراف لم يسدّ تيار الحياة العريض فى «بابل» ولم تميز به الآراء المنبثة فى أنحاء الأدب البابلى عن كنه الشر، ومع أن المزامير البابلية الخاصة بالتوبة يستشهد بها عادة على أنها تعبر عن شعور البابليين المرهف من جهة الخطيئة، فإنه يتضح منها فى الحقيقة، أنها لا تحتوى على أى بيان يدل على أن الخطيئة هى ضد المجتمع الإنسانى. وقد لاحظ الأستاذ فستر مارك (Westermarck)[٥] بنظر ثاقب أنه لا يوجد فى أى «مزمار» معروف لنا من التى وضعت للتوبة أية دلالة على أن فكرة الخطيئة فيها تشتمل الذنوب التى ترتكب ضد بنى البشر. فقد كان شعور البابليين أن الذنوب لم تكن مجردة تعد ظاهرى على حقوق الإله، وقد لا يكون فيها فى الواقع ما يدعو إلى غضب الإله. وتدل مزامير التوبة صراحة على أن العاقبة الوخيمة التى يتضرع المذنب بحرارة للنجاة منها لا يرجع سببها إلىّ سخط الإله على الأخلاق الشريرة، بل كانت ترجع - كما لاحظ الأستاذ «فستر مارك» - إلى «اللعنات التى كان يصبها على المذنب من حاق به الضر»، وهذا الاستنتاج يتفق تمام الاتفاق مع ما لوحظ بوجه عام من أن المبادئ الخلقية عند الشعب البابلى - وهى التى لم نر إلى الآن ما يدل بصفة قاطعة على نموها وتطورها - لم تكن من العناصر الجوهرية فى حياة الشعب أو حياة حكامه. وهذه الحقيقة تتضح لنا صحتها - بصورة بارزة - من قانون «حمورابى» الشهير، الذى وردت فيه الجرائم والأحكام مدرّجة حسب الدرجات الاجتماعية التى يشغلها المتقاضون أو المذنبون. فكان الرجل صاحب المنزلة السامية ينال فيه رعاية

ظاهرة أكثر من الرجل الوضيع الأصل. وقد رأينا فيما سبق أن الحكماء المصريين الأقدمين ووجهاء القوم كانوا دائمًا يكررون ذكر عدم اكتراثهم للفوارق الاجتماعية بين طبقات الناس. فقد جاء فى قول أحدهم: «إنى لم أرفع من شأن العظيم على الوضيع». وهو تعبير يدل على الرجل صاحب المكانة العظيمة ومقارنته بمواطنه «المعتاد»، وبالنص الحرفى «الرجل الصغير». والواقع أن المنزلة الاجتماعية أو المرتبة العالية لم تعط المصرى القديم أية ميزة فى نظر القانون. ونذكر بهذه المناسبة ما أوردناه فيما سبق من أن الفرعون قد نبه وزيره الأكبر إلى أن واجبه يقضى عليه: «بألا يظهر احترامه للأفراد بصفة كونهم أمراء أو مستشارين». أى أن هذا المبدأ كان من صلب دستور الدولة المصرية قديمًا. أما عند البابليين فكانت العدالة الاجتماعية التى هى بعينها الأساس الذى يقوم عليه الرقى الخلقى، ناقصة جدًا، بل معدومة بالمرة، وعلى ذلك لم تسهم مدنيتهم مساهمة جوهرية فى تاريخ آسيا الغربية الخلقى.

وهناك مصدر آخر يمكن اعتباره من أمثال تلك المؤثرات فى تاريخ آسيا الغربية المبكر - ويجب علينا أن نعيره التفاتًا حتى فى مثل هذه النظرة العاجلة - وهو ما يستمد من الشعور الخلقى السامى عند الحيثيين، وبين أيدينا الآن قطع من قوانينهم. وإن أبرز مثل نذكره فى هذا الشأن ما نراه من تقديرهم للمسئولية الخلقية فى الالتزامات الدولية التى أقرها أحد الملوك الحيثيين فى القرن الثالث عشر، حيث يعترف هذا الملك بهجوم - لا مبرر له - قام به ضد الدولة المصرية فى عهد «رعمسيس الثانى». ولما كان هذا الملك يشعر بالخطأ الخلقى الذى ارتكبه، فقد نسب الوباء الذى كان شعبه يعانيه إذ ذاك إلى غضب إله عليهم بأن أرسل عليهم هذا الوباء بمثابة عقاب على تلك الخطيئة التى ارتكبها. كما يلاحظ أيضًا نمو شعورهم بالحق والاعتدال فى الصورة المنقحة من القانون الحيثى التى أحدثها الملك «خاتشيل» وجعلها أكثر رأفة من قبل، حيث قد قابل الملك ذلك التنقيح بالصرامة التى كان عليها القانون القديم المعمول به قبل حكمه. وقد بقى لنا من هذا القانون نحو ٢٠٠ فقرة، وهى تكوّن جزءًا كبيرًا منه، مدونة على لوحات من الطين.

ومما تجدر بنا ملاحظته أن الحيثيين كانوا كذلك قد جعلوا العقوبات القانونية مدرجة حسب المركز السياسى الذى يشغله المذنب، فكانت تخف وطأة العقاب إذا كان المجرم من أهل البيئة المحلية، فيكون أقل من العقاب الذى يوقع على أحد رعايا الحكومات المجاورة[٦]. على أنه لا يزال أمامنا مقدار عظيم من الحفائر والأبحاث التى لابد من درسها وإتمامها قبل أن تكون لدينا المعلومات الوافية عن كنه المدنية الحيثية. وإلى أن يتم ذلك، تشير الدلائل إلى القول بأن الحيثيين كان لهم بعض التأثير فى التقدم الخلقى فى آسيا الغربية. على أنه من المهم أن نلاحظ هنا أن المدنية الحيثية بقيت ضئيلة التأثير إلى أواخر الألف الثانى قبل الميلاد، وهو وقت متأخر بالنسبة إلى تاريخ المدنية الشرقية القديمة.

وقد اتصل العبرانيون خلال أسرهم فى الشرق ـ وهم فى مرحلة متأخرة من مراحل تقدمهم الدينى ـ اتصالاً وثيقًا بالمدنية الفارسية ووقفوا على الكثير من ديانة «زُروستر». ومذهب «زروستر» هذا مذهب مزدوج يدعو كل إنسان أن يقف إلى جانب قوة من اثنتين؛ فإما أن يملأ روْحه بالخير والنور، وإما أن يخلد إلى الشر والظلمة. وقد مثلت هذه القوى جميعها فى كائنات حية، وأية طريقة منها يسلكها الإنسان لابد أن ينتظر بعد موته حسابًا عنها فى عالم الآخرة. وإن ظهور فكرة الحساب فى الآخرة ـ وهو شىء لم يعرف فى آسيا الغربية قبل «زروستر» ـ قد أوجد نظرية قوية أن «زروستر» قد أخذ الكثير من ديانته عن الديانة المصرية القديمة.

وبعد فوات ستة أسابيع على كتابة البيان المتقدم ـ وكان تحت الطبع بالفعل ـ كنت قائمًا لأول مرة بين الدمن الضئيلة الباقية من قصر «كورش» الأكبر، وهو واقع على مسيرة أقل من نصف ساعة من قبره فى «بازار جادة» (Pasargadae)، ولم يبق من هذا المبنى (الذى كاد أن يختفى) إلا عمود مربع أو عمودان من الأحجار كانا لا يزالان قائمين، منقوشًا عليهما بالخط المسمارى باللغة الفارسية القديمة العبارة الموجزة الآتية: «أنا «كورش» [قد أقمته]». وأحد هذين العمودين عبارة عن قائمة باب ولا يزال ظاهرًا فوقه نقش بارز يمثل صورة إنسان طويل القامة ـ فى شكل أحد أنصاف الآلهة له زوجان من الأجنحة المنتشرة فى وضع

رائع ـ كأنه واحد من سلالة الملائكة المذكورين فى التوراة. وقد عرفت فيه نقشًا رأيته من قبل فى بعض المطبوعات[٧]، غير أننى عندما حققت النظر بدقة فيما كان متآكلاً من النقش ظهر لى فى الحال شىء لم يسبق أن جذب نظرى من قبل قط. ذلك أن رأس تلك الصورة المجنحة كان يعلوها تاج «أوزير» إله الحساب المصرى فى عالم الآخرة عند قدماء المصريين. ولمثل هذا الرمز دائمًا أهمية فى الفن الشرقى القديم. فهذا النذر (بحساب الآخرة) ذو الجناحين، بقى قائمًا فى مدخل قصر «كورش» نحو ٢٥٠٠ سنة، وكل زائر دخل القصر كان يشاهده لابسًا تاج الحساب لعالم الآخرة عند قدماء المصريين، وعلى ذلك يكاد يكون من الأمور التى لا شك فيها أن المحاكمة الزروستورية فى الآخرة مأخوذة عن قدماء المصريين، كما أخذ الفرس الكثير غيرها فى العمارة والفن عن المصريين القدماء.

وبعد أن غادرت بلاد الفرس كتب إلىَّ الأستاذ «أرنست هرزفلد»[٨] (Ernest Herzfeld) فى تقرير عن أعماله فى الآثار الفارسية القديمة أنه كان ينقل نقوشًا طويلة لم تكن قد نشرت بعد، على واجهة قبر الملك «دارا الأكبر»، وأن هذا النقش يحتوى على بيان خلقى وعلى المثل الأعلى للسلوك، فيقول «دارا» مثلاً:

«لقد أحببت الصواب، وأما الخطأ فلم أحبه

وكانت إرادتى عدم ارتكاب أى ظلم ضد أية أرملة أو يتيم

ولم تكن إرادتى أن يحيق ظلم باليتامى أو الأرامل

ولقد عاقبت الكاذب عقابًا صارمًا

وأما الذى يكدّ فإنى كافأته مكافأة حسنة».

ويجب علينا أن ننتظر نشر النص الكامل لهذه الرسالة الجديدة المدهشة التى جاءتنا من الملك «دارا الأكبر»، غير أنه من المدهش أن المقتطفات التى أرسل بها إلىَّ الأستاذ «هرزفلد» يشبه رنينها فى الأذن صدى التعاليم الاجتماعية التى نطق بها الحكماء المصريون القدماء. هذا ولدينا الآن الأدلة الوافرة على أن التطور الدينى الذى أحرزه العبرانيون بعد عودتهم من المنفى (فى بابل) كان متأثرًا

بتعاليم «زروستر»، وأنه يجب لذلك، أن نضيف إلى المؤثرات الدولية التى تعرضت لها الخلقيات العبرانية، التعاليم التى جاء بها هذا النبى «الميدى الفارسى» العظيم «زروستر».

وكان قد نما قبل ظهور الملكية العبرانية فى أواخر القرن الحادى عشر، مجموعة كبيرة من الأمم المتحضرة على طول الطرف الشرقى للبحر الأبيض، تقع بين بلاد الحيثيين شمالاً وتخوم مصر جنوبًا. والأرجح أن أهم هذه الشعوب من وجهة تاريخ المدنية هم الفينيقيون. وقد كانت بعض العناصر المهمة فى المدنيتين البابلية والمصرية القديمة عاملاً جوهريًا فى تكييف الحياة والثقافة فى مدن الساحل الفينيقىّ الزاهرة التى كانت تتألف منها المراكز التجارية الفينقية، ومن ثم كان من السهل أن تدخل هذه الخيوط الأجنبية فى نسيج ثوب الحياة العبرانية. وعلى أية حال فنحن لا نعلم شيئًا تقريبًا عن نوع التطور الخلقى عند الفينيقيين.

وأما فى بلاد فلسطين التى احتلها العبرانيون فيما بعد. فإن الكنعانيين، الذين كانوا يسكنون هذه البلاد قبل العبرانيين، كانوا قد اجتازوا مرحلة من النمو المتحضر تبلغ أكثر من ألف سنة حينما غزا العبرانيون البلاد.

وقد عرفنا من النقوش التاريخية البابلية والمصرية القديمة، وكذلك من الحفائر الأثرية، شيئًا كثيرًا عن هذه المدنية الفلسطينية الراقية النامية السابقة لعهد العبرانيين، كما أنه كان للثقافة البابلية كما ذكرنا من قبل أثر مهم خالد فى فلسطين الكنعانية، وعن طريق الكنعانيين - بوجه خاص - وصل أثر البابليين فى الفن والأدب والدين إلى العبرانين. يضاف إلى ذلك أن هذا الإقليم كان منذ زمن بعيد واقعًا تحت نفوذ الحضارة المصرية القديمة. فقد بدأ المصريون يبسطون سيطرتهم على الساحل الفينيقىّ قبل أن يطأ العبرانيون فلسطين بأكثر من ألفى سنة، إذ اقتحمت الجيوش المصرية فلسطين قبل سنة ٢٥٠٠ ق. م. ولما فتح الفراعنة المصريين أسيا الغربية ووصلوا فى فتحهم إلى نهر الفرات فى خلال القرن السادس عشر ق. م. بقيت فلسطين مستعمرة فى أيديهم أكثر من أربعة قرون، والواقع أنهم حكموا فلسطين مدة قرنين بعد دخول العبرانيين فيها. وبذلك

بلغت المدنية الكنعانية مرتبة سامية فى القرون التى احتلتها فيها مصر. فلما غزاها العبرانيون كانت قد صبغت مرارًا وتكرارًا بالعناصر المصرية.

وكان من نتائج ذلك أن العبرانيين حيثما دخلوا فلسطين صاروا على اتصال مباشر بتلك الحضارة الكنعانية المركبة، التى أنشئ معظمها من العناصر البابلية والمصرية القديمة معًا. هذا فضلاً عن أن تلك المدنية الكنعانية، بمرورها فى تجاريب اجتماعية طويلة، كسبت كذلك عناصر ثقافية كثيرة من صنع الكنعانيين أنفسهم. والواقع الذى لاشك فيه أن اللغة التى وجدها العبرانيون الفاتحون، وهى اللغة الكنعانية لغة البلاد وقتئذ، قد اتخذها العبرانيون أنفسهم لغة لهم، وهى التى انحدرت إلينا فيما بعد فى ثوب اللغة العبرانية التى كتبت بها التوراة. ومما يؤسف له أننا لا نعرف شيئًا يذكر عن التاريخ الخلقى لذلك الشعب قبل الغزو الإسرائيلى.

وبتلخيصنا لموقف فلسطين من نواحيه المختلفة، نرى أن تلك البلاد من الوجهة الجغرافية تقع على جسر طبيعى ضيق بين البحر الأبيض المتوسط من جهة والصحراء العربية من جهة أخرى، وهو جسر يقع بين قارتين طالما اتخذ طريقًا عامًا لربط إفريقيا بأسيا منذ عهد ما قبل التاريخ.

أما من الوجهة السياسية فإن فلسطين كانت قديمًا كما هى الآن: كرة قدم دولية.

وأما من الناحية الثقافية فإنها، كما أوضحنا الآن، كانت داخلة ضمن الإقليم التجارى الذى طالما كانت المعاملات البابلية تسيطر عليه، كما كانت فى الوقت نفسه تقع مباشرة فى ظل صرح المدنية المصرية العظيمة. فالقوم الذين استقروا فى أرض فلسطين لم يجدوا أنفسهم فى وسط حضارة قديمة تكونت بالإقليم نفسه ومصبوغة إلى حد كبير بالصبغة المصرية القديمة فحسب، بل كانوا يطلّون أيضًا على مدنيات أعرق منها بكثير على كلا الجانبين فى آسيا وإفريقيا. فمن هذه البيئة الدولية البعيدة الأثر بالشرق الأدنى الذى كان يضم فلسطين بين جوانحه نشأت تلك الأفكار الخلقية التى غذّت العالم الغربى فى النهاية بالآراء الخلقية السائدة فيه الآن، إذ وصلت إلينا عن طريق بقايا الأدب العبرانى، وهو

الذى كانت محتوياته الخلقية كما أسلفنا بعيدة كل البعد عن أن تكون من أصل عبرانى محض.

ومن الحقائق المدهشة أن يكون ذلك الإرث الخلقى العظيم قد وصل إلى المدنية الغربية من شعب خامل الذكر سياسيًا منزوٍ فى الركن الجنوبى الشرقى من حوض البحر الأبيض المتوسط. فإن هذا الشعب لم يقم له نظام قومى خاص به إلا منذ العشر أو العشرين سنة السابقة لعام ١٠٠٠ ق. م، ولم يبق أمة موحدة إلا نحو قرن واحد على أكبر تقدير. وعلى إثر انحلال تلك الدولة الصغيرة نجد أن الجزءين اللذين قاما على تراثها ظلا يكافحان البقاء فاستمر أحدهما مدة قرنين تقريبًا. وأما الجزء الآخر فإنه بعد أن مكث مدة قرن وربع قرن من سقوط الجزء الأول قضاها فى حياة قلقة شبه مستقلة، تداولته فيها أيدى ممالك الشرق العظيمة قديمًا، قد حاق به كذلك الفناء التام بعد سنة ٦٠٠ ق. م. بزمن قليل. بذلك تكون حياة العبرانيين القدامى القومية المستقلة ـ أو حياة جزء منهم ـ التى بدأت لأقل من ثلاثين سنة قبل عام ١٠٠٠ ق. م. ـ قد مكثت قرابة أربعة قرون وربع القرن وختمت فى باكورة القرن السادس ق. م. أى أن هذا العهد من الحياة العبرانية القومية قد وقع بأكمله تقريبًا فى النصف الأول من ألف السنة الأخيرة قبل الميلاد المسيحى. وفى تلك الفترة كان تقدم الثقافة فى مصر وفى بابل قد نضب معينه وصار يعد خبرًا من أخبار التاريخ القديم.

وإنه لمن المستحيل علينا طبعًا أن نضمِّن هذا! الكتاب المحدود الحجم التاريخ الدينى والخلقى للعبرانيين القدامى حتى ولو بطريق التلخيص. على أن مهمتنا فى هذا الكتاب تضطرنا إلى الكشف عن العوامل الأجنبية المهمة التى عملت فى التطور الخلقى عندهم. ولكى نتمكن من القيام بذلك يجب أن نعيد إلى ذاكرتنا بعض الحقائق البارزة فى التاريخ العبرانى، إذا كنا نريد حقًا معرفة العناصر الأجنبية فى التطور الخلقى العبرانى.

كان ظهور العبرانيين لأول مرة فى ميدان التاريخ فى خطابات «تل العمارنة» التى يرجع تاريخ أقدمها إلى ما بعد سنة ١٤٠٠ ق. م. بقليل، أى فى عهد يسبق بكثير أى أدب عبرانى وصل إلينا.

وهذه الخطابات المسمارية تكشف لنا عن وجود جماعات من العبرانيين الرحل كانوا ينزحون إلى فلسطين، التى كانت وقتئذ تحت سيطرة مصر، حيث كانوا يدخلون هناك فى سلك الجنود المرتزقة. ولا نعرف من شأنهم بعد ذلك شيئًا مدة قرنين من الزمان، إلى أن كان وقت ذلك الأثر المصرى الذى أقامه فى «طيبة» (الأقصر) «مرنبتاح» بن «رعمسيس الثانى» قبل سنة ١٢٠٠ ق. م. بنحو عشر سنين أو عشرين سنة. فقد حفظت لنا فيه أنشودة نصر نجد فيها ذلك الملك يفتخر بقوله: «وإسرائيل قد دمرت وبذرتها محيت».

وقد كان ذلك الحادث فى «عهد القضاة»[٩]، وقت أن كانت الحياة العبرانية القومية لا تزال خاملة لا تكاد تعرف شيئًا من الحكم المركزى أو النظام القومى. فقد كان العبرانيون لا يزالون متأثرين كل التأثر بحياة القرون الطويلة التى قضوها فى الرعى وتلمس الكلأ على حدود الصحراء قبل أن يدخلوا فلسطين، فكانوا لا يزالون متمسكين بالعادات الساذجة المتبربرة الشائعة بين قبائل الصحراء، بل ببعض التقاليد القريبة من الوحشية التى تلازم الحياة الفطرية، مثل ذبحهم الولد البكر قربانًا لإله القبيلة. وهذه الآلهة المحلية قد تكون مثل الشيطان الرجيم الذى كان فى ظنهم يسكن فوق قمة الجبل أو عند غدير الماء، على غرار جنى الليل الذى صارعه «يعقوب» (عليه السلام) عند غدير «جابوك» حتى أجبره على الفرار فزعًا قبل انبثاق الفجر.

ومثل هذا الجنى المحلى كان يطلق عليه فى الصحراء الواقعة جنوبى «يهودة» اسم «إيل». وهذا اللفظ ليس اسم علم وإنما هو الكلمة السامية القديمة التى كانت تطلق على أى إله محلى، وقد انحدر إلينا فى اسم «إسرائيل»، وهو الاسم الذى أطلقه على «يعقوب» الكائن الذى صارعه، وقد بقى لنا كذلك فى طائفة من الأسماء مثل «ميخائيل»، ومعناه «الذى يشبه الإله». وفى الأنحاء الشمالية من «كنعان» كانت الآلهة المحلية عند الكنعانيين تسمى «بعولا» أو أربابا».

ومن الواضح أن بعض العبرانيين الرحل كانوا قد استُعبدوا بعد لجوئهم إلى مصر فى زمن قحط حدث عندهم. وقد قام من بينهم عبرانى امتاز بحسن سياسته وقوة قيادته البارعة ونصب نفسه عليهم وخلصهم من العبودية، وبذلك

صار يعد أول قائد عبرانى عظيم وصل إلينا اسمه.

ومن المهم أن نلاحظ أن «موسى» ـ وهو اسم ذلك القائد ـ كان اسمًا مصريًا، بل هو الكلمة المصرية القديمة نفسها «مّس» ومعناها «طفل»، وهى مختصرة من اسم مركب كامل كالأسماء «أمن مس» ومعناه «آمون الطفل» أو «بتاح مس» ومعناه «بتاح طفل». وهذه الأسماء المركبة نفسها هى الأخرى مختصرات للتركيب الكامل «آمون (أعطى) طفلاً» أو «بتاح (أعطى) طفلاً». وقد لقى اختصار الاسم إلى كلمة «طفل» قبولاً منذ زمن مبكر، إذ كان سريع التداول والتناول بدلاً من الاسم الكامل الثقيل.

على أن الاسم «مس» (طفل) نجده كثير الانتشار على الآثار المصرية القديمة. ولا شك فى أن والد «موسى» كان قد وضع قبل اسم ابنه اسم إله مصرى مثل آمون» أو «بتاح»، ثم زال ذلك الاسم الإلهى تدريجًا بكثرة التداول حتى صار الولد يسمى نفسه «موسى».

على أن ما أظهره «موسى» من الحذق فى القيادة مع الشجاعة والمهارة فى تخليص شعبه من العبودية الأجنبية، وكذلك حادثة التخليص نفسها التى صاحبتها بعض الكوارث الطبيعية التى قضت على الجيش المصرى المقتفى لآثار «موسى» ومن تبعه ـ كل ذلك لقى مكانة لا تمحى فى المعتقدات العبرانية وجعل للعبرانيين إرثًا أصليًا من الفخار كان هو أقدم الأسباب التى ألفت بينهم وجعلت منهم أمة واحدة.

وفى خلال مرحلة مبكرة من مراحل تلك الأحداث تخلف «موسى» فى الصحراء جنوبى فلسطين عند قبيلة من القبائل البدوية التى تعرف بأهل «مَدْيَن»، وكان مكثه هناك كثيرًا وبخاصة مع أحد خدامهم المقدسين الذى يدعى «شعيب» (Jethro) حتى أنه عرف منه شيئًا عن إلههم المحلى «يهوه»(١٠).

وهذا الإقليم الممتد من «سيناء» شمالاً، وبخاصة على طول الأخدود العظيم الذى نتج فيه «البحر الميت» ووادى نهر الأردن، تتوافر فيه البينات الجيولوجية الدالة على وقوع ثوران بركانى حديث نوعًا. ولا شك فى أن الرواية العبرانية التى

ذكرت فى سفر التكوين (١٩: ٢٣ ـ ٢٨) عن تخريب «سدوم» و«عمورة»، وهما مدينتان كانتا فى تلك البقعة، «بالنار والكبريت» من السماء ليست إلا إشارة مبهمة عن حدوث انفجار بركانى لم تنس ذكراه القبائل المحلية فى العهد العبرانى المبكر.

وقد صحب خروج العبرانيين من مصر خوارق جاء وصفها فى كتاب العهد القديم، لا شك فى أنها ذات صبغة بركانية، فالمظهر الغريب الذى ظهر به «يهوه» فى صورة «عمود نار» أو «عمود من دخان»، ثم تجليه فوق «طور سينا» نهارًا محدثًا «للرعد والبرق والسحاب الكثيف»، هى بالبداهة ظواهر بركانية. وعلى ذلك كان من المعترف به منذ زمن بعيد أن «يهوه» ليس إلا إلهًا محليًا للبراكين وكان مقره المختار «طور سينا». ولكن العبرانيين تخلوا بتأثير من «موسى» عن آلهتهم «إلوهيم» القدامى واتخذوا «يهوه» لهم إلهًا واحدًا[١١].

على أنه لابد من باعث آخر إلى ذلك الانقلاب العظيم أقوى من تأثير «موسى» قائدهم الكبير. فمن الواضح أن التخلص من النير المصرى كان مصحوبًا ببعض الظواهر الرهيبة التى عزيت إلى بطش «يهوه» الشديد. وإن الرأى القائل بحدوث انفجار بركانى فى «سينا» حينما ضاق الخناق على العبرانيين فى خروجهم يجد من الأسباب ما يبرره، إذ يمكن أن نفرض أن الزلزال الذى صحب ذلك الانفجار، وموجة المد التى نتجت عن ذلك، هما اللذان أفضيا إلى ابتلاع الجنود المصريين الذين كانوا يتعقبون أثر القوم الفارين.

ومهما يكن من أمر فإن الاعتقاد بأن العبرانيين عندما دخلوا منطقة «يهوه» الواقعة بالقرب من جبل سينا نجاهم هو ببعض المظاهر العظيمة لقوته وعطفه قد احتل مكانة ثابتة فى المعتقدات العبرانية المأثورة. وحينما أقيم محراب ذلك الإله بعد مضى زمان طويل على ذلك فى «بيت المقدس» صوّره عبّاده من الإسرائيليين بأنه آتٍ من «سينا» فى قوة وأبهة ليتخذ مثواه فوق جبل «صهيون».

أما آلهة العبرانيين القدامى «إيل» التى لم يكن لها لون ولا أسماء أعلام يستدل بها على كل منها، وليس لها شخصية ولا أصل تاريخى، فإنهم استمروا طويلاً منافسين ضعفاء لإلههم «يهوه» بعد أن استوطن الإسرائيليون فلسطين،

وأما الآلهة التى كانت أشد بأسًا من مناهضة «يهوه» فهم «البعول» الكنعانيون، وبالرغم من أن العبرانيين كانوا قد اتخذوا «يهوه» إلههم القومى فإنه كان يوجد الكثير من بينهم من تمسك باعتقاده فى الآلهة الأخرى مثل البعول، وكثيرًا ما كانوا يتخذونها معبودات لهم من دون إلههم. على أن وجود اسم «يهوه» نفسه كأنه علم مثل «أبولو» أو «المريخ» لدليل على وجود آلهة أخرى لها أسماء أعلام مثله، ونجد فى التعليم الأول الذى وضعه «يهوه» نفسه لبنى إسرائيل أنه كان يعلم بوجود الآلهة الأخرى، ولذلك قال: «لن تكون لكم آلهة أخرى قبلى».

وقد كان سير الإسرائيليين فى الانتقال من عبادة آلهة عدة إلى عبادة إله واحد لجميع العالم بطيئًا وتدريجيًا حتى لقد استغرق عدة قرون. كما نجد كذلك أن تصور العبرانيين فيما يختص بأخلاق إلههم قد مر فى عدة أطوار، منذ الوقت الذى كانوا فيه مبتهجين بقوة إلههم الطبيعى التى كانت تحطم الكنعانيين وتذبحهم، إلى أن وصلوا إلى تصور الإله أبًا رحيمًا عادلاً. وإن الذى يجعل فى استطاعتنا للآن أن نتعرف بعض الخطوات فى ذلك التطور، الذى به تخطى الإسرائيليون فى تفكيرهم إله الطبيعة، هو كتابات الأنبياء العبرانيين بوجه خاص، حيث يتبين لنا أن ذلك الإله، مع استمراره فى حمل اسم إله البركان القديم «يهوه» فإن الشعب العبرانى أخذ ينظر إليه تدريجًا بمثابة قوة فعالة فى المجتمع البشرى.

ولابد أن النشأة المصرية القديمة التى يرجع إليها الفضل فى جعل موسى قائدًا قوميًا عظيمًا قد أسهمت فى إدراكه لتلك الصورة الواجبة «ليهوه» فى حياة قومه. فإننا نرى مثلاً أن نشأة «موسى» فى مصر وتسميته باسم مصرى جعلاه يحض مواطنيه على الأخذ بشعيرة الختان، وهى عادة مصرية قديمة جدًا كانت مراعاتها عامة فى أيامه بين سكان وادى النيل، ويرجع عهدها إلى ما لا يقل عن ثلاثة آلاف سنة أو تزيد قبل عصره[١٢]. وتنسب المعتقدات العبرانية دائمًا أصل تلك الشعيرة إلى «موسى» (عليه السلام). هذا وإن اتخاذ «موسى» لعادة مصرية مقدسة واعتبارها علامة لبنى إسرائيل، مع أنها شعيرة ألفها بداهة فى مصر منذ نعومة أظفاره، يعد فى الوقت نفسه برهانًا قاطعًا على أنه كان يستقى تعاليم

مما كان يعرفه عن الديانة المصرية القديمة. على أن «موسى» لم يكن عبدًا لمحاكاة التقليد المصرى القديم، يظهر لنا ذلك عندما نراه اتخذ عن أهل «مدين» «يهوه» إلهًا له. ولما كان أهل «مدين» قوم بدو سذج ليس لهم من المهارة فى الفنون ما يمكنهم من صنع تماثيل لإلههم، فإنه ترك «يهوه» دون أن يصنع له صورة أو تمثالاً ما، كما كان الحال عند أهل «مدين» من قبل.

على أننا نجد أن «موسى» كان يتمسك ببعض الذكريات عن التماثيل الدينية المصرية. فقد كان هو نفسه يحمل عصًا سحرية عظيمة، لا شك فى أنها كانت فى صورة ثعبان، تسكن فيها قوة «يهوه»، كما كان ينصب ثعبانًا من النحاس البراق ليشفى به الناس. وكان هذا الثعبان بطبيعة الحال أحد تلك الثعابين المقدسة العديدة فى مصر، وقد بقيت صورة ذلك الإله المصرى القديم عند العبرانيين إلى ما بعد استيطانهم فلسطين بزمن طويل، واستمروا فى إطلاق البخور له مدة خمسة قرون بعد عهد «موسى»، ولم يُبعد من البيت المقدس إلا فى حكم «حِزقيائيل» فى أواخر القرن الثامن ق. م. (سفر الملوك الثانى ١٨ : ٤).

على أنه احتفظ العبرانيون إلى العهد المسيحى بقول مأثور عندهم يقرر أن «موسى» كان متفقهًا «فى كل حكمة المصريين» (الإصحاح السابع الآية ٢٢)، وهو قول لا يكاد يوجد ما يدعو إلى الشك فى صحته. على أنه لم يكن فى مقدورنا إلا فى السنين الأخيرة أن نفهم المصادر التى وصلت إلينا عن حياة المصريين القدماء فهمًا كافيًا ندرك به أن «حكمة المصريين» كانت قبل كل شىء عبارة عن التأملات والتدبرات الاجتماعية. ولا شك أن «موسى» كان ملمًا بأقوال أولئك الأنبياء الاجتماعيين الذين كانت أقدم كتاباتهم - كما ذكرنا فيما سبق - متداولة بين المصريين منذ عام ١٥٠٠ سنة عندما ابتدأ موسى فى تعليم قومه. ومن البدهى أن رجلاً مثله نشأ محاطًا بمثل ذلك النوع من الأدب كان لزامًا عليه أن يشعر بالحاجة إلى دين يشتمل على تعاليم خلقية يزود به قومه.

وإنه من الصعب علينا الآن أن نعين بالضبط مقدار ما خلفه «موسى» لقومه من التعاليم الخلقية والأدبية. على أن الباحث يمكنه أن يحكم بنفسه فيما إذا كان القائد الذى أقام تمثال ثعبان نحاسى ليعبده قومه - وهو صورة بقيت محفوظة

تعبد عدة قرون فى معابد القوم - فى مقدوره كذلك أن يفرض على كل صاحب بيت من العبرانيين الأمر التالى:

«محظور عليك أن تصنع لنفسك تمثالاً منحوتًا أو (صورة) أى شكل فى السماء أو فى الأرض أو فى الماء الذى تحت الأرض». ويلاحظ أن كل وصية من الوصايا العشر موجهة إلى صاحب كل بيت، وأنها فى صيغة المفرد المخاطب «أنت».

ومن الواضح أنه حينما كتبت الوصايا العشر كان العبرانيون قد انتقلوا فعلاً من حياة المرعى فى الأرض الصحراوية ذات الكلأ إلى حياة الزراعة المستقرة فى المدن، حيث كانت المؤثرات الاجتماعية تعمل فى تكوين الاعتقاد الدينى وتزيد فى موارده، ثم إن الملكية، التى يجهلها البدو، وكذلك الحياة التجارية إلى حد ما فى المدن، قد أخذتا فى تكوين طبقة صغيرة من الأثرياء فى المدن، فى حين أن أكثرية الشعب كانت لا تزال على حالتها الأولى من الفقر. ومن ثم بدأ ظهور المناقشات بين طبقات الشعب، وما نجم عنها من الأحقاد التى لا مفر منها، وما نشأ عن ذلك من اكتساب خبرة اجتماعية مفيدة.

وقد كانت الفوارق الاجتماعية بعد تأسيس المملكة العبرانية تلاحظ بدرجة أكبر من ذى قبل. كما ظهر ميل القوم للثراء والحياة التجارية حتى عند ملوك العبرانيين الجدد. وذلك أن ملوك فينيقيا الأغنياء قد أثروا بطبيعة الحال فى مطامح الحكام الإسرائيليين. فاشترك «سليمان» (عليه السلام) فى تجارة مع «هيرام» ملك «صور»، وكان هو نفسه يتجر فى الخيول فيجلب نسل الخيول الجياد المنسّبة من مصر، حيث كان يتمتع هنالك بامتياز خاص عن طريق الفرعون حميه، ومن ثم كان يصدر هذه الخيول شمالاً ويبيعها فى أسواق الخيل الحيثية. وقد كانت له حظائر للخيل فى جهات متعددة فى طول البلاد وعرضها. ويتضح لنا ذلك الأمر جليًا ملموسًا حينما نقف بين دمن حظائر خيول سليمان الأصلية التى كشف عنها بين أطلال قلعته الإقليمية القوية بمدينة «مجِدّو» (أرما جدون)[١٢] الواقعة فوق هضبة الكرمل.

وقد انبسط فى هذا الموقف الذى نمت فيه الطبقات الاجتماعية وتباينت تباينًا شديدًا، ميدان اجتماعى كالذى شاهدنا ظهوره على ضفاف النيل قبل ذلك بنحو ألفى سنة. فقد كانت أمثال هذه الأحوال هى التى أيقظت فى مصر إحساسًا جديدًا بالقيم الأخلاقية الثابتة، وبمثل ذلك ظهر بين العبرانيين رجال توافرت لهم الروح الإنسانية والنظرة الاجتماعية، فأخذوا يشعرون بإيحاء «الضمير» كقوة اجتماعية، واستجابة لندائهم أخذ عصر الأخلاق فى الظهور بين بنى إسرائيل كما سبق ظهوره فى مصر قبل ذلك بزمن طويل، ولذلك نجد أن الشعائر العتيقة والعادات الدينية البالية، بما فيها من الطقوس والضحايا، أخذت تنحط فى قيمتها بموازنتها بالأخلاق الفاضلة.

وبهذه المناسبة نذكر تلك الكلمات السامية التى وجهها ذلك الملك الأهناسى المجهول الاسم إلى ابنه «مريكارع» قبل عهد «موسى» عليه السلام بألف سنة، وهى: «إن فضيلة الرجل المستقيم أكثر قبولاً من ثور الرجل الذى يرتكب الظلم».

على أن ما أظهره ذلك الفرعون المسن من قوة البصيرة فى تعمقه الخلقى لم يكن أثره بالبداهة قاصرًا على مصر، ولابد أن لفافة البردى التى كانت تشتمل على نصائحه الحكيمة الموجهة إلى ابنه قد وجدت سبيلاً لها إلى فلسطين، لأن هذه المعانى نفسها، مكتوبة بكلمات مشابهة جدًا للكلمات السابقة، قد ظهرت فى أوائل التطور الخلقى العبرانى بالنص الآتى:

«انظر إن الطاعة أفضل من التضحية

والإصغاء أفضل من الكبش السمين».

وهذا الحث على حسن الإصغاء يتردد صداه فى الآذان كأنه صدى نصائح «بتاح حتب» الذى نصح بها ابنه منذ أكثر من ١٥٠٠ سنة قبل عهد صموئيل وبين له فيها قيمة الإصغاء.

وأما تفضيل الأخلاق على الشعائر الدينية فقد أورده حكماء العبرانيين فى «كتاب الأمثال» فى كلمات ليست هى أيضًا إلا صدى لكلمات ذلك الحكيم الأهناسى المصرى القديم. فقد جاء فى سفر الأمثال:

«فعل العدل والحق أفضل عند الرب (يهوه) من الذبيحة».

(من سفر الأمثال ٢١ ـ ٣)

ومما يوضح لنا أن الحكيم العبرانى كان مقتفيًا أثر الفكر المصرى القديم فى هذه النقطة ما ذكر قبل تلك الآية مباشرة (من سفر الأمثال ٢١ ـ ٢) حيث جاء فيها:

«والرب (يهوه) وازن القلوب».

إذ لم يكن فى الشرق القديم إلا عقيدة دينية واحدة تقول بأن الإله يزن القلب الإنسانى، وهى الديانة المصرية القديمة بما تشتمل عليه من المحاكمة الأوزورية. وقد رأينا فيما تقدم أن ذلك التمييز بين قيمة الخلق ومجرد الشعائر الدينية الظاهرية كان من غير شك نتيجة للخبرة الاجتماعية فى مصر. فهذه الخبرة الاجتماعية نفسها كانت سائرة فى تكونها بين الإسرائيليين بخطى سريعة، ويرجع ذلك إلى الإرث الأدبى والخلقى الذى ورثه العبرانيون، إذ قد وجدوا تلك الحقائق الأساسية فى كتابات وتجارب جارتهم الإفريقية العظيمة وأخذوا يعملون بسرعة أيضًا على تهيئة هذه الخبرة لتكون ملكًا لهم. إذ من الواجب أن يكون إدراك الشعب نفسه للقيم الخلقية الإنسانية الثابتة هو حجر الزاوية لبناء أى تقدم خلقى ثابت مضمون. ومن المعلوم بطبيعة الحال أن دائرة القيم الخلقية السامية فقط هى التى توجد البواعث وتهيئ الأحوال لظهور أدب ذى قوة حقيقية، ولذلك لم يكن من باب الصدفة أن نرى القرون الثلاثة الأولى من حياة الشعب العبرانى بعد تأسيس الملكية قد أنتجت أرقى فن أدبى عرفه العالم القديم إلى ذلك الوقت.

وأعظم مثل مقنع يدل على مهارة العبرانيين الجدد فى القصص المسرحى الخلاب الذى تنجذب إليه النفس البشرية هو قصة يوسف (عليه السلام)، ويبلغ مغزى هذه القصة الجميلة قمته فى الثبات الخلقى الذى كانت تنطوى عليه نفسية ذلك الشاب المبعد عن وطنه، فنراه وهو غريب فى بلد أجنبى يجازف بحياته بلا تردد محافظة وإبقاء على سلامة أخلاقه وطهارتها، مع أنه لم يأت بذلك العمل تمسكًا بالمثل الأعلى فى إنكار الذات والعفة والتنسك، بل قيامًا بواجب الاحترام لشرف سيد وضع كل ثقته فيه. ومن الحقائق المدهشة أن هذه

الحادثة التى توجت القصة كلها، بتاج الفخر مستقاة من قصة مصرية قديمة شعبية كانت - لابد - قد انتشرت فى فلسطين الكنعانية حيث سمع بها ذلك الكاتب الموهوب الذى ألف قصة يوسف.

وهذه القصة المصرية تعرف الآن عادة «بقصة الأخوين»، والإلهان اللذان يظهران فيها بشكل الأخوين، اللذان يعتبران أهم شخصيات القصة، قد مثلهما الخيال القصصى الساذج فى صورة اثنين من الفلاحين وسماهما بالتوالى «أنوبيس» و«باتا»، وهما اسمان يكشفان عن أن بطلى القصة يمثلان إلهين كانت لهما مكانة فى الديانة المصرية القديمة منذ زمان متوغل فى القدم.

فكان «أنوبيس» أكبر الأخوين متزوجًا. وكان «باتا» أصغرهما يعيش مع الزوجين كأنه ابنهما، إلى أن قدر لتلك الحياة الريفية الخلابة التى احتسوا كئوسها أن يقضَى عليها بإقدام الزوجة على أمر شائن. وذلك أنها كانت ذات يوم تنظر إلى الشاب الصغير وهو يحمل فوق منكبه القوى خمس حقائب مملوءة قمحًا دفعة واحدة، فاستولى حبه على قلبها، ولما أخذت تراوده عن نفسه انقلب الشاب ثائرًا غاضبًا كأنه فهد من فهود الوجه القبلى، هاج من جراء تلك الكلمات الأثيمة التى وجهتها إليه. وخافت الزوجة عند ذلك خوفًا شديدًا من افتضاح أمرها. ثم خاطبها قائلاً: «انظرى إنك عندى بمنزلة الأم وزوجك بمنزلة الوالد لأنه أكبر منى سنًا وقد ربانى، فما معنى هذا الأمر المخزى الذى تذكرينه لى؟ لا تعيديه على مرة ثانية وأنا بدورى لن أفوه به لأحد ولن أجعل شفتى تفتران عنه لأى إنسان». ثم حمل حمولته وخرج إلى الحقل. غير أن زوجة «أنوبيس» الكاذبة خدعت زوجها فجعلته يصدق رواية معكوسة لفقتها هى للحادث، وكانت العاقبة أن «أنوبيس» تربص لقتل أخيه الصغير. فكمن له خلف باب حظيرة البيت وسلاحه بيده، وحينما اقترب الشاب الصغير من البيت وهو يسوق أمامه قطيع أنعامه حذرته البقرتان اللتان كانتا فى مقدمة ماشيته وفاء له بالجميل، لأن ذلك الراعى الصغير كثيرًا ما ساقهما إلى أحسن المراعى وأنضرها. فقفل الشاب موليًا هاربًا.

ويعتبر ذلك الامتحان الخلقى الذى اجتازه ذلك الشاب فى «قصة الأخوين» أروع مثال لنزاهة النفس ومتانتها، لا فى الأدب المصرى وحده بل فى كل الأدب

الشرقى القديم حتى ذلك الوقت. ومن الأمور المهمة جدًا أن تكون هذه الحادثة بالذات من بين كل الأدب المصرى هى التى جذبت نظر المؤلف العبرى حتى ساقه ذلك إلى اتخاذها برهانًا ساميًا على طهارة أخلاق بطل قصته.

وقد أنزل الله سبحانه وتعالى هذه القصة على سيدنا محمد ﷺ فى القرآن[١٤] بعد ذكرها فى التوراة بنحو ١٤٠٠ سنة. وقد ظهرت هذه القصة فى صور متنوعة فى أوقات مختلفة من تاريخ الأدب لمدة تبلغ نحو ٣٠٠٠ سنة منذ أول ظهورها فى وادى النيل. وكذلك نجد لها بعض الأهمية فى تاريخ فن التصوير الغربى. والفحوى الخلقى لاختيار تلك القصة ضمن الأدب العبرانى أمر له أهمية أساسية، لأن مجرد وجودها فى الأدب العبرانى يعتبر برهانًا قاطعًا على أن الإسرائيليين فى القرن الثامن قبل الميلاد كانوا قد دخلوا فى عصر الأخلاق فعلاً.

وفى هذا العصر الذى سادت فيه التأملات الخلقية أخذ إله الطبيعية القديم الذى ينتمى إلى صحراء «مدين» والذى قاد الإسرائيليين إلى فلسطين ووجد لذة وحشية فى تقتيل الكنعانيين يتحول تدريجيًا فى نظر العبرانيين إلى أن صار إله عدالة، يتطلب بدوره أن يتصف عباده أيضًا بالعدالة فى أخلاقهم. ومع أن هذا التحول الذى نبت فى الأذهان نتيجة لتجارب العبرانيين الاجتماعية الشخصية يرجع بدرجة عظيمة إلى العبرانيين أنفسهم، فإن التفكير الدينى عند هؤلاء القوم الذين سكنوا فلسطين اعتمد جوهره فى هذه الحالة - كما اعتمد فى تجارب كثيرة مشابهة لها - على الاستقاء من تراث الماضى كما وجدوه باقيًا فى الجماعات الكنعانية التى اندمجوا فيها تدريجا.

وكان هذا التراث مفعمًا بالأفكار المصرية القديمة التى تتناول صفات إله الشمس وتعده حاكمًا عادلاً بين الناس. ولذلك نجد أن نبيًا من العبرانيين يقول لقومه:

«إليكم يا من تخافون اسمى

تشرق شمس العدالة بالشفاء فى أجنحتها[١٥]».

رأينا فيما سبق أن «العدالة» كانت ممثلة فى شخص الإلهة «ماعت» التى كان يعتقد المصريون أنها بنت إله الشمس. وبما أن «شمس العدالة» العبرانية وصفت بأن لها أجنحة فلا يمكن أن يكون المراد بذلك شيء سوى الإشارة إلى إله الشمس ذات الأجنحة، لأنه لم يكن يوجد بين جميع التصورات العبرانية القديمة للإله «يهوه» أية صورة تمثله بأجنحة.

هذا وقد دلت الحفائر الحديثة فى «سامرا» على أن هذه التصورات المصرية لإله الشمس العادل كانت شائعة الانتشار فى الحياة الفلسطينية. فقد كشف الحفارون فى خرائب قصر ملوك بنى إسرائيل فى «سامرا» بعض ألواح من العاج منقوشة نقشًا بارزًا كانت تستعمل يومًا ما فى التطعيم الزخرفى الذي كان يحلى به أثاث الملوك العبرانيين، ومن بين تلك القطع قطعة نقشت عليها صورة إلهة العدالة «ماعت» يحملها إلى أعلى ملاك شمس هليوبوليس فى وضع نفهم منه أنه كان على ما يظهر يقدم تلك الصورة لإله الشمس. وتصميم الرسم مصرى فى كل نواحيه، إلا أن صناعته تدل بوضوح على أن نقشه من صنع أياد فلسطينية. ومن ذلك يتضح أن الصناع العبرانيين كانوا على علم ومعرفة بمثل تلك الرسوم المصرية القديمة، وأن وجهاء العبرانيين كانوا ينظرون كل يوم إلى هذه الرموز التصويرية الدالة على عدالة إله الشمس المصرى وهى تزين الكراسى نفسها التى يجلسون عليها. ولم يكن إله الشمس ذات الأجنحة المتأصلة فى وادى النيل معروفًا عند العبرانيين بأنه إله عدالة فقط، بل كان كذلك معروفًا بأنه الإله الحامى لعباده الرءوف بهم، وقد أشارت المزامير العبرانية أربع مرات إلى الحماية الموجودة «تحت (أوفى) ظل أجنحتك».

على أننا لم نجد قط ـ كما ذكرنا ذلك فيما تقدم ـ أن «يهوه» كان يصور عند العبرانيين بأجنحة، فى حين أنه قد عثر على صور رائعة منحوتة للفرعون إله الشمس يرفرف عليه فى شكل صقر له جناحان منتشران يحميان المليك[١٦].

وعلى ذلك نرى أن تصور إله الشمس المصرى القديم كأنه ملك عادل يعد من بين العوامل التى أسهمت فى تحويل «يهوه» هذا إلى حاكم عادل بين الناس.

وقد كان ظهور الملكية العبرانية عاملاً قويًا فى ذلك التطور، لأن العبرانيين كونوا فى أذهانهم بالتدريج صورة لما يجب أن يكون عليه الملك الأمثل، فكان لذلك التصور أكبر تأثير فى تخيل «يهوه» فى شكل ملك عادل.

وقد رأينا فيما تقدم أنه قبل ظهور الملكية العبرانية بألف سنة كان الحكماء الاجتماعيون المصريون القدماء قد رفعوا أصواتهم مطالبين بالعدالة الاجتماعية، آملين بذلك الوصول إلى عصر يكون فيه المثل الأعلى للسعادة البشرية فى ظل حكم عادل يهيمن عليه ملك رءوف، ولذلك نددوا بالغش والظلم اللذين يرزح تحت عبئهما كل من الفقير والوضيع على يد الغنى والقوى. وكثيرًا ما أعلنت شكوى هؤلاء الحكماء فى حضرة الملك نفسه.

وقد كانت أمثال مقالات «أبور» و«نفر روهو» شائعة الانتشار كما سبق ذكره حوالى سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد، ولدينا ما يدل بوجه قاطع على أن هذه الكتابات قد وجدت مجالاً مبكرًا لانتشارها فى آسيا الغربية وبخاصة بين الفينيقيين الذين أثروا فى العبرانيين تأثيرًا عظيمًا لقربهم الشديد منهم كما تقول التوراة نفسها. وقد حدث منذ عشرة أعوام أن سقطت صخرة من واجهة الجبل المشرف على البحر الأبيض المتوسط فى «ببلوص» (جبيل) القديمة الواقعة على الساحل الفينيقى شمالى بيروت، فكشفت عن حجرة للدفن منحوتة فى الصخر لأحد ملوك ذلك العصر الذى كان يعيش فيه أولئك الحكماء الاجتماعيون المصريون القدماء الذين كنا بصدد ذكرهم. وهذا الكشف مضافًا إلى أعمال الحفر التى عملت فى جبانة «جبيل» الملكية التى أعقبت ذلك قد أماط لنا اللثام عن سلسلة من المقابر التى استعملت لدفن ملوك «جبيل» الفينيقيين. وهذه المقابر مصرية فى طرازها وبنائها ومحتوياتها لأنها تشتمل على توابيت حجرية ضخمة من الطراز المصرى القديم وضعت فيها الجثث الملكية وجهزت بأوان وحلى غاية فى البهاء، وجميعها ما بين مصنوع فى مصر ويحمل أسماء فراعنة من الأسرة الثانية عشرة المصرية أو مصنوع فى فينيقية على الطريقة المصرية القديمة، وهذه المقابر تدل دون شك على انتشار العادات الجنازية والدينية المصرية فى فينيقيا فى ذلك العصر. على أن وجود مثل هذه العادات المستقاة من وادى النيل لا يكاد يدع لدينا

أى شك فى أن لفائف البردى التى كتبها الحكماء[١٧] الاجتماعيون المصريون القدماء كانت كذلك معروفة فى فينيقيا فى ذلك الوقت، هذا إلى أنه قد كشف عن عدد عظيم من المقابر فى منحدرات تل بلد «مجدو» عثر فيها على مقدار كبير من الجعلان «الجعارين» المصرية وغيرها من الرموز المقدسة التى يرجع عهدها إلى أيام حكماء الاجتماع المصريين القدماء.

فمن المحتمل إذًا أن العقائد التبشيرية الاجتماعية التى قامت فى مصر كانت معروفة فى آسيا الغربية منذ عصر مبكر يرجع إلى سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد، وأن الكنعانيين كانوا على علم بها قبل قيام العبرانيين بغزو فلسطين بزمن طويل. وقد صرح «زكَر بعل» ملك «ببلوص» (جبيل) الفينيقى فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد (أى فى زمن القضاة العبرانيين) لرسول مصرى فى بلاطه، رغم امتهانه له، أن المدنية قد جاءت إلى فينيقية عن طريق مصر، فقال ما نصه:

«إن آمون يمد كل الأقطار، وهو يمدها بعد أن أمد مصر التى جئت منها، إذ أن المهارة فى الحرف قد خرجت من مصر لتصل إلى مكان مقامى، والتعليم قد خرج منها ليصل إلى مكان مقامى[١٨]». ومن الجلى أن هذه الكلمات تكشف لنا عن الاعتراف بأن مصر كانت منبعًا لمدنية سامية فى ذلك العهد.

ومن المهم أن نشير هنا فى هذه المناسبة إلى أن ذلك الرسول المصرى قد شاهد بنفسه شابًا فينيقيًا يقع فى غيبوبة نبوة تماثل بالضبط ما كانت تمتاز به صورة النبوءة العبرانية المبكرة بين بنى إسرائيل كما حدث مثلاً فى أمر شاءول ومنه جاء المثل الذى يقول: أشاءول أيضًا بين الأنبياء»[١٩].

ولابد إذًا أن تعاليم الحكماء المصريين القدماء الاجتماعية كانت قد كونت جزءًا من التقاليد الدينية لدى الفينيقيين والكنعانيين وبقيت بينهم عدة قرون قبل أن تظهر «المسألة الاجتماعية» وتشحذ عواطف الرجال ذوى الشعور الخلقى الحى من العبرانيين أمثال «عاموس» و«هوشع» فى خلال القرن الثامن قبل الميلاد. وكما حصل فى مصر من قبل، كانت رسالة أنبياء العبرانيين فى أول أمرها أيضًا لا تكاد تخرج عن كونها سخطًا على سوء حالة العدالة الاجتماعية[٢٠]، كما كان المسرح والإخراج التمثيلى لذلك السخط يقام فى غالب

الأوقات فى البلاط الملكى، بل كان يواجه به الملك نفسه، كما كان يحدث بالضبط فى مصر.

وكانت أقوال النبى العبرانى هى أيضًا مثل ما كان فى مصر بالضبط، تنتقل من مجرد السخط إلى تصوير لعصر جديد يحل عندما يتولى الحكم ملك عادل يسود فى عهده حكم العدالة، ولعلنا نذكر تلك الصورة التى صورها «نفر روهو» لذلك الحكم حيث قال:

«إن العدالة ستعود إلى مكانتها. والظلم سينبذ».

وعند هذه النقطة نجد أن النبى العبرانى يرتفع فى تصريحاته إلى تصورات سامية تصور لنا أن رسالة قومه الخلقية موجهة لجميع العالم. فهى بذلك تسمو تمامًا على صورة المستقبل الذهبى الذى رسمه الحكماء المصريون المبشرون القدماء ومع ذلك يجب ألا يغيب عن أذهاننا أن فكرة التبشير بعصر جديد قد نشأت بحذافيرها من التفكير الاجتماعى الذى قام به رجال الفكر المصرى فى وقت لم تكن قد أشرقت فيه بعد على روح الإنسان مثل تلك الصور للمثل العليا الإنسانية فى أية بقعة من بقاع الأرض. ففى عالم كانت فيه القوة دائمًا هى الحق، وكانت الكلمة العليا للقوة، قد نظر المفكر المصرى الاجتماعى إلى ما وراء الأمور الواقعة وتجاسر على الاعتقاد بحلول عصر عدالة مثلى. وحينما علق بذهن النبى العبرانى بهاء تلك الرؤيا وارتفع إلى أفق أعلى منها فإنه كان فى الواقع يقف فوق كتفى المصرى القديم. وحرى بالعالم الحديث أن يدرك أن تلك الرؤيا التبشيرية كان لها تاريخ يرجع إلى ما قبل وجود الأمة العبرانية بأكثر من ألف سنة.

والواقع أن هذه الرؤيا السامية للمثل العليا الاجتماعية هى تراث ورثناه عن ماضى بنى الإنسان بأجمعه، ولم يكن ميراثًا عن شعب واحد بذاته.

وكذلك الحال فى عالم السلوك، حيث نجد أن العبرانيين قد استقوا كثيرًا من مؤلفات أو «أدب» الأمثال والأساطير التى كانت منتشرة إذ ذاك انتشارًا عالميًا قبل سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد.

وحنيما حاول النبى «أشعيا» أن يبرهن على أن «آشور» لم تكن إلا آلة فى يد «يهوه» ضرب لذلك مثلاً عن الآلات الجامحة، يتضح أنه بلا شك يرجع إلى أصل أجنبى، قال:

«هل تفتخر الفأس على القاطع بها، أو يتكبر المنشار على مردده؟ كأن القضيب يحرك رافعه، كأن العصا ترفع من ليس هو عودًا».

(أشعيا الإصحاح العاشر - ١٥ يسارًا)

وكان يظن أولاً أن مصدر ذلك النوع من القصص أو الأمثلة الخرافية هو بلاد الهند، ولكن الأستاذ «مسبرو» وجد منذ زمن طويل أقدم خرافة معروفة من تلك الخرافات على لوح كتابة مصرى بمتحف «تورينو».

وقد تأثر الأنبياء العبرانيون أيما تأثّر بالمقابلة بين الرجل المستقيم والرجل الخبيث كما صورتها كتابات ذلك الحكيم المصرى القديم: فقد اقتبس «أرميا» تلك الصورة المهمة للشجرتين اللتين صورهما «أمينموبى». كما يتضح ذلك من المقارنة الآتية:

أمينموبى: (الحكيم المصرى القديم)	النبى أرميا: (من أسفار الكتاب المقدس)
والرجل الأحمق الذى يخدم فى المعبد مثله كمثل شجرة نامية فى غابة، ففى لحظة يفقد فروعه ويجد نهايته فى (مرفأ الخشب) وينقل بعيدًا عن مكانه،	ملعون ذلك الرجل الذى يتكل على الإنسان ويجعل البشر ذراعه، وعن الرب «يهوه» يحيد قلبه ويكون مثل العرعر فى البادية، ولايرى إذا جاء الخير.
والنار مأواه.	بل يسكن الحرة فى البرية أرضًا سبخة وغير مسكونة.
والرجل الحازم حقًا ينتقى لنفسه مكانًا. فإنه مثل شجرة نامية فى حديقة	ومبارك ذلك الرجل الذى يتكل على الرب «يهوه»، وكان الرب متكله،

النبى أرميا: (من أسفار الكتاب المقدس)	أمينموبى: (الحكيم المصرى القديم)
فإنه يكون كشجرة مغروسة علي مياه وعلى نهر تمد أصولها ولا تخشى إذا جاء الحر. ويكون ورقها أخضر، وفى سنة القحط لا تخاف ولا تكف عن الإثمار. (أرميا ١٧ ، ٥ ـ ٨)	يزدهر ويتضاعف ثمره ويجلس فى حضرة سيده وثمرته حلوة وظله وارف، ويجد آخرته فى الحديقة. (أمينموبى ٦، ١ ـ ١٢)

وحينما يتأمل الباحث تلك الصورة الشائقة التى رسمها «أمينوبى» للشجرتين فإنه يثب إلى ذهنه المزمور الأول الذى جاء فيه:

المزامير:

١ ـ طوبى للرجل الذى لم يسلك فى مشورة الأشرار، وفى طريق الخطاة لم يقف، وفى مجلس المستهزئين لم يجلس.

٢ ـ لكن فى ناموس الرب «يهوه» مسرته، وفى ناموسه يلهج نهارًا وليلاً.

٣ ـ فيكون كشجرة مغروسة عند مجارى المياه التى تعطى ثمرها فى أوانه، وورقها لا يذبل، وكل ما يصنعه ينجح.

٤ ـ ليس كذلك الأشرار لكنهم كالعصافة التى تذروها الريح.

٥ ـ لذلك لا تقوم الأشرار فى الحساب ولا الخطاة فى جماعة الأبرار.

(المزمور الأول: ١ ـ ٥)

ونلاحظ أن الحساب المذكور هنا لم يرد ذكره فى «سفر المزامير» كله إلا هذه المرة. وهذه ملاحظة لها خطرها، لأن فكرة الحساب فى عالم الآخرة ـ كما رأينا فيما تقدم ـ هى من ثمرات التمدين المصرى القديم.

وكذلك نلاحظ أن توكيد ذكر مجارى المياه فى الصور العبرانية أمر مهم أيضًا، وذلك لأن النصف الجنوبى فى فلسطين شبه صحراوى، وكانت قلة الماء فيه من أسباب المتاعب الشديدة كما هى الحال هناك إلى يومنا هذا.

ونلاحظ من جهة أخرى أن العلامة «الهيروغليفية» الدالة على كلمة «حديقة» كانت ترسم بصورة «بركة حديقة»، ولذلك كانت مجرد ذكر كلمة «حديقة» دلالة على الماء لاعتبار ذلك عندهم من الأشياء البدهية، ومن ثم لم تذكر كلمة «ماء» بعينها فى الوصف الذى وضعه «أمينموبى».

ولذلك نرى أن مشابهة الصور المصرية للصور العبرانية أدق مما يبدو فى الظاهر.

ومما يلفت النظر ذلك التعديل الذى أدخله كاتب المزامير بتركه كلمة «شجرة» واستعماله بدلاً منها كلمة «العصافة» للتعبير عن الرجل الشرير، كما أن «أرميا» فضل ذكر كلمة «العرعر» البرى الجاف الذى يكثر وجوده فى وطنه «يوده». وقد صار كل من الزمان والمكان اللذين عاش فيهما رجال الإصلاح الاجتماعيين الدينيين ـ وهم الذين نسميهم الأنبياء العبرانيين ـ مما يدخل فى تاريخ تطوّر حياتهم الخلقية والدينية ـ أمرًا مفهومًا ذائعًا الآن، بفضل ما قام به العلماء المحدثون. ومن ناحية أخرى لا نستطيع أن نقول مثل هذا القول عن الأغانى العبرانية الدينية، إذ قد قامت بشأنها اختلافات عريضة بين العلماء العبرانيين ومؤرخيهم من حيث تحديد تاريخ «المزامير». فقد كان هناك رأى فيه غلو ينسبها إلى أصل متأخر جدًا حتى لقد اعتبر تاريخ وضعها كلها بعد عهد نفى العبرانيين فى بابل، ولكننا نعرف أن الأناشيد الدينية كانت منتشرة فى عهد مبكر جداً فى كل من «بابل» و«مصر»، ولم يكن هناك من الأسباب على ما يظهر ما يدعو أهل فلسطين ـ سواء أكانوا من الكنعانيين أم من العبرانيين ـ إلى عدم استعمال ذلك النوع من الأدب قبل عهد «النفى العبرانى» بزمان طويل، أسوة بما رأيناه من اقتباس أنبياء العبرانيين للآراء الاجتماعية المصرية. ولا يمكننا أن نشك فى أن النبى «أرميا» كان على علم بالصورة التى صورها الحكيم المصرى «أمينموبى» للشجرتين، ولابد من أن تلك الصورة كانت كذلك معروفة عند مؤلف «المزمور» الأول.

وقد لاحظنا فيما سبق أن مؤلفى «المزامير» العبرانيين قد رسموا صورة تدل على الحماية الإلهية المستمدة من تحت جناحى إله الشمس المصرى الظليلين

ولابد أنهم كانوا كذلك على علم بأنشودة «إخناتون» العظيمة التى وضعها لإله الشمس. وهنا أيضًا يحتمل أن يكون الأصل المصرى القديم لتلك الأنشودة قد انتشر فى فلسطين أو فينيقيا قبل ظهور المزامير العبرانية بزمن طويل. فقد انتهى «إخناتون» من إخراج أنشودته هذه قبل منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد، ومن البدهى أن أعداءه الحانقين عليه ما كانوا يتركونها تنتشر فى مصر مدة ستة أو سبعة قرون (أى إلى ما بعد سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد بكثير) وهو الوقت الذى ابتدأ فيه العبرانيون يبدون اهتمامهم بها، وعلى ذلك يجب التسليم بأن تلك الأنشودة انتقلت إلى آسيا فى عهد «إخناتون» نفسه وأنها بذلك أفلتت هناك من الدمار المحقق على يد أعدائه.

وقد حدث فيها تغيير عظيم بعد أن ترجمت إلى بعض اللهجات السامية من لهجات آسية الغربية، كاللغات الفينيقية أو الأرامية أو العبرية على الأرجح. على أنه بفحص محتويات الفقرات المشابهة لها (من المزمور ١٠٤) التى أوردناها فيما تقدم مع ترجمة الأنشودة، يظهر لنا مدى الشبه المدهش بين الصورتين، لا من حيث مضمون «أنشودة إخناتون» فحسب بل إننا كذلك نجده فى تتابع الأفكار وترتيبها الظاهرى، فإن ذلك بقى فى الرواية الآسيوية كما كان فى أنشودة إخناتون، ولا يمكن بحال أن تكون تلك المشابهات من قبيل الصدفة بل إنها بالعكس دليل على وجود جزء عظيم من الأنشودة المصرية الدينية القديمة منشورًا بشكل معدل فى المزامير العبرانية.

وقد مضى الآن ما يقرب من جيل منذ أن لفت المؤلف الحالى الأنظار إلى التشابه المدهش الموجود بين المزمور ١٠٤ وبين الأنشودة الإخناتونية المنظومة لإله الشمس[٢١]. ولم يكن فى استطاعتى فى ذلك الوقت أن أتعرّض لأكثر من بيان وجه الشبه فقط، إذ كان من الحكمة ألا تبنى أية نتيجة على مجرد وجود تلك الحقيقة، ولكن الأبحاث والكشوف التى تلت ذلك العهد قد غيرت موقفنا تغييرًا جوهريًا حيث صار لدينا الآن الأصل الهيروغليفى المصرى الذى ترجمت ونشرت منه فقرات كاملة برمتها فى «كتاب العهد القديم العبرانى». فقد تعرف الأستاذ المأسوف عليه «هوجو جرسمان» (Hugo Gressman)، البحاثة الضليع وصاحب

الرأى الثاقب فى الأدب العبرانى، بلا تردد على المنهل المصرى الذى استقى منه (المزمور ١٠٤) المذكور الذى انحدر إلى فلسطين على ما يعتقد عن طريق فينيقيا.
بل ذهب الأستاذ «جرسمان» هذا إلى أبعد من ذلك، بأن تعرف على وجود مؤثرات أجنبية فى المزامير العبرانية، حيث يقول:

«إن أقدم موضوع أسطورى تناولته «الأناشيد العبرانية» هو خلق العالم، وهو وأسطورة الخلق نفسها يحتمل أنهما نشئا فى بابل، وأما موضوع العناية الربانية بالعالم فإنها فكرة جاءت فيما بعد وقد شقت طريقها إلى المزامير الفلسطينية بتأثير مصر القديمة».

وبذلك تكشف لنا أنشودة إخناتون عن المنهل الذى استقى منه مؤلف المزمور العبرانى إدراكه لرحمة الله فى عون مخلوقاته حتى أصغرها، أى أن موقف العبرانيين من جهة الطبيعة بصفتها عالم الكون، وتصورهم لعناية الخالق الرءوف بخلقه، يرجع أصله إلى أنشودة إخناتون وما يشبهها من الأناشيد الدينية بمصر القديمة، ومن المحتمل كذلك أن الشعور بهذه الطيبة والشفقة الإلهية المعبر عنه فى الأنشودة الإخناتونية ـ والذى ظهر فيما بعد على الأخص فى عصر التنسك الشخصى فى مصر ـ كان له أيضًا تأثير مهم فى ظهور التدين الشخصى بين العبرانيين.

ومن المهم كذلك أن نعرف ما إذا كانت أنشودة إخناتون بين العوامل التى أدت تدريجًا إلى اعتراف العبرانيين بالوحدانية، ولا شك أنه من المحتمل جدًا أن يكون لها بعض المكانة بين مثل هذه العوامل، ذلك بأنه لما كان إخناتون ملكًا على أمة ذات سيطرة عالمية فقد أكسبه ذلك تلك النظرة الأولية الواسعة التى رأينا صورتها من قبل منعكسة فى أنشودته العظيمة، والواقع أن أنشودة لها نظرة شاملة كهذه تتردد فى أنفاسها الوحدانية الإلهية المطلقة وتنتشر فى آسيا الغربية قبل ظهور الأدب العبرانى الذى جاء به الأنبياء العبرانيون بعدة قرون، لا يستغرب أن يكون لها بعض التأثير فى تكوين النظرة العالمية التى فرضت فيما بعد على الأنبياء العبرانيين بسبب حرج الموقف الذى وجد فيه شعبهم حيث قد صاروا ألعوبة فى يد الممالك العظيمة وقتئذ، وقد بقيت حالهم تزداد حرجًا إلى أن غيروا نظرتهم إلى «يهوه» الذى كان يومًا ما معبودهم المحلى البدوى، فصار فى نظرهم

إلهًا مسيطرًا على كل الأمم، يدير حركات جميع ملوك الأرض ويستطيع السيطرة على كل مقاصدهم العدائية وتحويلها لخير بنى إسرائيل ثم لخير جميع العالم فى النهاية.

على أن وجهة نظر كهذه تؤدى ـ طبعًا ـ إلى الاعتراف بنظام خلقى عالمى، ولعلنا نذكر أن كلمة «إخناتون» العليا حينما حاول نشر عقيدة التوحيد الشمسية خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد كانت هى «العدالة»، فكانت الحركة التى قام بها هى التطور المنطقى للعقيدة الشمسية القديمة التى اعترفت بسيادة «ماعت» أى «العدالة» بصفة كونها نظامًا خلقيًا قوميًا. فكان مرمى الأنشودة الإخناتونية التوسع فى تلك السيادة القومية للعدالة وجعلها نظامًا خلقيًا عالميًا تحت سيطرة إله واحد. على أنه ليس من السهل أن يستدل الباحث على انتقال الأفكار من جهة إلى أخرى، غير أن البحوث الحديثة قد وضعتنا فى موقف يمكننا من إثبات الحقيقة الجوهرية فى هذا الشأن، وهى أن العبرانيين اطّلعوا على الأدب الخلقى والدينى عند الأمم الأخرى ونقلوا ما عثروا عليه من أفكارهم، بل إنهم كانوا ينقلون هذه الآراء أحيانًا بالتعابير نفسها التى صيغت فيها تلك الأصول الأجنبية.

والواقع أنه لا يوجد شىء فى كل مجال الأدب العبرانى كان له من التأثير العميق فى الحضارة الغربية أكثر من تأثير نصائحهم فى السلوك المستقيم عن طريق الأمثال، وهى التى نسميها «سفر الأمثال»؛ إذ إن ما فى هذا الكتاب من التصوير السامى للأخلاق وما احتواه من الحكمة الخلقية النافذة قد امتزج بمادة تصوراتنا الحديثة نفسها للحياة الفاضلة. ونجد فى الترجمة الخلابة التى أقر بها «الملك جيمس»[٢٢] من الأمثال السائرة الحاذقة ما يُتمثل به بيننا يوميًا.

وقد أدت العبارة الشائعة «أمثال سليمان» إلى اعتقاد القارئ المعتاد أن أمثال ذلك الكتاب هى من عمل «الملك سليمان الحكيم»، وفى الحق أنه يبتدئ بنسبة الكتاب إلى «سليمان» فى مطلع الفصل الأول، ثم تكررت تلك التسمية فى بداية الفصل العاشر فى شكل عنوان لمجموعة أخرى من «أمثال سليمان»، كما أنه توجد به مجموعة ثالثة تحمل اسم «سليمان» وتبتدئ بالفصل الخامس والعشرين، فى حين أن الفصلين النهائيين من الكتاب ينسبان إلى مؤلفين آخرين مجهولى الاسم

وأحدهما منسوب إلى امرأة. فيتضح من ذلك ومما يشهد به «كتاب العهد القديم» نفسه أن كتاب الأمثال هو مجرد مؤلفة جمعت من مجموعات متفرقة، ويوجد بالكتاب فضلاً عن هذه المجاميع الخمس التى كانت يومًا ما متفرقة، مجموعة سادسة، لأننا نجد فى صلب الفصل الرابع والعشرين (حتى فى الترجمة الإنجليزية) ما يكشف لنا عن عنوان جديد بهذا النص «هذه أيضًا «كلمات الحكماء»، ويلى ذلك مباشرة جزء قصير يجوز أنه ملحق وضعه مؤلف مجهول. كما نجد مدفونًا فى قلب الفصل الثانى والعشرين، دون أية إشارة تعليقية من جانب المترجمين حتى فى النسخة المنقحة، ما هو بالتأكيد بداية جزء آخر إن لم يكن عنوانًا له (٢٢ ـ ١٧) يسمى «كلمات الحكماء» مثل ما وجدناه فى الفصل الرابع والعشرين سواء بسواء. فمن هم يا ترى (هؤلاء الحكماء) المعلمون الاجتماعيون؟ ـ لأن كلمة «حكاميم» العبرية يدل معناها على صيغة الجمع ـ الذين قاموا بكتابة هذا الجزء الذى يبلغ نحو فصل ونصف فصل؟؟

الواقع أن هذا السؤال قد عجز عن الإجابة عنه كل الباحثين إلى وقت قريب جدًا، غير أنه قد طبعت ورقة بردية كانت قد مكثت مدة طويلة فى المتحف البريطانى، فكشفت لنا عن أن مؤلف ذلك الجزء لم يكن سوى صديقنا المصرى القديم أمينموبى! وجميع العلماء بكتاب العهد القديم الذين يعتدّ بآرائهم وأبحاثهم فيه يجزمون الآن بأن محتويات ذلك الجزء الذى يؤلف نحو فصل ونصف فصل «كتاب الأمثال» قد أخذ معظمه بالنص عن حكم الحكيم المصرى القديم أمينموبى، أى أن النسخة العبرانية هى تقريبًا ترجمة حرفية عن الأصل الهيروغليفىّ العتيق. وكذلك صار من الواضح أيضًا أن حكم «أمينموبى» شائعة فى مواضع عدة من كتاب العهد القديم، حيث نراها مصدرًا لتلك الأفكار والتشبيهات والمقاييس الخلقية وبخاصة لروح الشفقة الإنسانية الحارة، لا فى كتاب الأمثال فحسب بل فى القوانين العبرانية وفى سفر «أيوب» وكما ذكرنا سابقًا فى سفر شاءول و«إرميا» أيضًا. وقد أشرنا آنفًا إلى وجود عناصر أجنبية فى كتاب الأمثال لم يتردد المصنف القديم فى الإشارة إليها فى العناوين، لأن الحكيم «أجور» الذى تؤلف حكمه الفصل الثلاثين والملك «لمويل» الذى يدين لأمه بحكمه التى تؤلف الفصل الحادى والثلاثين لم يكونا بداهة من أصل عبرانى.

ويتضح بجلاء من «سفر الملوك» ٤، ٣٠ ـ ٣١» أن أمثال «سليمان» كانت فى جو عالمى، إذ نرى فيه ما يأتى:

«وفاقت حكمة سليمان حكمة جميع بنى المشرق (البدو) وكل حكمة مصر.

وكان أحكم من جميع الناس من إيثان الأزراحى وهيمان وكلكول ودردع بنى «ماحول»، وكان صيته فى جميع الأمم حواليه».

(من سفر الملوك ٤، ٣٠ ـ ٣١)

فأسماء هؤلاء الأشخاص التى لا تنتمى إلى أصل عبرانى تدل على أن كل أولئك الحكماء كانوا أجانب بالنسبة إلى العبرانيين.

وقد كان المعروف من زمان طويل أن «محاكمة»[٢٣] سليمان المشهورة ترجع إلى أصل هندى شرقى، ومع ذلك فإن الأبحاث العلمية لم تكشف لنا من قبل عن مؤلف شرقى قديم بلغة غير فلسطينية ترجم عنه بالتحقيق جزء بأكمله من «كتاب العهد القديم» كما نرى فى هذه الحالة. ولهذا الكشف أهمية بعيدة المدى لدرجة أننا مع إشفاقنا من ملل القارئ نرى أنه لا بد من إيراد بعض الأمثلة الدالة على ما تقدم، فكلمات الحكماء فى «سفر الأمثال» العبرانى وفى حكم أمينعوبى» تبتدئ بما يأتى:

أمينموبى المصرى	سفر التكوين العبرانى
أمل أذنيك لتسمع أقوالى واعكف قلبك على فهمها لأنه شىء مفيد إذا وضعتها فى قلبك. ولكن الويل لمن يتعداها.	١٧ ـ أمل أذنك واسمع كلام الحكماء ووجه قلبك إلى معرفتى. ١٨ ـ لأنه حسن إن حفظتها فى جوفك. إن ثبتت جميعًا على شفتيك. سفر الأمثال (٢٢و ١٧ ـ ١٨)

والمقصود من مثل تلك النصائح قد عرّفته «الأمثال»، وهو ما أشار إليه «أمينموبى» من أن المهارة العلمية أصل جوهرى فى المعاملات الرسمية، كما نرى فى نص كل منهما:

سفر الأمثال العبرانى	أمينموبى المصرى
٢١ ـ لأعلمك قسط كلام الحق لترد جواب الحق للذين أرسلوك. (سفر الأمثال ٢٢ : ٢١)	لأجل أن ترد على تقرير لمن قد أرسله.

غير أن العبارة «كلام الحق» الواردة فى «سفر الأمثال» هى بالطبع تحريف لما يقابل كلمة «تقرير» الواردة فى الأصل المصرى القديم.

وعلى أية حال فإننا نجد فى كل من «سفر الأمثال» وحكم «أمينموبى» أن الغرض الخلقى من تلك النصائح ظاهر فى جميع ثناياهما، ولذلك نرى أن إيراد بعض أمثلة هنا مفيد جداً، فمن ذلك:

سفر الأمثال العبرانى	أمينموبى المصرى
١٠ ـ لا تنقل التخم القديم ولا تدخل حقول الأيتام. (سفر الأمثال ٢٣ : ١٠)	لا تزحزحن علامات حدود الحقول ... ... ولا تكرهن شرها من أجل ذراع أرض، ولا تتعدين على حدود أرملة. (أمينموبى ٧، ١٢ ـ ١٥)

ومن المهم أن نلاحظ قبل انكشاف النقاب عن حِكم «أمينموبى» هذه أبدى نقاد «العهد القديم» أن كلمة «قديم» التى تشبه فى اللغة العبرانية كلمة «أرملة» هى بلا شك غلطة فى النسخة الخطية صحتها «أرملة»، وعلى ذلك اتفقوا على جعل تلك الفقرة كالآتى:

«لا تزحزحن حدود الأرملة

ولا تدخلن فى حقول اليتامى»

وقد جاء انكشاف الأصل المصرى القديم مؤيدًا لذلك التصحيح ومثبتًا له. وقد يكون من أهم المشابهات العديدة البارزة التى يمكننا إيرادها هنا تلك التحذيرات الخاصة بالثراء، وهى:

أمينموبى المصرى	سفر الأمثال العبرانى
لا تتعبن نفسك فى طلب المزيد حينما تكون قد حصلت بالفعل على حاجتك وإذا جلب إليك المال بالسرقة فإنه لا يمكث معك سواد الليل وعندما يأتى الصباح لا يكون بعد فى منزلك بل يكون قد صنع لنفسه أجنحة كالأوز وطار إلى السماء. (أمينموبى ٩، ١٤ ـ ١٠، ٥)	٤ ـ لا تتعب لكى تصير غنيًا .... ٥ ـ هل تطير عينيك نحوه وليس هو؟ لأنه إنما يصنع لنفسه أجنحة كالنسر يطير نحوه السماء. (سفر الأمثال ٢٣ : ٤ ـ ٥)

والسطر الذى حذفناه هنا من نصر «الأمثال» مشوه فى الأصل العبرانى، ومن المحتمل أنه يمكن إصلاحه بفحص الأصل المصرى القديم، غير أن تناول مثل هذه المسائل التحليلية لا يمكن فى مثل هذا الكتاب.

وفيما قبل سنة ٢٠٠٠ ق. م. كان حكماء الاجتماع المصريون قد وازنوا بين الغنى والأخلاق وفضلوا، بصراحة، الأخلاق على الغنى، واعترفوا تمام الاعتراف بتفاهة الثراء المادى وأنه لا يجدى شيئًا وبخاصة فى عالم الآخرة. وقد وفى المفكرون الاجتماعيون البحث فى حماقة الاتكال على الغنى فى نواح كثيرة مختلفة، ونجد فى المواضع الكثيرة التى تناولت فيها الأمثال العبرانية هذا

الموضوع ما يدل على أنها كانت واقعة بالبداهة تحت تأثير أقوال الحكماء المصريين القدماء. وقد تكون الموازنة الآتية إيضاحًا آخر لذلك:

أمينموبى المصرى	سفر الأمثال العبرانى
الفقر فى يد الله خير من الغنى فى الهُرى (المخزن) وأرغفة (تحصل عليها) بقلب فرح خير من ثروة (تحصل عليها) فى تعاسة. (أمينموبى ٩: ٥ ـ ٨)	١٦ ـ القليل من مخافة الرب (يهوه) خير من كنز عظيم مع هم. ١٧ ـ أكلة من البقول حيث تكون المحبة. خير من ثور معلوف ومعه بغضة (سفر الأمثال ١٥: ١٦ ـ ١٧)

والمثال الآتى فى الموضوع نفسه أيضًا:

أمينموبى المصرى	سفر الأمثال العبرانى
والثناء على الإنسان كشخص محبوب عند الناس خير من الغنى فى الهُرى (المخزن) (أمينموبى ١٦: ١١ ـ ١٢)	١ ـ لقمة يابسة ومعها سلامة خير من بيت ملآن ذبائح مع خصام. (سفر الأمثال ١٧ ـ ١)

على أن تاريخ العبرانيين فيما يلى هذا العصر لا يترك مجالاً للشك فى أنهم كانوا لا يكترثون بالقوة المالية، أو النجاح فى الأعمال، فضلاً عن أن المصنف لسفر الأمثال فى «العهد القديم» لم يتجاهل الحكمة المصرية القديمة التى من هذا القبيل كما سيأتى ذكره. وربما لاحظ الباحث أن تلك التحذيرات التى جاءت فى سفر الأمثال بشأن الغنى والترف ليست مستقاة من «كلام الحكماء» فى التوراة («الأمثال» ٢٢: ١٧، ٢٤: ٢٢).

وهذه حقيقة جديرة بالاهتمام، فإذا ما درست تلك الأمثال درسًا أوفى فإن ذلك بلا شك يكشف لنا عن أن أفكار المصنف العبرانى فى كافة موضوعات سفر الأمثال كانت تعتمد على حِكم «أمينموبى»، ولدينا فيما يلى مثال آخر، لا يدخل فى حدود «كلمات الحكماء» يحذر من الحقد والانتقام.

(الأمثال: ٢٠ ٢٢)

ويهتم «أمينموبى» كثيرًا بتحذير الشباب من الحماقة أو مخالطة رجال ذلك الطراز، كما ترى المصنف العبرانى أيضًا يحذر من ذلك، حيث قالا:

أمينموبى المصرى	سفر الأمثال العبرانى
لا تصاحب رجلاً حاد الطبع ولا تُلح فى محادثته (أمينموبى ١١، ١٣ ـ ١٤)	لا تستصحب غضوبًا ومع رجل ساخط لا تجىء (سفر الأمثال ١٢: ٢٤)

ونجد أن الكلمة العادية التى تعبر عن الرجل الطائش صاحب الطبع الحار فى حكم «أمينموبى» هى بكل بساطة «الشخص الحاد»، ومن المهم أن نلاحظ هنا أن الأصل العبرانى لتلك الفقرة إذا ترجم حرفيًا يكون معناه «الرجل ذو الحرارة» وهى عبارة لا توجد قط فى أية جهة أخرى من كتاب «العهد القديم»، وهى بالبداهة محاولة من المصنف لنقل التعبير المصرى القديم إلى العبرانية. وعلى كل حال نجد أن الغضب الطائش والانتقام مذمومان فى كل من «سفر الأمثال العبرانى» وفى حكم «أمينموبى المصرى»، وإليك ما قالاه فى شأن ذلك:

أمينموبى المصرى	سفر الأمثال العبرانى
لا نقول قد وجدت حاميًا والآن يمكننى أن أهاجم الرجل الممقوت. ضع نفسك بين ذراعى الإله يهزمك صمتك (يعنى الأعداء) (أمينموبى ٢٢، ١ ـ ٨)	لا تقل إنى أجازى شرًا انتظر الرب (يهوه) فيخلصك. (لا تقل أجزى على الشر بل انتظر الرب فيخلصك) (سفر الأمثال ٢٠: ٢٢)

وقد كان «أمينموبى» ينصح ابنه بهذه الطريقة الشديدة نفسه ناهيًا إياه عن مشاحنة الشخص الحاد الفم «لأن الإله يعرف كيف يجيبه على عمله (٥، ١٠ ـ ١٧)». وذلك يشبه أيضًا ما جاء فى سفر الأمثال وهو: «انتظر الرب (يهوه) فيخلصك».

وتتفق نصائح «أمينموبى» فيما يختص بالسلوك فى حضرة أصحاب المقامات العالية مع الحياة المصرية القديمة أكثر بكثير مما تتفق مع الحياة العبرانية، ذلك لأن مراعاة السلوك اللائق فى مصر من جانب الموظف المصرى الشاب كان لا مناص منه لمن كان يريد مستقبلاً ناجحًا. فكما أن آداب اللياقة الرشيقة المرعية فى البلاط الباريسى فى عهد اللوايسة المتأخرين من ملوك فرنسا قد انتشرت فى كل العواصم الأوروبية التى كانت أقل ثقافة من باريس، كذلك كانت تلك الآداب العالية ورسميات القصور فى المعاملات الرسمية المستحدثة فى أخلاق شعب فى أصوله خشونة الصحراء البدوية، فى عهد الملكية العبرانية الفتية، متأثرة أيما تأثر بآداب اللياقة التليدة المرعية فى بلاط الفرعون الذى قبض موظفوه على زمام الحكم فى فلسطين مدة قرون عديدة. ومن أجل ذلك لم يتردد مصنف «سفر الأمثال» العبرانى فى توصية الإسرائيليين المعاصرين له باتباع آداب اللياقة المصرية الرسمية، وإليك ما ذكر فى ذلك فى كل من النص المصرى والنص العبرانى:

أمينموبى المصرى	سفر الأمثال العبرانى
لا تأكل الخبز فى حضرة رجل عظيم. ولا تَعْرِض فمك فى حضرته. وإذا أشبعت نفسك من طعام محرم فإن ذلك ليس إلا لذة ريقك. وانظر فقط (وأنت على المائدة) إلى الوعاء الذى أمامك وكن مكتفيًا بما فيه (أمينموبى ٢٣: ١٣ ـ ١٨)	١ ـ إذا جلست تأكل مع متسلط فتأمل ما هو أمامك تأملاً. ٢ ـ وضع سكينًا لحنجرتك إن كنت شرهًا. ٣ ـ لا تشته أطايبه لأنها خبز أكاذيب. (سفر الأمثال ٢٣: ١ ـ ٣)

وكان المترجمون للرواية المنقحة من «كتاب العهد القديم» غير متأكدين مما إذا كانوا يترجمون النص العبرى بقولهم: «ما هو أمامك» أو يترجمونها «بالشخص الذى أمامك»، وقد حل تلك المسألة ما جاء عن الحكيم المصرى «أمينموبى» حيث قال ما ترجمته «الوعاء الذى أمامك»، وقد غير المصنف العبرانى ترتيب الأفكار فنقل العبارة «خبز أكاذيب» التى توازى فى الأصل (المصرى القديم «طعام محرم» وحرفيًا: طعام خطأ) إلى السطر الأخير.

على أن نصيحة «أمينموبى» المصرى هذه قديمة جدًا، لأنها مستقاة من حِكم «بتاح حتب» فكان عمرها فى زمن «أمينموبى» قد بلغ حوالى ألفى سنة ولذلك نجد نص النصيحة بالكلمات الأصلية التى فاه بها الحكيم «بتاح حتب» أكثر وضوحًا. قال:

«إذا كنت امرءًا من الذين يجلسون (على المائدة)

فى حضرة رجل أعظم منك فخذ منه حينما يعطيك

ما يضعه أمامك، ولا تنظر إلى ما هو أمامه

بل انظر (فقط) إلى ما هو أمامك. ولا تقذفنه (حرفيًا ترمينه)

بنظرات عديدة (لا تحملق إليه).

واخفض من وجهك إلى أسفل إلى أن يخاطبك

وتكلم فقط حينما يوجه إليك الكلام»(٢٤).

فنجد هنا إذً حكيمًا عبرانيًا يفرض على الشباب الإسرائيلى نصائح فى آداب اللياقة كانت هى بنفسها المرشد الهادى للموظفين المصريين القدماء فى البلاط الفرعونى فى العهد الذى ظهرت فيه الأهرام، أى قبل ذلك العهد العبرانى بألفى سنة. وعلى ذلك يحتمل أن تكون تلك الفقرة أقدم مادة فى كتاب العهد القديم. ونجد فى ذلك مثالاً رائعًا على أن الحياة العبرانية فى فلسطين كانت تتطور تحت تأثير خبرة آلاف السنين من التجارب الاجتماعية التى قد صارت تعد تاريخًا قديمًا حينما ظهرت الأمة الإسرائيلية فى عالم الوجود.

وقد لا يوجد فى كتاب «العهد القديم» مثل من الأمثال كثر اقتباسه فى عصرنا الحالى الذى ساد فيه الاهتمام بالمعاملات أكثر من ذلك المثل الذى يطرى من يحسن عمله، وهو: «هل ترى رجلاً ماهرًا فى عمله.

إنه سيقف أمام الملوك».

والترجمة السبعينية (وهى الترجمة الإغريقية القديمة) «لكتاب العهد القديم» لا تحتوى على الفعل «ترى» بل كانت تبتدئ بكلمة «رجل»، وقد أوضح الأستاذ «جِرم» أن الفعل الذى تبتدئ به الجملة تابع للفقرة السابقة من الأصل العبرانى[٢٥]، ولذلك نجد أنه بعد إصلاح ذلك الخطأ تصير الموازنة هكذا:

أمينموبى المصرى	سفر الأمثال العبرانى
الكاتب الماهر فى وظيفته سيجد نفسه كفؤًا لأن يكون من رجال البلاط (أمينموبى المصرى ٢٧، ١٦ ـ ١٧)	٢٩ ـ أرأيت رجلاً مجتهدًا فى عمله، أمام الملوك يقف (سفر الأمثال العبرانى ٢٢: ٢٩)

ولا حصر لما نستطيع إيراده من أمثال تلك المماثلات المتشابهة، ولكن ما أوردناه من الأمثلة التى ذكرت يكفى بلا شك للدلالة على أن «سفر الأمثال» العبرانى يحمل فى ثناياه جزءًا جوهريًا من كتاب حكم لمصرى قديم سابق له.

وقد جرى ذلك النقل عن حِكم المصريين القدماء دون ذكر المصدر المنقول عنه، وهذا أمر طبعى حصوله فى مثل ذلك الأوان، غير أنه من الأمور المهمة أننا عثرنا فى كتاب «سفر الأمثال» على إشارة تدل بلا شك على الاقتباس من كتاب «أمينموبى» المصرى القديم، ولو أن هذه الإشارة لم تكن بطبيعة الحال على شكل عنوان أو بذكر اسم ذلك الحكيم المصرى الذى عاش فى مثل ذلك العصر البعيد. ذلك بأننا نجد فى المقدمة «لكلمات الحكماء» السؤال الغريب الآتى، وهو الذى قد حار فى ترجمته مصنفو الترجمة المنقحة لكتاب العهد القديم، وهاك نص السؤال:

«ألم أكتب لك أمورًا شريفة

من جهة مؤامرة ومعرفة؟»

(سفر الأمثال ٢٢ : ٢٠)

وقد وضعت لجنة التنقيح ملاحظة فى الهامش خاصة بعبارة «أمورًا شريفة» لفتوا بها النظر إلى أن «تلك العبارة مشكوك فيها». والواقع أن المصنفين العبرانيين الأقدمين كانوا أنفسهم يشكون فيها بعض الشك أيضًا، وذلك لأنهم وضعوا هجاء آخر لتلك الكلمة على هامش النسخة العبرانية فصارت الكلمة بحساب هجاء المصنفين العبرانيين القدامى تعنى «ثلاثين». فإذا ارتضينا هذه الكلمة يصير السؤال هكذا: «ألم أكتب لك أمورًا ثلاثين من جهة مؤامرة ومعرفة». ويبدو لنا لأول وهلة أن صيرورة السؤال بهذه الصيغة يحدثنا بشىء لا معنى له، ولكننا عندما نلاحظ كما لاحظ الأستاذ «إرمان» أن «أمينموبى» قد قسم كتابه المذكور إلى ثلاثين فصلاً ورقمها، فإن كل شىء بعد ذلك يصير واضحًا.

ولابد أن لفافة البردى المصرية الحاوية لهذا الكتاب كانت تسمى فى فلسطين باسم «ثلاثون فصلاً فى الحكمة» أو ما يشبه ذلك، ثم اختصر الاسم بعد ذلك على ما يظهر إلى عنوان بسيط أطلق عليها وهو «الثلاثون».

وعلى ذلك تعطينا تلك الترجمة الحقيقة التى وصلنا إليها عن طريق اقتراح العالم «جرِم» ودون أى تغيير فى أصل المتن العبرانى الموازنة التالية:

أمينموبى المصرى	سفر الأمثال العبرانى
تبصر لنفسك فى هذه الفصول الثلاثين حتى تكون مسرة (لك) وتعليمًا. (أمينموبى ٢٧ : ٧ ـ ٨)	٢٠ ـ ألم أكتب لك ثلاثين فصلاً من جهة مؤامرة ومعرفة (سفر الأمثال ٢٢ : ٢٠)

وإن ذكر أحد مؤلفى «العهد القديم» ـ على غير المألوف ـ لكتاب أجنبى عن العبرانية، كان ينقل عنه من غير تحفظ، يؤكد لنا أنه كانت تحت يده ترجمة

عبرانية كاملة للكتاب الذى وضعه «أمينموبى» المصرى، بمعنى أن تلك الترجمة كانت تحتوى على جميع الثلاثين فصلاً التى حواها الأصل المصرى الهيروغليفى، وإلا كانت كلمة «ثلاثين» بعد وضعها فى كتاب الأمثال لا تدل على أى معنى. ولكى يحافظ الناقل العبرانى على هذا المعنى نراه، مع عدم نقله للثلاثين فصلاً التى يحويها الأصل المصرى القديم برمتها، وقد استعمل بالضبط «ثلاثين» مثلاً فى نسخته العبرية المختصرة (الأمثال ٢٢: ١٧ ـ ٢٤: ٢٢).

ولا شك أن القارئ قد كون لنفسه ملاحظة ذات أهمية بارزة بعد أن تأمل تلك الفقرات من كتاب الحكمة العبرية القديم ووضعها جنبًا إلى جنب مع الأصل المصرى القديم الذى اقتبست منه. على أنه يتضح لنا، خلافًا للأجزاء التى ترجمت ترجمة حقيقية، أن مصنف «كتاب الأمثال» لم يكن مستسلمًا ولا آلة جامدة فى نقل تلك الحكم المصرية القديمة عن الترجمة الفلسطينية.

وليس لدينا أمل كبير فى العثور يومًا ما على تلك الترجمة. ولعله من الجائز أن يكون المترجم الفلسطينى نفسه قد أخرج الترجمة غير المقيدة التى وجدناها فى «سفر الأمثال»، وعلى ذلك كان مصنف الأمثال ينقل عن تلك الترجمة كما هى.

ومهما يكن من الأمر فإن الحقيقة الناصعة هى أن الصورة التى ظهرت بها حكم «أمنيوبى» مرارًا فى «سفر الأمثال» توضح لنا بجلاء أن المترجم أو المصنف العبرانى قد اقتبس فى الغالب مجرد الأفكار المصرية القديمة ونشرها بتصرف، بما له من نظر ثاقب إلى الحياة، وبما له من المهارة الأدبية السامية والدراسة باللغة التى ينقل إليها وهى عادة لغته. ويتضح ذلك تمامًا من إيراد بعض الأمثلة الواضحة القاطعة، فنجد مثلاً أن «الغنى» يتخذ له أجنحة فى كل من مصر وفلسطين، غير أن الأجنحة المصرية كانت أجنحة «أوز»، وأما الأجنحة فى فلسطين حيث لم تكن هناك مستنقعات زاخرة بالأوز البرى، فقد أبدل المترجم بها أجنحة النسر.

وكذلك نجد فى مصر أن رجل الأعمال الناجح كان فى العادة «كاتبًا»، أما فى فلسطين حيث لم تكن الأحوال كذلك فإن المترجم العبرانى قد سماه «رجلاً» فقط ثم أردف ذلك بوصفه «بالمهارة فى عمله» ليتم تحديد صفته.

وكذلك نجد فى مصر أيضًا أن أهم دَين كان يدان به الإنسان لإله الشمس قبل ظهور «سفر الأمثال» بأكثر من ألف سنة هو هبة الماء، وقد اتخذ من شمولها لكل العالم دليلاً على المساواة بين جميع الناس. وأما فى فلسطين حيث يندر الماء ويكثر القحط، فإننا نجد أن خلق يهوه لجميع العالم هو الذى اتخذ سببًا للمساواة بين جميع الناس بالرغم مما يوجد من الفرق بين الغنى والفقير. وهاك ما جاء من التشابه فى ذلك بين متون التوابيت المصرية القديمة وبين «سفر الأمثال» العبرانى:

متون التوابيت المصرية	سفر الأمثال العبرانى
لقد خلقت المياه العظيمة حتى يتمكن الفقير من استعمالها مثل الغنى	الغنى والفقير يتلاقيان صانعهما كليهما الرب «يهوه» (سفر الأمثال ٢٢: ٢)

وقد أشرنا من قبل إشارة خفيفة إلى أن وجود روح الاتكال على المشيئة الإلهية فى حكم «أمينموبى» قد أثرت تأثيرًا دينيًا عميقًا لاشك فيه فى حكماء فلسطين وأنبيائها. ففى نصيحة «أمينموبى» الجميلة القائلة: «ضع نفسك بين ذراعى الله» لا يكاد يخفى علينا أنها المصدر الذى نجد صداه فى الكلمات التى يسميها الناس «بركات موسى» وهى:

«إن الله الأبدى مكان سكن

وتحته ذراعاه الأبديتان».

فالرجل الأمثل فى نظر الحكيم «أمينموبى» هو الذى يتكل على الله ويصبر على تحمل الظلم فى صمت، واثقًا من نزول الانتقام الإلهى على الظالم. فهل كان من باب الصدفة أن نجد الصيغة العبرانية، التى ظهرت فيما بعد، تقول عن أخلاق «موسى» ما يأتى: «وأما الرجل موسى» فكان حليمًا جدًا أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض»

(سفر العدد ١٢: ٣)

على حين أن «موسى» قد مثل فى الصيغة القديمة بالرجل القوى المعتمد على نفسه وأنه رجل عمل مهاجم لا يحتمل وقوع أى ظلم على نفسه أو على قومه؟ ولقد لفت الأستاذ «سلن» (Sellin) النظر إلى أن المثل الأعلى فى الأخلاق عند العبرانيين القدامى كان يتمثل فى رجل العمل والقوة والحكمة ذى المال والبنين العديدين، ولكن ظهرت بعد منتصف القرن الثامن عشر ق. م: فكرة مخالفة لهذه بالمرة تصور الرجل المثالى بأنه هو الحليم المتواضع المهذب الصامت المجرد من الممتلكات المادية، ونرى هذا المثل الأعلى فى ذورته متمثلاً فى صورة الخادم المتألم الذى يوصف بأنه:

«لن يصيح أو يرفع صوته أو يجعله يسمع فى الشارع»

(أشعيا ٤٢: ٢)

وأقوى من ذلك ما نجده فى تصور «أشعيا» السامى عندما يقول:

«وكان مضطهداً، ومع ذلك فإنه حينما عذب

لم يفتح فاه كالحمل الذى يُساق إلى المجزرة

وكالنعجة الصامتة أمام من يجرها، فهكذا

هو لم يفتح فاه»

(أشعيا ٥٣: ٧)

وكان الحكيم «أمينموبى» يجد دائمًا مثله الأعلى فى الرجل الصامت الذى يترك أمره لله.

والآن وقد علمنا أن كتابه كان يُقرأ فى «أورشليم»، وأن الحكماء والأنبياء العبرانيين كانوا ينتخبون منه المختارات ويقتبسون الاقتباسات، فإنه يجدر بنا أن نتساءل عما إذا كانت فكرة المتألم الصامت عند بنى إسرائيل لا ترجع فى أصلها إلى الاجتماعيين المصريين. وعلى أية حال فإنه صار من الواضح الآن أن المثالية الاجتماعية التى قامت على سمو التقدير للأخلاق، والتى هى أقدم ما عرف لنا من مذاهب تفويض الأمور للأقدار، بل كانت فى ذلك العصر المذهب الوحيد من

نوعه، قد ظهر فى مصر قبل سنة ٢٠٠٠ ق. م. وكانت الكتب نفسها التى تحتوى عليها يقرؤها فى «أورشليم» أولئك الرجال الذين أنتجوا تلك الكتابات التى نسميها الآن «العهد القديم».

وكيف كان يمكن أن يكون الأمر غير ذلك؟ فكما أننا نجد الآداب الأوروبية الحديثة قد نمت مشبعة بما ورثناه من قديم أدب الإغريق والرومان، كذلك كان محتمًا أن يتأثر العبرانيون فى فلسطين كل التأثر فى أفكارهم وكتاباتهم بآداب تلك الأمة العظيمة التى قبضت على زمام فلسطين ووضعتها تحت سيطرتها الثقافية والسياسية مدة تفوق مدة نفوذ «روما» فى بلاد الغال (فرنسا القديمة)

وعلى ذلك فإن تراثنا الخلقى الدينى العظيم الملهم الذى انحدر إلينا من العبرانيين يمكن التسليم بصفة قاطعة بأنه ميراث مزدوج.

فهو أولاً: قد تكوّن من خبرة بضعة آلاف من السنين مارسها الشرق الأدنى القديم، وبخاصة مصر، قبل ظهور الأمة العبرانية.

وثانيًا: أن تلك الخبرة قد رسخت قدمها بشكل مدهش وزيد عليها بما اكتسبه العبرانيون أنفسهم من التجارب الاجتماعية المتواصلة، على يد أولئك الأنبياء والحكماء الإسرائيليين.

وقد كان تبادل عوامل الثقافة بين فلسطين وجيرانها من كل الجهات واضحًا منذ زمن بعيد على أساس ما لدينا من الكتابات العبرانية فقط. فهذه الكتابات تكشف لنا عن دوام مرور قوافل التجارة الأجنبية بهذه الأنحاء، فحينما كان العبرانيون فى حاجة إلى الحدادين فإنهم كانوا يجلبونهم من المدن الفلسطينية، واقتبس مهندسو «سليمان» تصميم معبده فى «أورشليم» من تصميم معبد مصرى، وكذلك مهرة الصناع الذين قاموا ببنائه فقد أرسلهم «هرام» ملك «صيدا» إلى صديقه «سليمان»، وتزوج «إهاب» ملك بنى إسرائيل من أميرة فينيقية وتولى حمايتها فى إحضار آلهة لها أجنبية عن العبرانيين، وغيره من تلك الأمثلة التى لا حصر لها.

ويجب علينا الآن أن نضيف إلى هذه الأدلة المبينة المستقاة من «كتاب العهد القديم» تلك الأدلة التى أسفرت عنها الأبحاث الأثرية الحديثة، فقد أماطت لنا الحفائر الفلسطية اللثام عن قائمة طويلة من البضائع الأجنبية التى اشتريت هناك ومعها عدد عظيم من الرسوم الزخرفية الأجنبية التى اجتلبت مع تلك البضائع، فضلاً عن أدلة أخرى لا حصر لها تنطق بتأثير العوامل الأجنبية. فالأثاث الذى عثر عليه فى قصر الملك «إهاب» فى «سامرا» كان محلى بقطع من العاج نقشت عليها صور آلهة أجنبية وبخاصة من آلهة مصر القديمة (انظر شكل ١٨). والواقع أنه يمكن كتابة مجلد بأكمله عن العناصر الثقافية الأجنبية التى انتشرت فى فلسطين قبل أن يستوطنها العبرانيون وظل أثرها يزداد بعد ظهور الملكية العبرانية فى عالم الوجود. وربما كان من الواضح أيضًا منذ زمن بعيد أن الأدب العبرانى، بصفته معبرًا عن الحياة العبرانية، لابد أنه كان بطبيعة الحال، مطعمًا مثل تلك الحياة نفسها، بالمؤثرات الثقافية المنحدرة من الخارج، سواء أكانت فى القانون أم فى الأساطير أم فى الدين بوجه عام. ولا يقل ذلك كله عن المبادئ الخلقية. وقد رأينا فيما سبق أن العبرانيين أخذوا الكثير من قوانينهم وأساطيرهم عن المدينة البابلية، أما فى الأخلاق والدين والتفكير الاجتماعى بوجه عام ـ الذى هو أول نواحى اهتمامنا فى هذا الكتاب ـ فإننا نجدهم قد بنوا حياتهم على الأسس المصرية القديمة. فالإسرائيليون بعد استيطانهم فلسطين كانوا فى الواقع يسكنون أرضًا من الأملاك المصرية مضت عليها فى هذه الحال قرون بأكملها. وقد استمرت بلادًا مصرية عدة قرون بعد استيطان العبرانيين لها، وحتى فى عهد متأخر كعهد حكم «سليمان» نجد أن الفرعون المصرى أهدى إلى الملك العبرانى مدينة «جِزر»، وهى بلد حصين من بلدان فلسطين كانت تقع على وجه التقريب فى كنف «بيت المقدس».

هذا إلى أن النتائج الأساسية التى قامت عليها وستقوم عليها دعامة المبادئ الخلقية فى الحياة المتحضرة فى أيامنا، كانت قد اهتدت إليها الحياة المصرية قبل الوقت الذى ابتدأ فيه العبرانيون تجاربهم الاجتماعية فى فلسطين بزمن

طويل، كما كانت تلك المبادئ الخلقية المصرية موجودة فعلاً فى فلسطين بصورة مدونة منذ قرون عدة حينما استوطنها العبرانيون.

حقًا إن التوسع الذى أدخل على تلك التعاليم كثمرة من ثمرات الفكر والحياة العبرانية، يعد ذا قيمة عظيمة للإنسانية لا تقاس بأى مقياس كان، غير أننا عندما نعترف بهذه الحقيقة يجب ألا يفوتنا أن تلك المشاعر الخلقية التى تسود المجتمع المتمدين الآن ترجع فى أصلها إلى عصر أقدم بكثير من «عصر النبوات» المعترف به من زمن بعيد، وأنها قد انحدرت إلينا نحن أهل هذا العصر الحاضر من عهد لم تكن فيه الكتابات العبرانية قد وجدت بعد. وعلى ذلك تكون مصادر تراثنا من التقاليد الخلقية بعيدة كل البعد عن انحصارها فى فلسطين وحدها، وأنه يجب اعتبارها مشتملة كذلك على الحضارة المصرية. على أن السبيل الذى وصل منه هذا التراث المجيد إلى العالم الغربى هو على وجه خاص ما بقى لنا من الأدب العبرانى وحفظه لنا «كتاب العهد القديم».

فإن زوال مدنيات الشرق القديم التى بنيت على أسسها المدنيّة العبرانية، وما نتج عن ذلك من حرمان العالم الغربى من فهم كل كتابة وكل لغة لتلك المدنيات البائدة حتى ظلت فى عالم صمت مدة ألفى سنة. قد ترك الأدب العبرانى يضىء لنا وحده كأنه شعلة وحيدة من النور تحيط بها الظلمة الدامسة من جميع جهاتها. وعلى ذلك يكون ما رد إلينا بالوسائل العلمية من بعض المعلومات عن المدنيّات الشرقية المفقودة بمثابة قبس يضىء تلك الظلمة ويحيط بنى إسرائيل بنور يرجع إلى ما قبل عهدهم ببضعة آلاف من السنين. ولو أن العالم الغربى لم يفقد قط كل علم بأصول المدنيّة وتطورها لما كان يخطر ببال أى باحث قط أن يجعل للعبرانيين أية منزلة فى التاريخ فوق أنهم بلغوا ذروة ذلك التطور الطويل السابق فى الأخلاق والدين، وأول ما كان يحصل بالتأكيد هو عدم ظهور ذلك المذهب اللاهوتى القائل بانفراد شعب واحد بالتمتع بالوحى الإلهى، وهو المذهب الذى أعمى أبصارنا عدة قرون عن تعرف ذلك التراث الخلقى الجليل الذى ورثناه عن تأملات وإلهامات العالم بأسره، لا عن تاريخ أو تجارب أية أمة من البشر بعينها.

وعلى ذلك فإن أعظم فائدة إنشائية نجنيها من وراء الاهتداء إلى حقيقة تلك المدنيات الشرقية القديمة المفقودة هى أنها ردت إلينا تراثًا عرضه عرض الأفق ـ وهو التراث الذى خلفته لنا حياة بنى الإنسان أجمعين. ففيه نجد أعظم وحى يخطر لنا، وبه يمكننا الآن أن نستدل على أن انبثاق إدراك الإنسان للمميزات التى تفرق بين السلوك الطيب والخاطئ إنما هو خطوة من خطى التاريخ ونتيجة للخبرة الاجتماعية، وأن قيمة هذا الإدراك فوق كل تقدير لأنه إدراك نام لم تكمل بعد تطوراته التاريخية. فإن استردادنا لتلك المدنيات المفقودة هو الذى أمكننا به إقامة البراهين على أننا لم نقطع مرحلة تذكر بعد خروجنا من عهد الظلمة الحالكة السابق لظهور القيم الخلقية، وأن «فجر الضمير» لا يزال خلفنا بالضبط لمن نكد نبتعد عنه شيئًا، وأننا ما زلنا للآن نقف عند مطلع شمس عصر القيم الخلقية.

وإنى أعتقد أن الأستاذ «لويس أجاسيز» (Louis Agassiz) هو الذى «بعد أن فحص التزعزع الدائم فى الجبال الثلجية السويسرية، وراقب انحدار كتل الصخر الكبيرة والصغيرة وهى فى قبضة الثلج، ثم انفصالها عنه بتأثير شمس الصيف الحارة فتستحيل بذلك إلى سور من الصخور المتراكمة يحف بفوهة الوادى) ـ أدرك فى نهاية الأمر أن هذه الحركة الجليدية كانت دائبة على عملها منذ أزمان بعيدة، ثم أشرقت على عقله فجأة تلك الحقيقة الرائعة هى أن تلك العمليات الجيولوجية التى جرت فى أزمنة سحيقة وأفضت إلى تكون الأرض لا تزال دائبة مستمرة فى طريقها إلى يومنا هذا، وأنها لم تنقطع ولن تنقطع عن عملها أبدًا. وبعد هذه النظرة القصيرة التى ألقيناها على أدوار التطور الخلقى، قد نكون محقين إذا قررنا من باب الموازنة والقياس أن ما ذكر عن فعل الثلوج ينطبق كل الانطباق على ما نحن بصدده من التطور الخلقى فى بنى الإنسان.

هوامش الفصل السابع عشر:

(١) راجع: Early History of Assyria. P. 338 by Sidney Smith, Keeper of the Department of Egyptian & Assyrian antiquities in the British Musivn, Vol. 1, New York 1928.

(٢) يلاحظ أن عدم انسجام ضمائر الأفعال فى القصيدة موجود فى الأصل.

(٣) نقلا عن: Hugo Gressman, altorientalische Texte zum Alten Testament P.P.2 41-242 (2n enl. Berlin, 1926).

(٤) نقلاً عن: A. Ungnad, Die Religion der Bolylonier und assyrer, PP. 187 - 188.

(٥) انظر: Vol. II, PP. 702 - 703.

(٦) لقد بقى الحال عندنا فى مصر على العكس من ذلك إلى أن محيت الامتيازات الأجنبية.

(٧) أنظر الكتابين: Fridrich Sarre, Die Kunst des alten Persien (Berlin, 1922). Fridrich Sarre & Ernst Herzfeld, Iranische Felsreliess, Tafel XXVIII & pp. 155 - 165 (Berlin, 1910).

(٨) الأستاذ «أرنست هرزفلد» هو مدير حفائر البعثة الفارسية التى أوفدها المعهد الشرقى (Oriental Institute) التى تقوم الآن بأعمال الحفر فى قصور برسيبوليس وفى مقابر أباطرة الفرس المجاورة الواقعة فى نخشى رستم (Nakhshi Rustum) ومواقع أخرى بالقرب من مدينة «برسيبوليس» (Persepolis).

(٩) انظر سفر القضاة من الكتاب المقدس (التوراة).

(١٠) وقد أدى ازدياد تقديس هذا الاسم عند اليهود إلى أنهم لفظوا بكلمة عبرانية تدل على «رب» بدل كلمة «يهوه». وهذا الاستعمال أدى فى النهاية إلى فقدان النطق القديم لكلمة «يهوه» وصارت حروفها الأربعة الساكنة «ى هـ ف هـ» تلفظ بإضافة الحركات التى

تستعمل مع كلمة «رب» فى العبرية وبذلك أصبحت كلمة «يهوه» تلفظ جهوفه (يهوفاه) وهو صورة لهذا الاسم ليس له أصل قديم قط.

(١١) جمع كلمة «إيل» هو إلوهيم.

(١٢) إن الأجسام المصرية التى استخرجت من أقدم جبانات عصر ما قبل التاريخ، قبل ٤٠٠٠ ق. م.، تكشف عما يدل على الختان، وذلك حينما يكون الجسم محفوظًا لدرجة تمكن من فحصه. وقد مثلت عملية الختان، يقوم بها جراح مصرى، على جدران قبر فى جبانة «منف» يرجع عهده إلى القرن السابع والعشرين أو الثامن والعشرين ق.م.

(١٣) شهد هذا البلد عدة مواقع حربية منذ عهد «تحتمس الثالث» حتى الحرب العالمية الأخيرة، وقد نال فى هذا المكان «اللورد اللنبى» فوزًا مبينًا.

(١٤) إن هذه هى الصيغة الإسلامية لأصل عبارة المؤلف، وهى تنافى العقائد الإسلامية.

(١٥) سفر «ملاخى» ـ الإصحاح الرابع.

(١٦) انظر الصورتين ٩ و ١٩.

(١٧) كانت بالأصل: الأنبياء.

(١٨) انظر كتاب المؤلف: Aucient Rercords Vol. IV PP. 282 - 283

(١٩) فى سفر صمويل الأول (الإصحاح العاشر ١١ ـ ١٢): «ولما رآه جميع الذين عرفوه منذ أمس وما قبله أنه يتنبأ مع الأنبياء قال الشعب الواحد لصاحبه ماذا صار لابن قيس أشاول أيضًا بين الأنبياء. فأجاب رجل من هناك وقال ومن هو أبوهم وكذلك ذهب مثلاً أشاول أيضًا بين الأنبياء.

(٢٠) إن المشابهة بين رسالة الأنبياء العبرانيين ورسالة الحكماء المصريين قد ذكرها الأستاذ «إدوردماير» Eduard Meyer, فى كتابه Die Israeliten und Ihre Nachbarstamme PP. 451 FF. (Halle, 1906).

(٢١) أنظر كتاب المؤلف History of Egypt PP. 371-374 (lst. Ed., New York, 1905)

(٢٢) يقصد بذلك النسخة المنقحة من كتاب العهد القديم التى عملت بأمر الملك جيمس ملك إنجلترا عام ١٦١١ بعد الميلاد.

(٢٣) يشير إلى قضاء سليمان بين المرأتين اللتين ادعت كل منهما أمومة الطفل.

(٢٤) توجد بينات أخرى تدل على اعتماد «أمينموبى» على حكم «بتاح حب» ويتضح منها أن «أمينموبى» كان يستعمل الأدب المصرى القديم السابق لعهده فى تأليف كتابه المكون من ٣٠ فصلاً. وهذه حقيقة مهمة لأنها تناقض ما يحاوله بعض علماء الكتاب المقدس من إرجاع عصر «أمينموبى» إلى زمن متأخر وبذلك يعتبرون حكمه مستعارة من الأمثال العبرانية.

(٢٥) راجع: Weiteres Zu Amen-en - ope und Proverbien in eOrientalistesche Litera-rurzeilung, Vol. 28 (1925) Col. 59.

الخاتمة

«إن زبدة جميع الأشياء، وما ترمى إليه الحرية
والتعليم والمخالطة والثورات إلى تكوينه ومنحه،
هو «الأخلاق»، كما أن غاية الطبيعة هى أن
تصل بمليكها (الإنسان» إلى هذا التتويج (يعنى الأخلاق)»

(عن إمرسون Emerson من مقال له فى السياسة)

«إنى أحب التاريخ لأنه يظهر لى نشأة
العدالة وتقدمها، ويزيد من تقديرى
لجماله أنى أرى فيه منتهى ارتقاء الطبيعة»

(عن رسائل للكاتب «هـ. تين» (H. Taine)

١ ـ الطبيعة ومصادقتها للبشرية

يحكى عن «هيكل» ((Haeckel) المتخصص فى علم الحياة أن بعض الناس سأله ذات مرة السؤال المثير للنفس الآتى:

«إذا فرض أنه كان بمقدورك أن توجه إلى «الكون» سؤالاً، وكنت واثقًا من أنك ستتلقى الإجابة الحقيقية، فما هو ذلك السؤال الذى كنت ترغب فى توجيهه إليه؟»

عندئذ ظل «هيكل» غارقًا فى التفكير بضع لحظات، ثم قال إن السؤال الذى أفضل أن أسمع الإجابة عنه أكثر مما عداه هو: «هل الكون مصادق للبشرية؟»

والواقع أننا هنا أمام سؤال عميق ملهم.

فإن التطور الخلقى الذى تتبعنا خطواته فى الفصول السابقة يمكننا الآن من مناقشة سؤال الأستاذ «هيكل» هذا فى ضوء حقائق ثبتت لنا أخيرًا ويحتمل أن بعضها كان غير معروف له إذ ذاك، وإن كانت لا غنى عنها فى هذه المناقشة.

وقد جرى العرف من زمن بعيد بأن مهمة المؤرخ هى أن يعرض النتائج التى وصل إليها، وأن يشير بقدر المستطاع إلى الوثائق الأصلية التى نبتت منها نتائجه، وبعد ذلك يكون قد أدى واجبه وليس له أن يدخل فى المغازى الخلقية بل تعد مهمته منتهية عند ذلك الحد.

فإذا كان القارئ قد احتفظ بما يلزم من الصبر فى مطالعته، فإنه لابد قد استطاع الإلمام بأهم الأدلة المدونة التى تكشف لنا أصول أخلاقنا الموروثة وتاريخها المبكر كما جاءت مرتبة فى فصول هذا الكتاب. وإنى كمؤرخ لا يحق لى ذكر شىء فوق ما تحتاجه هذه الأدلة من مناقشة. غير أن ما لهذه الأدلة نفسها وللنتائج الناشئة عنها من الأهمية البعيدة المدى يرغبنى فى الإدلاء ببعض ملاحظات إضافية خارجه فى الأصل عن دائرة اختصاصى، ولا سيما أن خاتمة كتاب ما ـ إذا كان هناك شىء يسمى بهذا الاسم ـ تسمح بأن يدلى المؤلف فيها بكل ما يروقه قوله.

والآن نعود إلى سؤال الأستاذ «هيكل»، إننى مع شعورى بشىء من الاعتزاز بالرأى أقول إنى كنت أود أن أسأله هو السؤال التالى: «من أين أتيت بكلمة «مصادق» هذه؟» ذلك لأن الأستاذ «هيكل» قد اعتبر مدلول كلمة «مصادق» أمرًا

بدهيًا كما يعتبر المؤرخ الطبيعى المادة عاملاً من عوامل بحثه دون أن يطالب بتفسيره.

ولكن مدلول كلمة «مصادق» ليس أمرًا بدهيًا، بل إن مجرد ظهورها فى سؤال الأستاذ «هيكل» هو فى الواقع إجابة عن السؤال نفسه، وكان من الواجب أن يسأل عن إيضاح تلك الكلمة. فلولا أن الأستاذ «هيكل» قد مات منذ زمن طويل لكان من الأمور الشائقة أن نسمع إجابته عن ذلك، ومن المحتمل أن إجابته كانت تكون شيئًا شبيهًا بما يأتى:

«ولم هذا؟ «إن كلمة «مصادق» كلمة مألوفة فى جميع اللغات الحديثة المتمدينة».

ولكن المعترف به من زمن بعيد هو أن اللغة أكثر من مجرد أداة نقل للتعبير عن الفكر. بل الواقع أن اللغة هى أداة نقل مؤلفة من تجارب البشر، لدرجة أنها من الوجهة التاريخية تعتبر إلى حد ما سجلاً لتجارب البشر فى جميع نواحيها المتعددة، سواء أكانت اجتماعية أم صناعية أم عملية أم ميكانيكية أم فنية أم خلقية أم دينية أم حكومية، إلى غير ذلك. فإذا توجهنا بنظرنا مثلاً إلى سلعة مهمة من نتائج تجاربنا الميكانيكية فى الوقت الحاضر، وهى السيارة، فإننا نجد أن الكلمات «جراج» و«شوفير» (سائق) و«شاسى» (الجزء الأسفل من هيكل السيارة) «وتُنُّو» (نوع من العربات) ونحوها قد بدأ استعمالها ينتشر فى اللغة الإنجليزية منذ قرابة جيل من الزمن. وسيستمر ظهور هذه المجموعة الصغيرة من الكلمات بأصلها إلى ما قد يبلغ آلاف السنين برهانًا على حقيقتين تاريخيتين فى تجاريبنا: الأولى: ظهور استعمال «الأتوموبيلات» فى أواخر القرن التاسع عشر، والثانية أن أصل «الأتوموبيل» ومبدأ استعماله العام كمخترع عملى يرجع إلى فرنسا.

و من الأمثلة الشائقة التى يمكن اقتباسها من الحياة البشرية المبكرة كلمة «ببلوص» (Biblos) التى يحتمل أنها ظهرت فى أوروبا الإغريقية بمدلول كلمة «بابيروس» (ورق). ويعد ظهور هذه الكلمة فى اللغة الإغريقية قبل سنة ٥٠٠ ق.

م. بعدة قرون (على الأرجح) دليلاً على وقت بداية دخول الورق فى أوروبا، كما يعتبر اسمه غير اليونانى ـ يعنى اسمه الأجنبى الذى اشتقت منه كلمتنا «ببيل» ومعناها «التوراة» ـ دليلاً قاطعًا على أن مدينة «ببلوص» الفينيقية الواقعة على ساحل سوريا الشمالى كانت هى المصدر المباشر لأول ورق استعمل فى أوروبا.

وهكذا نجد فى مدفون طيات اللغة إيضاحًا لمنشأ اختراعين بشريين ملموسين تمامًا، وهما «الأتوموبيل» الذى بدأ استعماله فى عصرنا الحالى، والورق (البابيروس) الذى كان أول دخوله إلى أوروبا منذ زمن يزيد على خمسة وعشرين قرنًا. وما يسرى على هاتين الكلمتين من حيث إدلائهما بالمعلومات عن الاختراعات الميكانيكية الحديثة يسرى بطبيعة الحال كذلك بالنسبة للشئون الأقل مادية فى ارتقاء الحياة الإنسانية، عندما نهضت من حالة الهمجية أو الوحشية وسارت نحو بلوغ تلك القيم النفسية الباطنة التى أفضت إلى ظهور مثل الكلمات: «صديق» و«مصادق» و«مصادقة».

وما دام الأمر كذلك أفلا يكون الأستاذ «هيكل» حينما وضع سؤاله المتقدم ذكره: «هل الكون مصادق للبشرية»؟ قد فاتته أهمية مجرد وجود كلمة «مصادق»؟ وقد رأينا عند فحصنا للوثائق المصرية القديمة أنه يوجد فى لغتها وفى تاريخها ما يدل على بزوغ فجر تلك الصفات البشرية وارتقائها المبكر عند قدماء المصريين مما تنم عليه كلمة «مصادق».

ومن المؤكد أنه لو كان الأستاذ «هيكل» يشاركنا الآن فى هذه المناقشة لكان له فيها تعليق يعتد به ربما كانت صيغته على الصورة الآتية: «وكيف يكون ما برهنت عليه تاريخيًا من ظهور كلمة «مصادق» جوابًا على سؤالى الأصلى؟ إننا إذا سلمنا أن الإنسان الطبيعى قد نشأ من أصل الكون المتطور، ثم سلمنا أن الخبرة البشرية هي التى ابتكرت «المصادقة» وأنمتها، فإن معني ذلك أنك تتكلم عن الخبرة البشرية، فى حين أن سؤالى منصبٌ على الكون. فما شأن الخبرة البشرية إذًا بالكون»؟

وعلى الرغم من أن الفكرة القائلة بأن الإنسان جزء من الطبيعة ـ سابقة لعهد الفيلسوف «لوك»، فإن المقدمات التى بنى عليها آراءه هى التى على ما يظهر قد

أدت بالفلاسفة إلى تلك النتيجة. وهى نتيجة من عمل الفلاسفة بنوها ـ طبعًا ـ على مقدمات فلسفية. أما فى أيامنا هذه فقد صار فى استطاعة أبحاث علم الحفائر الجيولوجية وعلم آثار ما قبل التاريخ أن يتتبعا تاريخ الإنسان الطبعى وهو ينهض من العصور الجيولوجية ويخرج من العالم الطبعى، وعلى ذلك تزداد الأدلة باطراد على أن الإنسان جزء من الطبيعة، ولو من ناحيته الطبعية على الأقل. ثم إن أقدم الوثائق المدونة التى وصلت إلينا عن ماضى البشرية تكشف لنا أيضًا عن ارتقائه حتى بلغ عهد الوعى الأخلاقى.

ومن العجيب أن هذه الحقيقة قد خفيت ـ على ما يظهر ـ على المفكرين. وعلى كل حال فقد صرنا الآن لا نعتمد على أقوال الفلاسفة، كما كان الحال فى عهد «جيته» (Geothe)، فى مجرد الافتراض بأن الإنسان فيض من إنتاج الطبيعة، ووثائق الشرق الأدنى القديمة تبرهن بالدلائل التاريخية هذه الحقيقة.

وقصة نشأة بنى البشر كما أماطت عنها اللثام الأبحاث الأخيرة فى الشرق الأدنى القديم تُظهر لنا بأجلى بيان، لا من الوجهة الفلسفية بل من الوجهة التاريخية، أن خبرة بنى البشر هى آخر مرحلة فى تاريخ الكون، أى أن الخبرة البشرية، هى بقدر ما وصلت إليه معارفنا، ثمرة من ثمرات ذلك التاريخ.

وفى قصة حياة الرقى البشرى التى كنا نتتبع سير خطواتها فى هذا الكتاب التقطنا خيوط الحياة الإنسانية الآخذة فى الارتقاء عند النقطة التى صار فيها الإنسان أول مخلوق عرف بمقدرته على صنع الآلات فى زمن لا يقل بُعده عن مئات الآلاف من السنين بل قد يبلغ مليونًا من السنين. ونحن الآن نعتبر الأبحاث عن تلك المرحلة من حياة الإنسان ملكًا شائعًا بين علماء الحفائر وعلماء الجيولوجية من جهة وعلماء الآثار من جهة أخرى.

ونحن علماء الطبائع الإنسانية عندما نريد البحث عن ذلك العصر السحيق نتكاتف مع علماء التاريخ الطبعى ـ لما نجنيه كلانا من جهودنا المشتركة ـ فهى تجربة نافعة لكلينا.

فالإنسان ـ فى الحالة التى وجد عليها فى فجر العصر الحجرى ـ يعتبر موضوعه داخلاً فى أبحاث العلماء الطبيعيين، وإن كان العلم لم يبين لنا النقطة التى انقطعت عندها صلة البشرية بذلك الكون المتطور فلم تعد جزءًا منه.

ولنرجع بالبصر كرة عاجلة بالرغم مما سيوقعنا فيه ذلك من بعض التكرار، ناظرين فى مدى تاريخ الحياة البشرية منذ ذلك الوقت، للبحث عما إذا كان فى مقدورنا أن نجد نقطة لم تعد البشرية بعدها جزءًا من ذلك الكون.

وبالرغم من السرعة التى اتبعناها فى هذا الكتاب فقد استطعنا أن نقتفى أثر أقدم من عرفنا من أجداد الحضارة فى أدوار حياتهم التى قامت على الصيد فى أنحاء هضبة الصحراء الكبرى، المترامية الأطراف، فى ذلك العهد السحيق الذى كانت فيه مرتفعاتها ـ الماحلة الآن ـ لا تزال خضراء يكسوها الكلأ الأخضر. ويقول علماء الحفائر العلمية إن ذلك الصائد الفطرى الذى كان يهيم فى غابات الصحراء خلال عصر ما قبل التاريخ، كان مخلوقًا نشأ من تطور حياة الكون، أى أنه كان لا يزال جزءًا غير منفصم من ذلك الكون.

ثم نرى أنه فى أنحاء جميع شمالى إفريقيا أخذت تلك الحلة الخضراء المترامية الأطراف تذوى وتنقبض ببطء فى خلال مائة ألف سنة أو تزيد، حتى صرنا نرى تلك الخمائل والغابات البرية تتلاشى وتختفى تدريجيًا، كما كانت المياه التى تنخفض فى بحيرة صحراوية ما، على امتداد وادى النيل، كالرمل المتناقص فى ساعة رملية زجاجية، تقيس لنا مدى تلك الأزمان الطويلة التى كان يتناقص فى خلالها سقوط الأمطار فى شمالى إفريقية فيحيل تلك الصحراء الشاسعة تدريجيًا إلى بيداء ماحلة لا تشتمل إلا على صخور ورمال جامدة. وعندما اضطر أولئك الصيادون المتوحشون إلى هجر هضبة تلك الصحراء بهذه الصورة والنزول إلى وادى النيل، ألم يعودوا جزءًا من ذلك الكون المتطور؟

وحينما قاموا على أثر ذلك بحبس حيواناتهم الوحشية فى الحظائر العظيمة ليتخذوا منها ماشية أنيسة كالبقر والغنم والمعز والحمير، وحينما أصبحوا لا يكتفون بأكل بذور الحشائش البرية، وصاروا يزرعونها ويتعهدونها كالشعير

والقمح، ثم خلعوا عن أنفسهم حياة الصيادين المتجولين واستوطنوا قرى صغيرة رعاة وزراعًا ـ ألم يعودوا جزءًا غير منفصم من ذلك الكون المستمر فى الارتقاء؟

وبعد بناء تلك القرى التى من عصر ما قبل التاريخ ـ وهى التى كان يقطنها أولئك الرعاة والحراثون ـ والتى كانت مبعثرة فيما يبلغ ٧٠٠ أو ٨٠٠ ميل على طول وادى النيل، وبعد تحولها بتأثير عدة آلاف من السنين من التطورات الاجتماعية إلى أقدم دولة معروفة فى غضون التاريخ يتألف سكانها من عدة ملايين من النسمات، تعرف المعادن والكتابة وتسيطر عليها حكومة منظمة تنظيمًا ساميًا وتقوم ببناء أضخم المبانى التى لم يُبن مثلها قط فى ذلك العالم القديم، دالة بذلك على قوة تغلبها الهائل على العوامل المادية ـ ألم يعودوا بعد كل ذلك بأية حال جزءًا من ذلك الكون المتطوّر؟

وحينما بدأ تخمر تلك العوامل الاجتماعية عند فجر ما يسمى عصر التاريخ ـ أى قبل عام ٢٠٠٠ ق. م. ببضعة قرون، وظهر تأثير أقدم عصر عرف فيه الاحتكاك الاجتماعى، الذى استمر نحو ألف سنة ثم ظهر أخيرًا قبل عام ٢٠٠٠ ق. م. فى صورة أقدم حرب مقدسة فى سبيل العدالة الاجتماعية وابتغاء إيجاد عهد جديد قوامه الشفقة الأخوية، أى حكم المصادقة ـ فهل يجب بعد ذلك أن نفصم أولئك النفر الذين هم أقدم دعاة للمثل العليا فى الاجتماع عن تلك المراحل السابقة فى ذلك الكون المتطور.

وهنا نجد القيمة الأساسية لنتائج الكشوف التى كشفتها لنا الطبقات الجيولوجية ومدائن الشرق القديمة وجباناته. فإن هذه الكشوف تميط لنا اللثام عن مجموعة من الصور الرائعة نرى فيها المرحلة تلو المرحلة فى طريق تقدم البشر وارتقائه. ففى بداية الطريق نرى الإنسان يبدو بشكل واضح خارجًا من العصور الجيولوجية، وبعد مضى عدة مئات من آلاف السنين ينهض من ذلك الفتح المادى المحض إلى المستوى الذى يدرك فيه معنى الشفقة الأخوية: فهنالك نرى ظهور الإنسان الطبعى فى وحشيته الحيوانية التى ترجع إلى العصور الجيولوجية، وهنا نجد دنيا رحيمة رفيقة تستعمل كلمة «مصادقة» التى هى

موضوع السؤال الثاقب الذى أراد الأستاذ «هيكل» أن يوجهه إلى الكون! وبين هاتين المرحلتين نرى ذلك التقدم الذى يربط بعضهما ببعض، وهو تقدم لم نجد للآن ما يبرهن عليه من الشواهد والأدلة غير الحياة الإنسانية المبكرة فوق ضفاف النيل، حيث رأينا ذلك التقدم وكأنه معمل اجتماعى عظيم، بما كان يحويه من الحياة البشرية التى ترجع بدايتها إلى تلك التقلبات السحيقة فى القدم التى كونت سطح الكرة الأرضية فى شكله الحالى، وبذلك نجد أن وادى النيل هو الميدان الفريد الذى نستطيع أن نرقب فيه صراع الإنسان وهو يخطو بحياته فى سبيل الترقى، من أول ظهور الإنسان الطبعى، إلى ما تلا ذلك من جميع انتصاراته على ما اعترض حياته الناهضة، إلى أن رأيناه فى آخر المطاف يصل إلى إدراك ما تشمله الإنسانية من الإخاء والمصادقة.

٢ ـ الانتقال العظيم وبطء التقدم البشرى

مما تقدم يتضح أن الاعتراض الذى نفترض إبداءه من الأستاذ هيكل (وربما كنا غير منصفين فى ذلك الافتراض) وهو أن الخبرة الإنسانية ليست مرحلة من مراحل تقدم الكون، قد فند لأول مرة تفنيدًا تاريخيًا فى قصة مصر القديمة. وقد فحصنا فيما سبق، على عجل، بعض الإشارات والمعالم الموضحة لذلك الطريق الطويل الذى اجتازه الإنسان منذ فتوحه فى عالم المادة إلى أن وصل إلى تلك الكشوف المدهشة للقيم النفسية الباطنة، أى إلى ذلك الانتصار الذى أحرزه على ذاته وإدراكه للمسئوليات الاجتماعية. فبفضل هذه الوثائق الاجتماعية صرنا نعرف أننا كنا نقتفى منها حركة لا تتصل بتاريخ الكون فحسب بل ما يعد فوق ذلك أروع انتقال فى ذلك التاريخ، على قدر ما وصلت إليه معلوماتنا.

والحقيقة أن ذلك الانتقال هو موضوع هذا الكتاب، ويضاف إليه أيضًا تلك الحقيقة العظمى وهى أن «الانتقال العظيم» كما سنسميه هنا ـ لا يزال ناقصًا أى أنه لا يزال سائرًا فى طريقه نحو الرقى. وقد حاولنا فيما تقدم الكشف عن تكوينه واقتفاء تاريخه المبكر، فرأينا أنه أوجد لأول مرة ـ لا فى الحياة الإنسانية

وحدها بل فى الكون نفسه كما هو معروف للإنسان ـ معانى جديدة وكلمات جديدة للدلالة عليها، وهى معان لقوى تسمو على تقلبات المادة وتنتقل بنا إلى عالم البواعث والاحتمالات النفسية، الفردية منها والشعبية، مما بدأ بنو البشر يشعرون به الآن فقط شعورًا مبهمًا.

وبداية «الانتقال العظيم» هى التى تتميز على وجه خاص بظهور كلمات جديدة خطيرة الشأن. فإن كلمة الأستاذ هيكل «مصادق» ليست إلا كلمة من مجموع كلمات من هذا القبيل ظهرت لأول مرة وكانت أشبه شىء بصور إشارات الإصبع إلى طريق جديد، فصارت بذلك عندنا بمثابة آثار تاريخية مؤذنة بحلول «العصر الأخلاقى» أو «عصر الخلق».

وقد سبق أن أشرنا فيما تقدم إلى ما ذكر فى مقال عن الجراحة والتشريح عند قدماء المصريين كتب فى باكورة الألف الثالث ق. م. ويحتوى على أقدم استعمال لكلمة «مخ». ولما لم تكن هناك ـ بطبيعة الحال ـ فى ذلك الوقت كلمة شائعة الاستعمال للدلالة على المخ يمكن لمؤلف ذلك المقال استعمالها، فإن أخذ كلمة معتادة تعنى «لَيِّن» أو «شبه سائل تخين» يشبه النخاع. ولكى يتجنب التباس المعنى بغيره أضاف إليها كلمة «الجمجمة»، فصار التعبير الجديد بذلك «عجينة الجمجمة» أو «نخاع الجمجمة»، وأطلق التعبير حتى صار علمًا على «المخ» وذلك فى أقدم بحث تناول هذا الموضوع. وهذا الطبيب المختص فى التشريح الجراحى الذى يرجع عهده إلى نحو ٥٠٠٠ سنة مضت، كان يعرف فعلاً أن المخ هو المركز الحساس للشعور والسيطرة على أعضاء الجسم الإنسانى. غير أن معرفته العلمية كانت حديثة العهد فى زمنه لدرجة أنها لم تستطع أن تحل محل الاعتقاد القديم القائل بأن القلب هو مكان الفهم.

وعلى ذلك لما صار أولئك القوم المبكرون يشعرون بوظيفة الفهم الإنسانى الذى يميز بين السلوك المستقيم الصائب وبين ضده من السلوك المعوج الخاطئ استعملوا له ـ كرهًا لا طوعًا ـ تلك الكلمة القديمة «قلب»، يريدون بها الإدراك الخلقى الذى يقوم به القلب. وبذلك صار المعنى الجديد وهو قدرة الإنسان على

إدراك المميزات الخلقية (أى ضميره) - يسمى فى نهاية الأمر كذلك بكلمة «قلب». وبهذا الاسم «القلب» لم يبدأ هذا المعنى الجديد (الضمير) تاريخه كقوة اجتماعية فحسب، بل استمر يحمل هذا الاسم كذلك آلافًا من السنين، كما رأينا، إلى يومنا هذا.

وربما كان من المهم لرجال الكهانة وغيرهم من معلمى الأخلاق فى أيامنا هذه أن يعرفوا أن ذلك المعنى (الذى كان فى يوم ما جديدًا) لكلمة «قلب» القديمة، وهو ذلك المعنى الذى اكتسبته منذ حوالى خمسة آلاف من السنين الماضيات، قد جعل هذه الكلمة تذكارًا أثريًا لذلك الانتقال العظيم الذى نحن بصدد بحثه الآن.

وهذه الوظيفة الجديدة للعقل الإنسانى هى التى سهلت علينا إدراك معنى الأخلاق أو الخلق، وإنه لمن الممتع حقًا أن نعرف الوقت الذى بدأت تظهر فيه كلمة أخلاق نفسها أو «خلق» لأول مرة فى كلام أبناء البشر. لقد بدأ ذلك فى عصر الأهرام، وسرعان ما صارت متداولة فى موضوعات التعليق والتأمل. ففى حكم «بتاح حتب» نرى ذلك الوزير الحكيم المسن يذكر ابنه بأن «الفضيلة فى الابن لها قيمة عظيمة عند الوالد، وأن الأخلاق الحسنة شىء جدير بالذكر» وبذلك ينسب أقدم استعمال لتلك الكلمة إلى القرن السابع والعشرين. ق. م. وبعد انقضاء نحو خمسة قرون على ذلك العهد نجدها فى تلك النصائح التى وجهها أحد الفراعنة إلى ابنه «مريكارع»، حيث يقول إن الله عز وجل هو «الذى يعرف الأخلاق».

على أن كلمة «أخلاق» أو «خلق» فى حد ذاتها كلمة تثير اهتمامًا كبيرًا، لأن معناها الأصلى مأخوذ من فعل معناه «يشكل» «يكوِّن» «يبنى»، وقد كانت تستعمل فى عصر مبكر للدلالة بنوع خاص على العمل الذى يقوم به صانع الفخار أثناء تشكيله للأوانى الصلصالية فوق عجلته. ومعنى كلمة «أخلاق» المشتق من أصلها يشبه بصورة تلفت النظر كلمتنا «أخلاق» التى معناها فى الأصل اليونانى «الطابع الذى يتركه الختم المنقوش فوق الطين الطرى أو الشمع» أو «الطابع الذى فوق المعدن فى صك النقود».

وقد رأينا كيف أن العوامل الجديدة التى تنطق بها هذه الكلمات الجديدة أخذت تعمل عملها بمثابة قوى اجتماعية حتى أفضت إلى نظام جديد أبرزه أيضًا

حكماء الأخلاق المصريون وصار يعبر عنه عندهم بكلمة «ماعت» التى يريدون بها «الحق» و«الاستقامة» و«العدل» و«الصدق»، كما كان يراد بها عندهم أيضًا النظام الخلقى الذى كانت فيه تلك الصفات هى القوى المسيطرة. وهذه الألفاظ، مضافًا إليها «الضمير» والأخلاق، تعد آثارًا خالدة لذلك الانتقال الذى ظهر فى الحياة فوق كوكبنا الأرضى، وقد ظهرت لنا ظهورًا تاريخيًا عن طريق الوثائق المصرية القديمة التى دونت فيما بين سنتى ٣٠٠٠ و ٢٠٠٠ ق. م.

وفى هذا الانتقال التاريخى، الذى حدث لأول مرة فوق كرتنا الأرضية ـ بل فى الكون على ما نعلم ـ نجد أن المصريين هم الكاشفون للأخلاق.

ومن الأمور ذات الأهمية الأساسية أن يعرف العالم الحديث مبلغ حداثة ذلك الكشف. فإن الحضارة البشرية مبنية على الأخلاق، وإذ إن هذه الأسس لا تزال حديثة جدًا فلا داعى لأن نشعر بشىء من القنوط أو خور العزيمة إذا وجدنا أن هذا البناء لم يظهر عليه بعد ذلك الثبات الذى كنا نتمنى وصوله إليه.

ولا نزاع فى أن سخرية المستر «منكن» (Mencken) اللاذعة كثيرًا ما تكون فى محلها، كما أن شدة الحاجة البادية للعيان لعمل إصلاحات فى البناء تهيئ الفرص الكثيرة للغمزات المسلية التى نراها على صفحات مجلتى «بَنش»[1] و«لايف» (Punch & Life) أو فى روايات «برناردشو» (Bernard Shaw) الذى يجد أن انتحال الشخصيات والأوضاع عملاً أسهل وأربح بكثير جدًا من أية محاولة للنظر إلى تقدم الإنسانية نظرة جدية.

وكذلك يوجد كثير من الاتهامات أكثر خلوًا من الغرض وقائمة على اعتبارات جوهرية تقول بأن البناء مصدع بدرجة لا تدع مجالاً لإصلاحه. فنجد أن «أزفالد سبنجلر[2]» (Oswald Spengler) يصرح علنًا بالسقوط النهائى للمدنية الغربية، مع أنه ليس من الصعب أن نبرهن على أن مراثيه المحزنة مبنية على جهل فاضح بحقيقة التقدم الإنسانى. فإنه يلاحظ أن «سبنجلر» يشير إلى المدنية المصرية القديمة بتوسع فى كتابته، فلو كان لديه علم كاف بهذه المدنية لما وجد فيها سندًا لنتائجه التشاؤمية. فإن المدهش العجيب هو أن نجد مخلوقًا ناهضًا من الوحشية

الحيوانية يرتقى إلى درجة تجعله يبتدئ هذا الانتقال العظيم، ولذلك يجب ألا نقلق كثيرًا إذا رأينا هذا الإنسان يتردد تارة أو يضل أخرى حينما يخطو متقدمًا إلى الأمام فى سبيل الارتقاء بهذا الانتقال.

على أن ذوى العقول الرزينة جميعهم يقفون فى حيرة مؤلمة، بينما يطرح بعضنا ثوب الأوهام جملة، عند تأمل حال الإنسان الحديث وقد استولت عليه قوة التخريب التى وضعها فى يده العلم الحديث بما وصل إليه من المقدرة والتفنن فى صنع الآلات الحربية.

والواقع أن رجال العلوم الطبيعية يهتمون أيما اهتمام بأن قوة الإنسان، المنشئة منها والمخربة، فى تقدم مستمر منذ أزمنة سحيقة، وبخاصة بعد أن كشف أخيرًا عن «رجل بكين» الذى يحتمل أن يرجع زمنه إلى نحو مليون من السنين الماضيات، إذ قد اتضح أنه لم يكن فى قدرته أن يوقد النار فحسب (أى أنه أقدم مثل معروف لإشعال الإنسان للنار)، بل إنه أيضًا «صنع الأسلحة من الحجر»، وبذلك صرنا نعتبره أول بشر معروف لنا كان فى قدرته صنع الأسلحة فى عالم الوجود.

غير أنه فات رجال العلوم والمؤرخين على السواء تقدير مركز الإنسان الحالى تقديرًا كافيًا بالنسبة إلى وقت ظهور الضمير كعامل من العوامل الاجتماعية، لأن ذلك لم يكن إلا فى الأمس القريب، وهو فى الحقيقة حادث جدير بأن يؤرخ به كما يؤرخ بعهد استعمال المعادن التدريجى، وإن عصر الأخلاق الذى نتج عن ظهور الضمير لا يكاد يزيد عمره على أربعة آلاف من السنين. والواقع أن تطور حياة الإنسان، كالتطورات الطبيعية الأخرى، يسير فى بطء، وقد يكون سير الانتقال العظيم نحو الكمال كبطء النشوء والتطور الإنسانى فى الطبيعة، لأنه فى مدة مئات آلاف السنين العديدة التى تقع بين «رجل بكين» المكشوف حديثًا وبين «رجل ناياندرتال» (Neanderthal) قد ازداد المخ البشرى نحو ٥٠٪ من حجمه، فى حين أنه من وقت «رجل نايandرتال» حتى الآن ـ ذلك الوقت الطويل نسبيًا ـ لم يزد حجم المخ البشرى شيئًا قط، أى أن نسبة تطور الإنسان بطيئة بدرجة هائلة،

وعلى ذلك يكون أوج ذلك اليوم الخلقى الذى انبثق فجره علينا الآن فقط لا يزال بعيدًا جدًا عنا، ويجب أن نتذرع بالصبر الطويل، وبعبارة أخرى بصبر ذلك الذى يعرف كيف ينتظر فى سكون واطمئنان إذا لزم الأمر ذلك.

ولعله لا يوجد مثل يدل على بطء ارتقاء الروح البشرية وتقدمها أوضح من الموازنة التالية بين أفكار أحد الحكماء المصريين القدماء الذى يرجع عهده إلى نحو ٣٠٠٠ سنة مضت وبين أفكار أحد الروائيين المفكرين الحديثين فى عصرنا الحالى. وها هى ذى:

حكم مصرى قديم منذ قرابة ١٠٠٠ ق.م:	شارلس مورجان فى كتابه الينبوع[٣] فى سنة ١٩٣٢:
يا آمون أنت أيُّها الينبوع الحلو الذى يشفى الظمأ فى الصحراء. إنه لموصد لمن يتكلم، ومفتوح لمن يتذرع بالصمت. وحينما يأتى الصامت تأمل فإنه يجد الينبوع».	«ومع ذلك فإنه كان فى سكينة، بل يظهر أنه قد دخل الردهة القصوى للسكينة نفسها حيث كان ينبوع الروح ينبثق كجدول من الماء فوق الأرض». (ص ١٠٧)

ومن المعلوم أن مثل هذه المعانى عن الروح المتأملة كانت بطبيعة الحال من مميزات الشرق القديم، غير أنه يمكننا أن نقتبس موازنة أخرى كهذه من حياة العمل والمخاطر، وهى:

السندباد المصرى قرابة ٢٠٠٠ ق. م:	فرجيل
سعيد من يتحدث عن مآسيه بعد مضيها	ومن المسرات أحيانًا ذكر تلك التجارب

وبعد انقضاء الحياة، سواء أكانت حياة تأمل أم حياة مخاطرة مملوءة بالأحداث، نجد أن أفكار «سبنسر» (Spenser) فى مدح الموت تماثل صدى أقوال أيوب مصر القديمة، وهو الذى سميناه فى هذا الكتاب باسم «التعس» كالآتى:

أيوب المصرى	سبنسر الإنجليزى من كتابه "Faerie Queene"
«إن الموت أمامى اليوم كمثل المريض الذى يقرب من الشفاء ومثل الذهاب إلى حديقة عند النقاهة من المرض. إن الموت أمامى اليوم مثل مجرى الفيضان من الماء ومثل رجوع الرجل من سفينة حربية إلى منزله»	إنه ينعم الآن براحة أبدية. أليس الألم القصير الذى يحتمله الإنسان هو الذى يجلب له الراحة الطويلة ويطرح بالروح لتنام فى قبر صامت؟ إن النوم بعد التعب والوصول بالسفينة. إلى المرسى بعد إنهاء العاصفة البحرية والراحة بعد الحرب والموت بعد الحياة: فيه السرور العظيم. (خطبة اليأس)

على أن مثل هذه الأصداء الحديثة العهد نسبيًا ليست نادرة حتى فى المدافن الكنسية الإنجليزية، (حيث نجد فوق لوحة أحد قبورها ما يماثل لوحة أحد قبور قدماء المصريين). وإليك البيان:

لوحة قبر شريف مصرى قديم من قرابة ٢٠٠٠ ق.م:	لوحة قبر لأحد الإنجليز فى مدفن كنيسة بيرفورد بأكسفورد شير (Burford, Oxfordshire) من القرن الثامن عشر . م:
«إن فضيلة الرجل هى أثره ولكن الرجل السيئ السمعة منسى».	إن المدائح المدونة فوق الحجر ليست إلا ألقابًا مستعارة بالباطل، وحسن سمعة الرجل أعظم أثر له.

ومن الممكن أن نورد هنا ما لا حصر له من الأمثلة التى تبين كيف تمر الأجيال، ألف السنة تلو الأخرى، وكل جيل يجمع تجاربه الخاصة به ومع ذلك يعيد ويكرر الكثير ما أوحت به تجارب العصور التى جاءت قبل عصره، وهكذا دواليك فى جميع الأزمان.

٣ ـ الانتقال العظيم

بصفته تعبيراً عن تجارب البشرية

مهما يكن من بطء تجمع التجارب الإنسانية فمن المهم جدًا أن نعترف بالحقيقة التاريخية التى تنطق بأن الانتقال العظيم الذى كنا نناقشه أخيرًا هو ثمرة التجارب البشرية ونتيجتها، وأن القوة المحركة للتقدم الإنسانى منذ ذلك الوقت كانت هى الخبرة البشرية، وأن خبرة الإنسان نفسه كانت وستبقى دائمًا أعظم معلم له.

فإن سن قانون التعديل الثامن عشر إنما كان محاولة من أهل الولايات المتحدة الأمريكية للقيام بتجربة جديدة، ولكن الخبرة الاجتماعية أثبتت أن محاولة السيطرة على العادات الاجتماعية كان نصيبها الفشل. فالخبرة الاجتماعية إذًا

هى المعلم الذى لا تلين قناته لغامز.

حقًا إنه ليس من عالم مفكر من علماء الأدب العبرانى الذى نسميه «العهد القديم» إلا ويشعر بقوة ذلك الكتاب ويقدر الدور الأساسى المهم الذى لعبه فى تقدم المدنية الغربية. غير أنه يجب علينا أن نعترف أيضًا بأن «كتاب العهد القديم» كجزء من الأدب العبرانى القديم لا يخرج كذلك عن كونه سجلاً للتجارب البشرية القديمة. فقد كنا فى الصفحات السابقة نربط الحياة السامية فى عالم مدنيتنا الغربية الحديثة بمصادرها الأصلية الأولى من حياة الإنسان فى الشرق القديم فى زمن يرجع عهده إلى ما قبل بداية التاريخ العبرى بأكثر من ألفى سنة، وبعملنا على هذا المنهج لم نعثر على أصول الشعور الخلقى فحسب، بل عثرنا كذلك على فصول بحذافيرها من التاريخ الاجتماعى، ونقصد بذلك قصة حياة أمة عظيمة كما تجلت أمامنا فى مدة تقرب من ثلاثة آلاف من السنين، أنتجت فى خلالها أقدم التصورات الخلقية العميقة وتمخضت تجاربها عن المبادئ الخلقية الناضجة التى عُبِّر عنها فيما خلفته من الأدب الضخم. ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل رأينا ذلك التقدم يسير فى طريقه حتى أنتج الأدب قبل بداية ما يسميه علماء اللاهوت القدامى «بعصر الأنبياء» بعدة قرون، وقد برهنا بالأدلة التاريخية على أن ذلك الأدب لم يبق فقط إلى العهد المسمى بعصر الأنبياء، بل كان له أيضًا تأثير عميق فى التطور الخلقى والدينى عند العبرانيين، وهم الذين ورثنا عنهم تراثنا الخلقى العظيم.

على أن مصادر تراثنا الخلقى كانت تمتد إلى مسافة بعيدة جدًا وراء الحدود الفلسطينية، إذ كانت تشمل كل أنحاء الشرق الأدنى القديم وبخاصة مصر التى ظهرت فيها أقدم التصورات الروحية السامية فى المثل العليا الاجتماعية. ولم يكن فى مقدورنا قط من قبل أن ندرك تلك المصادر الكبرى التى أخذنا عنها ذلك التراث الخلقى المنعدم المثيل، لأن السبيل الذى وصل منه إلى العالم الغربى هو الأدب العبرانى وحده، بل إننا لم نكن نعرف من قبل ذلك الأصل العالمى المركب الذى تألف منه ذلك الأدب.

وإن الفكرة المنبوذة الآن التى تفترض وحيًا مُمَيّزًا منحصرًا فى شعب واحد دون سواه، تمت فى وقت كانت فيه المدنية الغربية تجهل تمام الجهل قصة نهوض الإنسان وتاريخ المدنيات البائدة التى سبقت عهد العبرانيين. وعلى ذلك نعيد هنا ما قلنا من قبل من أن مثل ذلك التصور الذى يقصر الوحى على شعب واحد ما كان ليظهر قط لو لم تكن لغات الشرق القديم قد فقدت ولم تعد سجلاتها مفهومة لأى إنسان، مما أدى إلى اختفاء الأدب الأخلاقى والدينى لتلك المدنيات العظيمة التى يزيد عمرها على عمر العبرانيين بضعة آلاف من السنين.

ولعل أجل خدمة خدمتها لنا الحفائر الأثرية هى إماطتها اللثام عن التقدم الاجتماعى والخلقى الذى أحرزته تلك الجماعات الشرقية القديمة قبل نهوض الأدب العبرانى وقيامه بزمن طويل.

وإن هذا الكشف الذى وصل إليه العلم الحديث يعد من أهم الكشوف العميقة البعيدة المدى. فلقد أبان لنا أننا كنا الوارثين لحياة الإنسان المبكرة على وجه عام، وبخاصة تلك الحياة التى سارت فى مدارج التقدم حول الطرف الشرقى من البحر الأبيض المتوسط.

ومن الظاهر بالطبع أنه لا يدخل فى دائرة أبحاثنا هنا تلك الزيادات النفيسة التى أضيفت إلى ذلك التراث نتيجة للتفكير الخلقى فى أوروبا القديمة والحديثة.

وفى اعتقادى أن تصورنا الجديد للأدب العبرانى، مما أثبت التاريخ صحته، لا يحط من شأن ذلك الأدب بل على العكس يرفع من قدره، إذ إنه يكشف لنا فى الواقع عن صورة جديدة للمصادر الكبرى التى نبعت منها تلك المؤثرات الإنسانية التى ضربت بأعراقها فى مادة المدنية الغربية. وكثيرًا ما نسمع عما يسمى «النزعة الإنسانية الجديدة». فهذه النزعة تتجلى روحها فى البحث الحديث الذى يجرى فى التربة التى غرست فيها أول حبة خلقية فنمت وآتت أكلها. وقد كشفت لنا الأبحاث الشرقية عن حقيقة واضحة، هى أن التربة التى أخرجت أجمل زهرة من المثل العليا الاجتماعية هى الحياة البشرية. ومتى اقتنعنا، عن هذا الطريق،

أن تصور الإنسان للأخلاق البشرية المثلى أقدم بكثير من «عصر الأنبياء»، فإننا نكون قد وصلنا إلى أساس جديد عريض للثقة ببنى الإنسان.

٤ - الماضى الجديد كمؤثر خلقىّ جديد

لقد أصاب اللورد «أكتون» كبد الحقيقة حين قال: «إن إماطة اللثام عن العالم القديم يعد بعد كشف الدنيا الجديدة، الحادث الثانى الذى يفصل بيننا وبين القرون الوسطى ويميز الانتقال إلى الحياة الحديثة». ونجد فى رأى هذا المؤرخ الفذ أن العاملين العظيمين اللذين أخرجا الناس من العصور الوسطى إلى الحياة الجديدة ينحصران فى الرؤية التى تنظر إلى الأمام وإلى الوراء معًا، وهى التى لم تفطن فقط إلى المجال الذى لا حد له أمام مستقبل العالم الجديد بعد سنة ١٤٩٢م.، بل استمدت كذلك أعمق الإلهام من الماضى الذى كشف عنه حديثًا بصورته التى تعرّفها الناس من مدوناته التى وصلت إلينا ومن الأعمال العامة الأخرى التى قام بها أعاظم رجاله. فماذا كان ذلك «العالم القديم» - أى الماضى الذى أشار إليه اللورد «أكتون»؟

الواقع أنه لم يكشف لأوائل أهل العصر الحديث عن أقل إشارة تدل على ذلك «الانتقال العظيم» الذى نحن بصدده، إذ إن كل ما كان يعرفه أولئك الذين برزوا من العصور الوسطى عن الماضى هو كما نعلم كلنا قصة «كتاب العهد القديم»، ومن بعدها تاريخ اليونان والرومان. ولكننا الآن نعرف أن الجهد الذى بدأ عند فجر عصر النهضة لتعرف أخبار العالم القديم، لم ينقطع حبله فى عصر النهضة، بل إنه كما رأينا قد استمر متواصلاً فى خلال جميع القرون التى مضت منذ ذلك الوقت، وسائرًا بخطى سريعة، وبخاصة فى خلال الجيلين الأخيرين. فنحن الآن لا نصغى فقط إلى صوت «أشعيا» و«داود» و«سقراط» و«شيشرون» كما كان يصغى إليهم وحدهم رجال عصر النهضة، بل إننا نصغى كذلك إلى أصوات ملوك الشرق العظام فى قصصهم التى يفاخرون فيها بفتوحاتهم فى البحر الأبيض المتوسط، وإلى أصوات الحكماء المصريين وهم يبشرون بحلول

العصر الذهبى للعدالة الاجتماعية، وإلى صوت «خوفو» الذى ينطق مبناه الهائل المنبئ عن انتصارات أول دولة عظيمة منظمة، وإلى صوت أقدم سباك للمعادن يغنى فى رنات سندانه الحديدى الساذج نشيد تغلب الإنسان المقبل على أنحاء الأرض، وإلى صوت أولئك الأجيال من الناس الذين تقادمت عليهم العهود فصاروا نسيًا منسيًا فلا تسمع أصواتهم الآن إلا عن طريق رسالة تلك الآلات الحجرية المنقطعة النظير فى دقة صنعها، وإلى أصوات أهل العهود الجيولوجية الذين كانوا يهمهمون بحناجرهم الخشنة بتلك الكلمات البشرية الساذجة التى يخيل إلينا أننا نسمع رنينها يدوى فى أنحاء الغابات التى يرجع عهدها إلى ما قبل التاريخ، مرددًا صدى أول كلام واضح لتلك المخلوقات التى يصعب تمييزهم وهم على وشك أن يصيروا بشرًا بالمعنى الذى نعرفه.

ونحن الآن ننظر إلى الوراء من خلال تلك الآباد والعصور، من تاريخية وسابقة للتاريخ، ونصغى إلى الأصداء التى تأتى إلينا من مشاهد تلك الأزمان. وقد تمثلت هذه الرؤية أمام الشاعر الإنجليزى «تنيسون» وهو ينظر فى مهد بكر أولاده، حيث يقول: «من الأعماق يا ولدى». ومثل هذه الصورة لهذا «الماضى الجديد» إنما أخذت تشرق الآن فقط على عقول رجال هذا العصر الحديث، ولها من القيم ما لم نبرهن بعد على شىء منه. وأن من يدرك هذه الرؤية على حقيقتها فإنه يكون قد بدأ يقرأ قصة «أوديسى» بنى البشر الجليلة، وهى التى تظهر لنا الإنسان وهو خارج من ظلام الأبديات، مندفعًا بجهة مرفوعة إلى شمس حياة جديدة سامية تفوق أحلامه. أعنى بذلك مغامرته السامية على مدى العصور.

وأحيانًا كانت تأخذنى الحيرة فيما إذا كانت الرؤيا التى قد تشرق على الروح الإنسانية فى الفن والأدب وتكون باعثًا لها على التعبير عن نفسية صاحبها، يمكن موازنتها بما تحقق من الإمكانات الإنسانية كما رأيناها فى ذلك الانتقال فى الحياة البشرية التى حاولنا تتبعه فى هذا الكتاب.

وليس هناك من شك فى أن ما رآه «إمرسون» فى الموضوع نفسه الذى ذكرناه هنا فى شكل تطور مؤيد بالأدلة التاريخية لم يكن إلا مجرد حدس محض. وفيما

عدا ذلك فإن الروح البشرية لم تعبر عن ذلك قط اللهم إلا ما يحتمل حصوله فى الموسيقى. فإننى حينما أستمع إلى القوة الهائلة التى يفتتح بها مطلع سيمفونية «بتهوفن» الخامسة، ثم أتتبع انتقاله إلى انتصاره الهادئ فى آخر حركة فى هذا الإيقاع، فإنه يخيل إلىّ أن «بتهوفن» مثل «إمرسون» قد أشعرته الإلهامات النبيلة التى أشرقت على روحه السامية بالحقيقة العميقة الأساسية التى يقوم عليها الأمل الإنسانى، وهو ما يجعلنا نتوقع للأخلاق من تأثير بالغ نبتت أصوله من أعماق كون غير ممكن لنا سبر غوره.

على أننا حينما ننظر إلى الوراء فى ماضى تلك الجهود البشرية الهائلة، فإننا لا نجد لها قيمة أو أهمية إلا حينما نراها تنهض نهوضًا باهرًا نحو «الانتقال العظيم» ونحو العثور على القيم البشرية المثلى فى عصر الأخلاق.

والواقع أن عدم تكامل «الانتقال العظيم» هو الذى يجعلنا ننتظر من وراء رحلة بنى الإنسان الطويلة عاملاً خلقيًا فعالاً، على ألا يكون ذلك عن طريق استيعاب الإنسان لمحتويات أى دين من الأديان القديمة بحيث تصير جزءًا من كيانه، بل يجب أن يكون ذلك عن تصورٍ ما للمحجة العليا التى لا تخرج مثل هذه الأديان عن كونها علامات مرشدة إلى الطريق التى تؤدى إليها، إذ من السهل أن يسئ الإنسان فهم قيمة تجارب الشرق القديم من ناحية الدين والأخلاق.

وإنه لمن المناظر الشائعة والباعثة على أشد الأسف، وبخاصة فى أمريكا وانجلترا، ما نشاهده الآن من بعض تلك الأنوثة المخبولة وهن يتأملن الحقائق السامية، معتقدات فى بلاهة، أنها منحصرة فى دين ما من أديان الشرق القديم دون سواه، ناسيات بذلك كل ما قدمته عصور التجارب الإنسانية لإنماء ورفعة وإغناء كل ما وصل إلينا من الديانات التى ترجع إلى أصل قديم.

على أن تجاهل القرون الأخيرة وما أحدثته من تقدم مشرف، والرجوع إلى الوراء والتعلق بالمراحل الأولى الأصلية لدين ما دون تغيير، يكون مثله كمثل إنسان اشتد به الظمأ فى يوم شديد القيظ، فالتمس ما يشفى به غلته فى الرقود تحت شجرة من البلوط ثم حاول إطفاء عطشه ببذرة من البطيخ.

وقد حذرنا صديقى «جيمس هارفى رُبنسون» (James Harvey Robinson) من الخضوع للماضى فى كتابه المنبه للآراء بدرجة عظيمة، المسمى «العقل فى التكوين» (The Mind in the Making)، غير أنى أعتقد أنه يقصد بذلك الاستسلام الأعمى للماضى. على أن طريق التقدم السليم هو أن يتخذ الإنسان وسطًا متزنًا بين الدروس المستقاة من الخبرة، والرؤية الجديدة.

على أنِ ما أرمى إليه بهذه الآراء الختامية لهذا الكتاب هو أن أذكر الباحث بأن دراسة التجارب الإنسانية - دون تحيز - وبخاصة إذا كان قد كشف عنها حديثًا، هى التى تكون فى الغالب الدافع الملهم إلى رؤية جديدة. فليتأمل القارئ بعض الحقائق البارزة التى كشف عنها فحص التاريخ القديم للأخلاق البشرية، مما كنا بصدد بحثه فيما تقدم، ونعيده الآن فيما يأتى: «لقد وجدنا أولاً أن الارتقاء الخلقى فوق كوكبنا هو تطور لم يكمل بعد»، وفى هذه الحقيقة نجد أكبر سبب لأملنا فى المستقبل.

وثانيًا نجد - كنتيجة للحقيقة السابقة - أن الإنسان من الوجهة الخلقية لا يزال طفلاً يلعب فى داخل حجرة مملوءة بلعب خطرة جدًا لم يتعلم بعد كيفية استعمالها، وبذلك يحدث باستمرار أضرارًا جسيمة، لا لنفسه وكفى، بل لكل المبنى الذى يعيش فيه.

ويدل تاريخ الاقتصاد الحديث على أن القصور الطفلى فى الإنسان لا ينحصر فى حدود الأخلاق فقط.

وأخيرًا فإن الإنسان الحديث، وقد عرف طبيعة الرقى الخلقى الذى أظهر التاريخ البشرى المبكر أنه إنتاج وفيض للخبرة الاجتماعية، قد صار لأول مرة فى مركز يؤهله لأن يمد يده للتعاون عن قصد مع العوامل الغريزية فى كيانه، للتأثير فى تطور الرقى الخلقى وتعجيله.

وقد أظهر الأستاذ «توماس هـ. مورجان» بكل وضوح أن التطور الطبعى ليس إلا نهجًا يجب أن يدرس جوهره وقوانينه بالتجربة الفعلية. وإذا كان الارتقاء الاجتماعى شيئًا من حقنا أن نسميه «تطورًا» فإن إجراء تجاربه تعترضه بلا شك

بعض العقبات. غير أن وجود معمل تجارب اجتماعى كمصر كفيل بأن يلقى ضوءًا ذا قيمة على خطوات ذلك التطور الإنسانى السامى ويبشرنا بإمكان وجود عالم تتمكن فيه الحكومة والقيادة ـ مع تجنب الوقوع، فى مهاوى تشريع باهظ النفقات ـ من العمل بجد على إيجاد جو صالح تتقدم فيه الأخلاق الراقية، ويظهر فيه من العوامل المؤثرة ما يكون أكثر قوة من العوامل التى تحيط بنا الآن.

وها نحن أولاء الآن أول جيل من الناس يستطيعون أن ينظروا إلى الوراء فى الماضى، وبإلقائنا نظرة على ذلك الماضى الطويل لحياة الإنسانية برمتها يمكننا أن نتتبع مجرى ذلك الانتقال العظيم إلى الحد الذى بلغه الآن من التقدم. وعقولنا بحكم مركزها هى أولى العقول التى تدرك أن نشأة الضمير والشعور بالمسئولية الاجتماعية، فيما بعد سنة ٣٠٠٠ ق. م.، وهما اللذان كانا بداية الانتقال العظيم، لم يكونا إلا من حوادث الأمس القريب.

وتلك الحوادث كانت بمثابة دليل على اقتراب «أبينا الإنسان» من حدود «مملكة جديدة»، وها نحن أولاء أولاده فى أيامنا هذه لم نكد نعبر تلك الحدود حتى أخذنا فى استطلاع ما ورائها من مشاهد تلك «المملكة الجديدة»، ونقف فى حيرة المتردد عند تخومها الخارجية، يخفى عنا جمالها وسمو مستقبلها البعيد ضباب الضعف البشرى أو يغشاهما سواد دخان ذلك الطمع الخانق والأنانية والحرب العالمية. وبما نزل على أعيننا من غشاوة وما حل بنا من ضعف، زلت بنا القدم حتى اضطرينا على مقربة من سفح تلال تلك المملكة الجديدة، وهى تلال كلها ماثلة أمامنا، ولو كلفنا أنفسنا مئونة رفع أعيننا إلى ما وراءها لحظينا برؤية تلك المشاهد البديعة التى تطل علينا من تلك « الجبال البهية». وتدل الحجة الطويلة السامية التى خلفنا على مرتفعات هذه الجبال التى لم يتسلقها أحد بعد، كاشفة لنا فى نهوضها بالإنسان من عهد الوحشية إلى عهد الأخلاق عن تسامٍ لا يقهر فى الروح الإنسانية، التى قد خرجت بطريقة ما من الأعماق وارتقت حتى بلغت هذا الارتفاع الشاهق.

على أننى باستعمال الكلمات «**تسامٍ لا يقهر فى الروح الإنسانية**» لم أكن أستعمل مجرد عبارة بليغة جوفاء خالية من المعنى. ولقد استعملت هذه الكلمات

لأول مرة فى محاضرة طلب منى إلقاؤها منذ بضع سنوات على أثر عودتى من رحلة قمت بها بين أطلال المدن البائدة بالشرق القديم. ففى تلك الرحلة شعرت بما لم أشعر به قط من قبل من معنى تلك الحقيقة البالغة، وهى أنه، فى الحياة التى كانت ذات يوم تدب فى شوارع تلك المدن التى صارت منذ زمن بعيد أثرًا بعد عين، نهض الإنسان لأول مرة من التغلب على الموارد المادية إلى إدراك قيمة تلك المثل العليا الاجتماعية التى كان لها من الحيوية ما جعلها قوة باقية بيننا نحن الذين نقيم صرح المدنية الغربية على ضوء الحقائق التى لا تزال تسطع علينا من الشرق.

والواقع أن عبارة «التسامى الذى لا يقهر فى الروح الإنسانية»، تنطوى على معنى أكثر مما تعبر عنه مجرد كلماتها، ولكننى أؤكد للقارئ أن هذه الكلمات تمثل حقيقة واقعية فى الحياة الإنسانية لا يمكن دحضها سواء أكان ذلك فى الماضى أم فى الحاضر، وهى حقيقة لم يتناولها أمثال «أزفالد سبنجلر» وجميع من على شاكلته من أصحاب مبدأ التشاؤم، لأنهم على ما يظهر لم يشعروا بها أصلاً. والواقع أنها شىء موجود فى روح الإنسان يمكن الاستدلال على وجوده كما يستدل على الدورة الدموية فى جسمه الطبعى. فأية قوة أخرى كانت هى الدافع الذى ساق الإنسان إلى ذلك الانتقال المدهش من الوحشية إلى النمو الخلقى الذى كنا نتتبع بدايته فيما تقدم؟ بل ما الذى نقل ذلك الإنسان المبكر من الفتح المادى المحض إلى تقدير المرائى الباطنية وجاذبيتها التى لا تقاوم؟

وفى هذا يذيع علينا فيلسوف مثل «برجسون» (Bergson) شيئًا يسميه «الدافع الحيوى» (Elan Yital)، غير أنى لا أبحث هنا فى الأفكار الفلسفية لأنى لست فليسوفًا، وإنما أنا أناقش تاريخ الإنسان وأناقش شيئًا يكشف عنه التاريخ صراحة، وبخاصة فى مراحله الأولى، ويبرزه قوة ظاهرة ماثلة أمام العيان تعمل من مئات آلاف السنين البائدة وما تزال على ما أعتقد تؤدى عملها للآن. وهذه القوة لا يمكن أن يحددها أحد أو يعرفنا بكنهها، غير أنها، مثل قوة الجاذبية، يمكن مشاهدة ما تفعله. وإنى أستعمل هنا التعبير بصيغة المضارع عمدًا، فإنه

ليس علينا إلا أن ننظر فيما حوالينا من أمر ذلك الهبوط الذى بلغ قمته فى سنة ١٩٣٣م. فندرك أن ذلك التسامى التاريخى فى الروح الإنسانية لا يزال معنا.

ومن ذلك اليوم المتوغل فى القدم المظلم الذى صنع فيه الإنسان أول آلة من الظران إلى يومنا هذا، الذى نشاهد فيه الإنسان يحيط الكرة بالإذاعات الأثيرية ويرسم الخطط لمحو مدن برمتها بقذفها بقنابل الغازات السامة من السماء، كان مجرى الحياة البشرية فى جمع تلك العصور فى مجال تسوده الرغبة فى إحراز الانتصارات المادية، وقد سار هذا الفتح المادى فى طريقه مدة مئات الآلاف من السنين ثم هو لا يزال يسير فى هذا الطريق إلى الآن.

غير أنه حدث حادث وكأنه بالأمس، وهو أن «أبانا الإنسان»، فى وسط غبار معمعة متعقد، أخذ يدرك إدراكًا مبهمًا جلال تلك المرئيات الخلقية المستورة ويستمع إلى صوت جديد باطنى، يطلب الاستجابة له عن ألف من خواطره، القديم منها والحديث. فكان هذا الصوت مزيجًا من حب البيت والزوجة والأولاد، وحب الأصدقاء، وحب الجيران، وحب الفقير والوحيد والمظلوم، وحب الوطن وإجلال المليك، ومع حب كل هذه الأشياء الجديدة امتزج تقديسه لأشياء ترجع إلى أقدم المراحل البشرية عهدًا فى التاريخ، كحب الإنسان للسحاب وقمم التلال، وحب الغابة والغدير، وحب الأرض والنجم والسماء، ولا يقل عنها حب الإنسان للحلة السندسية الخضراء التى تمده على مدى السنين بما تنبته من حاجات الحياة والغذاء اللازم لأطفال بنى الإنسان.

وبذلك انتقلت آلهة الطبيعة القدامى إلى عالم جديد زاخر بالعوامل الاجتماعية، وبذلك اندمجوا فى إله واحد، هو إله الحاجات الإنسانية والمطامح الإنسانية. فهو الأدب العالمى الذى بدأ الناس يرون فيه جميع القيم السامية التى كشفت عنها تجاربهم الاجتماعية نفسها.

على أن مثل هذا الماضى قد تكدست فيه حتمًا طائفة من التجارب الإنسانية لا تقدر بقيمة، وقد أقرها محبو النهوض الإنسانى ويرون أنها لا تزال تحتوى على عناصر عظيمة للقوة يكون من الوبال إهمال الاستعانة بها فى حياتنا الحديثة.

وقد بحث «والترلبمان» (Walter Lippmann) فى كتابه البديع: «مقدمة فى الأخلاق» (A Preface to Morals) بنظر ثاقب عظيم موضوع انهيار أسس السلطة الخلقية، وإنى أعتقد إزاء ذلك أننا نستمد قوة خلقية من التأمل فى اتصال حلقات هذه الأشياء التى هى أنفس ما فى الحياة الإنسانية، فإن أثمن ممتلكات الروح الإنسانية، إصرارنا الشديد على التمسك بشعور حب الاستقامة، والعمل على التقدم إلى الأمام نحو فتوحات جديدة فى الأخلاق، وكلها أشياء لم تكن أرومتها ثابتة فى تجارب الإنسانية فحسب، بل إن ظهورها فى حياة الإنسان إنما كان فى شكل قيم جديدة نابتة من تجاربه نفسها، وقوتها باعتبارها مؤثرًا ناميًا فى المجتمع البشرى لم يطرأ عليها شىء من الاضمحلال. وإن ما وصل إلينا من الوثائق يدلنا دلالة تاريخية على أن الشىء الذى كان يسمى منذ زمان طويل «شعور بنى الإنسان الخلقى» قد نما مع كل جيل من النظم والعواطف الخاصة بحياة الأسرة، مضافًا إليه أفكار ونصائح الشيوخ المجربين. ومن ذلك نرى، كحقيقة تاريخية، أن القيم العالية التى تكمن فى الروح الإنسانية قد جاءت إلى الدنيا لأول مرة عن طريق التأثر بتلك العوامل الرقيقة المشرفة التى نشعر بها على الدوام فى حياتنا الأسرية. ولن نصل أبدًا إلى معرفة ما إذا كان لها من قبل بداية سابقة فى مكان ما خارج عالمنا فى ذلك الكون الشاسع، غير أنها لم تكن فى أى مكان فوق كرتنا الأرضية إلى أن أوجدتها حياة الأب والأم والأولاد. والواقع أن شمس أقدم البيوت الإنسانية وبيئتها هما اللذان أوجدا المثل العليا فى السلوك الأخلاقى عند الأنام وكشفا عن جمال إنكار النفس فى سبيل الغير.

وقد ذكر لنا «برتراند رسل» (Bertrand Russel) فى أحدث كتاب له[٤] فى تحبيذ اعتناق مذهب الشيوعية أن أهم تغيير ترمى الشيوعية إلى إحداثه هو العمل على محو الأسرة. وهو يدافع عن ذلك مقصيًا التجارب البشرية أصالة عن حياتنا. على أنه رغم هذا الانقلاب الذى يقوم به الجيل الحديث فإن الخبرة البشرية لا يمكن القضاء عليها ومحوها، كما لا يمكن محو الصفات التى غرستها فينا ولا تجاهلها.

حقًا إن شباب اليوم قد ثار على السلطة سواء أكانت سلطة الكنيسة أم أوامر الكتب المقدسة، وما ذلك إلا لأن المناداة باستعمال السلطة تكون دائمًا موضعًا للمعارضة وبخاصة فى عقول الشباب، ولكن ماضى البشرية يسطع علينا بنوره العظيم وليس ثمة ما يدعو إلى طلب تطبيق السلطة. وإذا تصفح أى باحث كان من الشباب هذا الكتاب فلست أرجو منه إلا تأمل حقائق تلك التجارب الإنسانية التى كشفت لنا الآن بحالة واضحة لم نر مثلها من قبل فى أى وقت كان. على أنه توجد هناك مصادر أخرى تدعو إلى الإجلال علاوة على ما جاء فى الكتب المقدسة أو تعليمات الكنيسة. فإن رجالاً من أمثال «وليم مورس» (William Morris) و«والت ويتمان» (Walt Whitman) قد أحبوا ووقروا حياة الإنسان فوق الأرض، ووجدوا فى تأمل علاقاتها مصدرًا للإلهام والإرشاد. على أنه توجد علاقة واحدة سامية تفوق كل العلاقات الإنسانية الأخرى، وهى تلك العلاقات التى كونت البيت وجعلت من حول موقد الأسرة المصدر الوحيد الذى نمت منه أنبل الصفات الإنسانية التى كان لها شأن عظيم فى تغيير حالة العالم[٥].

ومن الحقائق التاريخية أننا مدينون إلى أبعد حد لحياة الأسرة بأعظم دين يمكن للعقل الإنسانى تصوره. فإن أصداء ماضينا نفسها الآتية من أزمان سحيقة تنادينا فى صراحة بالاعتزاز والاحترام والمحافظة على علاقة الأسرة، المدينة لها حياة الإنسان بهذا الدين الجليل.

٥ - القوة والأخلاق

لقد صارت حياة الإنسان فوق الأرض بسبب ذلك. «الانتقال العظيم» عراكًا مستمرًا بين المثل العليا الجديدة فى إنكار النفس (الأمر الذى لم يكن ظهوره إلا بالأمس القريب) وبين شهوة حب القوة الشديدة التأصل والقديمة قدم الجنس الإنسانى نفسه.

فإن حب الإنسان للقوة أقدم بكثير جدًا من العصر الأخلاقى، ولذلك كانت القوة هى المنتصرة انتصارًا خطرًا على الضمير والخلق المولودين حديثًا، لدرجة

أننا صرنا أمام معضلة خطيرة، هى مسألة بقاء المدنية. ولقد لخص «السير الفريد إيونج» (Sir Alfred Ewing) مركز الإنسان الحالى فى خطاب الرياسة الذى ألقاه أمام مجمع تقدم العلوم البريطانى فيما يأتى: «لقد وضع فى يديه (يعنى الإنسان) قيادة الطبيعة قبل أن يعرف كيف يقود نفسه».

وإنى مقتنع تمام الاقتناع بأن تصور «الماضى الجديد» على حقيقته كفيل بالتأثير فى سلوك الفرد. أما أن الأمم أو البشرية بأكملها ـ بعد أن تدرك حقيقة هذه الصورة ـ تستطيع أن ترى فيها مؤثرًا قويًا يكفل حقيقة شفاء غلة الأحقاد الدولية، أو يأتى بما هو أعظم من ذلك من توثيق عرى المودة والمراعاة الكريمة، فهو أمر تحوطه الشكوك الخطيرة.

ولقد أبدى المستر «هـ. ج. ولز» (H. G. Wells) تفاؤلاً كبيرًا فى تصريحاته عن هذا الموضوع. وكنت أود أن أشاركه تفاؤله، غير أنى لما كنت قد قضيت سنين عدة أتأمل فى خلالها كل يوم تقريبًا آثار القوة البشرية، فقد ترك ذلك فى نفسى شعورًا ليس من السهل على محوه.

وقد كنا نرتقب فى هذه الصفحات ارتقاء مميزات الروح البشرية المبكرة مع الاهتمام بوجه خاص فى عملنا هذا بملاحظة ظهور القيم العليا. غير أنه من جهة أخرى كان فى مقدورنا أن نستعين بعدد عظيم من الآثار القديمة لتكشف عن الجانب الآخر لتلك الصورة، وبخاصة عن أعظم قوة مضادة لتلك القيم، وأعنى بذلك ازدياد شراهة الإنسان لحب الاستئثار بالسلطة كلما ارتقى النظام القومى، إلى أن صارت آلة الحكومة البشرية هى التعبير المنظم عن التعطش للسلطة ـ أى الشهوة الحافزة على استعمال القوة.

وقد تأثرت فى خلال تجوالى فى أنحاء الشرق الأدنى عدة سنين بالحقيقة الساطعة الآتية وهى: «إن الآثار التى لا تزال باقية فى جميع تلك البلاد النائية كانت قبل كل شىء عنوانًا لمدى قوة الإنسان». فكأن عراكه مع عوامل الطبيعة ـ وهو عراك يسير فى طريقه من مدة بعيدة يحتمل تقديرها بنحو مليون من السنين ـ قد أشربه شعورًا عدائيًا بأنه لا يمكنه أن يفوز بغرضه إلا بالمحاربة على

طول الخط كما كانت حالته مع قوى الطبيعة المناوئة التى كانت تنازله من كل جانب، وبهذه الروح نفسها كان ينازل إخوانه من بنى البشر عندما انتهى الأمر بقيام ذلك النزاع الطويل على السيادة بين أقدم الأمم وفى أيامنا هذه قد تدخل إلى أحد الأودية المهجورة فى «سينا» فتواجهك هناك على حين غفلة صورة فرعون طويل القامة نقشت فوق واجهة جدار الصخر. وقد ظل الفرعون واقفًا هناك منذ القرن الرابع والثلاثين ق. م.[٦] ممثلاً فى هذه الصورة التى هى أقدم الآثار التاريخية فى العالم، وهو واقف بسلاحه شاهرًا إياه مما يُشعر أنه على وشك تحطيم جمجمة أحد الأسرى الأسيويين، وقد أرغمه على أن يجثو على ركبتيه أمامه. وهذا الأثر الدال على القوة الغاشمة كان إعلانًا للتملك بحق الفتح، نقش هناك بمثابة قاطع للأسيويين ينذرهم بأن ملك مصر قد عبر من إفريقيا إلى أسيا واستولى على مناجم النحاس والفيروز المحيطة بذلك المكان. ففى هذه البقعة، التى فيها بدأت الآثار التاريخية والسجلات المدونة، نرى الاستيلاء على الموارد الطبيعية باعثًا أساسيًا للعمل القومى، ونرى الأثر المعبر عن ذلك يضرب على وتر نغمة القوة التى ظلت تسود التاريخ البشرى منذ ذلك العهد.

وعلى أثر انعقاد الهدنة فى أوروبا (فى سنة ١٩١٨م) مباشرة، بينما كانت الحرب الجزئية لا تزال مشتعلة فى نقط متفرقة فى غربى آسيا، قمت برحلة عند نهر الفرات فى وسط قبائل العرب المعادين، بقصد العودة إلى المدنية الغربية ثانية. وقد كانت بعثة «معهدنا الشرقى» أول جماعة من الغربيين حاولوا، منذ عدة شهور، عبور تلك الصحراء الغاصة باللصوص، من «بغداد» إلى البحر الأبيض المتوسط. ففى اليوم السابع من مغادرتنا «بغداد» دخلنا قلعة شاسعة الأرجاء واقعة عند منتصف نهر الفرات تعرف عند الأهالى الآن «بالصالحية»، وأما اسمها القديم فلم يكن معروفًا بعد. وحينما صرنا داخل جدرانها الضخمة ومررنا حول أحد أركانها، ظهر أمامنا فجأة جدار عال يملأ وجهه رسم فخم ذو ألوان عدة يشمل صورة جماعة مؤلفة من أحد عشر شخصًا بحجمهم الطبعى وهم عاكفون على الصلاة بخشوع. وقد وقفنا محملقين مشدوهين أمام تلك الأشكال العجيبة التى تنظر إلينا فى جد ووقار، وقد كشف عنهم فجأة كأنما قد استدعوا

بعزيمة سحرية صادرة فى فيافى تلك الصحراء الشاسعة الصامتة التى كانت تمتد تحت أقدامنا. وكان قد كشف عن ذلك الأثر قبل ذلك ببضعة أيام على يد جنود «الهند الشرقية الإنجليزية» أثناء التجائهم إلى هذا المكان للاحتماء من قبائل العرب المعادية الذين كانوا يحيطون بهم من كل جانب. وفى اليوم الثانى من قدومنا أخذنا نعمل بشغف بمساعدة هؤلاء الجنود أنفسهم، فكشفنا عن جدران أخرى عديدة، فظهر لنا فوق جدار منها ـ كان ينكشف أمامنا بالتدريج أثناء إزاحة الأتربة المتساقطة من فوقه ببطء ـ رسم طائفة من الجنود الرومانيين وعلى رأسهم قائدهم (التريبون) «يوليوس ترنتيوس»، فقد كتب اسمه أمام صورته فوق الجدار، وكان يؤم المصلين من جنود الحامية الرومانية التى كانت فى وقت ما تحتل هذا المعقل الصحراوى الماحل، الذى يقع على مسافة بعيدة خارج الحدود الشرقية التى توطدت نهائيًا للدولة الرومانية على نهر الفرات. وقد عثرت كذلك على نقش فى الصورة يبين بالإغريقية الاسم القديم لتلك المدينة المفقودة، وهو «دورا». ولم يعثر قبل هذا على أى أثر تصويرى يمثل وصول جنود الرومان إلى مثل هذا المدى شرقًا[٧].

ولقد كانت لحظة مؤثرة تلك التى تحققت فيها أننى وأنا فى قلب الصحراء السورية، على مسافة تقرب من ٣٠٠ ميل شرقى البحر الأبيض المتوسط، انظر إلى أى مدى شرقى بلغته قوة تلك العاهلية الحربية الهائلة التى كانت تمتد من الشطر الأسيوى الغربى وكل أوروبا حتى شواطئ الأطلنطى والجزر البريطانية غربًا مما يربى على مسافة ٣٠٠٠ ميل. وقد امتد خاطرى عندئذ بعيدًا إلى ما وراء الصحراء تجاه صور الفرعون العظيمة المنقوشة فوق جانب الصخر فى الوادى المهجور الواقع فى «سينا»، حيث نشأت أولى الآثار التى تمثل هذه القوة. ثم تعاقبت الأمم وقامت الدول الواحدة إثر الأخرى لمدة تناهز أربعة آلاف سنة حتى بلغت القوة ذروتها فى تلك الإمبراطورية الرومانية الضخمة التى امتدت من المحيط الأطلنطى غربًا إلى نهر الفرات شرقًا.

ومع ما فى كلمة «إثارة» من المبالغة، فإننا نجد فى النظر إلى مظهر تلك العظمة الباهرة التى بلغتها الدولة الرومانية ما يثيرنا حقًا، وذلك عندما نتأمل

فى الصورة المرسومة فوق ذلك الجدار ونرى فيها علم لواء الجنود الرومانية القرمزى اللون يحمله الدليل سائرًا به أمام أولئك الجنود الذين كانوا يقومون بالمحافظة على عظمة قوة الرومان الحربية فى فيافى هذه الصحراء فوق شواطئ نهر الفرات النائية فى هذا الزمن البعيد. وهذا الوقت، أى وقت وجود الرومان عند الفرات، يبعد كما ذكرت بنحو ٤٠٠٠ سنة إلى الوراء من عهد ذلك الأثر المهجور الذى أقامه الفرعون لنفسه فى مناجم النحاس بسينا. ومع ذلك فإنه فى نهاية هذه الآلاف الأربعة من السنين كانت القوة ـ ظاهرًا ـ هى العامل السائد فى حياة الإنسان السائرة فى سبيل التقدم.

وبعد أن مضى على ذلك الحادث بضعة أسابيع كنت جالسًا مع السير «هربرت صمويل» (Sir Herbert Samyel) أول حاكم بريطانى لفلسطين، فى الحدائق الجميلة بدار المندوب السامى البريطانى الواقعة فوق «جبل الزيتون». وكانت مدينة «أورشليم» المقدسة تقع خلفنا تجاه الشمس الغاربة، على حين كان أمامنا أخدود «وادى الأردن» و«البحر الميت» وخلفهما جبال «مواب» ذات اللون الأزرق واللون الأرجوانى، وقد صور «اللورد اللنبى» فى صورة حية انخفاض ذلك الشق الهائل فى قصة ذكرها لى عن حملته فى فلسطين. فقد أرسل إلى وزارة الدفاع ذات يوم رسالة هذا نصها:

«لقد أطلقت حاملات قنابلنا هذا الصباح قذائفها على المواقع التركية فى وادى الأردن وهى محلقة على ارتفاع ٦٠٠ قدم تحت سطح البحر».

على أن مصب نهر الأردن وسطح البحر الميت كانا يقعان على مسافة ٧٠٠ قدم تحت سطح هذه القاذفات، أى أن سطح «البحر الميت» يقع تحت مستوى سطح البحر بألف وثلثمائة قدم أما عمق البحر الميت نفسه فيبلغ ١٣٠٠ قدم من تحت سطح مياهه الملحة، وعلى ذلك يكون قاع «البحر الميت» منخفضًا عن مستوى سطح البحر بألفين وستمائة قدم، فهو بذلك يعد أسفل أخدود فى سطح الأرض، وتشرف عليه الجبال التى حول «أورشليم» التى بلغ ارتفاعها فوق سطح البحر بمقدار انخفاض قاع «البحر الميت» عن ذلك السطح. فالفرق إذًا يكون أكثر

من خمسة آلاف قدم أى ما يكاد يبلغ ميلاً بالضبط. فهذا المشهد حينما تشرف عليه العين من قمة «جبل الزيتون» يمثل صورة هائلة لتلك القوى المروعة التى أحدثته. فكأن يداً ماردة قد دست أصابعها الضخمة فى الأرض ففلقتها شطرين حتى تخلف عن ذلك أخدود يبلغ عمقه ميلاً كاملاً.

وحينما كنت أتأمل مع «السير هربرت» السالف الذكر هذا المشهد خيل إلينا أنه أكبر برهان مروع يمكن أن تقع عليه العين لتمثيل شدة القوى الطبيعية.

ولم يكن يوجد بعد أناس ما حينما انفلق ذلك الأخدود، وعندما ظهر الإنسان فوق وجه البسيطة كانت تعترضه قوى من هذا القبيل أينما حل. وقد كان التاريخ الأرضى يسير فى طريقه بفعل مثل هذه القوى، وإننا لنجد صدى لبعض أهوالها فى قصة «سدوم» و«عمورة»، إذ قد رأى أهل هذا الإقليم القدامى آلهتهم تتمثل فى مثل هذه الظواهر المروعة. وقد أدرك العبرانيون فى شخص تلك القوى البركانية التى كنا نطل عليها أقدم إله لبنى إسرائيل، وقد مضى وقت طويل قبل أن يُشربوا طبيعته المنطوية على تلك القوى المخيفة بصفات إنسانية تنطوى على المصادقة.

وبعد ذلك مددنا بصرنا إلى مسافة بضعة أميال شمالاً، وهناك فوق منحدرات تلال الأردن المشرفة على ذلك الأخدود المخيف رأينا تلك القرية الصغيرة التى كانت مسقط رأس «أرميا» ذلك النبى العبرانى وموطنه. لقد أشرف بنظره طول حياته على ذلك المنظر الهائل الذى يدل على قوة التطورات الطبعية وعنفها، ومع ذلك فإنه كان يشعر بعالم تلك القوى الباطنة التى كان يعتقد عدم فنائها، ونجد ذلك فيما عزاه من الأقوال إلى إلهه فيما يأتى:

«اجعل شريعتى فى داخلهم واكتبها على قلوبهم» (أرميا ٣١: ٣٣)

ولقد أثبت لنا ذلك المشهد فعلاً حقيقة ما قيل من أن ذلك الانتقال المدهش فى عالم القوى المحضة إلى عالم القيم الإنسانية التى لا تفنى، قد حدث فعلاً على وجه ما فى الشرق الأدنى القديم. وبينما كنا جالسين بعد ذلك مشرفين على قرية ذلك النبى «أرميا» الصغيرة، إذ حوّلنا أعيننا نحو الجنوب الغربى، عبر تلال

«يهودا» الماحلة التى يقع خلفها وادى نهر النيل، موطن أقدم شعب وصل إلى الشعور بقوة المثل العليا فى السلوك الخلقى ـ وهى المثل التى بدأت «الانتقال العظيم» ـ وتذكرنا أنه، قبل مولد «أرميا» بألفى سنة، كان حكماء الاجتماع المصريون أسبق الناس إلى إدراك قيم الأخلاق ومعرفة القيم القلبية الباطنة عند الإنسان، وكيف أن كتاباتهم قد انتقلت إلى فلسطين فأثمرت ثمرتها فى حياة العبرانيين. وبذلك صار الأنبياء العبرانيون، الذين نبهتهم الظواهر الاجتماعية التى نهضت فوق ضفاف النيل، منارًا يستضاء به فى كل أنحاء العالم.

وهنالك بدأنا ندرك بالتدريج مدى تأثير قصة البشرية الطويلة، على وجهها العام، حينما أخذت تنتشر بسرعة فى أقطار الشرق الأدنى القديمة.

وقد كانت ذكرى عظيمة عندما نظرت مرة ثانية فى خلال يوم آخر من قمة تل «أرماجِدّون» نحو الشمال عبر ذلك السهل ذى الطبقات المسمى باسم التل، وتأملت مرتفعات أراضى الجليل. فهنالك بين جبال قرية الناصرة لا بد أن الطفل عيسى كان يشرف كثيرًا على هذه الساحة التى كانت ميدانًا للحرب على مدى العصور، وقد كانت إذ ذاك ظلال السحاب تزحف وئيدًا فوق تلال الناصرة التى كان يخيم عليها الضباب مع أنها لا تبعد عنا إلا ثمانية أميال فقط. وكانت شرفات حصون «أرماجدون» تطل من تلك الأترية التى كنت واقفًا فوقها، وكانت أعمال الحفائر التى كنا نقوم بها وقتئذ فى ذلك المكان آخذة فى إزالة تلك الأترية، وكانت هذه الشرفات تشرف على كل ذلك السهل التاريخى، أما مدينة «أرماجدون» الحصينة التى تعد أثرًا من آثار تلك القوة البشرية فكانت لا بد ظاهرة للعيان من خلال تلال قرية «الناصرة»، وقد كانت تشرف طوال أزمان حكم القوة على مشاهد الفتح وسفك الدماء التى كانت تقع فى ذلك السهل الواقع أسفل منها ـ وهى أزمان كانت أسمى آلهتها آلهة العنف والتقتيل الذى كانت تبتهج به نفوس أمثال أولئك الأنبياء الأشداء كالنبى «إيليا». ثم قضت على ذلك بالتدريج تلك المثل العالية للسلوك الأخلاقى التى جاءت من وادى النيل، إلى أن أشرق نور ذلك الإله الرحيم فوق تلال «الناصرة»، وهو ما رآه ابن نجار يهودى المنبت[٨] نشأ فى قرية صغيرة من قرى «الجليل» تقع خلف حافة التلال الشمالية

بالضبط وتشاهد بجلاء من شرفات «أرماجدون». وكما كان النبى «أرميا» يشاهد وهو ينظر من خلال قريته فعل تلك القوى الطبعية الهائلة ويبقى فى الوقت نفسه متمسكًا بعقيدته فى القيم النفسية الباطنة، كذلك كان نبى قرية «الناصرة»، ذلك الشاب الذى شب وترعرع فيها، ترى عيناه كل يوم تلك المناظر التقليدية الدالة على وحشية القوة البشرية ويبقى مع ذلك متمسكًا بأهداب وحيه عن تلك المملكة الجديدة التى كانت قائمة فى قرارة نفسه. ففى فلسطين كان هذا الواقع هو الانتقال السامى من النبى «إيليا» إلى يسوع، ومن جال الكرمل و«أرماجدون» إلى قرية «الناصرة».

على أن الوصول إلى هذه الذروة الرفيعة فى فلسطين إنما أتى فى وقت متأخر نسبيًا، فهو ثمرة مهد لها الطريق ذلك الانتقال المبكر - وهو الذى سميناه «الانتقال العظيم» - والذى رفع الإنسان من النضال الذى كان مقتصرًا على الطبيعة ونقله إلى ميدان آخر جديد هو ذلك النزاع القائم بينه وبين نفسه للتغلب على روحه نفسها، واحتضان تلك القيم الجديدة التى تسمو به فوق عالم المادة فتكوّن مادة لحقيقة جديدة، وهى التى نسميها الأخلاق أو الخلق.

وقد رأينا أن العوامل التى كونت ذلك الانتقال المبكر نشأت فى مصر، ثم انتقلت منها إلى فلسطين، ثم إلى سائر أمم العالم التى ظهرت بعد ذلك. فلم يكن من باب مجرد الاتفاق والصدفة أن يتتبع التاريخ العبرانى أصول القومية العبرانية إلى وادى النيل، الأمر الذى نجد صدى تقاليده باديًا فى العقيدة المسيحية، حيث نجد فى الأسفار المسيحية ما يأتى: «من مصر قد ناديت ابنى».

وفى عهدنا الحاضر نبحث نحن أيضًا فى بلاد الشرق القديم عن أعمال الطبيعة وأعمال الإنسان، وفى القيام بجهاد جديد من المحاولة العلمية لاسترداد قصة كل منهما. ولكننا قد أدركنا مما مضى ما فيه الكفاية لأن يثبت لنا أن قصتهما واحدة، أى أن حركات الطبيعة وحياة الإنسان السائرة نحو التقدم هما فى الواقع فصول فى قصة واحدة عظيمة، وأن فى النظر إلى ذلك الأخدود المخيف الذى يتكون منه الآن «البحر الميت»، والذى يواجهنا فى صورة رهيبة

بسؤال «هيكل»، قد نجد جوابًا عليه ليس فى استطاعة العلوم الطبعية أن تقدمه. وهو جواب لا يأتينا إلا إذا تأملنا تلك التجارب البشرية التى قامت فى الشرق القديم، وأدركنا أن ذروة الكون السائر فى سبيل الارتقاء هى الأخلاق.

وقد كان الغرض الذى نرمى إليه فى هذا الكتاب هو تقديم الأدلة التاريخية على أن حركة الرقى البشرى الذى أنتج الأخلاق لم تتكامل بعد[٩]، وأنها لا تزال سائرة فى طريقها، وأن احتمالات مستقبلها غير محدودة، وأن الواجب يقضى علينا بأن نجعل ما لتلك الحقيقة الجديدة من أهمية خطيرة نصب أعيننا لتكون مؤثرًا عمليًا فى سلوكنا الأخلاقى. فإذا عملنا بذلك نصل إلى الاقتناع التام بأننا لا نعتمد فى حياتنا على مجرد حقائق تقليدية وتعاليم موروثة ربما كانت لا تكاد تتفق مع ميولنا، ولكن كلما انبثق نور الأخلاق فى ظلمة لم تكن تعرف مثل هذا النور من قبل، فكذلك لا نشك فى نمو ذلك النور حتى يضىء نواحى أخرى من الوجود لم تتحقق بعد فى العصور التى لم يسبر بعد غورها للآن، والتى إليها تتجه رؤيتنا المحدودة ولكنها لا تراها.

هوامش الخاتمة:

(١) مجلة مصورة هزلية أسست سنة ١٨٤١م. ولا تزال تصدر إلى الآن. وهى مشهورة بنكاتها وتندد فى صورة مضحكة فى انتقاداتها بالحالة الاجتماعية فى عصرنا.

(٢) أزفالد سبنجلر فيلسوف عصرى ألمانى الأصل. وقد ألف كتابًا عنوانه «أفول شمس الحضارة الغربية»، وقد استند كثيرًا على الحضارة المصرية وشاد بذكرها. انظر:

Das Undergang des Abends Lands

(٣) The Founfain, by Charles Morgn.

(٤) Education and the Social Order, London, 1932.

(٥) وقد جاء ذكر ذلك فى كثير من الآيات القرآنية الكريمة ففى سورة النحل: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ (سورة النحل: ١٦ : ٧٢) . وفى سورة الروم : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة الروم: ٣٠ : ٢١) .

(٦) لا شك أنه يقصد بذلك الملك «سمرخت» أحد ملوك الأسرة الثانية المصرية القديمة. انظر كتاب مصر القديمة الجزء الأول ص ٢٧٥.

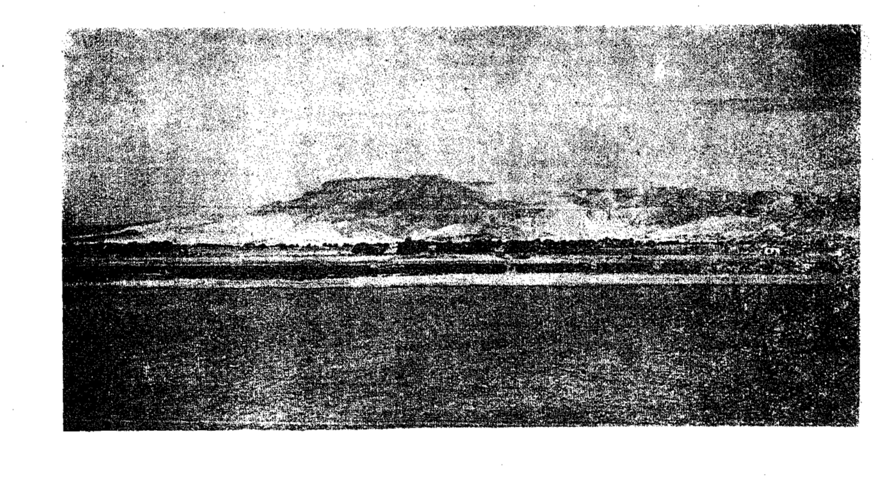
(٧) انظر كتاب المؤلف:

Oriental Forerunners of Byzantine Painting, (University of Chicago Press 1924).

وهذا الموقع تقوم فيه الآن حفائر منظمة ببعثة فرنسية أمريكية أرسلتها الأكاديمية الفرنسية.

(٨) هذه بالطبع عقيدة المؤلف، وقد رأيناها فى الصفحات الأخيرة تخالف أيضًا عقائدنا بشأن نشأة بعض الأديان وقدرها.

(٩) جاء فى الحديث عن النبى - ﷺ - جوابًا على قول من قال له فى غزوة «أحد» حينما كسرت رباعيته وجرحت وجنته حتى سقط فى إحدى الحفر «ألا دعوت الله على قومك كما دعا نوح على قومه». فقال - ﷺ - «ما لهذا بعثت وإنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق، اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون».



(الصورة رقم ١) الشاطئ الغربىّ عند طيبة

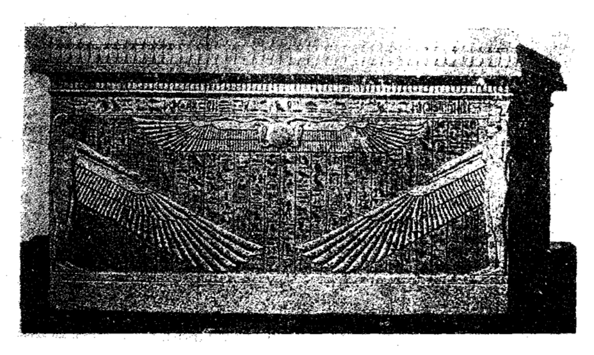
إن وادى النيل الضيق، الذى تشرف عليه المرتفعات ـ ومن ورائها هضبة صحراوية غير صالحة للسكنى ـ قد تكونت منه بيئة منعزلة منيعة، هيأت «معمل تجارب» اجتماعىّ لا مثيل له. وفوق الأرض السوداء التى تكونت من رواسب مياه النيل على جانبيه، بامتداد أكثر من ٧٠٠ ميل، نشأت أول أمة زراعية فى التاريخ، وبلغت عدتها عدة ملايين من الأنفس.



(صورة ٢) تمثال لتوت عنخ آمون فى صورة «أوزير» تحرسه «البا»

(روحه) من اليسار، و«الكا» (قرينته) من اليمين

هذا التمثال البديع المصنوع من الخشب لا يتجاوز طوله ١٢ بوصة، وهو مثال لجمال الصنع الذى امتازت به محتويات قبر توت عنخ آمون حتى أصغرها حجماً. وتدل النقوش المحفورة على قاعدته على أنه هدية جنازية قدمت للملك من مدير الجبانة الملكية.



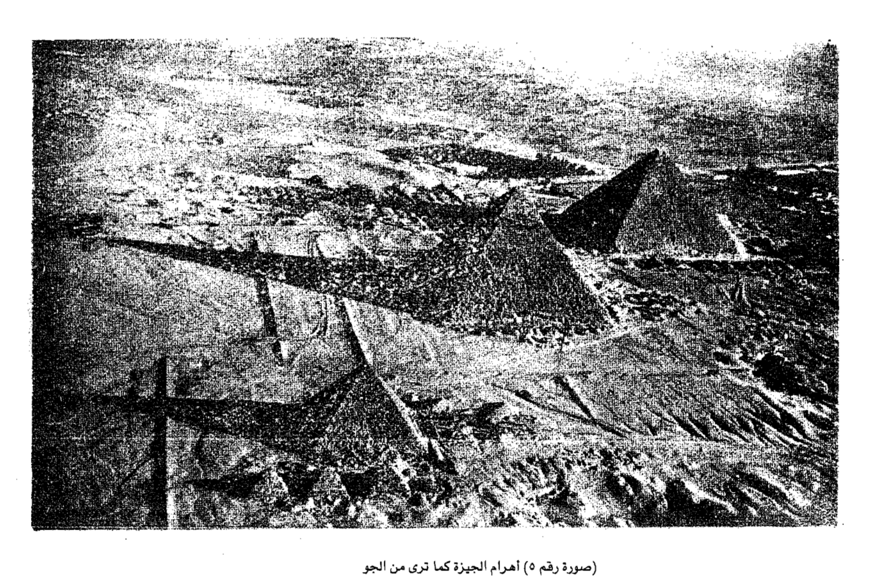
(صورة ٣) قرص الشمس المجنح: حلى به تابوت الملك «آى»

هذا التابوت الرائع المنحوت من قطعة واحدة من الجرانيت الأحمر قد صورت على أركانه أربع إلهات واقفات وقد نشرن أجنحتهن على جانبى التابوت لحمايتهما. ويزيد فى جمال كل جانب نقش بديع لقرص الشمس المجنح: «شمس العدالة... تحمل الشفاء فى جناحيها».



(صورة ٤) «بتاح الأعظم قلب الآلهة ولسانهم»

رأس تمثال من الجرانيت الأسود للإله «بتاح» معبود منف



(صورة رقم ٥) أهرام الجيزة كما ترى من الجو

الثلاثة الكبرى من هذه الأهرام شيدت لتكون مثوى أبديًا منيعًا لأجسام ثلاثة ملوك من الأسرة الرابعة بمصر القديمة (بعد سنة ٢٩٠٥ ق. م) أما الأهرام الصغيرة فهى لأعضاء من الأسرة المالكة، كما أن القبور الأخرى كانت لرجال البلاط.



(صورة رقم ٦) قمة هرم أمنمحات الثالث بدهشور.

العينان ـ اللتان هما عينا الملك ـ تتجهان شطر الشمس عند شروقها فتستطيعان بذلك «رؤية جمال الشمس». أما النقوش المدونة بأسفلهما فراجع بشأنها ما جاء فى صلب الكتاب ص ٧٤.

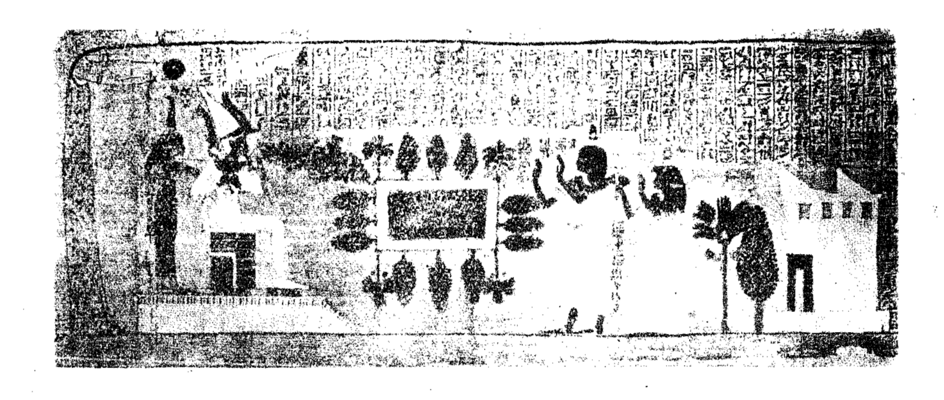
(عن حجر القمة الموجود بدار الآثار المصرية).



(صورة رقم ٧) (على اليمين): إله الشمس مشرقًا فى شكل صقر:

عن صورة (Vignette) ملونة من كتاب الموتى

المنحنيان المثبتان فى أسفل الصورة يمثلان الصحراء الرملية التى رسمت فوقها مرتين السيدة «إنهاى» المتوفاة فى شكل طائر برأس آدمى (با) واقفة فوق سطح قبرها. وقد رفعت ذراعيها كما رفع جميع من فوقها فى الصورة أذرعهم أيضًا ـ تعبدًا لإله الشمس وقد صعد من الصحراء فى صورة صقر بديع الشكل يعلو رأسه قرص الشمس



(صورة رقم ٨) أحد السادة المصريين وزوجته وهما يتعبدان أمام «أوزير» فى عرشه

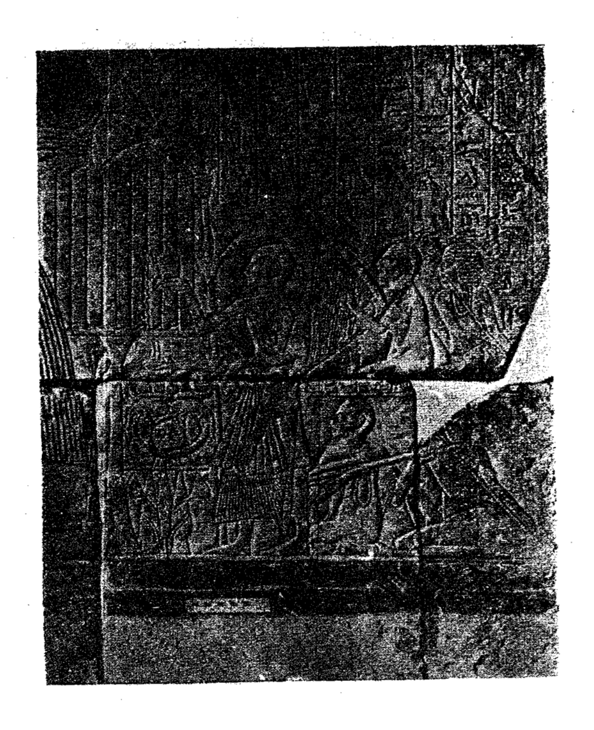
هذه الصورة الجميلة المنقولة عن بردية جنازية، تمثل المتوفى وقد خرج من منزله (إلى اليمين) وأخذ يجتاز حديقته إلى حضرة الإله الأعظم (إلى اليسار) الذى وقفت فى حضرته «ماعت» إلهة الحق. وقد كان المصرىّ ينتظر أن يجد فى الآخرة منزلاً وضيعة شبيهين بما كان يملكه فى هذه الحياة الدنيا. ومن معالم المنزل المصرىّ القديم النموذجىّ أن يكون شاملاً مسكنًا وبركة مستطيلة تحف بها الأشجار. وقد تمثل فى الصورة بوضوح كبير استحواذ «أوزير» بالتدريج على صفات إله الشمس: يظهر ذلك من وجود قرص الشمس فوق رأس «ماعت» ومن أنشودة الشمس التى كتبت فى النطاق العمودىّ الوارد بأعلى الصورة.



(صورة رقم ٩) رأس تمثال من الديوريت للملك خفرع

(من القرن التاسع والعشرين ق. م.)

لعل هذه أعظم صورة معبرة من عصر الأهرام. فهى تبرز بشكل قوى المعالم الفردية لهذه الشخصية السامية ـ الملك ـ فى عصر كانت فيه الشخصية ومعالم الفرد من الناس فى دور الظهور لأول مرة



(صورة رقم ١٠) العازف الأعمى وهو يغنى مع فرقته أغنية العازف على العود

وقف الكاهن يؤدى الشعائر الدينية أمام الأمير، الذى لم يظهر فى الصورة (إذا كان مكانه فى الجزء الذى فقد منها من اليسار) بينما كانت الفرقة الموسيقية تعزف الموسيقى المرافقة لأغنية «العازف على العود» وهى التى ألفاظها منقوشة بأعلى الصورة فوق رءوس الفرقة. وقد ضاع الجزء الأعلى من الأغنية، غير أن ما بقى منها يكفى لمعرفتنا أنها صورة من الأغنية نفسها الواردة فى البردية.



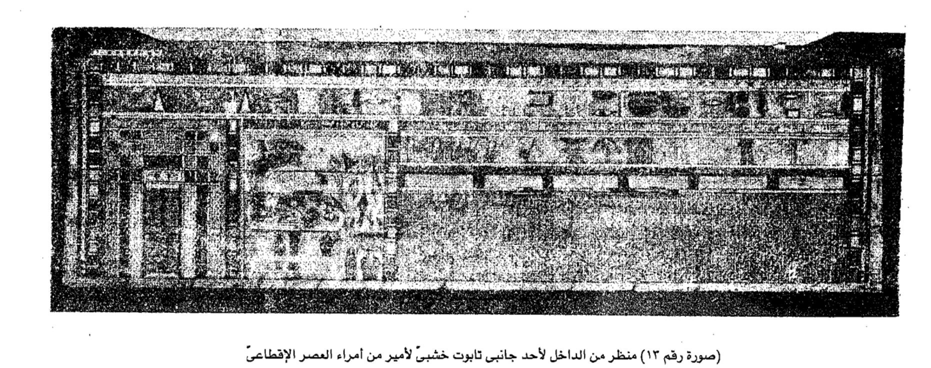
(صورة ١١) صورة للملك أمنمحات الثالث من العهد الإقطاعىّ بمصر القديمة

إن ما يتمثل فى الصورة من دلائل الحزم وضبط النفس وما تبرزه قسمات الوجه من أمارات الاهتمام، كل ذلك ينطق بأن صاحب التمثال ملك كله شعور بما يحمله من المسئوليات الخطيرة، وذلك فى عصر استيقاظ خلقى



(صورة ١٢) رأس من الحجر البركانىّ لأمنمحات الثالث

إننا نرى فى هذه الصورة تعبيرًا مجسمًا لتأثير زوال الأوهام الخادعة ويدل منظر الوجه المكتئب على أن صناع التماثيل الملكية أحسوا بتشاؤم الحكماء الاجتماعيين، وعبروا عنه ببراعة فائقة فى قسمات وجه الملك



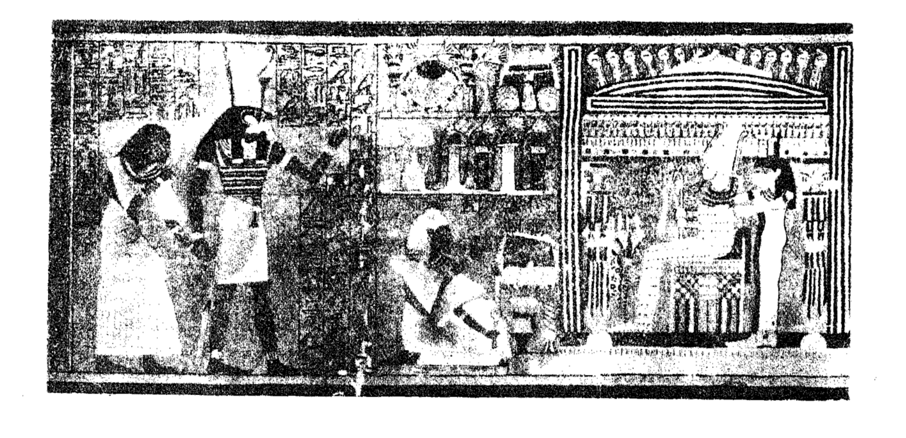
(صورة رقم ١٣) منظر من الداخل لأحد جانبى تابوت خشبىٍّ لأمير من أمراء العصر الإقطاعىّ

فى الجزء الأسفل من يمين الصورة كتابة فى سطور رأسية هى عبارة عن أجزاء من الأدب الجنائزىّ المعروف «بمتون التوابيت». وإلى أقصى اليسار نجد الباب الوهمىّ الذى تستطيع روح الميت الدخول والخروج منه. وكل هذه الموضوعات نقشت بالألوان على لوح سميك من خشب الأرز مكون لأحد جانبى التابوت.



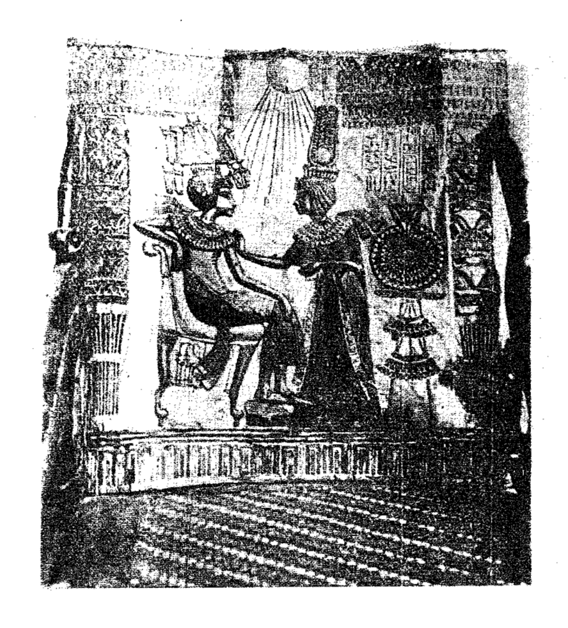
(صورة رقم ١٤) منظر المحاكمة فى الآخرة كما ورد فى كتاب الموتى: وزن القلب

نصب الميزان (فى الوسط) ويدير حركته (من اليمين «أنوبيس» (برأس ابن آوى). ومن خلفه المعبود «تحوت» الكاتب برأس «أبيس» (أبو منجل) ليدون الحكم، وفى أقصى اليمين تربض «الملتهمة» بشكلها المفترس تنتظر التهام الروح إذا صدر الحكم بأنها ظالمة. وإلى يسار الميزان يقف «شاى» (القدر) ووراءه إلهتا الولادة. وإلى اليسار من أسفل نرى «آنى» وزوجته يدخلان فى خشوع، ويحدق «آنى» بنظره إلى قلبه وقد وضع فى كفة الميزان اليسرى لموازنته فى الكفة اليمين بالريشة، التى هى رمز الحق أو العدالة. وفوق الميزان كتابة هى صلوات «آنى» يرجو فيها قلبه ألا يخونه. وفى أعلى الصورة صف من الآلهة القدامى يشهدون المحاكمة.



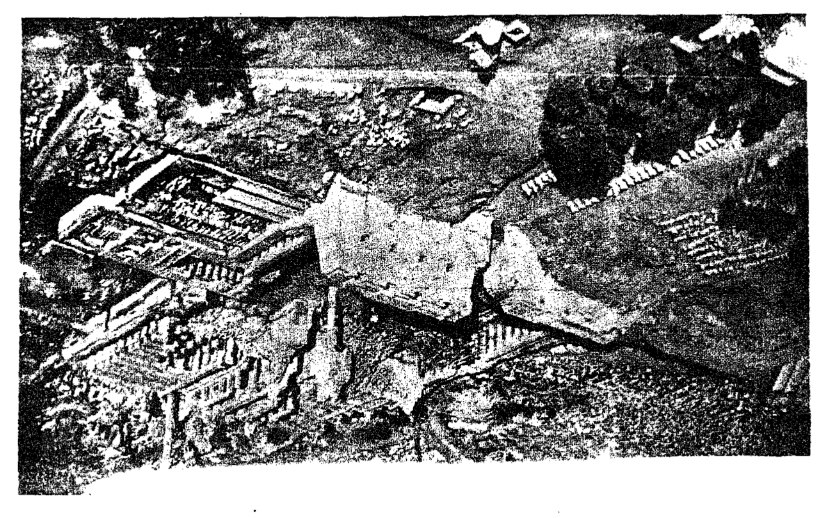
(صورة رقم ١٥) تابع منظر المحاكمة: المتوفى يقاد بعد تبرئته للمثول أمام «أوزير» وهو فى كرسى القضاء

أثبتت محاكمة الميزان (المبينة فى الصورة السابقة) عدم إدانة المتوفى. ونرى «آنى» فى الصورة مرتين : الأولى وهو يقوده «حوريس» ابن «أوزير» إلى حضرة الإله الأعظم، وفى المرة الثانية نراه راكعًا أمام عرش «أوزير» إجلالا للإله. ولأن «أوزير» هو إله الخضرة نرى جسمه هنا ملونًا باللون الأخضر الزاهى ويجلس فى كشك أخضر؛ ولأنه إله قد مات نراه ممثلاً فى شكل موميا، وتقف خلفه «إزيس» و«نفتيس». وعندما يدخل «حوريس» ممسكًا بيد «آنى» يعلن «أن قلب آنى برىء».



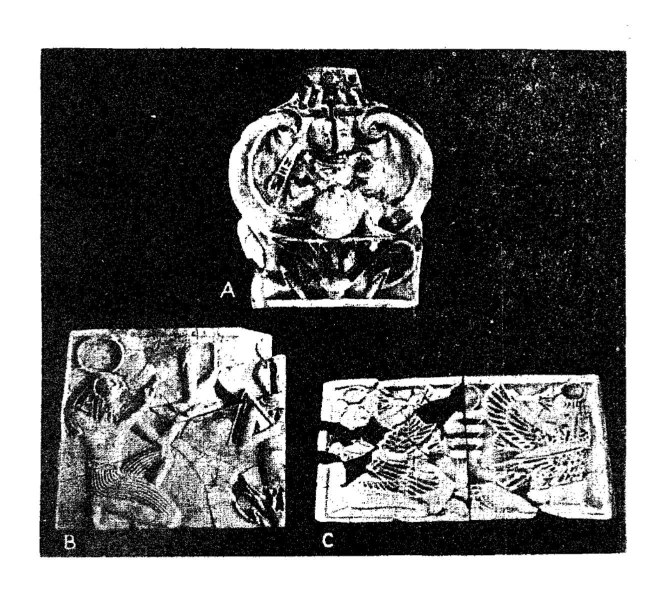
(صورة رقم ١٦) توت عنخ أمون وزوجته الملكة فى إحدى حجرات قصره

الملك الشاب وقد جلس فى استرخاء جلسة خالية من كل كلفة، مخالفاً بذلك كل التقاليد المرعية فى الصور الملكية وضارباً مثلا للتحرر الذى أتت به ثورة «أتون» فى الفن، وزوجته الملكة (ابنة إخناتون الثالثة) التى يغلب عليها مظهر الفتاة الصغيرة تميل نحوه فى رشاقة إلى الأمام، وقد أمسكت بإحدى يديها إناء عطور صغير، وبيدها الأخرى تصلح وضع عقد رقبته المزركش أو تعطره - فهو منظر للعلاقات الشخصية عبرت عنه الصورة تفصيلا وإجمالاً فى رشاقة وإبداع. وفى أعلى الصورة نرى رمز معبود إخناتون - قرص الشمس - وقد ظهرت أشعته منتهية بأيد بشرية، وذلك رمز جديد يظهر التحرير الذى أتت به ثورة أتون فى شئون الدين. وأرضية الصورة صفحة سميكة من الذهب، أبرزت عليها الملابس بالفضة وأجزاء الجسم بالزجاج المائل إلى الحمرة، أما الحلية التفصيلية فقد رصعت أجزاؤها بأحجار ثمينة زاهية الألوان مثل العقيق، ويتألف من الجميع منظر رائع كان فى وقته غاية فى التلألؤ، وقد خف سطوعه الآن بمضى العصور. والصورة منقولة عن عن ظهر كرسى عثر عليه فى قبر توت عنخ أمون.



(صورة رقم ١٧) معبد «أمون» الأعظم بالكرنك كما يرى من الجو

يرجع تاريخ المؤسسات الأولى لهذا المعبد إلى القرن العشرين ق. م. على الأقل. وابتداء من عهد الملوك الأوائل فى الماهلية (القرن السادس عشر ق.م.) جرى ملوك مصر على إحداث شىء من الزيادة فى مبانيه أو تجميله.



(صورة رقم ١٨) نقوش بارزة على العاج تمثل بعض الآلهة المصرية من قصر الملوك العبرانيين بمدينة «سامرة»

وهى عبارة عن بعض النقوش الزخرفية المطعمة التى حلى بها بعض الأثاث بقصر ملوك الشمال العبرانيين (قرابة ٨٥٠ - ٧٥٠ ق. م.) وهى مثل من البذخ الملكى الذى نهى عنه الأنبياء العبرانيون. فالشكل A يمثل الطفل «حور» عند ظهوره من زهرة السوسن. والشكل B يمثل إله الشمس برأس صقر وعلى رأسه قرص الشمس، وهو يتقدم لإلهة العدالة «ماعت» الجالسة أحد أشكال «شمس العدالة». والشكل G يمثل الإلهتين «إزيس» و«نفتيس» (المجنحتين) تحميان رمز «أوزير»



(صورة رقم ١٩) فى ظل الجناحين

هذه الرسوم البارزة على أحد جدران معبد «مدينة هابو» بالأقصر تمثل إله الشمس فى صورة صقر يحمى بجناحيه المبسوطتين فوق رأس «رمسيس الثالث: آخر ملك عظيم فى العاهلية المصرية القديمة وهو يخاطب وزيره الأول وغيره من رجال حكومته. وقد رأينا مثل هذه الحماية من الصقر الشمسى ممثلة فوق رأس «خفرع» قبل ذلك بأكثر من ١٦ قرناً (صورة ٩)، وقد ورد ذكر هذه الحماية الإلهية (ظل الجناحين) فى المزامير (العبرانية) أربع مرات (المزامير ١٧- ١٨ و ٣٦ - ٧ و ٥٧ - ١ و ٦٣ - ٧).

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
www. egyptianbook org.eg
E - mail : info@egyptian.org.eg

شغف "برستد" فى بادئ حياته بدرس تاريخ الشرق القديم عامة، ولكن لما اشتد ساعده مال بكل نفسه وروحه لدرس تاريخ مصر وحضارتها وأنفق فى سبيل الوصول إلى معرفة مكانة مصر بين دول العالم القديم ما يربو على ألف ألف جنيه جمعها من رجالات أمريكا الذين يشجعون العلم والبحوث القديمة، وقد انتهى به البحث بعد درس حضارات الأمم الشرقية القديمة كلها إلى أن مصر أصل مدنيات العالم ومنبت نشوء الضمير والبيئة الأولى التى نمت فيها الأخلاق فهو - إذاً رجل عظيم كشف عن ماضى أمة عظيمة.

الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠ جنيهاً


ISBN# 9789774218095
6 221149 020498